

بدائع الزهور في وقائع الدهور

الجزء الأول

القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ يَسَّرْ وَأَعِزِّ

٣

الحمد لله الذي قوت بين العباد ، وفضل بعض خلق على بعض ، حتى في الأمكنة
والبلاد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، أفصح من نطق بالضاد ، وعلى آله وصحبه
السادة الأجناد ، وفقنا الله لما يحبّه ويرضاه ، وجعلنا ممن يحمد قصده على دفع قضاء .
وبعد ، فهذا جزء من كتابنا المؤلف في التاريخ ، الموسوم ببداية الدهور في وقائع
الدهور ؛ وقد أوردت فيه فوائد سنّية ، وغرائب مستعذبة مرضية ، تصلح لسامرة
الجائيس ، وتسكون للمنفرد كالأنيس .

٦

وقد طالعت على هذا التاريخ كتباً شتى ، نحو سبعة وثلاثين تاريخاً ، حتى استقام
لي ما أريد ، وجاء بحمد الله كالمدرّ المنضيد ، وفيه أقول :

طالع كتابي إن أردت خبراً عن مبتدا خبر الدهور بما جرى
فتراء كالمرآة تنظر في ما أبدى الزمان عجائبها بين الوري

١٢

وقد توخيت فيه أخبار مصر ، وأوردت ذلك شيئاً ، فشيئاً ، على الترتيب ، قاصداً
فيه الاختصار ، بخاء بحمد الله ليس بالطويل الممل ، ولا بالتصغير المختل ؛ وذكرت
فيه ما وقع في القرآن العظيم من الآيات المكرمة ، في أخبار مصر ، كناية أو تصريحاً ،
(٢ آ) ، وما ورد فيها من الأحاديث الشريفة النبوية ، في ذكرها .

١٥

وما خست به من الفضائل ، وما فيها من المحاسن دون غيرها من البلاد ،
وما اشتملت عليه من عجائب ، وغرائب ، ووقائع ، وغير ذلك ؛ ومن نزلها من أولاد
آدم ، ونوح ، عليهما السلام ، ومن دخلها من الأنبياء ، عليهم السلام .

١٨

(٢) بسم الله الرحمن الرحيم : بداية صفحة (١ ب) من مخطوط فاتح ١٩٧ هـ ، الذي نقل عنه
اثنان هنا فيما يلي ، وهو بخط المؤلف ابن إلياس ، ونرمز إليه في الحواشي بمخطوط « الأصل » ؛
وهذا المخطوط عبارة عن « الجزء الرابع » من كتاب « بداية الدهور في وقائع الدهور » ،
وذلك في تقسيم ابن إلياس لكتابه هذا .

(١٢) جرى : جراً .

(١٣) فعل ما : فعلما . || أبدى : أبدا .

- وَمَنْ مَلَكَهَا مِنْ مَبْتَدَأِ الزَّمَانِ ، مِنَ الْجَبَّارَةِ ، وَالْمَالِقَةِ ، وَالْيُونَانِ ، وَالْفِرَاعَةِ ،
وَالْقِبْطِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَمَنْ وَلِيَهَا فِي صُدْرِ الْإِسْلَامِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالنَّابِغِينَ ، رَضْوَانَ
اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ؛ وَمَنْ وَلِيَهَا مِنْ طَائِفَةِ الْإِخْشِيدِيَّةِ ، وَالْفَاطِمِيَّةِ الْبَيْهَقِيَّةِ ؛ وَمَنْ ٣
وَلِيَهَا مِنْ بَنِي أَيُّوبَ ، وَهُمْ الْأَكْرَادُ ؛ وَمَنْ وَلِيَهَا مِنْ مَلُوكِ التُّرْكِ وَالْجُرَّاكَةِ ، إِلَى وَقْتِنَا
هَذَا ، وَهُوَ افْتِتَاحُ عَامِ إِحْدَى وَتِسْعِمِائَةٍ .
- وَمَنْ كَانَ مِنْ الْحُكَمَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَالْقُرَّاءِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهَا ٦
مِنَ الصَّالِحِينَ وَالزُّهَّادِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْ الشُّعْرَاءِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْيَانِ النَّاسِ .
وَقَدْ بَيَّنْتُ ذَلِكَ فِي تَرَاجُمِهِمْ مِنْ مَبْتَدَأِ خَبَرِهِمْ ، وَذَكَرْتُ أَسْمَاءَهُمْ ، وَمُدَّةَ حَيَاتِهِمْ ،
إِلَى حِينِ وَقْتِهِمْ ، عَلَى التَّوَالِي ، حَسَبَ يَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ فِي مَوَاضِعِهِ مِنَ الشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ، ٩
وَمِنْ هُنَا نَشْرَعُ فِي الْكَلَامِ .

ذِكْرُ

- مَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ الشَّرِيفَةِ فِي أَخْبَارِ مِصْرَ ١٢
- فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « اهْبِطُوا مِصْرًا ، فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ » ؛ وَقَوْلُهُ تَعَالَى :
« وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتَهُ ، أَكْرِمِي مِثْوَاهُ » ؛ وَقَوْلُهُ (٣ ب) تَعَالَى ،
حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ » ؛ وَقَالَ تَعَالَى ، ١٥
حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ، وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ، أَفَلَا
تُبْصِرُونَ » ؟ ؛ وَقَالَ تَعَالَى : « وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبْأَأَ صَدَقَ » يَعْنِي مِصْرَ ، وَقَالَ
تَعَالَى : « اهْبِطُوا مِصْرًا ، فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ » ، الْآيَةُ . ١٨
- قَالَ ابْنُ زُوْلَاقٍ : ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِصْرَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ مَوْضِعًا ،
وَقِيلَ بَلْ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ مَوْضِعًا ، كُنْيَاةً أَوْ تَصْرِيحًا .

(٥) عَامِ إِحْدَى وَتِسْعِمِائَةٍ : هُوَ التَّارِيخُ الَّذِي فَرَّغَ فِيهِ ابْنُ لُبَّاسٍ مِنْ وَضْعِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ

كِتَابِهِ (مَخْضُوطٌ فَاتِحَ ١٩٧ : ٤) .

(٨) بَيَّنْتُ : ابْنُ لُبَّاسٍ يَعْنِي نَفْسَهُ .

- وقال تعالى ، حكاية عن عيسى بن مريم ، عليهما السلام : « وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » ، يعنى مصر ، قال ابن أسامة : وليس الربى إلا بمصر ، والماء حين يرسب ، يكون الربى عليها القرى ، ولولا الربى لفرقت القرى . ٣
- أخرج ابن عساكر في « تاريخ دمشق » عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أن عيسى ، عليه السلام ، كان يرى العجائب من المعجزات فى صفره ، ففشا ذلك فى اليهود ، فذمت به بنو إسرائيل ، تخافت عليه أمه من القتل ، فأوحى الله تعالى إليها أن تطلق به إلى أرض مصر . ٦
- وقال تعالى ، حكاية عن يوسف ، عليه السلام : « اجعلنى على خزانة الأرض » ، يعنى أرض مصر ؛ وقال تعالى : « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته ، أكرمى مشواه » ؛ وقال تعالى : « وأوحينا إلى موسى ، وأخيه ، أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا » . وقال تعالى : « وكذلك مكثنا ليوسف فى الأرض » ، يعنى مصر ؛ وقال تعالى : ١٢ « إن فرعون علا فى الأرض » ، يعنى أرض مصر ؛ وقال تعالى : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ، ويستخلفكم فى الأرض » ، يعنى أرض مصر ؛ وقال تعالى : « إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض » ، يعنى أرض مصر .
- وقال ابن عباس ، رضى الله عنهما : سميت مصر بأرض فى عشرة مواضع (٣ آ) ١٥ من القرآن العظيم ، وقيل ذكرت فى اثنى عشر موضعا من القرآن .
- وقال تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم » ؛ قال الكندى : ١٨ لا يعلم بلد فى أقطار الأرض ، أثنى الله تعالى عليه فى القرآن العظيم ، بالتمام الكريم ، غير مصر ؛ وقال تعالى : « فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » .
- قال أبو رهمه : كانت الجنات بحافى النيل ، من أوله إلى آخره ، فى الجانبين ٢١ جميعا ، ما بين أسوان إلى رشيد ، لا ينقطع منها شئ ، عن شئ ؛ وكان جميع أراضي مصر تروى يومئذ من ستة عشر ذراعا ، أعاليها وأسافلها ، لما دبروه من فناطر وجسور

بالحكمة ، لا ينقطع الماء عن الخلاجان صيفا ولا شتاء ، وكان بها سبعة خلاجان ، متصلة بعضها ببعض .

- وَأما المقام الكريم ، قال بعض علماء التفسير : المقام الكريم ، هو اليوم ؛ قيل ٣ كان بها ألف منبر من الذهب ، برسم الوزراء ، يجاسون عليها في المواكب .
وقال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » ؛ قال بعض علماء التفسير : المراد بالمكان المبارك فيه حول ٦ المسجد الأقصى « مصر » ، ولكن الآية أعم من ذلك ؛ وهذا القدر كاف هنا ، من آيات العظيمة ، في أخبار مصر .

٩ وأما ما ورد فيها من الأحاديث الشريفة النبوية

- فمن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم ، فى صحيحه ، عن أبى ذر ، قال (٣ ب) :
قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمّى فيها ١٢ القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإنّ لهم ذمة ورحما ، فإذا رأيتم رجلا يقتتلان على لبنة ، فخرج منها » ؛ قال : فرأى أبو ذرّ بريبة وعبد الرحمن ابني شرحبيل بن حسن ، يتنازعا في موضع لبنة ، فخرج منها .
وأخرج عبد الله بن عبد الحكم ، من طريق ابن داود أنه أفرى ، عن عمرو بن ١٥ العاص ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنّ الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإنّ لكم منهم ١٨ صهرا وذمة » ، وفى رواية : « فإنّ لهم نسبا وصهرا » .
قال مروان القعاص : صاهر القبط من الأنبياء ثلاثة ، وهم : إبراهيم ، عليه السلام ، تسرّ بهاجر ، أمّ ولده إسماعيل ، وكانت من قرية أمام مدينة الفرما ، من ٢١ قرى مصر ؛ ويوسف ، عليه السلام ، تزوّج بنت صاحب عين شمس ، وهى من قرى مصر .

ورسول الله، صلى الله عليه وسلم ، تسرى بمارية ، أم ولده إبراهيم ، وكانت من قرية أنصنا، من قرى الصعيد ، وكان اسمها مارية بنت شعون ، وكانت جميلة الصورة ، شديدة بياض اللون ، فأحبها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حباً شديداً ؛ ولما دخل عليها حملت منه بإبراهيم ، وعاش ثمانية عشر شهراً ، ولما مات قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « لو بقى إبراهيم ما تركت قبلياً إلا وضعت عنه الجزية » ، أخرج هذا الحديث عبد الله بن عبد الحكم ، عن (٤ آ) راشد بن سعد ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأخرج ابن عبد الحكم ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا فيها جنداً كشيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » ، فقال أبو بكر : « ولم يا رسول الله ؟ » قال : « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » ؛ أورد هذا الحديث ابن زولاق في فضائل مصر بلفظ : « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » .

وعن حيوة بن شريح ، عن عقبة بن مسلم ، يرفعه : إن الله تعالى يقول يوم القيامة لساكني مصر ، يعدد عليهم : « ألم أسكنكم مصر ، أفكنتم تشبعون من خيرها ، وتروون من ماؤها ؟ وهذا من باب تعداد النعم ، لا من باب التقرير ولا التوبيخ لهم .

وعن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنه ، قال : « قسّمت البركة عشرة أجزاء ، ففي مصر تسع ، وفي الأرض كلها واحد ، ولا تزال في مصر بركة أضعاف ما في جميع الأرضين » .

وعن أبي موسى الأشعري ، قال : « أهل مصر ، الجند الضعيف ، ما كادهم أحد إلا كفاهم الله موته » ؛ قال محمد بن ربيع بن عامر الكلاعي : « فأخبرت بذلك معاذ ابن جبل ، فأخبرني أن بذلك أخبره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » .

وروى في بعض الأخبار ، أن يوسف ، عليه السلام ، لما دخل مصر وأقام بها ، قال : « اللهم إني غريب فحببها إلي وإلى كل غريب » ؛ فمضت دعوة يوسف ، فليس

يدخل مصر غريب إلا أحبّ المقام بها ؛ قال بعض الحكماء : « الشرب من ماء النيل ، ينسى الغريب وطنه » .

وروى عن دانيال ، عليه السلام ، أنه قال لبنى إسرائيل : « اعملوا فإن الله تعالى (٤ ب) يجازيكم في الآخرة بمثل مصر » ، أراد الجنة .

وقال القرطبي في التذكرة ، من حديث حذيفة اليماني ، مرفوعاً : « يبدو الخراب في أطراف الأرض حتى تخرب ، ومصر آمنة من الخراب حتى تخرب البصرة ، وخراب مصر من جفاف النيل ، وخراب البصرة من العراق ، وخراب العراق من القحط ، وخراب مكة من الجبشة ، وخراب المدينة من الجوع ، وخراب اليمن من الجراد ، وخراب الأيلة من الحصار ، وخراب فارس من الصعاليك ، وخراب الترك من الديلم ، وخراب الديلم من الأرمن ، وخراب الأرمن من الخزر ، وخراب الخزر من الترك ، وخراب الترك من العوائق ، وخراب السند من الهند ، وخراب الهند من الصين ، وخراب الصين من الرمل ، وخراب الجبشة من الرجفة » .

وقال ابن عبد الحكم ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، قال : « خلقت الدنيا على خمس صور من أعضاء الطير ، الرأس والصدر والجناحين والذنب ، فالرأس مكة والمدينة واليمن ، والصدر مصر والشام ، والجناح الأيمن العراق ، والجناح الأيسر السند والهند ، والذنب ذات الحمام إلى مغرب الشمس ، وشر ما في الطير الذنب » .

قال كعب الأحبار ، رضى الله عنه : « لما خلق الله تعالى الأشياء ، قال العقل : أنا لاحق بالشام ، فقالت الفتنة : وأنا معك ، وقال الخصب : أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك ، وقال الشقاء : أنا لاحق بالبادية ، (٥ آ) فقالت الصحة : وأنا معك ، وقال الكبير : أنا لاحق بالعراق ، فقال النفاق : وأنا معك » .

قال الجاحظ : « خست القناعة بالبصرة ، والفصاحة بالكوفة ، والتخبيش ببغداد ، والفتى بالرى ، والجفاء بنيسابور ، والحسن بهراة ، والطرمة بسمرقند ، والمروءة ببلخ ، والتجارة بمصر ، والبخل بمر » .

- قال كعب الأحبار : « لولا رغبتي في بيت المقدس ما سكنت إلا مصر » ، فقليل له : « ولم ذلك » ؟ قال : « لأنها بلد معافاة من الفتن ، ومن أرادها بسوء أكتبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لأهله فيه » . ٣
- قال أبو بصرة الغفاري : « مصر خزائن الأرض كلها ، ولو زرعت كلها لوفيت بخراج الدنيا بأسرها ، ولو ضرب بينها وبين سائر بلاد الدنيا بسور ، لاستغنى أهلها بما فيها من الغلال وغير ذلك ، عن سائر البلاد جميعها » . ٦
- انتهى ما أوردناه من الآيات الشريفة ، والأحاديث النبوية ، في أخبار مصر ، ومعول في صحة هذه الأحاديث والأخبار ، بما أورده الشيخ جلال الدين الأسيوطي في كتابه المسمى بحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . ٩

ذكر

اشتقاق مصر ومعناها ، وتعدد أسمائها ، والمعنى الذي من أجله

سميت الأرض بمصر ، وما السبب في ذلك

- قال المسعودي : سميت مصر بمصر بن مراكثيل بن دوائيل بن غراب ، وقيل عرناب ، بن آدم ، عليه السلام ، وهو مصر الأول ؛ وقيل بل سميت بمصر الثاني ، وهو مصرام بن قراؤش الجبار بن مصريم بن بيصر بن حام بن نوح ، عليه السلام ، وكان ذلك بعد الطوفان ؛ وهو اسم أعجمي لا ينصرف ؛ وقال آخرون : هو (ه ب) اسم عربي مشتق . ١٥
- وأما من ذهب إلى أن مصر اسم أعجمي ، فإنه استند إلى ما رواه أهل العلم بالأخبار ، من نزول مصريم بن بيصر بهذه الأرض ، وقسمها بين أولاده ، فعرفت به . ١٨
- وقال ابن عباس ، رضى الله عنهما : كان لنوح ، عليه السلام ، أربعة من الولد ، وهم : سام ، وحام ، ويافث ، وأرغند ، ثم إن نوحا ، عليه السلام ، رغب إلى الله تعالى بأن يرزقه الإجابة في ولده وذريته ، فصعد إلى جبل عال ، ونادى أولاده عند السحر ، (ه) لاستغنى : لاستغنى . ٢١

وهم نيام ، فلم يجبه أحد منهم ، إلا ابنه سام ، وابنه أرغشدد ؛ فلما حضرا بين يديه ، وضع يمينه على ابنه سام ، وشماله على ابنه أرغشدد ، وسأل الله تعالى أن يبارك في ابنه سام ، وأن يجعل من نسله الترك ؛ وأن يبارك في ابنه أرغشدد ، وأن يجعل الملك والنبوّة في أولاده ؛ ثم نادى ابنه حام ، فلم يجبه ، ولا أحد من أولاده ، فقال : « اللهم اجعل أولاده أذلة وعبيدا لأخيه سام » .

وكان مصرم بن بيسر بن حام نائما إلى جانب جدّه حام ، فلما سمع دعاء نوح على جدّه حام ، فقام مسرعا ، وجاء إلى نوح ، وقال : « يا جدّي ، قد أجبته ، وإن لم يجبك جدّي ، فاجعل لي دعوة من دعوتك » ؛ فوضع نوح يده على رأس مصرم ، وقال : اللهم إني قد أجاب دعوتي ، فبارك فيه وفي ذريته ، وأسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد ، وغوث العباد ، التي نهىها أفضل أنهار الدنيا ، واجعل منها أفضل البركة ، وسخر له ولولده ؛ ثم دعا ولده يافث ، فلم يجبه ، ولا أحد من ولده ، فدعا (٦ آ) عليه ، وقال : « اللهم اجعل نسله شرار الخلق » ، فكان من نسله يأجوج ومأجوج .

قال ابن عبد الحكيم : أول من سكن مصر بعد الطوفان ، مصرم بن بيسر بن حام ابن نوح ، عليه السلام ، وبه سميت مصر ، ومصرم هذا هو أبو القبط ؛ وكان اسم مصر قبل الطوفان : جزلة ، فلما جاء الطوفان وعي رسمها ، وعمرت بعد الطوفان ، فسميت : درسان ، أي باب الجنة ، لحسن ما كانت عليه من كثرة الثمار والفواكه ، وخصب الأرض ، وكثرة الزرع ، وإفلاحه بأراضي مصر .

قال علي بن محمد الحكيم الترمذي ، وليس بأبي عيسى الترمذي ، صاحب الجامع الصحيح : ذكر في كتاب نواذر الأصول ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، أنه قال : لما غرست الأشجار بمصر في أيام مصرم بن بيسر بن حام بن نوح ، عليه السلام ، فكانت ثمارها عظيمة جدّا ، بحيث أن الأترجة ، تشقّ نصفين ، ويحمل كل نصف ٢١ منهما على بعير ؛ وكانت القثاء ، في طول أربعة عشر شبرا ؛ وكان طول الطرف القرع ،

- ٣ ثلثين شبرا ؛ وكان طول البلحة الواحدة ، شبرا ؛ وكان العرجون الموز ، يَحْمَل ثمانية موزة ، وكل موزة منها رطلا ؛ وكان العنقود المنب ، إذا قطف من كرمه ، يحمل على بعير من عظمه ؛ وكانت الكمثرى ، زنة كل واحدة سبعمائة درهم ؛ وكانت الرمانة الواحدة ، إذا قشرت ، يقعد في قشرها ثلاثة أنفار ؛ وكانت البطيخة الواحدة ، زنتها ثمانون رطلا ؛ وكانت الحبة القمح ، قدر كاية البقرة ؛ وكانت الوردة الواحدة ، تحمل ألف ورقة ؛ وعلى هذا فقيس بقية الأصناف من الفواكه ، والحبوب ، وغير ذلك ؛ وكان هذا بدعوة آدم ، عليه السلام ، حيث (٦ ب) دعا لها بالبركة ، وكذلك نوح ، عليه السلام ، دعا لها بالبركة .
- ٩ قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : لازالت الناس ينقصون في الأرزاق والآجال في كل عام ، إلى وقتنا هذا ، من حين مبتدأ الزمان وإلى الآن .
- ١٢ قالت : ومصدق هذه الأخبار ، ما قاله الشيخ حسام الدين بن زكي الشهرزورى ، قال : كان بالواحات الداخلة شجرة نارنج ، يقطف منها في كل سنة نحو أربع عشرة ألف نارنجة ، ما سوى ما يتناثر من الريح ، وما هو أخضر .
- ١٥ قال الشيخ تقي الدين المقرئى ، صاحب « الخطوط » : فلما سمعت بذلك أنكرته ، ولم أصدق له رايته ، فقد رآنى سافرت إلى الواحات الداخلة ، وشاهدت هذه الشجرة ، فإذا هى قدر جيزة كبيرة ، فسألت مستوفى الناحية عما تطرح في كل سنة ، فأخضر لى قوائم تتضمن لذلك ، فتصنع حبها ، فإذا فيها : قطف منها في سنة إحدى وسبعمائة ، أربع عشرة ألف نارنجة ، صفراء مستوية ، سوى ما بقى عليها من الأخضر ، وما تناثر من الريح ، فتعجب من ذلك غاية العجب ، انتهى ذلك ، فهذا بقية ما كان بمصر من العجائب .

(٣) زنة : زنت .

(١١) قلت : ابن عباس يعنى نفسه .

ذكر

حدود أرض مصر وجهاتها وأقطارها

- ٣ قال صاحب « مباحج الفكر ، ومناهج العبر » : إن حد إقليم مصر ، من ثغر أسوان إلى العريش ، مسافة ذلك في الطول ، نحواً من ثلاثين مرحلة ؛ وحدّها عرضاً ، من مدينة برقة ، إلى ساحل البحر الروى إلى إيالة ، التي على ساحل بحر القلزم ، مسافة ذلك عشرون (٧ آ) مرحلة .
- ٦ قال أبو الصلت أمية الأندلسي : إن حد إقليم مصر في الطول ، من مدينة برقة ، إلى عقبة إيالة ، وذلك نحو أربعين مرحلة ؛ ومسافة حدّها في العرض ، من مدينة أسوان ، من أعمال الصعيد ، إلى العريش ، عند الشجرتين ، والخفائر التي هناك .
- ٩ وقال ابن حوقل في كتاب « الأقاليم » : إن حد إقليم مصر الشمالي ، من برقة إلى منتهى الواحات السبع ، ويمتد إلى بلاد النوبة ، من حد أسوان إلى منتهى بحر الروم ، عند ثغر دمياط ، إلى ساحل رشيد ، إلى الإسكندرية ، آخذاً جنوباً إلى ظهر الواحات ، إلى حدود النوبة ؛ والحدّ الشرقي من بحر القلزم قبالة أسوان ، إلى عيذاب ، إلى القصير ، إلى تيه بنى إسرائيل ؛ ثم يعطف شمالاً ، إلى بحر الروم ، من عند الخفائر التي هناك ، خاف العريش ؛ وينتهى إلى ثغر دمياط ، إلى رشيد ، والإسكندرية ؛ ثم يعطف إلى برقة من الساحل حيث ابتداء منه ، انتهى ذلك .
- ١٥ قال أبو الصلت أمية الأندلسي : كان إقليم مصر متّصلاً بالهارة على شطى النيل ، كلّها مدينة واحدة ، مشتمكة بالأشجار الثمرة ، والفواكه اليانعة ، والقرى العامرة ، حتى كان المسافر يسير من ثغر الإسكندرية ، إلى مدينة أسوان ، بلا زاد ، بل يسير في ظلّ من الأشجار ، وقرى عامرة ، لا يحتاج فيها إلى زاد يحمله معه ، انتهى ذلك .
- ١٨

ذكر

عجائب مصر والتي كانت بها من الطلسمات والبرابي وغير ذلك

- ٣ قال القضاى: ذكر الجاحظ أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة ، عشرة منها فى سائر الدنيا ، (٧ ب) والباقي منها بمصر ؛ فلذى فى سائر البلاد ، وهى : مسجد دمشق ، وقصر غمدان ، وكنيسة رومية ، وصنم الزيتون ، وإيوان كسرى بالمدائن ، وبيت الريح بتدمر ، والجوزين ، والسدين بالجزيرة ، والثلاثة أحجار ببعابك ، وهى بيت الكواكب السبعة ، لكل كوكب منها بيت بها ، وكنيسة الرها ، وقنطرة طنجة .
- وأما بقية الأعاجيب ، العشرون أعجوبة بمصر ، فمن ذلك : الهرمان ، وهما بالجزيرة ، وطولهما أربعمائة ذراع ، كأنهما جبلان قائمان فى الهواء ؛ قال بعض الحكماء : ليس من شئ ، إلا وأنا أرحمه من الدهر ، إلا الهرمين ، فإننى أرحم الدهر منهما ، ومنها صنم الهرمين ، الذى يقال له عند العوام : أبو الهول . يقال إنه طلسم للرمل ، لئلا يملب الرمل على طين برّ الجزيرة ، وكان طوله نحواً من سبعين ذراعاً ، ولكن طمّ بالرمال ، وكانت العائبة تخرج إلى أبي الهول ، وتقرّب إليه الديوك البيض ، ويخترن حوله بالخصى لبيان الشرب .
- ١٥ وكان يقابل هذا الصنم ، صنم آخر فى برّ مصر ، عند قصر الشمع ، وكان عظيم الخلق ، متناسب الأعضاء ، وهو من الصوان المناع ، على هيئة امرأة ، وفى حجرها مولود من الصوان أيضاً ، وكان الناس يسمونه سرية أبي الهول ، ويقال لو وضع على رأس أبي الهول خيط ، ومدّ إلى ذلك الصنم ، لذى يقال له السرية ، لكان على رأسهما مستقيماً .
- ٢١ ويقال إن أبا الهول طلسم للرمل يمنعه عن العاين ، وإن صنم السرية طلسم الماء يمنعه عن برّ مصر ، لئلا يهدم أملاكها ، وكان لهما حكمة ؛ وقد كسر الصنم الذى يقال

(٥) كسرى : كسرة .

(١٨) ذلك : تلك .

(١٨ و ٢١) لذى : التى .

له السرية ، سنة إحدى عشرة وسبعائة ، كسره الملك (٨ آ) الناصر محمد بن قلاوون ، وعمل منه قواعد وأعتاب للجامع الجديد لما بناه .

ومنہا بربا سنمود ، وهو من جملة الأعاجيب ، ذكر عمر السكندی ، قال : خزن بعض عمال الناحية فيه قرطا ، فرأيت الجمل إذا دنا من بابه ، وهو يحمله ، تساقط كل ديب كان في القرط ، قبل أن يدخل من باب البربا ، ولكن خرب عند سنة خمسين وثلاثمائة .

ومنہا بربا أنخيم ، عجبا من العجائب ، بما فيه من الصور والعجائب ، وكان به صور الماوك الذين يملكون مصر ، وكان ذو النون المصري يقرأ ما على حيطان هذه البربا من الحكم والعجائب ، فأفسد أكثرها ، وسد بابها ،

ومنہا بربا دندرة ، وهو بربا عجيب ، فيه ثمانون كوة ، تدخل الشمس كل يوم من كوة منها ، حتى تنهس إلى آخرها ، ثم تكرر راجعة إلى موضع بدأت منه .
ومنہا حائط العجوز ، من العريش إلى أسوان . تحيط بأرض مصر ، شرقا وغربا .

ومنہا انمار الذي كان بالإسكندرية ، وما فيه من العجائب ، وما كان يشهر الإسكندرية من الملعب ، وعمود السوارى ، وبناء المدينة ، وما كانت عليه من العجائب من قديم الزمان .

ومنہا الساسيان ، وهما جبلان قائمان على سرطان من نحاس ، في كل ركن من أركانه سرطان ، وكان له حكمة .

ومنہا عمودا الأعياء ، وهما عمودان ملقيان ، ووراء كل عمود منهما جبل حصي ، كحصي الجمار ، فإذا دنا منهما إنسان ، ورمى سبع حصيات ، ولا ياتفت خلفه ، ويحمل أحدهما ويمضي به خطوات ، فلا يحس بثقله أبدا .

ومنہا القبة الخضر (٨ ب) ، وهي من أعجب الأشياء ، ملبسة بنحاس أصفر ، كأنه الذهب الإبريز ، لا تتغيره الليالي ، ولا الأيام ، وكانت تضيء في الليل المظلم ، حتى يهتدى المسافر إلى الطريق على ضوءها .

- ومنها منية عقبة ، وما كان بها من العجائب ؛ وقصر فارس ؛ وكنيسة أسفل الأرض ، وهي مدينة على مدينة ، ليس على وجه الأرض مدينة بهذه العنفة، حتى قيل إنهما إرم ذات العماد . ٣
- ومنها الثلاثة جبال المطلة على بحر النيل، وهم: جبل الكهف ، وجبل الطيلمون ، وجبل الساحرة .
- ومنها شعب البوقيرات ، بناحية الأشوينين ، وهو شعب في جبل فيه صدع، تأتبه البوقيرات في يوم معلوم من السنة ، فتعرض نفسها على ذلك الصدع ، فكلما أدخل بوقير منها منقاره في الصدع، يمضي، فلا تزال تفعل ذلك حتى يستلقى الصدع على بوقير منها، فيحبسه، وتمضي عنه البوقيرات إلى حل سبيلها، فلا يزال معاقا بمنقاره في الصدع ، حتى يموت ويتساقط ، وهذا من العجائب . ٦
- ومنها العمودان اللذان بمدينة عين شمس ، المعروفان الآن بالمطارية ، وكان طول كل عمود منهما نحو خمسين ذراعا ، فإذا دخلت الشمس دقيقة في برج الجدى ، تطلع على قمة رأس أحدهما ، وهو منتهى قصر النهار ؛ وإذا دخلت الشمس دقيقة في برج السرطان ، وهو منتهى طول النهار ، تطلع على قمة رأس الآخر ؛ وهما اللذان يقال عنهما منتهى الميلين ، وخط الاستواء ؛ وقد سقط العمود الثاني سنة خمسين وسبعمائة ، وبقي هذا الواحد منهما ، ويقال له اليوم « مسلة فرعون » . ١٢
- ومنها مدينة منف ، وما كان بها من العجائب والرخام ، والدقائن والكنوز ، وغير ذلك (٩ آ) من آثار الملوك القدماء ، من الجبابة والفراغة ، وأمرها مشهور، وهي أول مدينة عمرت بأرض مصر بعد الطوفان . ١٨
- ومنها مدينة الفرما ، وهي أكثر عجائبا من غيرها ، وكان منها طريق سالكة إلى جزيرة قبرص ، ولكن غاب عليها البحر المالح فطمها ؛ وكان بها مقطع الرخام الغرابي ، والرخام الأبيض ، فقلب عليهما الماء ؛ وكان بها النخل الذي يشمر حين ينقطع البسر والرحب من سائر الدنيا ، وكان وزن كل بسرة منها نحو عشرين درهما ، وطول (٢٢) المذى : التي . ٢١

كل بسرة شبرا ، وهى المدينة التى قال يعقوب ، عليه السلام ، لبنيه : لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ؛ ولكن خربت فى دولة الفاطميين ، عندما هجم الفرنج على أخذ بيت المقدس ، سنة تسع وخمسمائة .

٣

ومنها مدينة الفيوم ، التى قد دبرت بالوحى ، على يد يوسف ، عليه السلام ، وأحكمها على ثلثماية وستين قرية ، على عدد أيام السنة ، لتغل كل قرية منها على أهل مصر يوما ، وكان انتهاء العمل منها فى سبعة أيام ، فتعجب الناس من ذلك ، وقالوا : هذا كان يُعمل فى ألف يوم ، فسميت من حينئذ الفيوم ؛ وكان بالبرك التى بها سمك يسمى الخيزوم ، وهو الباطى ، وقد ورد فيه حديث ، أنه يتبع أوراق الجنة فى أوائل منبع النيل فيريها ، وكان من عاسن مصر ، ولكن انقطع من هناك لما دخل قرن التسعمائة .

٦

٩

ومنها النيل ، وهو من أعظم عجائبها ، فى تقصانه فى الشتاء ، وزيادته فى الصيف ، ومنافعه تعم سائر البلاد ، لما يجلب إليها من الغلال ؛ وبه أعجوبة ، وهو البرزخ الذى عند ثغر دمياط ، لأن البحر العذب ينصب فى البحر المالح ، ولا يختلط أحدهما بآخر ، بل يشاهد كل منهما متميزا عن الآخر بمسافة طويلة ، ثم يفوس بحر النيل فى البحر المالح ، ولا يختلط (٩ ب) بل يجرى تحته متميزا عنه ، كالزيت مع الماء ، وهو قوله تعالى : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بينهما برزخ لا يبغيان » ، أى لا يئلب المالح على العذب ، فيفسد حالوته ، ولا يئلب العذب على المالح ، فيفسد مرارته ، فسبحان القادر على كل شيء ؛ وقد قال الشاعر :

١٨

وبأمره البحران يلتقيان لا يبغي على عذب مرور أجاج

ومنها كان بها الحجر ، الذى إذا مسكه الإنسان بكأى يديه ، تقاها كل شيء كان

٢١

فى بطنه . - وكان بها خرزة ، إذا جعلتها امرأة على حقوها ، فلا تحبل أبدا . - وكان بالعديد حجارة رخوة ، إذا كسرت تقيد فى الليل كالصايح .

ومنها كان فى بحر النيل حوض مدور ، من رخام أخضر ، وعليه كتابة بقلم الطير ،

٢٤

يركب فيه الواحد من الناس ، والأربعة ، ويغركونه يعدى بهم من جانب إلى جانب ،

(٢٤) ويغركونه : ويحركوه .

- فأخذه أمير مصر كفور الإخشيدى من الماء ، وألقاه في البر ، فبطل فعله .
- ومنها كان بقرية من قرى الصعيد ، قرية يقال لها دشقا ، سنطة ، إذا تهددت
 ٣ بالقطع تذبل وتجمع أوراقها ، فإذا قيل لها : قد عفونا عنك من القطع ، فتراجع
 أوراقها كما كانت ، وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثلا .
- ومنها ، قال ابن نصر المصري : كان على باب قصر الشمع ، عند الكنيسة المعلقة ،
 ٦ صنم من نحاس أصفر ، على خلقة الجمل ، وعليه شخص راكب ، وله عمامة مثل العرب ،
 وفي رجليه نعلان من جلد ، كانت القبط إذا تظاهروا ، واعتدى بعضهم على بعض ،
 تحاكموا إليه ، ويقفون بين يدي ذلك الصنم ، (١٠ آ) ، ويقول المظلوم للظالم : إن
 ٩ أنصفتني قبل أن يخرج هذا الراكب الجمل ، فيأخذ الحق لي منك ، شئت أم أبيت ؛
 يعنون بالراكب النبي ، صلى الله عليه وسلم ؛ فلما فتح عمرو بن العاص مصر ، أخفت
 القبط ذلك الصنم ، لئلا يكون حجة عليهم .
- ١٢ قال القضاى : ولو بسطت عجائب مصر كلها ، لجاء منها عدد كثير لا يحصى ،
 وليس في بلد سوى عجيب ، إلا وفي مصر مثله ، أو أعجب منه ، انتهى ذلك .

(٣) عنك : عنكى .

(٨) ويقفون : وقفوا .

ذكر

أعمال الديار المصرية وكورها

- قال عبد الله بن عبد الحكم : اعلم أن أرض مصر كانت في الزمن الأول، تشتمل ٣ على مائة وخمسين كورة ، وثلاثمائة وخمس وستين قرية ، كل قرية تصلح أن تكون مدينة على انفرادها ، وقد قال الله تعالى : « وابعث في الندائن حائرين » ؛ فغرب منها قبل دخول بخت نصر إليها ، ثمان وستون كورة ، فلما عمرت بعد تخريب ٦ بخت نصر لها ، سارت تشتمل على خمس وثمانين كورة ؛ ثم تناقصت حتى جاء الإسلام ، وفيها أربعون كورة عامرة ؛ ثم استقرت أرض مصر كلها على قسمين ، الوجه القبلي ، والوجه البحري ، وقد قسمت أرض مصر جميعها ، قبلها وبحريها ، على ستة ٩ وعشرين عملا ، شرقيها ، وغربيها ، وقبلها ، وبحريها .

- قال الكندي : صورت للرشيد صورة الدنيا كلها في درج ، فلما تأملها فما أعجبه ١٢ منها غير كورة أسيوط ، من أعمال الصعيد ، فرأى مساحتها نحو ثلاثين ألف فدان ، في ساحة واحدة ، لو قطرت قطرة من السماء ، فاضت على جميع جوانبها ، فترع هذه الساحة في زمن الربيع ، القرط والكتان والقمح والنول وسائر الغلال (١٠ ب) ، فتصير كأنها بساط من سندس أخضر ، ومن الجانب الغربي جبل أبيض على صورة ١٥ الطيلسان ، كأنه قرون ، ويحفّ بها من الجانب الشرق النيل ، كأنه جدول من فضة ، لا يسمع فيها غير ترنم الأطيار على الأشجار ، وهي أحسن كورة من أعمال الصعيد ، انتهى .

١٨

ذكر وادي هيب :

- هذا الوادي بالجانب الغربي من أرض مصر ، فيما بين مريوط والنيوم ، وكان ٢١ يجلب منه الملح والأحارون ، وكان به مائة دير للنصارى ؛ قيل لما فتح عمرو بن العاص مصر ، خرج إليه من وادي هيب سبعة مائة راهب ، يطلبون منه الأمان ، فكتب لهم أمانا ، وبقي عندهم يتوارثونه إلى الآن ؛ وكان يجلب منه الملح الأندرائي ، وهو

على هيئة ألواح الرخام ؛ وينجلب منه حجر الكحل الأسود ، وحجر الزجاج ، ثم بطل ذلك .

ذكر مدينة مريوط :

اعلم أن هذه المدينة كورة من كور الإسكندرية ، وكانت لشدة بياض حيطانها ، لا يدخل الليل إليها إلا بعد مضي عشر درجات من الغروب ، وكانت متصلة بالعمرة إلى أرض برقة .

ذكر صعيد مصر :

قال جعفر بن ثعلب : مسافة إنليم الصعيد مسيرة اثني عشر يوما ، وعرضه مسيرة ثلاثة أيام ، بحسب الأماكن العامرة ؛ وكان بالصعيد نخلة تحمل كل سنة من الثمر عشرة أزداب ، تباع منه كل وبة بدينار ، فجعل عليها بعض ولاة الناحية مكسا ، فلم تحمل من بعد ذلك شيئا .

ذكر مدينة البحجة :

هذه المدينة بينها وبين قوص ثلاث مراحل ، وبها معدن التبر ، كان قديما ؛ ومن عجائبها أن بها معدن الزمرد الذبابي ، الذي إذا نظرت إليه الحيات (١١ آ) تفقت أعينها ؛ ومن خواصه إذا سحق منه وزن ثلاث شعيرات ، وسقى منه المسموم ، قبل أن يعمل فيه السم ، برئ من وقته ؛ ومن خواصه أن من تحتم به دفع عنه الصداق ؛ ومن خواصه أن من حمله لا يقربه عقرب ، ولا حية ، ولا ثعبان ؛ ومن خواصه أن من شرب من حكا كته ينفع من الجذام ويوقته .

قال الجاحظ : ليس في الدنيا معدن الزمرد إلا بمصر من نواحي الصعيد ، ويوجد في منائر مظلمة ، لا يدخل إليها الإنسان إلا بالمصاييح ، وينخر عليه بالماول ، فيجده في وسط حجارة خضر الألوان .

قيل إن في سنة أربع وسبعائة ، ظفر بعض عمال الناحية بقطعة من الزمرد ، زنها مائة وخمسة وسبعون مثقالا ، فأخفى أمرها عن الناس ، فجاءوه بعض التجار ، ودفع له

فيها مائة ألف درهم ، فأبى أن يبيعها بهذا القدر ، فشاع أمرها بين الناس ، حتى بلغ الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فبعث أخذها منه غصبا ، فمات الامل من قبره بعد ثلاثة أيام .

ذكر مدينة أسوان :

اعلم أن أسوان ثمر من ثمر الأقاليم القبلية ، تفصل بين النوبة وبين أرض مصر ، وعلى خمسة عشر يوما منها يوجد معدن التبر ؛ وكان بها أنواع البسر ، ومنه نوع من الرطب ، أشد ما يكون من الخضرة ، مثل لون السلمق ، وهو شديد الحلاوة ، فكان الرشيد يطلبه من عمال مصر ، حتى يأكل منه ، وليس في الدنيا بسر يثمر قبل أن يصير رطبا إلا بأسوان ؛ وبها معدن السبادج ، وحجر المغناطيس ، وحجر القىء إذا مسكه الإنسان تقاها ما في بطنه .

ذكر صحراء عيذاب :

اعلم أن الحججاج أقاموا نحوها من مائتي سنة ، لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب ، يركبون النيل في المراكب إلى قوص ، ثم يركبون الإبل من قوص إلى عيذاب ، وينزلون في الجالبات إلى ساحل جدّة ، ومن جدّة إلى مكة ؛ (١١ ب) ولم تزل مسلكا للحجاج ذهابا وإيابا ، من سنة خمسين وأربعمائة ، إلى سنة ستين وستمائة ، وذلك عندما انقطع الحاج من البرّ في دولة الفاطميين ؛ وقيل كان بعيذاب مناص اللؤلؤ في جزائر هناك .

ذكر مدينة أرجنوس :

هذه المدينة من جملة أعمال البهنسا ، وبها كنيسة فيها بئر ، يقال لها بئر شوش ، لها عيد يعمل في الخامس والعشرين من بشنس ، أحد الشهور القبطية ، فيفور منها الماء عند مضي ست ساعات من النهار ، حتى يطفو إلى فمها ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، ويستدّون النصارى بذلك على زيادة النيل في كل سنة ، بقدر ما يعلو من الماء في البئر .

ومن عجائب مصر ما ذكره ابن عبد الحكم ، قال : إن في بعض نواحي البهنسا ،
 من أعمال الصعيد ، ضيعة تسمى منيل أبو شعرة ، وبها بئر تسمى بئر عيسى ، ولتلك
 البئر سبيل لم بدرج ، فإذا كان ليلة الخامس والعشرين من بشنس ، فيها يطفء ماء تلك
 البئر في الليل ، فهما غطى من الدرج ، فيكون [حال زيادة] النيل في تلك السنة ،
 ويدل منه مقدار الزيادة ، وهذا السرّ باق في هذه البئر إلى يومنا هذا ، لم يخرم قط ،
 ولم يخل ، انتهى ذلك ؛ وقيل إن عيسى ، عليه السلام ، اغتسل من هذه البئر في مثل
 تلك الليلة ، فصار هذا السرّ باق فيها إلى الآن ، انتهى .

ذكر أبويط :

هذه المدينة من أعمال البهنساوية ، وكان بها منارة محكمة البناء ، إذا هزها
 الرجل تحركت يميناً وشمالاً ، ويرى ميلها رؤية ظاهرة .

ذكر أهناس :

هذه المدينة دخلت إليها مريم أمّ عيسى ، عليه السلام ، وبها النخلة التي كانت
 تنضج لها الزيت ، حتى يتقوّتون به .

ذكر مدينة أنصنا :

اعلم أن هذه المدينة من أجلّ مدائن الصعيد ، وكان بها عدّة أعاجيب ، منها
 المقياس الذي بنته دلوكة الساحرة ، وكان بهذا المقياس ثلثماية وستون عموداً من
 الصوّان الأحمر ، ومسافة كل عمودين مقدار خطوة إنسان ؛ وكان ماء النيل يدخل
 إلى هذا المقياس من فوهة ، عند الزيادة .

فإذا بلغ ماء النيل الحدّ الذي كان إذ ذاك ، يحصل منه رى أرض مصر كلها ،
 جلس الملك عند ذلك في مشرف له على ذلك المقياس ، وتصعد جماعة من خواصّه إلى
 رؤوس تلك الأعمدة ، فيتنادون عليها ما بين ذاهب وآت ، ويتساقطون من الأعمدة
 (١٢ آ) إلى الماء ، وهو ممتلئ في الفسقية الكبيرة ، ويكون ذلك اليوم عندهم عيداً

بوفاء النيل ، ويقال إن سحرة فرعون الذين آمنوا في ساعة واحدة ، كانوا من أنصنا .

ذكر القيس :

قال ابن عبد الحكم : لما بعث عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، قيس بن الحارث ^٣ إلى الصعيد ، نزل بهذه القرية ، فسُميت به ، وكان يُعمل بها الأكسية العسلية ، من صوف المعز ، تغنى في الشتاء عن لبس الفراء .

ذكر مدينة البهنسا : ^٦

هذه المدينة من أجل مدائن القبط ، قيل إن مريم وابنها عيسى ، عليهما السلام ، أقاما بها سبع سنين ، وقيل هي الربرة التي آوى إليها المسيح ، ودعوته لأهل البهنسا مشهورة ؛ وكان بها العجائب من العالسمات ، والصور ، وأشياء غريبة . ^٩
ونقل ابن وصيف شاه ، أن كان ببعض ضياع البهنسا نخلة بلح ، تطرح مائة وواحد وعشرين عرجونا ، بلح فاخر ، في كل سنة ، فيحصل منها اثني عشر أردب بلح في كل سنة . ^{١٢}

ذكر مدينة الأشمونين :

هذه المدينة بناها أشمون بن مصريم بن بيسر بن حام بن نوح ، عليه السلام ؛ وقيل إنه بنى من الأشمونين إلى أنصنا ، سرب تحت النيل ، وكان مباحا بالرخام ، ^{١٥} ومعقودا بالزجاج الملوّن ، قيل عمله لبنانه إذا زرن هيكل الشمس ، الذي كان بأنصنا ؛ وكان ينزل بالأشمونين هذه جماعة من بنى أمية .

ذكر مدينة إخميم : ^{١٨}

قال ابن وصيف شاه : هذه المدينة كانت من أجل مدن الصعيد ، وكان بها البرابي العجيبة ، وما كان فيها من الحكم ؛ قيل إن رجلا دخل إلى بعض البرابي التي بها ، فرأى صورة عقرب على الحائط ، فألصق عليه شهما ومضى به إلى بيته ، فلما أصبح ^{٢١}

(١) الذين : الذي .

(١١) وواحد وعشرين : وإحدى وهنرون .

(١٥) بنى : بنا .

ووجد العقارب التي كانت في بيته ، قد انحاشت كلها عند تلك الصورة ، ولم تبرح عنها حتى قتلها عن آخرها .

- ٣ وكان بها بربا آخر ، (١٢ ب) فيها صنم قائم ، وله إحليل كبير ، فمن ذلك إحليله بذلك الإحليل ، فإنه لا يزال إحليله قائما ولو جامع ما شاء ، لم يرقد له إحليل ، فإذا أراد إبطال ذلك ذلك إحليله في ظهر ذلك الصنم ، فينام عليه إحليله .
- ٦ قال ابن عقير : رأيت آثار سليمان بن داود ، عليه السلام ، وما بنته له الشياطين ، فلم أرَ مثل برابي إخميم ، ولا مثل حكمتها ، ولا مثل الأبنية التي بها ، ولا مثل الصور التي بها .

٩ ذكر الواحات الداخلة :

- هذه المدينة بناها قفطريم ، وكان بها بركة ، إذا مرَّ بها الطير سقط فيها ، لا يبرح منها حتى يؤخذ باليد ؛ وكان لها أربعة أبواب ، على كل باب منها صنم من نحاس أصفر ، إذا دخل من أحد أبوابها غريب ، ألقى عليه النوم ، فينام عند الباب ، ولا يبرح حتى يأتيه أحد من أهل المدينة وينفخ في وجهه ، فيقوم ، وإن لم يفعلوا ذلك ، لا يزال نائما عند الباب حتى يموت .
- ١٢

١٥ ذكر مدينة قفط :

- كانت من أجل الدائن ، وقد خربت من سنة أربعمائة ، وكان بها قباب عالية ، إشارة ابن يملك عشرة آلاف دينار ، فيجعل على داره قبة ؛ وكان بها معدن الزمرد
- ١٨ الذبابي أيضا ، يوجد في مكان يسمى الخربة ، على مسيرة ثمانية أيام منها .

ذكر العباسية :

- هذه القرية عمرت في الإسلام ، قيل وُلد بها العباس بن أحمد بن طولون فسماها
- ٢١ به ، ولم تزل متنزها للملوك بمصر ، حتى بنى الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، على

(١) انحاشت : كذا في الأصل ، والمعنى واضح .

(١٢) أحد : إحدى .

(٢١) بني : بنا .

فم الوادى ، قرية وسمّاها الظاهرية ، وأنشأ بها جامعا بخطبة ، وذلك سنة ست وستين
وسمّانة ، فمن حينئذ تلاشى أمر العباسية .

قال بعض المؤرخين : إنّما سمّيت العباسية باسم عباسية بنت الأمير خمارويه بن أحمد
ابن طولون ، عندما توجّهت إلى بغداد ، لما تزوّج بها الخليفة المعتضد بالله ، ضربت
خيامها هناك ، فسّميت بها (١٣ آ) يعنى بالعباسية .

ذكر مدينة المنصورة :

هذه المدينة على بحر أشموم ، تجاه طلخا ، بناها الملك الكامل محمد بن العادل أبى
بكر بن أيوب ، سنة عشرين وسمّانة ، عند استيلاء الفرنج على ثغر دمياط ، وبني بها
الأسواق ، وبني بها الحمامات والفنادق ، ولما انتصر على الفرنج سمّاها من حينئذ
المنصورة ؛ وبني بها قصرا على البحر ، كان يجلس فيه عند توجّهه إلى دمياط .

ذكر قرية ديق :

هذه القرية من قرى دمياط ، وإليها ينسب الثياب الديقية ، المنسوجة بالذهب ،
يبلغ الثوب منها مائة دينار ، وكانت الخلفاء يتغالون فيها ؛ وكان عمل بها العائم الشرب
المذهبة ، وكان طول كل عمامة منها مائة ذراع ، وفيها رقعات بالذهب تبلغ العمامة
منها مائة دينار ذهب ؛ واستمرت على ذلك إلى سنة خمس وستين وثلثمائة .

ذكر النجيرية :

هذه القرية من أعمال الغربية ، أنشأها الأمير سنقر السعدى ، نقيب الجيوش
المنصورة ، وهو صاحب المدرسة السعدية ، التى بجوار بيت الأمير يشبك من مهدى ،
الدوادر الكبير ، عمرت هذه القرية فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون ، سنة ثمان
وعشرين وسبعائة .

(٨ و ٩ و ١٠) وبني : وبنا .

(١٠) قصرا : قصر .

(١٣) دينار : دينار .

(١٤) ذراع : ذراعا .

(١٥) وثلثمائة : وثلثمائة .

ذكر مدينة دمياط :

اعلم أن هذه المدينة كورة من كور مصر، قال ابن وصيف شاه : دمياط بلد قديم،
 ٣ بناها دمياط بن أشمون بن مصرم بن بيسر بن حام بن نوح، عليه السلام، فسُميت به،
 وقد فتحت هذه المدينة على يد القداد بن الأسود، رضى الله عنه، بعد فتح مصر سنة
 اثنتين وعشرين من الهجرة، وكان بها ملك يقال له الهاموك، وهو خال القوقس،
 ٦ صاحب مصر، وكان للهاموك ولد يسمى شطا، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم (١٣ب)
 في المنام .

فلما أصبح نزل إلى القداد بن الأسود، وأسلم على يديه، وحسن إسلامه، وصار
 ٩ عوناً للمسلمين، وقاتل أهل دمياط، وتيس، أشد القتال، حتى قُتل في المعركة، ودُفن
 بمكانه المعروف به الآن، وهو خارج دمياط، وكان قتله في ليلة الجمعة نصف شعبان،
 سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، ولذلك صار له في كل ليلة نصف شعبان موسم،
 ١٢ تجتمع إليه الناس من سائر النواحي، ويقصدون زيارة شطا، رحمة الله عليه، إلى
 يومنا هذا .

ذكر مدينة تليس :

١٥ قال محمد بن أحمد بن بسام: كانت مدينة تليس من الإقليم الرابع، بنتها امرأة تسمى
 تليس بنت صا بن تدارس، أحد ملوك القبط بمصر، وكانت صبيحة الهواء، قليلة الوباء؛
 وكان طول هذه المدينة من الجنوب إلى الشمال ثلاثة آلاف ومائتي ذراع، وعرضها
 ١٨ من الشرق إلى الغرب ثلاثة آلاف وخمسة وثمانون ذراعاً؛ وكان عليها سور من الحجر،
 وعدة أبوابها تسعة عشر باباً، وكان بها سبعة وستون مسجداً، وسبعون كنيسة،
 وكان بها ثلاثون حماماً، ومائة معصرة، وستون طاحونا، وألفان وخمسمائة حانوت
 ٢١ للبضائع، ومن الناس خمسة آلاف منسج .

(١١) اثنتين : اثنتين .

(١٧) ذراع : ذراعاً .

(٢٠) حانوت : حانوتاً .

وكان يصنع بها ثوب يقال له البدنة ، ينسج من الذهب ، صناعة محكمة ، تباع كل بدنة منها بألف دينار ، تحمل من مصر إلى بغداد برسم الخلفاء ؛ وكان يعمل بها طراز من الكتان بغير ذهب ، يباع كل طراز منها بمائة دينار ، وهو بغير ذهب .
ولم تزل على ما ذكرناه إلى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، حتى هجم عليها الفرنج وملكوها ، ونهبوا كل ما فيها ، وهرب أهلها إلى دهمياط ، فالتقوا فيها الفرنج النار ، وأحرقوها ، واستمرت خرابا إلى الآن ، ولم يبق منها غير الرسوم .
وكانت من أجل مدائن مصر ، وأعظمها ؛ وكان بها طريقا مسلوكة إلى جزيرة قبرص ، فغاب عليها الماء ففرقت ، قبل أن تفتح مصر بمائة سنة وكسور ، انتهى (١٤٤) .

وكان فيما بين تيس ودهمياط ، قرية تسمى بورا . يعاد منها السمك الذي يقال له البورى ، وإليها ينسب جماعة من الناس يلقبون بالبورى ، وكان بمصر أمير يسمى بورى ، خربت هذه القرية سنة عشرة وستائة .

ذكر رمل الغرابي :

وهو متصل من حدّ العريش إلى أرض العباسية ، اعلم أن هذا الرمل حادث ، وسبب ذلك أن شداد بن عاد ، أحد ملوك العادية ، لما قدم إلى مصر نزل في هذه الأرض ، وكانت ذات أشجار مشعرة ، وعيون جارية ، فأقام بها دهرا طويلا ، حتى غتوا قومه وتجبروا ، فسأط الله تعالى عليهم الريح ، فنسفت ديارهم حتى صارت رمالا ، فجمع ما تراه من الرمال آثار ديار قوم عاد ؛ قال الله تعالى : « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أنت عليه إلا جملته كالرقيم » .

ذكر مدينة بلبيس :

وسميت في التوراة أرض حاشان ، قيل إن يعقوب ، عليه السلام ، لما قدم إلى مصر ، نزل بها ؛ وكانت عامرة في غاية العمار ، إلى سنة ست وثمانمائة ، فتلاشى أمرها من بعد ذلك .

(١) محكمة : محكمة .

(١١) يلتبون : يلتبوا . // أمير : أميرا .

ذكر مدينة الصالحية :

هذه المدينة عمرت في الإسلام ، عمرها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد ، سنة أربع وأربعين وستمائة ، واستمرت تزايد في العبارة إلى يومنا هذا . ٣

ذكر مدينة إيلة :

اعلم أن هذه المدينة كانت بين مصر والينبع ، وكانت على شاطئ البحر المالح ، وهي أول حدّ الحجاز . وكانت مدينة عامرة بحكمة البناء ، وكان بها قصر عال هناك ، يجلسون فيه القباض ، عند أخذ الكس من التجّار ؛ وكان بينها وبين بيت المقدس ستّ مراحل ، وما يتصل إليها إلا من هناك . ٦

وكانت العقبة صعبة السلوك ، إلى أن أساحتها الأمير أحمد بن طولون ، وسوى طريقها التي (١٤ ب) كانت محجرا ، فمن يومئذ سلك طريقها ؛ ولم تزل مدينة إيلة عامرة إلى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فتلاشى أمرها من بعد ذلك . ٩

١٢ ذكر مدينة القلزم :

قال ابن الطوير : إن مدينة القلزم كانت ساحلا لمصر من الحجاز ، وكانت عامرة بحكمة البناء ، وكان يؤخذ منه الكوس من التجّار في الراكب هناك ؛ وقيل إن فرعون غرق بالقرب من ذلك المكان ، في مكان يقال له « تاران » ، وهناك معظم هيجان البحر المالح . ١٥

ذكر التيه :

اعلم أن التيه على مقدار أربعين فرسخا في مثلها ، والفرسخ اثني عشر ألف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون قيراطا ، والقيراط ستّ شعيرات بطولهن ، والشعيرة ستّ شعرات من ذنب بغل ؛ وقيل إن بني إسرائيل تاهوا فيه نحو أربعين سنة ، لم يدخلوا مصر ؛ وقيل إن موسى ، عليه السلام ، مات به ، ونقل إلى بيت المقدس من هناك . ٢١ ١٨

ذكر الطريق فيما بين مصر ودمشق :

اعلم أن هذا الدرب الذي تسلكه المساكر والتجّار من القاهرة إلى غزة ، ليس

هو الدرب الذى كان يُسلك فى قديم الزمان ، وإنما ظهر هذا الدرب سنة خمسمائة من
الهجرة ، عند انقراض الدولة الفاطمية .

وكان الدرب أولا من بابيس إلى مدينة النرما ، من أرض الخوف ، ويُسلك من
النرما إلى قطيا ، ومن قطيا إلى أمّ الدرب ، وهى بلد خراب على شاطئ البحر المالح ؛
فلما أتوا الفرنج من القسطنطينية ، ساروا يتطعمون الطريق فى هذا الدرب على المسافرين ،
فصار الدرب مخوف ، وقلّ منه السالك .

فلما كانت دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب ، واستخلص بيت المقدس من
أيدي الفرنج ، وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فصار من ذلك (١٥ آ) الوقت
يُسلك هذا الدرب الآن من حينئذ .

فلما كانت دولة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، ورتّب خيل البريد ، وجعل
لها مراكز ما بين مصر إلى دمشق ، وذلك سنة تسع وخمسين وستمائة ، فتجايأ هذا
الدرب ، وكثر السلوك به ، فتلاشى أمر الدرب القديم ، وصار العمل على هذا الدرب
إلى الآن ، انتهى .

(١١) فتجايأ : يعنى فدبت فيه الحياة وانتهى .

ذكر

من دخل مصر من الأنبياء عليهم السلام

- ٣ قال أبو عمر محمد بن يوسف الكندي في كتاب « فضائل مصر » : دخل مصر من الأنبياء ثلاثين نبياً ، عليهم السلام ، منهم إدريس ، ويقال له هرمس ، وإبراهيم الخليل ، وفي بعض الأخبار أن إسماعيل بن إبراهيم دخل مصر أيضا ، نقل ذلك الشيخ جلال الدين السيوطي ؛ ويعقوب ويوسف ، واثنان عشر من ولد يعقوب ، عليهم السلام ، وهم الأسباط ، ولوط ، عليه السلام ؛ ووُلِدَ بها موسى ، وهرون ، ويوشع بن نون ، عليهم السلام ؛ ودخاها دانيال ، وأرميا ، وعيسى بن مريم ، عليه السلام ، وسليمان ابن داود ، عليهما السلام ، نقل ذلك الشيخ جلال الدين السيوطي ، وذكر أن أيوب ، عليه السلام ، دخل مصر .
- ١٢ قال ابن عساكر في تاريخه : ويمكن أن أيوب دخل مصر ، فإن رحمة ، زوجة أيوب ، كانت بنت منشا بن يوسف ، عليه السلام ، فيمكن أنه دخل مصر بسببها .
- ١٥ ودخاها شعيب ، عليه السلام ، في زمن فرعون ؛ ودخاها لقمان الحكيم وفي نبوته خلاف ، وقال عكرمة والليث بن سعد إنه نبي ؛ ودخاها من الصديقين الخضر ، عليه السلام ، قال أبو حيان في التفسير إن الخضر ، عليه السلام ، كان نبياً ، وجزم به الثعلبي .
- ١٨ ودخاها ذو القرنين أيضا ، قال ابن عباس ، رضي الله عنهما ، (١٥ ب) : كان ذو القرنين نبياً ، أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ، وقال ابن عبد الحكم إن ذا القرنين كان من أهل مصر ، واسمه مرزبا ، وكانت أمه رومية من بنات الروم ، وكان من ولد يونان بن يافث بن نوح ، عليه السلام ، وكان أسود اللون ، من قرية من قرى مصر ، يقال لها لوبية ، من أعمال الغربية .
- ٢١ قال صاحب « مرآة الزمان » : إن ذا القرنين مات بأرض بابل ، وجعل في تابوت من خشب ، وطلى بالصبر والتار ، وحمل من بابل إلى الإسكندرية ، ودفن بالمنار الذي أنشأه هناك .

قال ابن الجوزي في كتاب « تنوير النُبش في فضل السودان والحبش » : إن
ذا القرنين كان أسود اللون ، وإنه عاش ألف وستائة سنة ، والله أعلم بذلك .

وقيل إن شيث بن آدم ، عليه السلام ، دخل مصر أيضا ؛ ومن أهلها مؤمن
آل فرعون ، الذي أثني عليه الله تعالى في القرآن ، ولم يكن من آل فرعون مؤمن
غيره ؛ ومن أهلها المؤمن الذي أنذر موسى ، عليه السلام .

ومن أهلها جاساء فرعون وفضالية عقولهم ، فلما استشارهم فرعون في أمر موسى ،
وهرون ، قالوا : « ارجئه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحر عليم » ؛
وأين هذا من قول أصحاب التمرود ، لما استشارهم في أمر إبراهيم الخليل ، فأشاروا
بقتله ، حيث قالوا : « حرّقه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » .

ومن أهلها السحرة الذين آمنوا بموسى ، عليه السلام ، في ساعة واحدة ، مع
كثيرتهم ، قال ابن عبد الحكم : كان عدتهم ، هم وعرفاؤهم ، مائتي ألف وأربعين ألفا ،
وهذا من رقة قلوب أهل مصر .

وأما ما كان من أهلها من (١٦ آ) النساء ، زليخا ، وعجبتها ليوسف ، عليه
السلام ؛ وآسية ، امرأة فرعون ، التي مدحها الله تعالى في القرآن العظيم ؛ وأم موسى ،
عليه السلام ، وكان اسمها يرحانة ؛ ودخل مصر من النساء سارة ، زوج إبراهيم ، عليه
السلام ؛ ومريم أم عيسى ، عليه السلام .

ومن أهلها ماشطة بنت فرعون ، حين آمنت بموسى ، عليه السلام ، فتمشطها
فرعون بأمشاط الحديد ، كما يمشط الكتان ، وهي ثابتة على إيمانها بالله تعالى ؛ وابنها
الذي سمى ليوسف وهو في المهد ؛ ومن أهلها جريج ، صاحب الصومعة .

روى ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

(٤) أثني : أنا .

(٧) وهرون : وهارون .

(١٠) الذين : الذين .

(١٢) رقة : رقت .

ذكر من دخل مصر من الأنبياء عليهم السلام - ومن كان بها من الحكماء ٣١

« لما كانت ليلة أسرى نبي ، أتيت على رائحة طيبة ، فقلت : يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : « هذه رائحة ماشطة بنت فرعون ، وأولادها » ، انتهى ذلك .

ذكر

من كان بمصر من الحكماء

في أول الدهر

- ٦ قال الكندي : كان بمصر من الحكماء هرمس ، وهو إدريس ، عليه السلام ، وقد جمع بين النبوة ، والمُلك ، والحكمة ؛ وكان بها من الحكماء ، أنمايتمون ، وفيثاغورس ، وهما تلاميذ هرمس ، وإليهم يعزى علم الكيمياء والنجوم ، وعلم السحر والروحانيات والطلسمات ، وأسرار الطبيعة ؛ ومنهم أرسلاوس ، وبندقليس ، أصحاب الكهانة والسحر ؛ ومنهم سقراط ، صاحب الكلام على الحكمة .
- ٧ ومنهم أفلاطون ، صاحب السياسة ، والكلام على الدين والأقاليم وغير ذلك ؛ ومما وقع له من النكت اللطيفة ، أنه رأى امرأة معاوبة على شجرة ، فقال : ليت على كل شجرة مثل هذه الثمرة .
- ٨ ومنهم أرسطاليس ، صاحب المنطق ؛ ومنهم بطليموس ، صاحب الرصد والحساب ، وتركيب الأفلاك ، وتسطيح الكرة ؛ ومنهم أراطس ، صاحب صور (١٦ ب) الفلك .
- ٩ ومنهم أفلاطينوس ، صاحب الفلاحة ؛ ومنهم أرجيس ، صاحب المعرفة بذات الخلق ؛ ومنهم تاول ، صاحب الريح ؛ ومنهم دامائوس ، وواليس ، واسطقر ، أصحاب كتب أحكام النجوم .
- ١٠ ومنهم أنذريه ، صاحب الهندسة ، والمقادير ، والآلات لقياس الساعات ؛ ومنهم قليور ، صاحب عمل الدواليب والأرحية ؛ ومنهم أرمسيس ، صاحب المنجنيقات ، التي يرمى بها على الحصون ؛ ومنهم قليطار ، وصاربه ، أصحاب الطلسمات والبراني .

ومنهم إيلونيوس ، صاحب المخروطات ؛ ومنهم تابوشيش ، صاحب الأكرة ؛
ومنهم قيطس ، صاحب حساب الأفلاك ؛ ومنهم أفطوقس ، صاحب كتاب
الأسطوانية .

٣

ودخاوا ، وأقام بها جالينوس ، صاحب الطب ، وإلينوس ، وديستوريدس ،
صاحب الحشائش ؛ ومنهم روحاش ، والأنماي ، وأساسينوس ، وقرهونوس ، وهم
من حكماء اليونان ؛ وسقراط ، وبقرات ، وقسّ بن ساعدة ، حكيم العرب ، الذي
ضرب به الشاعر المثل . حيث قال :

ولو أن قسّا واصل منك وجنة لأعجزه نبت بها وهو باقل

وأما حكماء الإسلام :

٩

الرئيس أبو علي بن سينا ، صاحب القانون في الطب ، قيل لما مات كتب على قبره
هذه الأبيات :

قد قلتُ ما قال لي قائل صار ابن سينا ، إلى ربه
فأين ما يوصف من طبه وحدثه بآباء مع جنسه
هيات لا يدفع عن غيره فكيف أن يدفع عن نفسه

ومنهم شرف الدين بن السديد ، ونفّر الدين النارسي ، والخوانساري ، وضياء الدين
ابن البيطار ، صاحب الزردات في الطب ، والتبريزي ، وضياء الدين القرمي ،
والغازي (١٧ آ) .

والشيخ علاء الدين بن تقيس ، صاحب الموجز في الطب ، وكانت وفاة الرئيس
علاء الدين بن تقيس في ذي القعدة ، سنة سبع وثمانين وسبعمائة ؛ وغير ذلك من الحكماء
في دولة الإسلام ، انتهى ذلك .

١٨

ذكر

من دخل مصر من الصحابة والتابعين

رضى الله عنهم أجمعين

قال الإمام محمد بن الربيع الجيزي : دخل مصر من الصحابة مائة ونيف وأربعين رجلا ؛ قال الشيخ جلال الدين الأسيوطي ، رحمة الله عليه : وقفتُ على كتاب محمد ابن الربيع ، ورأيتُ ما أورد فيه ممن دخل مصر من الصحابة ، فتبعتُ ذلك من تأليف المتقدمين ، فزدتُ في العدد على كتاب ابن الربيع حتى بلغ العدد ثلاثمائة وكسور ، ممن دخل مصر من الصحابة ، وألفتُ في ذلك كتابا لطيفا وسميته « در الصحابة في من دخل مصر من الصحابة » وأوردتُ أسماءهم على حروف المعجم ، وزدتُ في تراجمهم اسم الأب والجدة ، والسن والوفاة .

قلتُ أنا وقفتُ على كتاب الشيخ جلال الدين ، رحمة الله عليه ، فرأيتُه قد طال في هذا المعنى ، فأحببتُ أن أذكر في هذا التاريخ ، جماعة من أعيان الصحابة ، رضى الله عنهم ، ممن دخل مصر ، ومات بها ، واقتصرْتُ على ذلك خوف الإطالة ، ولكن أوردتُ وفاة كل واحد منهم ، في السنة التي مات بها ، على توالي السنين في مواضعه ، كما سيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

(٢) الصحابة : الصاحبة .

(٨) وألفت : واللفت .

(٩) أسماءهم : أسمائهم .

(١١) قلت : ابن إلياس يعنى نفسه .

ذكر

طرف يسيرة من فضائل مصر

- ٣ اعلم أن لمصر فضائل كثيرة ، لا تحصى ، فمن ذلك : قال ابن زولاق ، عن
عبد الله بن عمر ، رضى الله عنه ، إنه قال : لما خلق الله تعالى آدم ، عليه السلام ،
مثل له الدنيا شرقها وغربها ، وسهلها وجبلها ، (١٧ ب) وبردا وبحرها ، ومن
٦ يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى مصر ، رأى أرضا سهلة ، ذات
نهر جار ، تنحدر مادته من تحت سدرة المنتهى ، وتخرج الرحمة ، ورأى جبلا من جبالها
مكسوا بالنور ، لا يخاف من نزار الرب إليه بالرحمة ، فأعجب آدم ، عليه السلام ،
٩ تلك الأرض ، ودعا لها بالرحمة والرأفة ، وبارك في نيلها سبع مرات ، فكان آدم ،
عليه السلام ، أول دعا لمصر .

- ومن فضائلها أن نوحا ، عليه السلام ، دعا لها بالبركة والخصب ، بعد الطوفان ؛
ومن فضائلها ألقى موسى عصاه بها ، وانقلب البحر له ؛ وبها الوادى المقدس ،
١٢ والطور ، الذى كآم الله تعالى عليه موسى ، عليه السلام ، وورق موسى مشهور في
ذيل المقطم .

- وبها الجميزة التى صلى تحتها موسى ، كانت بطرا ؛ وبها المنخلة ، التى كانت
تنفخ الزيت أريم ، عليه السلام ، وهى بمدينة أشبون ؛ وأقام بها عيسى ، والحواريون ،
سبع سنين ، بالهنسا .

- ١٨ وبها بئر البلسان ، التى بالمطرية ، قيل إن المسيح اغتسل فيها ، وقيل إن أمه
غسلت قميصه من تلك البئر ، ورشّت الماء فى الأرض ، فنبت هناك البلسان ، وليس
يوجد البلسان إلا بالمطرية فقط ، وفى ذلك يقول العاصم بن مكناس ،
من موشح :

انظر إلى أنوار بئر البلسم فهى سبيل صحتى من سقم

(٨) يغلو : يغلو .

(١٢) ألقى : ألقا .

لكونها فيما يقال تنتمى إلى المسيح السيد ابن مريم

يحيى بإذن الله ميت الاعد

وكانت ملوك الفرنج تتغالى في ثمنه ، ولهم فيه اعتقاد عظيم ، ولا يتم التنص

عندهم إلا بدهن البلسان ، يضعون منه شيئا في ماء المعمودية ، وينغمسون فيه .

وكان يشتري بثقله ذهباً ، وكان من محاسن مصر ، ولكن انقطع وجوده من

مصر في مبتدأ قرن التسعمائة ، ثم بطل مع (١٨ آ) جملة ما بطل من مصر ، ولكن

نتج من بعد ذلك على يد السلطان النورى ، وعاد كما كان أولاً ، بعد مدة طويلة .

نكتة لطيفة : قال أبو شامة : إن الملك الكامل محمد ، استأذن أباه الملك العادل

أن يزرع في بستانه شيئا من البلسان ، فأذن له في ذلك ، فنقل منه في بستانه ، فلم ينتج

عنده ، فقيل له : إنما [لا] ينتج إلا إذا سقى من ماء البئر التى هناك ، فعدل بجرة من

المطارية إلى بستانه بسواقى ، حتى تسقى البلسان ، فلم ينتج ، وقد عيل صبره في ذلك ،

فقيل له السر في تلك البقعة لا ينتقل إلى غيرها ، ولو كان البلسان ينتج في غير أرض

المطارية ، لكان أول من نقله ملوك الفرنج إلى بلادها .

ومن فضائل مصر أن بها سيجن يوسف ، عليه السلام ، في نواحي الجزيرة ، وكان

الوحي ينزل عليه هناك ، وصار الآن مسجدا ، يعرف بمسجد موسى ؛ وكان في قديم

الزمان ، إلى أيام الحاكم بأمر الله ، تخرج جماعة من أهل مصر بسبب زيارة هذا

المكان ، ويقيمون هناك ثلاثة أيام ، في وقت معلوم من السنة ، وتنفق هناك أموال

جزيلة في الأكل والمشرب وغير ذلك .

قيل إن كافور الإخشيدي سأل أهل مصر ، عن موضع معروف بإجابة الدعاء

فيه ، فقالوا له : سطاح سيجن يوسف عليه السلام . قال القضاء : هو في بوسير ، من

أعمال الجزيرة ؛ وأجمع أهل مصر على صحة هذا المكان ، أنه كان سيجن يوسف ،

عليه السلام .

وبها مسجد يعقوب ، عليه السلام ، في مدينة الفيوم ؛ ومسجد أيضا ، قيل : هو

مكأن باعوا فيه يوسف ، عليه السلام .

ومن فضائل مصر أن بها الأهرام ، التي كان يخزن فيها يوسف القمح ، فلا يفسد ؛
وبها الجدار الذي بناه يوسف ، لرد الماء عن مدينة الفيوم ، وآثاره باقية إلى الآن ،
وكان طوله مائتي ذراع .

وقيل إن سفينة نوح ، عليه السلام ، طافت بأرض مصر ، حتى زار سفح الجبل
المقطم ، ودعا هناك إلى الله تعالى ، (١٨ ب) لما فيه من إجابة الدعاء .

وقيل إن بمصر قبر زليخا ، امرأة يوسف ، عليه السلام ؛ وأقام يوسف مدفونا
بمدينة الفيوم ثلثمائة سنة ، حتى نقل عظامه موسى ، عليه السلام ، إلى بيت
المقدس .

ودُفن بها آسية ، امرأة فرعون ، وزليخا زوجة يوسف ، عليه السلام ، وريحانة
أم موسى ، عليه السلام ؛ ودُفن بها السيدة فريسة ، وناهيك بها في البركة العميمة
المشهورة بمصر ، رضى الله عنها .

ومن فضائل مصر أن دُفن بها جماعة من أولاد يعقوب ، عليه السلام ؛ ودُفن
بها جماعة كثيرة من الصحابة ، رضى الله عنهم ؛ ودفنت إليها رأس الحسين بن بنت
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من عسقلان ، سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

ودُفن بها من العلماء ، والصلحاء ، مالا يحصى عددهم ، منهم الإمام الشافعي
محمد بن إدريس ، رضى الله عنه ، وناهيك به ، ومصر كلها في حمايته ، وهو الإمام
بمصر ، وصاحب البلد .

ومن فضائل مصر أن الرخامة الخضراء الفستقى ، التي في حجر إسماعيل عند
الكعبة ، أصلها من مصر ، بث بها محمد بن زهير ، مولى العباس بن محمد ، إلى
مكة ، سنة إحدى وأربعين ومائتين ؛ وبث معها رخامة أخرى فستقى ، وضعت فوق
سطح الكعبة ، عند الميزاب ، وطول كل رخامة ذراع بالعمل ، وثلاثة أصابع .

(٢) النى : الذى .

(٤) ذراع : ذراعا .

ومن فضائل مصر أنَّها توسَّع على أهل الحرمين ، بما يجلب منها إليهم من الغلال في البحر ، يحمل في السفن دفعة واحدة ، مالا يحمله خمسمائة بعير .

٣ ومن فضائل مصر ، قل أبو بصرة الغفاري : سلطان مصر ، سلطان الأرض كلها ، وله ميزة على سائر ملوك الأرض ، لكونه خادم الحرمين الشريفين ، فتشرف على الملوك بذلك ؛ وقيل : هو القطب الظاهر في تصرف الأحوال الدنيوية ؛ وفيه يقول شمس الدين الدمشقي :

إذا البلاد افتخرت لم تزل مصر لها عزّ وتفضيل
(١٩ آ) وكيف لا تفخر مصر وفي أرجائها السلطان والنيل

٩ وأعظم من هذا كله ، ما قاله الإمام أبو شامة ، المؤرخ : لما نقلت الخلافة إلى مصر ، عظم أمرها ، وتشرف قدرها بين البلاد ، وتميز سلطانها على سائر الملوك ، وذلك سرّ في بني العباس ، حيثما كانوا بأرض تشرفت بهم .

١٢ وقال القاضي : لم يكن في الأرض أعظم من ملك مصر ، ولو ضرب بينها وبين سائر البلاد سور لاستغنى أهلها ، بما فيها ، عن سائر البلاد ؛ وهي أكثر البلاد كنوزا ، وعجائب ، وآثارا ، من البراني ، والعلسمات ، وذلك لما فيها من الحكم والعجائب وغير ذلك ، انتهى ما أوردناه من فضائل مصر .

ذكر

ما خصت به مصر من المحاسن

دون غيرها من البلاد

١٨

قال كعب الأحبار : من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة ، فلينظر إلى أرض مصر في زمن ربيعها ، قبل طلوع الشمس ؛ وسئل بعض الحكماء : متى تطيب أرض مصر ؟ قال : إذا اعتدل هواؤها ، وذاب مرعاها ، وارتفع وباؤها ، وأزهرت أشجارها ،

(١٤) والعلسمات : والعلسات .

(٢٠) وسئل : وسال .

(٢١) هواؤها : هواها . || وباؤها : وباهها .

وَعَرَدَتْ أَطْيَارُهَا ، يَعْنِي فِي فِصْلِ الرَّبِيعِ ، وَقَالَ الْقَائِلُ فِي الْمَعْنَى :

إِنَّ فِعْلَ الرَّبِيعِ فِصْلٌ مَالِيحٌ نَحْنُ فِي السَّعْدِ مِنْهُ كَالْأَغْنِيَاءِ ،

ذَهَبٌ حَيْثُمَا ذَهَبْنَا ، وَدُرٌّ حَيْثُ دَرْنَا ، وَفَضَةٌ فِي الْفَضَاءِ ،

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : مِصْرُ نِيلِهَا عَجَبٌ ، وَأَرْضُهَا ذَهَبٌ ، وَهِيَ ابْنُ غَلَبٍ ،

وَنَسَاؤُهَا لَعِبٌ ، وَمُتْلِكُهَا سَلْبٌ ، وَمَالُهَا رَغَبٌ ، وَخَيْرُهَا جَلَبٌ ، وَفِي أَهْلِهَا مَسْخَبٌ ،

وَالْمَاءُ تَهْمٌ رَهَبٌ ، وَحَرْبُهُمْ حَرْبٌ .

قَالَ الْكَنْدِيُّ : نِيلٌ مِصْرَ سَيِّدِ أَنْهَارِ الدُّنْيَا ، لِأَنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ الْجَنَّةِ ، مِنْ تَحْتِ

سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، كَمَا وَرَدَ بِهِ خَبَرُ الشَّرِيعَةِ ؛ وَقَالَ كَتَبُ الْأَحْبَارِ : النَّيْلُ بِصَيْرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

نَهْرُ الْعَسَلِ فِي الْجَنَّةِ ، وَقِيلَ نَهْرُ الْخَمْرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالَ الْمَسْعُودِيُّ ، فِي مَرْوَجِ الذَّهَبِ : وَصَفَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَرْضَ مِصْرَ ، فَقَالَ :

ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ لَوْلُؤَةٌ بَيْضَاءُ ، وَثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ مَسْكَةٌ سَوْدَاءُ ، وَثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ زَمْزَرَةٌ (١٩ ب)

خَضِرَاءُ ، وَثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ كَهْرَبَةٌ صَفْرَاءُ .

فَأَمَّا اللَّوْلُؤَةُ الْبَيْضَاءُ ، فَإِنَّ أَرْضَ مِصْرَ تَصِيرُ فِي شَهْرِ أَبِيبٍ ، وَمِصْرِيٍّ ، وَتَوْتٍ ،

بَيْضَاءُ ، لِأَنَّهُ يَرِكِبُهَا مَاءُ النَّيْلِ ، وَيَفْتَرِشُ عَلَى أَرْضِهَا ، وَتَصِيرُ الْخَضِرَاءُ مِثْلَ الْكُفَاكِ

فِي السَّمَاءِ ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا أَهْلُهَا إِلَّا فِي الزُّوَارِقِ .

وَأَمَّا الْمَسْكَةُ السَّوْدَاءُ ، فَإِنَّ أَرْضَ مِصْرَ فِي شَهْرِ بَابَةِ ، وَهَاتُورٍ ، وَكَيْهَكٍ ،

يَنْصَرِفُ عَنْهَا الْمَاءُ ، فَتَصِيرُ مِثْلَ الْمَسْكَةِ السَّوْدَاءِ ؛ وَلَهَا رَوَائِحٌ طَيِّبَةٌ تَشْبِهُ رَوَائِحَ الْمِسْكِ .

وَأَمَّا الزَمْزَرَةُ الْخَضِرَاءُ ، فَإِنَّ أَرْضَ مِصْرَ فِي شَهْرِ طُوبَةِ ، وَأَمْشِيرٍ ، وَبَرْمَهَاتٍ ،

تَصِيرُ بِالزَّرْعِ مِثْلَ الزَمْزَرَةِ الْخَضِرَاءِ .

وَأَمَّا الْكَهْرَبَةُ الصَّفْرَاءُ ، فَإِنَّ أَرْضَ مِصْرَ فِي شَهْرِ بَرْمُودَةِ ، وَبَشْنَسٍ ، وَبُؤُونَةِ ،

يَدْرِكُ الزَّرْعَ وَيُجَصِّدُ ، فَتَصِيرُ مِثْلَ السَّبِيكِ الذَّهَبِ الصَّفْرَاءِ ، فَهَذِهِ صِفَةُ أَرْضِ مِصْرَ فِي

الْأَرْبَعَةِ فُصُولِ مِنَ السَّنَةِ ، أَنْتَهَى .

(٥) وَنَسَاؤُهَا : وَنَسَاوُهَا .

(٢٠) وَبُؤُونَةٌ : وَبُؤُونَةٌ .

وقال في مصر القائل من أبيات :

ففي سيفها قارورة ، وخريفها
وأما شتاها فالزروع زمرد

٣

وقل العوج الشامي في المعنى :

إن كان في السيف ربحان وفاكمة
وإن يكن في الخريف الدوح مذهبة
وإن يكن في الشتاء النسيم متصلا
ما العيش إلا الربيع المستنير إذا
فالأرض يا قوتة ، والجو لؤلؤة

٦

٩

قال الكندي : مصر أعلاها حجازية ، وأسفلها شامية ، (٢٠ آ) إن أهلها
لا يحتاجون في الشتاء إلى التدفئ بالنار ، كمادة أهل الشام ، ولا في الحرّ التظلل
تحت الخيش من حرّ الشمس ، كمادة أهل الحجاز ، وهي في الإقليم الثالث والرابع ،
فسلمت من حرّ الإقليم الأول والثاني ، ومن برد الإقليم السادس والسابع ، فضعف
حرّها ، وخفّ بردها .

١٥

قال صاحب « مباحج الفكر ومناهج العبر » : ليس في الدنيا شجرة إلا وبمصر
عرفها ؛ ويوجد بمصر في كل وقت من الزمان من المأكول والمشوم ، وسائر أصناف
البقولات والخضر ، في الصيف والشتاء ، لا ينقطع لبرد ولا لحرّ .

١٨

قال بعض الحكماء : لولا ماء طوبة ، وزميس أمشير ، ولبن برمهات ، وورد
برمودة ، ونبق بشنس ، وتين بؤونة ، وعسل أيب ، وعنب مسرى ، ورطب توت ،
ورمان بابة ، وموز هاتور ، وسمك كيهك ، لما سكنت مصر .

٢١

وقال جالينوس الحكيم : لولا قصب السكر بمصر ، ما برأت العلل عن أهلها
سريرا ؛ وقيل : يعمل من قصب السكر ألف نوع من الحلاوى والأطعمة وغير ذلك ،

(١١ و ١٢) كمادة : كمادت .

(١١) التظلل : التفال .

وقد قال القائل في المعنى :

أسمى بمصر حلاوة ثنى على الـ قصب الذى فيها لطيب جنائنه
والله إن مَنّت عليه فالها فضل عايه لأنها من مائه

وقال آخر :

سبحان من أنبت في أرضنا ما بين شوك وحلا فيها
أنبوبة في حشوها سكر قد كان ماء وحلا فيها

ومن معاسن مصر ، وهى السبع زهرات ، التى تجتمع فى وقت واحد بمصر ،
وذلك فى أوائل فصل الربيع ، وهى النرجس ، (٢٠ ب) وهو أول ما يقدم ،
ثم البنفسج ، ثم البان ، ثم الورد النصيبى ، ثم الزهر ، وهو زهر النارج ، ثم الياسمين ،
ثم الورد الجورى ، ويعرف أيضا بالفتحاني ، ويأتى أواخر هذه الأزهار ؛ فهذه السبع
زهرات التى تجتمع فى صعيد واحد ، وتلهج المصريون بذكرها .

وأما زهر النسرين ، وإن كان من أعظم الزهور رائحة ، فإنه غير معدود فى جملة
هذه السبع زهرات ، لأنه يأتى فى آخر أيام الورد الجورى ، فلا يلحق النرجس ،
ولا البنفسج ، فلم يكن معدودا فى جملة هذه السبع زهرات ، لأجل تأخره عنهم ، وقد
قلت فى المعنى :

يا طيب وقت بمصر فيه قد جمعت سبع من الزهر تحويه البساتين
بنفسج نرجس زهر وبان لنا ورد نصيب وجورى ياسمين

وأما الأزهار التى تأتى فى الصيف ، وهى الياسمين ، والنسرين ، والتمرحنا ،
والريحان المدثر ، وشقائق النعمان ، والأفجوان ، والآس ، والريحان النبوي الجمحي ،
والنزام ، والنيلوفر ، والياسمين الأصفر ؛ وأكثر أزهار الصيف : الياسمين ، والتمرحنا ،
والآس .

(١٥) قلت : ابن إياس يعنى نفسه .

(١٧) وياسمين : ويسمين .

(٢٠) والنيلوفر : واللينوفر .

ومن محاسن مصر ، بها من الفواكه : الخوخ الزهرى ، وهو لا يوجد إلا بها ،
والعنب البحيرى ، وهو أصدق حلاوة من العنب الشامى ، وبها التفاح السكرى ،
والكمثرى البلدى ، والرمان المنزلاوى ، والخواخ المشعر الفوى ، وهو غاية فى
الحسن .

ومن ما كوله الرطب ، وهو يفنى عن أكل الملوى معه ؛ وبها التين البرشومى ،
وهو صادق الحلاوة ؛ وبها الجيز ، وهو (٢١ آ) نوع شهى لا يوجد إلا بها ؛ وبها نوع
يسمى الشقى ، وهو مثل البرقوق ، لا يوجد إلا بها ؛ وبها النبق ، واللوز الأخضر ،
وكان بها نوع يسمى السنج ، وهو مثل اللوز الأخضر ، ولكن انقطع من مصر سنة
سبعائة ؛ وبها اللوز الدمياطى ، لا يوجد إلا بها .

ومن محاسن مصر : الأترج ، والكباد ، والتارنج ، والخاص الشعيرى ، وله
منافع مفيدة ، والايهون ، وله منافع مفيدة لإقلاع الصفراء ؛ وبها الايهون الأحمر
الترنيسى ، قيل نقل إلى مصر سنة ثلثمائة من الهجرة ، وهو نوع غريب .
ويجلب إليها بطول السنة الفواكه الشامية ، مثل الكمثرى ، والتفاح ، والسفرجل ،
وغير ذلك من الأنواع .

وليس فى الدنيا بلد فيها نخيل بلح ، مثل إقليم مصر ، يأكلون من ثمره : البسر ،
والرطب ، والتمر على أنواع ، والعجوة ، وينتفعون بخشبها ، وجريدها ، وخصوصها ،
وليفها ، ويعمل منه جملة أنواع مفيدة ، لا يستغنى عنها أحد من الناس ، وهى عمارة
مصر ، وقال القائل فى المعنى :

أرى أهل الشام يفاخرونا وتلك وقاحة فيهم وخصلة

وكيف يفاخرون بالشام مصرًا وثمره كل من فى الشام نخلة

ومن محاسن مصر : العسل النحل المصرى ، روى عن رسول الله ، صلى الله

(١٥) يأكلون : يأكلوا .

(١٦) وينتفعون : وينتفعوا .

(٢٠) يفاخرون : يفاخروا .

عليه وسلم ، أنه أهدى إليه القوقس ، صاحب مصر ، هدية ، ومن جملتها عسل نحل من بنها ، فلما أكل منه أعجبه ، فقال : من أين هذا العسل ؟ ف قيل له : من قرية من قرى مصر ، يقال لها بنها ، فقال : بارك الله في بنها ، وفي عسلها ، فعمّت هذه الدعوة سائر قرى مصر .

وبها نوع يسمى النيدة ، يعمل من بقول القمح ، روى عن مريم . عليها السلام ، لما دخلت مصر ، ومعهما ابنها عيسى ، عليه السلام ، وهو رضيع ، فشكت إلى الله تعالى قلة اللبن منها ، فألمها الله تعالى أن غلّت النيدة ، وأطعمت منها عيسى ، عليه السلام ، (٢١ ب) فاعتدى بها عن اللبن .

ومن محاسن مصر : البطايخ الصيفي ، قيل إنه نقل من الهند إلى مصر ؛ وبها البطايخ النيتاوى ، والبطايخ السلطاني ، والبطايخ العبدلاوى ، قيل إن عبد الله ابن طاهر نقل زريته إلى مصر ، سنة مائتين من الهجرة ، فنسب إليه ، وقيل العبدلى ؛ وأما البطايخ الصغيرى ، فقد نقلت زريته من ضمير إلى مصر ، فى أوائل قرن الثمانمائة - ١٢ أورد القريرى ذلك .

ومن محاسن مصر : الخيار البلدى ، وله منافع مفيدة ، والقثاء ، والخس ؛ وكان بها نوع يسمى القوقس ، ولكن له مدة من حين انقطع عن مصر ؛ وبها نوع يسمى الفجل ، وله منافع مفيدة لمفهم الأكل .

وبها من الخضر : الفت ، والجزر ، والإسفناخ ، والكرونب ، والقرع ، والبادنجان ، والقمطاس ، والفول الأخضر ، والحمص ، والساق ، والبامية ، والموخية ، والرجلة ، وهذه الأنواع منها أشياء تخص بها دون غيرها من البلاد .

وبها الأفيون ، وهو عصارة الخشخاش ، وله منافع ، يحتاج منه إلى سائر البلاد ، ولا سيما بلاد الهند .

ويحتاج من مصر إلى البلاد الشامية : الحناء ، والسمك القديد ، والجبن الحالموم ، والجبن الإقتهسى ، والنييدة ، والكتان ، والزيت الحار ، والعصفر ، والبساة ، ٢٤

والعدس ، وخيار الشنبر ، وغير ذلك من الأنواع ، التي لا توجد إلا بمصر .

ومن محاسن مصر : أن يوجد بها من العقاقير المفيدة في الطب ، وهو : بذر الهندبة ؛ وبذر الرحلة ؛ والثمار العريض ؛ والعرق سوس البوق ؛ وخيار الشنبر ؛ والحبة السوداء ، ولها منافع مفيدة ؛ والشاهزاج ، وله جملة منافع مفيدة للسوداء ؛ والإهليلج ، وله منافع مفيدة ؛ والماسكة ، وهو طين أصفر داخل حجر أسود ، يخل في الماء ويشرب منه لوجع المعدة ، وكان نافعا ، ولكن انقطع من مصر ، وكان يجلب من وادى هيب ، من أراضي الصعيد ؛ والعوسج ؛ وبها المومية ، ولها منافع ؛ وبها الفاسول البرى ، وله منافع مفيدة .

ومن محاسن مصر ، بها السمك الرعاد ، وله منافع مفيدة ، قال جالينوس الحكيم : إذا علق على رأس من به صداع برى ، وبها الأسفةقور ، وله منافع مفيدة لوجع الظهر .

وبها السمك الذى يقال له الأبرميس ، الذى هو سلطان الأسماك ، وله منافع (٢٢ آ) مفيدة ؛ وكان بها الباطلى النيومى ، وكان من محاسن مصر ، ولكن انقطع من النيوم ، فى أوائل قرن التسعمائة ؛ وبها السمك ، المعروف بالبورى ، قال الكندى : ليس فى الدنيا بلد يأكل أهله صيد البحرين طرياً غير مصر .

وبها النمس ، والعرس ، ولها فائدة جليلة فى أكل الثعابين ، حتى قيل : لولا العرس والنمس ، لما سكنت مصر من كثرة الثعابين ، فإنها تأتى مع ماء النيل من أعلا البلاد المحرّة ؛ وبها الحيات ، التي يعمل منها الدرياق ، ولا توجد إلا بمصر فقط ، تصاد فى فصل الربيع من الجبال .

ويجلب إليها من بلاد الصعيد ، العسل الأسود الشقنقىرى ، وله منافع مفيدة ؛ ويجلب إليها من الواحات الأنطاع الإلواحية ، ولها ميزة على غيرها من الأنطاع ؛

(١) التى : الذى .

(١٧) كثرة : كثرت .

(١٨) الحيات : الحياة .

- ويجلب إليها من الفيوم الزيتون الفيومي ، وهو نهاية في الكبر ، والطعم ؛ ويجلب إليها الملح والأطرون والشب ، ولهم منافع لا تحصى .
- ويجلب إليها الخشب الأبنوس الأسود ، وخشب السنط ، الذي يوقد يوما وليلة ٣ ولا يوجد له رماد ، وهو بطلء الخمود ، سريع الوقود ؛ ويجلب إليها الحمام النوبى ، والقمرى ، والغمام ، والأرنب ، وبتر الوحش ، وغير ذلك .
- قال الكندى : إنَّ العصفور الدرورى لا يفرخ إلا بمصر ، دون غيرها من البلاد ، ٦ ويكون ذلك فى كانون الأول ؛ وبها طير الحواصل ، وهو البجع ، الذى يعمل من جلده أخفاف ، ومن حواصله فراء ، تقوم مقام الفراء الفلك ، وهو غاية فى الدفء .
- وبها القراطيس ، وهى الورق البلدى ، قال الكندى : إنَّ أول من اتخذ ٩ القراطيس ، وكتب بها ، يوسف ، عليه السلام ، وهى يكتب فيها مراسيم السلطان ، وتسير إلى سائر الآفاق ، وتجلب بها الأرزاق ؛ قال الكندى : قراطيس مصر لأهل المغرب ، وقراطيس سمرقند ، لأهل المشرق ، تجلب بها الأرزاق . ١٢
- ومن محاسن مصر : أنَّ بها (٢٢ ب) معامل البيض ، وهى كالتنانير ، يوقد ١٥ عليه بالنار ، فتحاكى بها نار الطبيعة ، كحفانة الدجاجة للبيض ، فيخرج منها الذرايح دفعة واحدة ؛ وهى من أعظم ما كوله أهل مصر ، ولا تعمل هذه التنانير إلا بمصر .
- ومن أطيب ما كوله الأوز البلدى ، قيل لما قدم المأمون إلى مصر ، فأكل منه ، واستعظبه على غيره من الطير . ١٨
- وبها لحوم الغنم الضأن ، وهى أطيب من لحوم أغنام سائر البلاد ؛ وبها القمح ٢١ اليوسفى ، وهو أطيب من حبة غيرها من البلاد .
- ومن محاسن مصر : أنَّ بها الخيول العربية ، وهى أجود من سائر خيول البلاد ؛ ٢١ ويقال : مصر تفتخر بالخيول العربية ، والبغال السندية ، والحمر البرلسية ، والأبقار الخيسية ، والبخاتى البجاوية ، والأغنام النوبية ، والمعز الصعيدية .

- ٣ وبها المراكب الحربية ، والمضارب السلطانية ، والسلال الرهانية ؛ وبها يعمل صنعة الكفت ، لا يعمل في بلد غيرها ؛ وكذلك صنعة الرماح ، لا تعمل إلا بها .
- ٣ ويجلب إليها الرقيق من بلاد الرنج ، وليس في الدنيا بلد فيها رقيق زنج ، أكثر من مصر .
- ٦ وبها كان قديماً عِلْمُ النجوم ، وعِلْمُ السحر ، والطلسمات القديمة . وقام الطير ، الذي مكتوب به على البرابي وغيرها ، ولم يكن هذا ببلد غيرها .
- ٦ وبها ظهر عِلْمُ الطبّ اليوناني ، وعِلْمُ المساحة ، وعِلْمُ الحساب القبطي ، والديواني ، والقراريط ، ولم يكن هذا ببلد غيرها .
- ٩ وبها مقطع الرخام المرمر ، وله منافع مفيدة ؛ ومقطع الرخام الأبيض الصمدي ، والأسود السويس ، والرخام السماقي ، والزرزوري ، والنسقي ، لا يوجد إلا بها .
- ١٢ وبها حجر الصوّان المانع ، الذي يعمل منه الأعمدة والأعتاب ؛ وحجر الطواحين ، والمعاصر ، ولا يوجد هذا في (٢٣ آ) بلد غير مصر ؛ وبها حجر الكدان ، الذي يبلط به الدور ، ويعقد به الدرج من السلالم العالية ؛ وبها معمل الزجاج ، ومعمل الشمع .
- ١٥ ومن معاسن مصر في ملابسها ، وهي التفاضيل السكندرية ؛ والأبراد ؛ والظهور المنزلاوية ؛ والمقاعل الشرب الدبيقية ؛ والثياب التنيسية ، التي كانت تجلب إلى بغداد ، برسم الخفاء ، وكانت تنسج بالذهب ، تبلغ البدنة منها خمسمائة دينار ؛ والعارز البهنساوية ، يُباع العارز منها بمائة دينار ، وهو بنير ذهب ؛ والإكسية الصوف العسلية ، التي كانت تعمل من صوف العز ، قيل إن معاوية لما كبر سنّه ، كان في الشتاء لا يدفأ ، فأرسل طلب من عامل مصر كساء منها ، ياتفّ بها حتى يدفأ .
- ٢١ وبها أجلال الخليل ، تجلب منها إلى سائر البلاد ؛ والبراقع ، والستور الفيومية ، تجلب منها إلى سائر البلاد ؛ والطنافس ، والبسط العمل الشريف ، التي لا تعمل

إلا بها ؛ والوثنى ، الذى كان يعمل بالإسكندرية ، يقوم مقام وثنى الكوفة ؛ وبها
١٠٠٠ عمل المحصر العبدانى ، لا يعمل إلا بها ، وينجأ إلى سائر البلاد منها .

قال صاحب « مباحج الفكر » . إن بمصر سبعمائة وخمسين نوعا من العبادن ،
والأصناف ، والملابس ، والفواكه ، لا توجد إلا بها فقط .

ومن محاسن مصر ، وهو القرط ، الذى يزرع فى أراضيها زمن الربيع ، وتربط
٦ عليه الخيول والبائيم ، وتكثر فى تلك الأيام المرعى ، ويطيب اللبن ، وتصير أرض
مصر ما بين إملاق ماء وخضرة ، وليس يوجد هذه الأوصاف فى بلد من البلاد غيرها ،
وقد قال القائل فى المعنى :

وما جلى وجه الربيع محاسنا وصفق ماء النهر إذ غرد القمرى ٩
أناه النسيم الرطب رقص دوحه فنقط وجه الأرض بالذهب المصرى
(٢٣ ب) ومن محاسن مصر نياها ، وهو من أجل محاسنها فى حلاوته وسرعة
١٢ هضمه للأكل ، قال ابن وحشية : إن ماء النيل حلو جدا ، والشرب منه يعفن الأبدان ،
ويؤثر البثر والدمامل ، لكثرة الفضلات الرديّة ، إذا خالط الطعام فيحدث منه ذلك ،
ولكن يدفع عن أهل مصر ذلك الضرر ، إيمان شرب ماء الليمون ، والنارنج ،
١٥ وكثرة استعمال الخل ، وهذا رأس طبهم الأكبر .

قال المسعودى فى « مروج الذهب » : إذا بلغ النيل ثمانية عشر ذراعا وانهبط ،
كانت العاقبة لأهل مصر فى انصرافه ، حدوث وباء بالديار المصرية .

وقال ابن عبد الحكم : نيل مصر مخالف لبقيّة الأنهار ، إذا زاد تنقص جميع
١٨ الأنهار ، والنيل عمارة مصر فى الزراعة ، وأقوات أهلها ، وفرحة أهل مصر بيوم
وفاء النيل لا يعدلها عندهم شيء ، وقد خصّوا بذلك دون غيرهم من البلاد الشامية
٢١ وغيرها ، وقد قال القائل فى المعنى :

(١٢) حلو : حلو .

(١٣) والدمامل : والدمامل

(١٥) وكثرة : وكثرت .

نادى منادى الوفا بمصر إذ علقوا ستره علامة
من الغلا قد سلمت حقاً وبت في الستر والسلامة
وما قيل في المعنى :

النيل أصبح خراً مشعشعاً قد تورّد
وقد حلا حين أضحى بطينه قد تقنّد

وقال القائل :

تهتك الخلق بالتخايق قلت لهم ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول
ستر الإله علينا لا يزال فما أحلى تهتكنا والستر مسبول

٩ قال الكندى : مصر تشتمل على ثلاث مدن ، وهى : مدينة الفسطاط ، التى
أنشأها عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ؛ والقاهرة ، التى عمرها جوهر القائد للمعز
الفاطمى ؛ وقاعة الجبل التى بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن
١٢ أيوب .

ومن جاسن مصر أيضا ، وهو البيزستان المنصورى ، الذى هو من جاسن
الزمان ، لا يستغنى عنه الغنى ، ولا العماوك ، وايس فى الدنيا آثار حسنة ، وخير
١٥ مثله ، وقد عدّ من جاسن مصر أيضا ، انتهى ذلك .

ذكر

أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم

وما أشبه ذلك

١٨

اعلم (٢٤ آ) أنّ طبائع أهل مصر ، وأمزجتهم ، وأخلاقهم ، بعضها شبيها
ببعض ، فإن أبدانهم سخيّة ، سريعة التغير ، قليلة الصبر والجلد ؛ وكذلك أخلاقهم
٢١ تغلب عليها الاستحالة ، والانتقال من شىء إلى شىء ؛ وعندهم الجبن والقنوط والشح ،
وقامة الصبر على الشدائد ، وسرعة الخوف من السلطان ؛ وعندهم قلة الغيرة على عيالهم ؛
وعندهم التحاسد فى بعضهم ، وكثرة الكذب ، وذم الناس ، ومنهم من خصه الله

- بالعقل ، وحسن الخلق ؛ حتى قيل إن كلاب مصر ، أقلّ جرأة من كلاب غيرها من البلدان ، وقيل إن الأسد إذا دخلت مصر ذلت ، وقيل إذاها عما كانت في القنار .
- قال بعض الحكماء : أجساد أهل مصر سخيّة ، لا تقبل الأدوية المفردة ، التي ٣ في كتب أطباء اليونانيين والفرس ، فإنّها كذت على قدر أبدانهم القويّة ، فيجب على الغريب أن لا يعطى المريض أدوية قويّة ، ويبدل كثيرا منها بما يقوم مقامها .
- قال أبو الصلت : أهل مصر الغالب عليها اتباع الشهوات ، والانهماك في اللذات ، ٦ والاشتغال بالتردادات ، والتصديق بالمحالات ، وفي أخلاقهم رقة ، وعندهم بشاشة وملق ، وعندهم مكر وخداع ، ولهم كيد وحيل ، وخسوا بالأفراح دون غيرهم من الأمم .
- قال بعض الحكماء : أهل مصر يتحدثون بالأشياء قبل وقوعها ، وبخبرون ٩ بالأمور المستتابة قبل كونها ، وسبب ذلك أن منطقة الجوزاء تسامت رؤوسهم ، فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها بمدة .
- قال المسعودي : لما فتح عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، العراق والشام ومصر ، ١٢ كتب إلى بعض الحكماء : إنا أناس عرب ، وقد فتح الله علينا البلاد ، وزيد أن ننبؤاً من الأرض مسكنا (٢٤ ب) فصف لنا الأقاليم .
- فكتب إليه عدّة أقاليم ، فلما وصل إلى وصف مصر ، قال : وأما مصر فهي ١٥ أرض غبراء ، كإراءة العارك ، أى الخائض ، تطهر بالنيل كل عام ، وهى مسكن الجبارة ، وديار الزراعة ، هواها راكد ، وحرّها زائد ، وشرّها بائد ، وهى معدن الذهب ، ومنارس الغلال ، تسمن الأبدان ، وتسود الأبخار ، وتنمو فيها الأعمار ، ١٨ نسأؤدا شرّ نساء الأرض ، وعندهم خبث ودهاء ، ومكر ورياء ، وهى بلد مكسب لا مسكن ، أهلها أهل شرّ ، فكن منهم على حذر .
- وقال معاوية بن أبى سفيان ، رضى الله عنه : وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف : ٢١

(٢) إذاها : أذى ها .

(٣) التى : الذى .

(٤) اليونانيين : اليونانين .

فُتِلْتُ أناس ، وُتِلْتُ أشبه بالناس ، وُتِلْتُ لا أناس ولا شبه بالناس ، وقد قال القائل
في المعنى :

وقد دُفَعْنَا إلى زمانٍ لثيم لم نئل منه غير غلّ الصدور ٣
وبلينا من الورى بأناس تركتهم أعجازهم في الصدور
انتهى ما أوردناه من فضائل مصر ومحاسنها ، وقد أطلقتُ عنان القلم في ميدان
استطراد هذا المعنى ، حسب التزمته من ذلك . ٦

ذكر

ما قاله الشعراء في وصف مصر ، ونيلها ، ومفترجاتها
وأوان ربيمها ، وأملاقها ٩

فمن ذلك قول الشيخ شرف الدين بن الفارض ، رضى الله عنه :
وطنى مصر وفيها وطارى ولعيني مشتهاها مشتهاها
ولنفسى غيرها إن سكنت باخيلى سلاها ماسلاها ١٢
مواليا في أوصاف النيل :

أصبحت مفرد ونيل الدمع قد غلق
حتى لتياس خدى بالهناء خلق ١٥
واصفراً جسمى وستر السقم قد عاق
وسدّ دمعى انكسر والأرض قد ملق
نقل بعض المؤرخين ، أن بالقاهرة ، وما حولها ، سبع عشرة بركة ، يعمها ماء
النيل ، غير الخابجان والأملاق . ١٨

وقال الصلاح الصندى :

من شاهد الأرض وأقطارها والناس أنواعا وأجناسا ٢١
ولا رأى مصرا ولا أهلها فمأوى الدنيا ولا الناسا

وقوله :

لم لا أهيم بمصر وأرتضيها وأعشق
وما ترى العين أحلى من مأثها إن تملق
(٢٥ آ) وقوله أيضا :

رأيت في أرض مصر مذحلت بها عجائب ما رآها الناس في جيل
تسود في عيني الدنيا فلم أرها تبيض إلا إذا ما كفت في النيل
وقال الشهاب المنصوري :

أيها النيل إنما أنت غوث لأناس يرون كسرك جبرا
فلسع في أرض مصر واجر زادك الله منه خيرا وأجرا

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى ، رحمه الله عليه :

وكان بمصر السحر قدما فأصبحت وأسجارها أشارها تترقق
ويعجبني منها تملق أهلها وقد زاد حتى مأوها يتملق
وقوله :

ديار مصر هي الدنيا وساكنها وهم الأنام فقابلها بتفضيل
يامن يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل
أخذ هذا المعنى الصلح الصندى وقال :

ركبت في النيل يوما مع أخى أدب فقال دعنى من قال ومن قيل
وسرحت يا نيل مدري اليوم قلت له لا تنكر الشرح يا نحوى للنيل
وقال الشيخ علاء الدين الوداعى ، رحمه الله :

رو بمصر وسكانها شوق وجدد عهدى الخالى
ودف لنا القوط وشنف به سمعى وما الماطل كالحالى
وارو لنا ياسعد عن نيلها حديث صفوان ابن عسال
وقال الممار :

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقا أو مغربا

(٢٥ ب) هذا وإن كنتم على سنبربه
وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب :

زادت فراعن مصر فظلمها قد تكثر
ونيلها بعد كسر طغا بها ونجبر
وقوله :

النيل احمر يوم كسر
لا تلمسوه بزعران
فقلت إذ ستره معلق
فهو ياشراقه مخلق
وقال بدر الدين بن الصاحب :

كانت لمصر مينة
كأنه بعل لها
بالنيل منذ ولّى خات
من بعده ترمّت
وقال الشهاب المنصوري :

اعملوا أهل مصر لله شكرا
إن مصر اسقى الإله ثراها
وقال ابن الصايغ الحنفى :

ارض بمصر فلك ارض
ونيلها العذب ذاك بحر
من كل فن لها فنون
ما نظرت مثله العيون
وقال ناصر الدين العيزراوى :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما
فأولادها الولدان والخور عينها
هى جنة الدنيا لمن يتبصر
وروضتها المقياس والنيل كثر
وقال الشيخ صدر الدين بن عبد الحق :

لا تعجبوا من أهل مصر إن وفوا
وفى لهم فى كل عام نيلهم
بعمودهم ما فى الوفا منهم خفا
فتعلموا من نيلهم ذاك الوفا
وقال الصاحب بهاء الدين زهير :

يارعى الله ارض مصر وحيّا
ما مضى لى بمصر من أوقات

حبذا النيل والراكب فيه مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدني من الحديث عن النيل ودعني من دجلة والفرات
وقال ابن فضل الله :

٣

يحقّ لمصر أن تقيه إذا جرى بها النيل وامتدّت إليه عيون
٢٦ (آ) فامثله من زائر لقدومه تقرّ عيون إذ تقرّ عيون
وقوله أيضا :

٦

تكرم مصر النيل إن زارها وتفرش الخدّ له في سراه
لوم يكن أكرم ضيف أتى ما قدّمت كل قراها قراه
وقال الصلاح الصفدي :

٩

قالوا غلا نيل مصر في زيادته حتى لقد بلغ الأهرام حين طما
فقلتُ هذا عجيب في بلادكم أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما
ولابن الصاحب :

١٢

أصابع النيل وفّت وبالنت في الملاحه
أصابع بالعطايا أبدت لنا ألف راحة
وقال ابن الصاحب :

١٥

إقليم مصر له افتخار بترية عذبة النافع
وحسبه النيل إذ إليه يشار في الفضل بالأصابع
وقال بعضهم :

١٨

مصر لما الأفضال إذ لم تزل على العدا منصوره ظاهرة
ما غولبت كلا ولا قوهرت إلا وكانت مصر والظاهره
وقال بعضهم مطلع زجل :

٢١

أصبحت مصر نزهة الناظرين هي أمّ القرى وزين الملاح
خطبتها منا التتر بالنفوس وعلى مصر راحت الأرواح

ذكر

ما قيل في أسماء مفترجات الديار المصرية

٣ فمن ذلك ما قيل في بركة الحبش ، وشئ من المفترجات القديمة ، قال أبو العلت
أمية الأندلسي :

٦ لله يوم بركة الحبش والأفق بين الضياء والغبش
والماء تحت الرياح مضطرب كصارم في يمين مرتعش
ونحن في روضة مفعوفة دبج بالنور عطفا ووشى
قد نسجتها يد الغمام لنا فنحن من بسطها على فرش
٩ فأنقل الناس كلهم رجل دعاه داعي العبا فلم يطش
وقوله في البريم (٢٦ ب) :

١٢ لله يوم بالبريم قطعته بمسرة دارت به أفلاكه
خرت به أمواهه فتراقصت طاربا لحسن غنائه أسماكه
وقال الشيخ شمس الدين النواجي فيه أيضا وأجاد :

١٥ ألا ربّ يوم بالبريم قطعته بريم يحاكي البدر قبل غيومه
ولله ما أحلا بديع جناسه فقد سرّني ذاك البريم بريمه
وقال آخر :

١٨ يأنس إن لم تذهبي لطيبة وترى أنوار الحبيب وداره
ها أنت في مصر وفيها أثره فلسعي إليه وانظري آثاره
ما قيل في الرصد ، وهو من المفترجات القديمة :

٢١ وليلة عاش سروري بها ومات من يحسدنا بالكمد
بت مع المحبوب في روضة وبات من يرقبنا بالرصد
ما قيل في الآثار النبوي ، قال ابن خطيب داريا :

٢٤ يا عين إن بعد الحبيب وداره وناءت مرابعه وشطّ مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل إن لم تربه فهذه آثاره

ما قيل في افتراق النيل عند المقياس ، لظافر الحدّاد :

انظر إلى الروضة الغناء والنيل واسع بدائع تشبيهى وتمثلى
وانظر إلى البحر مجموعا ومفترقا تراه أشبه شئ بالسراويل

٣

ما قيل في المقياس ، وهو من المفترجات القديمة ، قال الشهاب المنصورى :

تقول لنا مصر أنا خير موطن ولأناس في الأمصار أظرف من ناس
فإن تلك أوقات السرور قصيرة فلا تقطعوها في إلا بمقياس

٦

ولابد البشكى :

انظر إلى مقياس مصر وغنى لي في روضة المشوق في عشاق
وانظر إلى الأغصان كيف تمايلت لسماح نوح الورق في الأوراق

٩

وقال آخر :

تقول مصر حين قاسوا القرى بها أيا من ضيّعوا حرمتى
(٢٧ آ) بأى شئ قستمونى به وبسطة المقياس في قبضتى

١٢

وقال آخر :

إن مصر الأطيب الأرض عندي ليس في حسنّها البديع التباس
ولئن قسّمها بأرض سواها كان بينى وبينك المقياس
ولا بن الفارض ، رضى الله عنه :

١٥

لقد بسطت في بحر جسمك بسطة أشارت إليها بالوفاء الأصابع
فيا مشتهها أنت مقياس نيلها وأنت بها في روضة الحسن يانع

١٨

ما قيل في الروضة والمشتهى ، قال ابن الصايغ الحمفى :

وايلة مرّت لنا حلوة إن رمت تشبيها بها عبتها

٢١

لا يبلغ الواصف في وصفها حدّا ولا يلقى لها منتهى
بتّ مع المشوق في روضة ونلت من خرطومه المشتهى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطلى فى المعنى :

٣ رشف القلب بالسهم رشيق مشتهى حسنه هو المشوق
هو فى مصر روضة ومحيا ووسيم يصبو إليه المشوق
وقوله فيها أيضا :

٦ وروضة أضحى لها المنهى وحسنها المشوق والمشتهى
وهى لمن قد حلها روضة وجنة فيها الذى يُشتهى
وقال الشهاب المنصورى :

٩ كأنما الروضة الغناء غانية بحبها قلب هذا النيل مشغول
أعدافها من غصون الدوح مائسة وريقها من زلال الماء معسول
وللمنصورى :

١٢ أسفر وجهها ورنأ مقلة ياخجلة البدر وظيى الصريم
فى مشتهى وجنته روضة ترهو بوجه قمرى وسيم
وقال المعيار :

١٥ حلت لعشوق مصر فى روضة الخدّ نقطة
ومشتهى النفس منه ردف به زاد غبطة
والقدّ مقياس حسن وزاد فى الخلق بطة
والشهاب بن صالح :

١٨ إن جئت بحر النيل عدى روضة يامشتهى وقاتلى من صدّه
ولئن أتنك من العذول ملامة فاضرب على قول العذول وعدّه
(٢٧ ب) ما قيل فى القوس الذى كان بالروضة من المفترجات القديمة ، قال فيه

٢١ شمس الدين النواجى :

مصر قالت دمشق لا تنتخر قطّ باسمها
لو رأت قوس روضتى منه راحت بسهمها

ما قيل في الكوادي التي تباه النشبة :

مررت بسطّ النيل يوما نخلته مراتع غزلان كوين فؤادي
وناحت على غصن هناك حمامة سقاها الهوى من لوعتي وبهادي
فإن أنكروا العذال حالي وحالها أقول هوى قد خرنّى وكوادي
ولابن نبانة في دار النحاس :

لقد أسعد الله رأى الذي بنى مسجدا وصفه قد وجب
لدار النحاس به بهجة فدار النحاس كدار الذهب
ما قيل في منشية الهراي ، لبعضهم فيها :

منشية الحسن أقنا بها مع رغد في جنة عالية
أطيّارها صاحت بأغصانها ولم تزل أنهارها جارية
ما قيل في موردة الحلفا ، لبعضهم فيها :

بدا الشعر في الحد الذي كان يُشتهى بين للمحبوب حالي وما يخفى
وقد كانت الوجنات بالأمس روضة من الورد وهي الآن موردة الحلفا
ما قيل في الجزيرة المسماة بالطمية ، لابن مكاس :

بأبي الطمية جنة قد زخرت حور وولدان بها ورحيق
لى في ربي قيناتها الرتب العلى ولها بقاي هزة وعالوق
ما قيل في الجزيرة التي ظهرت قبالة المقياس ، وقد سميت حليمة ، وفيها يقول

الشبح إبراهيم العمار :

جزيرة البحر هامت بها عقول سليمة
لما حوت حسن معنى وبسطة مستقيمة
فكم يخوضون فيها وكم مشوا بنمية
ولم تزل ذى احتمال ما تلك إلا حليمة

ما قيل في قناطر أم الخمس التي في الجزيرة ، قال (٢٨ آ) برهان الدين القيراطي

فيها :

قناطر الجيزة كم قادم عليك يلقى فيك أقصى مناه
أناك قوم لاطة فأنحنى ظهرك للوطىء وصبّ المياه
وقال ابن أبي حجلة :

سقيما لتنطرة بجيزة مصر كم بسطت بسيط الماء مثل لحاف
فكأنها قوس ورغوة ماءها قطان تقابه يد النداف
ما قيل في وسيم التي بالجيزة ، وفيها يقول ابن فضل الله :

ما مثل مصر في زمان ربيعها لعناء ماء واعتدال نسيم
أقمت ما تحوى البلاد نظيرها لما نظرت إلى جمال وسيم
ما قيل في الأهرام ، لابن عبد الظاهر دويت :

لله ليال أقبات بالغم في ظلّ بناء شاق كالعلم
بالجيزة والنيل بدا أوله في مقبل الشباب عند الحرم

ما قيل في الجانكي الذي كان فيه شجر الورد ، وهو بالجيزة ، وكان من مفترجات
مصر القديمة ، إلى سنة إحدى وخمسين وثمانمائة ، ثم انقطع الورد من هناك وبطل
أمره ، كما بطل أمر البلسان من المطرية ؛ وكان البلسان أشبه شئ بورق الماوخية ،
وكان ذكيّ الرائحة ، وله رائحة غريبة ، وكان أيضا من مفترجات مصر بالمطرية ،
يسمونه عند القبط عيد المشمشة ، ويتوجهون هناك أعيان الناس على سبيل الفرجة ،
ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من مفترجات مصر ، وفي الجانكي يقول بعض الشعراء
في الورد الذي كان به :

انظر إلى الورد إذ ماست معاطفه فوق النصوص سحيرا والندى نزلا
عرب عذارى بوجنات مودة وثياب نشاوى من ورود طلا
رقصن ملتحنات سندسا خضرا ففقطت بنزار فاكست خجلا

وقال الصاحب نجر الدين بن مكانس في بئر البلسان من موشح :

بئر لها التعظيم والجلالة بدرا أنارت واستدارت هاله

أنموذج الردوس لا محاله لها على الجنة أى دلاله
تذكر الناس نعيم الخلد

٣ (٢٨ ب) ما قيل في جزيرة أروى والزربية ، قال المنصوري :

قم سيدى نسعى إلى فرج زهت ما بين أملاق وبين جسور
وزرى زرايبا بها مبنوثة تسبيك بالولدان أو بالخور
وقال آخر :

٦ إذا رُحِت الجزيرة كى أعدى أرى خاتمة الخيل للطراد
فأذكر يوم حشر الخلق طارا وأدعو بالسلامة فى العاد
وقال ابن أبى حجلة :

٩ أمسيت فى قصب الجزيرة منرما وبقده العسال كلولمان
عيدانه لولا حلاوة ذوقها شبتها فى الشكل بالمران
ولابن قادوس فى الجزيرة :

١٢ أرى سرح الجزيرة من بعيد كأحداق تفازل والنمازل
كأن بحجرة الجوزاء حُطت وأنبتت المنازل فى المنازل
ما قيل فى بولاق ، لبعضهم مطلع زجل :

١٥ فى جزيرة بولاق رأينا عجب أسد ساروا بهم ظبا شاردين
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح أذهلونا خضنا مع الخائفين
وقال بعض الموالاة فى جمع أسماء المفترجات :

١٨ بریم جيزة حلاوى صنعة الخلاق خلى دموعى خطيرى بحرفى إطلاق
لو لفظ مقياس منية طيب الأخلاق وخذ روضة وخالوا المشتى بولاق

٢١ وكان من مفترجات مصر مكان يعرف بالسبع هایل ، وكان بالقرب من شبرا
على بحر النيل (٢٩ آ) وكان يقصد للفرجة ، وفيه يقول سيدى أبو الفضل بن أبى الوفا :

هَلْ طربا دارت دواليبنا بضوع نشر الزهر الشائع
٢٤ أم فقت فى الروض إلها لم فلم تدُر إلا على ضائع

ما قيل في المنية ، قال شمس الدين النواجي :

أركب النيل ما استطعت ففيه راحة للفتى وغاية بغيه
كم تفرجت حين سافرت فيه في بلاد وكم ظفرت بمنيه
وكان من مفترجات مصر قديما مكان يعرف بالتكة ، وخامس الذكر ، وكان
مكان الأزبكية الآن ، وفيه يقول الممار :

يا طالب التكة ذات المنى وفزت منها ببلوغ الوطر
فقطارة من فوقها تكة وتحتمها تلقى خامس الذكر
ومن المفترجات الحادثة ، وهي بركة الأزبكية ، التي أنشأها الأتابكي أزبك ،

سنة إحدى وثمانين وثمانمائة ، وفيها يقول الشيخ شمس الدين القادري ، رحمه الله :

يا حسنها بركة بالحسن ما برحت تزهو على سائر الخلاجان والبرك
تجمع الحسن فيها من معادنه فأصبح الحسن فيها غير مشترك
حققت بدارتها الآثار فهي بهم مثل الشموس ترمى في دارة الفلك
مرآة حسن قربات الجمال بها صادت طيور قلوب الناس بالشرك
وعند ما نصبت أشراك بهجتها

وقال علي بن سعيد المغربي في بركة الفيل :

انظر إلى بركة الفيل التي اكتفت بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

ما قيل في الخليج زمن النيل ، قال الشهاب المنصوري :

جل بينك تلقى فوق الخليج زبدا رابيا كقطعان حليج
(٢٩ب) أو شذورا من أبيض الغيم زانت زرقه في السماء ذات البروج

ولابن ممانى :

خليج كالحسام له صفال ولكن فيه للراى مسرة

رأيتُ به الصغار تجيد عوما كأنهم نجوم في مجرة
ولابن العاصب :

لله حسن خليج تحت قنطرة يضاء قد أحكت عقدا على الطارق
كأنه وهو سار تحتها فرس يوم الرهان له سرج من الورق

ما قيل في بركة الرطلى ، وهى من أحسن مفترجات مصر ، فى زمن النيل

والربيع ، وكان منشؤها سنة خمس وعشرين وسبعائة ، فى دولة الناصر محمد بن قلاوون ،
وكانت تعرف بأرض الطلبة قديما ، وفيها يقول الشيخ شمس الدين بن الصايغ الحنفى :

فى أرض طباطنا بركة مذهبة للعين والعقل
ترجع فى ميزان عقل على كل بحار الأرض بالرطل
وقيل فيها :

انظر إلى بركة الرطلى مبتهجا وائرح عاسنها يا أيها الحماكي
الماء والنبت والحدود الحسان بها كأنها جنة حقت بأمالك
وقال آخر :

قد قلتُ فى بركة الرطلى إذ جمعت من البدور وأصناف الملاح زمر
إن كان فى الفلك الأعلا يرى قمر فهذه فلك دارت بألف قمر
وقال الشهاب المنصورى :

دعوتك فأنهض مسرعا يا أخا الفضل لنشرب أوطالا على بركة الرطلى
فقد سل كف الخصب سيف خليجه ليضرب عنق الجذب أو هامة المحلى
وقد مدت الأدواح أبدي غصونها إلى النيل تستحلى ماء وتستجلى
وقال على ابن سودون مواليا :

يا بركة الرطلى ليش روحى لكى تراح لأن ما نيك لا غولة ولا تمساح
(٣٠) كم من فتى استحى إلى كى راح خاع عذارو وصار فيكى خايع مشكاح
ما قيل فى الجسر الذى بالبركة ، للمنصورى :

وبى ليلة بالجسر فيها تجاسرت يدى على شرب الدامة بالرطل

وقد سنج الأرام في ضوء بدرها فإن خفن من واش تسترن بالظلال
فقم نجاتها من غزال مسلط بكسرة أجنان على صيحة العقل
ما قيل في الجنينة التي بجوار بركة الرطلى ، للشهاب المنصوري أيضا :

٣

كم بالجنينة من قتيل حشيشة لا يستفيق ولا ينفخ الصور
وهبت له الخضراء من أفالها آذان أطروش وعين ضرير
وقوله فيها أيضا :

٦

كم بالجنينة من أصم أبكم ورجلاه في قيد وعيناه في قفل
أشبهه في خلقه بابن آدم مجازا وفي أكل الحشيشة بالهجل
يحاول منه الناس ردّ جوابهم وكيف ردّ القول من مات بالقتل
أيصمى بلا سمع ، أيوى بلا يد أيرنو بلا عين ، أيمشى بلا رجل
ما قيل في كوم الريش ، وهو من المفترجات القديمة :

٩

انظر إلى كوم ريش قد غدا نرها لبّ كل سليم الطبع يجتاب
به بحار لآلى قد حوت قطبا من الزبرجد منها يحصل العجب
ولا تقل كوم ريش ماله ثمن فإن بالريش حقا يحسن الذهب
ما قيل في قنطار الأوز ، وبرك البشنيين ، قال القائل :

١٢

في مصر تُغزى للأوز قناطر يصبو النديم بها لخمرة كأسه
وحكى بها البشنيين شخصا خائضا في الماء لفّ ثيابه في رأسه

١٥

(٣٠ ب) ما قيل في التاج ، والسبع وجوه ، وكان من مفترجات مصر قديما ،
وقد هدم سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة ، في دولة الظاهر جتمق ، ولم يبق له أثر يعرف ،
قال ابن حجة فيه :

١٨

سبع وجوه لتاج مصر تقول ما في الوجود شبيهي
وعندنا ذو الوجوه يهيجي وأنت تاج بفر وجهه

٢١

وفيه يقول صاحب نحر الدين بن مكناس ، من موشح :

والتاج يعلو فوق هام الزهر والسبعة الأوجه ذات البشر
وكل وجهة حولها كقصري مثل بروج حلّ فيها بدر
وقد أتى في كل برج سعد

ولبعضهم :

عاسن مصر تبدو حين تجلى بتاج زانه درر وقرط
وقد كتب الربيع بها سطورا وأتقن خطها شكل ونقط
وللعقيلي :

الروض من أنهاره وبهارد في الصمت الفضى والديباج
تعلو رعيته ماوك غصونه هذا ياكليل وذاك بتاج
ما قيل في برك النيلوفر التي بالأميرية ، لبعضهم :

رأيت في بركة نياوفرا نسيمه يشبه نشر الحبيب
مفتّح الأجفان من نومه حتى إذا الشمس دنت للمنيب
أطبق جفنيه على عينه وغاص في البركة خوف الرقيب
وفيه يقول التنوخي :

ألف المياه تشاكلا بلطافة فتمى يفارق إله لم يصبر
فكانه والماء صاحب مذهب أغراه وسواس بأن لم يطهر
ما قيل فيما يزرع بمصر زمن الربيع ، من القرط ، والكتان ، والفول الأخضر ،
والخشخاش ، وغير ذلك ؛ ما قيل في القرط :

وزهر قرط قد بدا ينفي هموم المكدم
نخاله جواهرها في قصب الزبرجد

ما قيل في الكتان ، فمن ذلك لعل بن برد بك :

وكان الكتان والأرض تحكى صفحة العنبر المشوب بورد

أَلِفَات زمرّد قد علاها همزات النضار واللازورد
وقال آخر فيه :

٣ انظار لكتاب روض وزهره حين يبدو
زورد أَلِفَات همزاتها لازورد
ما قيل في اللسان ، لبدر الدين بن جمعة :

٦ كأنما اللسان إذ أخرج زهرا في الشبه
(٣١ آ) أغصان نبت زبرجد تيجانها مذهبة
ما قيل في القول الأخضر ، قال الصفي الحلي :

٩ انظار لزهو الباقلاء وقد غدا فوق القضيبي عيس في أبراده
يحكي عيون النيد في تلويها بفتوره وبياضه وسواده
ما قيل في زهر الخشخاش ، لبعضهم فيه :

١٢ وزهر خشخاش بدا مشرقا كسكر لا حرب قد يرقا
وإن رمى أوراقه شعرا عاد دبابيس إلى الملتقا
وقال ابن النديم :

١٥ طاب الربيع كأنما عجن العسا كفور مزنته بعنبر طيبه
وتفضفت أزهاره وتذهبت فكأنها الطاووس في تلوينه
انتهى ما أوردناه في مفترجات مصر ، على التمام والكمال .

ذكر

مَن ملك الديار المصرية في أول الزمان

٣ من الجبارة ، والفراعة ، واليونان ، والقبط ، وغير ذلك ، إلى مبتدأ دولة الإسلام ، ومَن ملكها في الإسلام ، إلى دولة الأتراك ، ومَن ملكها من الأتراك ، إلى عامنا هذا ، وهو عام إحدى وتسعمائة ؛ وذلك على توالى السنين ، وانتهاء كل دولة ، وما وقع فيها من الحوادث من المبتدأ للتمهيس ، وذلك على الترتيب ، كما سيأتى ذكر ذلك في مواضعه ، إن شاء الله تعالى ، والمستعان بالله في المبتدأ واختتام ، ومن هنا نشرع في الكلام :

٩ قال العلامة أحمد بن يوسف التينائى في كتاب : « سجع الهديل في أوصاف النيل » : إن شيث بن آدم ، عليه السلام ، دخل مصر ، ونزل بها ، هو وأولاد أخيه قابيل ، وكانت مصر تدعى بابلون ، فسكن شيث فوق الجبل ، وسكن أولاد أخيه (٣١ ب) قابيل أسفل الوادى ، وصاروا يتوارثونها إلى أيام أخنوخ ، وهو إدريس ، ١٢ عليه السلام ، وهو أول من تكلم في علم الهيئة ، وعلم النجوم .

وأما ما ذكره محمد السعوى ، قال : أول مَن ملك أرض مصر قبل الطوفان ، ١٥ تبليل الألسن ، وهو من أولاد قابيل بن آدم ، عليه السلام ، وكان عالماً بعلم الطب ، والكيمياء ، وغير ذلك من العلوم الجليلة ، واستمر على مصر إلى أن هلك ؛ وتولى من بعده ابنه تترأوش الجبار ، وهو الذى بنى مدينة أمسوس ، وهى أول مدينة بنيت بأرض مصر . ١٨

وكان جماعة من أولاد قابيل يسكنون في منائر في الجبل المقطم ، تجاه طرا ، واستمرّوا على ذلك حتى بنى تترأوش هذه المدينة ، وصارت دار الملكة قبل الطوفان ؛ ثم تزايدت العمار ، وبنيت المدن ، حتى قيل : كان من مدينة أمسوس إلى الغرب ٢١ أربعمائة مدينة محكمة البناء ، يسكنها أمم من الجبارة ، وذلك قبل الطوفان .

(٦) المنتهى : لانتهاه .

(٧) إن شاء الله : لإنشاء الله .

- قال العلامة إبراهيم بن وصيف شاه ، في أخبار مدينة أمسوس ، وما كانت عليه من العجائب ، قيل : كان بها طائر من نحاس ، على أسطوانة من رخام أخضر ، يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين ، وعند غروبها مرتين ، فيستدلون بتصنيفه على ما يكون من الحوادث في ذلك اليوم ، فيتهيئون لها ؛ وعمل صنم من حجر أسود في وسط المدينة ، وبجاءه صنم مثله ، إذا دخل المدينة سارق ، لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما ، فإذا سلك بينهما أطبقا عليه ، فيؤخذ باليد .
- وعمل على جوانب هذه المدينة أصناما من نحاس أصفر ، وهي مخوفة ، وملاها كبريتا ، ووكل بها روحانية (٣٢ آ) النار ، فكانت إذا قصدهم عدو أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته من وقته ؛ وعمل فوق جبل بطرس منارا ، يفور منها الماء ، ويستقى ما حولها من المزارع ؛ ولم تزل هذه الآثار باقية حتى أزالها الطوفان .
- وقيل تقرأوش هو الذي أصلح بحرى النيل ، وكان قبل ذلك يتنرق بين الجبلين ، فوسع طريقه ، وقطع من الجبلين ، وأجراه إلى بلاد النوبة ، وشق منه نهرا عظيما ، وبني عليه المدن ، وغرس فيها الأشجار ، ثم سار إلى منبع النيل حتى بلغ خط الاستواء .
- ونظر إلى البحر الأسود المسمى بالزفتى ، ورأى النيل يحرى عليه كالخيط الأبيض ، حتى يدخل تحت جبل القمر ؛ ثم رجع إلى مدينة أمسوس ، وأقام بها مائة وثمانين سنة ، حتى هلك ؛ فلما مات لتأخ جسد به بأدوية مفردة ، حتى لا يبل ، وجعل في تابوت من ذهب ، ودفن في مدينة أمسوس ؛ ولم تزل مدينة أمسوس باقية حتى سماها الطوفان .
- ولما مات تقرأوش خاف من الأولاد ثلاثة ، وهم : تقرأش ، ومصرم ، وعيقام ؛ فتولى بعده ابنه تقرأش ، وكان عالما بهلم الكهانة ، والسحر ، والطلمات ، وكانت

(١١) بحرى : بحرا .

(١٥) ورأى : وراء .

الشياطين تحمله بسريره على أعناقهم ، وتطوف به سائر الأقاليم ، حتى انتهى إلى البحر المحيط ، وبني هناك قلعة في وسط البحر المحيط ، ثم رجع إلى أمسوس ، وأقام بها حتى هلك .

٣

ثم تولى بعده أخوه مصر ، وهو الذى بنى مدينة مصر ، وإليه تنسب ، وجعل هذه المدينة على عشرين ميلا ، وأجرى إليها ماء النيل ، وغرس بها شجرة عظيمة ، كانت تطعم سائر الفواكه ، وعمل في وسط المدينة قبة من رخام أحمر ، وعلى رأسها (٣٢ ب) صنم من نحاس ، ووكل به الروحانية ، فكان إذا خرج أحد من اللصوص في الليل هلك مكانه ، وجعل بهذه المدينة أشياء كثيرة من الطلسمات ، والسحر .

واستمر على ذلك حتى هلك ، وتولى بعده أخوه عيقام ، وكان عالما بعلم الكهانة ، والسحر ، وإليه تُعزى كتب القبط ، التى فيها تواريخهم ، وما يحدث فى الدنيا إلى آخر الزمان ؛ وقيل إن إدريس ، عليه السلام ، رفع فى أيامه إلى السماء ؛ والقبط تذكر عن عيقام هذا أشياء غريبة من السحر ، لا تقبلها العقول لغرابتها .

١٢

وقيل إنّه توجه إلى جبل القمر ، وبني هناك قلعة من نحاس أصفر ، وجعل على منبع النيل هناك خمسة وثمانين تمثالا من نحاس ، يخرج من حاوقها ماء النيل ، بتانون وتدير ، بما يكون فيه لأهل مصر المنفعة ، دون الفساد ؛ وقدّر ذلك على ستة عشر ذراعا ، بما تروى به أراضى مصر كلها ، أعاليها وأسافلها ، ويحصل لها الرى الكامل فى جميع جهاتها ؛ واستمر عيقام ساكنا بالقصر الذى بناه على سفح جبل القمر ، عند البطائح التى يسب فيها ماء النيل من تلك التماثيل ، التى صنعها هناك ، إلى أن هلك ودفن بقصره المذكور .

١٥

١٨

(٩٤) أخوه : أمناه .

(٥) وأجرى : وأجرا .

(٨) الطلسمات : التلسمات .

(١٠ و ١٨) التى : الذى .

(١٢) عيقام هذا : هذا عيقام .

(١٣) وبني : وبنا .

ولما مات تولّى بعده ابنه عرياق ، وكان عالما بعلم الطلسمات ، قيل إنه عمل شجرة
من نحاس أصفر ، ولها فروع ، إذا قرب منها الظالم اختطفته بتلك الفروع ، فلا تفلته
حتى يقرّ بظلمه ، ويخرج من ظلامه خصمه ؛ وقيل إن هاروت وماروت كانا في زمانه ؛
وقيل إن عرياق هذا بنى في وسط مدينة أمسوس قبة عظيمة ، وفوقها كالسحابة التي
(٣٣ آ) في السماء ، تمطر مطرا خفيئا ، شتاء وصيفا ، وعمل تحت تلك القبة
مطهرة ، فيها ماء أخضر ، يتحصّل من ذلك المطر ، فإذا استعمله من به عاهة برأ
من وقته .

واستمرّ عرياق على ذلك حتى تفايرن عليه نساؤه ، فمدت إحداهن إلى طعام ،
ووضعت فيه السمّ ، وقدمته إليه ، فأكل منه ، فمات من وقته ، فكان كما قيل في
المعنى :

كن ما استطعت عن النساء بمغزل إن النساء حبائل الشيطان
ولما مات عرياق ، تولّى بعده ابنه لوجيم ، وكان عالما بعلم الطلسمات ، والسحر ،
وكانت له أعمال عجيبة ، منها أنه عمل أربع منارات في جوانب مدينة أمسوس ، وجعل
على كل منارة صورة غراب ، وفي فيه حية قد التوت عليه ، فلما عاينوا النيران ذلك ،
نقروا من المدينة ، وكانوا قد أفسدوا الزروع والبساتين ، وأكلوا الثمار ، فمن حينئذ
لم يدخل المدينة غراب ؛ واستمرّ لوجيم على ذلك حتى هلك .

وتولّى بعده خصليم ، وكان عالما بعلوم الهندسة ، وهو أول من عمل مقياسا
لزيادة النيل ، وبناء بالرخام ، وجعل في وسطه بركة صغيرة ، فيها ماء موزون بالحكمة ،
وعليها عقابان من نحاس ، أحدهما ذكر ، والآخر أنثى ، فإذا كان أوان الشهر الذي
يزيد فيه النيل ، جمع الكهّان على تلك البركة ، وتكلموا بكلام ، فإن صفّر الذكر ،
كان النيل عاليا في تلك السنة ، وإن صفّرت الأنثى كان النيل ناقصا ، فيستعدّون
لذلك ؛ وهو الذي بنى القنطرة الكبيرة ببلاد الذوبة ، على بحر النيل ؛ واستمر

(٨) نساؤه : نساياه .

(١١) كن : خذ .

(٢٢) بنى : بنا .

خصليم في مُلكه إلى أن هلك .

وتولّى بعده ابنه قتال ، وكان عالما بعالم الطلسمات ، (٣٣ ب) والسحر ، وقيل

٣ إنّه عمل سربا تحت النيل ، ينتمى إلى بلاد الصعيد ، برسم نسائه ، ينزلون به ويمشون فيه إلى بلاد الصعيد ، حتى يزور البرابي التي في أخميم ؛ وقيل إن نوحا ، عليه السلام ، بُعث في زمانه ؛ واستمرّ قفّال على ذلك ، حتى هلك .

٦ وتولّى بعده ابنه تدرسان ، وكان عالما بعالم الطلسمات ، والسحر ، وكانت له أعمال عجيبة ، منها أنّه عمل قصرا من خشب ، ونقش فيه صور الكواكب ، وفرشه بأحسن الفرش ، وحمله على الماء ، ودار يجلس فيه ، هو وبنت عمّه ، وكان يقتصر على حبّ النساء الحسن .

فلما جالس في ذلك القصر الخشب ، أحضر سفرة الشراب ، وشرب ، فبينما هو في أرغد عيش ، والكأس في يده ، إذ هبت من الجوّ ريح شديد ، وهو في وسط البحر ، فاضطرب الماء ، فالتفت ذلك القصر الخشب به ، وتكسر ، ففرق هو ، ومن ١٢ كان معه في ذلك القصر ، عن آخرهم ، وعاد سروره كدرا ، فكان كما قيل في المعنى :

تمتّع من الدنيا بِلذّتكَ التي ظفرت بها مالم تفتك العوائق

١٥ فإمسك الماضي عليك بدائد ولا يومك الآتي به أنت وائق

ولما غرق تدرسان ، تولّى بعده ابنه سرفاق ، وكان عالما بعالم الطلسمات ، والسحر ، وكانت له من (٣٤ آ) الأعمال العجيبة أشياء كثيرة ، فمن ذلك أنّه عمل صورة بطة من نحاس أصفر ، قائمة على اسطوانة من رخام أخضر ، على باب المدينة ، ١٨ فإذا دخل المدينة غريب ، صفقت تلك البطة بجناحيها ، وتصدّر ، بحيث يسمعونها كل من في المدينة ، فيمسون ذلك الغريب بيده ، فكان في أيامه لا يستطيع غريب أن يدخل المدينة ؛ وهو الذي شقّ من النيل نهرا يمرّ إلى بلاد الغرب ، وبني عليه المدن ، ٢١ وملك أرض مصر مائة وستين سنة .

(١٩) يبعث : حتى يبعث .

(٢٠) فيمسون : فيمكروا .

(٢١) وبني : وبنا .

- ٣ واما هلك ، تولى بعده ابنه شهابوق ، وكان عالما بعلوم الطلسمات ، والسحر ، فمن ذلك أنه عمل شجرة من نحاس أصفر ، ونصبها فوق الجبل المقطم ، فكان يقيم بها الرياح إلى البلاد التي يريد الفساد إلى أهلها ، فلا يستطيعون بها الإقامة ، حتى يأتوا إليه ويدخلوا تحت طاعته .
- ٦ وفي أيامه ظهر معدن النفضة في بلاد البجّة ، من أعلا بلاد الصعيد ، فأثار منه أشياء كثيرة ، فكان جميع أوانيه فضة ، حتى أنما خيله ؛ وهو أول من أظهر عبادة النار ، وظهر في أيامه كنوز مصرى الأول ، وأقام شهابوق على ذلك حتى هلك .
- ٩ واما مات تولى بعده ابنه سورنيد ، وقيل سورند ، وكان عالما بعلوم الكهانة ، والسحر ، وكان أغنى ماوك مصر ، بما ظفر به أبوه شهابوق من كنوز مصرى ؛ قيل إن سورنيد هذا عمل امرأة من معادن شتى ، فكان ينظر فيها ما يحدث في الأقاليم من الحوادث ، ونصبها في وسط مدينة أمسوس .
- ١٢ وعمل أيضا صورة امرأة جالسة ، وهى من حجر ، وفي حجرها صبي ترضعه ، فكانت المرأة من نساء مصر ، إذا أصابها آفة اللبن ، وقول لبنها ، مسحت ثديها بشدى تلك الصورة ، فيدرّ (٣٤ ب) لبنها ؛ وإن عسرت ولادة امرأة ، مسحت رأس تلك الصورة ، فتضع حملها سريعا ؛ وإذا وضعت الزانية يدها على تلك الصورة ، ارتعدت جميعها ، فلا تقدر على الرجوع حتى تتوب من ذنبها ؛ ولم تزل هذه الصورة باقية في مدينة أمسوس ، حتى أزالها الطوفان ، وقيل إن هذه الصورة ظهرت بعد
- ١٨ الطوفان ، وعيها أكثر الناس .
- ٢١ قال ابن وسيف شاه : إن سورنيد هذا هو الذى بنى الحرمین العظیمین بمصر ، قبل الطوفان بثلاثمائة سنة ، وكانت الكهنة تنذر الناس بأمر الطوفان ، فبنى سورنيد هذه الأهرام ، وأودع فيها أمواله ونحفه ، وكتبه النفيسة في العلوم الجليلة ، وقال :

(٩) أغنى : أغنا . // أبوه : أباه .

(١٩) بنى : بنا .

(٢٠) فبنى : فبنا .

إن مضي الطوفان ونحن في الدنيا ، فترجع إلينا أموالنا وذخائرنا ، وإن نحن متنا في هذا الطوفان ، فتكون هذه الأهرام قبوراً لأجسادنا ؛ وقد أوسعت في أخبار الأهرام في أول التاريخ ، عند قصة نوح ، عليه السلام .

قال ابن عبد الحكم : لم أجد عند أحد من أهل المعرفة ، عن الأهرام ، خبراً يثبت عن بانيها ، وفي أي وقت بنيت ، وما السبب في ذلك ؛ وقد قال القائل في المعنى :

حسرت عقول أولى النهى واستصغرت لعظيمها الأهرام

ماس ممنة البناء شواهد قصرت لـال دونهن سهام

لم أدر حين كبا التفكير دونها واستوجبت لعجيبها الأوهام

أقبحور أملاك الأعاجم هن أم طاسم رمل كن (٣٥ آ) أم أعلام

وقد بنيت هذه الأهرام في طالع سعيد ، ووكلاؤها روحانية ، تحفظ ما فيها من

الأموال إلى آخر الزمان ، وأخبار الأهرام لا تحصى ؛ قال ابن عبد الحكم : وجد

على الأهرام مكتوباً بالخط القديم ، وهو قلم الطير ، فكان معناه : أنا سورنيد

ابن شهاب ، بنيت هذه الأهرام في ستين سنة ، فن أتى بعدى ، وزعم أنه مثلى ،

فليهدمها في ستمائة سنة ، فإن الهدم أيسر من البناء ، وإنى لما انتهى العمل منها جعلت

لها عيداً ، وكسوتها بالديباج الملقون ، فن أتى بعدى ، وزعم أنه مثلى ، فليكسها

بالحصر إن استطاع لذلك سبيلاً .

قال ابن عبد الحكم : لما دخل الأمير أحمد بن طولون إلى مصر ، أراد أن يفتح

أحد الدرمين ، فخر حولها على أن يجد شيئاً من أبوابها ، فبينما هو يغوص في الرمال ،

فوجد قطعة كبيرة من مرجان أحمر ، وعليها سطور مكتوبة بقلم الطير ، فأحضر

من له خبرة بهذا القلم ، فقرأ ذلك الخط ، فإذا معناه أبيات شعر ، وهى :

(٢) وقد أوسعت : ابن إلياس يعنى قصه .

(٥) بانيها : بانيهما .

(١٤) جعلت : جملة .

(١٥) فليكسها : فليكسوها .

(١٨) أحد : إحدى .

- أنا باني الأهرام في مصر كاهن
وما لكها قدما بها والمقدم
تركها بها آثار علمي وحكمتي
على الدهر لا تبلى ولا تتعلم
وفيهما كنوز جمة وعجائب
والدهر لين مرة ومهجم
وفيهما علومى كاهن غير أننى
أرى قبل هذا أن أموت فتعلم
ستفتح أقنالى وتبدو عجائبي
وفى ليلة فى آخر الدهر تنجم
ثمان وتسع واثنان وأربع
وسبعون بعد المائتين تسلم
(٣٥) ومن بعد هذا جرت تسعين برهة
وتلقى البراني سحرها وتهدم
تروى فعلى فى مخور صنعتها
ستبقى وأفنى ثم تبلى وتعدم
- ٣
٦
٩
١٢
- جمع ابن طولون الحكماء ، وأمرهم بأن يحسبوا هذه المدة ، فلم يتدروا على ذلك ؛
ووجدوا تاريخ هذه الكتابة قبل أن تبني مصر بأربعة آلاف سنة ، فلم يحسبوا ذلك ،
فترك فتح الأهرام ، ولم يظفر منه بغير تلك القطعة المرجان ، انتهى ؛ وقال بعض
الشعراء :
- أست ترى الأهرام دام بناؤها
وفنى لدينا العالم الإنس والجن
كأن رحي الأفلاك أكوأرها على
قواعد الأهرام والعالم الطحن
وقال آخر :
- ١٥
١٨
٢١
- لله أى غريبة وعجيبة
في صنعة الأهرام للألباب
تحكى الخيام مقامة فى نصبها
من غير أعمدة ولا أطناب
وقال السراج الوراق :
- هل شائد الهرمين ثبت سفحها
خوف اهتزاز الأرض من خيالها
أم خالها حسناء تبلى فابتنى
نهدين فوق ترائب الحسناء
وقال الشهاب المنصوري :
- إن جزت بالهرمين قل كم فيها
من عبرة للعاقل المتأمل

(١٠) تبني : تبنا .

(١٣) ترى : ترا .

(١٤) رحي : رحا .

يعنى الزمان وفي حشاه منهما غيظ الحسود وضجرة المستقل وقوله أيضا :

٣ واعجبا والعجاب من هرم في أرض مصر من حكمة القدا
قد أهرم الأرض ثقل وطائه فهي إلى الله تشتكي الهرما
وقال آخر :

٦ تحقّق إن صدر الأرض مصر ونهداها من المرمين شاهد
فواعجباكم أفت قرونا على هرم وذاك الثدى ناهد
(٣٦ آ) واستمرّ سورنيد في ملكه حتى هلك ، بعد أن عاش نحو مائتي سنة ؛

٩ ثم تولى بعده ابنه هوجيب ، وكان عالما بعوام الكهانة ، والسحر ، وقيل هو الذى
بنى أهرام دهشور ، وحمل إليها أمواله وذخائره .

ومن أعماله العجيبة ، أنه عمل درهما من نحاس وعليه كتابة ، ومن شأن هذا

١٢ الدرهم ، إذا ابتاع به صاحبه شيئا ، اشترط على البائع أن يزن له ما يبتاعه منه من
البضائع ، بوزن هذا الدرهم ، ولا يزد عليه شيئا ، فينزع البائع ذلك ، ويقبل منه الشرط ،
فإذا وقع به الوزن ، يدخل قبالة هذا الدرهم جميع ما عند البائع من الأصناف ، ولا تعد
١٥ له في الوزن .

وكان من شأن هذا الدرهم ، إذا أراد صاحبه يبتاع به حاجة يقبله ، ويقول له :

« اذكر الهد القديم » ، ثم يبتاع به ما أراد ، فإذا مضى صاحبه إلى داره ، يجد ذلك

١٨ الدرهم قد سبقه إلى ميزانه ، ويجد البائع به مكان الدرهم ، ورقة من آس ، أو ورقة بيضاء
من قرطاس ؛ فكان الناس يتعجبون من شأن هذا الدرهم ، وقد وجد في بعض الكنوز ،
وحمل إلى خزائن بنى أمية ، وأقام مدّة طويلة ، ثم فقد من بعد ذلك بالكلية .

٢١ واستمرّ هوجيب في ملكه حتى هلك ، وتولى بعده منقاوس ، ابنه ، وكان
جباراً عنيداً ، سفاكاً للدماء ، وكان مولداً بحب النساء ، إذا سمع بامرأة جميلة ، أخذها
من زوجها غصباً .

وكان يسمع بوصف الجنة ، فقال : « أنا أبني لي في الدنيا جنة مثليها » ؛ فبنى له قصرًا على شاطئ النيل ، وتناهى في زخرفته ، وأجرى فيه الأنهار من النيل ، وفرشه بالفرش الفاخرة ، (٣٦ ب) وكان يجلس فيه وحوله النساء الحسنات ، فبينما هو جالس في بعض الأيام ، والكأس في يده ، فشرق به ، ومات من وقته ، ودفن في ذلك القصر الذى بناه .

وتولى من بعده ابنه أفروس ، فكان حسن السيرة ، عادلاً في الرعية ، ولما تولى بعد أبيه رد النساء التى أخذت في أيام أبيه إلى أزواجهن ، وكذلك البنات التى أخذت من سائر البلاد .

ومن أعماله العجيبة ، أنه عمل قبة على شاطئ النيل ، من نحاس أصفر ، وجعل حولها أطيّاراً من ذهب وفضة ، إذا دخل فيها الريح فتصدّر بأصوات مطربة في لغات شتى .

وكان عنده مدهن من ياقوت أحمر ، قطاره خمسة أشبار ، فكان يشرب فيه الخمر ؛ وقد وجد هذا المدهن بعد الطوفان في بعض البرابي ، ودار يتوارثونه الملوكة ، حتى خفي أمره .

واستمر أفروس في ملكه حتى هلك ؛ وتولى بعده ابنه أفالينوس ، فلما ولي بعد أبيه ، أظهر العدل في الرعية .

ومن أعماله العجيبة ، أنه عمل منارة ، وعلى رأسها قبة من نحاس أصفر ، وطلاها بأدوية مفردة ، فكانت إذا دخل الليل ، أضاءت تلك القبة على أهل المدينة ، حتى تصير مثل النهار ، يمشون الناس في ضوءها إلى حوائجهم لا يحتاجون إلى السرج ، فإذا طالع النهار ، وأشرقت الشمس ، خمد ضوءها ، فلا يفسدها كثرة الأمطار ، ولا اختلاف الرياح ؛ وعاش أفالينوس مدة طويلة ، وتزوج ثلثية امرأة ، ولم يولد له ولد . فلما هلك ، لم يكن له ولد ، فتولى بعده ابن عمه فرعان ، فكان جباراً عنيداً ،

(٢) وتناهى : وتناها .

(٢٠) كثرة : كثرت .

- مغرما بحب النساء ، وكان شجاعا بطالا ، يحب الحرب ، ويقمع الجبابرة .
- وفي أيامه وقع الطوفان العظيم بالدنيا ، وكانت السكينة تنحدر بذلك من أيام سورنيد ،
- حتى إنه بنى الأهرام ، وقد تقدم ذكر ذلك عند قصة نوح ، عليه السلام . ٣
- قيل لما أقبل الطوفان ، ونبع الماء ، كان (٣٧ آ) فرغان سكرانا لا يعي ، فقام
- ليهرب في الأسراب من الماء ، فتخلخلت به الأرض ، ونبع الماء من تحت قوائم
- فرسه ، فسقط في الماء ، وغرق ؛ وهلك من دخل في الأسراب بالغم ، وقد طغى الماء ٦
- وعم الدنيا ، مشرقا ومغربا ، وهلك كل من على وجه الأرض ، من آدمي ووحش
- وطير ، ولم ينج من هذا الأمر إلا من دخل السفينة ، وقد تقدم ذكر ذلك .
- فهذه أخبار من ملك أرض مصر قبل الطوفان ، ومن هنا نشرع فيمن ملكها ٩
- بعد الطوفان ، وهم أمم غير هؤلاء الذين تقدم ذكرهم .
- قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : إن نوحا لما خرج من السفينة ، كان معه
- أربعة أولاد ، وهم : سام ، وحام ، ويافث ، وأرفخشذ ؛ وقيل كان له ولد آخر يسمى ١٢
- يخطلون ، فلما خرج من السفينة ، قسم الأرض بين أولاده ، وأولاد أولاده ، فأعطى
- بيصر ابن ولده حام ، أرض مصر .
- قال ابن عبد الحكم : إن بيصر بن حام بن نوح هو الذى بنى مدينة منف بعد ١٥
- الطوفان ، وهى أول مدينة بنيت ، بعد مدينة أمسوس ، بأرض مصر ، وصارت
- منف دار المملكة بعد أمسوس . وكان بيصر بن حام له ثلاثون ولدا ، فبذلك سميت
- مدينة منف « مائة » ، وهى بلسان القبط ثلاثون . ١٨
- فسكن بيصر بن حام بمنف ، هو وأولاده ، وأنشأ بها العجايب ، وكانت فى غربى
- النيل ، على مسافة اثني عشر ميلا ، فى مثلها ؛ وكان لها من الأبواب سبعين بابا ،
- مصفحة بالنحاس الأصفر ؛ وكان بها سبعة بيوت من رخام أخضر ، باسم الكواكب ٢١
- السبعة ، وقد بقى من هذه البيوت بيت ، كان بمنف إلى سنة خمسين وسبعمائة ،

(١٥٣) بنى : بنا .

(٨) ولم ينج : ولم ينجوا .

(٢٢) بيت : بيتا .

فقتله (٣٧ ب) الأتابكي شيخو العمري ، وجعله على باب خانقته التي في الصليبة ، وهو باق إلى الآن .

٣ وكان بمنف أنهار تجري من أعلا سورها ، محكمة من ماء النيل في درج ، كلما وصل الماء إلى درجة امتلاّت الأخرى ، حتى يصعد الماء إلى أعلا السور ، ويدخل بيوت المدينة عن آخرهم ، ثم يخرج من مواضع ، ويسقى البساتين والقرى ، ثم يرجع إلى البحر .

وقد سكنها من بعد ذلك فرعون موسى ، عليه السلام ، وهو القائل : « أليس لي مُلكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » .

٩ ولم تزل منف محكمة البناء ، كثيرة الآثار والكنوز والعجائب ، على ما ذكرناه ، حتى قدم بخت نصر إلى مصر ، وأخربها عن آخرها ، كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه . واستمرّ بيصر بن حام بمنف حتى كبر سنّه ، وقيل إنّهُ عاش سبعمائة سنة ،

١٢ وبيصر هذا هو أبو القبط ، وإليه تنتسب ؛ وكان له خمسة من الأولاد ، وهم : مصرم ، وقفط ، وأشمون ، وأريب ، وصا ؛ فلما مات بيصر بن حام اقتسمت أولاده أرض مصر ، وعمر كل واحد منهم مدينة ، فسُميت به .

١٥ ولما مات بيصر بن حام ، فاستخلف ابنه مصرم ، وكان أكبر أولاده ، وهو الذي بنى مدينة مصر ، وبه سُميت ، وهو مصرم الثاني ، فبنى مصر ، واختطّ سورها ، وأظهر بها العجائب والحكم .

١٨ وأقام بها إلى أن هلك ، فاستخلف أخاه قفط ، وإليه تنتسب مدينة قفط ؛ وقيل هو الذي بنى أهرام دهنشور ؛ وقيل إنّ هوداً ، عليه السلام ، بعث في أيامه ؛ وهو أول من اتخذ النيزوز بمصر في أيامه .

٢١ وقيل إنّ قفط هذا عاش أربعمائة سنة ، ثم هلك ، (٣٨ آ) فاستخلف أخاه أشمون ، وإليه تنتسب مدينة أشمون ؛ وهو الذي شقّ بمصر الأنهار ، وغرس بها الأشجار ، وعقد بها القناطر ، وصنع بها الجسور .

٢٤ واستمرّ أشمون على ذلك حتى هلك ، فاستخلف أخاه أريب ؛ وهو الذي

بني مدينة أترِب ، وإليه تنتسب ؛ وهو أول من اتخذ الكيل والميزان ، واستخرج المعادن من الأرض ، وسار في الناس سيرة حسنة .

- ٣ واستمرّ على ذلك حتى هلك ، فاستخلف أخاه صا ، وهو الذي بني مدينة صا ، وإليه تنتسب ، وهي مدينة كانت على شاطئ بحر النيل ، وآثارها باقية إلى الآن ؛ قيل كنّ بها استلوانة من رخام أبيض ، وعليها مرآة من معادن شتى ، فكان ينظر فيها ما يحدث من الحوادث في سائر الأقاليم السبعة ، من خير أو شرّ .
- ٦ واستمرّ صا في ملكه حتى هلك ، فاستخلف ابنه تدراس ، وكان عالما بعوام البحر ، والكهانة ، وقيل إن صالحا ، عليه السلام ، بعث في أيامه إلى قوم عمود .
- ٩ وهو أول من جبي خراج مصر ، وقد بلغ الخراج في أيامه ألف ألف وخمسين ألف ألف دينار .

- وهو أول من أظهر الصيد ، واتخذ الكلاب السلوقية ، والجوارح ، وكان مولعا بالصيد ، وعمل شجرة من حديد ذات أغصان ، فكانت تجلب كل صنف من أصناف الطير والوحش إليها ، حتى تصاد باليد ، فشجع الناس في أيامه من حوم الطير والوحش ؛ وكان إذا غضب على أهل قرية ، سلط عليهم السباع يقتلونهم في بيوتهم (٣٨ ب) .
- ١٥ واستمرّ تدراس في ملكه حتى هلك ، ثم تولى بعده ابنه ماليق ، وكان عالما بعوام البحر ، والكهانة ، وهو الذي غزا مدائن البربر ، وأمر أهلها ، وكان بالبربر مدينة عظيمة ، يقال لها قرميدة ، وكان بها امرأة ساحرة ، فلما حاصرهم ماليق ، أظهرت لهم أشياء من سحرها ، فطمست عن العسكر مكان المياه ، فلم يعرفوها ، فهلكوا بالعطش ، حتى مات منهم نحو الثلاث ، فلما عابن ماليق ذلك ، ترك حصار تلك المدينة ومضى .

(٣ و ١) بي : بنا .

(٤) باقية : باقى .

(٩) جبي : جبا .

(١٤) يقتلونهم : يقتلهم .

(١٨) فلم يعرفوها : فلم يعرفونها .

٣ قيل لما غزا ماليق بلاد البربر ، رأى بها مدينة ، وبها جماعة من أهلها ، وجوهرهم كوجوه الإنسان ، وأرجلهم مثل حوافر البقر ، وعلى أبدانهم شعر ك شعر العز ، ولهم أنياب بارزة ، كأنياب السباع ، فلما حاصروهم لم يقدر عليهم ، وأظهروا أشياء عظيمة من سحرهم ، فتركهم ومضى .

٦ فلما رجع إلى مصر ، حاق سحر أهل قرميدة بمصر ، فكثرت بها الثعابين والعقارب والفضادع ، وفاض النيل في غير أوانه ، حتى غرق القرى ، ودخل الدور ، فلما عين ماليق ذلك ، لبس السوح ، واقترب الرماد ، وسجد عليه ، ودعا إلى الله تعالى بكشف هذه النازلة ، حتى أنها انكشفت عن أهل مصر .

٩ واستمر ماليق في ملكه حتى هلك ، ثم تولى بعده ابنه خرثناه ، وكان عالما بعوام السحر ، والكهانة ؛ وكان يجلس في السحاب ، ويقيم به ستة أشهر ، ثم ظهر من بعد ذلك عند طلوع الشمس ، وهي في برج الحمل ، وأشار إلى قومه بأنه ما بقي يرجع إليهم ، وأن يولوا غيره . ١٢

فلما أيسوا منه ولوا ابنه عديم ، وكان من (٣٩ آ) الجبارة ؛ وهو أول من صاب أصحاب الجرائم ؛ وكانت له أعمال عجيبه ، منها : أنه عمل قدحا من زجاج أخضر ، إذا صب فيه ماء ، أو غيره ، وشرب منه جميع من في المدينة ، لا ينقص منه شيء ، ولو أقام دهرًا طويلا . ١٥

واستمر عديم في ملكه حتى هلك ، ثم تولى بعده منقاش ، وكان عالما بعوام السحر ، والكهانة ؛ وهو الذي توجه إلى بلاد المغرب ، وانتهى إلى الجبل الأسود الذي ليس له مصعد ، فنقب فيه منائر ، ونقل أمواله وتخفها فيها ، حتى قيل إنه نقل من مصر إلى هذه المنائر ، اثنتي عشرة ألف عجلة ، موسوقة من الجواهر ، وستائة ألف عجلة ، موسوقة من الذهب والفضة ؛ ولما هلك دفن في ذلك الجبل ، عند أمواله . ٢١

ثم تولى بعده ابنه قرسون ؛ وكان عالما بعوام الكهانة ، والسحر ، فنهأ أنه عمل منارة على بحر القلزم ، ووضع فوقها مرآة من معادن شتى ، فكان من شأن هذه

المرأة أنها تجلب الراكب إلى البرّ ، فلا تبحر عند البرّ حتى يؤخذ منها العشر من أصناف البضائع .

٣ واستمرّ قرسون في مُلكه حتى هلك ، ولم يكن له ولد ذكر ، وكانت له بنت تسمّى نونية الكاهنة، فتولّت بعده، وهي أول امرأة ملكت أرض مصر، فلما ملكت مصر ، أظهرت من سحرها العجائب .

٦ ثم هلك ، وتولّى بعدها ابنة عمّها زلفا ابنة مأموم بن ماليا ، فعمرت في مصر دهرًا طويلاً .

ثم وثب عليها مرقونس ، ونزعها من المُلك ، وتولّى عوضها ؛ وكان عالمًا بعلوم السحر ، والكهانة ، فمنها أنه عمل شربة من زجاج أخضر ، إذا ملئت بالماء يصير خمرًا ، وقد وجدت هذه الشربة في بعض الكنوز (٣٩ ب) بمدينة أطفيج .

واستمرّ مرقونس في مُلكه حتى هلك ، فأتى إلى مصر العماقة ، وغزوا أهلها وماكوها ، فخاربههم الوليد بن رومع ، وكان شجاعًا بطلاً ، فقاتل العمايق أشدّ القتال ، حتى كسرهم ، ورحلوا عن مصر .

فلما رأوا أهل مصر شجاعة الوليد ، فلكوه عليهم ، فأقام على مصر نحو مائة سنة ؛ ثم إنّه طغى وتجبّر ، وأظهر الفاحشة ، فسلب الله عليه سبعا فافترسه ، وأكل لحمه ؛ قيل كان له خلقة عظيمة ، وقد وُجد بعد موته خرس من أضراسه ، فكان وزنه ثمانية عشر منّا ، وعلى هذا فقس بقية جسده .

(٣) بنت : بنتا .

(١٦) خرس : خرّسا .

(١٧) بقية : بقيت .

ذكر

مَنْ ملك مصر من الفراعنة

٣ قال ابن عبد الحكم : الفراعنة الذين ملكوا مصر خمسة ، وهم : طوطيس ابن ماليا ، فرعون إبراهيم ، عليه السلام ، والريان بن الوليد ، فرعون يوسف ، عليه السلام ، والوليد بن مصعب ، فرعون موسى ، عليه السلام ، ودارم بن الريان ، وآخر ما يحضرني اسمه الآن . ٦

٩ فاما طوطيس ، فرعون إبراهيم ، عليه السلام ، فإنه كان مغرما بحب النساء الحسان ، وكان يأخذ نساء الناس ، وبناتهم ، غصبا ، وكان له في العارقات حراس بسبب ذلك .

١٢ فاتفق أن إبراهيم ، عليه السلام ، دخل إلى مصر في تجارة ، وكان معه زوجته سارة ، فلما دخل مصر ، وسمع بأخبار ملكها ، تخاف منه على سارة ، فعمد إلى صندوق من الخشب ، وأدخل فيه سارة ؛ فلما مرّ من تحت قصر الملك ، فرآه من أعلا القصر ، فقال لمن حوله : « امضوا واكشفوا لي عن خبر ما في هذا الصندوق » ، فجاءوا أعوان الملك إلى إبراهيم ، فسألوه عما في الصندوق ، فقال : « فيه بضاعة » .

١٥ ثم إنهم أخذوا (٤٠ آ) منه الصندوق ، وأحضروه بين يدي الملك ، فلما فتحه ، فوجد فيه امرأة ، كأنها الشمس المضيئة ، فقال لإبراهيم : « ما تكون هذه المرأة منك » ؟ قال : « هي أختي » ، فقال له الملك : « زوجني بها » ، فقال إبراهيم : « إنها متزوجة » ، فاعتناظ منه الملك ، وأمر بسجنه ، فسجن . ١٨

٢١ ثم إن الملك أدخل سارة إلى قصره ، وزينها بأحسن الزينة ، وأجلسها إلى جانبه على السرير ، ثم مدّ يده إليها ، فبيست يده في الحال ، فقال لها : « إنك لساحرة عظيمة » ، ثم همّ بها ثانيا ، فابتلعه الأرض إلى نصفه ، فقال لها : « أيتها المرأة ، كفى عني سحرك » ، فقالت له سارة : « ليس هذا من فعلی ، إنما هو من إبراهيم ، خليل الله » ؛ فأرسل خلفه ، فلما دخل عليه قام إليه وعظّمه ، وأجلسه معه على السرير ،

واستغفر له ، فسكه إبراهيم من يده ، وخلصه من الأرض ، بعدما كادت تبتله .

ثم إن الملك رد سارة على إبراهيم ، ووهب له جارية جميلة ، تسمى هاجر ، وكان لها من العمر أربع عشرة سنة ، وكان أصلها من مدينة عين شمس ، التي في المطرية ، فأحب إبراهيم هاجر ، وتسرّى بها ، فجاء منها ولده إسماعيل ، عليه السلام ؛ وقيل إن الملك طوطيس أسلم على يد إبراهيم ، عليه السلام ، انتهى ذلك .

وأما فرعون يوسف ، عليه السلام ، فكان اسمه الريان بن الوليد بن أرسلا دس ، وكان حسن السيرة ، عادلاً في الرعية ، وكان خراج مصر في أيامه ألف ألف دينار ؛ قيل وقع الغلاء في أيامه ، فأسقط عن المزارعين بمصر خراج ثلاث سنين .

وهو الذي بنى مدينة العريش ، وكانت من أجل المداخن ؛ وهو الذي غزا بلاد السودان ، وكان منهم طائفة يأكلون الناس جهاراً .

روى في بعض الأخبار عن الإمام علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، أنه قال :

« بمث الله تعالى إلى (٤٠ ب) قوم من السودان نبياً ، فذبجود ، وطبخوه ، وأكلوا من لحمه ، فهم أقصى الأمم قلباً ، ونساؤهم أصلح من رجالهم .

وهو الذي غزا بلاد الجنوب ، فرأى بها أقواماً تحلقة القروود ، ولهم أجنحة يلتفون بها ؛ وغزا أقواماً عند البحر المظلم ، فرأى هناك وادياً شديداً الظلمة ، فكانوا يسمعون فيه صياحاً عظيماً ، ولا يرون فيه أشخاصاً لشدة ظلمته ؛ ورأى هناك سباعاً سوداً ، مخرومة الأنوف .

وسار حتى انتهى إلى البحر الأسود ، المسمى بالزفتى ، فرأى هناك عقارب طيارة ، فخرجت على عسكره ، فهلك منه جماعة كثيرة ؛ ثم سار حتى وصل إلى مدينة ساوكة ، فرأى بها حية عظيمة الخلقمة ، طولها نحو ميل ، إذا قرب منها الذيل ابتاعته ؛ فلما عين الريان ذلك رجع إلى مصر ، وقد فقد من عسكره نحو النصف ، وكان مدة غيبته ٢١ في هذه السياحة إحدى وثلاثين سنة .

قال الواقدي : إن الملك الريان هذا ، هو الذي بنى قصر الشمع القديم ، وكان

- مطلاً على بحر النيل ، وإنما سمي قصر الشمع ، لأنه كان يقد فيه الشمع عند نقل الشمس ، من برج إلى برج ، من الشهور القبطية ، فتعلم أهل مصر أن الشمس نقلت في تلك الليلة ، ولم يزل هذا القصر عامراً ، إلى أن أخربه بخت نصر لما قدم إلى مصر ، وأقام خراباً نحو خمسمائة سنة ، فلما قويت شوكة الروم على اليونان ، واستولوا على مصر ، جددوا بناءه ، وجعله بيتاً لعبادة النيران ، وسمى قصر الجمع .
- ٦ قال وهب بن منبه : إن يوسف ، عليه السلام ، لما دخل مصر ، واشتراه وزير الريان المسمى قطفير ، كان في زمن الريان هذا ، وهو الذي رأى تلك الرؤيا المشهورة ، وقصّها على يوسف وهو في السجن ، وهو الذي قال له يوسف ، عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض » .
- ٩ وقيل إن يوسف بنى مدينة الفيوم في أيامه ، وكان أرضها منائص للماء ، فدبرها (٤١ آ) بالوحى من جبريل ، عليه السلام ، حتى خرج عنها الماء ، فلما انتهى منها العمل ، ركب الريان لينظر ما صنعه يوسف ، فلما رأى ذلك تعجب منه ، وقال : « هذا كان يعمل في ألف يوم » ، فسُميت من يومئذ الفيوم ؛ وكانت محكمة على ثمانية وستين قرية ، على عدد أيام السنة ، لتغل كل قرية منها على أهل مصر يوماً .
- ١٥ واستمرّ الريان على ملكه بمصر ، حتى مات في أيام يوسف ، عليه السلام ، وقيل إنه أسلم على يد يعقوب ، عليه السلام ، لما دخل مصر . انتهى ذلك .
- ولما مات الريان ، استخلف بعده ابنه دارم ، وهو الفرعون الثالث ؛ وكان جباراً عنيدا ، فأظهر عبادة الأصنام ، وعمل صنما من الرخام الأخضر ، وألبسه الثياب الحرير الأحمر ، واتخذ له عيدا ، كلما دخل القمر برج السرطان .
- ١٨ ومن أعماله العجيبة ، أنه عمل تنورا ، يشوى فيه من غير نار ، وعمل قدرا ، يطبخ فيه من غير نار ؛ وعمل سكيناً منصوبة في وسط مدينة منف ، ومن شأنها تأتي

(١٠) بنى : بنا .

(١٨) عبادة : عبادت .

البهائم إليها ، فتذبح نفسها بها من غير يد ؛ وعمل ماء يستحيل نارا ، ونارا يستحيل ماء ؛ وعمل أشياء غريبة من هذه الأنواع .

- ٣ ولم يزل على ذلك حتى نزل ذات يوم في مركب ، ومروا إلى نحو حاووان ، فقام عليه ريح عاصف ، ففرق في البحر عند حاووان ، فطالعوا به وحمل إلى منف ، فدفن بها . وهو الذي توفى يوسف ، عليه السلام ، في أيامه ، ودفن بالنيوم ؛ قال ابن لحيمة : « أقام يوسف مدفونا في بحر الفيوم ، وهو في صندوق رخام مرمر ، في وسط البحر ، نحو ثلثماية سنة ، حتى نقله موسى ، عليه السلام ، إلى بيت المقدس » .
- ٦ ولما هلك دارم بن الريان ، تولى بعده دريموس ، وقيل اسمه عند القبط ميلاطيس ، (٤١ ب) وهو الفرعون الرابع ؛ وكان عالما بعلوم السحر ، والكهانة ، ومن أعماله العجيبة ، أنه عمل ميزانا بكفتين من ذهب ، وعلقها في هيكل الشمس ، وكتب على إحدى كفتيها « حق » والأخرى « باطل » ، وجعل تحتها فصوصا ، ونقش عليها اسم الكواكب ؛ فإذا دخل الظالم والمظلوم ، وأخذ من تلك الفصوص فصا ، وجعله في كفة الميزان ، فتشقل كفة الظالم ، وتخف كفة المظلوم ؛ وقيل إن بخت نصر ، لما دخل مصر ، أخذ هذه الميزان ، ونقلها إلى بابل ، مع جملة ما أخذه من مصر .
- ١٢ واستمر دريموس في ملكه بمدينة منف حتى هلك ، وتولى بعده الوليد بن مصعب ، وهو الفرعون الخامس ، فرعون موسى ، عليه السلام .

- قال وهب بن منبه : كان أصل فرعون من مدينة باخ ، وقيل من أرض حوران ، من نواحي الشام ؛ وكان عتارا ، فتجمد عليه دين ، فخرج هاربا من أصحاب الديون ، حتى دخل مدينة منف ، وكانت يومئذ دار المملكة ، وكان فرعون بشع المنظر ، أعور بعينه اليسرى ، وكان طول لحيته سبعة أشبار ، بحيث إنه كان يعثر فيها ؛ وكان قصير القامة ، يعرج برجليه عرجا فاحشا ، وكان بجمهته شامة سوداء كبيرة .
- ٢١ فلما دخل منف ، وقف على خباز يقال له هامان ، وكان هامان كثيرا للقراءة

(١٠) وعانها ، يعني الميزان ، ويلاحظ أن المؤلف أشار إلى الميزان بصيغة التأنيث في القصة كلها .

(١٢) تلك : ذلك .

في الملاحم ، فلما وقف عليه فرعون رأى به علامات ، تدلّ على ما عنده في الملاحم ، بأنّ من يكون به هذه الصفة لابدّ أن يملك مصر . فقال له هامان : « من أى أرض أقبلت » ؟ فقال فرعون : « من بليخ » ، فقال هامان : « هل لك في صحبتى » ؟ فقال فرعون : « إن شئت ، كنت كذلك » ، فأضافه هامان تلك الآية .

ثم إن فرعون (٤٢ : آ) اشترى حمل بطيخ ، وجاء به إلى باب المدينة ، فلما أراد أن يدخل من باب المدينة ، نهبوه منه جماعة من البوابين ، فلم يبق معه غير بطيخة واحدة ، فباعها بقدر ما اشترى الحمل ؛ ثم قال للناس : « أما في هذه المدينة من ينظر في مصالح الرعية » ؟ فقيل له : إن ملك هذه المدينة مشغول ببلدته ، وفوض أمر مملكته لوزيره ، فهو لا ينظر في مصالح الناس ؛ فقال فرعون في نفسه : هذا وقت انتهاز الفرصة .

ثم خرج إلى المقابر ، وصار لا يمكن الناس أن يدفنوا موتاهم إلا بخمسة دنانير على كل رأس ؛ فقدّر أن بنت الملك ماتت ، فلما أرادوا دفنها ، فقال : « هاتوا خمسة دنانير ، العادة » ، فقالوا له : « ويحك هذه بنت الملك » ، فقال : « ما آخذ عليها إلا عشرة دنانير » ، فما مكّتهم من دفنها حتى أخذ عليها عشرة دنانير .

فلما بلغ الملك خبره ، فقال : « من يكون هذا الرجل » ؟ فقالوا له : « الذى عملته عامل الأموات » ، فأنكر الملك ذلك ، وأرسل خلف فرعون ، فلما حضر بين يديه ، قال له : « ومن عملك عامل الأموات » ؟ فأخبره بما جرى له في الجمل البطيخ ، ثم قال له : « وإنما عملت عامل الأموات حتى يصل إليك خبرى ، وتستيقظ لنفسك ، وتنظر في مصالح رعيتك ، وقد حفظت لك في هذه المدة مالا لا يحصى » .

فلما سمع الملك كلامه ، أفصل وزيره الذى كان يفشّه ، واستقرّ به وزيرا ، فلما تولى سار في الناس سيرة حسنة ، وعدل في الناس ، وكان يتقضى بالحق ، ولو على نفسه ، فأحبّته الرعية .

(٦) فلم يبق : فلم يبق .

(٨) مشغول : مشغولا .

(١١) إلا بخمسة : إلى بخمس .

- فلما مات الملك ، فاختاروه الرعية أن يكون ملكا عليهم ، فولّوه الملك بمدينة منف ، فأظهر العدل ، ونظر في أحوال المملكة ، فأقام جسورها ، وبني قناطرها ، وقطع جزائرها ، وحفر خلجانها ، وكان بها سبعة خلجان جارية ، شتاء وصيفا ، (٤٢ب) ٣ لا ينقطع عنها الماء ، وهم : خليج الإسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دمياط ، وخليج سردوس ، وخليج منف ، وخليج المنهس ، وخليج الفيوم .
- وكان يرسل مائة ألف وعشرون ألف رجل ، ومعهم الطواري والمساحي ، ٦ بسبب قلع القضاة والحلفاء ، وكل نبات يضر بالأرض ، فيسيرون قبله وبحرى ، ولهم رواتب معلومة بسبب ذلك .
- وكان يرسل في أيام التخضير قائدين من قواده ، ومع كل واحد منهما أرب ٩ من القمح ، فيذهب أحدهما إلى أعلا بلاد الصعيد ، والآخر إلى أسفل البلاد البحرية ، فإن وجدا مكانا من الأرض بائرا بغير زرع ، فيكاتبان فرعون بذلك ، فيرسل بصلب عامل ذلك المكان بسبب بوره ، وربما عاد القائدان ومعهما القمح ولم يجدا مكانا ١٢ بائرا بأرض مصر .
- وكان أهل النواحي يكرمون القرى من أهلها ، بكرا ، معلوم ، لا يزيد ولا ينقص ، فإذا مضى أربع سنين ينقص ذلك ، ويعدل تعديلا جديدا ، فيرفق بمن يستحق ١٥ الرقى ، ويزاد على من يحمل الزيادة .
- فلما دبر أراضي مصر هذا التدبير ، استقامت أحوال الديار المصرية ، وصار ١٨ خراجها يومئذ مائة ألف ألف دينار ، بالدينار الفرعوني ، وكان يومئذ ثلاثة مثاقيل بالمثاقيل الآن ، فيكون ذلك ثمانية ألف ألف دينار وسبعين ألف ألف دينار .
- فإذا تكامل جبي الخراج ، فيأخذ فرعون من ذلك الربع لنفسه ، والربع الثاني لجنده ، والربع الثالث لمصالح القرى ، وما تحتاج إليه من حفر الخلجان ، وبناء القناطر ، ٢١ وإصلاح ما فسد من الجسور ، وغير ذلك ، والربع الرابع يدفن في الأرض بسبب

- السنين المجدبة ، وهي كنوز فرعون التي تتحدث الناس بها إلى الآن .
- ولم يزل فرعون على (٤٣ آ) ما ذكرناه ، قائما على ملكه بمدينة منف ، حتى انقضى في أيامه ثلاثة قرون من العالم ، وهو باق على حاله . ٣
- قال وهب بن منبه : عاش فرعون أربعائة سنة ، وهو غول في النعمة ، لا يرى ما يكره من نفسه ، ولا حُم في جسده ، ولا دخل عليه سوء ، فعند ذلك كآل لحيته بالؤلؤ والجواهر ، وطفى ونجبر ، وادعى الربوبية من دون الله تعالى ، فأرسل الله إليه موسى ، عليه السلام ، يدعوهُ إلى الإيمان ، فلم يؤمن ، فأوحى الله تعالى لموسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى بحر القلزم . ٦
- فلما بلغ فرعون ذلك خرج في أثر موسى ، وهو في عساكر لا تحصى ، فلما اتفلق البحر لموسى ، وعدى ببني إسرائيل ، تبعه فرعون ومن معه من العساكر ، فانطبق عليهم البحر ، فغرق فرعون هو وعساكره في بركة الفرندل ، وقد تقدمت أخباره في أول التاريخ عند قصة موسى ، عليه السلام . ٩
- نكتة لطيفة : قال وهب بن منبه : لما طغى فرعون أتاه جبريل ، عليه السلام ، في صفة رجل مستفتى ، فقال لفرعون : « ما تقول في رجل اشترى عبدا ، ورباه صغيرا ، فلما كبر عصى على مولاه ، وقال لست بعبد لك ، وادعى مقام سيده ، فما يكون جزاء ذلك العبد » ؟ فقال فرعون : « جزاؤه التعريق في البحر » ، فقال له جبريل : « أعطاني خطأك بذلك » ، فكتب له فرعون خطاه بذلك ، فلما ألجم فرعون النرق ، أتاه جبريل بخطاه فعرفه ، وقضى على نفسه ، فأراد أن يقول آممت برب موسى وهرون ، فأخذ جبريل خطاه وحشاه في فمه حتى غرق . انتهى ذلك . ١٢
- قال القضاعي : لما غرق فرعون وقومه ، سارت مصر ليس بها أحد من أشرف أهلها ، سوى العبيد والأجراء فقط ، (٤٣ ب) فكانت أعيان النساء من القبط تعتق عبدها وتزوج به ، أو تزوج بأجيرها ، وكانوا يشرطون عليهم أن لا يفعلوا شيئا إلا بإذنهن ، وقد صار ذلك سنة عند القبط إلى اليوم ، لا يفعلون شيئا من الأشياء حتى يُستأذن نساؤهم . ٢١

ثم إن النساء أجمعن رأيهن على أن يولّين عليهن امرأة ، يقال لها دلوكة ، ابنة ريا ، وكانت ذات عقل ومعرفة ، وكان لها من العمر نحو مائة سنة ، فلما كبرها عليهم ، فبنت على أرض مصر حائطاً من أسوان إلى العريش ، وحاشت بها قرى مصر وضياعها ، وجعلت على تلك الحائط أجراساً من نحاس ، فإذا أتاهم من يخافونه ، حرك الأجراس الموكلون بها من كل جانب ، فيسمعها من بالمدينة فيستعدّون لذلك ؛ وآثار هذا الحائط باق إلى الآن ببلاد الصعيد ، وتسمى حائط العجوز .

قال ابن عبد الحكم : لما ملكت دلوكة مصر ، أرسلت خلف امرأة ساحرة من أنصنا ، يقال لها تدورة ، وكانت مشهورة بالسحر ، فقالت لها دلوكة : « إنا قد احتجنا إلى شيء من سحرك ، يمنع عنا من يقصد بلادنا بسوء » ؛ فعملت تلك المرأة رباً من الحجر الصوان ، في وسط مدينة منف ، وجعلت لها أربعة أبواب ، إلى الجهات الأربع ، ونقشت على كل باب منها صور الرجال ، والخيول ، والإبل ، والحمير ، والسنن ، وقالت لدلوكة : « قد عملت لكم عملاً يهلكون به من أراد لكم بسوء ، من برّ أو بحر » ؛ فكانوا إذا قصد إليهم أحد من المراك ، وعجزوا عن قتاله ، دخلوا إلى تلك الصور التي في البراء ، وقطعوا (٤٤ آ) رؤوس تلك الصور أو فلقوا أعينها ، ففهموا فعلوه في تلك الصور فيؤثر مثل ذلك في عسكر العدو الذي يقصدهم ، فامتنعت عنهم المراك لأجل ذلك .

فأقامت دلوكة على ملك مصر نحو مائة وثلاثين سنة ، ولم تزل مصر ممتنعة من العدو في مدة حياتها ؛ وأقامت البراء على ما ذكرناه بعد هلاك الساحرة التي صنعتها ، فكان كلما فسد منها شيء لا يقدر على إصلاحه إلا من يكون من نسل تلك العجوز الساحرة ، فلما انقطع نسلها خربت تلك البراء ، فلم يقدر أحد على إصلاحها من بعد ذلك .

ولما هلكت دلوكة بنت ريا ، تولى على مصر بعدها شخص من أولاد القبط ، يقال له دركون بن باطوس .

ذكر

ابتداء دولة الأقباط بمصر

- ٣ قال السعوى : لما هلك دلوكة بنت ريا ، ملكوا القبط بعدها مصر ستمائة وست وعشرين سنة ، وكان عدة من ملك مصر من الأقباط سبعة وعشرين ملكا ، أولهم دركون وآخرهم المقوقس ؛ ونحن نذكر من أخبارهم ما تيسر ، على سبيل الاختصار .
- ٦ قيل كان دركون هذا فى يوم النيروز ، وهو أول السنة القبطية ، فإذا أصبح الصباح ، يدخل عليه شخص من غير إذن ، ويكون ذلك الشخص ، حسن الوجه ،
- ٩ طيب الرائحة ، عليه أثواب فاخرة ، ويكون فصيح اللسان ، فيقف بين يديه ، فيقول له : « من أنت ، ومن أين أقبلت ، وما اسمك ، وما معك ، وإلى أين تريد ، ولأى شىء وردت » ؟ فيقول الرجل : « أنا المنصور ، واسمى المبارك ، وإلى الملك السعيد أردت ، وبالحنا والسلامة وردت ، وبالدام الجديد أقبلت » ، ثم يجلس بين يديه ؛ وكان يصنع ذلك من نوع التناول فى ذلك اليوم .
- ثم يأتى بعده شخص (٤٤ ب) آخر ، ومعه دابق من الفضة ، وفيه شىء من القمح ، والشعير ، والفول ، والحمص ، والعدس ، والبسلة ، والجلبان ، وفيه قطعة سكر ، ودينار ذهب ، ودراهم فضة ، ضرب ذلك العام الجديد ، وفوق الطبق باقات الآس ، فيضع الطبق بين يديه ، ثم يقدم إليه رغيفا قد صنع من هذه الجبوب السبعة ،
- ١٨ ف يأكل الملك من ذلك الرغيف ، ويطعم من حوله من الوزراء ، وأرباب الدولة ؛ ثم يفرق الملك ما فى حواصله من الثياب والفرش ، ويجدد غيرها فى ذلك العام ، وكانت هذه عادة القبط فى يوم النيروز .
- ٢١ واستمر دركون فى ملك مصر حتى هلك ؛ واستخلف من بعده ابنه توتوس ، فاستمر فى ملك مصر حتى هلك ؛ واستخلف بعده أخاه لقاس ، فلم يمكث غير ثلاث سنين وهلك ، ولم يترك ولدا ؛ فتولى من بعده أخوه مرينا ، فاستمر إلى أن هلك .
- (٢٣) أخوه : أثناء .

وتولى بعده ابنه استمارس ، فكان جبارا عنيدا ، سفاكا للدماء ، عسوفاً في حق الرعيّة ، فلم تطفئه القبط ، فقتلوه ؛ وولّوا عليهم شخصا يقال له بلوطس ، فاستمرّ عليهم نحو أربعين سنة ؛ فلما هلك ، تولى بعده ابنه مالوس ؛ فلما هلك ، تولى بعده ٣ أخوه مناكيل ، فاستمرّ في مُلك مصر نحو أربعين سنة .

فلما هلك ، تولى بعده ابنه يوله ، وهو المعروف عند القبط بالأعرج ، وكان جبارا عنيدا ، وهو الذي سبي أهل بيت المقدس ، وأتى بهم إلى مصر ، واستمرّ متوليا ٦ على مُلك مصر نحو مائة وعشرين سنة ؛ فلما هلك ، تولى بعده أخوه مريئوس ، واستمرّ في مُلك مصر دهرًا طويلا .

فلما هلك ، تولى بعده ابنه قرقوره فأقام بمُلك مصر نحو سنتين ، وهلك ؛ فتولى ٩ بعده أخوه قومس ، وفي أيامه خربت تلك البريا ، التي صنعتها تدورة الساحرة ، وزال ما كانوا القبط (٤٥ آ) يقهرون به الملوك ، واستمرّ قومس في مُلك مصر حتى هلك ؛ وتولى بعده أخوه مريئوس . ١٢

وفي أيامه زحف بخت نصر المائلي على البلاد ، وأخرب بيت المقدس ، وسبي بني إسرائيل ، ثم دخل إلى مصر ، وقتل مريئوس ، صاحب مصر ، وسبي أهل مصر ، وأسر دانيال وأرميا ، عليهما السلام ، وتوجّه بهما إلى أرض بابل ، وقتل من أهل ١٥ مصر نحو سبعين ألفا من بني إسرائيل وغيرها ؛ وأخرب ما كان بمصر من البراني والحِكم التي كانت بها ، والعالمات ، ونهب الأموال التي كانت بمصر ، وحمل ذلك جميعا إلى أرض بابل ، ثم رحل عن مصر ، بعدما أخربها ، وقتل أهلها . ١٨

فأقامت مصر بعد ذلك أربعين سنة خرابا ، ليس بها ساكن ولا متحرّك ، فكان

(٤ و ٧ و ١٠ و ١٢) أخوه : أخاه .

(٦) سبي : سبا .

(١٠) خربت : خربة .

(١٢) مريئوس : كذا في الأصل ، وقرأ : مريئوس .

(١٣ و ١٤) وسبي : وسبا .

(١٧) التي : التي .

النيل إذا زاد ينفرش على الأرض ، ثم ينهبط ولا يُنتفع به في أمر الزرع ؛ وهذه أول
شدة نزلت بأرض مصر ، ولم نزل مصر من بعد ذلك مقهورة من العدو .

٣ قال ابن لميعة : لم نزل مصر ممتنعة من العدو ، ومن بعد غرق فرعون ، ستمائة
سنة ، بما دبرته دلوكة من السحر العظيم ، الذي كان بالبربا ، فلما خربت البربا طمع
فيها العدو .

٦ ثم بعد ذلك تراجع إلى مصر جماعة من القبط وعمرُوا ما أخربه بخت نصر منها ،
وتراجعت أحوالها قليلا ، قليلا ؛ وآخر من حكم بها من القبط : المقوقس ، وكان
اسمه جريج بن منباهي ، وقد أقام في ملكه بمصر إحدى وثلاثين سنة .

٩ وفي أيامه جاءت الروم ، وفارس ، إلى مصر ، وحاربوا أهلها نحو ثلاث سنين من
البرّة والبيجر ، فلما رأى المقوقس ذلك ، صالح الروم ، على أن يدفع إليهم قدرا
معلوما في كل سنة ، ويقرّوهم بمصر على عادتهم ، ويكونوا القبط في ذمة الروم .

١٢ ثم إنّ الفرس ظهرت على الروم ، فغلبوهم ، فصالحوا القبط الفرس ، كما صالحوا
الروم ، وأقامت مصر بين الروم والفرس ، نصفين ، نحو سبع سنين ، (٤٥ ب)
ثم تحاربت الروم مع الفرس ، فتظاعرت عليهم الروم ، وكسروا الفرس أشدّ كسرة ،
١٥ وكان ذلك على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقد نزلت هذه الآية : « أَلَمْ غَلِبَتْ
الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيؤتلبون في بضعة سنين » .

قال الليث بن سعد ، رضى الله عنه : لما ملكت الفرس مصر ، أسست بناء
١٨ الحصن ، وهو المسمّى الآن قصر الشمع ، فلما بلغ هرقل ذلك ، أمّد المقوقس ،
صاحب مصر ، بمساكر عظيمة وحارب الفرس أشدّ المحاربة ، فطاردهم عن مصر ،
وأقام بنصرة صاحب مصر ، المقوقس . واستمرّ المقوقس على مصر إحدى وثلاثين
٢١ سنة ، حتى فتحت على يد عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، كما سيأتى ذكر ذلك
في موضعه .

(٢١) العاص : العاصي . وقد وردت العاصي فيما يلى في بعض المواضع ، وصححناها لتوحيد
الصيغة .

قال عبد الله بن عبد الحكم : لما كانت سنة ست من الهجرة ، ورجع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من غزوة الحديبية ، بعث قُصَّاده إلى الملوكة ، يدعوهم إلى الإسلام ، فبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ، عظيم القبط بمصر ، فلما دخل حاطب إلى مصر ، وجد المقوقس بالإسكندرية ، فتوجه حاطب إلى الإسكندرية ، فوجد المقوقس في قصر يشرف على البحر ، فأشار إليه بكتاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بين أصبعيه ، فلما رآه أشار لمن حوله بأخذ الكتاب منه ، فلما وصل إليه وجده مختوما بخاتم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقبله ووضعته على عينيه .

فلما فضله وقراه ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد ، رسول الله ، إلى المقوقس ، عظيم القبط ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعوة (٤٦ آ) الإسلام فأسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين » يا أهل الكتاب ، تمالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا ، ائمهوا بأنا مسلمون .

فلما فهم ما في كتاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أخذه ووضعته في حق من عاج ، وختم عايه بالرصاص ، وتركه عنده .

قال أبان بن صالح : إن المقوقس أرسل إلى حاطب ذات ليلة ، وخلا به ، وليس عنده أحد إلا ترجمانه ، فقال لحاطب : « ألا تخبرني عن أمور إذا سألتك عنها ، فإني أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك » ؟ فقال حاطب : « لا تسألني عن شيء إلا صدقتك عليه » ، فقال له المقوقس : « ما منع نبيكم أن يدعو على فأساب من ملكي » ؟ فقال حاطب : « ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبي عليه » .

فسكت عنه المقوقس ساعة ، ثم قال له حاطب : « إنه قد كان قبلك رجل ، زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله منه ، فاعتبر أنت بنيرك ، ولا يعتبر بك ، وما بشارة موسى بعيسى بن مريم ، إلا كبشارة عيسى بمحمد ، صلى الله عليه وسلم » .

ثم قال له المقوقس : « ماذا يدعو محمد إليه » ؟ قال له حاطب : « أن تعبد الله ، ولا تشرك به شيئاً ، ويأمرك أن تصلى ، في كل يوم ليلة ، خمس صلوات ، وتصوم في السنة شهراً ، وتحتج البيت ، وتعطى زكاة مالك ، وينهاك عن الخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير » .

ثم قال المقوقس لحاطب : « أفى عينيه عروق حمراء ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، ويركب الحمار ، ويجترى بالثمرات والكسر » ؟ قال حاطب : « هذه صفته » .

قال المقوقس : « قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أن خرج من الشام ، ومن هناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج من العرب ، في أرض جهد وبؤس ، وإن القبط لا تطاوعنى (٤٦ ب) في اتباعه ، وأنا أعلم أن صاحبك سيظهر على البلاد ، وتنزل أمجاد به بساحتنا هذه ، حتى يظهر على البلاد ، وأنا لا أذكر للقبط شيئاً من ذلك » .

ثم إن المقوقس دعا كاتباً يكتب بالعربية ، فكتب كتاباً وهو يقول فيه : « من المقوقس ، عظيم القبط ، إلى محمد بن عبد الله ، السلام ، أما بعد ، فإننى قد قرأت كتابك ، وفهمت ما فيه ، مما تدعوننا إليه من الإسلام ، وقد علمت أنك نبي مرسل ، وأنت خاتم الأنبياء ، وقد أكرمت رسولك غاية الإكرام ، وبثت إليك على يده هدية » .

ذكر الهدية التي بعث بها المقوقس إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : كانت هدية المقوقس ألف مثقال من الذهب ، وجاريتين ، وهما مارية ، وشيرين ، أختها ؛ قال الواقدي : وجارية أخرى يقال لها حسنة ؛ و غلام خصى ، يقال له نابور ؛ وبغلة ، يقال لها الدليل ؛ و حمار يقال له غنير ، وقيل يغفور ؛ وكسوة من بياضات مصر ؛ وعسل نحل من عسل بنها ؛ فلما وصلت هذه الهدية إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قباها ، ونظر إلى مارية ، وأختها شيرين ، فأعجبتهما ، وكره الجمع

بينهما ، ثم عرض الإسلام عليهما ، فأسلمت مارية ، قبل شیرين ، فاختار النبي ﷺ ، صلى الله عليه وسلم ، مارية على شیرين ، وتسرى بها ، فجاء منها إبراهيم ، فماش ثمانية عشر شهراً ومات ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « لو بقى إبراهيم ما تركت قطيعاً إلا وضعت عنه الجزية » ؛ وعاشت مارية إلى سنة خمس عشرة من الهجرة ، وماتت بالمدينة .

وَأما شیرين ، وهبها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لحسان بن ثابت ، فهي أم ولده عبدالرحمن ؛ وقيل (٤٧ آ) بل وهبها لمحمد بن مسلمة الأنصاري ؛ وأما حسنة ، وهبها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لأبي جهم بن حذيفة العبدي .

وَأما نابور ، فإنه كان قرابة لمارية ، وكان كثيراً ما يدخل عليها ، فوقع في نفس النبي ﷺ ، صلى الله عليه وسلم ، منه شيء ، فرجع ، فلقيه عمر بن الخطاب ، فأخبره بذلك ، فأخذ عمر السيف ودخل على مارية ، فأهوى ليضرب نابور به ، فكشف عن ثيابه ، فإذا هو خصى ، فأخبر بذلك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بذلك ، فطابت نفسه .
وَأما البنلة ، والجمار ، فكانا أحب دوابه إليه ؛ وأما العسل ، أكل منه فاستطيبه ، فسأل : « من أين هذا العسل » ؟ فقليل له : « من قرية من قرى مصر ، يقال لها بنها » ، فقال : « بارك الله في بنها ، وفي عسلها » ؛ وأما الثياب البيض فإن بقى عنده منهم بقية ، حتى إنه كفن صلى الله عليه وسلم ، في بعضها .

قال الواقدي : إن المقوقس بعث رسوله مع الهدية ، حتى نظر إلى خاتم النبوة بين كتفي رسول الله ، وأخبر المقوقس بذلك ، انتهى ذلك .

ذكر دخول عمرو بن العاص إلى مدينة الإسكندرية ، في زمن الجاهلية ، قبل الإسلام .

قال ابن عبد الحكم : كان القبط يجتمعون في الملعب ، الذي كان بالإسكندرية ، في يوم معلوم من السنة ، ويرمون بأكرة ، فلا تقع في حجر أحد من الحاضرين ،

- إلا ملك مصر ؛ وكانت هذه الأكرة من الذهب ، مكلّلة باللاؤلؤ والياقوت ، وكانوا يلتفتونها بأكامهم ، فمن وقعت الأكرة في كتمه ، واستقرّت فيه ، لم يمت حتى يملك مصر ؛ وكان يحضر هذا الملعب ألف ألف إنسان من القبط وغيرها ، فلا يكون فيهم أحد إلا وهو ينظر في وجه صاحبه عند وقع الأكرة .
- فاتفق أن عمرو بن العاص ، حضر ذلك الملعب في بعض السنين ، في زمن الجاهلية ، فأقبلت الأكرة تهوى حتى دخلت في كتم عمرو بن العاص ، واستقرّت به ساعة ، فتعجبوا القبط من ذلك ، وقالوا : « ما كذبنا هذه الأكرة قط ، (٤٧ ب) إلا في هذه المرّة ، أترى هذا الأعرابي يملكنا ؟ هذا لا يكون أبدا » ، فلم يزل عمرو حتى ملك مصر في الإسلام ، انتهى ذلك .

ذكر

ابتداء دولة الإسلام ، وفتح مصر

٣ على يد عمرو بن العاص ، رضى الله عنه

قال ابن عبد الحكم : لما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة ، وفتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، مدينة دمشق ، قام إليه عمرو بن العاص وقال له : « يا أمير المؤمنين ، أتأذن لى أن أسير إلى مصر » ؟ قال عمر : « إن فتحها كانت قوة للمسلمين » .

فلم يزل عمرو يهون فتحها عند أمير المؤمنين عمر ، حتى عقد له على أربعة آلاف رجل ، أو دون ذلك ، ثم قال عمر لعمرو بن العاص : « سير وأنا مستخير الله فى أمرك » ، فسار عمرو فى جوف الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس .

فسار حتى نزل فيما بين رفح والعريش ، فلما نزل بها أخرج كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقرأه على المسلمين ، وقال لهم : « أستم تعلمون أن هذه القرية من قرى مصر » ؟ قالوا : « بلى » ، قال : « فإن أمير المؤمنين عهد إلى ، وأمرنى إن لحقنى كتابه ، ولم أدخل مصر ، بأن أرجع ، وقد خاف على المسلمين ، وإن لحقنى كتابه ، حتى أدخل أرض مصر ، فإننى أدخلها ، فامضوا على بركة الله تعالى » ، ١٥ فسار عمرو حتى دخل مصر .

فلما بلغ المقوقس دخول العرب إلى مصر ، فأرسل جيشا إلى عمرو بن العاص فتلاقى مع جيشه على الفرما ، وهى من قرى مصر ، فوقع هناك قتال شديد ، وهو أول قتال وقع فى قرى مصر . ثم إن عمرو أقام يحاصر أهل الفرما نحو شهر ، ففتح الله على يده الفرما ، وهى أول قرية فتحت على يد عمرو بن العاص .

٢١ فقال المقوقس : « ألا تعجبون من هؤلاء العرب ، يقدمون (٤٨ آ) على جيوش

(١٨) قتال شديد : قتالا شديدا .

(٢١) هؤلاء : هؤلاء .

- الروم ، مع كثرتهم ، وهم في قلة من الناس » ؟ فأجابه بعض القبط ، وقال : « إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى جيش إلا استظفروا عليه ، وغلبوه » ؛ ثم إن عمرو وصل إلى بليس ، فتقاتل مع أهلها نحو شهر ، فغلبهم وملكها . ٣
- ثم إن عمرو أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بأن يستمدّه بالعساكر ، فأمدّه بأربعة آلاف أخرى ، فبقى معه ثمانية آلاف ؛ فسار عمرو بمن معه من العساكر ، حتى نزل على الحصن ، وهو مكان قصر الشمع ، فصار من المدينة قائما يحاصرهم مدة طويلة . ٦
- فلما أبطأ خبر الفتح على أمير المؤمنين عمر ، فأمدّ عمرو بأربعة آلاف أخرى ، وفيهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن خالد ، رضى الله عنهم أجمعين ، فنصب عمرو بن العاص مخرجين ، ورمى به على أهل الحصن . ٩
- وكان في الحصن علاج من علاج الروم ، يقال له الأعرج ، فقال لمن حوله : « إذا مرّ عليكم عمرو ، أمير القوم ، فآلقوا عليه صخرة فتقتله » ؛ فرمّ عليهم عمرو ، فحالوا بينه وبين أصحابه ، فقال لهم عمرو : « أنا أصغر من في القوم ، ولا يضركم قتلى ، إن قتلتهموني » ، فقال الأعرج في نفسه : « وإيش يفيد من قتل واحد من جماعة كثيرة » ؟ فأمر بإطلاقه ، فخرج إلى أصحابه سالما ، ولم يعلم الأعرج أنه أمير القوم ، وكانت هذه الحيلة التي دبرها عمرو أول المكائد منه . ١٥
- ثم إن الزبير بن العوام ، رضى الله عنه ، وضع سلميّا إلى جانب السور ، من ناحية سوق الحمام ، وصعد عليه ، وأمر أصحابه إذا سمعوه يكبر ، فيزحف العسكر جميعا ؛ فلما صعد الزبير على السلم ، وكبر ، والسيوف في يده ، فزحف الجيش جميعا ، (٤٨ ب) وكبروا ، فما شك من بالحصن أن العرب قد اقتحموا الحصن ، فهربوا من وجه العرب ، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن وفتحوه .
- فلما بلغ المتوقّس ذلك ، خاف على نفسه من القتل ، فتوجّه إلى الجزيرة ، يعني الروضة ، وأرسل إلى عمرو يسأله في الصلح ، وأن يفرض للعرب ، على القبط ،

دينارين على كل رأس ، فأرسل عمرو يقول للمقوقس : « ليس بيني وبينك إلا ثلاث خصال : إما تدخل في الإسلام ، وإما تعطى الجزية ، وتكون آمناً على نفسك من القتل ، وإما تقاتلنا ونقاتلك » .

٣

قال الليث بن سعد : أقام عمرو بن العاص يحاصر الحصن ستة أشهر ، فلما جاءت رُسُلُ عمرو إلى المقوقس بهذا الجواب ، قال لمن حوله من القبط : « كيف رأيتم في هذا الأمر ؟ » قالوا : « إن هؤلاء القوم لا طاقة لنا بهم ، فإن الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، وليس لأحدهم في الدنيا رغبة ، يجلسون على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، لا يعرف رفيعهم من ضيعهم ، ولا يعرف السيد من العبد ، فإن لم تفتنهموا صالحهم ، وهم محصورون ، فلم يجيبونا بعد ذلك إلى الصالح » .

٦

ثم إن المقوقس أرسل إلى عمرو يقول له : « أرسل إلينا أحداً من عقلائكم ، حتى نتكلم معه ، ما يكون فيه أمر الصالح بيننا وبينكم » ؛ وكان المقوقس في الجزيرة ، وهي الروضة ، وكان بها قصر مطلق على البحر ، يسمى المودج ، تنتزه فيه مأواك مصر من القبط ، فبعث إليه عمرو بن العاص عشرة من الصحابة ، وكبيرهم عبادة بن الصامت ، رضى الله عنه ، وكان أسود اللون ، وقيل المقداد بن الأسود .

١٥

فلما دخلوا على المقوقس استعصر قدر عبادة (٤٩ آ) بن الصامت لسواده ، فقال المقوقس : « نَحْوَا عَنِّي هَذَا الْأَسْوَدَ ، وَقَدَّمُوا غَيْرَهُ يَكْأَمَنِي » ، فقالوا : « هذا الأسود أفضلنا ، وهو سيدنا » ، فقال المقوقس لعبادة : « تقدّم يا أسود ، وكأمنى برفق ، فإنّى أهاب سوادك » ؛ فتقدّم عبادة إليه ، وقال : « قد بعثنا الأمير عمرو على إحدى الثلاث خصال تقدّم ذكرها ، ولا تتمّ لها وجه رابع » .

١٨

فقال المقوقس : « إنّ عساكر الروم مالا يحصى عددهم ، وأنا أخشى أن يقع بينكم القتال ، فيقتلونكم عن آخركم ، وقد طابت أنفسنا أن نصالحكم ، سوّنا لنا ولكم

(٥) رأيتم : رأيتموا .

(٦) هؤلاء : هذا . || طاقة : طاقت .

(٢٢) فيقتلونكم : فيتلونكم .

٢١

من القتل ، على أن تقتض أن يكون لكم على كل رأس من القبط ديناران ،
ولأميركم مائة دينار ، وتخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وترحلوا عنا إلى بلادكم ،
قبل أن تحاط بكم عساكر الروم . ٣

فقال له عبادة بن الصامت : « يا هذا أما تخويفك لنا بعساكر الروم من القتال ،
فإن نحن أرغب ما يكون في قتالهم ، فإن ظفرتنا بكم ، فلله الحمد ، وإن ظفرتنا بنا ،
فإن نحن أشوق إلى لقاء الله تعالى ، والمسير إلى الجنة ، وأما ما ذكرته من المال ، فنحن
قوم لا نبالي بالمال ، إن كثر ، ولا إن قلّ . » ٦

فقال المقوقس : « أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال ؟ فقال عبادة :
« لا ورب السماء والأرض ، فاختاروا لأنفسكم منهم خصلة . » ٩

فالتفت المقوقس ابن حوله من الأقباط ، وقال لهم : « قد فرغ القول منهم ، فإذا
ترون في ذلك ؟ فقالوا : « أما الدخول في دينهم ، فهذا لا يكون أبداً ، وأما أنهم
يسبوننا ، ويعملوننا لهم عبيداً ، فأموت أهون علينا من ذلك . » ١٢

فقال المقوقس لعبادة : « قد أبى القوم من ذلك ، فما ترى ؟ فقال عبادة وهم
بالانصراف (٤٩ ب) .

فقال المقوقس ابن حوله : « أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث ،
وإن لم تجيبوا إليها وأنتم طالعين ، فتجيبون إليها وأنتم كارهين » ، فقالوا : « وأى
خصلة نجيبهم إليها ؟ قال المقوقس : « أما دخولكم في دينهم ، فلا أمركم به ، وأما
قتالهم ، فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولا تصبروا صبرهم ، ولكن افعلوا الثالثة » ،
قالوا : « أفنكون لهم عبيداً ؟ قال : « نعم تكونوا عبيداً أنتم وأولادكم ، إلى أن
تموتوا عن آخركم . » ١٥ ١٨

فلما رجع عبادة إلى عمرو بن العاص ، وأخبره بما قالوه القبط ، فأمر جيوشه ٢١

(١٥) الثلاث : الثلاثة .

(١٩) تكونوا : كذا في الأصل .

- بالقتال لهم ، والمحاصرة ؛ فلما حاصروهم لم يطيقوا القبط ذلك ، وتسحبوا في السفن إلى الروضة ، وحصنوا برّها بالسفن من كل ناحية ، وأحدقوا بهم المسلمون من كل جهة ؛ فلما رأى المقوقس ذلك ، قال للقبط : « ألم أعلمكم بهذه الأحوال قبل وقوعها ، فما تروا الآن » ؟ قالوا : « ندعن للجزية ، ونعقد الصلح بيننا وبينهم » .
- فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص ، يقول له : « إني لم أزل حريصا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال ، التي أرسلت إليّ بها ، فأبى ذلك على من حضرني من القبط ، وآلآن عرفوا نصحي لهم ، ورجعوا إلى قولي لهم بالنصح ، فأعطني منك أمانا ، أجتمع أنا وأنت ، فإن استقام الأمر بيننا ، ثم لنا ذلك ، وإن وقع بيننا خلف ، رجعنا إلى ما كنّا عليه » .
- فلما سمع عمرو ذلك ، استشار أصحابه في ذلك ، فقالوا : « لا تجبه إلى الصلح ، ولا الجزية ، ونحاربه حتى يفتح الله علينا بالنصر عليهم » ؛ فقال لهم عمرو : « قد علمتم ما عهد إليّ به أمير المؤمنين ، بأن أجيب إلى خصلة من هذه (٥٠ آ) الخصال الثلاث ، وقد طال الأمر بيننا وبينهم » .
- فعند ذلك اجتمع رأى الصحابة ، رضى الله عنهم ، على أن يفرضوا على كل رأس من القبط دينارين ، وليس على الشيخ الثاني ، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء من الجزية ، وعلى أن للمسلمين عليهم النزول والضيافة حيثما كانوا من القرى ، مقدار ثلاثة أيام ، فإن أجابوا إلى ذلك عقدنا بيننا وبينهم الصلح .
- فأرسل عمرو يقول للمقوقس : « قد وقع الرأي بيننا على أن تزونا الجزية ، كما تقرّر الحال عليه » .
- قال ابن عبد الحكم : « كان عدد القبط يومئذ ثمانية آلاف ألف إنسان ، غير الروم ؛ ثم إن المقوقس قال للروم : « من أحبّ منكم أن يقيم بأرض مصر ، فليزّن الجزية ، ومن أراد الخروج إلى أرض الروم ، فليخرج ، ولا جزية عليه » .

- ثم إن المتوقس كتب كتاباً إلى ملك الروم، يعلمه بذلك، فكتب إليه ملك الروم:
- « قد أتاك من العرب اثنا عشر ألف إنسان ، فعجزت عن قتالهم ، وبمصر ما لا يحصى
 عددهم من الروم ، فلا سبيل إلى هذا أبداً » ؛ فأرسل المتوقس يقول لعمر بن العاص:
- « إن ملك الروم لم يوافق على أمر الصلح ، ولا الجزية ، ولم يكن نقض الصلح مني » .
- ثم جاءت الأخبار بأن ملك الروم ، أرسل عسكرياً عظيماً في البر والبحر ، فلما
 سمع ذلك عمرو ، خرج إليهم بمن معه من العربان ، فتلاقوا بالكريون .
- وكان عبدالله بن عمرو بن العاص على مقدمة الجيش ، وحامل اللواء يومئذ وردان ،
 مولى عمرو ، فعند ذلك صلى عمرو صلاة الخوف ، وبرز للقتال ، وتلاقى مع عساكر
 الروم هناك .
- فلم تكن إلا ساعة وقد فتح الله تعالى على المسلمين بالنصر على عساكر الروم ،
 فقتل في ذلك اليوم من عساكر الروم ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الصحابة ، في
 ذلك اليوم ، اثنان وعشرون رجلاً .
- فلما وقعت الكسرة على عسكر الروم ، توجهوا إلى ثغر الإسكندرية وحصنوها ،
 وكان عليها يومئذ سبعة أسوار ؛ (٥٠ ب) فلما تحصنوا الروم بالإسكندرية ، أرسل
 هرقل إلى سائر أعماله من البلاد ، يستحثهم في جمع العساكر ، وسرعة الحضور ،
 وقصد قتال عمرو وأصحابه ، فلما سمعوا الصحابة بذلك ، تعلقوا وضاق صدرهم .
- ثم بعد أيام قلائل جاءت الأخبار بأن هرقل قد هلك ، وكفى الله المؤمنين القتال ،
 فكان كما قيل في المعنى :
- تذكر صنع ربك كيف يأتي بمصائبهم من فرج قريب
 فلا تيأس إذا ما ناب خطب فكم في الغيب من عجب عجيب
- قال الليث بن سعد ، رضى الله عنه : مات هرقل سنة عشرين من الهجرة ،
 وكسر الله تعالى بموته شوكة الروم .
- قال ابن لميعة : إن مصر فتحت قبل فتح الإسكندرية بتسعة أشهر ، وقد اختلف

العلماء في فتحها ، عنوة أو صلحا .

قال ابن شهاب : فتحت مصر ، بعضها عنوة ، وبعضها صلحا .

وقال يزيد بن أبي حبيب : مصر كلها فتحت بالصلح ، إلا الإسكندرية ، فإنها ٣

فتحت عنوة .

قال ابن عبد الحكم : لما أبطأ خبر الفتح على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى

الله عنه ، كتب إلى عمرو بن العاص كتابا يقول فيه : « أما بعد ، فقد عجزت لإبطائكم ٦

عن خبر الفتح ، منذ سنتين ، وقد أخبرنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن مصر

ستفتح على أيديكم ، وما ذاك إلا لما أحدثتم ، وأحببتم من الدنيا في قلوبكم ، وأن الله

تعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نيّاتهم ؛ فإذا أتاك كتابي ، فاخطب بالناس وحفّهم على ٩

القتال ، ورغبهم في الصبر ، وأن تكون لهم صدمة ، كصدمة رجل واحد ، وليكن

ذلك عند الزوال من يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ، ووقت الإجابة . »

فلما أتى كتاب عمر إلى عمرو ، قرأه على المسلمين ، ثم صلى ركعتين ، وسأل الله ١٢

تعالى النصر على الأعداء .

وكان عمرو ، لما أتاه كتاب أمير المؤمنين عمر ، كان على الإسكندرية يحاصرها ،

فلما قرأ كتاب أمير المؤمنين ، توجه إلى القتال ، وكان ذلك في يوم الجمعة مستهل ١٥

الحرم سنة عشرين من الهجرة ، فبرزوا للقتال كصدمة رجل واحد ، فانتصروا على

الروم الذين هناك من (٥١ آ) عساكر هرقل .

قال ابن لهيعة : استشهد في فتح الإسكندرية برقا بن الأسود ، وكان من مشاهير ١٨

الصحابة .

فلما فتحت الإسكندرية ، وكانت يومئذ دار الماسكة ، هرب الروم الذين كانوا

بها ، وتسحبوا في الراكب الكبار ، وحملوا ما قدروا عليه من الأموال ، ومن الأمتعة ، ٢١

وتوجهوا إلى نحو بلاد الروم ، وتأخر منهم جماعة بالإسكندرية .

قال ابن عبد الحكم : أحصى من بقي بالإسكندرية من عساكر الروم ، غير

مَنْ تَسَحَّبَ مِنْهُمْ ، فَكَانُوا نَحْوَ سِتْمِائَةِ أَلْفِ إِنْسَانٍ ، غَيْرِ الصَّبِيَّانِ ، وَغَيْرِ النِّسَاءِ ، فَأَفْرَضَتْ عَلَيْهِمُ الْجُزْيَةَ ، عَلَى كُلِّ رَأْسٍ دِينَارَيْنِ ؛ وَكَانَ بَيْنَهَا أَرْبَعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ ، فَرَضَتْ عَلَيْهِمُ الْجُزْيَةَ . ٣

قال ابن لُحَيْمَةَ : لما تَوَجَّهَ عمرو بن العاص إلى فتح الإسكندرية ، بعد فتح مصر ، فحاصر المدينة مدَّةً طويلاً ؛ فلما أعْيَى مِنْ ذَلِكَ ، جاءَ إليه رجلٌ يُقالُ له ابنُ بَسَامَةَ ، وكان بواباً بالإسكندرية ، فقال له : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أُعْطِنِي الْأَمَانَ لِي ، وَأَوْلَادِي ، وَأَهْلَ بَيْتِي ، وَأَنَا أَفْتَحُ لِلْعَسْكَرِ بَاباً خَفِيّاً عَنْ النَّاسِ ، مِنْ أَبْوَابِ الْمَدِينَةِ ، فَيَمْلِكُونَهَا مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ » ؛ فَأَجَابَهُ عمرو بن العاص إلى ذلك ، ففُتِحَ لَهُ الْبَابُ ، فَمَا شَرَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِلَّا وَقَدْ هَجَمَ عَلَيْهِمُ الْعَسْكَرُ ، وَمَلَكَ الْمَدِينَةَ ، فَتَسَحَّبَ مَنْ كَانَ بَيْنَهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَدْ أَخَذَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَسَاكِرَ الرُّومِ ، حَتَّى فَتَحَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةَ ، وَكَانَتْ فِي غَايَةِ التَّحْصِينِ ، قِيلَ كَانَ عَلَيْهَا ثَلَاثَةُ أَسْوَارٍ . ٦ ٩

قال ابن عبد الحكم : لما فتحت مصر ، والإسكندرية ، فأرسل عمرو بن العاص يَبَشِّرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَتَوَجَّهَ بِهِذِهِ الْبَشَارَةَ مَعَاوِيَةَ بْنَ خَدِيجٍ ، فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ الشَّرِيفَةَ ، وَقَتَ الظُّهْرِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ ، فَنَادَى بِالصَّلَاةِ جَامِعَةً ، فَتَسَامَعَتِ الصَّحَابَةُ بِذَلِكَ ، وَأَتَوْا أَفْوَاجاً ، فَلَمَّا تَكَامَلُوا خَرَجَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ ، وَصَلَّى بِهِمْ رَكْعَتَيْنِ ، شَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ صَلَّى بِهِمْ (٥١ ب) صَلَاةَ النِّبِيِّ ، عَلَى مَنْ اسْتَشْهَدَ فِي هَذَا الْفَتْحِ مِنَ الصَّحَابَةِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَكَانَ فَتَحَ مَدِينَةَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ عَنُودَ ، بِغَيْرِ عَهْدٍ وَلَا صُلْحٍ . ١٢ ١٥ ١٨

وكان معنى كتاب عمرو بن العاص ، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : أما بعد ، فإنني فتحت مدينة الإسكندرية ، وهي مدينة لا أقدر أن أصف لك

(٥) أعْيَى : أَعْيَا .

(٧) خَفِيّاً : خَفِيٍّ .

(١٣) مَعَاوِيَةُ : مَعُودِيَّةٌ : وَقَدْ صَحَّحَتْ فِيمَا يَلِي مِنَ الْمَنْ لَتَوْحِيدِ الصِّفَةِ .

(١٥) الصَّحَابَةُ : الصَّاحِبَةُ .

(١٨) وَكَانَ فَتَحَ . . . وَلَا صُلْحٍ : كَتَبَتْ فِي الْأَصْلِ عَلَى الْخَمَاشِ فِي س ٥١ ب .

ما فيها ؛ وهي ثلاث مدائن ، بعضها فوق بعض ، تختطف بالأبصار من شدة بياض
حيطانها ؛ وفيها من الأعمدة الرخام مالا يحصى عددهم .

- ٣ وبها منار في وسط البحر ، طوله نحو أربعائة ذراع ، وفي أعلاه مرآة مسلطة
على بلاد الفرنج ، ينظر الرائي فيها ما يحدث في بلاد الفرنج ، ومن يقصد المدينة
من العدو في المراكب ، فيخبر بذلك أهل المدينة ، قبل وصول المراكب إليها بأيام ،
٦ فيستعدوا لذلك ، وهذا المنار من جملة عجائب الدنيا ، ليس في سائر الدنيا أعجوبة
تشاكله .

- وبها عمود ، يقال له عمود السوارى ، ارتفاعه سبعون ذراعا ، وقطره خمسة أذرع ،
٩ وله قاعدتان ، طول كل واحدة اثنا عشر ذراعا ؛ ووجدت بالمدينة أربعة آلاف دار
محكمة البناء ، مفروشة بالرخام الماؤن ، وفي كل دار منها حمام تختص بها ؛ ووجدت بها
أربعائة مائة برسم الملوك ؛ ووجدت بها اثني عشر ألف بقال ، يبيعون البقل الأخضر
١٢ من بعد العصر إلى العشاء .

- ووجدت بها مائة ألف مركب ، من مراكب الروم ، الكبار ؛ ووجدت بها
أربعين ألف يهودى وجبت عليهم الجزية ؛ ومن الروم ، والقبط ، ستمائة ألف إنسان ،
١٥ سوى النساء والعبيان ؛ ووجدت على هذه المدينة ثلاثة أسوار مائة ، فأعان الله تعالى ،
وفتحت هذه المدينة على أيدي المسلمين .

- فلما جرى ذلك ، أرسل أمير المؤمنين عمر ، إلى عمرو بن العاص ، تقاييدا بولاية
١٨ مصر ، على يدى معاوية بن خديج ، فكان عمرو بن العاص أول من تولى على مصر
(٥٢ آ) في مبتدأ الإسلام ، وهو أول أمرائها . ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ،
رضي الله عنه ، كتب إلى عمرو بن العاص كتابا يقول له فيه : « من كان من القبط ،
والروم ، في أيديكم ، نختاروه بين الإسلام ودينه ، فإن أسلم ، فهو من المسلمين ،
٢١ له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وإن اختار دينه ، فأبقوه على دينه ، وقرروا عليه
في كل سنة دينارين » .

(٣) ذراع : ذراعا .

(٦) فيستعدوا : كذا في الأصل .

ثم إن معاوية بن خديج أتى إلى عمرو بن العاص بكتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،
رضي الله عنه، وتقليد له بولاية مصر .

٣ قال ابن عبد الحكم : لما فتح عمرو بن العاص الحصن ، وهو المسمى الآن قصر
الشمع ، فكان فسطاطه قبالة الحصن ، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية ، أمر بنزع
الفسطاط من ذلك المكان ، فلما أرادوا ذلك ، وجدوا عليه عشاً يمامة قد باضت به
٦ وأفرخت ، فقال عمرو : « اتركوا الفسطاط على حاله احتراماً لليمامة التي عششت عليه » ؟
فلما فتح الإسكندرية وأراد التوجه إلى الحصن ، فقالوا له : « أين ينزل العسكر » ؟
قال : « مكان الفسطاط » ، يعني الخيمة التي تركها هناك ، فلما بنى هناك المدينة ،
٩ فسميت بمدينة الفسطاط بسبب ذلك .

قال ابن عبد الحكم : لما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية ، شرع في بناء
مدينة تجاه قصر الشمع ، وكان هذا الموضع يعرف بدار الحصا ، فأنشأ هناك داراً يحكم
١٢ فيها بين الناس ، وسمّاها مدينة الفسطاط ، فصارت دار الملكة ، وهي أول مدينة
بنيت في الإسلام ، وكان أولها من كوم الجارج ، وآخرها عند الرصد ، وصارت
تزايد في العماره من مبتدأ الإسلام ، إلى أن أنشأ المعزّ القاهرة ، فتلاشى أمر مدينة
الفسطاط . ١٥

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : أول مدينة عرف اسمها بأرض مصر مدينة
أمسوس ، وكانت غربي الأهرام ، (٥٢ ب) يسكنها ملوك الجبارة ، فلما جاء الطوفان
١٨ عاصمها ، ونسي اسمها ؛ ثم بعد الطوفان بنيت مدينة منف ، وصارت دار الملكة ،
يسكنها الفراعنة ، وآخر من سكنها من الفراعنة فرعون موسى ، عليه السلام ،
إلى أن خربها بخت نصر ؛ ثم صارت دار الملكة الإسكندرية ، وسكن بها القبط ،
٢١ وآخر من سكنها من القبط جريج ، المعروف بالقوقس ، وكان يصيف بمصر ، ويشقى
بالإسكندرية .

فلما جاءت دولة الإسلام ، وفتحت مصر ، فأنشأ عمرو بن العاص ، رضي الله

عنه ، مدينة الفسطاط ، وصارت دار المملكة ؛ إلى أن جاء الأمير أحمد بن طولون ،
فأنشأ مدينة من عند حدرة ابن قبيصة إلى الجبل المقطم ، إلى قنطرة السباع ، وسمّاها
القطائع ، وصارت دار المملكة .

٣

إلى أن جاء جوهر القائد من الغرب ، وأنشأ للمعزّ ، القاهرة ، فصارت دار
المملكة ، وبني بها قصر الزمرد ، وكان مكان دار الضرب .

٦

فلما زالت دولة الفاطميين ، وجاءت دولة الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ،
فبنى قلعة الجبل ، وبني سور القاهرة بالحجر الفصّ ، فصارت قلعة الجبل دار المملكة
بمصر إلى يومنا هذا ؛ قال العقيلي في مدينة الفسطاط :

٩

أحنّ إلى الفسطاط شوقا وإتني لأدعو لها أن لا يخلّ بها القطار
وهل في الحيا من حاجة لجنابها . وفي كل قطار من جوانبها نهر
تبدّت عروسا والمقطم تاجها ومن نياها عقد بها انتظم الدرّ

١٢

قال ابن عبد الحكم : لما استقرّ عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط ، استقضى قاضيا
يحكم بين الناس ، فكان أول قاض قضى بمصر في الإسلام ، عثمان بن قيس بن أبي
العاصي السهمي ، تولى بإذن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه .

١٥

قال ابن عبد الحكم : لما استقرّ عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط ، جمع الأقباط ،
وقال لهم : « من كان عنده كنز وكتمه عني ، ضربت عنقه » ، فقبل له : « إن
شخصا من الأقباط ، يقال له بطرس ، عنده كنز عظيم » ، فأرسل خلفه ، فلما حضر
بين يديه ، قال له : « باعني أن عندك كنزا فأحضره » ، فأنكر بطرس ذلك ، فأمر
عمرو بسجنه ، فسجن أياما .

١٨

ثم إن عمرو قال للموكلين به : « هل تسمعون منه يذكر أحدا من أصحابه
(٥٣ آ) في هذه المدة » ؟ قالوا : « نعم ، سمعناه يسأل عن راهب في الطور » .

٢١

(٧٥٥) وبني : وبنا .

(١٢) استنضى : استنضا .

(١٣) قاض قضى : قاضيا قضا .

فأرسل عمرو إلى بطارس ، وهو في السجن ، وأمره بأن ينزع خاتمه من أصبعه ويرسله إليه ، فأرسل إليه بالخاتم الذي كان في أصبعه ، فأخذ عمرو الخاتم وأرسله إلى ذلك الراهب ، الذي في الطور ، عن لسان بطارس ، وهو يقول له : « أرسل لي الوديعة التي عندك صحبة حامل هذا الخاتم سرعة » ، فلما رأى الراهب خاتم بطارس ، عرفه ، فلم يشك في تلك الأمانة بأنها صحيحة ، فأرسل على يد حامل الخاتم حقة مختومة بالرصاص . ٦

فلما أحضرت بين يدي عمرو فتحها ، فوجد فيها صحيفة مكتوبا فيها : إن الأموال التي وجدت في كنوز فرعون ، تحت الفسقية الكبيرة ، التي في قصر الشمع . ٧
فتوجه عمرو إلى قصر الشمع ، فوجد الفسقية المذكورة مملوءة بالماء ، فصرف عنها الماء ، فوجد أرضها مرخمة بالرخام الأبيض ، فنك ذلك الرخام ، فوجد مخبأة فيها ذهب دنائير مسبوكة كالرمة القمح ، فنقله بالقفاف إلى داره ، ثم إنه اكتماله بالربع ، فإذا هو اثنان وخمسون أردبا ؛ هكذا نقله إبراهيم بن وصيف شاه في « أخبار مصر » . ١٢
ثم إن عمرو أحضر بطارس بين يديه ، وضرب عنقه بخضرة جماعة من الأقباط ، فلما رأوا ذلك صار كل من كان عنده كنز ، أحضره بين يدي عمرو ، وإلا صار مثل بطارس ، انتهى ذلك . ١٥

قال ابن نصر المصري : كان على باب قصر الشمع صنم من نحاس أصفر ، على خلقة الجمل ، وعليه شخص راكب ، وهو في زي العرب ، وعلى (٥٣ ب) رأسه عمامة ، وفي رجله نعلان من جلد ، فكانت القبط ، والروم ، إذا تظالموا ، واعتدى بعضهم على بعض ، يقتفوا بين يدي ذلك الصنم ، ويقول المظلوم للظالم : « إن لم تنصفني قبل أن ينجي هذا الرجل الأعرابي ، فيأخذ الحق لي منك إن رضيت ، أو لم ترض » ،

(٥) تلك : ذلك .

(٧) أحضرت : حضرت .

(١١) مسبوكة : مسكوبة .

(١٩) يقتفوا : كذا في الأصل .

(٢٠) لم ترض : لم ترضى .

يعنون بالراكب على الجمل عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ؛ فلما فتح عمرو بن العاص مصر ، أخفت القبط ذلك الصنم ، لئلا يكون حجة عليهم .

٣ قال ابن عبد الحكم : كان بالإسكندرية باب لا يزال مغلقا دائما ، وعليه أربعة وعشرون قفلا ، فعزم القنوقس على فتحه ، فبهوه عن ذلك التساوسة والرهبان ، وقالوا له : « لا تفتح هذا الباب ، واجعل عليه قفلا ، كما فعل من تقدمك من مالوك القبط » ، فلم ينته عن فتحه ، فقالوا له الـرهبان : « نحن نعطيك من المال ما خطر ببالك أن في هذا المكان منه ، ولا تفتح » ، فلم يسمع لهم شيئا وفتح .

فاما دخل فيه ، فلم يجده به شيئا من المال ، ورأى على صدر الحائط منقوشا ، هيئة تصاوير العرب ، وهم على خيولهم ، بعمائمهم ، وسيوفهم في أوساطهم ، وهم على الخيل ، والإبل ؛ ورأى تحت هذه الصور كتابة بالقلم القديم ، فأحضر من قرأ ذلك الخط ، فإذا معناه : « إذا فتح هذا المكان في آخر الزمان ، فتعـلمك العرب المدينة في السنة التي يفتح فيها » .

١٢ وكان الأمر كذلك ، وملكوا العرب المدينة في تلك السنة ، وكان كل من ملك الإسكندرية يجعل على ذلك الباب قفلا ، وهذه الأفعال بعدد من ملك الإسكندرية من الملوـك ، انتهى .

١٥ قال ابن لمية : لما فتحت الإسكندرية ، احتال جماعة من الروم المستعربة ، وأتوا إلى عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، وأحضروا معهم كتابا بخط قديم ، فإذا فيه مكتوب (٥٤ آ) : أن أموال الإسكندر بن فلبش - وقيل فلبش كان جدّه لأمه - ناهيل بنت ملك الروم - المجدونى الروى ، تحت النار ، الذى بالمدينة ، عند النصف

(٣) باب : بابا .

(٤) التساوسة : التساوسة .

(٦) فلم ينته : فلم ينتهى .

(٧) منه ، يبنى من المال .

(١٨) فلبش : فلبش .

(١٩) المجدونى : المجدونى .

من بنائه ، فحسّنوا لعمر بن العاص أن يهدم المنار إلى نصفه ، ويأخذ الأموال التي فيه ، ثم يعيد بناء المنار إلى ما كان عليه .

- ٣ فأمر عمرو بهدم المنار ، وقلع الرّاة التي كانت به ، فلما هدموه إلى مقدار ثلثه ، فلم يجدوا فيه شيئاً من المال ، فطلب الجماعة الذين ذكروا له ذلك ، فلم يجدهم ، وقد هربوا تحت الليل ، وتمت حياتهم على عمرو بن العاص ، وعلم أنها خديعة من الروم ، ثم شرع عمرو في بناء ما هدم من المنار ، ووضع الرّاة كما كانت أولاً ، فبطل فعائها من حينئذ .
- ٦ وكان من شأن هذه الرّاة ، إذا دنا من المدينة عدو يقابلون بهذه الرّاة عين الشمس ، ويستقبلون بها سفن العدو ، فيقع شعاع الشمس على الرّاة ، فتحترق السفن ، وهي في البحر ، ويهلك من فيها من العدو .
- ٩ وكانت هذه الرّاة يرى فيها ما يحدث في القسطنطينية من الحوادث ، حتى يرى فيها الرّاة وهي تحاب البقرة ، وغير ذلك . فبطل فعائها من يومئذ ، وكانت من جملة عجائب الدنيا ، انتهى ذلك .
- ١٢

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين من الهجرة

- فيها أرسل عمرو بن العاص المقداد بن الأسود ، رضى الله عنه ، إلى مدينة دمياط ، فحاصر أهلها بمن معه من العساكر حتى فتحها ، وكان بها شخص من القبط ، يقال له الهاموك ، وكان خال المقوقس ، وكان للهاموك ولد يسمى شطا ، فأسلم وأتى إلى المقداد بن الأسود ، ودلّه على مكان دخل منه إلى المدينة حتى ملكها ، ومات شطا في المعركة ، ليلة النصف من شعبان ، سنة إحدى وعشرين ، ودفن خارج دمياط ، وقبره يزار إلى الآن ، رحمة الله عليه ، وقد تقدّمت أخباره عند ذكر مدينة دمياط ، انتهى ذلك .

(٤) الذين : الذي .

(٧) يّابلون : يقابلوا .

(١٥) شخص : شخصياً .

(١٩) ذكر : فجع .

ذكر ما كان من أخبار (٥٤ ب) المقوقس بعد فتح الإسكندرية :

قال ابن لهيعة : لما فتحت الإسكندرية ، كان المقوقس بها ، فأرسل يطلب الأمان من عمرو ، فأرسل له أمانا ، وصار المقوقس يزن الجزية عنه ، وعن أولاده ، وعياله ، ويحضر مجالس عمرو بن العاص ، فقال له عمرو يوما : « يا مقوقس ، لقد وليت على مصر إحدى وثلاثين سنة ، فأخبرني بما يكون فيه عمارة أراضى مصر » ، فقال له المقوقس : « إني رأيت الذى يقوم بعمارة أراضى مصر ، حفر خلجانها ، وإصلاح جسورها ، وسدّ ترعها ، ولا يؤخذ خراجها إلا من غلالها ، ويحجر على عمّالها من الخلل ، ويمنعهم من أخذ الرشاء ، وترفع عن أهلها الماوان والمدايا ، ليكون ذلك قوة للمزارعين على وزن الخراج » .

وكان بها على زمن فرعون أربعائة ألف ألف وثمانين ألف ألف حرّاث ، يلزمون العمل بها دائما ؛ وكان بها مائة ألف ألف وعشرين ألف مزارع ، يتفرّقون في البلاد ، قبلى وبحرى ؛ وقد ضبطت مساحتها في زمن القبط ، عند تلاميضى أمرها ، بالنسبة إلى ما كانت عليه في زمن الفراعنة ، فكانت مائة ألف ألف وثمانين ألف ألف فدان تزرع ، غير البور ؛ وكان جملة خراجها في زمن الفراعنة ألف ألف دينار ، بالدينار الفرعونى ، وهو ثلاثة مثاقيل من مثقالنا الآن ، انتهى .

قال ابن عساكر ، في تاريخه ، عن سفيان بن وهب الخولاني ، قال : بينما نحن نسير في فضاء مصر مع عمرو بن العاص ، وكان المقوقس راكبا معه ، فالتفت إليه عمرو ، وقال له : « يا مقوقس ، ما بال جبلكم أقرع ، ليس به نبات ، ولا شجر ، كجبال الشام » ؟ فقال المقوقس : « ما أدري ، ولكن أغنى الله تعالى أهل مصر بهذا النيل (٥٥ آ) بما يزرعون عليه ، ولكننا نجد في كتبنا ما هو خير من ذلك » ، قال : « ما هو » ؟ قال : « ليدفن تحته قوم يبعثهم الله تعالى يوم القيامة ، لا حساب عليهم » ،

(٣) أمانا : أمان .

(١١) مزارع : مزارعا .

(١٦) سفيان : سفين

فقال عمرو : « اللهم اجعلني منهم » ، فقبر فيه .

قال ابن لهيعة : قبر تحت الجبل المقطم من أعيان الصحابة خمسة ، وهم : عقبة بن

٣ عامر الجهمي ، وعبد الله بن حذافة السهمي ، وعبد الله بن الحارث الزبيدي ، وأبوبصرة

الفجاري ، وعمرو بن العاص ، رضي الله عنهم أجمعين .

قال ابن عبد الحكم : واستمر المقوقس مقبياً بالكنيسة المعانة ، حتى هلك في

٦ أيام عمرو بن العاص ، وكان عمرو يكرمه ، ويتمبل شفاعته في الأقباط ، وكان المقوقس

يحضر إلى عمرو إذا كنت له حاجة ، فيتمضيها له .

قيل إن عمرو بن العاص ، هو أول من أدخل علم الشطرنج إلى مصر ، وإلى بلاد

٩ العرب ، وكان قبل ذلك ببلاد العجم فقط ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين من الهجرة

فيها شرع عمرو بن العاص في بناء جامع الكبير ، الذي بالقرب من قصر الشمع ،

١٢ بمصر العتيقة ؛ قال الأثير بن سعد ، رضي الله عنه : لما فرغ عمرو بن العاص من بناء

مدينة الفسطاط ، شرع في بناء الجامع المعروف به ، وهو أول جامع بني في الإسلام

بمصر ، وكان مكان أرضه أشجار وبساتين ، فمحا ذلك ، وبني هذا الجامع ؛ وكان

١٥ طوله أولاً نحو خمسين ذراعاً ، في عرض ثلاثين ذراعاً .

قال ابن فضل الله في « المسالك » : لما وضع عمرو قبلة هذا الجامع ، كان واقفاً

عليه نحو ثمانين رجلاً من الصحابة ، فلما اتخذ المنبر جعله عالياً ، فكتب إليه عمر

١٨ ابن الخطاب ، رضي الله عنه : « بانني أنك قد اتخذت منبراً عالياً ، ترقى به على رقاب

المسلمين ، فعزمت عليك ، ألا ما كسرتك » ؟

قال ابن عبد الحكم : لما بني عمرو هذا الجامع ، جعل إلى جانبه داراً ، وسمّاها

٢١ دار أمير المؤمنين ؛ (٥٥ ب) فلما بلغ أمير المؤمنين ذلك ، كتب إلى عمرو ، وهو

يقول له : « بانني أنك بنيت لي داراً ، وإنني لرجل بالحجاز ، أفيكون لي دار بمصر ،

فعزمت عليك بالله ، ألا ما جعلتها سوقاً للمسلمين » ؟ فامتثل عمرو ذلك ، وجعلها سوقاً

٢٤ يباع فيه الرقيق ، وهي تسمى إلى اليوم دار البركة .

قال ابن عبد الحكم : لما ولي مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر ، زاد في بناء هذا الجامع ، وبني به المنار ؛ فلما ولي عبد العزيز بن مروان ، هدم هذا الجامع ، ووسّعه ؛ فلما ولي قرّة بن شريك العبسي ، هدمه ، وبناء ، وزخرفته ، وذهب روس ^٣ العمدة التي به ، وجعل فيه محرابا مجوّفا ، وهو أول من أحدث المحراب المجوّف ؛ فلما ولي عبد الله بن طاهر ، زاد في عرضه بإذن المأمون ، وأدخل فيه الدور التي ^٦ حوله .

فلما كان أيام خمارويه بن أحمد بن طولون ، احترق هذا الجامع كله ، وذلك سنة خمس وسبعين ومائتين ، فلستمرّ على ذلك إلى أيام الفاطميين ، فبناه الحاكم بأمر الله ، وزخرفته وجعل فيه تنور فضّة ، زنته مائة ألف درهم ، وجعل لعمودي المحراب أطواق ^٩ فضّة . وكان به ألف ومائتين مصحف ، وجعل طوله اثنتين وأربعين ألف ذراع ، وعرضه ثمانية وعشرين ألف ذراع بالعمل ، وجعل له ثلاثة عشر بابا ؛ وكان له راتب من الزيت في كل شهر أحد عشر قنطارا ، ويقد فيه في كل ليلة عشرة آلاف فتيلة ؛ ^{١٢} وكان به أربعون حافظة لإقراء العلم والتدريس .

ولما قدم الإمام الشافعي إلى مصر ، جلس فيه لتدريس العلم ؛ وكان في صحن هذا الجامع فوّارة ، تغلب في فسقية ، يصل إليها الماء من بحر النيل ، فأمر القاضي تاج ^{١٥} الدين بن بنت الأعز ، بإبطالها ، لما فيها من الضرر على جيران الجامع ، فبطلت من سنة ثمان وستين وخمسمائة ؛ وفي الجملة ، إنّه جامع مبارك ، لا يخلو من ولي صالح قط ، انتهى (٥٦١) .

١٨

(٢) وبني : وبنا .

(٤) التي : الذي || محرابا مجوّفا : محراب مجوف .

(٩) درهم : درهما .

(١٠) ألف ومائتين : كذا في الأصل . || مصحف : مصحفا .

(١١٠) ذراع : ذراعا .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين

ففيها جاءت جماعة من الأقباط إلى عمرو بن العاص، وقالوا له: «أيها الأمير، إن
 ٣ لنيلنا سنة في كل سنة، لا يجزى إلّا بها»، فقال لهم: «وما هي؟» قالوا: «إذا
 كن اثنتا عشرة ليلة تخلو من بؤونة، من الشهور القبطية، عمدنا إلى جارية بكر،
 وأخذناها من أبويها غصبا، وجعلنا عليها الحلّى والحلل، ثم نلقيها في بحر النيل، في
 ٦ مكان معلوم عندنا»؛ فلما سمع عمرو بذلك، قال: «هذا لا يكون في الإسلام أبداً».
 فأقاموا أهل مصر بؤونة وأيب ومسرى وتوت، لم يجز فيها النيل، لا كثيراً
 ولا قليلاً، فلما عاينوا أهل مصر ذلك، همّوا بالخلاء منها؛ فلما رأى عمرو بن العاص
 ٩ ذلك، كتب كتاباً وأرسله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فلما
 وصل إليه، وعلم ما فيه، كتب بطاقة وأرسلها إلى عمرو بن العاص، وأمره أن
 يلقيها في بحر النيل.

١٢ فلما وصلت إليه البطاقة، فتحها وقرأ ما فيها، فإذا فيها مكتوب: «بسم الله الرحمن
 الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب، إلى نيل مصر، أما بعد، فإن كنت تجزى
 من قبلك، فلا تجز، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل الله الواحد
 ١٥ القهار أن يجريك».

فلما وقف عمرو على البطاقة، ألتاها في النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد، وعيد
 الصليب سابع عشر توت، فأجرى الله تعالى النيل في تلك الليلة، ستة عشر ذراعاً في
 ١٨ دفعة واحدة، وقد تهيأ أهل مصر للخلاء منها، لأن النيل هو عمارة مصر؛ فلما
 عاينوا أهل مصر ذلك، فرحوا بإبطال تلك السنة السيئة عنهم، وذلك ببركة أمير
 المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وقد وقع له من الكرامة ما وقع لموسى،
 ٢١ عليه السلام، بمثل هذه الواقعة بعينها.

قال ابن وصيف شاه: إن حاجك الصدق، هو (٥٦ ب) الذى قرأ بطاقة عمر
 ابن الخطاب على النيل، فزاد بإذن الله تعالى ستة عشر ذراعاً في تلك الليلة.

وفيهما ، أعنى سنة ثلاث وعشرين ، توفي أبو مالك الأشعري ، واسمه كعب ابن عاصم ، شهيد فتح مصر ، وكان من مشايير الصحابة ، رضى الله عنه .

وفيهما توجه عمرو بن العاص إلى المدينة الشريفة ، ليزور أمير المؤمنين عمر ٣ ابن الخطاب ، فزاره ورجع إلى مدينة النسطاط .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين

٦ فيها جاءت الأخبار بوفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رحمة الله عليه ، فحزن عليه عمرو بن العاص ، حزنا شديدا ، وجلس للعزاء ؛ قال ابن عبد الحكم : عاش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ، ثلاث سنين .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين

٩ فيها عزل الإمام عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، عمرو بن العاص ، عن ولاية مصر ، وولى عبد الله بن أبي سرح على مصر ؛ فكانت مدة ولاية عمرو بن العاص على مصر هذه المرة ، نحو ست سنين إلا أشهرها ، وسيعود إلى ولايته بمصر ثانياً ، ١٢ كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ؛ وهو أول من جبي خراج مصر فى الإسلام ، وقد بلغ خراج مصر فى أيامه اثنى عشر ألف ألف دينار ، انتهى .

١٥ ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح بن الحارث القرشى العامرى ، رضى الله عنه :

١٨ وقيل كان اسمه حسام ، وقيل عوف ، قال الكندى : كان عبد الله هذا أخا الإمام عثمان بن عفان من الرضاع ، وكان من جملة كتبة الوحى .

نقل الشيخ جلال الدين الأسيوطى : أن عبد الله هذا أسلم قديما ، ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة ، فارتد إلى دينه ، (٥٧ آ) فلما فتح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مكة ، فأهدر دمه ، فجاء عثمان بن عفان إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وقال : ٢١

« إنه أخى من الرضاع » ، فاستأمن له ، فأمنه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،
وسأل له المباينة ثانيا ، فبايعه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وقال : « الإسلام
يهدم ما كان قبله » ؛ فلما ولى الإمام عثمان الخلافة ، ولى عبد الله بن أبي سرح ، على
مصر .

فلما ولى أظهر له نتيجة في خراج مصر ، وأورد أربعة عشر ألف دينار ،
فقال عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، لعمر بن العاص : « درت اللقحة بعدك يا أبا
عبد الله ، بأكثر من درهما الأول » ، فقال عمرو : « نعم ، ولكن أجبعت أولادها ؟
وإن هذه الزيادة التي أخذها عبد الله بن أبي سرح ، إنما هي على الجاجم ، فإنه أخذ على
كل رأس دينار ، خارجا عن الخراج ، فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل ،
وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر في مبتدأ الإسلام .

وفي أيامه توفى قاضى مصر عثمان بن قيس بن أبي العاصى ؛ فولى بعده بمصر
القاضى أبو خزيمة ، واستمر قاضيا بمصر حتى توفى سنة أربع وخسين من الهجرة .
وفي أيامه توفى المقداد بن الأسود ، رضى الله عنه ، وليس الأسود أباه ، وإنما تبناه
الأسود بن عبد يغوث ، وهو صغير ، فعرف به ؛ واسم أبيه عمرو بن ثعلبة الكندى ؛
وكان المقداد ممن شهد فتح مصر ، وفتح دمياط ، ثم توجه إلى المدينة الشريفة فمات
بها سنة ثلاث وثلاثين ، رحمة الله عليه .

وفي أيامه ، سنة ثلاثين ، توفى حاطب بن أبى بلتعة ، دخل مصر رسولا إلى
القوقس ، وعاش خمس وستين سنة ، وكان من مشاهير الصحابة . - وتوفى في أيامه ،
من الصحابة أيضا ، شرحبيل بن حبیب ، شهد فتح مصر ، ومات سنة ثمان وعشرين ،
وكان اسم أبيه مطاع الكندى ، وتوفى بالشام .

ومن الحوادث في أيام عبد الله بن أبي سرح ، قال ابن لميعة : لما كانت سنة
(٥٧ ب) خمس وثلاثين ، مشى الروم إلى قسطنطين بن هرقل ، وقالوا له : « أترك
الإسكندرية في أيدي العرب ، وهى مدينتنا الكبرى » ؟ فجمع قسطنطين العساكر

وأشحن منهم ألف مركب ، وقصد التوجه إلى الإسكندرية ، فبينما هو في وسط البحر ، بعث الله تعالى عليهم ريحا عاصفا ، ففرّق تلك المراكب عن آخرهم .

وأما قسطنطين بن هرقل ، فإنّ الريح ألقته بصقلية ، فسأله أهلها عن أمره ، فأخبرهم بأمر الريح وتغريق المراكب بالجيش ، فقالوا له أهل صقلية : « أفدّيت النصرانية ، وأغرقت رجالها ، فلو أنّ العرب دخلت علينا لم نجد من يردهم . ثم إنهم قتلوا قسطنطين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، كما قيل في المعنى :

إنّ عقل الفرنج عقل خفيف حيث راموا قتالنا والنزلا
أخذوا بفتة بغير قتال وكفى الله المؤمنين القتلا

ثم دخلت سنة ست وثلاثين

فيها توفّي عبد الله بن أبي سرح ، أمير مصر ، قيل مات بفلسطين ، ودفن بها ، رحمه الله عليه ، فكانت مدّة ولايته على مصر نحو اثنتي عشرة سنة .

ثم توفّي بعده الأمير قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري ، رضي الله عنه ، وكان من أعيان الصحابة ، فأقام على ولايته بمصر نحو سنة ومات .

ثم توفّي بعده الأمير مالك بن الحارث بن الأشتر النخعي ، من مشاهير الصحابة ،

توفّي مصر في أيام الإمام علي ، رضي الله عنه ، فأقام مدّة يسيرة ومات ، وقيل إنّه مات مسموما من عبده ، فلما بلغ الإمام على موته ، حزن عليه حزنا شديداً ، وقال : لقد كان لي ، كما كنت لرسول الله ، (٥٨ آ) صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه السنة ، أعني سنة ست وثلاثين ، فيها توفّي عبد الله بن عديس ، شهيد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة ، توفّي بالشام . - وتوفّي عبد الله بن حذافة ابن قيس بن عدي القرشي .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين

- ١ فيها ، في نصف شهر رمضان ، تولى على مصر الأمير محمد بن الإمام أبي بكر ،
 ٢ رضى الله عنه ؛ قلى ابن وصيف شاه : لما تولى الأمير محمد على مصر ، ثارت عليه
 الشيعة بسبب ثار الإمام عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، فإنهم نسبوا الأمير من جملة
 من تعصب على الإمام عثمان ، رضى الله عنه .
 ٦ فلما دخل مصر ثار عليه معاوية بن خديج ، ومسلمة بن خالد ، وبشر بن أرطاة ،
 وغير ذلك من الشيعة ، أتوا من الشام ، ودخلوا مصر ، وحاربوا الأمير محمد ، وكان
 مع صفر سنة شجاعا بطلا ، فقاتلهم هو وأخوه عبد الرحمن قتالا شديدا .
 ٩ فلما قوّوا عليهما الشيعة ، تفرق عنهما العساكر الذين كانوا معهم ، فانكسر الأمير
 محمد وأخوه عبد الرحمن ، وهرب الأمير محمد واختفى في بعض الخربات .
 فلما حثوا الشيعة في طلبه ، قالت لهم عجوز من عجائز الفسطاط : « أريدون
 ١٢ الأمير محمد بن أبي بكر » ؟ قالوا : « نعم » ، قالت : « أتعطوني الأمان لأخى ، وأنا
 أدلكم على مكانه » ؟ قالوا : « نعم قد أعطينا الأمان لأخيك » ، وكان أخوها
 يبيع الفجل بمدينة الفسطاط ، فدلّتهم على مكانه .
 ١٥ فلما دخلوا عليه وجدوه قد كدّه العطش ، فقال لهم : « بالله اسقوني شربة من
 الماء » ، فقال له معاوية بن خديج : « لا سقاني الله إن سقيتك ، أنسيت منعك الماء
 لعثمان وهو في الدار » ؟ فقال : « أكرموني لأجل أبي بكر » ، فقال له معاوية
 ١٨ ابن خديج : « لا أكرمى الله إن أكرمتك » .
 ثم تقدّم إليه معاوية بن خديج ، وضرب عنقه بالسيف ، ثم أدخل جثته في
 جوف حمار وأحرقه ، كما زعموا ، وأنا أستغفر الله العظيم من ذلك ؛ وكانت قتلته في
 ٢١ رابع عشر صفر من سنة ثمان وثلاثين ، وكانت مدة ولايته على مصر خمسة أشهر ،

(٦) معاوية : معاوية . وقد صحت هكذا فيما يلى لتوحيد الصيغة .

(٩) عليهما : عليهما . // الذين : الذى .

(١٠) وأخوه : وأخيه .

(١٦ و ١٧ و ١٩) معاوية : معاوية .

وكان مولد الأمير محمد عام (٥٨ ب) حجة الوداع ، وكان له من العمر لما قتل ثمانية وعشرون سنة ، ومات أبوه أبو بكر وله من العمر نحو سنتين ونصف .

قال ابن عبد الحكم : لما قتل محمد بن الإمام أبي بكر ، رضى الله عنه ، أرسل معاوية بن خديج قميصة ، الذى قتل فيه ، بدمه إلى المدينة ، فأدخاوه دار الإمام عثمان ابن عفان ، رضى الله عنه ، واجتمع رجال عثمان ونساؤه ، وأظهروا الفرح والسرور فى ذلك اليوم ، ولبست نائلة بنت القرامصة ، زوجة الإمام عثمان ، القميص ، ورقصت فيه بين الملا من الحاضرين ، انتهى ذلك .

قيل دخلوا على أسما بنت عيسى أم محمد بن أبي بكر ، فقيل لها : « قد قتل ابنك محمد بمصر ، وأحرق فى جوف حمار » ، وكانت قائمة تصلّى ، فمضت على شفتها حتى سحّت ثديا دما ، ولم تتكلم ، تمت .

قال ابن وصيف شاه : لما قتل الأمير محمد ، أخذ رأسه وجثته زمام الخادم ، ودفنه خارج مدينة الفسطاط ، وبني هناك مسجدا ، وهو إلى الآن يعرف بمسجد زمام ، ويؤوره الناس .

قال الكندى : لما قتل الأمير محمد ، أرسلت أخت معاوية بن خديج إلى عائشة بنت أبي بكر ، رضى الله عنه ، بخروف مشوى ، وقالت لها : « هكذا شوى أخوك محمد بمصر » ، خافت عائشة يمينا أنها لا تأكل الشوى قط حتى تلقى الله تعالى ، فما أكلته بعد ذلك أبدا ، انتهى .

فلما قتل الأمير محمد ، أعيد بعده الأمير عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، وذلك فى خلافة معاوية بن أبي سفيان ، سنة ثمان وثلاثين ، واستمرّ فى هذه الولاية حتى مات ، ودفن بمصر .

وفى أيامه ، توفى عبادة بن الصامت ، رضى الله عنه ، وعاش عبادة اثنتين وسبعين سنة ، وكان من مشاهير الصحابة .

٣ وفي أيامه ، سنة تسع وثلاثين ، تولى أبو سلمة الفاسك ، قاضيا بمصر ، وكان من المجتهدين ، وهو أول من أسجل سجلا بمصر في موارث ، وهو أول من قص بمصر ، وكان يختم في كل ليلة ثلاث ختمات ؛ فأقام قاضيا بمصر حتى توفي بدمياط ، سنة خمس وسبعين من الهجرة ، وكان من التابعين .

٦ وفي أيامه توفي معيقب ، رضى الله عنه ، وذلك سنة أربعين من الهجرة ، وهو معيقب بن أبي فاطمة الدوسي ، وكان خازن بيت المال لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، شهد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين

٩ فيها مرض الأمير عمرو بن العاص ، وسلسل في المرض ، فلما أئثر على الموت ، أحضر ما كان جمعه من أموال القبط ، لما فتح مصر ، وقال لولده عبد الله ، وكان يتاربه في السن ، حتى قيل كان بين مولد عمرو بن العاص ، وبين مولد ولده عبد الله ، نحو ثلاث عشرة سنة ، فقال (٥٩ آ) له : « إذا أنا مت فاردد هذه الأموال ، التي جمعتها ، إلى أصحابها » .

١٥ فلما مات الأمير عمرو ، سمع بها معاوية ، فأرسل أخذها ، وقال : « نحن أحق بهذه الأموال لدفع العدو » ، فأخذها وأدخلها في بيت المال ؛ قيل لعبد الله بن عمرو : « ما كان قدر ذلك المال » ؟ قال : « كان سبعة جرابا من جلد ثور كاملة » .

١٨ وفي أيامه توفي تميم بن أوس بن حارثة الرازي ، شهد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة ، مات سنة أربعين من الهجرة ، وكان قبل موته وقع به جذام واستمر به حتى مات بالجذام .

٢١ وكانت وفاة الأمير عمرو بن العاص ، في ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين ، فلما كان يوم العيد ، أخرج نعشه إلى الجامع ، ووضع في المحراب حتى تكامل الناس ، فصلوا صلاة العيد ، ثم صاؤا عليه ، وحمل إلى متبر الفسطاط ، ودفن على طريق

الحاج ، وقيل بل دفن في سفح الجبل المقطم ، رحمة الله عليه .

وكانت مدة حياته خمس وتسعين سنة ، وكانت مدة ولايته على مصر ، أولا

وثانيا ، إحدى عشرة سنة وأتمهر ، انتهى . ٣

قيل لما بلغ عبد الله بن الزبير ، وفاة الأمير عمرو بن العاص ، أنشأ يقول :

ألم تر أن الدهر أحنت ربوبه على عمرو السهمي تجي له مصر

فأضحى نبذا بالعراء وضللت مكائده عنه وأمواله الدر ٦

ثم إن معاوية أرسل تقاييدا إلى عبد الله بن عمرو ، بولايته على مصر ، عوضاً

عن أبيه ؛ قال الواقدي : أقام عبد الله على ولاية مصر ، بعد أبيه ، دون السنة ،

وعزل عنها . ٩

ثم تولى بعده الأمير عقبة بن أبي سفيان ، أخو أمير المؤمنين معاوية ، فلما ولى

على مصر ، أقام بها دون السنة ، ومات بها .

ثم تولى بعده الأمير عقبة بن عامر الجهني ، صاحب رسول الله ، صلى الله عليه ١٢

وسلم ، ورديفه ، وهو الذي تسند إليه الأحاديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛

تولى (٥٩ ب) على مصر سنة أربع وأربعين من الهجرة ، وأقام بها إلى أن استشهد

يوم النهروان ، رحمة الله عليه ، ودفن بالقرافة الكبرى ، فكانت مدة ولايته ١٥

على مصر سنتين وثلاثة أشهر ، انتهى ذلك .

ثم تولى بعده الأمير معاوية بن خديج السكوني النجيب ، رضى الله عنه ، فأقام

بها إلى سنة خمسين من الهجرة ، وعزل عنها . ١٨

وفي أيام معاوية بن خديج ، توفى عبد الله بن قيس البجلي ، شهيد فتح مصر ،

وكان من مشاهير الصحابة ، مات سنة تسع وأربعين من الهجرة .

وفي أيامه توفى الغيرة بن شعبة بن أبي عامر ، دخل مصر في الجاهلية ، واجتمع ٢١

بالمقوقس ، صاحب مصر ، ثم رجع ، فأسلم عام الخندق ، وعاش نحو سبعين سنة ،

ثم توفى في أيام معاوية هذا ، في رمضان سنة خمسين من الهجرة .

ومعاوية هذا ممن شهد فتح مصر ، وعاش إلى سنة اثنتين وخمسين ، ومات

بمصر .

٣

ثم تولى بعده الأمير مسلمة بن مخلد الأنصاري ، رضي الله عنه ، وهو الذي جدّد بناء جامع عمرو بن العاص ، وأوسع فيه ، وبني به المنار .

وفي أيامه توفى أبو موسى مالك بن عباد الفافقي ، خادم رسول الله ، صلى الله

٦

عليه وسلم ، شهد فتح مصر ، ومات سنة ثمان وخمسين ، في أيام مسلمة هذا ، رحمة الله عليه .

وفي سنة ثمان وخمسين ، توفى أيضا عبد الله بن حوالة الأزدي ، شهد فتح مصر ،

٩

وكان من مشاهير الصحابة ، وعاش اثنتين وسبعين سنة ، رحمة الله عليه .

وفي أيامه قدم أبو هريرة إلى مصر ، وأقام بها ، وكان اسمه عبدالرحمن بن صخر ،

وقيل مات بمصر ، ودفن بالجيزة ، وفيه اختلاف ، توفى سنة تسع وخمسين من

١٢

الهجرة .

وفي أيامه توفى عائد بن ثعلبة بن دبرة الكلبي ، شهد فتح مصر ، وكان من

مشاهير الصحابة ، استشهد بالبرلس سنة ثلاث وخمسين .

١٥

وفي أيامه توفى ثوبان بن جحدم ، شهد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة ؛

قال ابن كثير : توفى بمصر ، سنة أربع وخمسين .

وفي هذه السنة ، أعني سنة أربع وخمسين ، توفى خالد بن ثابت بن طاعن ، شهد

١٨

فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة ، ومات بأفريقية سنة أربع وخمسين .

ومن النكت اللطيفة ، قال ابن لهيعة : خرج وردان بن عبد الأمير مسلمة بن

(٦٠ آ) خالد فرّ على عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال له : « إلى أين تقصد

٢١

يا وردان » ؟ قال : « أرسلني الأمير مسلمة إلى منف ، لأخص له عن كنوز فرعون » ،

فقال له عبد الله بن عمرو : « ارجع إليه ، وقل له : إن كنوز فرعون ليست لك ، ولا لأصحابك . » وإنما هي تظهر في آخر الزمان للحبشة ، يأتون في السفن يريدون مدينة الفسطاط ، فيسيرون إلى منف ، وينزلون بها ، فتظهر لهم كنوز فرعون ، ٣ فيأخذون منها ما يقدرّون على حمله ، ويسيرون إلى بلادهم ، ثم يرجعون لأخذ ما بقي من الكنوز ، فتخرج عليهم المسلمون ويقتلون معهم ، فتظهر عليهم المسلمون ، ويأسروهم عن آخرهم ، حتى إن الحبشي منهم ليباع بالكساء الذي عليه ، ولا يجد ٦ من يشتريه من الناس لكثرتهم » ، انتهى .

واستمرّ مسلمة بن مخلد في ولايته على مصر ، إلى أن مات في خلافة يزيد ابن معاوية ، في ذى القعدة سنة اثنتين وستين ؛ فكانت مدة ولايته على مصر ثمان ٩ سنين وأشهر .

وفي سنة ستين توفي بلال بن الحارث بن عقبة بن سعد بن قرّة ، شهيد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة ، وعاش نحو ثمانين سنة ، رحمة الله عليه . ١٢

وفي أيامه توفي جرهل بن خويلد ، شهيد فتح مصر ، ومات بها سنة إحدى وستين ، وكان من مشاهير الصحابة ؛ روى الطبراني أنه أكل بيده الشمال ، بحضرة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « كلّ باليمين » ، فقال : « إنها معاوية ١٥ يا رسول الله » ؛ فتفل عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فاشكاها بعد ذلك .

وفي سنة إحدى وستين توفي جرمة بن خويلد ، شهيد فتح مصر ، وكان من ١٨ مشاهير الصحابة ، انتهى .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين

فيها تولى على مصر الأمير سعيد بن يزيد بن عاتقة الأزدي ، فلم تطال أيامه ، ٢١ فكانت مدة ولايته بمصر دون السنتين ، وعزل عنها .

(٩) معاوية : معوية .

(٢٠) اثنتين : اثنين .

فلما ولي عبد الله بن الزبير الخلافة بمكة ، بعد موت يزيد بن معاوية ، فاستناب على مصر عبد الرحمن بن جحدم القرشي ، رضى الله عنه ، فأقام بها مدة سنتين ، ووثب عليه مروان بن الحكم الأموي ، فقاتل عبد الرحمن ، فانهزم وهرب نحو (٦٠ ب) الصعيد ، وملك مروان مصر ، وولى بها ابنه عبد العزيز .

ذكر ولاية عبد العزيز بن مروان بن الحكم على مصر :

٦ قال ابن عبد الحكم : تولى عبد العزيز بن مروان على مصر ، سنة خمس وستين من الهجرة ؛ فلما تولى على مصر ، جاءت الأخبار من دمشق ، بوفاة والده مروان ، وولاية عبد الملك ، أخى الأمير عبد العزيز ؛ وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة خمس وستين .

وفى أيام عبد العزيز ، سنة ثلاث وسبعين ، توفى عوف بن مالك الأشجعي ، رضى الله عنه ، وكان من مشاهير الصحابة .

١٢ وفى أيامه ، سنة ثمان وسبعين ، توفى كثير بن أبى كثير الأزدي ، كان من مشاهير الصحابة ، توفى بمصر ، ودفن به . - وفى سنة ثمان وسبعين ، توفى أيضا جابر ابن عبد الله الأنصاري ، وكان قد كفّ بصره ، وعاش من العمر أربع وتسعين سنة ، وكان من مشاهير الصحابة .

١٨ وفى أيامه ، سنة ست وسبعين ، توفى زهير بن قيس الباوي أبو شدّاد ، رضى الله عنه ، شهيد فتح مصر ، ثم قتل فى بعض الغزوات فى السنة المذكورة ، وكان من مشاهير الصحابة .

٢١ وفى أيامه ، سنة ثلاث وسبعين ، استشهد عبد الله بن الزبير بن العوام ، رضى الله عنه ، بمكة . - وفى أيامه ، سنة ثمانين ، توفى جنادة بن أمية ، شهيد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة .

وفى أيامه ، سنة أربع وثمانين ، توفى عتبة بن النذر السلمي ، رضى الله عنه ، شهيد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة .

٢٤ وفى أيامه ، سنة خمس وثمانين ، توفى عبد الله بن الحارث الزبيدي ، رضى الله

- عنه ، ثمهد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة . - وفيها توفي بشر بن أبي
أرطاة ، رضى الله عنه ، ثمهد فتح مصر ، وكان من مشاهير الصحابة ، رحمه الله .
٣ وفي أيامه ، سنة اثنتين وثمانين ، توفي جميل بن عبد الله بن معمر العذري ، صاحب
بشينة ، أحد عشاق العرب ، شاعر الإسلام ، مات بمصر ، ودفن بها .

ثم دخلت سنة ست وثمانين

- ٦ فيها وقع الطاعون بمدينة الفسطاط ، وهو أول طاعون وقع في الإسلام بمصر ،
في زمن الصحابة ؛ فلما تزايد أمر الطاعون ، خرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط ،
وتوجه إلى حوان ، وهي من قرى مصر ، فأقام بها مدة ، وقيل ولد بها ابنه عمر
العبد الصالح ، الذي ولي الخلافة في زمن الأموية .
٩ فلما أقام بحوان ، فكانت الأخبار (٦١ آ) تأتي إليه في كل يوم من الفسطاط
إلى حوان ، بما يحدث في البلد من أمر الموت ، وعدة من يموت بها ، وغير ذلك .
١٢ قال ابن عفير : لما كان الأمير عبد العزيز بحوان ، كان له في كل ليلة ألف جفنة ،
تصف حول داره ، وهي مملأة بالطعام ، تفرق على الفقراء والمساكين ، ومعها الخبز ،
وكان له في كل ليلة مائة حاة كبيرة ، تحمل على عجل ، وفيها الطعام ، تفرق على
قبائل العرب التي حوله .
١٥ واستمر على ذلك حتى طعن تحت إبطه ، فلما كان ليلة الاثنين ثاني عشر جمادى
الأولى ، سنة ست وثمانين ، توفي الأمير عبد العزيز بن مروان ، أمير مصر ، توفي
١٨ بحوان .
فلما أصبح الصباح ، حمل في نعش من حوان إلى مدينة الفسطاط ، وقد تغيرت
رائحته ، فكان حول نعشه بجمار النار ، وهي مظلوقه بالبخور ، حتى دخل إلى
الفسطاط ، فدفن بها ، رحمه الله عليه ؛ وفيه يقول نصير الشاعر :
٢١ أين ربّ القصر النظير الذي شيد وأين العبيد والأجناد
أين تلك الجموع والأمر والنهي وأين السواد

فكانت مدة ولاية الأمير عبد العزيز بن مروان على مصر عشرين سنة ، حتى مات ، انتهى .

- ٣ وفي أيامه توفي عبد الرحمن بن حنبل الخولاني ، قاضي مصر ، مات سنة ثمانين .
وتوفي مالك بن شراحيل الخولاني ، قاضي مصر ، سنة خمس وثمانين من الهجرة .
قال ابن كثير : وفي أيام الأمير عبد العزيز بن مروان ، توفيت عزة بنت جميل ابن عمرو الضمري ، ماتت في هذا الطاعون سنة ست وثمانين ، ودفنت بمصر ، وكان أصلها من الجزيرة ، كما قيل ؛ وكانت من أحسن النساء وجهها ، وأفصحهم لسانا ، وأحفظهم لكلام العرب ؛ وهي معشوقة كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر ، شاعر الإسلام ، وقد افتتن بحب عزة حتى ضرب به المثل ، وله فيها القصائد السنية ، فن ذلك قوله فيها :

وسعى إلى بهجر عزة نسوة جعل الإله وجوههن نعالها
(٦١ ب) الله يعلم لو جمعن وعزة لا خترت قبل تأمل تماثلها
ولو أن عزة حاكت شمس الضحى في الحسن عند مؤمرٍ لقضى لها

- ١٢ قيل كان لكثير غلام ، خرج في تجارة له ، فلما دخل مصر ، أتت إليه امرأة تطلب منه ثيابا ، فوفقت عليه وهي لا تعرف أنه غلام كثير ، فابتاعت منه لعزة ثيابا ، ولم تدفع له الثمن ، فكان الغلام يتردد إلى بيت عزة بسبب المطالبة ، وقد مطالته ، فأنشد ذات يوم قول مولاه كثير :

١٨ قضى كل ذي دين ووفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

- فألت له المرأة التي ابتاعت منه الثياب : « أتعرف عزة التي قيل فيها ذلك » ؟
قال : « لا » ، قالت : « هي صاحبة هذه الدار التي ابتاعت منك الثياب » ، فقال الغلام : « وأنا غلام كثير ، وأنا أشهد الله أن الثياب التي ابتاعتهم مني ، لا آخذ لهم ثمنها » .

(٧-٨) وأفصحهم . . . وأحفظهم : كذا في الأصل .

(١٤) غلام : غلاما .

(٢١-٢٢) ابتاعتهم . . . لهم : كذا في الأصل .

فلما مضى الغلام إلى كثير ، وأخبره بما جرى له مع عزة ، فقال له كثير : « وأنا أتمهد أنك حرّ لوجه الله تعالى ، وما بقى معك من المال فهو لك ، جزاء لما صنعت من ذلك » .

قال ابن كثير : إن أخت عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ، قالت لعزة : ما معنى قول كثير فيك :

قفى كل ذى دين ووفى غريمه وعزة مطول معنى غريمها
« فما كان هذا الدين » ؟ قالت عزة : « لقد وعدته بقبلة ولم أنجزها له » ، فقالت أخت عمر بن عبد العزيز ، وكانت من النساء العابدات الصالحات : « أنجزها له ، وعلى إثمها » ، ثم إنها أعتقت أربعين جارية لأجل قولها « وعلى إثمها » ، انتهى .
فلما بلغ كثير موت عزة ، أتى إلى مصر ، وزار قبر عزة ، وبكى عنده (٦٢ آ) ورثاها بقصائد سنية .

قيل لما ماتت عزة ، تغير شعر كثير بعدها ، فقال له قائل : « ما بال شعرك قد قصرت فيه » ؟ فقال : « ماتت عزة ، فلا أحارب ، وذهب الشباب ، فلا أعجب ، ومات عبد العزيز بن مروان ، فلا أرغب » .

واستمر كثير بعد عزة في ذهول ، حتى مات سنة سبع ومائة ، ودفن بمصر ، وقيل مات سنة خمس ومائة ، انتهى ذلك .

وتوفى في أيامه عقبة بن مسلم النجيبى المصرى التابعى ، كان إمام جامع عمرو ابن العاص ، مات عن إحدى وتسعين سنة .

وفى سنة ثمان وستين من الهجرة ، توفى القاضى غوث ، قاضى مصر ، وهو أول قاض ركب مع اليهود لرؤية هلال شهر رمضان ، وسمع البيعة ، وثبت عليه .

(٧) أنجزها : أنجزتها .

(١٦) خمس ومائة : خمس مائة .

(١٧-٢٠) وتوفى . . . وثبت عليه : كتبت في الأصل على هامش س (٦١ ب) .

(٢٠) لرؤية : لرئت .

وفي أيامه توفى يرفس بن عطية الحضرمي ، قاضي مصر ، وكان على الشرط أيضا ، مات سنة ست وثمانين .

٣ وفي سنة سبعين توفى قضاء مصر الفضل بن فضالة ، أقام مدة يسيرة وعزل نفسه عن القضاء .

٦ ثم توفى بعد الأمير عبد العزيز ، الأمير عبد الله بن عبد الملك بن مروان ؛ قال الليث بن سعد ، رضى الله عنه : كان الأمير عبد الله حديث السن ، فكان أهل مصر يسمونه : « مكنس » ؛ وهو أول من نقل الدواوين إلى العربية ، وكانت بالعجمية ؛ وهو أول من نهى الناس عن لباس البرانس السود . ثم إن عبد الله أقام على ولاية مصر ، نحو خمس سنين وأشهر .

وفي أيامه توفى سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصارى الساعدي ، رضى الله عنه ، قدم مصر في أيام مسلمة بن مخلد ، وكان من مشاهير الصحابة ؛ مات سنة إحدى وتسعين ، وعاش من العمر نحو مائة سنة .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين

١٥ فيها عزل الأمير عبد الله ، وولى قرّة بن شريك العبسي ، في أيام الوليد بن عبد الملك ؛ وقد عزل الوليد أخاه عبد الله ، وولى قرّة ؛ وكان قرّة ظالما غشوما جهولا ، قيل كان يصعد بالخمر والملاهي على سطح جامع عمرو بن العاص ؛ وقد قال فيه القائل :

١٨ عجب ما عجبت كيف دهانا وتوفى بمصر قرّة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا ثم خيلت فيه رأى أبيك

فأقام قرّة على ولايته بمصر نحو ست سنين ، ومات ودفن بمصر .

٢١ ثم توفى بعده عبد الملك بن رفاعة الفهمي ؛ (٦٢ ب) فلما توفى على مصر نظر في مصالح قرى مصر ، وخرج بنفسه وطاف البلاد ، قبلى وبحرى ، فأحصى من القرى نحو عشرة آلاف قرية ، في كل قرية خمسمائة من الرجال الأقباط ، الذين تفرض عليهم الجزية ؛

فكان مدة غيبته في هذه السرحة ستة أشهر ، حتى رجع إلى الفسطاط .

وفي أيامه توفى سليم بن النجيبى ، من التابعين . - وتوفى عبد الله بن زهير

الغافقى المصرى ؛ قال العجلي : « تابعى ثقة » . ٣

وتوفى زياد بن ربيعة بن نعيم الحضرمى المصرى ، قال العجلي : « تابعى ثقة » ،

مات سنة ست وتسعين . - وفيها توفى كثير بن قليب الصدقى المصرى الأعرج ،

تابعى ، شهد فتح مصر . ٦

واستمر عبد الملك بن رفاعه في ولايته على مصر ، إلى سنة تسع وتسعين ، ثم عزل ،

فكانت مدة ولايته على مصر نحو أربع سنين ؛ وعبد الملك بن رفاعه توفى على مصر

مرتين . ٩

ثم توفى بعده الأمير أيوب بن شرحبيل الأصبهى ، أقام إلى سنة إحدى ومائة .

وفي هذه السنة توفى تميم بن إياس البكير اليماني ، شهد فتح مصر ، وكان من

مشاهير الصحابة ، مات بالإسكندرية في تلك السنة . - وفي سنة مائة توفى إسحق ١٢

ابن الفران أبو نعيم النجيبى ، قاضى مصر .

ثم إن الأمير أيوب أقام على ولايته بمصر نحو سنة ، وعزل عنها ، وكانت ولايته

في خلافة عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه . ١٥

ثم توفى بعده الأمير بشر بن صفوان الكلبي ، فأقام على ولايته بمصر إلى سنة

ثلاث ومائة ؛ وقيل توفى على مصر ثلاث مرات ، وآخر ولايته سنة ثمان وعشرين

ومائة ، في خلافة مروان الحمار . ١٨

وفي أيام بشر بن صفوان ، توفى الأعرج ، من حفاظ الحديث ، مات بالإسكندرية ،

سنة سبع عشرة ومائة .

وفي أيامه توفى صالح بن حيوان المصرى ، تابعى ثقة ، مات سنة مائة . - وتوفى ٢١

العقبى ، تابعى ثقة ، مات بأفريقية سنة مائة أيضا .

وتوفى عبد الرحمن بن خبير المصرى ، تابعى ثقة . - وتوفى عبيد بن ثمامة المرادى

- (٦٣ آ) المصري ، تابعي ثقة ، شهيد فتح مصر ، ومات سنة خمس ومائة .
- ٣ وتوفي عمرو بن مالك الهمداني المصري ، تابعي ، شهيد فتح مصر . - وتوفي قيصر النجيب المصري ، تابعي ثقة .
- ٦ واستمر الأمير بشر بن صفوان على ولايته بمصر حتى عزل .
- ثم تولى بعده أخوه حنظلة بن صفوان . - وفي أيامه نقلت قبائل بني قيس إلى مصر ، ولم يكن قبل ذلك بمصر من بني قيس أحد . - وأقام حنظلة على ولايته بمصر إلى سنة خمس ومائة .
- ٩ ثم تولى بعده الأمير محمد بن عبد الملك ، أخو هشام ، فأقام على ولايته بمصر نحو سبعة أشهر وخمسة أيام ، ثم عزل عنها .
- ثم تولى بعده الحر بن يوسف ، فلم تطل أيامه بها ، وعزل عنها .
- ثم تولى بعده الأمير حفص بن الوليد العامري ، فأقام إلى آخر سنة ثمان ومائة ، وعزل عنها .
- ١٢ ثم أعيد عبد الملك بن رفاعة ثانيا ، ثم صرف في سنته .
- ثم تولى بعده أخوه الوليد ، فأقام بها إلى أن توفي سنة تسع عشرة ومائة . - وفي أيامه توفي ثمامة الهمداني ، تابعي ثقة ، مات سنة عشرين ومائة .
- ١٥ وفيها توفي أبو عرج ، قاضي مصر ، قد جمع بين القضاء والقص . - وتوفي ربيعة ابن سيف المافري ، تابعي ، مات سنة عشرين ومائة . - وسليم بن جبير المصري ، تابعي ، مات سنة ثلاث وعشرين ومائة . - والحارث بن يعقوب الأنصاري المصري ، تابعي ، مات بأفريقية سنة اثنتين وعشرين ومائة .
- ٢١ ومات علي بن رياح اللخمي المصري ، كان من علماء زمانه ، مات سنة أربع عشرة ومائة . - ومات أبو عبد الله مكحول ، أحد الأئمة ، ولد بمصر ، ثم رحل إلى الشام ، مات سنة اثنتي عشرة ومائة .
- وتوفي الحكم بن عبد الله البلوي المصري ، تابعي ثقة ، مات سنة ثمان عشرة

- ومائة . - وفيها توفي حكيم بن عبد الله بن قيس المصري ، تابعي .
- وتوفي دراج بن سحمان أبو السمح المصري ، مولى عبد الله بن عمرو بن العاص ، تابعي ، مات سنة ست وعشرين ومائة . - وتوفي حجاج بن سداد الحنماني المصري ، ٣ تابعي ، مات سنة تسع وعشرين ومائة .
- وفيها توفي صالح بن قليب بن حرملة (٦٣ ب) الحضرمي ، من الطبقة الثانية ، مات سنة تسع وعشرين ومائة . - وعبد الله بن هبيرة السبئي الحضرمي ، مات سنة ٦ ست وعشرين ومائة . - وفيها توفي عثمان بن نعيم الرعيبي المصري ، تابعي .
- ثم تولى بعده الأمير عبد الرحمن بن خالد الفهمي ، فأقام بها نحو سبعة أشهر ، وصرف عنها . ٩
- وأعيد حفظة بن صفوان ، ثم صرف .
- وأعيد حفص بن الوليد ، ثم صرف .
- وتولى الأمير حسان بن عتاهية النجيب ، ثم صرف عنها . - وفي أيامه توفي ١٢ عبد الكريم بن الحارث الحضرمي المصري ، كان من التابعين . - وتوفي عمران بن أبي أنس العامري المصري ، تابعي .
- وتوفي مشرح بن همام الماعري . - وتوفي موسى بن وردان المصري ، ١٥ تابعي .
- وفي سنة ست وتسعين من الهجرة ، توفي القاضي قاسم بن أبي بكر ، قاضي مصر ، وكان على مذهب أبي حنيفة ؛ وتولى بعده القاضي لميعة بن عيسى الحضرمي ، ١٨ واستمر حتى توفي سنة أربع ومائة ، ودفن بمصر ؛ وتولى القاضي أبو طاهر الأعرج ، أقام مدة يسيرة ، واستعفى ، فمضى من القضاء ، سنة أربع وسبعين ومائة .
- ثم تولى بعده الأمير حوثة بن سهل الباهلي ، وكان رجلاً حليماً ، قايل الغضب ؛ ٢١

(١٩) ومائتين .

(١٧ - ٢٠) وفي سنة ست وتسعين ... أربع وسبعين ومائة : كتبت هذه الفترة في الأصل

على هامش من (٦٣ ب) .

٣ قيل إن رجلا من العرب دخل إليه، وهو يريد الدخول إلى داره، فحدثه في حاجة له، فوضع الأعرابي نعل سيفه على رجل الأمير حوثة، وطال معه الحديث، وجعل يفوص بالسيف في رجله حتى أدماها، وهو صابر حتى فرغ الأعرابي من كلامه، وخرج.

٦ فطلب حوثة خرقه ومسح بها الدم عن رجله، فقيل له: «لم لا أمرته أن ينح سيفه عن رجلك أيها الأمير؟» قال: «خشيت أن أقطع عليه كلامه، وهو في حاجته».

٩ وأين هذا الحلم من تكبر أهل زماننا هذا، ولا سيما ملوك الجراكسة وأمرائها، فلو وقع لهم مثل ذلك، لشتموا الأعرابي، أو ضربوه بالمقارع، وقال القائل:

فرضت على زكاة ما ملكت يدي وزكاة جاهي أن أعين وأشعنا
فإذا ملكت فيجد وإن لم تستطع فاجهد بوسعك كله أن تنفعا

١٢ (٦٤ آ) وفي أيامه توفى الحرث بن يزيد الحضرمي المصري، تابعي من الطبقة الثانية؛ قال الليث بن سعد: «كان يعلى كل يوم وليلة ستمائة ركعة»؛ مات ببرقة سنة ثلاثين ومائة، وعاش نحو مائة سنة.

١٥ وتوفى في تلك السنة كعب بن علقمة بن كعب التنوخي المصري، تابعي.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة، توفى عبد الرحيم بن ميهون المدني نزيل مصر، تابعي. - وتوفى عبيد الله بن المغيرة السبئي، تابعي، توفى سنة اثنتين وثلاثين ومائة. واستمر الأمير حوثة على ولايته بمصر، حتى عزل.

١٨ ثم تولى بعده الأمير عبد الحميد بن المغيرة بن عبيد الغزاري، تولى على مصر سنة إحدى وثلاثين ومائة.

٢٦ قال ابن وصيف شاه: وقع الغلاء بمصر في زمن الأمير عبد الحميد، فرهن حتى نسائه عند التجار، واشترى قمحا، وفرقه على الفقراء بمصر، فلما عزل عقيب ذلك عن مصر، جاء إليه التجار بسبب الرهن، الذي اشترى به قمحا وفرقه، فباع تلك (تاريخ ابن عباس ج ١ في ١ - ٩)

الحلى بأبخس الأثمان ، حتى دفع للتجار ما كان اقترضه منهم ، وكان القرض نحو عشرة آلاف دينار ، ثم رحل عن مصر والناس داعية له ، وخلف له الشئ الجليل ، فكان كما قيل في المعنى :

كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الشئ فإنه لك باق
ولو أنني خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق

ثم تولى بعده الأمير عبيد الله بن مروان الحمار ، وهو آخر من تولى بمصر من الأمراء الأموية ، وبه زالت دولتهم ؛ وكانت ولايته سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فأقام بها نحو سنة .

فلما قويت شوكة العباسية على الأموية ، وانكسر الأمير مروان الحمار ، وهرب وتوجه إلى مصر ، وولى الخلافة عبد الله السفاح ، وهو أول خلفاء بني العباس .

فلما تولى عبد الله السفاح ، أرسل عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، في طلب مروان الحمار ، فدخل مصر سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، (٦٤ ب) فأقام بها لضبط أمورها ، وأنشأ بها جامعا شمالي مدينة الفسطاط ، وسماه جامع العسكر . وفي أيامه توفى أبيض ، وكان من مشاهير الصحابة ، وقيل توفى قبل ذلك .

ثم بان له أن مروان الحمار توجه إلى نحو الصعيد ، فتبعه عبد الله بن علي ، بمن معه من العساكر ، حتى ظن به في قرية من قرى الصعيد يقال لها : « بوبير » ، فقطع رأسه هناك ، وأخذ ما كان معه من الأموال والتحف ، ودفن جثته هناك في بعض الشطوط من البحر ، بغير غسل ولا تكفين .

وكانت قتل مروان الحمار أواخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وهو آخر خلفاء بني أمية ، وبه انقرضت دولتهم .

قال الصولي : لما قطعت رأس مروان الحمار ، تركها عبد الله بن علي ، على صفة ، وتناقل عنها ساعة ، فجاءت الهرّة أكلت لسانه ، وجعلت تمضغه فيها ، فقال عبد الله ابن علي : « لو لم يرينا الدهر من عجائبه إلا لسان مروان الحمار ، وهو في فم الهرّة

تمضنه ، وكفى بذلك موعظة » ، وقال القائل :

وما أبقت لك الأيام عذرا وبالأيام يتعظ اللبيب

٣ قال ابن وصيف شاه : لما بلغ الأمير عبيد الله بن مروان ، أن أباه مروان قد انكسر وهرب ، قام إلى خزائن المال وأخذ منها عشرة آلاف دينار ، وأخذ شيئا من التحف والقماش والفرش ، وحمل ذلك على اثني عشر بغلا ، وأخذ معه جماعة من عبيده ، وشدّ على وسطه خريطة فيها جواهر فاخرة ، وخرج من مصر هاربا على وجهه ، فتوجّه إلى بلاد النوبة .

٩ فلما وصل إلى هناك ، وجد مدائن خرابا ، وبها قصور محكمة البناء ، فنزل في بعض تلك القصور ، وأمر عبيده بكنسها ، فكنت وفرشت من تلك الفرش التي معه ، ثم قال لبعض عبيده ممن كان يثق بعقله : « امض إلى ملك النوبة ، وخذ لي منه أمانا على نفسي من القتل » .

١٢ نخرج الغلام ، وتوجّه إلى ملك النوبة ، فغاب ساعة ، ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة ، فلما (٦٥ آ) دخل عليه ، قال له : « إن الملك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك ، أجنّت إليه محاربا أم مستجيرا » ؟ فقال له الأمير عبيد الله : « ردّ عليه مني السلام ، وقل له قد جاء إليك ليستجير بك من عدوّ يريد قتله » .

١٨ فمضى ذلك الرسول بالجواب ، فغاب ساعة ورجع ، وقال : « إن الملك قادم عليك في هذه الساعة » ، فقال الأمير عبيد الله لغلماؤه وعبيده : « افرشوا ما معنا من الفرش » ، وجعل في صدر المكان مرتبة برسم ملك النوبة يجلس عليها ، ثم صار يرتقب مجيئه .

٢١ فبينما هو على ذلك إذ دخل عليه غلامه ، وقال له : « إن ملك النوبة قد أقبل » ، فقام الأمير عبيد الله ، وصعد إلى سطح القصر ، فنظر إلى ملك النوبة ، فإذا هو رجل أسود اللون ، طويل القامة ، نحيف الجسد ، وعليه بردتان قد اتزّر بأحدهما وارتدى بالآخر ، ومعه عشرة من السودان حوله ، ومعهم حراب بأسنة ؛ فلما رآه الأمير

عبيد الله استصغر أمره ، واستحققره في عينه ؛ فلما قرب من المكان الذي فيه عبيد الله ، احتاط به من العساكر نحو عشرة آلاف رجل من السودان ، وفي أيديهم الحراب .

٣

فلما دخل ملك النوبة على الأمير عبيد الله ، أحاط ذلك العسكر بالمكان ، فلما وقعت عين ملك النوبة على الأمير عبيد الله ، بادر إليه وقبل يده ، فأشار إليه عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة التي صنعها له ، فأبى ملك النوبة أن يجلس عليها ، فقال عبيد الله للترجمان : « لِمَ لا يقعد الملك على تلك المرتبة التي صنعها له ؟ » فقال له الترجمان ذلك ، فقال ملك النوبة : « قل له ، كل ملك لا يكون متواضعا لله ، فهو جبار عنيد » .

٩

ثم إنّه (٦٥ ب) جلس بين يدي الأمير عبيد الله ، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض طويلا ، ثم إنّه رفع رأسه إلى الأمير عبيد الله ، وقال للترجمان : « قل له كيف سلبتم من مملككم ، وأخذ منكم ، وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم ؟ » فقال الأمير عبيد الله للترجمان : « قل له إن الذي سلب منا ممالكنا أقرب إلى نبينا منا » .

١٢

ثم سكت ملك النوبة ساعة ، وقال للترجمان : « قل له فكيف أنتم تلوذون إلى نبيكم بقراية ، وأنتم تشربون ما حرّم عليكم من الخمر ، وتلبسون الديباج ، وهو محرّم عليكم ، وتركبون في السروج الذهب والفضة ، وهي محرّمة عليكم ، ولم يفعل نبيكم شيئا من هذا ؟ وبأننا عنك لما ولّيت مصر ، كنت تخرج إلى العيد ، وتكلف أهل القرى ما لا يطيقون ، وتفسدون الزروع على الناس ، وتروم الهدايا والتقدم من أهل القرى ، وكل هذا لأجل كركي تصيده ، قيمته سبعة أنصاف ، وهذه بدع اخترعتموها من أنفسكم » .

١٨

وصار ملك النوبة يعدّد على الأمير عبيد الله جملة من الذنوب ، وهو ساكت لا يتكلّم ، ثم قال ملك النوبة : « ولما استحللتم ما حرّم الله عليكم ، سلبتم مملككم ، وأخذ منكم ، وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايها عنكم ، وأنا أخاف على نفسي ، إن أنزلتلك عندي ، فتحلّ بي تلك النقمة التي حلّت بكم ، ولكن ارحل عن أرضي بعد

٢٤

ثلاثة أيام ، وإلا أخذت ما معك من الأموال وقتلتك » ؛ ثم قام ملك النوبة ، وانصرف من عند الأمير عبيد الله .

٣ فلما سمع عبيد الله ما قاله ملك النوبة ، خرج من أرض النوبة في يومه ، ورجع إلى
الفسطاط ، فتقبض عليه عبد الله بن علي العباسي ، وأرسله إلى السناح ، فكانت مدة
ولايته على مصر نحو (٦٦ آ) سنة وأشهر ، وبه زالت دولة الأموية .

ذكر

من تولّى على مصر من الأمراء العباسية

قال ابن وصيف شاه : أول من تولّى بمصر من الأمراء العباسية ، الأمير صالح
ابن علي بن عبد الله بن العباس ، رضى الله عنهما ، تولّى على مصر فى ذى الحجة
سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فأقام بها دون السنة ، وعزل عنها ؛ ثم تولّى بها ثانيا ، كما
سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ثم تولّى بعده الأمير أبو عون عبد الملك بن أبي يزيد الأزدي ، فأقام بها إلى سنة
ست وثلاثين ومائة . - وفى أيامه توفى أبو شريحيل المصرى ، تابعى من الطبقة الثانية ،
مات فى تلك السنة .

وتوفى أيضا فيها ، زهرة بن معبد بن عبد الله بن هشام ، تابعى ، مات بالإسكندرية
فى تلك السنة . - وفى سنة خمس وثلاثين ومائة ، توفى عبيد بن سوية الأنصارى ،
تابعى من الطبقة الثانية .

ثم عزل أبو عون ، وأعيد الأمير صالح ثانيا .
ثم صرف ، وأعيد أبو عون ، وذلك سنة سبع وثلاثين ومائة . - وفى أيامه توفى
واهب بن عبد الله الماعفرى المصرى ، تابعى ، مات فى تلك السنة ببرقة .

وأقام أبو عون على ولايته بمصر إلى سنة إحدى وأربعين ومائة ، ثم عزل .
وتولّى بعده الأمير موسى بن كعب المعروف بأبى عبيثة التميمى ، فأقام على ولايته
بمصر سبعة أشهر ، ومات ودفن بمصر .

ثم تولّى بعده الأمير محمد بن الأشعث الخزاعى ، فلم تطل أيامه بها ، وعزل عنها
سنة اثنتين وأربعين ومائة . - وفى أيامه توفى فى هذه السنة الحسن بن ثوبان الهوزنى
المصرى ، تابعى . - وفيها توفى حميد بن هانى ، تابعى .

(٤) العباس : الباس .

(٥ و ٢٠) اثنتين : اثنين .

(٧) أبو عون : أبا عون .

- ثم تولّى بعده نوفل بن الفرات ، فلم تطل أيامه بها .
- ثم تولّى بعده حميد بن قحطبة الطائي ، فلم تطل أيامه بها ، وصرف عنها سنة أربع وأربعين ومائة . - وفي سنة أربع وأربعين ومائة ، توفى العلا بن كثير الإسكندراني ، مولى قريش . - وفي أيامه اهتزّت الكواكب في السماء من أول الليل إلى الصباح ، تخاف الناس من ذلك .
- ثم تولّى بعده الأمير يزيد بن حاتم المهلبى ، تولّى سنة سبع وأربعين ومائة . - وفي أيامه ، سنة ثمان وأربعين ومائة ، (٦٦ ب) توفى عمرو بن الحارث بن يعقوب ابن عبد الله الأنصارى ، كان من المجتهدين ، مات سنة ثمان وأربعين ومائة .
- وتوفى سعيد بن أبي هلال الليثى أبو العلا المصرى ، تابعى ، مات سنة تسع وأربعين ومائة . - وتوفى خالد بن مسافر الفهمى ، تابعى .
- وتوفى عبد الجليل بن حميد اليحصبي أبو مالك المصرى ، تابعى ، مات سنة ثمان وأربعين ومائة . - وفي سنة إحدى وأربعين ومائة ، توفى عقيل بن خالد الأيلي ، مولى عثمان ، وكان من حفاظ الحديث .
- ثم إن يزيد بن حاتم أقام على ولايته بمصر إلى سنة اثنتين وخمسين ومائة ، ثم عزل .
- وتولّى بعده الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج النجيبى ، فلم تطل أيامه ، وعزل .
- وتولّى بعده أخوه عبد الرحمن عمّ عبد الله ، فأقام بها سنة ومهرين . - وفي أيامه وقع الغلاء بمصر ، وأخذ قاع النيل ، فجاء الماء القديم ذراعا وعشرين أصبعا ، ولم يهد بمثل ذلك في السنين الماضية ، وكان منتهى الزيادة في تلك السنة اثني عشر ذراعا ، وستة عشر أصبعا ، فشرقت البلاد في تلك السنة ، وحصل للناس الضرر الشامل بسبب الغلاء .
- وفي أيامه توفى سعيد بن يزيد الحميرى الفتيانى أبو شجاع الإسكندراني ، تابعى

من الطبقة الثانية ، مات سنة أربع وخمسين ومائة . - وتوفى ربان بن فايد المصري ،
تابعي ، مات سنة خمس وخمسين ومائة .

٣ وتوفى حيوة بن شريح بن صفوان النجيبى أبو زرعة المصرى ، كان من العلماء
الرهاد ، مات سنة ثمان وخمسين ومائة . - وفى سنة تسع وخمسين ومائة ، توفى يونس
ابن يزيد الأبل الرقاشى ، من حفاظ الحديث ، مات بالصعيد .

٦ ثم تولى بعده الأمير موسى بن على اللخمي ، فأقام على ولايته بمصر إلى سنة اثنتين
وستين ومائة . - وفى أيامه توفى سعيد بن أبى أيوب مقلص الخزاعى ، مات سنة
إحدى وستين ومائة ، وعاش نحو ستين سنة .

٩ وفيها توفى بشير بن أبى عمرو الخولانى المصرى ، تابعي من الطبقة الثانية ، مات
(٦٧ آ) فى تلك السنة ؛ قال الذهبي فى « العبر » : غزا إلى بلاد القسطنطينية زمن
سليمان بن جعفر بن ربيعة الكندى .

١٢ ثم تولى بعده الأمير موسى بن عيسى الخصيب ، سنة اثنتين وستين ومائة ، فلم
تطل أيامه ، وعزل .

ثم تولى بعده واضح المنصورى ، ثم صرف من عامه .

١٥ وتولى بعده الأمير منصور بن يزيد الحميرى ، فلم تطل أيامه ، وعزل .
ثم تولى بعده الأمير يحيى بن ممدود أبو صالح الحريبي ، تولى على مصر أيام
الرشد ، فلم تطل أيامه ، وعزل . - وفى سنة ثلاث وستين ومائة ، توفى حرملة بن
يحيى بن عبد الله ، كان من أصحاب الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، وكان له اختيار
١٨ فى المذهب .

ثم تولى بعده الأمير سالم بن سودة التميمى ، تولى على مصر سنة أربع وستين
٢١ ومائة ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو سنة .

ثم تولى بعده الأمير إبراهيم بن عبد الملك بن صالح العباسى ، تولى على مصر

- سنة خمس وستين ومائة ، وكان الرشيد أزوجه بابنته غالية ، فلم تطل أيامه بها ، وعزل.
- ٣ ثم تولّى بعده الأمير موسى بن معصب ، مولى خشم ، تولّى على مصر سنة سبع وستين ومائة ، فلم تطل أيامه ، وعزل .
- ٦ ثم تولّى بعده أسامة بن عمرو الماعزى ، تولّى على مصر سنة ثمان وستين ومائة . - وفى هذه السنة توفى نافع بن يزيد الكلاعى المصرى ، تابعى .
- ٩ ثم تولّى بعده الأمير على بن سليمان العباسى ، فلم تطل أيامه ، فكانت مدة ولايته على مصر دون السنة .
- ١٢ ثم تولّى بعده الأمير موسى بن عيسى العباسى ، فكانت ولايته سنة اثنتين وسبعين ومائة . - وفى هذه السنة توفى الوليد بن المنيرة الماعزى ثم المصرى ، كان تابعيا ، توفى فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائة .
- ١٥ ثم تولّى بعده الأمير مسلمة بن يحيى الأحمشى ، فلم تطل بها (٦٧ ب) أيامه ، وعزل .
- ثم تولّى بعده الأمير محمد بن زهير الأزدي ، فلم تطل أيامه ، وعزل .
- ثم تولّى بعده الأمير داود بن يزيد المهاجى ، تولّى على مصر سنة أربع وسبعين ومائة ، فلم تطل أيامه ، وصرف هو والأمير محمد بن زهير فى سنة واحدة .
- ١٨ ثم تولّى بعده الأمير إبراهيم بن عبد الملك بن صالح العباسى ، وهى الولاية الثانية ، أقام بها حتى مات سنة خمس وسبعين ومائة .
- ٢١ وفى هذه السنة ، أعنى سنة خمس وسبعين ومائة ، كانت وفاة الإمام الليث بن سعد ، رضى الله عنه ، مات يوم الجمعة رابع عشر شعبان من تلك السنة ، ودفن بالقرافة
- (١١) اثنتين : اثنتين .
- (١٣) تابعيا : تابعى .

الكبرى ، بالقرب من مسجد الفتح .

قال ابن سعد : هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث المصري ، ولد بقلشمندة ، سنة أربع وتسعين من الهجرة ، فلما كبر ، روى عن الزهري ، وعطاء ، ٣ ونافع ، وابن المبارك ، وغيرهم من التابعين .

قال الشافعي ، رضى الله عنه : كان الليث أفقه من الإمام مالك ، رضى الله عنه ؛ وكان قد استقل بالفتوى في زمانه بمصر ، وكان في سعة من المال سخياً به . ٦

قال يحيى بن بكير : ما رأيت أفقه من الليث بن سعد ، كان ثقة في الحديث ، نحوي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ الأحاديث الكثيرة ، حسن المذاكرة ، رقيق الشعر في المحاضرة ، إلا أن أصحابه ضيعوه ، لم يكتبوا عنه شيئاً . ٩

قال الذهبي في « العبر » : كان أمراء مصر لم يقضوا أمراً دونه ، وإذا خالفه أحد في شيء ، كاتب فيه الخليفة ، فيعزله ، وأراد الخليفة المنصور أن يليه إمرة مصر ، فامتنع من ذلك غاية الامتناع . ١٢

قال ابن خلكان في تاريخه : لما مات الليث ، سُمع قائل يقول في تلك الليلة ، ذهب الليث ، فلا ليث لكم ، ومضى العلم غرباً وقبر .

قال يحيى بن بكير : إن الإمام الليث بن سعد ، هو أول من دَوّن ديوان الأعباس بهـمـر في أيامه ، وجعل للرزق الأعباسية ديواناً ، دون ديوان الجيش ، يختص بهم ، واستمر ذلك من بعده إلى الآن .

ومن النكت الطائفة ، ما حكاه عبد المحسن التنوخي (٦٨٦) في كتاب « المستجدات من فعّلات الأجواد » ، قال : بعث الخليفة الرشيد إلى الإمام مالك ، وهو بالمدينة ، خمسمائة دينار ، فلما باغ الليث بن سعد ذلك ، بعث للإمام مالك ألف دينار ، فلما باغ الرشيد بأن الليث بعث للإمام مالك ألف دينار ، غضب على الليث ، وأرسل يقول له : ٢١ « بعثتُ أنا إلى الإمام مالك خمسمائة دينار ، فتبهرت له أنت ألف دينار ، وأنت واحد من

رِعَيْتِي «؟ فأرسل الاليث يقول له : « يا أمير المؤمنين ، إن لي في كل يوم من متحصل غلالى ومتجربى ألف دينار ، فاستَحَيْتُ أَنْ أَقَابِلَ مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ بِأَقَلِّ مِنْ مِتْحَصَلِ يَوْمٍ وَاحِدٍ » .

وكان الاليث مع وجود هذه السعة الزائدة ، ما يحول عليه الحول ومعه مال يجب عليه زكاته ، وكان يهبه للفقراء والعلماء ، وغير ذلك من الناس ، فكان سعيد الدنيا والآخرة ، كما قيل :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعما . وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل انتهى ذلك .

ثم تولّى بعده الأمير عبد الله بن المسيب الضبى ، فلم تطل أيامه ، وعزل سنة ست وسبعين ومائة .

ثم تولّى بعده الأمير إسحاق بن سليمان العباسى ، تولّى سنة سبع وسبعين ومائة ، فلم تطل أيامه ، وعزل سنة ثمان وسبعين ومائة . - وفى هذه السنة ، توفى خالد ابن سليمان الحضرمى ، تابعى من الطبقة الثانية .

ثم تولّى بعده الأمير هرثمة بن أعين ، فأقام بها نحو شهر ، وعزل .

ثم تولّى بعده الأمير عبد الملك بن صالح العباسى ، تولّى سالخ سنة ثمان وسبعين ومائة ، فأقام نحو شهر ، وعزل ، وقيل مات .

ثم تولّى بعده الأمير عبيد الله بن الخليفة المهدى ، تولّى سنة تسع وسبعين ومائة ، فأقام نحو سنة ، وعزل ، وهذه ثانى ولاية .

ثم تولّى بعده (٦٨ ب) الأمير موسى بن عيسى الخصب ، وهى الولاية الثانية ، وكان يعرف بالخصيب لوضاحة وجهه . - وفى أيامه دخل أبو النواس مصر ، وامتح

موسى الخصب بقصائد سنية ، منها هذه الأبيات :

تخصكم يا أهل مصر نصيحتى ألا تغدوا من ناصح بنصيب

أناكم أمير شرف الله قدره أكل لحياة البلاد شروب

فإن يك باق سحر فرعون فيكم فإن عصى موسى بكف خصيب

قيل لما دخل أبو النّوأس مصر ، توجه إلى نحو الصعيد على سبيل التنزه ، فلما جلس على شاطئ النيل ، حذر من التماسح ، فأنشأ يقول :

أضمرت للنيل هجرانا وتقاية إذ قيل لي إنها التماسح في النيل ٣
ثم إن أبا نواس رجع إلى بغداد ، ومات بها سنة خمس وتسعين ومائة ، في دولة الأمين محمد بن الرشيد ؛ وكان إماما عالما فاضلا ، بارعا في العلم والأدب ، وإنما غاب عليه حب الشعر والاهو والخلاعة ، وثرى الرباح ، فأنحطت رتبة بين العلماء بسبب ذلك ، واسمه الحسن بن هاني ، وإنما سمي بأبي نواس ، لأن كانت له ذؤابتا شعر تنوسان على قفاه ، فسمي بأبي نواس ؛ ولما مات كُتب على قبره :

يا نواسي توقّر وتمزّرت وتصبر ٩
إن يكن ساءك دهر فلما سرّك أكثر
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

انتهى ذلك . - وفي سنة سبع وثمانين ومائة ، توفي معاذ بن مسلم ، وكان من المعمرين ، ورأى ثلاث بطون من أولاده ، وهو أول من أظهر التصريف ، ووضع فيه الكتب النفيسة .

ثم إن الأمير موسى بن عيسى الخعيب ، استمر على ولايته بمصر ، حتى وصى به عند الرشيد ، فعزله عن مصر .

وولي جعفر بن يحيى البرمكي على مصر ، فاستناب عليها عمر بن مهران ، وكان شنيع الخلقة ، زري الشكل ، أحول العينين ؛ وسبب ذلك أن الرشيد بلغه عن موسى الخعيب أنه قال : « أنا أحسن (٦٩ آ) من هرون الرشيد » ، فقال الرشيد : « والله لأولين على مصر أوحش الناس شكلا » ؛ فاستدعى عمر بن مهران وولاه على مصر نيابة عن جعفر .

فلما سار عمر بن مهران ودخل مصر ، وهو في أزمى هيئة ، راكباً على بغل ، وغلامه على حمار ، فدخل على الأمير موسى الخعيب ، فجلس في آخر الناس ، فلما

- انتفض المجلس ، أقبل عليه الأمير موسى ، وقال له : « ألك حاجة أيها الشيخ » ؟ قال : « نعم » ؛ ثم ناوله كتاب أمير المؤمنين الرشيد ، فلما قرأه قال : « أنت عمر بن مهران » ؟ .
- ٣ قال : « نعم » ، قال الأمير موسى : « لن الله فرعون حيث قال : أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصر » ؟ ثم سلم إليه وارتحل عن مصر ، فأقام بها عمر بن مهران مدة يسيرة ، وعزل . وأعيد الأمير موسى بن عيسى الخصب ، وهى ثالث ولاية ، ثم صرف عنها سنة ثمانين ومائة .
- ٦ ثم أعيد الأمير عبید الله بن المهدي ، فأقام بها إلى سنة إحدى وثمانين ومائة ، وصرف عنها .
- ٩ وفى سنة إحدى وثمانين ومائة ، توفى يعقوب بن عبد الرحمن التمارى . - وفى سنة إحدى وثمانين ومائة ، توفى الفضل بن فضالة بن عبد الله الرعيى . - وتوفى يعقوب ابن حبيب الأنصارى ؛ قال أبو يوسف : لم يكن فى الأنصار من يدعى بأبيه غيره .
- ١٢ ثم تولى بعده الأمير إسماعيل بن صالح العباسى ، فأقام على ولايته بمصر دون السنة ، وعزل .
- ثم تولى بعده الأمير إسماعيل بن عيسى العباسى ، فأقام بها إلى سنة اثنتين وثمانين ومائة ، وعزل عنها .
- ١٥ ثم تولى بعده الليث بن الفضل البيرودى ، ثم عزل . - وفى سنة أربع وثمانين ومائة ، توفى أئهب بن عبد العزيز الدامرى ، كان من أصحاب الإمام مالك ، وكان من علماء مصر .
- ١٨ وتولى بعده الأمير أحمد بن إسماعيل العباسى ، وذلك سنة خمس وثمانين ومائة . - وفى أيامه توفى ضمام بن إسماعيل المصرى ، وكان من مشاهير المحدثين ، مات بالإسكندرية سنة خمس وثمانين ومائة .
- ٢١ فأقام الأمير أحمد إلى سنة سبع وثمانين ومائة ، ثم عزل .

- وتولّى بعده الأمير عبد الله بن محمد العباسي : - وفي أيامه توفى رشد بن سعد ،
وكان تابعيا ، مات سنة ثمان وثمانين ومائة .
- ٣ وأقام الأمير عبد الله (٦٩ ب) على ولايته بمصر ، حتى عزل .
- ثم تولّى بعده الأمير حسين بن جميل الأزدي ، فأقام في ولايته على مصر إلى أواخر
سنة إحدى وتسعين ومائة ، ثم صرف .
- ٦ وتولّى بعده الأمير مالك بن دهم الكلبي ، تولّى على مصر سنة اثنتين وتسعين
ومائة ، فأقام بها ، ثم صرف عنها . - وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة ، توفى
عبد الرحمن بن عبد الحميد المصري ، تابعي ، وكان كفت قبل موته .
- ٩ وتولّى بعده الأمير حسن بن البجباح ، فأقام بها إلى سنة ثلاث وتسعين ومائة ،
ثم صرف .
- وتولّى بعده الأمير حاتم بن هرثمة بن أعين ، فأقام إلى سنة خمس وتسعين ومائة ،
وصرف عنها . - وفي يوم الأحد نصف ربيع الأول سنة أربع وتسعين ومائة ، توفى
١٢ عبد الله بن عقبة بن لهيعة الحضرمي المصري ، كان من علماء مصر ، روى الحديث ،
ثقة من الرواة .
- ١٥ ثم تولّى بعده الأمير جابر بن الأشعث الطائي ، فأقام بها إلى سنة ست وتسعين
ومائة ، وعزل .
- ثم تولّى بعده عبادة بن نصر الكندي . - وفي أيامه ، في شعبان سنة سبع
وتسعين ومائة ، توفى عبد الله بن وهب ، وكان من العلماء العاميين .
- ١٨ فأقام عبادة بن نصر على ولايته بمصر ، إلى سنة ثمان وتسعين ومائة ، ثم صرف
عنها .
- ٢١ وتولّى بعده المطلب بن عبد الله الخزاعي ، ثم صرف في سنته .
- وتولّى بعده الأمير عباس بن موسى العباسي ، ثم صرف في سنته .
- وأعيد المطلب ثانيا ، وذلك سنة تسع وتسعين ومائة . - وفي هذه السنة توفى شبيب

ابن الإمام الليث بن سعد ، رضى الله عنه .

فأقام المطلب على ولايته بمصر إلى سنة مائتين ، وعزل .

ثم تولّى بعده السرى بن الحكم ، ثم صرف عنها .

وتولّى بعده سليمان بن غالب ، وذلك سنة إحدى ومائتين ، ثم صرف .

وأعيد السرى بن الحكم ثانيا ، فأقام على ولايته بمصر ، حتى مات .

ثم تولّى بعده الأمير إبراهيم بن محمد السرى .

وفى أيامه ، سنة أربع ومائتين ، كانت وفاة الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، وهو

أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد (٧٠ آ)

ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، أحد أجداد رسول الله ،

صلى الله عليه وسلم ؛ والسائب جدّه ، صحابى ، أسلم يوم بدر ، وكذلك ابن شافع ؛

وأمّ الإمام الشافعى فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن الإمام على ، رضى الله

عنهم أجمعين ، قال الكرمانى :

الشافعى إمام كل أمة تربى فضائله على الآلاف

لكننى أوتيت بدعا بارعا فى وصفه هو سيد الأوصاف

ختم النبوة والإمامة فى الهدى بمحمد بن هاشم لعبد مناف

وكان مولد الإمام الشافعى بفزّة ، وقيل بعسقلان ؛ قال بعض الرواة : إنّ فاطمة

أمّ الإمام الشافعى ، رأت فى منامها ، وهى حامل به ، أن نجما خرج من بطنها وله

ضوء عظيم ، فسقط بأرض مصر ، ثم طارت منه شظايا فانتشرت فى سائر الآفاق ؛

فقصّت رؤياها على بعض العابرين ، فقال لها : « سيخرج من بطنك مولود ، ويكون

من كبار العلماء ، ويخصّ علمه أهل مصر ، دون غيرها من البلاد ، وينتشر علمه فى

سائر البلاد » ، وكان الأمر كذلك .

وكان مولد الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، سنة خمسين ومائة ، وهى السنة التى

توفى فيها الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، رضى الله عنه .

فيل إنّ الإمام الشافعى حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وقرأ الموطأ على الإمام

- مالك بالمدينة وهو ابن عشر سنين ؛ وتفقه على مسلم بن خالد الزنجي ، مفتي مكة ، وأذن له في الإفتاء ، وهو ابن خمس عشرة سنة ؛ ثم توجه إلى بغداد وزار قبر أبي حنيفة ، وكان يقول : « من أراد الفقه فعليه بأبي حنيفة » ، ومن أراد الحديث فعليه بالإمام ٣ مالك » ، وذلك سنة خمس وتسعين ومائة ، وصنف بها كتابه القديم ، ثم عاد إلى مكة ؛ ثم خرج إلى بغداد ثانيا سنة ثمان وتسعين ومائة ، فأقام بها شهرا ، ثم قصد توجه إلى مصر ، فقال عندما عزم (٧٠ ب) على السفر هذين البيتين من نظمه ، وهما : ٦
- وإني أرى نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها عرض المهامة والقفور
فوالله ما أدري ألعزّ والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبر
- قال ابن زولاق : لما دخل الشافعي مصر ، صنف بها نحو مائتي جزء في العلم ، ٩ وكان واسع الاطلاع ، كثير الفقه والأحاديث ، وكان يقول إذا صحّ الحديث فهو مذهبي ؛ وكان حسن الخلق ، سخي النفس ، قليل الغضب ، فكه المحاضرة ، رقيق النظم ، ومن نظمه قوله : ١٢
- إن كنت منبسطا ، سميت مسخرة أو كنت منقبضا ، قالوا به ثقل
وإن أخالطهم ، قالوا به طمع وإن تجنبتهم ، قالوا به علل
وإن طعمتهم ، قالوا يصانعنا وإن منعتهم ، قالوا به بخل ١٥
- مالي بخلق ، وخلق يرتضون به لا بارك الله فيهم ، إنهم سفل
- ومن بركة الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، أن في مدة حياته لم يقع الطاعون بمصر ، ولا في غيرها من البلاد ؛ قال العلامة شهاب الدين بن حجر ، رحمة الله عليه : ١٨ وقع الطاعون ببغداد سنة ست وأربعين ومائة ، ثم وقع في سنة إحدى وعشرين ومائتين ، فكان بين وقوع هذين الطاعونين نحو من سبعين سنة ، ففي هذه المدة كان مولد الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، واستمر الطاعون مرتفعا عن مصر وبقية البلاد ، ٢١ إلى حين وفاته ، رحمة الله عليه .
- وكانت مدة حياة الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، أربع وخمسين سنة ؛ واستمر ٢٤ الإمام الشافعي بمصر إلى أن مرض بعملة البطن ، وسلسل في المرض .

فلما أشرف (٧١ آ) على الموت ، أوصى أن لا يغسله إلا أمير البلد ، فلما مات ،
 حضر الأمير إبراهيم بن محمد السري ، أمير البلد ، فقبل له : « إن الإمام أوصى أن
 لا يغسله إلا أنت » ، قال : « هل توفي الإمام وعليه دين » ؟ قالوا : « نعم » ، قال :
 « احسبوا ما عليه من الدين » ، فحسبوا ، فإذا هو سبعون ألف درهم ، فقضاها عنه
 الأمير إبراهيم ، وقال : « هذا غسلي إياه » ، وإنما عني عن الدين الذي عليه لأقضيه
 عنه . ٦

وكانت وفاة الإمام الشافعي ، رحمة الله عليه ، ليلة الجمعة سلخ رجب سنة أربع
 ومائتين من الهجرة ، ودفن بالقرافة الكبرى ، مقابل تربة القاضي بكار ، رحمة
 الله عليهما . ٩

قيل لما مات الإمام الشافعي أوصى أن السيدة نفيسة تصلى عليه ، فلما مات أدخل
 نعشه في دارها ، وصلى عليه ، ثم حمل من عندها ، ودفن ؛ وكانت وفاة الإمام
 الشافعي في دولة المأمون بن الرشيد ، انتهى ذلك . ١٢

وفي سنة خمس ومائتين ، توفي بشر بن بكر البجلي التنيسي .
 ولما تولى الأمير إبراهيم على مصر ، تناب عليه الأمير عبد الله السري ، فأقام إلى
 سنة ست ومائتين ، وعزل عن ولايته بمصر . ١٥

ثم تولى بعده الأمير عبد الله بن طاهر ، ولآه الخليفة المأمون ، فخارب الأمير
 إبراهيم أشد المحاربة ، وطرده عن مصر ، وتولى مكانه .
 وفي سنة عشر ومائتين ، توفي الفقيه إسحق بن بكر بن مضر المصري ، كان
 من طلبة الليث بن سعد ، من أعيان العلماء . ١٨

وفي أيامه توفيت السيدة نفيسة ، رضي الله عنها ، وكانت وفاتها في شهر رمضان
 سنة ثمان ومائتين ، وهي نفيسة ابنة الأمير حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن الإمام
 علي بن أبي طالب ؛ وكان أبوها الأمير حسين أمير المدينة الشريفة ، أيام الخليفة
 المنصور ، ثم عزله عن المدينة وصادره ، فأخذ عياله وابنته نفيسة ، ودخل مصر ،

وكان له رواية في الحديث في سنن النسائي ، فدخلت نفيسة مصر ، مع زوجها المؤمن إسحق بن جعفر الصادق ، (٧١ ب) فأقامت بمصر .

وكانت عابدة زاهدة ، لها كرامات خارقة ، وكانت في سعة من المال ، وتحسن ٣
للفقراء ، وتحب فعل الخير ، وتؤوي الأرامل واليتامى ؛ ولما دخل الإمام الشافعي مصر ،
كانت تحسن إليه ، وربما كان يصلي بها في رمضان ، التراويح ، وكان أهل مصر
يعظمونها . ٦

فلما ماتت دفنت بدرب السباع ، فعزم زوجها إسحق على أن ينقل جثتها إلى المدينة
الشريفة ، فأقسم عليه أهل مصر أن يقيمها عندهم ياتمسون بركتها ، فأبقاها بمصر ؛
وقيل عاشت من العمر نيفا وسبعين سنة ، قال ابن خلكان : « الدعاء عند قبرها بحاجب » ؛ ٩
وكان لها أولاد من زوجها إسحق فدفنوا بمصر أيضا .

وفي هذه السنة توفى يحيى بن حسان التنيسي ، وكان إماما حجة ، مات في رجب

من تلك السنة ، انتهى . ١٢

قال ابن خلكان : إن في أيام عبد الله بن طاهر ، ظهر البطايخ العبدلاوي بمصر ،
وهو الذي نقل زريته إلى مصر ، ولم يكن بها قبل ذلك شيء منه ، فنسب إليه ،
وقيل البطايخ العبدلي . ١٥

وكان عبد الله بن طاهر من حذاق العمال ، وهو الذي جدّد بناء جامع عمرو بن
العاص ، واتسع فيه ، وزخرفه وذهب رؤوس العمود ، وأدخل في الجامع دورا كثيرة
من الخطط . ١٨

وأقام في ولايته بمصر إلى سنة عشر ومائتين . - وفي أيامه ، سنة إحدى عشرة
ومائتين ، توفى ليث بن عاصم بن كليب ، كان من أعيان العلماء ، وكان إمام جامع
عمرو . ٢١

وفي سنة إحدى عشرة ومائتين ، توفى أيضا السائب النجيب أبو يحيى المصري ،

(٨) يلتمسون : يلتمسوا .

(١٤) نى : شيئا .

تابعى ، مات بمصر .

ثم عزل عبد الله بن طاهر .

٣ وتولى بعده الأمير عيسى بن يزيد الجلودى ، فلم تطل أيامه ، وعزل . - واضطربت

أحوال الديار المصرية فى أيامه ، وثار بمصر رجلا ن وهما عبد السلام ، وابن جليس ،

وخرجا عن طاعة أمير المؤمنين المأمون ، واستحوذا على القرى ، وبايعهما طائفة من

٦ القيسية واليمانية ؛ فلما بلغ المأمون ذلك ، خلع عيسى بن يزيد .

وتولى أخاه أبا إسحق بن الرشيد ، على مصر ، مضافة (٧٢ آ) إلى الشام ، فقدمها

سنة أربع عشرة ومائتين ، فحارب أهل مصر ، وقتل عبد السلام ، وابن جليس ،

٩ وأقام بمصر مدة ، ثم رحل إلى الشام .

وتولى بعده الأمير عمير بن الوليد التميمى ، فأقام مدة يسيرة ، وعزل .

ثم أعيد الأمير عيسى بن يزيد الجلودى ، فأقام مدة يسيرة ، وعزل .

١٢ ثم تولى بعده الأمير عبدويه بن جبلة ، وذلك سنة خمس عشرة ومائتين ، فأقام بها

مدة يسيرة ، وعزل .

ثم تولى بعده الأمير عيسى بن منصور الرافقى ؛ قال ابن زولاق : لما قدم الأمير

١٥ عيسى إلى مصر ، توجه إلى بركة الحبش على سبيل التنزه ، فوقف عند الرصد ،

وتلفت يمينا وشمالا ، وقال ابن حوله : « إني أرى عجيبا » ، قالوا : « وما هو » ؟

قال : « أرى ميدان أزهار ، وحيطان نخل ، وبستان شجر ، ومنازل سكن ، وجبانة

١٨ أموات ، ونهر جارى ، وربيع من نبات أخضر ، ومراعى ماشية ، ومرابط خيل ،

وساحل بحر ، ومتانص وحش ، ومصائد سمك ، وملاح سفينة ، وحادى إبل ،

ومناير ، ورمال ، وسهل وجبل ، وأهرام وقرى ، فهذه سبع عشرة مثنرها ، فى أقل

(٧) أخاه : أخوه .

(١٨) ونهر جارى ، وربيع : كذا فى الأصل .

(٢٠) ورمال ، وسهل وجبل : كذا فى الأصل .

من ميل في ميل » ، فقال القائل في المعنى :

- يا نزهة الرصد التي قد نزهت عن كل شيء ، حلا في جانب الوادي
فذا غدیر ، وذا روض ، وذا جبل فالضب والنون والملاح والحادی ٣
ثم إن الأمير عيسى أقام بمصر . - وفي أيامه اضطربت أحوال الديار المصرية ،
وخرج أهلها عن الطاعة ، وحصل بينهم ، وبين عساكر الفسطاط ، من الحروب
العظيمة ما لا يمكن شرحه ؛ فكاتبوا المأمون بذلك ، فجهّز العساكر ، وخرج بنفسه ٦
من بغداد معهم ، وتوجّه إلى مصر ، فدخلها في محرّم ، أوائل سنة (٧٢ ب)
سبع عشرة ومائتين ، فدخل في عساكر عظيمة ؛ وكان صاحبته أخوه محمد المعتصم ،
وولده العباس ، وأولاد أخيه ، وها الواثق والمتوكّل ؛ وكان صاحبته القاضي يحيى ٩
ابن أكرم ، والقاضي أحمد بن أبي دواد ، وغير ذلك من أعيان بغداد .
قال الكندي : لما دخل المأمون مصر ، نزل تحت الجبل الأحمر ، عند قبة الهواء ،
ونظر إلى أرض مصر ، وقال ابن حوله : « ما أدري ماذا أعجب فرعون في مصر ، ١٢
حيث قال : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ » ، وهي أرض غبراء بين جبلين ، فأنى شيء
أعجبه فيها ؟ فقال له بعض الحاضرين : « إن الذي رآه أمير المؤمنين ، ليست كانت
مصر كذلك ، وقد قال الله تعالى : « وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ ، وَقَوْمُهُ وَمَا ١٥
كَانُوا يَفْرُسُونَ » ، فسكت المأمون .
فلما حضر عيسى بن منصور الرافقي بين يديه ، وتجنّ به بالكلام ، وقال له :
« هذا كماه بسوء تدبيرك ، وجورك على أهل القرى » وقد حمات الناس ما لا يطيقون ، ١٨
وكتمت الأمر عني حتى عظم .
ثم إن المأمون عين الأفشين ، وكان شجاعا بطلا ، فأخذ طائفة من العسكر ،
وتوجّه إلى أعلا الصعيد ، وحارب أهلها ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأسر النساء ٢١
والصبيان ، وأحضرهم بين يدي المأمون ، فأمر بقتل الرجال ، وبيع النساء والصبيان ،
وكان أكثرهم من القبط والخوف .

- فلما خدعت هذه الفتنة ، سرح المأمون في ضواحي مصر ، فكان يقيم في كل قرية يوما وليلة ، ثم يرحل عنها ، فكان إذا نزل بقرية ، يضرب له سراق من حرير ، ويبلّس على دكة من الأبنوس مطعمة بفضة ، (٧٣ آ) وينصب له عليها لواء من حرير أسود ، مرقوم بالذهب ، وتحاط به الوزراء والأمراء من كل جانب .
- فلم يزل على ذلك ، حتى مرّ بقرية من قرى مصر ، يقال لها طاه النمل ، فمرّ عليها ولم ينزل بها ، فلما جاوزها وحاد عنها ، خرجت إليه عجوز قبطية ، وهي ترعش بين خادمين ، وكانت تعرف بمارية القبطية ، فوقفت بين يديه ، وبكت وصاحت ، فظنّ المأمون أنها مظلومة ، ووقف لها ، وكان لا يسير إلا والتراجم بين يديه ، من كل جنس بلسانه ، فسألها بعض التراجم عن أمرها ، فقالت : « إن أمير المؤمنين ينزل بكل قرية من قرى مصر ، ويقيم بها يوما وليلة ، وقد حاد عن قريتي ، ولم ينزل بها ، حتى أمير معيرة بين القبط بذلك » .
- فلما ترجم له الترجمان بما قالته العجوز ، قال له المأمون : « إن قريتها صغيرة لا تحمل العسكر ، ولا تطيق هذه العجوز كائنتنا » ؛ فرد عليها الترجمان الخببر ، فصاحت وقالت : « لا سبيل أن يتجاوز أمير المؤمنين قريتي » ؛ فعند ذلك ثنى المأمون عنان فرسه ، ونزل بقريتها ، وضرب بها خيامه .
- فلما استقر بها ومن معه من العساكر ، جاء ولد تلك العجوز إلى صاحب المطبخ ، وقال له : « اذكر لي ما يحتاج إليه من غنم ، وبقرة ، ودجاج ، وأفراخ السمك ، وأوز ، وسكر ، وعسل ، وفستق ، ولوز ، وفاكهة ، وحلوى ، ومسك ، وماورد ، وشمع ، وبقولات ، وغير ذلك ، مما جرت به عادة الخلفاء » .
- فلما ذكر له صاحب المطبخ ما يحتاج إليه ، فغاب ساعة يسيرة ، وأحضر له جميع ما يحتاج إليه من تلك الأصناف ، التي ذكرها له ؛ ثم أحضر لأقارب المأمون ، لكل واحد منهم ما يخص به على اتفراده .

وأقام المأمون هناك (٧٣ ب) يوما وليلة ، وهو في أرغد عيش ، فلما أراد الانصراف ، أقبلت عليه تلك العجوز ، ومعها عشرة من الوصائف ، وعلى رأس كل واحدة منهن طبق ، فلما عاينها المأمون من بعيد قال ابن حوله : « قد جاءتكم القبطية بهدية الرئف : الكامخ والصحنا » .

فلما وضعت الأطباق بين يديه ، كشفها ، فإذا فيها ذهب ، دنانير ، فشكرها على ذلك ، وأمرها بإعادته إليه ، وقال : « فيما صنعتك كفاية » ؛ فقالت له : « يا أمير المؤمنين ، لا تشمت بي أعدائي برده إلي » ، وبكت ، فقال المأمون : « قبلنا منك ذلك » ؛ ثم تأمل ذلك الذهب ، فإذا هو ضرب عام واحد جميعه ، فتعجب من ذلك غاية العجب ، وقال : « ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك » ، ثم قال لها : « أيتها العجوز ، أظفرت بكثرة ؟ » قالت : « لا والله ، وإنما هو من زرع الأرض ، ومن عدلك يا أمير المؤمنين » ؛ فقال لها : « بارك الله في مروءتك وفيما صنعت » .

ثم إن المأمون أنعم على تلك العجوز بقرية تسمى قنطرة العجوز إلى الآن .

ثم إن المأمون أقام بمصر أربعين يوما ، ورحل عنها ثمانية عشر خالون من صفر ، من السنة المذكورة ، فكانت مدة غيبته ذهابا وإيابا ، نحو أربعة أشهر وأيام ، ودخل عليه من المال في هذه المرحلة ، نحو أربعة آلاف ألف دينار ، غير الهدايا والتحف ، ففرق على عسكره ، لما رجع إلى بغداد ، لكل واحد منهم مائة كفه دنانير ذهباً .

وصار في كل وقت يذكر ما جرى له مع مارية القبطية ، ويتعجب مما صنعتته معه ، ومن سعة مالها ، وكبر مروءتها ، ويقول : « الحمد لله الذي في رعيئنا من هو بهذه الصفة » ، وقد قيل في المعنى :

أظن بأن الدهر ما زال هكذا وأن حديث الجود ليس (١٧٤) له أصل

(١٠) أظفرت : أظفرتي .

(١١) صنعت : صنعتي .

- وهب قد فنى من قد سمعنا بذكرهم أما كان فيهم من يكون له نسل
وفي سنة ثمان وعشرين ومائتين ، توفى أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، صاحب
الجماسة ، ملك الشعراء ؛ كان أصله من قرية حاسم بالقرب من طبرية ، دخل مصر ،
وأقام بها بجماع عمرو يستقى الماء ، فشاع ذكره ، وسار في الآفاق شعره ، ثم توجه
من مصر إلى الموصل ، فمات بها تلك السنة .
- ٦ قال السكندی : لما دخل المأمون مصر ، رأى الأهرام ، فأمر بفتح الهرم الكبير ،
فلما انتهى فيه إلى عشرين ذراعاً ، وجد هناك مظهرة خضراء ، فيها ذهب مضروب ،
زنة كل دينار أوقية ، وكان عددها ألف دينار ، فتعجب المأمون من جودة ذلك الذهب ،
وقال : « ارفعوا حساب ما قد أصرفناه على فتح هذه الثلثة » ، فوجد الذهب الذي
أسابه في المظهرة ، بقدر ما نفقه على فتح الثلثة ، لا يزيد ولا ينقص ، فتعجب من ذلك
غاية العجب ، وقال : « كأن هؤلاء القوم بمنزلة لا ندر كها نحن ، ولا أمثالنا » .
- ١٢ وقيل إن المظهرة الخضراء ، التي وجدت في الثلثة ، كانت من الزبرجد الأخضر ،
فأمر المأمون بحملها إلى خزائنه ، وهي آخر ما حمل من عجائب مصر ؛ واستمرّ النقب
موجوداً في الهرم الكبير ، يقصدونه الناس ، وينزلون به ، فمنهم من يسلم ، ومنهم
من يهلك ، انتهى ذلك .
- ١٥ فلما رحل المأمون عن مصر ، عزل عيسى بن منصور الراقي .
وولى نصر بن كيدر السعدى ، فأقام بها إلى سنة تسع عشرة ومائتين .
- ١٨ وفي أيامه توفى أحمد بن أشكال أبو عبد الله الصفار الكوفى ، نزيل مصر ، مات
سنة سبع عشرة ومائتين . - وتوفى عسلى بن معبد بن شداد العبدى ، نزيل مصر ،
مات في رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين .
- ٢١ وتوفى فيها أيضاً حبيب بن أبى حبيب أبو محمد المصرى ، تابعى . - وتوفى سعيد
ابن عيسى المصرى ، تابعى ، مات في ذى الحجة سنة تسع عشرة ومائتين .
وفي سنة تسع عشرة ومائتين ، فيها توفى عثمان بن صالح بن صفوان السهمى ،
١٠ لا يزيد : لا يزد .

من علماء مصر . - وتوفى فيها أيضاً عمرو بن الربيع بن طارق المالكي الكوفي ،
نزيل (٧٤ ب) مصر . - وتوفى فيها أيضاً النضر بن عبد الجبار بن مضر المصري .
وفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، توفى عبد الله بن صالح ، كاتب الإمام الليث ٣
ابن سعد .

- واستمر نصر بن كيدر على ولايته بمصر ، حتى عزل .
٦ وتولى بعده المظفر بن أبي العباس ، فلم تطل أيامه بها ، وعزل .
وتولى بعده مالك بن كيدر ، وذلك سنة أربع وعشرين ومائتين .
وفي أيامه توفى أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع الأموي المصري ، من أعيان
٩ العلماء ، مات سنة خمس وعشرين ومائتين .
وفي سنة ست وعشرين ومائتين ، توفى ابن كثير ، المؤرخ ، صاحب « البداية
والنهاية » ؛ واسمه سعيد بن كثير بن عفير أبو عثمان المصري ، تولى القضاء بمصر ،
وكان صحيح النقل ، كثير الاطلاع ؛ وُلد سنة ست وأربعين ومائة ، ومات سنة ١٢
ست وعشرين ومائتين ، وكان ثقة المؤرخين ، انتهى .
فأقام مالك على ولايته بمصر ، حتى عزل .
ثم أعيد الأمير عيسى بن منصور ثانياً ، وأقام في هذه الولاية إلى سنة تسع ١٥
وعشرين ومائتين .
وفي أيامه توفى الإمام نعيم بن حماد الروزي ، نزيل مصر ، مات سنة ثمان
١٨ وعشرين ومائتين ، مات بسامرا ، وكان من حفاظ الحديث .
واستمر الأمير عيسى على ولايته بمصر ، حتى عزل .
ثم تولى بعده هرثمة بن نصر الجبلي ، فأقام إلى سنة خمس وثلاثين ومائتين .
ثم تولى بعده ابنه حاتم ، فلم تطل أيامه وعزل . ٢١
وتولى بعده إسحاق بن يحيى ، فلم تطل أيامه ، وعزل .
ثم تولى بعده الأمير عبد الواحد بن عيسى ، المسمى حوط ، مولى خزاعة ، تولى
على مصر سنة ست وثلاثين ومائتين ، فأقام على ولايته بمصر دون السنتين ، وعزل . ٢٤

ثم تولى بعده عنبسة بن إسحق الضبي ، تولى سنة ثمان وثلاثين ومائتين .
 وفي أيامه هجموا بنو الأسمر على ثغر دمياط ، ونهبوا المدينة ، وقتلوا جماعة من
 أهلها ، وسبوا النساء ؛ فجاء الخبر إلى مدينة الفسطاط يوم عيد الفجر ، فخرج الأمير
 عنبسة ونادى بالنفير عاما ، فخرج عسكر الفسطاط قاطبة ، وتوجه إلى ثغر دمياط ،
 وتحاربوا مع بني الأسمر ، فانتصروا عليهم ، وأسروا منهم جماعة ، وهرب الباقون
 إلى بلادهم ، ورجع الأمير (٧٥ آ) عنبسة إلى الفسطاط وهو منصور ، وقدامه
 الأسرى من بني الأسمر ، وكان يوما مشهودا .

فأقام الأمير عنبسة بعد ذلك مدة يسيرة ، ومات بمصر .
 وفي سنة ست وثلاثين ومائتين ، توفي أبو تراب النخشي ، ودفن بمصر ، داخل
 القاهرة .

ثم تولى بعده الأمير يزيد بن عبد الله التركي ، وكان من الموالى ، تولى على مصر
 سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، في أيام الخليفة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم ؛ فلما
 استقر بمصر ، كانت له حرمة وافرة ، وكلمة نافذة .

وفي سنة خمس وأربعين ومائتين ، توفي ذو النون المصري ، أبو النض ثوبان بن
 إبراهيم المصري ؛ وُلد بأخميم ، وكان أصله من النوبة ، وكان أسمر اللون ، شديد
 السمرة ، عاش من العمر نحو تسعين سنة ، ودفن بالقرافة الكبرى .

ثم إن المتوكل أرسل يقول له أن يبني مقياسا لزيادة النيل ، فشرع في بناء مقياس
 بالجزيرة ، وهي الروضة ، فابتدأ في بنائه سنة ست وأربعين ومائتين .

قال ابن عبد الحكم : كان بمصر عدة مقياس قبل الإسلام ، فكان مقياس
 بأنصنا ، ومقياس بمنف ، ومقياس بقصر الشمع ؛ ثم بنى عمرو بن العاص مقياسا
 بأسوان ، عندما فتح مصر ؛ ثم بنى عبد العزيز بن مروان ، لما كان على مصر ، مقياسا

(٧) الأسرى : الأسرا .

(١٧) له : يعني ليزيد بن عبد الملك .

(١٧ و ١٩ و ٢٠) مقياس : مقياسا .

بجوان ؛ ثم بنى أسامة بن زيد مقياسا بالجزيرة ، فى أيام عبد الملك بن مروان ؛ ثم بنى سليمان بن عبد الملك مقياسا آخر ؛ ثم بنى المأمون مقياسا بالبشرودات ؛ ثم بنى أحمد ابن طولون مقياسا .

٣

فلما كان أيام الخليفة جعفر المتوكل على الله ، أمر ببطلان سائر المقاييس التى كانت بمصر ، وجعل العمل على هذا المقياس ، وسمّاه المقياس الجديد ، وهو عبارة عن فسقية مربعة ، يدخل إليها الماء من أسربة بين الحيطان ، وفى وسطها عمود من رخام أبيض ، وهو مشعن ، طوله نحو عشرين ذراعا ، وله قاعدتان ، سفلية وعلاوية ، وفوقه جائزة خشب فى وسط الفسقية .

وقد قسّم هذا العمود على أذرع ، بها أصابع مخطوطة كالقرايط ؛ ومساحة الذراع إلى أن يبلغ اثني عشر ذراعا ، ثمانية وعشرون أصبعا ؛ ومن اثني عشر ذراعا إلى ما فوق ذلك ، يصير الذراع أربعة وعشرين أصبعا .

فإذا (٧٥ ب) كان أوان زيادة النيل ، يدخل الماء الجديد على الماء القديم الذى فى الفسقية ، فتارة تكون القاعدة عالية من الماء القديم ، وتارة تكون واطية من قلة الماء ، وأقل ما يكون فى قاع المقياس من الماء القديم ثلاثة أذرع ، وفى تلك السنة يكون النيل شحيحا .

١٥

قيل أكثر ما وجد فى قاع المقياس من الماء القديم ، تسعة أذرع وإحدى وعشرين أصبعا ، وكان ذلك سنة سبع وتسعين من الهجرة ؛ وأقل ما وجد فى قاع المقياس من الماء القديم ، ذراع واحد وعشرون أصبعا ، وهو سنة تسع وتسعين ومائة ، فبلغ النيل تلك السنة اثنتى عشرة ذراعا وتسعة عشر أصبعا ، ثم انهميط عاجلا .

١٨

وقاعدة مصر فى أمر زيادة النيل ، فإن النيل يتنفس فى الزيادة من أول يؤونة ، فإذا مضى منها اثنتى عشرة ليلة ، تنزل النقطة فى ليلة الثانى عشر منها ، ويسمونه عند القبط عيد ميكائيل ؛ فإذا مضى من يؤونة خمسة وعشرين يوما ، تطالع البشارة ،

٢١

(٢) بالبشرودات : كذا فى الأصل

(٤) النى : الذى .

ويظهر أمر القاعدة ، بما وجد في قاع المقياس من الماء القديم ؛ ثم في يوم السادس والعشرين من بؤونة ، ينادى على النيل بما يزيد في تلك السنة ، من قليل أو كثير ، وقيل في المعنى :

مناذٍ فيه قاعدة اصطبارى وَهَتْ لقياسه المهجر التابع
رأى كسراً لقاها قالت هلاً تبشّر بالوفاء منك الأصابع

وتعير الزيادة مستمرة : أبيب ، ومسرى ، وتوت ، واثني عشر يوماً من بابة ، فيكون مدة الزيادة من ابتدائها إلى منتهائها ، ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، ثم يأخذ في النقصان ؛ وغالب الوفاء يكون في مسرى ، حتى قيل : « إذا لم يف النيل في مسرى ، فانتظره في السنة الأخرى » .

قال المسعودي : إذا انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً ، فقد حصل للناس الرىّ الشامل ؛ فإذا بلغت الزيادة إلى سبعة عشر ذراعاً ، استبحر من أراضي مصر الربع ، وحصل لبعض الضياع الضرر ، بسبب وجود (٧٦ آ) الاستبحار ؛ وإذا بلغت الزيادة ثمانية عشر ذراعاً ، كانت العاقبة عند انصرافه حدوث وباء بالديار المصرية ؛ وكان القبط يقولون : « نعوذ بالله من أصبع من عشرين » ؛ وكان النيل إذا بلغ أصبع من عشرين ، غرق الضياع والبساتين ، وكسر الجسور ، وحصل للناس الضرر بسبب ذلك . قال المسعودي : إن الأذرع التي كان يستقى عليها بمصر ، ذراعان ، وهي التي تسمى منكر ونكير ، وهي ذراع ثلاثة عشر ، وذراع أربعة عشر ، فإذا انصرف الماء عن هذين الذراعين ، استسقى الناس لها بمصر ، وكان الضرر الشامل ؛ وإذا دخل الماء في ستة عشر ذراعاً ، كان فيه بعض صلاحه للبلاد ، ولا يستسقى له ، وكان ذلك نقصاً في الخراج ، تمت .

وكانت قاعدة مصر القديمة محكمة على ستة عشر ذراعاً ، تروى منه سائر أراضي

(٨) لم يف : لم يفي .

(١٤) أصبع : كذا في الأصل .

(١٩ و ٢١) ذراعاً : ذراع .

مصر ، وقد فسدت هذه القواعد كلها في هذا الزمان ، لما علا من الأراضي من قلة
الجرف ، وفساد الأحوال ، وصارت أراضي مصر الآن لا تروى إلا من عشرين
ذراعا ، أو إحدى وعشرين ذراعا ، انتهى ذلك .

٣

وكانت هذه المقاييس المتقدم ذكرها ، يتولى قياس النيل بها جماعة من النصارى
الأقباط ، فلما بنى الأمير يزيد بن عبد الله التركي هذا المقياس الجديد بالجزيرة ، عزل
هؤلاء النصارى عن قياس النيل ، وجعل عليه شخصا يسمى عبد الله بن عبد السلام
ابن عبد الله بن أبي الرداد ؛ وكان أصله من البصرة ، وقدم مصر ، وأقام بها . وكان
مؤذنا بجامع عمرو بن العاص ، وأجرى عليه في كل شهر سبعة دنانير ؛ ولم يزل المقياس
بيد أبي الرداد حتى توفي سنة ست وستين ومائتين ؛ واستمر المقياس مع أولاده ،
وأولاد أولاده ، إلى يومنا هذا .

٩

قال المسيحي في « تاريخ مصر » : سأل القاضي ابن خيران ، ماذا يستفتحون به
القياسون في كلامهم إذا نادوا على النيل ؟ قال : أحسن ما يقولون ، « نِعَمْ لَا تَحْصَى ،
من خزان لا تقنى ، زاد الله في النيل المبارك كذا وكذا » .

١٢

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في منادى البحر ، لما يزيد عشرة أصابع ،
ويجعلون في أيديهم عودا وهو مخلق بالزعفران :

١٥

قد قلت لما أتى المقيس وفي يده عود بماء النيل قد غودي (٧٦ ب) وقد نودي
أيام ساطئنا سعد السعود وقد صحّ القياس بجري الماء في العود
قال السعودي : ومن عادة ماء النيل قبل الزيادة ، يخضر لونه ، ويتغير طعمه ،
فيقولون العوام من أدل مصر : « البحر بيتوحم » وهذا شيء ليس له أصل ، والسبب

١٨

(٥) بنى : بنا .

(٦) هؤلاء : ذلك .

(١١) المسيحي : المسيحي .

(١٤) لما يزيد : لما يزد .

(١٥) ويجعلون : ويجعلوا .

(١٦) بيتوحم : كذا في الأصل ، وبلاحظ الأسلوب العامي ، واستعمال حرف الباء في أول

الفعل المنفرد .

في ذلك أن النيل إذا انهمط بعد الزيادة ، يرسب الماء في تلك البطيحات التي فوق الجنادل ، فينقطع ماؤها ، ويتغير لونه وطعمه ، فإذا جاءت السيول بالماء الجديد ، ينحدر الماء القديم من البطيحات إلى أراضي مصر ، فيقولون الناس : « قد توحّم البحر » ، وفي ذلك يقول الشيخ جلال الدين بن خطيب داريا :

عجب لنيل ديار مصر إنّه عجب إذا فكرت فيه يعظم
يطأ الأراضي ، فهي تافح دائما من مائه ، وهو الذي يتوحّم

قال المسعودي : وكان للمقياس في الدولة الفاطمية عند مبتدأ الزيادة ، مائة دينار تصرف من الذخيرة لابن أبي الرداد ، بسبب كدس تجاري ماء النيل ، حتى يدخل إلى فسقية المقياس .

وكان يأتي من مدينة قوص مركب صغيرة تسمى المفرد ، وبها رجل واحد يقذف ، وعليه أساييط بلح تظلمه من حرّ الشمس ، حتى يصل ، فيبشّر بوفاء النيل ، قبل أن يبشّر به ابن أبي الرداد ، وكان له معاوم على أبواب الدولة في كل سنة ؛ فبطل ذلك من مصر ، مع جملة ما بطل منها من العوايد القديمة ؛ وقد تغرّلت الشعراء في وصف هذا المفرد ، تغزلات كثيرة ، فمن ذلك قول النقيشي :

إن كان مدّ النيل قد سرّكم وقد بالغتم بالوفاء المنى
(٧٧ آ) فالنيل من بعدكم أذّ معنى ، نعم ، وما المفرد إلا أنا
انتهى ذلك .

واستمرّ الأمير يزيد بن عبد الله التركي على ولايته بمصر ، حتى عزل . ثم تولى بعده الأمير مزاحم بن خافان التركي ، وزير المتوكل ، تولى على مصر سنة ثلاث وخمسين ومائتين .

وفي أيامه توفّي أحمد بن صالح المصري ، أحد الحناظ المبرزين ، والأئمة المجتهدين ، مات في ذي القعدة سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وفي هذه السنة توفّي أيضا ابن عمّ الإمام الشافعي ، محمد بن عبد الله بن محمد

ابن العباس بن عثمان بن شافع ، وكان تزوج بزینب ابنة الإمام الشافعی ، رضى الله عنه ، فأولدها ابنه أحمد ، وكان له مناظرات كثيرة مع المرنى .

وفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، جاءت الأخبار من بغداد ، بوفاة البويطى ، ٣ أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى القرشى ، كان إماما عالما فاضلا ، كان يحضر مجلس الإمام الشافعى ، وله مناظرات كثيرة ، أرسل خلفه الخليفة الواثق ، من مصر إلى بغداد ، فى أيام المحنة بخلق القرآن ، وأراد منه القول بخلق القرآن ، فامتنع من ذلك ، فحبسه الواثق ببغداد ، حتى مات فى السجن ، وهو مقيد ، وكانت وفاته فى رجب من تلك السنة ، وكان الإمام الشافعى بشره أنه لا يموت إلا وهو فى السجن ، فى الحديد ، وكذا جرى ، انتهى . ٩

واستمر الأمير مزاحم بن خاقان على ولايته بمصر ، حتى مات ، ثم تولى بعده ابنه الأمير أحمد ، فلم تطل أيامه ، وعزل .

ثم تولى بعده أرخور التركى ، وكان من الموالى ، فلما ولى على مصر لم تطل بها ١٢ أيامه ، وعزل (٧٧ ب) عنها .

ثم تولى بعده الأمير محفوظ بن سليمان .

وكان هؤلاء الأمراء إذا تولوا على مصر ، يسمون عمال الخراج بمصر ، وكانت ١٥ الخلفاء يشترطون عليهم فى كتب تقاليدهم ، المال الذى ياتزمون به ، وعليهم من الهدايا والتقادم : الخيول العربية ، والبغال الخيسية ، والجمال البجاوية ، والثياب الدبيقية ، ومقاطع الشرب الإسكندرانية ، والعارز البهنساوية ، وأجلال الخيل ، ١٨ والستور النيومية ، والعسل النجل المصرى ، الذى من عسل بنها ، وغير ذلك من الأصناف التى لا توجد إلا بمصر .

قال محفوظ بن سليمان : من غريب ما اتفق لى أن قد تجمّد على من خراج مصر ٢١ فى أيام الخليفة الواثق ، ثلاثمائة ألف دينار ، فأرسل أحضرنى فى الحديد ، فلما وصلت إلى بغداد ، دخلت على الواثق وقت صلاة الفجر ، وأنا آيس من الفرج ، فلما فرغ

يصلّى ، أخذ بيده درج مكتوب بماء الذهب ، فقرأ فيه .

فلما أبصرني ، قال : ويحك يا محفوظ في أى ساعة دخلت علىّ فيها ؟ فقلت :

٣ في ساعة خير يا أمير المؤمنين ؟ قال : هل تدري ما في هذا الدرج الذى بيدي ؟ قلت :

لا والله يا سيدى ؟ قال : هذا مما أنزل على دانيال ، عليه السلام ، يقول الله تعالى :

عند تناهى شدتى يكون فرجى ، وعند نزول بلائى ، يكون رجائى ، وفى مثلى فليطمع

٦ الطامعون ؟ اذهب يا محفوظ ، فقد وهبتُ لك ما عليك من المال ، ووليتُك على مصر

ثانيا ، فامض راشدا .

وأمر بنزع قيودى ، وأخلع علىّ خلعة سنيّة ، فخرجتُ من عنده وأنا لم أصدق

٩ منه بالفتاة ، وكنت قد أيست من الفرج ، وقد قيل فى المعنى (٧٨ آ) :

لا تجزعن لما واثى الزمان به ولا تكن حرجا من شدة الحرج

لا بد للعسر من يسر يعقبه وللشدائد من حلّ ومن فرج

١٢ واستمرّ الأمير محفوظ بن سليمان فى ولايته بمصر ، حتى مات سنة أربع

وخمسين ومائتين .

ثم تولى بعده الأمير أحمد بن محمد بن المنذر ، وكان من شياطين العمال ، أحدث

١٥ فى أيامه أضرارا من وجوه الظلم لم تكن بمصر ، منها : أنه حَجَرَ على الأتروك والملاح ،

وكانا مباحين للناس ، ومنها : أنه قرّر على الكلا ، الذى ترعاه البهائم ، مالا ، وسماء

المراعى ، وقرّر على مصايد الأسماك مالا ، وسماء المصايد ، وأحدث من هذه المظالم أشياء

١٨ كثيرة ، وقسم أموال مصر ما بين خراجى وهلالى .

وهذه أول تلاشى أحوال الديار المصرية ، فلما جرى ذلك ، رحل غالب أهلها

من الظلم وانحطّ خراجها فى أيامه إلى الغاية ، حتى بقى ثمانمائة ألف دينار ، بعدما

٢١ كانت تُنجم فى أيام من تقدّمه من أمراء مصر ، اثنى عشر ألف ألف دينار ، وقد آل

(١) درج : كذا فى الأصل .

(٧) فامض : فامضى .

(١٦) الذى : النى .

أمرها إلى الخراب من يومئذ ، كما قيل في معنى ذلك :

عليك بالعدل إن أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر

فالمُلك يبقى مع الكفر البهيم ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حذر ٣

فلما تلاشت أحوال مصر ، أرسل الخليفة المستعين بالله ، بعزل أحمد بن المدبر ،

وولى الأمير أحمد بن طولون على مصر ، تولى سنة خمس وخمسين ومائتين .

ذكر

أخبار دولة الأمير أحمد بن طولون

- ٣ قال إبراهيم بن وصيف شاه : إن طولون كان أسلم تركي الجنس ، أهدها نوح ابن أسد (٧٨ ب) الشاماني ، عامل بخاري ، إلى الخليفة المأمون ، سنة مائتين من الهجرة ، فأعتقه المأمون ، وسرّره بجارية اسمها هاشم ، فولد له منها ابنه أحمد هذا ، سنة ٦ أربع عشرة ومائتين ، وقيل سنة عشرين ومائتين ، واستمر طولون ، حتى مات سنة أربعين ومائتين .
- ٩ قال ابن عساكر : فانتشى أحمد في بغداد ، وكان على المهمة ، شجاعا بطلا ، سعيد الحركات ، أقيمت له الأيام .
- ١٢ قيل إن عسكر بغداد قالوا له : اقتل الخليفة المستعين بالله ونحن نوليك على واسط ، فأبى من ذلك ، وقال : مالي وقتل الخلفاء ؟ فلما بلغ المستعين ذلك ، أعظم أحمد بن طولون في عينه ، وولّاه على مصر ، وأضاف إليه الثغور الشامية ، والعواصم ، وأفريقية ، وسائر الثغور من أعمال الديار المصرية .
- ١٥ قال ابن وصيف شاه : لما دخل الأمير أحمد بن طولون إلى مصر ، كان ضيق الحال ، يحتقره من يراه ، وكان بمصر شخص من أعيان مصر ، يقال له علي بن معبد البندادي ، وكان في سعة من المال ، فلما بلغه حضور الأمير أحمد ، خرج إلى تلقّيه ، فلما رآه في ضيق حال ، بعث إليه عشرة آلاف دينار ، فقباها منه ، ورأى لها موقعا ؛ فخطى ذلك الرجل عنده ، وصار لا يتصرّف في شيء من أحوال الديار المصرية إلا برأيه ، وصار من أخصائه .
- ٢١ قال ابن وصيف شاه : لما ولي الأمير أحمد على مصر ، تسلمها من أحمد بن المدبر ، وقد تلاشى أمرها ، وانحطّ خراجها ؛ فاهتمّ الأمير أحمد في عمارة جسورها ، وبناء قنادلها ، وحفر خابجها ، وسدّ ترعها .

فاستقامت أحوال الديار المصرية في أيامه ، ووقع العدل والرخاء في أيامه ، حتى

(١٥) شخص : شخصا .

(تاريخ ابن أبي عمير ج ١ ق ١ - ١١)

قيل أبيع كل عشرة أراذب بدينار ، وعلى هذا فقس في جميع الغلال والبضائع ؛
ووصل خراج مصر في أيامه (٧٩ آ) مع وجود الرخاء ، أربعة آلاف ألف دينار
وثلاثمائة ألف دينار ، غير ما يتحصل من المكوس .

٣

قال ابن وصيف شاه : خرج الأمير أحمد بن طولون يوما على سبيل التنزه ، فتوجه
إلى نحو الأهرام ، فبينما هو راكب إذ غاصت قوائم فرسه في الأرض ، فأمر بكشف
ذلك المكان ، فلما كشف ، فإذا هو كنز فيه دنائير ذهب ، كل دينار قدر الرغيف ؛
ووجد به إنسان ميت ، فكان طول كل عظمة من أضلاعه أربعة عشر شبرا ،
وعرضه نحو شبر ؛ ثم إن الأمير أحمد نقل ذلك المال إلى خزانته .

٦

قال صاحب « مرآة الزمان » : إن أحمد بن طولون أرسل جثة هذا الميت إلى
بغداد ، حتى يهبها الخليفة .

فلما ظهر بهذا الكنز اتسع حاله وعظم أمره ، فاستكثر من يشتري المالك الديالة ،

حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرون ألفا ؛ وبالع في يشتري العبيد الزنج ، حتى بلغ
عدتهم نحو أربعين ألفا ؛ واستكثر من سفارة العرب الخوف ، حتى بلغ عدتهم
سبعة آلاف شتيرا ، فعند ذلك سطا على الخلفاء ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وانفرد
بخراجها ، فحاربه الخليفة المعتضد بالله ، فلم يقدر عليه .

١٥

قال عبد الله بن عبد الظاهر : لما كثرت عساكر الأمير أحمد بن طولون ، ضاقت

بهم مدينة الفسطاط ، فبنى مدينة شرقى مدينة الفسطاط ، وسماها « القطائع » ،

١٨

وكانت مدينة جالية ، بنيت قبل القاهرة ؛ وكانت ميلا في ميل ، أولها من كوم الجارج
إلى الصليبة ، وعرضها من قناطر السباع إلى الجبل المقطم ؛ وكان بها مناظر مطامة
على بحر النيل ، وآثار سورها باق إلى الآن عند المدرسة الجاولية ، وهو الذى يسمونه
« الكباش » ، فلما فرغت ، أسكن بها جنده .

٢١

ولم تزل هذه المدينة عامرة حتى هدمها محمد بن سليمان الكاتب ، لما ولى على مصر

(٧٩ ب) أيام الخليفة المكتفى بالله ، خليفة بغداد ، وذلك سنة ثمان وخمسين

٢٤

وثلاثمائة .

٣ قل عبد الله بن عبد الظاهر : لما فرغ الأمير أحمد بن طولون من بناء مدينة القطائع ، ابتدأ ببناء جامعہ ، وقد ابتدأ في عمارته سنة ثلاث وستين ، وانتهى العمل منه سنة ست وستين ومائتين ، وبأنت النفقة على بنائه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

٦ قال ابن عبد الظاهر : لم يكن بمصر بركة أعظم من البقرة التي بنى فيها هذا الجامع ، وكان هذا المكان يسمى جبل يشكر ، قيل إن موسى ، عليه السلام ناجى ربه عليه ، وهو مشهور بإجابة الدعاء فيه .

٩ فلما فرغ من بنائه ، لم يصل فيه أحد من الناس ، وقالوا : هذا بنى من مال حرام ، لا يجوز فيه الصلاة ؛ فلما بلغ الأمير أحمد ذلك ، خطب فيه ، وحلف بالله العظيم أنه ما بنى هذا الجامع من مال حرام ، وإنما بناه من كنز ظفر به عند الأهرام ، فعند ذلك صاؤا فيه الناس .

١٢ ثم إن بعض الناس عاب قبلته ، وقال إنها ضيقة ، فخطب وقال في خطبته : قد رأيت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في المنام ، وهو يقول لى : « يا أحمد ابن قيلة هذا الجامع على هذا الوضع » ، وخطب لى في الأرض صورة ما يعمل ، فما أمكننى أن أزد بعد ذلك ، ولا أنقص ، فلما أصبحت وجدت النمل قد أطاف على ذلك الخط ، فوضعتُ أساس المحراب عليه ، وإلى الآن يسمى محراب النمل .

١٨ قيل : لما كمل بناء المحراب ، جعل عليه منطقة من العنبر معجون بمسك ، لتفوح رائحتها على المصلين به ، وعلق بهذا الجامع عشرة آلاف قنديل من الزجاج المذهب .

٢١ وكان في صحنه قبة ، على عشرة عمد (٨٠ آ) من رخام أبيض ، وهي مفروشة بالرخام المأون ، وفي وسطها فوارة يفور منها الماء ، يطلع من قصعة رخام أبيض ، قطعة واحدة ، دورها أربعة أذرع في مثلها ، تفور بالماء ليلا ونهارا برسم الوضع ؛ ثم فرش بالحصر العبدانى ؛ وكان على صحنه شبكة من جميع جوانبه لأجل العصافير .

قيل إن بعض الناس كتب له على باب الجامع هذين البيتين :

بني جامعاً لله من غير حاة خفاء بحمد الله غير موفق

كمطعمية الأيتام من كد فرجها فديتك لا تزني ولا تتصدق ٣

قال صاحب « مرآة الزمان » : كان أحمد بن طولون لا يعيث قط في مجالسه ،

فعبث يوماً في درج من الورق ، وجعل يعبث به ، فتعجب منه الحاضرون لذلك ،

فقال لما أنكروا عليه ذلك ، قال : « احضروا لي المهندسين » ، فلما حضروا قال لهم : ٦

« ابنوا لي منارة هذا الجامع على صفة هذا الدرج » ، ولم يظهر أنه عبث به .

وقال المقرئ : إنما بني منارة هذا الجامع على صفة منارة جامع سامرا الذي

ببغداد . ٩

فلما كمل هذا الجامع ، صلى به القاضي بكار بن قتيبة ، رضى الله عنه ، وكان

إماماً ؛ وخطب به أبو يعقوب الباخي ؛ وأملى به الحديث الربيع بن سليمان ، وكان

تلميذ الإمام الشافعي ، رضى الله عنه . ١٢

قال ابن عبد الظاهر : وبني الأمير أحمد بن طولون بجوار هذا الجامع مارستاناً ،

وصرف عليه ستين ألف دينار ، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان ، وجعل به خزانة

شراب وأدوية ، وجعل عامها خادماً أسود خصيماً ؛ وكان يجلس على بابه في كل يوم ١٥

جمعة طيبان برسم الضعفا ، وكان له أوقاف كثيرة ، حتى قيل كان له في كل يوم

من العسوف ألف دينار .

ولم يزل هذا الجامع على ما ذكرناه ، حتى احترق كله في ليلة الجمعة خامس عشرين ١٨

(٨٠ ب) جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، فلما تولى العزيز بن المعز الناطقي

على مصر ، جدد ما احترق منه ، ولكن أبطال منه أشياء كثيرة ، انتهى ذلك .

قال ابن عبد الظاهر : بلغ الأمير أحمد بن طولون أن المقياس قد تهدم ، فركب ٢١

بذنه ، وكان صاحبته القاضي بكار بن قتيبة ، قاضي مصر ، وأبو أيوب ، صاحب

(٨) سامرا : سامري .

(١٦) طيبان : طيبين .

خراجة ؛ فلما نظر إلى المقياس أمر بإصلاحه ، ورسم له بألف دينار ، فصرفت عليه .
ومن الحوادث في أيامه أن النجوم تطايرت في السماء شرقا وغربا ، فارتاع
الأمير أحمد من ذلك ، وأحضر أرباب الفلك وسألهم عن ذلك ، فما أجابوا بشئ ،
فتطير من ذلك ، فدخل عليه الشاعر المسمى بالجميل وهو جالس في موكبته ، وأنشده
هذه الأبيات :

٦ قالوا تساقطت النجوم م حادث أبدا عسير

فأجبت عند مقالهم بجواب محتك خبير

هذي النجوم الساقطة ت رجوم أعداء الأمير

٩ فتنازل الأمير أحمد بذلك ، وأخضع على الجمل خامة سنية .

وفي أيامه تولى قضاء مصر أبو زرعة عثمان بن إبراهيم الدمشقي ، وتوفي سنة
ثلاثين وثلاثمائة ، وكان شافعيًا .

١٢ وفي أيامه سنة تسع وستين ومائتين ، توفي ابن المواز أبو عبد الله محمد بن إبراهيم

ابن عبد الحكم ، وكان من عطاء المالكية ، وله اختيارات في المذهب ، ولد سنة
ثمانين ومائة .

١٥ وتوفي في أيامه أيضاً المزني أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق ،

كان من الأئمة المجتهدين ، وكان الشافعي يقول : « لو ناظر المزني الشيعيان لغلبه » ؛

وكان مولده سنة خمس وسبعين ومائة ، وتوفي لست بقين من رمضان سنة أربع وستين

١٨ ومائتين ، ودفن قريبا من تربة الإمام الشافعي ، والدعاء عند قبره مجاب ، انتفى .

قال الشيخ أبو الحسن بن حماد ، وكان من أعيان العلماء : كنت راقداً في منزلي

بعض الليالي ، وإذا بالبواب يدق عليّ في (٨١ آ) نصف الليل فنظرت من الطاق ،

٢١ وإذا برجال ومعههم مشاعل ، فوقفوا بياني ، فقلت : « ما تريدون ؟ » ؟ قلوا : « أبا الحسن

ابن حماد » ، فقلت : « ها هو أنا » ، فقالوا : « امض فإن الأمير أحمد طلبك في

هذه الساعة » .

فارتعدت أعضائي ، ثم قمت وركبت بغلتي ، وأنا آيس من الحياة ، فلما وصلت إلى دار الأمير أحمد ، دخلت وسلمت على حاجب الباب ، فقال لي : « ادخل وخذ في مشيك عن يمينك ، واحترز أن لا تقع في البخرة » .

وكانت ليلة مظلمة من ليالى الشتاء ، فمشيت حتى بامت ضوء الشمع ، فوقفت قليلا ، وإذا بالأمير أحمد في قبة لطيفة ، وهو نائم على ظهره ، وبين يديه شعثان ، فوقفت طويلا ، فلما علم بي ، قال : « أبو الحسن » ؟ قالت : « نعم » ، قال : « ادخل » ، فدخلت ووقفت بين يديه ، فقال : « اجلس » ، فجلست ، فقال : « لأى شىء تصالح هذه القبة » ؟ وكانت قبة لطيفة ، يجلس فيها نحو أربعة أنفس ، فقلت : « تصالح للفكر ، وتلاوة القرآن ، ومطالعة العلم ، ومنادمة المحبين » .

فتبسّم ، ثم قال : « ماذا تقول فى هذه المسألة » ؟ قلت : « يقول الأمير أيده الله بدمره » ، فقال : « ما تقول فيمن سخط على شىء ففعله ، فهل يعذب عليه » ؟ قال أبو الحسن : فعلمت أن المسألة شىء ناشئة عنه ، فقلت على الفور : « لو كان كل مسخط معذبا ، لكان ملك الموت أشد الناس عذابا يوم القيامة » .

فلما سمع ذلك منى ، استوى جالسا ، وقال : « كيف قلت » ؟ فقلت : « لو كان كل مسخط معذبا ، لكان ملك الموت أشد الناس عذابا يوم القيامة » .

ثم سكت طويلا ، وقال : « انصرف إلى منزلك » ، فخرجت من عنده ، وأنا لا أصدق بالنجاة ؛ فلما خرجت تبمنى الحاجب بصرة فيها مائتا دينار ، فأخذت ذلك وانصرفت إلى منزلى (٨١ ب) وأنا لا أصدق بالسلامة ، انتهت .

وكان الأمير أحمد يقول : « إني لأجد فى فهم الرجل عنى إذا خاطبته من اللذة ، ما لا يجده مجامع المرأة الحسناء عند جماعها » .

قال ابن وصيف شاه : لم يل مدرس قبل خائف بن شبيب الله ، أعظم من نظام الأمير أحمد بن طولون ؛ كان راتبه مائة ألف فى كل يوم ألف دينار ، تصرف فى أمر

المطبخ فيما يحتاج إليه ، وكان عسكره يحضر السباط مرتين في كل يوم ؛ وكان منتهى حكمه من مصر إلى الفرات ، وإلى برقة .

٣ قال « جامع السيرة الطولونية » : كان بمدينة عين شمس ، وهي المصرية ، صنم من الكدان الأبيض ، على قدر خلفه الرجل المعتدل القامة ، وكان يحكم الصناعة ، يكاد أن ينطق ؛ فقصد الأمير أحمد أن ينظر إليه ، فمهاه بعض الكهّان عن رؤية هذا الصنم ، وقال : « أيها الأمير لا تنظر إلى هذا الصنم ، فما نظر إليه أحد من ولاية مصر إلا عزل في عامه » ، فلم يعبأ بهذا الكلام ، وركب وتوجّه إلى عند ذلك الصنم ، وراه ، ثم إنه أمر بقطعه فقطع ، ولم يبق له أثر .

٩ فلما رجع حمّ من يومه ولزم الفراش ، فسلسل في الأرض نحو عشرة أشهر ، فخرج الناس قاطبة إلى الصحارى ، وفعلوا كما يفعلون في الاستسقاء ، فخرجوا حفاة ، وعلى رؤوسهم المصاحف ، وخرج اليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج النصارى وعلى رؤوسهم الأناجيل ، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الألواح ، وخرج العلماء والزهاد ، ودعوا إلى الله تعالى له بالعافية والشفاء ، فلم يفد من ذلك شيئا ، « إن أجبل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » .

١٥ فاستمرّ حتى مات ، رحمه (٨٢٢ آ) الله ، وكانت وفاته في ليلة الأحد لعشر خاؤون من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين ؛ وكانت مدّة ولايته على مصر نحو ست عشرة سنة وأشهر .

١٨ ولما مات خلف من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولدا ، منهم سبعة عشر ذكرا ، وباقى ذلك إنانا ؛ وكان ملكا عادلا في الرعية ، كفواً للملك مصر ، وأبطل في أيامه ما كان أحدثه ابن الدبر من المكوس بمصر ، التي تقدّم ذكرها .

(٣) صنم : صنما .

(٥) رؤية : رأيت .

(٨) ولم يبق : ولم يبق .

(١٠) يفعلون : يفعلوا .

وكان كريم اليد ، سخي النفس ، منقادا إلى الشريعة ، يحب العلماء والصالحين ؛
 وكان عنده التواضع ، يعال على من يموت من أهل مصر ، من فقير أو غني ؛
 وكان له اشتغال بالعلم ، وطالب الحديث ؛ وكان يتصدق في كل أسبوع على فقراء ٣
 البلد ، بثلاثة آلاف دينار ، غير الرواتب الجارية على أهل المساجد والزوايا ، في كل
 شهر ألف دينار ؛ وكان يرسل إلى مجاورين الحرمين في كل سنة كسوة الشتاء
 والصيف . ٦

وكان نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، استقل في أيامه بملك مصر ، ولم يدخل تحت
 طاعة خلفاء بغداد ؛ وكان حكمه من بلاد الغرب إلى الفرات ، وفتح في أيامه مدينة
 أنطاكية ، وغيرها من البلاد ؛ وكان الناس يخشونه على خلفاء بغداد في عدله بين ٩
 الرعية .

غير أنه كان شديد الغضب ، سيئ الخلق ، سفاكا للدماء ، إذا قدر لم يعف ، حتى
 قيل مات في جيبه ثمانية عشر ألف إنسان ؛ ولما مات دفن خارج باب القرافة . ١٢
 قال بعض الثقات : كنت أرى شيخا من أهل العلم ، يقرأ على قبر الأمير أحمد
 ابن طولون في كل يوم ، ثم رأيت بعد ذلك ترك القراءة على قبره ، فسألته عن ذلك ،
 فقال لي : « كان للأمير أحمد على من البر والإحسان ما لا أطيع وصفه ، فأحببت أن ١٥
 أواسيه بشيء من القرآن بعد موته ، فرأيت في بعض الليالي في المنام ، فقال لي :
 يا فلان ، بالله لا ترجع تقرأ (٨٢ ب) على قبري شيئا ، فلا تمر بي آية من القرآن
 إلا قيل لي : أما سمعت هذه الآية في دار الدنيا ، فهل لا كنت تعمل بها ؟ وما رأيت ١٨
 أشد على ماوك الدنيا من الحجاب ، في كتبهم لحوايج المظالمين عن الملوكة » .

وقد قيل في المعنى :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي ٢١
 ولا كنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعد ذا عن كل شيء

(٥) مجاورين : كذا في الأصل .

(١١) لم يعف : لم يعفوا .

قل ابن وصيف شاه: خلف الأمير أحمد بن طولون من الذهب العين عشرة آلاف
 ألف ألف دينار ، ومن المائيك المشتراوات سبعة آلاف مملوك ، ومن العبيد الزنج
 أربعة وعشرين ألف عبد ، ومن الخيول سبعة آلاف فرس ، ومن البغال ستة آلاف
 بغل ، ومن الجمال عشرة آلاف جمل ؛ ومن الفصوص والجواهر مائة صندوق ؛ ومن
 المراكب الحربية ألف مركب ؛ هذا خارجا عن الضياع والأموال والبساتين وغير ذلك .
 وبلغ خراج مصر في أيامه أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار ، ولم يفده
 المال عند انقضاء الأجل ، كما قيل :

خُذِ القنّاءة من دنياك وارض بها واقصد لنفسك منها راحة البدن
 وانظر ابن قد حوى مما سمعت به هل خسته غير بعض القطان والكشن
 ولما مات الأمير أحمد بن طولون ، تولى بعده ابنه الأمير خمارويه ، انتهى ذلك .

ذكر أخبار الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون :

١٢ قل ابن وصيف شاه : لما تولى الأمير خمارويه على مصر ، مشى على نظام والده
 أحمد ، وأبى الجند على حالهم ؛ وكان يحب الجياد من الخيل ، وكان لها أنساب مشبوتة
 في الدواوين ، كأنساب الناس .

١٥ وكان مولعا بالعمائر وغرس الأشجار ؛ قيل إنه أنشأ له (٨٣ آ) ، بالقرب من
 جامع أبيه ، ميدانا ، ونقل إليه الأشجار من سائر البلاد ، حتى من خراسان ومكة
 واليمن ، فكان به سائر الفواكه والرياحين ، حتى الكادي والقرنفل والسنبل
 ١٨ والزعفران ، وغير ذلك من الرياحين والزهور ، والأشياء الغريبة ، التي لم ترع قط
 بمصر .

(٣) فرس : فرسا .

(٤) بغل : بغلا . ال جمل : جملا .

(٥) مركب : مركبا .

(٨) وارض بها : وارضيها .

(٩) سمعت : سمعة .

وجعلها كالسطور ، تقرأ بالفاظ ، مثل : « نصر من الله ، وفتح قريب » ، وما أشبه ذلك ؛ ووكل بها جماعة بأيديهم مقاريض من الذهب والفضة ، يصلحون ما يفسد من الأوراق ، ويخرج عن قالب الاعتدال من الحروف ؛ وكان يسحق المسك ٣ والكافور ، وينثره على تلك الرياحين والأزهار ، وقد قيل في المعنى :

بستان مجلسك الجنى ثماره لم يبذ إلا وهو في أكلام
والزهر مختلف به ألوانه ولقد يجل ثراه عن نمام ٦
ثم إنه ألبس قوائم الأشجار الكبار بالنحاس الأصفر ، وطلّى فوقه بالذهب ، فكانت الشمس إذا طلعت على تلك الأشجار ، لا يقدر أحد أن ينظر إليها ، من شدة اتقادها تكاد تخطف بالابصار . ٩

ثم صنع في ذلك البستان بحرة كبيرة ، وملاها من الزئبق ، وكان يضع له على ذلك الزئبق فراشا من جلد الحيات ، أنعم من الحرير ، وله حركات ، يمتلئ بالريح ، ثم يسدّ فاه بجبل ، ويُتّرح له فراش على ذلك الجلد ، وينام عليه . ١٢
قال بعض المؤرخين : إن خمارويه كان يعتريه ضربان المفاصل ، فكان لا ينام الليل ، فصنع له ذلك لعلّ يجد له راحة ، وينام ساعة .

وفي سنة ثمان وسبعين ومائتين ، ظهر فيه نجم الذنب ، وكان له ذؤابتان ، ثم طارت ١٥ منه ذؤابة ، وبقيت الأخرى أياما ، ثم اضمحل جميعه ، فتطير الناس من ذلك .

وفي أيامه سنة ثمان وسبعين ومائتين ، احترق ببحر النيل جميعه ، حتى لم يبق منه شيء ، فكان الناس يشربون من الخناثر ، وهذا شيء لم يعهد بمثله فيما تقدم . ١٨

قال ابن وصيف شاه : خرج خمارويه يوما إلى القضاء فلقية أعرابي ، فأخذ بهنّان فرسه ، وأنشد يقول (٨٣ ب) :

(٧) وطلّى : وملا .

(١١) ذلك : تلك . // الحيات : الحياة .

(١٥-١٨) وفي سنة . . . بمثله فيما تقدم : كتبت في الأصل على هامش من ٨٣ آ .

(١٧) لم يبق : لم يبق .

إن السنان وحدّ السيف لو نطقا لحدّ ثأمنك في الميجاء بالعجب
أفنت مالك تعطيه وتبذله يا آفة الفضة البيضاء والذهب

- ٣ فلما سمع خمارويه ذلك ، قال لغلامه : « ادفع إليه ما ملك في الخريطة » ، فوجد فيها خمسمائة درهم ، فقال الأعرابي : « زدني أيها الأمير ، فثلك من يزد » ، فقال خمارويه للماليك : « اأرحوا عليه مناطقكم وسيوفكم » ، وكانت مسقطاة بالذهب ، فقال الأعرابي : « ومن يجعل لي ذلك » ؟ فأمر له ببغل ، فحمل ذلك عليه ومضى .
- ٦ وفي أيامه توفى الحارث بن مسكين بن يوسف الأموي ، قاضي مصر ، ولد سنة أربع وخمسين ومائة ، ومات سنة خمسين ومائتين ، في دولة أحمد بن طولون .
- ٩ وفي سنة ست وسبعين ومائتين ، توفى قاسم بن محمد ابن قاسم الأموي القرطبي ، صاحب « التذكرة » ، رحمه الله .

- وفي سنة ثمانين ومائتين ، توفى القاضي بكر بن قتيبة بن راشد الثقفي الحنفي ، رضى الله عنه ، وكان من ولد أبي بكر الصجاني ، تولى القضاء بمصر في أيام الخليفة المتوكل على الله ، سنة ست وأربعين ومائتين ؛ وكان مولده سنة اثنتين وثمانين ومائة ، وكان حنفي المذهب ، وهو شيخ الطحاوي ؛ مات في الحرم من تلك السنة ، ودفن مقابل تربة الإمام الشافعي ، رحمه الله .
- ١٥

- وفي هذه السنة أرسل المعتض بالله ، خليفة بغداد ، يخضب قطار الندي ، بنت الأمير خمارويه ، فأمرها الخليفة المعتض بالله ألف دينار ، ومائة ألف شقة حرير ماون ؛ فخرجت من مصر إلى بغداد ، وكان معها من القماش والأواني ما لا يحصر ، حتى قيل نُقل جهازها من مصر إلى بغداد في ستة أشهر ، فكان من جملة ما ذكر من جهازها ، مائة هاون ذهب ، وألف سروال حرير ، وفي تسكة كل سروال جوهرة قدر بيضة الحمامة ؛ فلما وصلت إلى بغداد ، ودخل عليها المعتض ، فأحبها حباً شديداً .
- ٢١

قيل إنّه وضع يوماً رأسه في حجرها (٨٤ آ) ونام ، فلما غرق في النوم تلخّفت

(٤) درهم : درهما .

(٧ - ١٠) وفي أيامه . . . رحمه الله : كتبت في الأصل على هامش س (٨٣ ب) .

به حتى أزالته رأسه عن حجرها، ووضعتها على وسادة، فلما اتبته من منامه، ناداه، فأجابته من مكان قريب، فقال لها: «قد أسأمت نفسي إليك ونمت على حجرك، فتركتيني ومضيت عني، أكلّيت مني؟» فقالت: «والله لم أكن كلّيت من أمير المؤمنين، إنّ ما أدبني به والدي أن لا أجلس مع النيام، ولا أنام مع الجاوس»، فاستحسن منها ذلك، وأقامت معه حتى مات، وقيل في المعنى:

٦ كن ابن من شئت واكتسب أدبا يفنيك مضمونه عن النسب
إنّ الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي
واستمرّ خمارويه على ولايته بمصر، حتى هجم عليه بعض خدامه في الليل، وذبحه وهو نائم في فراشه، وكانت قتله في ذى الحجة سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وكانت مدة ولايته بمصر نحو اثنتي عشرة سنة وشهر.

ثم تولى من بعده ابنه أمير جيوش، ويعرف أيضا بالأفضل، وهو صاحب السوق المعروف به.

١٢

قال القاضي: إنّ الأفضل هذا هو الذي بنى المسجد المطلّ على بركة الحبش، المعروف الآن بالرصد، وإنما سمى بالرصد، قيل: كان فوقه كرة من نحاس أصفر، قدرها قطار، وهي قائمة على عمد من رخام، بسبب تحرير الساعات، لأجل دخول أوقات الصلوات؛ ولم ينسب إلى الحاكم بأمر الله من بنائه شيء، وإنما هي إرادة بين الناس في نسبته إلى الحاكم بأمر الله. - وهو حفر (٨٤ ب) خليج أبي المرحا، وكان المتولى أمر حفره أبو المرحا شعيا اليهودي، فحفر به.

١٨

ومن الحوادث في أيامه، قد هاجت ريح سوداء، واشتدّ هبوبها وأظلم الجو حتى ظهرت النجوم بالنهار، فارتاع الناس من ذلك، ثم توجهوا إلى المساجد يتهلون إلى الله بالدعاء، فلم تزل الرياح عاصفة إلى بعد المغرب، حتى سكن الحال.

٢١

(٣) ومضيت: ومضيتني. || أكلّيت: أسكّيتني.

(١١) أمير جيوش: كذا في الأصل.

(١٣) بني: بنا.

(٢١) عاصفة: عاصف.

قال ابن الجوزي : إن في سنة ثمان وسبعمائة ومائتين ، جاءت الأخبار من مصر إلى بغداد ، بأن النيل قد غار عن آخره ، ولم يبق منه شيء ؛ وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثالها من قديم الزمان إلى الإسلام ، وفي هذه الواقعة يقول القائل :

تقاصر النيل عنا تقاصرا متتابع
حتى قنعنا اضطرابا منه بمس الأصابع

وهذه الواقعة من النوادر .

واستمر أمير الجيوش على ولايته بمصر حتى قتل أيضاً ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو سنة ؛ ولما مات دفن في مسجد بحارة برجوان .

ثم تولى بعده الأمير هرون بن غمارويه . - ومن الحوادث في أيامه أن شخصاً يسمى أبو الحسن الخراساني ، توجه إلى نحو أطنيج ، هو جماعة من أصحابه ، فوجدوا في بعض الدفائن شربة زجاج أزرق ، بعروة خضراء ، فأخذها أبو الحسن المذكور ، وجاء إلى شاطئ النيل وملاً منه تلك الشربة ، وناولها لبعض أصحابه ليشرب منها ، فوجده خمرًا مسكراً ، طيب الرائحة ، أحمر اللون ، ولم يكونوا يعلمون ما في هذه الشربة من السر ؛ فلما علموا شأنها ، فرام كل أحد منهم أخذها ، فتخاضعوا عليها ، فوقعت من بين أيديهم وانكسرت ، فوجدوا فيها شخصاً لطيفاً من نحاس أصفر ، وتحت رجله عنبية ، وهو يعصرها .

فلما شاع أمرهم بين الناس ، أحضرهم الأمير هرون بين يديه ، فوجد الشربة قد كسرت ، فأسف عليها واغتم لذلك ، ثم قال : « لو كانت صحيحة لشربتها ببعض ملكي » ، وكانت (٨٥ آ) هذه الشربة من صنعة الحكماء اليونانية .

وفي أيامه وقعت زلزلة بمصر ، حتى وصلت إلى الإسكندرية ، وسقط منها رأس المنار ، وكانت زلزلة عظيمة جداً .

واستمر الأمير هرون على ولايته بمصر ، حتى دخل عليه عمّاه : شيبان وعدى ، وهما ابنا الأمير أحمد بن طولون ، فقتلاه وكان ثعلاً ، فقتل في فراشه ؛ وكانت مدة

ولايته على مصر نحو تسع سنين إلا أشهر .

وفي أيامه توفى المسيحي المؤرخ ، سنة أربع وثمانين ومائتين .

ثم تولى بعد الأمير هرون ، عمه شيبان ، الذي قتله ، وكان يعرف بأبي المقناب ؛ ٣
فكانت مدة ولايته على مصر اثني عشر يوما ، كما قيل :

فغض الطرف إنك من نير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

والأمير شيبان هذا هو آخر من تولى على مصر من بني طولون ، وبه زالت ٦
دولتهم كأنها لم تكن .

ثم أرسل الخليفة المكتفي بالله

محمد بن سليمان الرافقي ، إلى مصر ، فقبض على شيبان ، واعتقله ، وتولى مكانه ٩
على مصر ، فأقام بها مدة أربعة أشهر ، وعزل عنها .

ثم تولى بعده الأمير عيسى الدنوشري . - وفي أيامه وقعت صاعقة بمدينة الفسطاط ،

فأحرقت عدة أماكن منها . ١٢

وفي أيامه توفى أبو العباس الناشي ، الشاعر ، عبد الله بن محمد ، كان أصله من

الأنبار ، وكان معتزلي ، أقام ببغداد مدة ، ثم رحل عنها ، ودخل مصر ، وأقام بها

حتى مات سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد ، فمن ١٥
شعره قوله :

الكرم من كرم الطبايع وفضلها والراح روح أخى النرام الجاهد

(٨٥ب) ولتلك سميت الشمول لجمعها شمل الخليط وضمها للغارد ١٨

فتفألوا باسم المدام لأن في إدهانها إسعاد كل مساعد

وشى العقار لأنهم عقروا بها ما جمّعوا من طارف أو نالد

فاعتض بها عن كل شيء ، فأت ٢١ واغضض بها عين العدو الحاسد

فأقام الأمير عيسى الدنوشري في ولايته على مصر ، إلى أن مات بها سنة سبع

وتسعين ومائتين ، فكانت مدته خمس سنين وثمانين .

ثم تولى بعده أبو منصور تكين الخاصة ، فأقام بها إلى سنة ثلاث وثلثماية ، ثم صرف عنها . - وفي أيامه توفى أحمد بن شعيب النسائي ، أحد الحفاظ ، توفى بالرملة سنة ثلاث وثلثماية . ٣

ثم تولى بعده دكا أبو الحسن الأعور ، فأقام مدة يسيرة ، وعزل . ثم أعيد تكين الخاصة ثانيا ، ثم صرف .

وتولى بعده هلال بن بدر ، فأقام بها إلى سنة إحدى عشرة وثلثماية . ٦

وفي سنة عشر وثلثماية ، توفى الشيخ أبو الحسن بنان الجمال الواسطي ، نزيل مصر ، وكان صاحب كرامات خارقة ، توفى في شهر رمضان . - وفي أيامه توفى أحمد بن محمد بن عثمان بن شبيب ، شيخ القراء ، مات سنة اثنتي عشرة وثلثماية . ٩

وفي هذه السنة حضر إلى مصر ، من عند صاحب النوبة ، هدية للخليفة المقتدر بالله ، فن جملتها بئلة ، ومعها فلوها ، يتبعها ويرضع منها اللبن ، وهذا من العجائب ؛ ومن جملة الهدية غلام زنجي ، لسانه يعمل إلى جبهته ، حكى ذلك صاحب « مرآة الزمان » . ١٢

ولما صرف ، تولى بعده أحمد بن كينلغ ، ثم صرف من عامه .

وأعيد تكين ، وهي ثالث ولاية ، فأقام في هذه الولاية ، إلى أن مات سنة إحدى وعشرين وثلثماية ، وكانت مدة ولايته (٨٦ آ) في هذه المرة نحو عشر سنين وأشهر . ١٥

وفي أيامه توفى أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الأزدي المصري الحنفي ، ابن أخت المزي ، ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين ، ومات في ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثلثماية . ١٨

وفي هذه السنة توفى أيضاً الحفاظ مكحول ، مات في جمادى الآخرة من تلك السنة . - وفيها توفى محمد بن عبد الله البيروني . ٢١

ولما مات تكين الخاصة ، تولى بعده ابنه محمد ، فلم تطل أيامه ، وعزل في أيام الخليفة القاهرة بالله . ٢٤

ذكر

ابتداء دولة الإخشيدية بمصر

- ٣ قال الكندي : إن من تولى بمدينة فرغانة يسمّى الإخشيدى ، فكان أول من تولى منهم بمصر ، محمد بن طنج الإخشيدى ، فتغلب على مصر ، وأخذها باليد ، فأقام بها مدة يسيرة .
- ٦ وتغلب عليه أحمد بن كيناغ ، وصرفه عنها ، وتولى عليها ، فأقام بها مدة يسيرة . وتغلب عليه محمد بن طنج ، فصرفه عنها ، وأعيد إليها محمد بن طنج ثانيا .
- وفي هذه الأيام وقع الاضطراب في سائر البلاد ، لضعف شوكة الخلفاء العباسية ، فكانت مصر والشام بأيدي الإخشيدية ؛ والموصل ، وديار بكر ، وديار ربيعة ، ٩ ومُصر ، بأيدي بني حمدان ؛ وفارس بيد الأمير أحمد بن بويه ؛ وخراسان بأيدي نصر بن أحمد ؛ وواسط والبصرة والأهواز بأيدي البريدى ؛ وكرمان بأيدي محمد ابن إلياس ؛ والرى ، وأصفهان ، والنجبل ، بأيدي الحسن بن بويه ؛ والنرب وأفريقية ، ١٢ بأيدي أبي عمرو الغساني ، وطبرستان ، وجرجان ، بأيدي الديلم ؛ والبحرين ، واليمامة ، وجر ، بأيدي أبي طاهر القرمطى ؛ (٨٦ ب) ولم يبق بأيدي خلفاء بغداد سوى مدينة بغداد وأعمالها .
- ١٥ ثم إن محمد طنج أقام على ولايته بمصر ، إلى أن مات سنة أربع وثلاثين وثمانماية . وفي أيامه توفى الناس سنة ثلاث وثلاثين وثمانماية ، مات بمكة ، وكان مولده سنة خمس عشرة ومائتين . - وتوفى في أيامه أيضا أبو بكر بن محمد بن عبد الله ١٨ الصيرفى ، كان من العلماء ، توفى في رجب سنة ثلاثين وثمانماية .
- وتوفى في أيامه الحافظ أبو بكر الطحان ، مات سنة ثلاث وثلاثين وثمانماية . - وفي أيامه توفى الشيخ العارف بالله أبو الحسن على بن محمد بن سهل الدينورى المعروف ٢١ بالصايغ ، توفى في رجب سنة إحدى وثلاثين وثمانماية ، رضى الله عنه .
- ولما مات الأمير محمد بن طنج ، تولى بعده ابنه الأمير أبو بكر بن محمد بن طنج ، (١٤) ولم يبق : ولم يبق .

- وكان صغير السن ، وكان القائم بتدبير أمور المملكة خادهمهم : كنفور ، فساس الناس في أيامه أحسن سياسة ، ومشى على نظام والده .
- ٣ وفي أيامه توفى النيسابوري الحافظ أبو زكريا محمد ، توفى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وقيل بل مات سنة سبع وثلاثمائة ، في أيام تسكين الخاصة ، والله أعلم . -
- وتوفى عبد المنعم بن عبد الله بن عليون ، مؤلف كتاب « الإرشاد في القراءات » ، مات سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة .
- ٦ وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، توفى الطحاوي ، تلميذ القاضي بكار ، واسمه الحسن بن داود ، قدم من بغداد إلى مصر ، ثم عاد إلى بغداد ، فمات بها ، ولم يبلغ من العمر سوى أربعين سنة .
- ٩ وتوفى أبو إسحق الروزي إبراهيم بن أحمد ، أحد الأئمة المجتهدين ، توفى بمصر سابع رجب سنة أربعين وثلاثمائة ، ودفن عند الإمام الشافعي .
- ١٢ وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة ، توفى العلامة محمد بن سكرة الماشي ، صاحب النظم الرقيق . - وتوفى أبو بكر بن الحداد الكناني ، مات في صفر سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ، وكان من أعيان العلماء (٨٧ آ) والحفاظ .
- ١٥ ومن الحوادث ، أن في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، لم يوجد بئسقية المقياس ماء أصلا ، فلما أرادوا [أن] يأخذوا قاع النيل ، أخذوه من برّ الجيزة ، فكان النيل في تلك السنة خسيسا جدّا ، وبلغت الزيادة أربعة عشر ذراعا وستة عشر أصبعا ، فوقع الغلاء بمصر ؛ واستمرّ في كل سنة يزيد زيادة خسيصة ، ولم يبلغ إلى ستة عشر ذراعا ، وأقام على ذلك نحو تسع سنين ، والغلاء مستمرّ بمصر ، وقد قال القائل :
- تقاصر النيل عنا تقاصرا متتابع
حتى قنعنا اضطارا منه بمعنى الأصابع
- ٢١

(١٥) المقياس : المناس .

(١٦) [أن] : تنقص و الأصل .

(تاريخ ابن عباس ج ١ ق ١ - ١٢)

وقال آخر :

رَبِّ وَفِّ النِّيلَ إِنَّا مِنْهُ فِي شَرٍّ وَبَاوَهُ

٣ ما بقى للناس صبر يحملون اليوم غاوه

ومن الحوادث أن في سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، جاءت الأخبار بأن السيل نزل على الحجاج ، وأخذهم عن آخرهم ، وألقاهم في البحر المالح .

٦ وفي أبيه توفي السيد العلوي الشريف أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا المصرى ، وكان شاعراً ماهراً ، وله شعر جيد ، مات في شعبان سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ، ومن نظم الرقيق ، وهو قوله :

٩ رأيت الملال ووجه الحبيب فلم أدر أيهما أنور

على أن ذاك بعيد النال وهذا قريب من ينظر

وذاك يغيب وذا حاضر وما من يغيب كمن يحضر

١٢ وقع الملال لنا ساعة ونفع الحبيب لنا أكثر

واستمر الأمير أبو بكر بن محمد بن طنج على ولايته بمصر ، حتى مات سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، فكانت مدة ولايته بمصر نحو خمس عشرة سنة ؛ وكان وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، باع خراج مصر في أيامه ألف ألف دينار ، وانصلح الحال على أيامه ، وبلغت عدة عساكره بمصر والشام ، نحو أربعمائة ألف فارس ، وهو أول من رتب الجوامك للجنود بقدر معلوم في كل شهر ؛ ولما مات دفن بمصر ، عند مدينة القسطنطينية ،

١٨ وقد رثاه أبو الطيب المتنبي بهذه الأبيات :

هو الزمان مشيت بالذي جمعا في كل يوم ترى من صرفه بدعا

(٨٧ ب) لو كان ممتنع تمنيه منعه لم يصنع الدهر بالإخشيده ما منعا

٢١ ذاق الحمام فلم تدفع عساكره عنقه القضاء ولا أغناه ما جمعا

لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم ومن نخار ومن نعام لا تسما

يا لحد ظل إن فيك البحر سقمسا والليث مهتصرا والجود مجتمعا

٢٤ يا يومه لم تخص الفجع فيه لقد كلّ الوري برز بالإخشيده قد جمعا

- وفي أيامه سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة ، توفى الشيخ أبو الخير الأقطع ، وكان أصله من الغرب ، وقدم مصر ومات بها ، وكان له كرامات خارقة .
- ٣ ولما مات تولى بعده ابنه أبو القاسم محمود المعروف بأجور ، فأقام مدة يسيرة ومات ، وكانت مدته نحو سنة وأثني عشر .
- وفي أيامه توفى أبو الفتح كشاجم ، الشاعر النماذج النائر ، وكان له شعر جيد ،
- ٦ فمن ذلك قوله في شقائق النعمان :
- حمراء من صنعة الباري وقدرته معقولة لم ينالها قط صقال
كأنها وجنات أربع جمعت وكل واحدة في صحنها خال
- ٩ وكان كشاجم عالما فاضلا ، وهو صاحب كتاب « أدب المديم » ، مات بمصر سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، وكان رحل عن مصر إلى بغداد ، ثم عاد إلى مصر ، وأنشأ يقول :
- ١٢ قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى فادن عدت وعادت مصر لى دارا
ولما مات الأجور ، تولى بعده أخوه على ، فأقام على ولايته بمصر إلى أن مات سنة خمس وخمسين وثلاثمائة . - وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، توفى الإمام الرافعى أبو الفضل
- ١٥ أحمد بن محمد بن نصر السرى الشافعى .
- وفي أيامه قطعت بنو سالم الطريق على الحججاج ، وأخذوا منهم عشرين ألف بعير ، عملة قماش وبضائع (٨٨ آ) ومال ، وأسروا الرجال والنساء .
- ١٨ وفي أيامه توفى أبو إسحق محمد بن القاسم بن شعبان ، من أعيان العلماء المالكية ، مات سنة خمس وخمسين وثلاثمائة . - وتوفى ابن السكن أبو على سعيد بن عثمان البندادى ، نزيل مصر ، مات سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة .
- ٢١ ولما مات الأمير على ، اجتمع رأى أهل مصر على تولية كافور ، الخادم ، وكان حسن السياسة ، عادلا فى الرعية ، فولوه عليهم .

ذكر أخبار أبي المسك كافور الإخشيدي :

- قال الشيخ شمس الدين الذهبي : إن كافور كان خصيًا حبشيًا ، اشتراه الإخشيد من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارًا ؛ ولم يل مصر خصيًا غير كافور ؛ ويونس المظفرى ، الذى ولى سلطنة العراق ، وكان خصيًا أيضًا .
- فلما ولى كافور خُطب له على منابر الديار المصرية ، وأعمالها ، وكذلك الشام والحجاز ، ودُعِيَ باسمه على المنابر ، وكان يكتب علامته على التراسيم « القلم بمِدَّة ، والسيف بمِدَّة ، والعبد بسعده ، لا بأبيه ولا بجَدِّه » .
- ومن النكت الطائفة ، قيل : دخل على كافور ، فى يوم عيد ، طائفة من الحبش ، وهم يرقصون ، ومعهم طبول وطنبور ، فلما رقصوا بين يديه ، حارب لذلك وحرك كتفه ، ثم إنَّه استدرك فرامله ، فصار يتحرك كتفه فى كل ساعة من الليل والنهار ، حتى مات . وقال : « هذا مرض يتربى » . ولم يخرج عن ناموسه .
- ومن النكت الطائفة ، قيل : كان بمصر واعظ يعظ الناس ، فقال يوما فى مجلس وعظه ، وكافور حاضر ذلك المجلس : « أيها الناس انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى ، فإنه أعطاهما لمقصومين ضعيفين ، وهما : الحسن بن بويه استولى على بغداد وهو أشل بيده ، وأعطى كافورا مُلك مصر وهو خصي » ، فرفع كافور طرفه إليه ، فظنوا الناس أنه يوقع به (٨٨ ب) فعلا ، فلما فرغ من وعظه ، دفع إليه مائة دينار ، وأخلع عليه خامة سفينة .
- فلما كان المجلس الثانى ، حضر كافور على عادته ، فقال الواعظ : « ومن العجائب أن ما أنجب من بنى حام غير ثلاثة : لقمان الحكيم ، وبلال مؤذن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكافور الخصى » ، فطربوا الناس لذلك ، فسكان كافور كما قيل فى المعنى من هذين البيتين :

٢١

أسون عرضى بمالى لا أدنسه لا بارك الله دون العرض فى المال

(٣) ولم يل : ولم يل .

(١٢) واعظ : واعظا .

أحتال للمال أن أودى فأكسبه ولست لأمراض إن أودى بمحتال
قال محمد بن عبد الملك الممذاني : كان كافور وافر العقل ، سخى النفس ، كثير

٣ الحلم .

ومما حكاه أبو جعفر بن عبد الله بن طاهر العلوي ، قال : كفت أساير الأمير كافور
يوما ، وهو راكب في موكب خفيف من العسكر ، فسقطت مقرعته من يده ، فبادرت
٦ بالنزول ، وأخذتها من الأرض ، ودفعتها له ؛ فقال : « أيها الشريف ، أعوذ بالله
من بلوغ هذه الغاية ، وما ظننت أن الزمان يبلّغني حتى يفعل بي مثل هذه النعمة » ،
ثم بكى ؛ فلما وصل إلى باب داره ودعته ، ومضيت إلى منزلي ، فلم ألبث إلا ساعة
٩ يسيرة ، وإذا أنا بالبنال وعليها شكار حمة ، فدخلوا بها داري ، ففتحتها واستعبرتها ،
فإذا فيها دنائير من الذهب ، عدتها خمسة عشر ألف دينار .

وهذه الأخبار تنحار فيها العقول ، كما قيل :

١٢ إذا قرأت كتابا فانت دموعي الهوامي

فليست الكتب عندي إلا قبور الكرام

(٨٩ آ) ومن الوقع المستحسنة أن في زمن كافور ، وقعت زلزلة عظيمة بمصر ،

١٥ تخاف الناس من ذلك وهربوا إلى الصحارى ، وظنوا أنها القيامة ، فدخل محمد بن عاصم
الشاعر على كافور ، وأنشده قصيدة عظيمة ، فن جلتها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها لكنها رقصت من عدله طربا

١٨ فتفأل كافور بذلك ، وأجاز محمد بن عاصم بألف دينار ؛ فلما بلغ أبو الطيب المتنبي
أفعال كافور ، وجوارزه السنية ، أتى من بغداد ، ودخل مصر ، وامتنح كافور بقصائد
سنية ، فن جملة ذلك هذه الأبيات :

٢١ قواد كافور توارك غيره ومن ورد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسان عينا زمانه وخلت بيانا خلفها وماقيا

والنفس أخلاق تدل على الفتى أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

٢٤ قيل لما دخل المتنبي مصر ، كان في كبكبة عظيمة من حاشيته ومماليكه وغلماؤه ،

وكان يابس عمامة خضراء ، ويشدّ في وسطه منطقة وسيفا ، وكان يابس في رجله
أخفافا حمراء من جلد ، وكان ينسب إلى بنخل عظيم ، مع ما كان بيده من سعة المال ؛
قيل لما دخل مصر ، كان يحضر سماط كافور ، ومعه عبد أسود ، بقدر خَرْف ، يأخذ ٣
فيها فضلات الطعام لغلمانة ، وقد هجاه ابن لُثكك بقوله :

ما أَوْحَ المتنبّي فيما حكي وادّعا
ابتجح مالا عظيما لما أباح قفاه
يا سائلي عن غناه من ذاك كان غناه
إن كان ذاك نبيا فالجائيق إلاه

(٨٩ ب) قيل لما دخل المتنبّي إلى مصر في هذه الككبكة ، تخيل منه كافور ،
وقعد القبض عليه ، فلما بلغ المتنبّي ذلك ، هجا كافور ، ورحل عن مصر تحت الليل ،
ومما هجاه به :

العبد ليس بجزّ صالح باخ لو أنه في ثياب الحرّ مولود
لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمه أقومّه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه في يد النجاس دامية أم قدره وهو بالناسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخسية السود

فلما تطلّبه كافور ، لم يقدر عليه ، فقيل لكافور : « وما قدر هذا حتى توهّمت

منه » ؟ فقال : « هذا رجل أراد أن يكون نبيا بعد محمد ، صلى الله عليه وسلم ،
فهلا يروم أن يكون ملكا بمصر » ؟ وكان مولد المتنبّي بالكوفة سنة ست وثمانية ،
وكان اسمه محمد بن حسن أبو الطيب ، أقام بمصر أربع سنين ، وقتل في رمضان
سنة أربع وخمسين [وثمانية] ؛ قيل لما أحاطوا به ليقتلوه ، فهجم بالمرووب ، فقال له ٢١
عبيده : أين قولك ياسيدي :

الجيل والليل والبيداء تعرفني والسين والرمح والقرطاس والقلم

فلما سمع ذلك ، قال : « قتلتني يا فلان » ، وثبت مكانه حتى قُتل صبّرا ، انتهى ذلك .

٣ وفي سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، في ذى الحجة ، كانت وفاة الصاحب يعقوب ابن يوسف بن إبراهيم بن هرون بن داود بن كاس ، وكان أصله يهوديا وأسلم ، وحسن إسلامه ؛ وكان مولده ببغداد ، ثم قدم إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة ، وكان يدعى أنه من ولد السموءل بن عاديا .

٦ ومن الحوادث في أيام كافور ، أن النيل بلغ في الزيادة إلى اثني عشر ذراعا وتسعة عشر أصعبا ، ثم انهبط فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء بمصر (٩٠ آ) ، وذلك سنة ست وخمسين وثلثمائة .

٩ وفي سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، توفي أبو بكر بن محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي ، المعروف بسبيويه النحوى .

١٢ قال الكندي : كان من آثار عجائب مصر حوض من رخام أخضر ، وهو مدور ، وعاليه كتابة بالقلم القديم ، وهذا الحوض كان في بحر النيل عند طرا ، وكان إذا جلس فيه واحد من الناس ، أو أربعة ، وحرّكوه ، فيعدّى بهم من جانب إلى جانب ، فأخذه كافور من البحر ، وألقاه في البرّ ، فبطل فعله من يومئذ .

١٥ وفي أيامه وقع حريق عظيم في سوق البرّازين ، بمدينة الفسطاط ، وعمت النار إلى قيسارية العسل ، ودخل الليل والنار على حالها ، فبات الناس على وجل من ذلك ، فركب كافور وأمر المنادى ينادى ، بأن من جاء بقربة فيها ماء فله مائة درهم ، فجاء الناس بالقرب وأطفأوا النار ؛ فكان عدّة ما احترق من الدور ألف وسبعمئة دار ، غير البضائع والأقمشة وغير ذلك .

٢١ وتوفّى في أيامه محمد بن عبد الله المعافى ، شيخ القراء ، مات سنة سبع وخمسين وثلثمائة .

(٦-٣) وفي سنة . . . عاديا : كتبت في الأصل على هامش س (٨٩ ب) .

(٤) يهوديا : نصرانيا .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي : « كان راتب كافور في مطبخه في كل يوم ، ألفي رطل من اللحم البقرى ، وسبعمائة رطل من اللحم الضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمائة طير دجاج ، وثلاثمائة فرخ حمام ، وعشرين فرخ سمك كبار ، وعشرين رميساً رنماً ، وثلاثمائة صحن حلوى ، وسبعة أفراد فاكهة ، وألف كوز فناع ، ومائة قرابة سكر ، وعشرة قفاطير سكر ، وألف كعاجة من الخبز ، وخمسة أفراد بقولات ؛ وكان يحضر على سماطه الخاص والعام .

واستمر كافور على ذلك حتى مات في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، وكانت مدة ولايته على مصر سنتين وأربعة أشهر ؛ ودفن في القرافة الصغرى رحمة الله عليه .

ولما مات تولى بعده الأمير أحمد بن علي بن أبي بكر بن محمد بن طنج الإخشيدى ، (٩٠ ب) وكان يعرف بأبى الفوارس ، تولى وله من العمر إحدى وعشرين سنة ؛ فلما تولى لم تستقم أحواله ، واضطرب أمر الديار المصرية ، ووقع بها الفناء الشديد ، فأقام مدة يسيرة والأحوال غير صالحة .

ثم إن أعيان الديار المصرية ، كاتبوا المعز الفاطمى ، وكان ببلاد الغرب : « بأنك نجىء تملك مصر ، قبل [أن] يملكها بنو العباس » ؛ فأرسل جوهر الصقلي ، القائد ، إلى مصر ، ومعه مائة ألف فارس من عساكر الغرب ، فكان دخول جوهر إلى مصر ، في يوم الجمعة التاسع عشر شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، فملك مصر من غير قتال ، ولا مانع .

فلما دخل جوهر إلى مصر ، هرب أبو الفوارس ، وجماعة الإخشيدية ، وهو آخر من ملك مصر من الإخشيدية ، وبه زالت دولتهم عن آخرها .

قال بعض المؤرخين : تولى على مصر اثنان وسبعون أميراً ، أولهم عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، وآخرهم أبو الفوارس أحمد الإخشيدى ، ولم ينفرد بخراجها غير الأمير أحمد بن طولون .

فلما دخل جوهر ، القائد ، إلى مصر ، في يوم الجمعة ، وقيل دخلها يوم الثلاثاء ،
أمر خطباء جامع عمرو بن العاص ، وجامع العسكر ، وجامع ابن طولون ، أن يخطبوا
في ذلك اليوم باسم العزّ ، فخطبوا ؛ ثم أمر المؤذنين أن يجهروا في الأذان : « بحى على
خير العمل » ، فشق ذلك على الناس .

ثم أنشد محمد بن هانىء الأندلسى ، شاعر الغرب ، قصيدة مطوّلة ، مدح في العزّ ،
وحطّ فيها على خلفاء بني العبّاس ، فكان مطلعها هذا البيت :

تقول بني العبّاس هل أخذت مصر فقلّ لبني العبّاس قد قضى الأمر
ثم إن جوهر لما دخل مصر ، لم تعجبه مدينة الفسطاط ، فشرع في بناء القاهرة ،
قال الشيخ شمس (٩١ آ) الدين الذهبي : لما أراد الأمير جوهر ، القائد ، أن يبني
سور القاهرة ، جمع الفلكية وأمرهم بأن يختاروا له طالما سعيدا ، حتى يضع فيه
أساس المدينة ، فجعل على كل جهة من أساس المدينة ، قوائم من الخشب ، وبين كل
قائمتين منها جبلا ، وفيه أجراس من نحاس ، ثم وقف الفلكية ينتظرون دخول
الساعة الجيدة ، والطالع السعيد ، حتى يضعوا فيه الأساس ؛ وكان لهم إشارة مع
البنّائين ، أنهم إذا حرّكوا لهم تلك الجبال ، التي فيها الأجراس ، فيألفوا ما بأيديهم
من الحجارة ، إذا سمعوا حسّ الأجراس .

فبينما هم واقفون لانتظار الساعة السعيدة ، فاتفق أن غرابا وقع على تلك الجبال ،
فتحرّكت الأجراس التي بها ، فظنّ البنّاءون أن الفلكية حرّكوا لهم الجبال التي
فيها الأجراس ، فألقوا ما بأيديهم من الحجارة في الأساسات التي حفروها للسور ،
فصاح عليهم الفلكية : « لا ، لا ، القاهر في الطالع » ، يعمنون الريح ، وهو اسمه
عندهم القاهر ، فقضى الأمر ، وخافهم ما قصدوا له من الطالع السعيد ، كما قيل :
يريد الرء أن يُعطى مناه ويأبى الله إلا ما أراد
فقال الفلكية : « اعلموا أن هذه المدينة أكثر من يملكها الأتراك » ، وكان

(١) وقيل دخلها يوم الثلاثاء : كتبت في الأصل على هامش س (٩٠ ب) .

(١٢) قائمتين : قائمة .

(١٧) حرّكوا : حرّكون .

الأمر كذلك ، وكان بناء سور القاهرة سنة تسع وخمسين وثلثمائة من الهجرة .

وكان الذي بناه جوهر ، القائد ، من سور القاهرة ، بالطوب اللبن ، وآثاره

باقية عند الباب الجديد بالقرب من البرقية .

وأما السور الموجود الآن ، بناه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ،

سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وبناه بالحجر الفص المنحوت ، وكان القائم على بنائه

الأمير بهاء الدين قراقوش ، اخصى الحبشى ، (٩١ ب) ذكر ذلك ابن الأثير .

فلما فرغ الأمير جوهر من بناء السور ، بنى قصر الزمرد ، وجعله دار المملكة ؛

وكان قصر الزمرد مكان دار الضرب .

فلما فرغ الأمير جوهر من بناء السور ، أرسل يعزّ المعزّ بذلك ، ويستحثّه

في الدخول إلى مصر .

ثم جاءت الأخبار بأنّ المعزّ قد وصل إلى نهر الإسكندرية ، فخرج الناس قاطبة

إلى ملتهقه ، وكان دخوله إلى الإسكندرية في شعبان سنة اثنتين وستين وثلثمائة .

فخرج إليه قاضي مصر ، أبو الطاهر الدبلي ، فلما دخل عليه جالس إلى جانبه ، ثم

إنّه سأله : « هل رأيت خائفة أفضل مني » ؟ فقال القاضي أبو الطاهر : « لم أر أحدا

من الخلائق سوى أمير المؤمنين » ، ثم قال له : « هل حجّجت » ؟ قال : « نعم » ، قال :

« وزرت قبر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » ؟ قال : « نعم » ، قال : « وزرت قبر

أبي بكر ، وعمر » ؟

فتحيّر القاضي ، ماذا يقول ، وكان المعزّ يميل إلى مذهب الرافض ، ثم نظر إلى

الأمير نزار بن المعزّ ، وهو قائم على رأس أبيه مع الأمراء ، فقال القاضي : « شغاني

عنهما زيارة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كما شغاني أمير المؤمنين عن السلام على

ولّى العهد له الأمير نزار » ، ثم قام وسأّم عليه ، ثم رجع إلى جانب المعزّ .

فلما كان يوم الجمعة خطب المعزّ بجامع الإسكندرية خطبة بايعة ، وفضل نفسه على

خلفاء بني العباس ، ثم توجه من الإسكندرية إلى مصر ، فدخاها في خامس شهر

رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، فنزل بقصر الزمرد ، الذي أنشأه جوهر ، القائد .

ذكر

ابتداء دولة الفاطميين من بني عبيد الله

واستيلائهم على مصر

٣

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في نسب المعز: هو أبو (٩٢ آ) تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدي عبيد الله المغربي الفاطمي ، وُلد ببلاد المغرب ، بمدينة أفريقية ، يوم الجمعة تاسع عشرين شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وهو رابع خليفة من بني عبيد الله بمدينة أفريقية .

٦

قيل ، لما دخل معد المعز إلى مصر ، سأله ابن طباطبا العاوي ، عن نسبه ، فحُذِب نصف سيفه من غمده ، وقال : « هذا نسي » ، ثم أحضر أكياسا فيها ذهب ، وفرقها على الجند ، وقال : « هذا حسبي » .

٩

وفي سبب شرف هؤلاء الفاطميين أقوال كثيرة ، فمن الناس من نسبهم إلى فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

١٢

ومن الناس من نسبهم إلى الحسين بن محمد بن أحمد بن القداح ، وكان أصل القداح من أبناء المجوس ، وهذا أشهر نسبهم عند أرباب التواريخ .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي : لما دخل المعز إلى مصر ، كان معه ألف وخمسمائة جمل ، موسوقة ذهباً عينا ، وكان معه من القماش والتحف ما لا يحصر .

١٥

فمن جملة ما قيل أن كان معه من التحف قبة من البلّور ، وهي قطعتان ، يجلس فيها أربعة أنفس ، فكانت إذا نصبت في ليلة مقمرة ، تخفى ضوء القمر من شعاعها ؛ وكان معه أربع خوابي من البلّور ، تسع قدر راوية من الماء ، كل واحدة منها ؛ وكان معه من التحف غير ذلك ، ما هو أعجب مما سمع .

١٨

قيل ، لما دخل المعز مصر ، حمل معه أجداده الذين ماتوا بمدينة أفريقية ، خملهم

٢١

(٩) أكياسا : أكياس .

(١١) هؤلاء : هذه .

(٢٠) مما سمع : من مما سمع .

في توأيت من خشب ودفنهم بمصر ، وأيقن أن مُلك مصر انحصر فيه ، وفي أولاده ، إلى آخر الزمان .

٣ فلما دخل مصر ورأى ما قد بناه جوهر ، القائد ، من القاهرة ، فلم يعجبه ذلك ، وقال له : « لقد بنيت هذه المدينة في وِطْنة ، لا هي بحرية ، ولا هي جبلية » ، وكان قصد المعز لو بناها جوهر عند الرمد ، أو على شاطئ النيل .

٦ وكان المعز سعى القاهرة أولا المنصورية ، (٩٢ ب) فلما بان له ما وقع للفلكية من أمر القاهر ، يعنى المريح ، فغَيَّر اسمها ، وقال : « سموها القاهرة » ، فاستدر اسمها القاهرة من يومئذ ، وفيها يقول القائل :

٩ لله قاهرة المعز فإنها بلد تخص بالسرّة والها
أو ما ترى في كل قطار مُنيّة من جانبها فهي مجتمع المني
وقال آخر :

١٢ مصر لها الأفضال إذ لم تزل على العدا منصور ظاهرة
ما غولبت كلا ولا قوهرت إلا وكانت مصر والقاهرة
قيل ، إن أول شيء حكمه المعز بمصر ، أن امرأة وقفت إليه بقسّة ، وأنشأت
١٥ تقول قول أبي العلاء المعري :

تَحْلَمُنَا رِبَ الزمان كَأَنَّنا زجاج ولكن لا يعادُ له سبك

فقال لها المعز : « من أنت أيتها المرأة » ؟ قالت : « أنا زوجة الأمير أبو بكر
١٨ ابن محمد بن طنجج الإخشيدى ، صاحب مصر » ؛ فقام إليها المعز وعظّمها ، وقال :
« ما حاجتك » ؟ قالت : « إني قد أودعت بناتنا لى عند شخص يهودى ، فأقام
عنده مدّة ، ثم إني طلبته منه فأنكره ، فقلت له : خذ منه ما تختار من جواهر ،
٢١ وأعطينى الباقي ، فأبى وامتنع من الإعطاء ، وأنكر ذلك أصلا » .

فلما سمع المعز ذلك ، أرسل خلف اليهودى ، وسأله عن أمر البنات ، الذى

أودعته عنده زوجة الإخشيدى ، فأنكره ولم يعترف به ، فأمر بشنقه ؛ فلما تحقق ذلك اعترف به ، فأمره المعز بإحضاره ، فلما أحضره بين يديه ، تحير مما فيه من الجواهر والياقات ، ثم إنه وجد اليهودى قد سرق من صدر البغاطاق درّتين ، فسأله عن ذلك ، فاعترف أنه باع تلك الدرّتين بألف وستمائة دينار .

فأخذ المعز البغاطاق من اليهودى (٩٣ آ) ودفنه إلى زوجة الإخشيد ، ثم إنهما سألته أن يأخذ منه شيئاً على سبيل الهدية ، فأبى من ذلك ، فأخذت البغاطاق ، وانصرفت وهى دائية له ، ثم أمر بشنق اليهودى ، فشنع ، وهذا أول شيء حكاه بالقاهرة .

وكان المعز يحب العدل والإنصاف بين الرعية ، غير أنه كان يميل إلى مذهب الرفض ، ويسب الصحابة يوم الجمعة على المنابر .

فلما استقرّ المعز بالقاهرة ، شرع الأمير جوهر ، القائد ، فى بناء الجامع الأزهر ، وهو من إنشائه ، وكان الأمير جوهر وزيراً للمعز ، وكان خفياً صقلى الجنس ، وكانت له حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، فبنى هذا الجامع ، وانتهى العمل منه فى جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، وهو أول جامع بنى بالقاهرة ، وإنما سعى بالأزهر لزهارته بين الجوامع .

قبل ، كان به تنور فضة ، وسبعة وعشرين قنديلاً من الفضة ، وكان فى محرابه منطقة فضة ، وكان به طاسم برسم الطيور ، فكان لا يقربه عصفور ، ولا حمام ، ولا يمام ، ولا شئ من أنواع الطيور .

فلما بنى جامع الحاكم تلامى أمر جامع الأزهر وخرب ، وأقام مدة طويلة وهو خراب ، إلى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، فأمر بإصلاحه وأعاد فيه الخطبة ، بعد ثلثه هذه المدة الطويلة ؛ انتهى ذلك .

قال الذهبى : إن المعز لما استقرّ بالقاهرة ، خرج عليه خراجى ، يقال له الحسن

ابن أحمد القرمطى ، أتى من الشام فى جيش كثيف من العساكر ، وكان معه الأمير
حسان بن الجراح الطائى ، أمير العرب ، ومعه الجمل الغفير من عربان الشام ، حتى
سدّ بهم الفضاء ، فكان ينشد ويقول (٩٣ ب) :

زعمت رجال الغرب أتى هبّهم فدى إذا ما بينهم مطاول
يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقانى النيل

فلما رأى المعز أنه لا يقوى على محاربة حسان بن الجراح ، أرسل يقول له فى الدس :
« ارحل عن مصر ، وأنا أرسل إليك بمائة ألف دينار » ، فأرسل حسان يقول له :
« إن بعثت إلى بما تقول ، رحلت عن مصر » ؛ فأرسل إليه المعز مائة ألف دينار ،
فى أكياس مخنومة .

قال بعض المؤرخين : إن ذلك الذهب الذى أرسله المعز إلى حسان ، كان زغلا ،
نحاس ملبس بالذهب ، فجعل الذهب الخالص فوق الأكياس ، والذهب النحاس
أسفله .

فلما التقت الجيوش للحرب ، فأظهر حسان أنه قد انكسر ، فانهزم بمن معه
من العربان ، فمعد ذلك ضعفت شوكة عسكر أبو الحسن القرمطى ، وانهزم من
ساعته ، وقويت عاياه عساكر المعز ، فكسروهم ، وولّوا مدبرين .

ومن الحوادث فى أيامه ، أن فى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، خرج بنو هلال
على الحُجّاج ، فقتلوا منهم خائفا كثيرة ، ولم يحجّ فى تلك السنة سوى أهل العراق
فقط .

ولما تولى المعز على مصر ، منع القبط مما كان يعمل فى يوم النوروز ، من صبّ
المياه على الناس فى الطارقات ، ووقد النار فى تلك الليلة ، وكانوا يخرجون فى ذلك
عن الحدّ ، ومنعهم أيضا مما كان يعمل فى ليلة الفطاس ، من نزول الراكب ، وضرب
الخيام على شاطئ النيل ، قبالة المقياس ، فأشهر النداء بإبطال ذلك ، وهدّد من يفعل
ذلك بالشنق ، فرجع الناس عن ذلك ، وكان يحصل (٩٤ آ) منه غاية الفساد .

قال بعض المؤرخين : إنَّ المعزَّ كان يميل إلى علم الفلك ، فأخبروه جماعة من الفلكية ، أنَّ عليه قطعا شديدا في شهر كذا وكذا ، في يوم كذا وكذا ، وأشاروا عليه بأنَّ يَخْتَفِي في سرب تحت الأرض ، حتى يمضي عنه ذلك القطع ، فاختفى في سرب نحو أربعة أشهر .

فلما طال غيبته على عسكره ، ظنوا أنَّه رفع إلى السما ، فكان الفارس من عسكره ، إذا نظر إلى المنام في السماء ، ينزل عن فرسه ، ويقول : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ؛ فلا زالوا على ذلك حتى ظهر من السرب ، وجلس على سرير مُلكه ، وهم يحسبون أنَّه كان في السماء وأتى إليهم .

واستمرَّ المعزَّ في خلافته بالقاهرة ، حتى توفي ، وكانت وفاته في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة ؛ وكانت مدَّة خلافته بمصر نحو ثلاث سنين ونصف ؛ ومات وله من العمر نحو من أربع وعشرين سنة ؛ ودفن عند سيدي زين العابدين ، الذي تربته بين السكيات ، عند حدة ابن قميحة .

والمعزَّ هو أول خلفاء بني عبيد الله بمصر ، وكانوا يقولون : « نحن أفضل من خلفاء بني العباس ، لأننا من ولد فاطمة ، بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » . فكادت الخلفاء الفاطمية يحكمون من مصر إلى الفرات ، وإلى مكة والمدينة ، وكانت مصر ، وبلاد المغرب ، مملكة واحدة ؛ وكانت خلفاء بني العباس يحكمون من الفرات إلى بغداد وأعمالها ، وسائر بلاد الشرق ، وكان يخطب لكل خليفة منهما ، في الجهة التي تحت حكمه ، باسمه فقط .

ولما تولى المعزَّ على مصر ، قام لها حرمة ، واستكثر فيها من العساكر ، ما بين كنانة ، وروم ، وسقالية ، ومناربة ، وعبيد سود ، وطائفة يقال لهم زويلة ؛ (٩٤ ب) حتى قيل : لم يطاء الأرض بعد جيوش الإسكندر بن قورش الرومي ، أكثر من عساكر المعزَّ الفاطمي .

وبلغ خراج مصر في أيامه ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وكان خراجها قد انحط قبل ذلك إلى الغاية ، فجدد بها الأمير جوهر ، القائد ، ما فسد من جسور وقناطر

وغير ذلك ، حتى استقامت أحوال الديار المصرية في أيامه . ولما مات العزيز ، تولى بعده ابنه العزيز نزار ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار العزيز الفاطمي ، على سبيل الاختصار .

ذكر

خلافة العزيز بالله أبي منصور نزار

ابن المعز بالله معد الفاطمي العبيدي

- ٦ وهو الثاني من خلفاء بني عبيد الله بمصر ، تولى الخلافة بمصر بعد موت أبيه المعز ، سنة خمس وستين وثلاثمائة ؛ وكان مولده بمدينة القيروان ، سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ؛ فلما تم أمره في الخلافة ، أبهى الأمير جوهر ، القائد ، في الوزارة على حاله . قيل ، لما تولى العزيز الخلافة ، دخل عليه عبد الله بن حسن الجعفي ، الشاعر ،
- يهنئه بالخلافة ، فأنشده هذه القصيدة ، منها :

عمت خلافته مصرا فصار بها كأنه الشمس فيها حلت الحلا
١٢ إن المعز الذي لا خالق تشبهه إلا العزيز ابنه إن قل أو فعلا
فإن مضى كفل الدنيا فصار لنا من بعده كفلا يغني بما كفلا
أضحت ماوك بني الدنيا له خدما وما حوت كل دار منهم نقلا

- ١٥ وفي رجب سنة ست وستين وثلاثمائة ، توفي الإمام الخافظ أبو الحسن محمد ابن عبد الله بن زكريا بن حيوة النيسابوري ، ولد سنة ثلاث وسبعين ومائتين ؛ ومات سنة ست وستين وثلاثمائة ؛ وكان إماما من أئمة الشافعية في الفرائض ، دخل مصر مع عمه يحيى بن زكريا الأعرج ، وأقام بمصر حتى مات بها .
- ١٨ قال بعض المؤرخين : لما تولى العزيز الخلافة (٩٥ آ) بعد أبيه ، استكثر في عسكره من الماليك الديالة ، والعمادة ، والمفل ، واستقامت أحواله بالديار المصرية ، وأظهر العدل بين الرعية .

قال المسبحي : أول من بنى الحمامات بالقاهرة العزيز بن المعز ، هذا .

ثم أقام الأمير جوهر في الوزارة مدّة ، ومات ؛ فلما مات استقرّ بعده في الوزارة أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كاس ، وكان أصله يهوديا ، وأسلم .

٣ واما وجد للأمير جوهر ، القائد ، بعد موته ، من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ، ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ؛ ومن اللؤلؤ الكبار والياقوت أربعة سناديق مجلّدة ؛ ومن التصب الزمرد ألف قصبه ؛ ومن الثياب الديباج خمس وسبعين ألف قطعة ؛ ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع ، وهي مرسّعة بالدرّ والياقوت ، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار .

٩ ووجد عنده لعبة من المسك والعنبر الخام ، فكان إذا نزع أثوابه ألبسها عليها ؛ ووجد في داره مائة مسمار من الذهب ، على كل مسمار منها عمامة لون ؛ ووجد عنده من المالق الذهب والفضة ألف معاقه ؛ ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صيني ، ومن الأواني البأور مثليا .

١٢ ووجد عنده أربعة دسوت من الذهب ، وزن كل دست مائة رطل بالمصري ؛ ووجد عنده سبعمائة خاتم ، بفضوص ياقوت وبلاخس وماس وزمرد وفيروزج ؛ ووجد عنده ثمانية زحسية ما بين ذهب وفضة وبأور وصيني ؛ هذا كله خارجا عن البنال والخيول والجمال والأمالك والضياع وغير ذلك .

وفي أيامه توفي أخوه الأمير تميم بن المعز ، وكانت وفاته سنة ثمان وستين وثلثمائة ، وكان (٩٥ ب) شاعرا ماهرا ، وله شعر جيّد ، فمن نظمته قوله :

١٨ إذا وجدت زمانا لم تُسرّ به فكم أنا خاك سهلا بعد أصعبه

فقبل من الدهر ما أعطاك ممتزجا لعل مرّاك يحاو من تقلّبه

خذها إليك ودع لومي مشعشة من كفت أفتى أسيل الخلد مذهبه

٢١ لا تترك القدر المألو في يده إني أخف عليه من تلّهبه

نزهه عن سقمنا إني أغزله وسقني واسقني من فضل مشربه

(١٠) المألوق . . . معاقه : كذا في الأصل .

ومما وقع للأمير تميم هذا ، أنه سمع بجمارية مغنية في بندا ، فأرسل أخذها من سيدها غصبا ، فلما حضرت إلى مصر ، وغنت بين يديه ، استطرب غناها ، وافتتن بها ، فقال لها في بعض الأيام : « هلا تسأليني في حاجة » ؟ فقالت : « أريد أن أحج » ، فأرسلها مع بعض أصحابه ؛ فلما وصلت إلى مكة تسحبت تحت الليل ، فلم يعلم أين ذهبت ؛ فلما بلغ الأمير تميم ذلك ، حصل عنده قهر شديد ، ومات عقيب ذلك .

وفي سنة تسع وستين وثلثمائة ، توفي الإمام الحافظ أبو بكر النقاش ، نزيل تنيس ، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، ومات رابع شعبان سنة تسع وستين .

وفي سنة سبعين وثلثمائة ، توفي الحسن بن رشيق ، صاحب « العمدة » ، ولد

في صفر سنة ثمان وثمانين ومائتين ، ومات في جمادى الآخرة سنة سبعين ، وكان له شعر جيد ، فمن ذلك قوله في المنام ، والتطير منه :

لَمْ كره النمام أهل الهوى أساء إخواني وما أحسنوا
إن كان نماما فقاوبه من غير تأديب لهم مأمنا

وقال ابن رشيق في الموزن بن باديس ، سلطان أفريقية ، وقد غاب يوم العيد ، وكان يوما ماطرًا جدًا :

تجهم لا يمد واعتات بوادره وكان يعهد منك البشر والضحكا
كانه جاء يطوى الأرض من بعد شوقا إليك فلما لم يجئك بكاء
(٩٦ آ) وفي سنة ست وسبعين وثلثمائة ، توفي ابن النحاس المصري ، وكان

من أعيان العلماء .

وفي سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، ولدت امرأة بمدينة تنيس ، جارية لها رأسان ووجهان في عنق واحد ، وكان أحد الوجهين أبيض اللون متركا ، والآخر أسمر اللون ، وفيه سهولة ، وكل وجه منهما كامل الخلقة ، وذلك الوجهين في جسد واحد ، فكانت أم ذلك المولودة ترضع كل وجه منهما على انتراده ؛ فحملت هذه المولودة من تنيس إلى مصر ، حتى شاهدها العزيز ، وأمر لأمتها بعيلة ، وعادت إلى تنيس ؛

(٥) قبر شديد : قبرا شديدا .

(٢١) وذلك الوجهين : كذا في الأصل .

وقيل إن هذه المولودة عاشت مدة يسيرة وماتت .

- وفي سنة ثمان وسبعين وثلثمائة ، حدث بمدينة تنيس ، في ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الأول ، [أن] أرعدت السماء وأبرقت ، وأظلم الجو ، وظهر في السماء أعمدة من نار تلهب ، فأضاءت منها الدنيا ، ثم اشتدت تلك الحمرة ، وجاء عقب ذلك ريح سوداء ، فيها غبار حار ، يأخذ بالأنفاس من شدة حره ؛ فرتاع الناس من ذلك ، وأيقنوا بالهلاك ، وصار يودع بعضهم بعضا ، وابتهلوا إلى الله بالدعاء ؛ ولم يزل الأمر متمايدا على ذلك ، من المغرب إلى طلوع الفجر ، حتى سكن الريح ، ونحلت تلك الأعمدة النار ، وزالت الحمرة من الجو ؛ فلما لاح الصباح ، طلعت الشمس وهي حمرة ، فأقامت على ذلك خمسة أيام حتى اعتدلت ، وقد قيل في المعنى لبعضهم :

ما خاب عهد على الله الكريم له توكل صادق في السر والعلان

حاشاه أن يحرم الراجي إجابته إذا دعاه لكشف الهم والحزن

- وقال الشيخ أبو القاسم عبد المجيد القرشي : إن في سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ، أصيدت سمكة من بحيرة تنيس ، فكان طولها من رأسها إلى ذنبها ثمانية وعشرين ذراعا ، (٩٦ ب) وكان عرضها خمسة عشر ذراعا ، وكان فتح فمها تسعة وعشرين شبرا ، وكان لها يدان طول كل واحدة ثلاثة أذرع ، ولها عينان كعيْنَي البقر ، ولسان كالسان الثور ، وكانت ملساء ، وفي جلد لها غلظ ؛ فلما صيدت ، أمر والي تنيس بأن يشق بطنها ويحشى مالحا ، فوضع في جوفها مائة أردب ملح ، فكان الرجل يدخل إلى جوفها ، وهو حامل قفاف المالح ، قائما غير منحنى ؛ ثم إن نائب تنيس أرسلها إلى مصر ، حتى شاهدها العزيز ، وتعجب من خلقتها - أورد ذلك ابن أبي حجلة في كتاب « عجائب العجائب ، وغرائب الغرائب » كما ذكرناه .

- وفي أيام العزيز ظهر السمك اللبيس ببحر النيل ، ولم يكن منه قبل ذلك شيء ؛ وهو من أسماك البحر المالح ، هرب ودخل إلى البحر الحلو ، فسمي لبيسا .

وفي أيامه توفيت سيدة الملك ، أخت المعز ، والد العزيز ، فوجد لها من الذهب الدين ثمانية سندوق ، ومن الجواهر والياقوت خمسة وبيات ، ووجد عندها مدعنا من الياقوت الأحمر ، وزنه سبعة وعشرين مثقالا ، ووجد لها ثلاثون ألف ، شقة حرير مائون ، ومع وجود هذه السعة ، كانت أزهد الناس في الدنيا ، لا تأكل إلا من ثمن غزل يديها دائما ، حتى ماتت .

وفي سنة ثمانين وثمانماية توفي الوزير يعقوب بن كاس . - فلما مات ، أخلع العزيز على شخص من النصارى ، يقال له نسطورس ، واستقر به وزيراً ، فعادت هذه الفعلة من مساوئه ؛ وأخلع على شخص من اليهود ، يقال له منشاه ، واستقر به وزيراً بالشام ؛ فوقع منهما الأذى البالغ في حق المسلمين بمصر والشام .

فاتفق أن العزيز ركب (٩٧ آ) يوماً ، وشق من القاهرة فزيت له ، فعمد بعض الناس إلى مبخرة من الجريد ، وألبسها ثياب النساء ، وزيرها بإزار وشعرية ، وجعل في يدها قصّة على جريدة ، وكتب فيها : « بالذي أعزّ النصارى بنسطورس ، وأعزّ اليهود بمنشاه ، وأذلّ المسلمين بك ، ألا ما رجحتهم ، وأزلت عنهم هذه المظالم » ؟

فلما مرّ العزيز على تلك الصورة ، فظن أنها امرأة لها حاجة ، فوقف وطلب قصتها ، فلما قرأها اشتدّ به الغضب ، وأمر بشنق الوزير نسطورس ، فشنع على باب قصر الزمرد في ذلك اليوم ؛ ثم أرسل إلى الشام بشنق اليهودى منشاه ، فشنع على باب قلعة الشام ، وكان العزيز يحبّ العدل بين الرعية .

فلما شنق الوزير نسطورس ، أخلع على شخص ، يقال له أبو نصر صدقة العلاجي ، واستقرّ به وزيراً ، عوضاً عن نسطورس . وكان العلاجي أصله يهودياً وأسلم .

وفي سنة ثمانين وثمانماية ، توفي الحسن بن علي بن طاهر الأنطاكي ، شيخ القراء . ومن الحوادث في أيامه ، أن في سنة أربع وثمانين وثمانماية لم يحجّ سوى أهل مصر فقط ، وتعطلّ الركب العراقي والشامي ، لفساد الطريق من العربان .

ثم دخلت سنة ست وثمانين وثلثمائة

- ٣ فيها ، في شهر رمضان ، توفى العزيز بالله نزار بن المعز الفاطمي ، خليفة القاهرة ، وكانت مدة خلافته بمصر والقاهرة ، إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياما ، وعاش من العمر نحو ثلاثة وثلاثين سنة ، وكان خيار بني عبيد الله ، ولما مات تولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله ، انتهى ما أوردناه من أخبار العزيز بالله بن المعز ، وذلك على سبيل الاختصار . ٦

ذكر

خلافة الحاكم بأمر الله أبي على منصور

ابن نزار بن المعز معد الفاطمي العبيدي

- ٩ وهو الثالث من خلفاء بني عبيد الله بمصر ، تولى (٩٧ ب) الخلافة بعد موت أبيه العزيز بالله ، يوم الثلاثاء سابع رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة ؛ وكان مولده بالقاهرة في يوم الجمعة سادس عشرين جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلثمائة . ١٢
- فلما تولى الخلافة ، أظهر العدل بين الرعية ، وسار في الناس سيرة حسنة ، على طريقة أبيه العزيز .
- ١٥ وأخذ في أسباب بناء الجامع المعروف به ، وكان والده العزيز بنى أساس هذا الجامع ، ولم يتممه ، فأكماله ابنه الحاكم ، فعرف به ؛ وكان انتهاء العمل منه في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .
- ١٨ ثم بنى بعده جامع راشدة الذى تحت الرصد ؛ وراشدة كانت قبيلة من قبائل العرب من بنى لحم ، نزلوا هناك ، فسقى الجامع براشدة ، مخافا للقبيلة التى نزلت هناك .
- ومن بناء الحاكم أيضا ، جامع المقسى ، الذى عند باب البحر ، وكان مطلقا على بحر النيل ، ثم خرب ، وأقام مدة وهو خراب ، جددّه الصاحب شمس الدين المتقى ، ٢١

في سنة سبعين وسبعمائة ، فعرف به من يومئذ ، وأسله من بناء الحاكم قديما .

ثم إن الحاكم أفرد لليهود حارة زويلة ، وأسكنهم بها ، وأمرهم أن لا يخالطوا المسلمين في حاراتهم ، وكان في وقت ، أمرهم أن يدخلوا كلهم قطبسة في الإسلام ، ٣ تخافوا منه وأسلموا كلهم ، ثم أذن لهم بالعود إلى دينهم ، فارتد منهم في يوم واحد نحو من سبعة آلاف يهودي ، ثم أمر بهدم كنائسهم ، فهدمت ، ثم أمر بإعادتها إلى ما كانت عليه أولا . ٦

وفي أيامه توفي أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق المصري ، المؤرخ ، مات في ذى القعدة سنة تسع وثمانين وثلثمائة .

وفي هذه السنة ، أصابت الحاج عطشة شديدة في الطريق ، فهلك منهم نحو الثالث ٩ (٩٨ آ) من العطش ، حتى قيل إن شربة ماء أبيعت بألف دينار ، الذي شربها مات ، والذي أباعها مات .

وكان القائم بتدبير أمور القاهرة في أيام الحاكم ، الأمير برجوان ، وهو صاحب الحارة المعروفة به ، وكان الحاكم بأمر الله لا يتصرف في شيء من أمور المملكة إلا برأى الأمير برجوان ، وكان معه كالمحجور عليه ، فما أطاق الحاكم ذلك ، فندب إلى برجوان من قتله وهو في الحمام . ١٥

فلما مات احتاط على موجوده ، فوجد له أضعاف ما وجد للأمير جوهر ، القائد ، فمن جملة ذلك من الذهب الدين مائتي ألف ألف دينار ، ومن الفضة الدراهم خمسين أردبا ؛ ووجد له من القماش مائتان وستين بقجة ؛ ووجد له ألف قميص حرير ١٨ سكندري ؛ ووجد له اثنا عشر صندوقا ، ضمنهم جواهر وفصوص ؛ ووجد من الفرش والأواني ما لا يحصى ؛ حتى قيل كان ينقل من حارة برجوان إلى قصر الزمرّد ، في كل يوم ، دفتان على مائتي جبل ، نحو أربعين يوما في موجود برجوان ، وهو لا يفرغ ؛ ٢١ هذا خارجا عن الضياع ، والأموال ، والدواب ، والبهائم ، والعبيد ، والجوار ، وغير ذلك .

قل الذهبي : فلما قتل برجوان صفا للحاكم الوقت ، وسار يفعل أشياء ، لا تقع إلا من المجانين ، الذين في عقابهم خلل ، فمن ذلك أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ، ومن التطنّع من الطاقات ، والطاوع إلى الأسطحة ، ومنع الخفافين من عمل الأخفاف لمن .

ومنع سائر النساء من الدخول إلى الحمامات ، فمرّ يوماً بحمام الذهب الذي كان بمصر ، فسمع فيها ضجيج النساء ، فأمر بأن يسدّ عليهن باب الحمام ، فسدّوه عليهن من الوقت والساعة ، وهو واقف عليه ، فأثنى داخل الحمام حتى متن به .

ثم إنّه منع الناس من بيع الزبيب ، وأمر بحرق الكروم ، (٩٨ ب) وقطع منها نحو مائة ألف كرمة ؛ ثم إنّه منع الناس من بيع العسل الأسود ، وكسر منه نحو اثني عشر ألف مطرا .

ثم إنّه منع الناس من زرع الملوخية والقرع ، وكتب على الفلاحين قسائم أن لا يزرعوا شيئاً منهما ؛ وعالّل بتحريم القرع ، لأنّ أبا بكر ، رضى [الله] عنه ، كان يميل إليه ، وعالّل بتحريم الملوخية ، لكون أن عائشة بنت أبي بكر ، كانت تميل إليها ؛ ثم إنّه أطلع يوماً على جماعة يأكلون ملوخية ، فضربهم بالسياط ، وطاف بهم في القاهرة ، ثم ضرب أعناقهم عند بابي زويلة .

ثم إنّه منع الناس من بيع السمك الذي لا قشر له ؛ ثم نهى عن أكل الرطب ، وعن زرع الترمس ؛ ثم إنّه أمر بقتل الكلاب ، فقتل منهم نحو ثلاثين ألف كلب . ثم إنّه صار يقد الشمع في مجلسه ليلاً ونهاراً ؛ ثم إنّه صار يجلس في الظلام مدة طويلة ؛ ثم إنّه أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل ، وجعل الليل مقام النهار في جميع أحوال الناس كلها ، فامتشاوا ذلك ، واستمرّوا عليه دهرًا طويلاً .

(٣) الذين : الذى .

(٥) الذى كان : التى كانت .

(٧) به : بها .

(١٢) [الله] : تنقّس في الأصل .

(١٩) ويفتحونها : ويفتحونها .

ثم إنّه مرّ في السوق يوماً بالنهار ، فرأى إلى شيخ يعمل في النجارة من بعد العصر ، فوقف عليه ، وقال : « ألم نهيتكم عن العمل بالنهار » ؟ فقال له الشيخ : « يا أمير المؤمنين ، أما كان الناس يسهرون بالليل ، وهذا من جملة السهر » ، فتبسّم وتركه ، ثم أعاد الناس إلى ما كانوا عليه في الأول ، يتقاضون أشغالهم بالنهار .
ومن أفعاله الشنيعة أنّه كان يسبّ الصحابة ، وأمر بكتابة سبّهم على أبواب كلّ مسجد ، فأقام على ذلك مدّة ، ثم رجع عن ذلك (٩٩ آ) وأمر بمحو ما كتبه على أبواب المساجد .

ثم إنّه هدم كنيسة وبني مكانها مسجداً ، فأقامت مدّة ثم أعادها على ما كانت عليه كنيسة .
وكان يبني عدّة مدارس ، ويقرّر بها العلماء ، ثم يقتلهم ، ويهدم تلك المدارس التي بناها .

ثم إنّه كان يعاقب جماعة من خواصّه بسلب الألقاب ، فإذا غضب على أحد سلب لقبه مدّة طويلة ، لا يدعوه بذلك اللقب ، فيصير ذلك الرجل في حزن وبكاء ، حتى يردّ عليه لقبه ، فيكون عنده ذلك اليوم عيداً .
ثم إنّه أمر طائفة اليهود ، بأنّ يعملوا في أعناقهم ، إذا خرجوا إلى الأسواق ، قرأى خشب ، وزن كل قرمة خمسة أرطال ؛ وأمر النصارى بأنّ يضعوا في أعناقهم صلباناً من الحديد ، قدر كل صليب ذراع ، وأمرهم بأنّ يلبسوا المآزر العسلية عوضاً عن الشاشات ، وأنّ لا يركبوا بهيمة في الأسواق ؛ فأقاموا على ذلك مدّة ، ثم أعادهم إلى ما كانوا عليه .

ثم إنّه أمر الناس ، إذا ذكر الخطيب اسمه في يوم الجمعة ، وهو على المنبر ، تقوم الناس صفوفاً إعظاماً لاسمه ، فكان يفعل ذلك في سائر أعمال مملكته ، حتى في الحرمين الشريفين ، وبيت المقدس

(٢) نهيتكم : كذا في الأصل .

(٥) بكتابة : بكتابت .

- ثم إنه كان يتعاطى حسبة القاهرة بنفسه ، فيلبس جبّة صوف أبيض ، ويركب على حمار أصهب ، قدر بغل ، يسمّى «القمر» ، ويعطوف أسواق مصر والقاهرة ، ومعه عبد أسود طويل عريض ، يمشى فى ركابه ، يقال له «مسعود» ، فإن وجد أحدا من السوق غشّى فى بضاعته ، أمر ذلك العبد مسعود بأن (٩٩ ب) يفعل به الفاحشة العظمى ، وهو اللواط ، فيفعل به على دكانه والناس ينظرون إليه ، حتى يفرغ من ذلك ، والحاكم واقف على رأسه ؛ وقد صار مسعود هذا مثالا عند أهل مصر ، إذا مزح بعضهم مع بعض يقولوا : « احضر له مسعود » ، وفيه يقول القائل :
- إنّ لمسعود آله عظمت كأنها فى صفات طومار
تشقّ أدبار من لهم جرم أصعب من درّة بمسار
- ثم إنه أمر بإبطال صلاة التراويح مدّة طويلة ، ثم أعادها على ما كانت عليه أولا ؛ ثم إنه لبس الصوف نحو سبع سنين ، ثم تركه ولبس الحرير .
- ثم إنه كان يركب حماره ، وينزل عند باب جامع ، الذى عند باب النصر ، يأخذ بيد من يختار من غلمانہ ، فيرقده على باب الجامع ، ويشقّ بطنه بيده ، ثم يخرج معارينه بيده ، ويرميهم إلى الكلاب ، ويترك المقتول مكانه ، حتى يدفنوه أهله ؛ وكان يعتذب جماعة من غلمانہ بالنار .
- وقتل جماعة كثيرة من العلماء ، منهم : جبارة اللغوى ، قيل كان يعرف للكلب فى الائمة ثلثماية اسم ؛ وقتل أبا أسامة ، وغير ذلك من العلماء .
- وكان عنده شجاعة وإقدام ، مع جبن وإدبار ؛ وكان يحبّ الكرم ، ويكثر من البخل ؛ ويحبّ فعل الخير ، ويتبعه بشىء من الشر ؛ ويحبّ العدل فى الرعية ، ويتبعه بشىء من الظلم ، كما قيل فى المعنى :

(١) يتعاطى : يتعاما .

(٧) يقولوا : كذا فى الأصل .

(١٤) ويرميهم : كذا فى الأصل .

(١٧) اسم : اسما .

(١٨) جبن : جبان .

- أرى فيك أخلاقاً حسناً ، قبيحة وأنتَ لعمرى كالذى أنا واصف
 قريب ، بعيد ، باذل ، متمنع كريم ، بخيل ، مستقيم ، مخالف
 كذوب ، صدوق ، ليس يدري صديقه أينجوده (١٠٠ آ) من تخايطة أم يلاطف
 فلا أنت ذو غش ، ولا أنت ناصح وإنى لفي شك لأمرك واقف
 كذاك لسانى هاجى لك ، مادح كما أن قلبى جاهل بك ، عارف
 قال القاضى شمس الدين بن خلكان ، فى تاريخه : إن الحاكم بأمر الله ، كان يعبد
 الكواكب ، كما كان جدّه المعز ؛ وكان له اشتغال بأمر الطالب ، وله فى ذلك أخبار
 كثيرة ، فمن ذلك أنه ظفر فى بعض المطالب بصنم من كدان ، وهو مجوف ، وفى جوفه
 روحانى موكل به ، فكان ينطق كما ينطق بنى آدم ، فكان من شأن هذا الصنم أنه
 يظهر الضائع ، وينخب عن المكان الذى فيه الضائع .
 فلما ظفر الحاكم بهذا الصنم ، أشهر النداء فى مصر والقاهرة ، بأن أحدا من الناس
 لا يفتق له باب ولا دكان ، وإن ضاع لأحد من الناس شئ فهو فى درك الحاكم ،
 فامتثل الناس ذلك .
 فلما باتوا تلك الليلة ، سرق من مصر والقاهرة أربعائة عملة ، فلما أصبح النهار ،
 توجهوا تحت قصر الزمرّد يستغيثون الحاكم ، فقال : « ما الخبر » ؟ ف قيل له : « إن
 اللصوص قد سرقوا فى هذه الليلة أربعائة عملة ، لما تركوا دكاكينهم مفتحة » ، فقال
 الحاكم : « لا بأس عليهم » .
 ثم أشهر النداء بأن كل من ضاع له شئ ، يحضر بين يدى الحاكم ، تحضر أصحاب
 الضوائع قاطبة ؛ فلما كانوا ، أحضر ذلك الصنم بين يديه ، وصار أصحاب الضوائع ،
 يقف الواحد منهم بين يدى الصنم ، ويقول له : « يا أبا الهول قد ضاع لى ، ما هو
 كيت وكيت » ، فيقول الروحانى الذى فى جوف الصنم : « إن ضائعك أخذه فلان »
 (١٢) شئ : شيئا .
 (١٩) الضائع : كذا فى الأصل .
 (٢٠) ضاع : ضائع .

ابن فلان ، وعمو في المكان الفلاني ، في الحارة الفلانية » ، (١٠٠ ب) فيرسل الحاكم بعض غلمانہ إلى ذلك المكان ، فيحضر الضائع بعينه ، فيسلمه إلى صاحبه ؛ فلا زال يحضر لكل شخص من الناس ما ضاع له ، حتى ردّ على الناس ما كان ضائع لهم في تلك الليلة بتمامه وكأله .

ثم أحضر اللصوص الذين سرقوا ، فأمر بشنقهم ، فشنعوا أجمعين ، ثم نادى في مصر والقاهرة : « رحم الله من رأى العبرة من غيره ، واعتبر » ؛ فصار الناس من بعد ذلك يتركون دكاكينهم وأبوابهم مفتحة ، ليلا ونهارا ، ولم يفقد لأحد من الناس شيء ، حتى كان يقع من الرجل الدرهم الفلوس ، فلا يجسر أحد من الناس أن يأخذه من الأرض ، حتى يمرّ به صاحبه فيأخذه ، ولو بعد حين .

وحكى بعض المؤرخين أن رجلا وقع منه كيس ، فيه ألف دينار ، عند جامع أحمد بن طولون ، فصار مرمى على الأرض ، وكل من رآه يتباعد عنه ، فأقام مرمى على الأرض أسبوعا ، حتى مرّ صاحبه به وأخذه .

وأمر هذا الصنم هو الذي جسر الحاكم على أن جعل الليل مقام النهار في أحوال الناس ؛ وقيل إن هذا الصنم لم يزل عند الحاكم حتى قتل ، فعمد إليه بعض اللصوص ، وكسره تحت الليل ، فبطل من يومئذ فعله ، وذهب عنه الروحاني الذي كان في جوفه .

وقيل إن رجلا أودع عند رجل جرابا فيه ألف دينار ، وسافر إلى الحجاز ، فلما عاد طلب منه الجراب فأنكره ، ولم يقرّ به ، فشكاه إلى الحاكم ، فقال له الحاكم : « أقم لي على الشارع ، فإذا مررت بك ، فقم إليّ وتحدّث معي حديثا طويلا » ، فلما مرّ الحاكم بالرجل ، قام إليه وتحدّث معه ، وأطال معه الحديث ، فرّ به الرجل (١٠١ آ) الذي عنده الجراب ، فرأى صاحب الجراب يتحدّث مع الحاكم حديثا طويلا .

(٥) الذين : الذين .

(٨) شيء : شيئا .

(١١) مرمى : كذا في الأصل .

فلما مرّ الحاكم ، ومضى ، أحضر ذلك الرجل الجراب إلى صاحبه ، وقال :
 « لقد تذكّرت وديعتك ، فوجدتها في البخارية ، وها هي بختمها لم تفتح » ؛ فأخذ
 منه الرجل الجراب ومضى به إلى الحاكم ؛ وعرفه ما جرى له مع الرجل ، فقال له
 الحاكم : « خذ جرابك وامض إلى حال سبيلك » ؛ فلما أصبح الصباح ، فرأى
 الرجل ، الذي كان عنده الجراب ، مشنوقا على باب داره ، والناس يتحدّثون في أمره
 بسبب الجراب ، انتهى .

وفي أيامه ، في سنة أربع وسبعين وثلثماية ، توفّي الشيخ نور الدين على بن عمّان
 القيرواني ، قاضي قضاة مصر ، وكان شيعيًا ، وكان له شعر جيّد ، وهو معدود من
 شعراء مصر في النظم الرقيق ، فمن ذلك قوله :

سئم من الكافور بات معاتقى في حاتّين ، تعفّف وتكرّم
 فكّرت ليلة وصله في هجره فجرت بتايا أدمعى كالهمد
 فظفقت أمسح مقاتى في جیده إذ شيمة الكافور إمساك الدم
 ومن الحوادث في أيامه ، أنّ النيل لم يزد لا كثيرا ولا قليلا ، فقليل للحاكم إنّ
 هذا من فعل الحبشة ، قد حيّروا بحرى النيل ، فأمر بطارك النصار بأنّ يتوجّه إلى
 الحبشة ؛ فلما وصل البطارك إلى بلاد الحبشة ، ودخل على ملكهم ، أكرمه وسجد له ،
 وسأله عن سبب قدومه عليه ، فعرفه أنّ النيل قد نقص ، ولم يزد عندنا شيء ، وقد
 أضرّ ذلك بسكان مصر ، فأمر ملك الحبشة بفتح سدّ عندهم ، الذي يجرى منه إلى
 مصر ماء النيل ، لأجل أنّ البطارك قدم عليه ، فزاد النيل في تلك السنة زيادة قويّة ،
 حتى أوفى ؛ وأورد ذلك السبجى في تاريخه ، انتهى ذلك .

ومن الحوادث في أيامه ، أنّ في سنة سبع وثمانين وثلثماية ، بلغ النيل ستة عشر

(٤) وامض : وامضى .

(١٣-١٩) ومن الحوادث . . . انتهى ذلك : كتبت في الأصل على هامش صفحتي

(١٠٠ ب و ١٠١ آ) .

(١٩) أوفى : أوفى . || المسبجى : المسبجى .

- ذراعا وثلاثة أصابع وانهبط ، فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء بمصر ؛ فاجتمع الناس
 قاطبة تحت قصر الزمرّد ، يستغيثون بالحاكم أن ينظر في أحوال الناس ، فقال لهم :
 ٣ « إذا كان الغد ، أتوجه إلى جامع راشدة ، وأعود ، (١٠١ ب) فإن وجدت في
 طريقى مكانا خاليا من الغلة ، ضربت عنق صاحب ذلك المكان على بابه » ؛ فلما توجه
 إلى جامع راشدة ، وعاد بعد العصر ، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة ، إلا وحمل
 ٦ ما عنده من الغلال ووضعها في الطريق التي يمرّ من عليها الحاكم .
 فلما رجع من جامع راشدة ، وجد الغلال قد امتلأت بها الطرقات ، وشبعت أعين
 الناس ؛ ثم إنّه قرّر مع أصحاب الغلال ، أن أحدا لا يدخر في بيته شيئا من الغلال ؛
 ٩ ثم قرّر معهم سعر كل صنف من الغلال بثمن معلوم لا يزيد ولا ينقص ، فعند ذلك
 سكن الرهج الذي كانت فيه الناس ، ووقع الرخاء بمصر وسائر أعمالها ؛ وكان الحاكم
 شديد البأس ، إذا أمر بشيء ، لا يرجع عنه ، ولا يراد فيه ، وقد قيل في المعنى :
 ١٢ صاحب أخا الشرّ لتسطو به يوما على بعض صروف الزمان
 فالرمح لا يرهّب أنبوبه لا إذا ركب فيه السنان
 ومن الحوادث في أيامه ، أن جماعة من العربان وثبوا على كسوة الكعبة ،
 ١٥ وانهبوها جميعها ، فكسيت الكعبة في تلك السنة الشنفاص الأبيض ، وهذا من
 الغرائب ، فإن الكعبة ما كسيت شنفاص قطّ إلا في زمن الحاكم .
 ثم إن الحاكم عزل الوزير أبو نصر العلاجي ، واستقرّ بهلى بن أحمد الجرجاني ،
 ١٨ في الوزارة ، عوضاً عن أبي نصر العلاجي ، وكان من ذوى العقول ، فساس الناس
 (١٠٢ آ) أحسن سياسة .
 ومن الفسكت المنحكة ، قيل ، كان في زمن الحاكم قاض بمصر . يقال له النمطاح ،
 ٢١ وسبب ذلك أن كان له طرطور من جلد ، وفيه قرنان من قرون البقر ، فيضع هذا

(٦) التّى : الدى .

(٩) يزيد : يزد .

(١٢) لتسطو : لتسبوا .

الطارطور إلى جانبه ، فإذا جاءوه خصمان يتحاكمان عنده ، وجار أحدهما على الآخر ،
فيابس القاضي ذلك الطارطور الذي فيه القرنان ، ويتباعد وينطح الخصم الذي يجور
على صاحبه ، فعرف بالنطاح ، واشتهر بين الناس بذلك .

٣

فلما بلغ الحاكم أمره ، أرسل خلفه ، وقال له : « ما هذا الأمر الذي قد اخترعته
بين القضاة ، حتى قبحت سيرتك بين الناس » ؟ فقال له القاضي : « يا أمير المؤمنين ،
أشبهى أن تحضر مجلسي يوما ، وأنت خلف ستارة ، لتتظن ماذا أقاسى من العوام ،
فإن كنت معذورا فيهم ، وإلا عاقبني بما تختار » ؛ فقال له الحاكم : « أنا غدا
عندك ، وأحضر مجلسك ، حتى أرى ما تقول » .

٩

فلما أصبح الحاكم ، أتى إلى مجلس ذلك القاضي ، وقعد من خلف ستارة . فأتى في
ذلك اليوم إلى القاضي خصمان ، فادّعى أحدهما على الآخر بمائة دينار ، فاعترف له بها
المدّعى عليه ، فأمره القاضي بدفع ذلك إلى صاحبه ، فقال المدّعى عليه : « إني معسر
في هذا الوقت فقسّطوا عليّ ذلك على قدر حلي » ، فقال القاضي للمدّعى : « ما تقول » ؟
فقال : « أقسّطها عليه في كل شهر عشرة دنانير » ، فقال المديون : « أنا لا أقدر
على ذلك » ، فقال القاضي : « تكون خمسة دنانير » ، فقال المديون : « لا أقدر على
ذلك » ، فقال القاضي : « تكون دينارين » ، فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » ،
فقال القاضي : « يكون ديناراً » ، فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » .

١٥

فلا زال القاضي يخفض (١٠٢ ب) هذا القدر ، حتى قال له : « تكون عشرة
دراهم في كل شهر » ، وهو يقول : « لا أقدر على ذلك » ، فقال له القاضي : « وما القدر
الذي تقدر عليه في كل شهر ، فاعلم أن يرضى به خصمك » ؟ فقال المديون : « أنا
ما أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم في كل سنة ، بشرط أن يكون خصمي في السجن ،
لئلا يحصل معي هذا القدر ولم أجِدْ خصمي ، فيذهب مني » .

٢١

فلما سمع الحاكم ذلك ، لم يتألك عقله ، وخرج من خلف الستارة ، وقال للقاضي :
« انطاح هذا النحس ، وإلا أنا أنطاحه » ، وكان الحاكم أحمق من القاضي ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وثلاثمائة

فيها توفي أبو الشعمق، الشاعر، وكان أبو الشعمق هذا شاعرا ماهرا، صاحب
٣ نكت ونوادر، دخل مصر وامتدح المعز الفاطمي، وأولاده؛ وكان أبو الشعمق
صعلاوكا فقيرا، وكان يلزم بيته دائما، فإذا دق عليه أحد بابه، نظر من شق الباب،
فإن أعجبه القارع، خرج له، وإن لم يعجبه، لم يخرج إليه أبدا؛ قيل إن بعض
٦ أصدقائه دخل عليه، فلما رأى سوء حاله، فقال له: «أبشر يا أبا الشعمق، فإن
جاء في الحديث، أن العارفين في الدنيا، هم الكاسون في الآخرة»، فقال: «إن
كان ذلك حقاً، لأكون أنا يوم القيامة تاجرا في القماش والفرش»، وأنشأ يقول:

أنا في حال تهـالى الله ما أعجب حالى ٩

ليس لى شىء إذا ما قيل ذالى قلت ذالى

فأرأيت الله فرسى والسعوات ظلالى

ولقد أهزلت حتى تحت الشمس خيالى ١٢

(١٠٣ آ) ولقد أفلت حتى حلّ أكلى لعيالى

من رأى شيئا محالا فأنا كمل المحالى

١٥ وفى سنة إحدى وأربعائة، توفي فارس الحمصى الفزيرى، شيخ القراء، مؤلف

كتاب «المنتشا فى القراءات» وهو مذكور فى الشاطبية.

وفى سنة إحدى وأربعائة، توفي الحافظ ميسر، قال المسبحى: كان مع ميسر

١٨ درج، طوله سبعة وثمانون ذراعا، وهو مملوء الوجهين، فيه أوائل ما كان يحفظه

من أحاديث وأخبار وأشعار، وغير ذلك.

قال الشيخ شمس الدين الذهبي فى «تاريخ الإسلام»: إن فى سنة أربعائة،

٢١ تزايد طغيان الحاكم بأمر الله، حتى إنّه ادّعى الربوبية من دون الله تعالى، كما فعل

(١٥-١٦) وفى سنة . . . الشاطبية: كتب فى الأصل على هامش من (١٠٢ ب).

(١٧-١٩) وفى سنة . . . وغير ذلك: كتب فى الأصل على هامش من (١٠٣ آ).

(١٧) المسبحى: المسبحى.

فرعون ، فكان يحسن جماعة من عوام مصر الجهالة ، فكان إذا مرّ في الطرقت يسجدون له ، ويقولون : « يا عبي ، يا مميت » ، ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه .
 وكان يدعى أنّه يعلم علم الغيب ، فكان يقول لأمرائه ووزرائه : « يا فلان ، أنت فعلت في بيتك الليلة ، ما هو كيت وكيت » ، وكان ذلك بائناً يعتمده مع العجائز ، اللاتي يدخان إلى بيوت الأمراء والوزراء ، وغير ذلك من أعيان الناس ؛ فلما ترايد هذا الأمر منه ، كتب له بعض الناس رقعة ، ولصقها بالمنبر في مكان يقعد فيه ، وكتب فيها هذين البيتين ، وهما :

باجور والظلم قد رضينا وليس بالكفر والحقاقة
 إن كنت أوتيت علم غيب بين لنا كاتب البطاقة
 فلما قرأ تلك الرقعة ، سكت عن الكلام في أمر ما كان يدعيه في علم النغيبات .
 قيل : إنّ بعض العلماء أثبت لهؤلاء الناطقين نسباً فاسداً ، بأنهم من ولد فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهذا النسب ليس بصحيح ، وإنما هم من ولد ديسان بن سعيد ، وكان أصله مجوسياً . وقد وافق على ذلك جماعة من العلماء . منهم الشيخ أبي حامد الإسرايئي ، والشيخ أبي الحسن القدوري ، (١٠٣ ب) وغير ذلك من العلماء .

فكان الحاكم يذكر نسبه في كل جمعة على المنبر ، ويقول : « نحن أفضل من خلفاء بني العباس ، لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » .
 فكانت الناس ترفع إليه الرقاع في أسغالهم ، وهو على المنبر يخطب ، فرفعت إليه رقعة فيها هذه الأبيات :

إنّا سمعنا نسباً منكرا يتلى على المنبر في الجامع
 إن كنت فيما قاتته صادقا فأنسب لنا تلك كالمطاع

(١) عوام : أعوام .

(٥) اللاتي : التي .

(١١) لهؤلاء : لهذه .

- وإن ترم تحقيق ما قاتله فاذا ذكر لنا بعد الأب السابع
 دع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
 فإن أنساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامع ٣
- فلما قرأ تلك الرقعة ، غضب على أهل مصر ، وأمر العبيد بأن يحرقوا المدينة
 جميعها ، فأطلقوا فيها النار ، ونهبوا بيوت الناس ، وأخذوا أموالهم ، وسبوا النساء .
 واستمر هذا الأمر الشنيع بمصر والقاهرة ثلاثة أيام متوالية ، فضج الناس إليه ،
 واستناثوا به ، وطلع إليه العلماء والصلحاء ، يشفعون في الناس ، فعفى عنهم ، بعد ما
 احترق من المدينة نحو ثلثها ، ونهبت أموال الناس ، وسببت النساء ، وقتل من
 الناس ما لا يحصى ، وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب بمصر . ٤
- واستمر الحاكم على ما ذكرناه من هذه الأفعال الشنيعة ، ومخالفته للشريعة ،
 حتى قتل ؛ وكان سبب قتله ، أن أخته ست النصر ، لما زاد أخوها من هذه الأفعال
 الشنيعة ، أراد قتلها لأمر بانه عنها ، وكانت من النساء المدبرات ، فخرجت تحت
 الليل في الخفية ، وأنت إلى دار الأمير سيف الدين بن (١٠٤ آ) دواس ، وكان
 أكبر أمراء الحاكم ، فلما دخلت عليه ، اختلت به ، وعرفت أنه أخت الحاكم ،
 فبالغ في تعظيمها . ١٥
- فقال له : « أنت تعلم ما قد فعله أخى بالرعية من هذه الأفعال الشنيعة ، وقد عول
 على قتلى وقتلك ، وإذا عول على شيء فعله » ، فقال لها : « وما رأى في ذلك » ؟
 قالت : « تقتله » ، قال : « وكيف أقتله » ؟ قالت : « اندب إليه جماعة من العبيد يقتلونه
 إذا خرج إلى حوان ، فإنه ينفر في ذلك المكان بنفسه ، فيخرجوا عليه ويقتلوه هناك ،
 وتكون أنت المدبر للمملكة بعده ، وتوَلَّى ابنه الأمير على » ، فاتفقا على ذلك ، ثم
 مضت إلى قصرها . ٢١
- فلما أصبح الصباح ، خرج الحاكم على عادته إلى حوان ، وكان مشغوقا بحب
 (١٩) فيخرجوا . . . ويقتلوه : كذا في الأصل .

المطالب، مثل جدّه المعز؛ فلما خرج، أرسل الأمير سيف الدين بن دواس خلفه، عشرة
من العبيد السود النلاظ الشداد، وأعطى لكل عبد منهم خمسمائة دينار، وعرفهم
كيف يقتلونه، فسبقوه إلى حلوان؛ فلما نزل بالمقبرة التي هناك، خرجت عليه العبيد،
فقتلوه هناك .

فلما أبطأ خبره [على] غير العادة، خرجت جماعة من الحجاب، ومعهم الجنائب
بسبب الموكب، فصاروا يخرجون في كل يوم، ينتظرون رجوعه، منذ سبعة أيام .
فلما أبطأ عليهم، فوق السبعة أيام، خرج الأمير مظفر، الحاجب، ومعه العسكر،
وكان عسكر الحاكم ما بين ديلم، ومصامدة، وصقالبة، وروم، وعبيد زنج، فلما
وصلوا إلى آخر المقبرة التي بحلوان، وجدوا حماره الأشهب، المدعو بالقمر، وقد
قطعت يده ورجلاه، وعليه السرج واللجام .

فتبعوا أثر الحمار، فوجدوا ثياب الحاكم، وكان يلبس عليه سبع جبات صوف
أبيض، فأوا فيها آثار ضرب (١٠٤ ب) السكاكين، فلم يشكوا بعد ذلك في قتله،
فلما رجعوا إلى القاهرة، أشيع بين الناس قتله، فماجت القاهرة في ذلك اليوم، فما
سكنت حتى ولّوا ابنه الأمير على، وكان دون البلوغ - أورد ما ذكرناه هنا
ابن أبي حجلة في « السكردان » .

وكانت قتلة الحاكم في نصف شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة؛ وكانت مدة
خلافته بالديار المصرية والبلاد الشامية، خمسة وعشرين سنة، فكانت على الناس
أشدّ الأيام؛ وقتل في هذه المدة جماعة من العلماء، والفقهاء، وأعيان الناس،
ما لا يحصى عددهم، وقد سبّروا على أذاه هذه المدة، حتى فرّج الله عنهم، كما قيل في
المعنى :

ودهر قطعناه بضيق وشدة ونحن على نار قيام على الجمر
صبرنا له حتى أزيل وإنما تفرج أيام الكريهة بالصبر

قل الذمهي : لما قتل الحاكم، صاروا جماعة من الجهال المغفلين، من وادي التيم،

من نواحي الشام ، يعتقدون حياة الحاكم إلى الآن ، ويقولون إنه سيعود في آخر الزمان ، وهو المهدي ، ويخافون : « وغيبة الحاكم » ، وهذا من جهلهم ، انتهى ذلك . ٣

ذكر

خلافة الظاهر لدين الله على

ابن منصور بن نزار بن المزمع

وهو الرابع من خلفاء بني عبید الله الفاطمي بمصر ، تولى الخلافة بعد قتل أبيه الحاكم ، في شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، وتلقب بالظاهر لدين الله ؛ تولى الخلافة وله من العمر نحو ست عشرة سنة إلا أيام ؛ وكانت عمته ست النصر هي القائمة بأمور دولته ، والأمير سيف الدين بن دواس . ٩

فلما تولى (١٠٥٠ آ) الأمير على بن الحاكم ، اضطربت الأحوال في أيامه إلى الفاية ، واستولى على البلاد الشامية حسان ، شيخ عربان جبل نابلس ، وصار يستخرج خراج البلاد الشامية لنفسه ، ونزع أيدي العمال عنها . ١٢

وفي أيامه ، سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، توفي هاشم بن العباس المحمري ، الشاعر ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، ومن تشابهه القريبة ، قوله في البدر ، من أبيات :

كأنّ بياض البدر من خاف نخلة بياض بنان في اخضرار نقوش
وتوفي أيضا محمد بن القاسم بن عاصم ، الشاعر ، وكان شاعرا ماهرا ، وهو الذي امتدح كنفور الإخشيدى بقصيدة ، منها : ١٨

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها لكنهار قصت من عدله طربا
وفي سنة خمسة عشر وأربعمائة ، توفيت ست النصر ، أخت الحاكم ، وهي عمّة الظاهر لدين الله ، فظهر لها موجود عظيم من المال ، والجواهر ، والتحف ، والقماش ، ما لا يحصى لكثرته ؛ ووجد عندها أربعة آلاف جارية ، ما بين بياض وسود ٢١

ومولّدات ؛ ووجد عندها ثلاثون زيرا من اللازورد الصيني ، مملوءة من المسك
السيحقي ، وأما بقيّة الموجود ، فلم ينحصر لكثرتة .

ومن الحوادث في أيامه ، جاءت الأخبار من مكّة ، بأنّ رجلا أعجميا حضر إلى
مكّة في غير أوان الحجّ ، ومعه جماعة من الأعاجم ، فأقاموا بمكّة مدّة ، ثم إنهم
غفلوا الناس ودخلوا الحرم ، وقت القايّة ، وجاءوا إلى الحجر الأسود ، وكسروه
بالأطبار ، ثلاث قطع ؛ فأدركوهم الناس في (١٠٥ ب) الحال ، ومسكوكهم ، وقطعوا
أيديهم ، وصلبواهم على أبواب الحرم ؛ ثم أعادوا الحجر إلى مكانه كما كان ، ولعنوا
ما تكسّر منه ، وعملوا عليه طوق فضة ، وبقي آثار التكسير فيه إلى الآن ،
اقتمى ذلك .

وكان الظاهر لدين الله مغلوعا نرها ؛ ففي أيامه ، أذن للنصارى في إعادة ما كان
يعمل في ليلة الفطاس ، وكان جدّه المعزّ أبطّل ذلك في أيامه ، وكان من أجلّ المواسم
بمصر ، وكان يعمل في ليلة الحادى عشر من طوبقة ، وكان في تلك الليلة تجتمع
المسلمون والنصارى عند شاطئ النيل ، قبالة المقياس ، فتنصب هناك الخيام من جانبي
النيل ، وتوضع فيها الأسرة لأعيان القبط ، وكان البحر يمتلئ بالراكب من سائر
المسلمين والنصارى .

فلما يدخل الليل ، تزيّن الراكب بالقناديل ، وتشعل فيها الشموع ، وتشعل
المشاعل على الشواطىء ، فكان يوقد في تلك الليلة أكثر من ألف مشعل ، وألف
فانوس ؛ وكان ينفق في تلك الليلة ما لا يحصى من الأموال ، في مأكل ومشرب ؛
وتنزل أعيان الأقباط في الراكب ، وتتجأهر الناس بشرب الخمر ، وتجتمع أرباب
المغاني والآلات ، وأرباب الملاعب من كل فنّ ، ويخرجون الناس في تلك الليلة عن
الحدّ في اللهو والقصف ، ولا يفلق فيها دكان ، ولا درب ، ولا أسواق .

(١٠) مغلوعا : كذا في الأصل . // إعادة : إعاد .

(١٣) المسلمون : المسلمين .

(١٧) يوقد : يقد . // مشعل : مشلا .

(١٨) فانوس : فانوسا .

وكانوا يتهادون رؤساء الأقباط في تلك الليلة ، بأطيان القصب ، والبورى ،
والحاوى القاهرية ، والكشرى ، والتناح الفتحي ، والسفرجل ، والأترج ، والنافرج ،
والايمون ، (١٠٦ آ) وباقات النرجس ، وغير ذلك من الأنواع اللطيفة ، وكانوا
يفطسون بعد المشاء قبالة المقياس ، ويزعمون أن من يغطس في تلك الليلة ، لا يضعف
في تلك السنة .

٦ فلما كان وقت الغطاس ، نادى الخليفة الظاهر ، بأن لا يختلط الفصاري مع
المسلمين عند الغطاس ؛ وكان الخليفة الظاهر تلك الليلة في قصر جدّه المعزّ ، الذي
يشرف على البحر ، يتفرّج على المهرجان الذي يحصل في تلك الليلة ؛ وكان المعزّ أبطال
٩ ذلك من سنة اثنتين وستين وثمانماية .

وكانت الوزراء في يوم خميس العدس ، يضربون خرايب من ذهب ، ويفرقونها
على أرباب الدولة ، برسم التبرك بها ، وكان يضرب منها نحو خمسمائة مثقال ، فبطل
١٢ ذلك في دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وفي سنة عشرين وأربعمائة ، توفى الشيخ عبد الجبار بن أحمد الطرسوسى ،
شيخ القراء ، مات في غزوة .

١٥ ومن الوقائع الغريبة ، أن في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، نقص النيل قبل
الوفاء ، وانهبط ، ثم زاد بعد أوانه بأربعة أشهر ، وهذا من الغرائب التي لم يسمع بمثها .
وفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، كانت وفاة الإمام العالم العلامة عبد الوهاب
١٨ ابن على بن نصر أبو محمد البندادى ، أحد أئمة المالكية المجتهدين ، ولى القضاء بمصر
في الدولة الناطمية ، ومات في تلك السنة ، ودفن بالقرافة ، بالقرب من النقطة ، والدعاء
عند قبره عجاب ، ويزار في كل جمعة ؛ وكان له نظم جيّد ، فمن ذلك قوله وأجاد :

٢١ يزرع وردا ناخرا ناظرى في وجنة كالقمر الطالع
فلم منعّم شفتى قطفها والحدّ أن الزرع للزراع

وقوله أيضا :

ونائمة قبلتها فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا الناس بالحد
فقلت لهما إني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد
(١٠٦ ب) وقوله في الغزل :

وتفاحة من كف ظبي أخذتها جناها من الغصن الذى مثل قدّه
لها لمس خديّه وطيب نسيه وطعم ثنياه وحمرة خدّه

ومما وقع للخليفة الظاهر هذا ، من المساوىء الشنيعة ، قال ابن المتوج : إن في
سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة ، نادى الخليفة الظاهر في القاهرة ، بأن الجوار التي في
مصر والقاهرة ، تجتمعن عن آخرهن ، وأن تزين بأحسن الملابس ، ويحضروا بهن إلى
قصر الخليفة ، فصار كل من كان عنده جارية ، يلبسها من أحسن الأثواب الفاخرة ،
ويحضرها إلى قصر الخليفة .

فلما تسكامل جمعهن ولم يبق بمصر والقاهرة جارية ، فأمر بأن يجعلن في مجلس ،
ويسد عليهن باب المجلس ، فبنى عليهن أبواب المجلس ، وتركهن ستة أشهر ، ثم بعد
ذلك أضرم عليهن النار ، حتى أحرقهن عن آخرهن ، وكان عدتهن ألفين وستمائة
وستين جارية ؛ ولم يقع لأبيه الحاكم مثل هذه الواقعة ، مع وجود ظلمه وجوره في
الناس ، انتهى ذلك .

قال ابن المتوج : فلما فعل الظاهر هذه الفعلة ، لم يقم بعدها سوى ثلاث سنين ونصف
ومات ، وكانت وفاته في يوم الأحد خامس عشر شعبان ، سنة سبع وعشرين وأربعمائة ؛
وكانت مدة خلافته بمصر خمس عشرة سنة وتسعة أشهر ؛ وكانت مساوئه أنحس من
مساوىء أبيه الحاكم ؛ ولما مات تولى بعده ابنه المستنصر بالله أبي تميم ، انتهى
ما أوردناه من أخبار الظاهر لدين الله .

(٧) الجوار : كذا في الأصل ، ومعنى : الجوارى .

(١١) ولم يبق : ولم يبق .

(١٨) خمس عشرة : عشرين .

ذكر

خلافة المستنصر بالله أبي تميم (١٠٧٠ آ) معد

٣ ابن الظاهر لدين الله على بن منصور الحاكم بأمر الله

وهو الخامس من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي بمصر، بويع بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر، في يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة؛ فلما تولى الخلافة، كان له من العمر سبع سنين وعشرين يوما، وكان مولده بالقاهرة سنة عشرين وأربعمائة.

٩ ولما تولى المستنصر هذا، تعصب له البساسيري، وخطب له على منابر بغداد، مع وجود خلفاء بني العباس، وهذا لم يقع لأحد من خلفاء بني عبيد الله.

فلما تم أمر المستنصر في الخلافة، أخلع على القاضي أبي محمد الحسن بن علي البازوري، واستقر به وزيرا، وقاضى القضاة الشافعية، وهو أول من جمع بين الوزارة وقضاة الشافعية، ولما تولى الوزارة تلقب بالناصر لدين الله، وكانت الوزراء يومئذ تتلقب بألقاب الخلفاء، وأمر له المستنصر بأن ينقش اسمه مع اسمه على الدينار والدراهم، فنقش اسمه عليها؛ وفي ذلك يقول الشاعر عن لسان الدينار والدراهم، وهو قوله:

١٥ ضربت في دولة آل المهدي من آل طه وآل ياسين
مستنصر بالله عز اسمه وعبد الناصر للدين

ثم إن المستنصر قبض على أبي نصر العلاجي، الوزير، واعتقله بخزانة البنود، وأحاط على موجوده، ثم قطع رأسه، ودفنها بخزانة البنود، وكان الذي رافع في أبي نصر العلاجي، شخص يسمى ابن الأنباري.

٢١ فلما مضى أمر العلاجي، أقام (١٠٧ ب) ابن الأنباري بعد قتل العلاجي مدة يسيرة، وقبض عليه المستنصر، واعتقله بخزانة البنود، ثم إن المستنصر أمر بقطع رأس ابن الأنباري، فلما أرادوا أن يحفروا له حفرة ليواروه فيها، ظهر لهم في الحفرة

(٦) عشرين : ثمان عشرة .

(١٩) شخص : شخصا . . .

رأس ، فسألوا ابن الأنبارى عن هذه الرأس ، لمن هى ؟ قال : « هذه رأس أبى نصر
العلاجى ، وأنا قتلتها ، ودفنت رأسه هنا » ؛ فلما أرادوا قطع رأس ابن الأنبارى ،
أنشد يقول :

٣

ربّ لحد قد صار لحد مرارا ضاحكا من تراحم الأضداد
ثم قطعوا رأس ابن الأنبارى ، ودفنوها على رأس أبى نصر العلاجى ، والمجازاة
من جنس العمل ، انتهى ذلك .

٦

وفى أيامه ، سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، توفى الشيخ أبو القاسم الصامت ، وكان
من الأولياء الزهاد .

٩

وفى سنة أربعين وأربعمائة ، توفى الحافظ أبو الحسن بن عبد الله بن محمود بن
صهيب المصرى ، المعروف بالزجاج ، صاحب النسائى ، وكان من الثقات فى الحديث .
ومن الحوادث فى أيام المستنصر بالله ، أن فى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، أخذ
قاع النيل ، فجاءت القاعدة ثلاثة أذرع وأحد عشر أصبعا ، وبلغت الزيادة فى تلك
السنة اثنتى عشرة ذراعا ، ثم انهبط ، فشرقت البلاد ، وحصل على الناس ما لا خير
فيه ، ووقع الغلاء العظيم ، فكان يعادل الغلاء الذى وقع فى زمن يوسف عليه السلام .

١٢

واستمرّ هذا الغلاء سبع سنين متوالية ، فأكات الناس بعضها بعضا ، حتى قيل
أبيع القمح بثمانين دينارا كل أردب ، ثم اشتدّ الأمر حتى أبيع كل أردب بمائة
وعشرين (١٠٨ آ) دينارا ، ثم اشتدّ الأمر حتى أبيع كل رغيف فى زقاق القناديل ،
بخمسة عشر دينارا ؛ وأكات الناس الميتة والكلاب والقطط ، حتى قيل أبيع كل
كلب بخمسة دنائير ، وأبيع كل قطّ بثلاثة دنائير - أورد ذلك ابن أبى حجلة فى كتاب
« السكردان » كما ذكر هنا .

١٨

وقيل إن الكلب كان يدخل الدار ، فياكل الطفل وهو فى المهد ، وأمه وأبوه
ينظران إليه ، فلا يستطيعان أن ينهضا لدفع الكلب عن ولدهما من شدة الجوع ؛

٢١

(١) رأس : رأسا .

(٢٠) ذكر : ذكره .

ثم اشتدَّ الأمر ، حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبجه ويأكله ، ولا ينكر عليه ذلك بين الناس ؛ ثم اشتدَّ الأمر ، حتى صار الناس إذا مروا في الطرقات ، وقوى القوى على الضعيف ، فيذبجه ويأكله جهارا . ٣

وصارت طائفة من العوام ، يجلسون على السقائف ، وبأيديهم حبال فيها كلاليب ، فإذا مرَّ بهم أحد من الناس ، ألقيوا عليه تلك الحبال ، ونشأوه بالكلاليب في أسرع وقت ، فإذا صار عندهم ، ذبحوه في الحال وأكلوه بعظامه . ٦

وقيل إنَّ الوزير ركب يوما على بغلة ، وتوجَّه إلى دار الخلافة ، فلما نزل عن البغلة ، أخذت من غلامه ، وأكلت في الحال ، فأمسكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم ، وعلَّقوهم على الخشب ، فلما باتوا أصبحوا فلم يجدوا أحدا من المشائيق ، وقد أكلوا من على الخشب - هكذا نقله ابن أبي حجلة . ٩

قال بعض المؤرخين : كان بمدينة الفسطاط حارة ، تسمَّى حارة الطبق ، وكان فيها نحو عشرين دارا ، كل دار تساوى في الثمن ألف دينار ، فأبيعت هذه الحارة كلها بطبق خبز ، كل دار برغيف ، فسميت من يومئذ : حارة الطبق . ١٢

وقال ابن الجوزي : باغى أن امرأة خرجت من مدينة الفسطاط ، ومعها ربع من اللؤلؤ ، وقالت (١٠٨ ب) : « مَنْ يأخذ مني هذا الربع اللؤلؤ ، ويعطيني عوضه قمحا ؟ » فلم تجد مَنْ يأخذ منها ، ويعطيها عوضه قمحا ، فلما أعييت من الطلب ، ألقتة على الأرض ، وقالت : « إنَّ لم تنفعني وقت الحاجة ، فلا حاجة لي بك » ، وتركته ومضت ، فأقام مرميًّا على الأرض ثلاثة أيام ، ولم يجد مَنْ يلتقطه من الناس - نقل ذلك المقرئ في السلوك . ١٨

قال الشيخ تاج الدين بن المتوج : إنَّ امرأة من ذوى البيوت ، أخذت عقدا من الجواهر ، قيمته ألف دينار ، فعرضته على جماعة من الناس ، بأنَّ يعطوها عوضه دقيقا ، فلم تجد مَنْ يعطيها به دقيقا ، ثم إنَّ بعض الناس عطف عليها ، وأعطاهما بذلك العقد ٢١

(١٨) مرميا : مرمى .

(٢٢) يعطيها : يعطيها .

دقيقا في جراب ، ومشت به من مدينة النسطاط إلى بابي زويلة ، فلما علم الناس أن معها دقيقا ، تكاثروا عليها ، وانتهبوه منها ، فأخذت منه بجملة الناس ملء يديها ، فلما وصلت به إلى بيتها عجنته رغيفا وخبزته ، ثم أخذته على جريدة ، وتوجهت به إلى ٣ تحت قصر الزمرّد ورفعته ، ونادت بأعلا صوتها ، وقالت : « يا أهل القاهرة ، ومصر ، ادعوا للخليفة المستنصر بالله بالنصر ، الذي أكلنا الرغيف في أيامه بألف دينار » .

فلما سمع المستنصر ذلك تأثر منه ، وأحضر الوزير والحاجب وهدّدهما بالشنق ، ٦ وقال : « إن لم يظهر الخبز في الأسواق ، وإلا شنقتكما » ؛ فنزلا من عنده ، وصارا يكبسان البيوت والحارات بسبب القمح ، حتى ظهر الخبز في الأسواق ، وكثر في الدكاكين . ٩

ثم أعقب هذا الغلاء فناء عظيم ، حتى فنى من أهل مصر نحو الثلث ، فكان ١٢ الجندى يتوجّه بنفسه ، هو ومن بقى من خشداشينه ، وينزل بلده ، ويحرق هو وخشداشينه ، ويزرعون ، وذلك لعدم الفلاحين .

واستمرّ هذا الفناء يعمل في الناس نحو عشرة أشهر ، حتى قيل كان الرجل يمشى ١٥ من جامع ابن طولون إلى بابي زويلة فلم يرَ في وجهه (١٠٩ آ) إنسانا يمشى في الطرقات ، حتى قيل فنى من الناس نحو النصف .

فلما تعطلت البلاد من عدم الفلاحين ، تعذّر صرف جوامك الجند ، فكان ١٨ المستنصر بالله يخرج من الخزائن السلاح والقماش والتحف ، ويقيمها على الجند من جوامكهم بقدر معلوم .

قيل إنه باع ثمانين ألف قطعة من الجواهر والياقوت ؛ وباع خمس وسبعين ألف ٢١ شقة حرير ، مرقومة بالذهب ؛ وباع عشرين ألف سيف مسقطة بالذهب ؛ وباع إحدى وعشرين دارا وضيعة ؛ حتى باع رخام قبور أجداده .

ولم يبق عنده من آثاره النعمة ، سوى سجادة رومى يقعد عليها ، وبقباب في

(١٤) فلم ير : يرى .

(٢٠) سيف : سيفاً .

(٢٢) ولم يبق : ولم يبق .

رجله ، فكان إذا نزل من قصره يستعير من الوزير بغلته ، حتى يركبها ويقضى أشغاله ، ثم يعيدها إلى الوزير ؛ وكانت أخته ترسل إليه كل يوم زبديّة فيها طعام ، حتى يقتات به في اليوم مرّة واحدة ؛ ولم يبق عنده عيال ولا خدم .

وَجَرى عليه ما لا جرى على أحد من أقاربه ، لكن أقام في الخلافة مدّة طويلة ، لم تقع لأحد من الخلفاء قبله ، وقاسى محنا عظيمة ، كما قيل في الأمثال : من أراد البقاء في الدنيا ، فليطمئن نفسه على المصائب .

ثم بعد ذلك ، تراجع الأمر قليلا ، قليلا ، وانصلحت الأحوال ، ووقع الرخاء ، وانحطّ سعر القمح ، ووردت الأموال من البلاد ، ورجع الماء إلى مجاريه ، وحسنت الأوقات ، كما قيل في المعنى :

الدهر لا يبتقى على حالة لا بدّ أن يُقِيمَل أو يُدِيرَا
فإنّ تلتقأك بمكروهة فاصبر فإنّ الدهر لن يصبرا

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة

فيها ، في ليلة الخميس سابع عشر ذى القعدة ، توفّي القاضي أبو عبد الله محمد ابن سلامة بن جعفر القضاعي ، توفّي القضاء بمصر في (١٠٩ ب) دولة الفاطميين . وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، شنق الكوراني الذي ادّعى أنّه المهدي ، وشنق معه أتباعه ، وادّعت زوجته أنّها حامل منه ، فحبست سبع سنين ، وكانت تدّعي أنّ الجنين يتكلّم في بطنها ، ثم أطلقت بعد ذلك .

وفي سنة ستين وأربعمائة ، توفّي الشيخ شرف الدين يحيى بن محمد الصاعدي ، ومولده سنة إحدى وأربعمائة ، ودفن بالريّ .

وفي سنة تسع وستين وأربعمائة ، توفّي الشيخ الصالح أبو الحسن بن باشار المصري الجوهري ، كان من كبار الأولياء ، سقط من سطح جامع عمرو ، فمات من يومه ، ودفن .

(٣) ولم يبق : ولم يبق .

(١٥-١٧) وفي سنة . . . بعد ذلك : كتب في الأصل على هامش س (١٠٩ آ) .

(١٨-١٩) وفي سنة . . . بالريّ : كتب في الأصل على هامش س (١١٠ آ) .

(٢٠-٢١) وفي سنة . . . ودفن : كتب في الأصل على هامش س (١٠٩ ب) .

- وفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، فيها في جمادى الآخرة ، توفى الشيخ أبو القسم
على بن محمد المصيصي ، وكان مولده بمصر ، في رجب سنة أربعمائة ، ومات بدمشق في
٣ تلك السنة ، وكان من أعيان فقهاء الشافعية ، انتهى ذلك .
- ثم إن المستنصر بالله أقام في الخلافة حتى توفى ، وكانت وفاته باكر يوم الخميس
ثاني عشر ذي حجة ، سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، ومات وله من العمر نحو ثمان
٦ وستين سنة ؛ وتولى الخلافة وهو ابن سبع سنين ، وكانت مدة خلافته بمصر ستين
سنة وأربعة أشهر ، ولم تقع هذه المدة لأحد قبله ولا بعده من الخلفاء الفاطمية ،
ولا العباسية ، ولا ملوك الترك ، انتهى ما أوردناه من أخبار المستنصر بالله ، وذلك
٩ على سبيل الاختصار ؛ ولما مات المستنصر بالله ، تولى بعده ابنه أحمد المستعلي .

ذكر

خلافة المستعلي بالله أحمد

- ١٢ ابن المستنصر بالله بن الظاهر بن الحاكم
- وهو السادس من خلفاء بني عبید الله ؛ بويغ بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر ،
في ثاني عشر ذي حجة ، سنة سبع وثمانين وأربعمائة .
- ١٥ وفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، توفى الوزير بدر بن عبد الله الجمالي ؛ وولى
عوضه ابنه الأفضل شاهنشاه .
- وفي أيامه ، سنة إحدى وتسعين وأربعمائة ، جاءت الأخبار ، بأن الفرنج استولوا
١٨ على بيت المقدس ، وملكوه ، وقتلوا جماعة كثيرة من أهل المقدس ؛ ونهبوا قبة
الصخرة ، وأخذوا منها نحو أربعين قنديلا من الذهب والفضة ، وزن كل قنديل ألف
درهم ؛ وأخذوا التّور النحاس الكبير ، وأقاموا مالكيين بيت المقدس نحو ثلاث
سنين .

ومن الحوادث في أيامه ، أن الشمس كسفت وقت الظهر ، (١١٠ آ) حتى أظلمت الدنيا ، وظهرت النجوم ، وأقامت في الكسوف أربعين درجة .

٣ وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، توفي الشيخ أبو الحسن الموصلي ، المعروف بالخاملي ، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية ، وكان يبيع الخلع للخلفاء في الأعياد ، فعرف بذلك .

٦ واستمر الخليفة المستعلى في الخلافة ، حتى مات ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ؛ وكانت مدة خلافته بمصر سبع سنين وشهرين ؛ ولما مات تولى بعده ابنه منصور ، انتهى ما أوردناه من أخبار المستعلى بالله ، على سبيل الاختصار . ٩

ذكر

خلافة الأمر بأحكام الله أبي علي منصور

ابن المستعلى بالله

١٢

وهو السابع من خلفاء بني عبيد الله بمصر ؛ بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستعلى ، في يوم الاثنين تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة .

١٥ وكان صغير السن ، طائش العقل ، تجاهر بالمنكرات ، واشتغل بسماع الزمور ، وحرب الخمر ، وأنشأ له قصرًا بالروضة ، على شاطئ النيل ، وسماه : الهودج ، وأنشأ حوله بستانًا ، وسماه : المختار ؛ وصار ينزل إلى ذلك القصر ، واشتغل به عن أحوال المملكة ، وصار الناس مثل الغنم بلا راع ، فعند ذلك اضطربت أحوال مصر . ١٨

وفي سنة ثلاث وخمسمائة ، توفي القاضي شرف الدين يحيى بن محمد بن إبراهيم ابن محمد بن نوح بن زيد التموخي ، صاحب التآليف الغريبة ، وكان مولده سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة . ٢١

وجاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مدينة عسكًا ، وطراباس ، ونابلس ،

وانقطع الدرب الشامي من السلوك ، وأشرف ملك الفرنج على أخذ مصر ، ووصل إلى العريش ، وكان ملك الفرنج يسمى : بردويل .

فلما وصل إلى العريش ، مرض هناك مرضاً شديداً ، ومات بالعريش ؛ فكتم أصحابه موته خوفاً من المسلمين ، وشقوا بطنه ، وأرموا مصارينه ، ودفنوها بالعريش . وقد صار من (١١٠ ب) يومئذ لا يمر أحد من المسافرين بالعريش ، إلا ويرجم ذلك المكان ، الذي دفنت فيه مصارين بردويل ، وسميت إلى الآن سبخة بردويل ؛ وأما جثته فحملت إلى بيت المقدس ، ودفنت بالقيامة التي هناك .

وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة ، في رمضان ، قتل الوزير الأفضل أبو القاسم شاهنشاه ، قتله بعض الفداوية ، وهو راكب في بعض أشغاله .

والأفضل هذا ، هو الذي بنى الجامع بثمر الإسكندرية ، عند سوق العطارين . قال ابن خلكان : لما قتل الأفضل ، وجد له من الأموال ستمائة ألف دينار ذهب عين ، ومن الفضة مائتين وخمسين أردباً ؛ ومن القماش سبعين ألف ثوب حرير ، ملون ؛ ودواة مرسعة بنصوص ، قومت باثني عشر ألف دينار ؛ ووجد عنده خمسمائة صندوق ما يعلم ما فيها .

ولما قتل الأفضل ، تولى عوضه في الوزارة أبو عبد الله الأقر ، وهو الذي بنى جامع الأقر ، الذي في الأمشاطيين عند سوق مرجوش .

وفي هذه السنة ، توفي الشيخ شمس الدين محمد بن إسحق بن أسباط الكندي النحوي ، وكان إماماً في النحو .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي في « العبر » : إن في سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، سلسل النيل في الزيادة إلى بعد مضي النوروز بتسعة أيام ، وبلغت الزيادة في تلك السنة ثلاثة عشر ذراعاً إلا ثلاثة أصابع ، فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء بمصر ، وعدمت الأقوات وتناهى سعر القمح إلى ثلاثين ديناراً كل أردب ، وأكاث الناس بعضها بعضاً ، واستمر الحال على ذلك نحو سنة .

- قيل : هجم رجل على بعض المغاربة وهو يأكل في رغيغ ، فلما رآه أقبل ستر الرغيغ منه ، فقال له الرجل : « أما سمعت في الحديث ، طعام واحد كافى اثنين » ؟ فقال له المغربى : « يا أخى ، ذاك فى ضوء السراج ، إذا كان لواحد يكفى جماعة ، وأما فى هذا الرغيغ (١١١ آ) فلا أطعمك منه لقمة » .
- ولما سلسل النيل فى الزيادة ، نسبوا ذلك من فعل الحبشة أنهم حيروا مجرى النيل ، فرسم الخليفة الأمر بأحكام الله لبطارك النصارى ، أن يتوجه إلى بلاد الحبشة بسبب مجرى النيل ، فتوجه البطارك إلى بلاد الحبشة ، ولم يند من ذلك شيئاً .
- وفى هذه السنة شرع الأمر بأحكام الله فى بناء جامعته الذى فى الحسينية ، يعرف بالجامع الأنور .
- وفى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، قبض الأمر على الوزير أبو عبد الله الأقر ، وصادره وأخذ جميع أمواله ؛ فظهر له من الأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة صندوق ، ما بين ذهب عين ، ودراهم فضة ، وجواهر فخرية ؛ ووجد عنده مائة برنية مملوءة من الكافور المنصورى ، الذى لا يوجد ، ومن العود القارى مائة من ؛ ووجد عنده ثلثماية صندوق فيها قماش جسمه ، ما بين سكندرى ودق تيس ، وحرير ملون ، وغير ذلك من سائر الأنواع الغريبة .
- ثم قتل أبو عبد الله الأقر ، واستقر فى الوزارة بعده المأمون البطائعى ، فأقام فى الوزارة نحو سنة ، وقبض عليه الأمر وصلبه ، واحتاط على موجوده ، من غير ذنب يصدر منه .
- فلما قتل المأمون البطائعى ، لم يلبث الأمر بعده إلا مدة يسيرة ، وقتل ، وهو راجع من الروضة على الجسر ، الذى كان ينصب برسم الخلفاء ، يمشون عليه من غير تعدية ، فوثب عليه هناك جماعة من العبيد الزنج ، فقتلوه بالخنجر تحت الليل ، وهو سكران ، فحماوه إلى عند قصره ، فمات فى تلك الليلة .
- وكانت قتلاته فى ليلة الثلاثاء ، فى العشرين من ذى القعدة سنة أربع وعشرين

وخمسةائة ؛ وكانت مدة خلافته بمصر تسع وعشرين سنة (١١١ ب) وعشرين ، ولما قتل مات من غير ولد .

٣ فلما أصبح يوم الثلاثاء ، وأشيع بين الناس قتل الأمر ، فاضطربت أحوال القاهرة ، وماجت بأهلها .

٦ فوثب على الناس غلام أرمنى من ممالك الأمر ، واستحوذ على خزائن الأموال ، وقصد أن يأخذ الخلافة لنفسه باليد ، ونهب بيوت أعيان الناس .

٩ فحضر الوزير أبو على أحمد بن الأفضل شاعنشا ، وأخرج عبد المجيد بن المستنصر بالله ، من دور الحرم ، وولاه الخلافة ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الأمر بأحكام الله ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

خلافة أبي الميمون عبد المجيد

الحافظ لدين الله ابن المستنصر بالله

١٢

وهو الثامن من خلفاء بني عبيد الله الفاطمى ؛ بويع بالخلافة بعد قتل ابن عمه الأمر بأحكام الله .

١٥ وكان الحافظ هذا رجلا حليما لينا الجانب ، قليل الأذى ، فطمت فيه الرعية ، واضطربت الأحوال فى أيامه ، واستولت الفرنج على غالب البلاد ، وطمع الفلاحون فى أهل مصر ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، وتعطل جوامك الجند ، فكان كفايل : « الحليم مطية الجاهل » .

١٨

قال الكندى : لما طالت دولة الفاطمية على الناس ، كتب إليهم بعض الشعراء هذين البيتين ، وهما :

٢١ احذروا من حوادث الأزمان وتوقوا طوارق الحـدنان
قد أمنتم من الزمان ونتم ربّ خوف مكن فى أمان

(١٩-٢٢) قال الكندى . . . فى أمان : كتبت فى الأصل على هامش من (١١١ ب) .

وفي أيامه ، سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، كانت وفاة ظافر الحداد الإسكندراني ، وكان من أعيان الشعراء ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

٣ ونقرّ صبح الشيب ليل شبّيتي كذا عادتني في الصبح مع من أحبّه
وقد عدّ هذا البيت من المرقص .

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، توفّي أبو النعمر محمد بن علي الهاشمي الإسفرائي ، وكان من أعيان الشعراء ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله (١١٢ آ) :

٩ إن قلّ مالي فلا خِلّ يصاحبني وإن زاد مالي فكل الناس خِلاني
كم من غريب لأجل المال صاحبني وصاحبني حين راح المال خِلاني
وقوله أيضا :

١٢ عذراء تفتّر عن درّ على ذهب إذا صببت بها ماء على لُهب
وافي إليها سنان الماء يطعمها فاستلأمت زردا من فضّة الحب
وفي هذه السنة ، أهدى ملك الفرنج هديّة إلى الحافظ ، من جملة ما دبّ أبيض ، وشعره مثل شعر السبع ، وكان ينزل البحر ، ويصيد السمك ، ويأكله .

وفي أيام الحافظ ، دخل مصر شخص يقال له أبو عبد الله الأندلسي ، وكان له يد طائلة في علم السيمياء ، فأحضره الحافظ بين يديه ، وقال له : « أرينا شيئا من علم السيمياء » ، فامتنع من ذلك ، فألجّ عليه في ذلك ، فقال له : « غمّض عينك وافتحها » ، فغمّض عينه وفتحها ، فرأى ساحة القصر كأنها لجة ماء ، وفيها سفينة كبيرة ، وحولها شوانى حربية ، فوقع بينهما الحرب والقتال ، فكانت السيوف تلمع ، والقسي ترمي بالسهم ، والبنود تخرج ، والرؤوس تهتر ، والدماء يسيل ، فلا يشكّ الناظر في حقيقة ذلك ؛ ثم إن أصحاب السفينة ، سلموا إلى أصحاب الشوانى ، فساروا بها والطبول تضرب ، والبوقات ترعق ، حتى غابوا عن الأبصار ، ثم ذهبت تلك اللجة الماء التي كانت في القصر ، وعاد كما كان .

(١٥) أرينا : كذا في الأصل .

فلما رأى الحافظ ذلك ، تعجّب منه ، وكان حوله جماعة من خواصّه ، فأشاروا
بقتل الشيخ أبي عبد الله ، وقالوا : « هذا يفسد على الناس عقولها » ، فلم يوافقهم
الحافظ على قتله ، ثم قال للشيخ أبي عبد الله : « أرني شيئا في هؤلاء الذين أشاروا
بقتلك » ، فقال الشيخ : « آمروهم ، يمضوا إلى منازلهم » .

فلما انصرفوا ، صار كل من أراد أن يركب دابّته ، يراها مثل الثور العظيم ، ولها
في رأسها قرون طوال ، فتحيّروا من ذلك ، ورجعوا إلى الحافظ ، (١١٢ ب)
وذكروا له ما جرى لهم في دوابّهم ، فضحك ، وقال : « أفدوا دوابكم منه بشيء » ،
فما منهم إلا من أعطاه شيئا حتى أطلق لهم دوابّهم .

قال الذهبي : إنّ الحافظ كان يشتكى بالحم القولنج ، فصنع له الحكيم شبرماه
الديلمي ، طبل باز مركّب من المعادن السبعة ، وهو مرصود في أوقات معلومة ، وكان
من خاصية هذا الطبل ، إذا ضرب عليه أحد ، خرج من جوفه ريح ، فيذهب عنه
القولنج .

فلما تولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على الديار المصرية ، استعرض حواصل
الخلفاء الناطمية ، فوجد فيها هذا الطبل في علبة ، فأخذه بعض الأكراد ، وضرب
عليه ، فخرج منه ريح ، فحنق من ذلك ، وأرمى الطبل من يده على الأرض ، فانكسر
وبطل فله ، فندم على كسره صلاح الدين بن أيوب ؛ غاية الندم ، انتهى .

واستمرّ الحافظ لدين الله في الخلافة بمصر حتى مات ، فكانت وفاته في جمادى
الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ؛ وكانت مدّة خلافته تسع عشرة سنة وسبعة
أشهر .

ولما مات تولى بعده ابنه الظاهر بالله ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الحافظ لدين

الله ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

خلافة الظافر بالله أبي المنصور إسماعيل

ابن الحافظ بن المستنصر بالله

٣

وهو التاسع من خلفاء بني عبید الله الناطمی؛ بويع بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ، وكان له من العمر لما تولى الخلافة سبع عشرة سنة، وكان شاباً جميل الصورة، حسن الهيئة، وكان يميل إلى الهمو والطرب.

وكان يهوى ابن وزيره عباس، وامتحن به، وكان ينزل إلى بيت الوزير ويبات عنده (١١٣ آ) في غالب الأوقات؛ قيل إنه أهدى إلى ابن الوزير في بعض الأيام عشرة آلاف دينار، ومصحف بأور فيها ألف حبة من اللؤلؤ الكبار، وألف ناختة من المسك، فلم يشمر شيئاً من ذلك مع الوزير، ولا ابنه، ولا زالوا على الظافر، حتى قتلوه أشر قتلة، كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه.

١٢

ومن الحوادث في أيامه، أن في سنة تسع وأربعين وخمسمائة، نقلت رأس الحسين ابن الإمام علي، رضي الله عنهما، إلى مصر، وبني لها الظافر المشهد الموجود الآن؛ وكانت رأس الحسين أولاً بكر بلاء، مكان قتل فيه، ثم نقلت من كربلاء إلى دمشق،

١٥

ثم نقلت من دمشق إلى عسقلان، فلما استولوا الفرنج على عسقلان، خاف المسلمون على رأس الحسين من الفرنج، فرسم الظافر بنقلها إلى مصر، فنقلت في تلك السنة. قيل إن رأس السيد الحسين لما نقلت من عسقلان إلى القاهرة، أحضرت في علبة

١٨

مناقة يجلد، فأثزلوها أولاً في مسجد موسى، الذي يعرف بالركن الخناق، فأدلمت به مدة حتى بني لها المشهد الموجود الآن، ثم نقلت إليه بعد ذلك.

ومن الحوادث في هذه السنة، جاءت الأخبار من بلبيس برؤية هلال الفطر،

٢١

وثبت ذلك بعد مضي صلاة العصر، فصأت الناس صلاة عيد الفطر بعد العصر،

(٧) وبيات: كذا في الأصل.

(١٨) مغلف: خلفه.

وخطب خطبة العيد ، وفطر الناس بعد العصر ، وهذا من غريب الاتفاق - ذكر ذلك ابن المتوج .

٣ وفي هذه السنة ، انتهى العمل من الجامع الذي أنشأه الظافر بالقرب من حارة الروم ، المعروف الآن بجامع الناكهانيين .

واستمرّ الظافر في الخلافة حتى قتل ، وكان سبب قتله أن الوزير عباس ، لما كثرت

٦ الكلام في حقّه بسبب ابنه نصر ، فأضمر النذر للظافر ، فلما نزل الظافر إلى بيت الوزير على جرى العادة ، وبات عنده ، ندب إليه من قتله تحت الليل ، وأرماه في بئر .

فلما أصبح الوزير ، طلع إلى دار الخلافة ، ودخل القصر ، فقال لبعض الخدام :

٩ « أين أمير المؤمنين ؟ فقالوا له : « ابنك نصر يعرف أين هو » .

ثم إن الوزير عباس دخل دور (١١٣ ب) الحرم ، وأخرج الأمير عيسى

ابن الظافر ، وأحضر القضاة وأزباب الدولة ، وقال لهم : « إن أمير المؤمنين الظافر ،

١٢ نزل البارحة في مركب ، فأُتِلبت به وغرق ، فولّوا ولده عيسى عوضه » ، فأحضرُوا له خامنة الخلافة وولّوه .

وكانت قتلة الظافر في ليلة الأحد ثاني سفر سنة خمسين وخمسمائة ، وكانت مدّة

١٥ خلافته بمصر ، أربع سنين وسبعة أشهر ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الظافر بالله ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

١٨ خلافة الفائز بنصر الله أبي انقاسم عيسى

ابن الظافر بن الحافظ

وهو الماشر من خلفاء بني عبيد الله الفاطمي؛ بويع بالخلافة بعد قتل أبيه الظافر؛

٢١ وكان سبب بيعته أن الوزير عباس ، لما قتل الظافر ، طلع إلى القصر وأحضر القاضي والشهود ، وقال : « إن الظافر قد غرق البارحة » ، ثم هجم دور الحرم ، وأخذ

الأمير عيسى من عند أمّه ، وحمله على كتفه ، ففزع منه واضطرب ، وكان له من العمر

نحو ست سنين ، فأحضره بين يدي القاضي ، وولاه الخلافة ؛ واستمرت الطَّرية عمالة معه حتى كبر ومات بها ، وهو يضطرب في كل وقت .

٣ فلما تمَّ أمره في الخلافة ، فتميّز خواطر الجند على الوزير عباس ، بسبب قتل الخليفة الظافر ، وصار الوزير عباس على رأسه طيرة بسبب ذلك .

ثم إنَّ الفائز استعان على قتل الوزير عباس ، بشخص يسمّى طلائع بن رزيك ، وكان متولّى على منية ابن خصيب ، فجمع طلائع ، المساكر من العربان ، وقصد التوجّه إلى مصر .

٩ فلما بلغ الوزير عباس أخبار طلائع بن رزيك ، بما قد (١١٤ آ) جمعه من المساكر ، وهو قاصد مصر ، فأخذ ما قدر عليه من الأموال والتحف ، وهرب هو وولده نصر ، وتوجّها إلى نحو البلاد الشامية ، وكان قصده التوجّه إلى بغداد ، فكان كما قيل :

١٢ حكى غراب البين في شؤمه لكن إذا جئنا إلى الحق زاغ
فبينما هو في أثناء الطريق ، خرجت عليه طائفة من الفرنج ، فأسروه ، وأخذوا ما معه من الأموال والتحف .

١٥ فلما جاءت الأخبار إلى القاهرة بما جرى لعباس ، فحضر طلائع بن رزيك ، واستقرّ في الوزارة ، عوضاً عن عباس ، وتلقّب بالصالح بالله ، فأطاعه الجند وأحبّوه ، وكان له في مصر والقاهرة حرمة وافرة وهو الذي أنشأ الجامع الذي عند باب زويلة ، المعروف به إلى الآن .

٢١ فلما تمَّ أمر طلائع في الوزارة ، أرسل كاتب ملك الفرنج في أمر الوزير عباس ، وأرسل إلى ملك الفرنج هدية ، بنحو عشرة آلاف دينار ، فقبض ملك الفرنج على عباس ، وولده نصر ، وبعث بهما في الحديد إلى القاهرة ، فكان يوم دخولهما يوماً مشهوداً ، وزيّنت لهما القاهرة ، فأمر الفائز بأنَّ يشمق عباس ، وولده نصر ، على باب القصر ، وأخذ بثأر أبيه ، كما قيل في الأمثال :

٢٤ المسوت في طلب الثار خير من الحياة في العار

وأما عباس الوزير ، فإنه خسر الدنيا والآخرة ، كما قيل :

ففضّل الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ومن الحوادث في أيامه ، جاءت لأخبار بوقوع وباء عظيم ، بين أرض الحجاز ٣
واليمن ، وذلك سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكانوا نجوا من عشرين قرية ، فدخل
(١١٤ ب) الوباء في ثمان عشرة قرية ، فأفناهم عن آخرهم ، حتى لم يبق منهم إنسان
٦ يلوح ؛ فكانت مواشيهم سائبة ، لا قاني لها ، ولا يستطيع أحد من الناس أن يدخل
إلى تلك القرى ، وكل من يدخلها هلك من وقته بالطعن .

وأما القريتان اللتان حول تلك القرى ، لم يدخل إليهما طعن ، ولا عندهما شعور
بما جرى على من حولهما من القرى ، مما أصابهم من أمر الفنا بالطاعون ، ولم يمض ٩
منهم طفل واحد ، فصبحان القادر على كل شيء ، انتهي ذلك .

واستمرّ الفائز في الخلافة حتى مات بالطعن ، وكانت وفاته في يوم الجمعة سابع
١٢ رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ؛ وكانت مدّة خلافته بمصر خمس سنين وأربعة
أشهر ، ومات وله من العمر نحواً من اثنى عشرة سنة .

ولما مات تولى بعده ابن عمّه عبد الله العاضد ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الفائز
بنصر الله ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

خلافة العاضد بالله أبي محمد عبد الله

ابن الحافظ بن المستنصر بالله

وهو الحادى عشر من خلفاء بنى عبید الله الناطقى ، بويع بالخلافة بعد موت
[ابن] عمّه الفائز بنصر الله ، في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وتولى الخلافة
٢١ وله من العمر نحو أربع وعشرين سنة .

(٥) لم يبق : لم يبق .

(٢٠) [ابن] : تنتمى في الأصل .

ومن غريب الاتفاق أن الخليفة المعز لما قدم مصر ، قال لبعض العلماء : « اكتب لنا ألقابا تصلح للخلافة ، فإذا تولى أحد منا تلقب بها » ، فكتب لهم ألقابا كثيرة ، آخرها العاصد بالله ، فاتفق أن آخر من تولى منهم ، تلقب بالعاصد بالله ، وبه (١١٥ آ) انقضت دولتهم .

وكان القائم بتدبير مملكته الوزير الصالح طلائع بن رزيك ، فأقام في الوزارة ، إلى أن قتله جماعة من العبيد الرنج ، وكانت قتلاته في رمضان سنة ست وخمسين وخمسمائة ؛ فلما قتل طلائع بن رزيك ، تولى عوضه في الوزارة شاور بن مجير أبو شجاع السعدي ، وهو آخر من تولى من الوزراء الرافضة ، وقتل أيضا ؛ فلما أخلع عليه ، قال فيه بعض الشعراء :

إذا أبصرت في خلع وزيرا فقل أبشر بقاصمة الظهور
بأيام طوال في عناء وأيام قصار في سرور
وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة أيضا ، تولى الشيخ محمود بن إسماعيل بن قادوس ، كاتب الإنشاء بالديار المصرية ، وهو شيخ القاضي الفاضل عبد الرحيم ، وكان يسميه ذا البلاغتين ، وكان له شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

زارني في الدجا فتمّ عليه طيب أردانه لذى الرقباء
والثريا كأنها كفّت خود برزت من غلالة زرقاء

ومن الحوادث العظيمة ، التي لم يقع قطّ مثله بالديار المصرية ، أن في سنة أربع وستين وخمسمائة ، جاءت الأخبار ، بأن الفرنج جاءت إلى ثغر دمياط في سبعين مركبا ، وكان ملك الفرنج يسمى مري ، فملكوا ثغر دمياط ، ونهبوا أسواقها ، وقتلوا أهلها ؛ ثم زحفوا على الضياع ، وأكثروا فيها القتل والسبي ؛ ثم وصلوا إلى بليس ، وكسروا عساكر الفسطاط ، ودخلوا القاهرة من خلف السور من عند البرقية ؛ ثم توجهوا إلى (١١٥ ب) بركة الحبش ، وصاروا يقتلون من وجدوه من المسلمين ، وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالا جزيلة ، وأخذوا في أسباب جبايتها .

- فَعَنْدَ ذَلِكَ أَشَارَ الْوَزِيرُ شَاوَرُ عَلَى الْخَلِيفَةِ ، بِحَرْقِ مَدِينَةِ الْفَسْطَاطِ ، خَوْفًا مِنَ الْفَرَنْجِ
 أَنْ يَمْلِكُوهَا ، فَأَذِنَ لَهُمْ فِي حَرْقِهَا ؛ فَجَمَعَ الْوَزِيرُ طَائِفَةً مِنَ الْعَبِيدِ وَأَحْرَقَوهَا ، فَأَقَامَتِ
 ٣ النَّارُ عَمَّالَةً فِيهَا نَحْوَ شَهْرَيْنِ ، فَكَانَ يَرَى دَخَانَهَا مِنْ مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .
 وَكَانَتْ مَدِينَةُ الْفَسْطَاطِ مِنْ أَجْلِ الْمَدَائِنِ ، أَنْشَأَهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُ ، بَعْدَ فَتْحِ مِصْرَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ مِنَ الْمُهْجَرَةِ ؛ وَكَانَ أَوَّلُهَا مِنْ عِنْدِ الرِّصْدِ ،
 ٦ وَآخِرُهَا عِنْدَ حَدَرَةِ ابْنِ قُمَيْحَةَ ، وَهِيَ أَقْدَمُ مِنَ الْقَاهِرَةِ ، وَكَانَ بِهَا عِدَّةُ مَسَاجِدَ مُحْكَمَةُ
 الْبِنَاءِ ، وَعِدَّةُ حَوَانِيتَ ، وَحَمَامَاتَ ، وَمَعَاصِرَ ، وَالْمَسَاكِنَ الْجَلِيلَةَ ، وَإِلَى الْآنَ يَوْجَدُ
 فِي كِبَانِهَا الْعَمَدَ الرَّخَامَ ؛ فَلَمَّا حُرِقَتْ مَدِينَةُ الْفَسْطَاطِ ، تَحَوَّلَ النَّاسُ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، فَبَلَغَ
 ٩ كَرَى الْجَمَلُ مِنَ الْفَسْطَاطِ إِلَى الْقَاهِرَةِ عَشْرَةَ دَنَانِيرَ فِي كُلِّ نَقْلَةٍ .
 فَلَمَّا جَرَى ذَلِكَ ، أَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ الْعَاضِدُ يَسْتَجِيرُ بِنُورَ الدِّينِ الشَّهِيدَ ، سَاحِبَ
 دِمَشْقَ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِشُعُورَ نِسَائِهِ وَبَنَاتِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : « أَدْرِكْنِي وَاسْتَنْقِذْ نِسَائِي
 ١٢ مِنْ أَيْدِي الْفَرَنْجِ » ، وَالتَّزِمَ لَهُ بِثَلَاثِ خَرَاغَ مِصْرَ ، وَأَنْ يَكُونَ أَسَدُ الدِّينِ شِيرَكُوهُ مَقِيمًا
 عِنْدَهُ بِمِصْرَ ؛ فَأَرْسَلَ نُورَ الدِّينِ الشَّهِيدَ ، أَسَدُ الدِّينَ عَمَّ صَلَاحَ الدِّينِ ، وَمَعَهُمَا
 الْعَسَاكِرَ ، فَلَمَّا دَخَلُوا مِصْرَ ، خَافَ مِنْهُمَا الْفَرَنْجُ ، وَرَحَلُوا إِلَى بِلَادِهِمْ .
 ١٥ فَلَمَّا دَخَلَ أَسَدُ الدِّينِ إِلَى مِصْرَ ، شَفَقَ الْوَزِيرُ شَاوَرُ ، فَإِنَّهُ كَانَ (١١٦ هـ) سَبِيحًا
 لِدُخُولِ الْفَرَنْجِ إِلَى مِصْرَ ، وَكَانَ يَكَاتِبُهُمْ فِي الْبَاطِنِ عَلَى الدُّخُولِ إِلَى مِصْرَ ، كَمَا فَعَلَ ابْنُ
 الْعَاتِمِ مَعَ هَوْلَاكِهِ أَيَّامَ الْمُسْتَعَصِمِ بِاللَّهِ ؛ وَكَانَتْ قَتْلَةُ شَاوَرَ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ أَرْبَعٍ
 ١٨ وَسِتِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَفِيهِ يَقُولُ عِرْقَالَةُ :
 هَنِيئًا لِمِصْرَ حَوْزَ يَوْسُفَ مَالِكِهَا بِأَمْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْقُوتَا
 وَمَا كَانَ فِيهَا قَتْلَ يَوْسُفَ شَاوَرَا يَمَاطِلُ إِلَّا قَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَا
 ٢١ فَلَمَّا قَتَلَ شَاوَرُ ، أَخْلَعَ الْعَاضِدُ عَلَى أَسَدِ الدِّينِ شِيرَكُوهُ ، وَاسْتَقَرَّ بِهِ وَزِيرًا ، عَوِضًا
 عَنْ شَاوَرِ ، وَلَقَّبَهُ بِالْمَنْصُورِ ، فَلَمْ يَقَمْ فِي الْوِزَارَةِ سِوَى شَهْرَيْنِ وَخَمْسَةِ أَيَّامَ ، وَمَاتَ
 نَجَافَةً ، فِي ثَالِثِ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ .

فلما مات أسد الدين أخلع العاصد على صلاح الدين يوسف بن أيوب ، واستقر به في الوزارة ، عوضا عن عمه أسد الدين ، ولقبه بالناصر لدين الله ، وكانت الوزراء تتأقّب باللقاب الخلفاء ، وأخلع عليه خلعة الوزارة . ٣

قال الإمام أبو شامة : وكانت خامة الوزارة يومئذ ، عمامة بيضاء شرب ، برقعات ذهب ، وثوب ديبقي بطرز ذهب ، وجبة بطرز ذهب ، وطيأسان مرقوم بذهب ، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار ، وسيف مسقط بذهب ؛ وحجرة يركبها بخمسمائة دينار ، وفي قوائها أربعة جواهر ، وفي عنقها جوهرة كبيرة ؛ وعلى رأسه أعلام بيض ، ومنشور الوزارة ، مكتوب في ثوب حرير أبيض . ٦

وكان له يوم مشهود ، وذلك يوم الاثنين سادس عشرين جمادى الآخرة من تلك السنة ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، (١١٦ ب) وفيه يقول عرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت مصر إلى حرب الأعراب
ربّ كما ملكتها يوسف الـ صديق من أولاد يعقوب
يملكها في عصرنا يوسف الـ صادق من أولاد أيوب
وقوله فيه أيضاً :

١٥ قد مال غصن الرياض من طرب وافترّ ثمر البلاد وابتما
واستبشرت أوجه الهدى فرجا فليقرع الكفر سنّه ندما
وصار شمل الصلاح ملتئما بها وعقد السداد منتظما .

١٨ فلما تمّ أمر صلاح الدين في الوزارة ، أبطل ما كان يقال في الأذان : « حيّ على خير العمل » ، ففرح الناس بذلك .

ثم عزل قضاة مصر كلّها ، لأنهم كانوا شيعة ؛ ثم ولي القاضي صدر الدين بن درباس الشافعي ، واستناب في سائر أعمال مصر الشوافعة ، وأقام بحمد الشافعية ، دون غيرهم من المذاهب ، انتهى ذلك . ٢١

وفي سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وقيل سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، كانت وفاة الشيخ ناصح الدين أبوبكر بن أحمد بن محمد الأرجاني الأندلسي ، صاحب الأشعار اللطيفة . ٢٤

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فيها توفي الشيخ نصر الملك أبو الفتوح بن عبد الله بن مخلوف بن قلاؤس الإسكندري ، ولد بالإسكندرية في ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ومات ٣
ثالث شوال سنة سبع وستين وخمسمائة ، توفي بصحراء عيذاب ، ودفن بها ، وكان
من فحول الشعراء ، وله شعر جيد ، ومعاني رقيقة ، فمن شعره قوله :

٦ عقد الشعور معاهد التيجان وتقدموا بصوارم الأجنان
ومشوا وقد هزوا رماح قدودهم هز الكماة عوالي (١١٧ آ) الزان
وتدرعوا زردا ففجأت أراقنا خامت ملابسها على الغزلان
٩ إن الذين رحلوا غداة امتنا ملأوا القلوب لواعج الأشجان
فلأبعثن مع النسيم إليهم شكوى تميل لها غصون البان

فلما تولى صلاح الدين أمر الديار المصرية ، أطاعته الرعية واجتمعت فيه الكلمة ،
١٢ فضعفت شوكة العاضد ، وصار مع صلاح الدين كالحجور عليه ، لا يتصرف في شيء
من أمور المملكة ، حتى يعرض عليه ، فالذي يحسن بباله يمشي به ، والذي لا يحسن
بباله يوقفه .

١٥ ثم إن نور الدين الشهيد ، أرسل يقول لصلاح الدين : « اقطع الخطابة عن العاضد
من مصر وأعمالها ، واخطف باسم المستضيء بالله العباسي ، خليفة بغداد » ؛ فأرسل
صلاح الدين يقول لنور الدين الشهيد : « إن عساكر القاهرة لا تطاوعني في ذلك » .
١٨ وكانت عساكر القاهرة يومئذ نحو خمسين ألف مقاتل ، على أجناس مختلفة ،
وكان بها خمسمائة مراكب حربية مشحونة بالرجال والسلاح ، برسم الجهاد ، هذا
مع تلاشي أمر الخلفاء الفاطمية ، وضعف شوكتهم ، فأرسل نور الدين الشهيد يقول :
« لأبد من ذلك » .

(٩) المدين : الذي .

(١٢) شوكة : شوكت .

(١٣) يمشي : كذا في الأصل .

فلما رآه مصمما على ذلك ، جمع أعيان القاهرة وذكر لهم ذلك ، فقالوا : « وكيف يكون هذا الأمر » ؟ فقال شخص من أبناء العجم ، يسمى محمد بن الحسن بن الضيا العلوي : « أنا أفتح لكم هذا الباب » . ٣

فلما كان يوم الجمعة ثاني المحرم سنة ثمان وستين وخمسمائة ، بعد المنبر قبل صلاة الجمعة ، ودعا للخليفة المستضيء بالله العباسي ، فلم يتكلم أحد من الناس ، (١١٧ ب) ولا أنكر عليه في ذلك . ٦

فلما كان الجمعة الثانية ، قطع اسم الخليفة العاضد من الخطبة من مصر وأعمالها ، وخطب باسم المستضيء بالله العباسي .

ومن العجائب ، أن أول من خطب للمعز الفاطمي ، لما قدم مصر ، خطيب ٩

من بني العباس ، ولما قطعت عنهم ، خطب باسم العباسية خطيب من الأشراف العلوية .

قيل لما وصل الخبر إلى بغداد بإعادة الخطبة لبني العباس بمصر ، فرح أهل بغداد بذلك ، وزينت مدينة بغداد سبعة أيام ؛ وكان سبب عود الخطبة لهم ، نور الدين ١٢

الشهيد ، بعد ما قطعت عن بني العباس بمصر نحو مائتي سنة وكسور ، لم يخطب باسمهم في مصر ولا أعمالها .

قال ابن الجوزي : لما أعيدت الخطبة لبني العباس ، صُنِفَتْ في هذه الواقعة كتابا وسمّيته « النصر على مصر » ، انتهى ذلك . ١٥

وقد قال بعض الشعراء :

ألستم مزيلى دولة الكفر من بني سبيد بمصر إن هذا هو الفضل ١٨

زنادة شيعية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل

يسرون كفرا يظهرون تشيعا ليستروا شيئا وعمهم الجهل

وقال العماد الكاتب ، من أبيات في هذه الواقعة : ٢١

ولا غرو أن ذلت ليوسف مصره وكانت إلى عليائه تتشوق

تَمَلَّكَهَا مِنْ قَبْضَةِ الْكُفْرِ يَوْسُفَ وَخَانَصَهَا مِنْ عَصْبَةِ الرِّفْضِ يَوْسُفَ
 كَشَفْتَ بِهَا عَنْ آلِ هَانِئِمٍ كَرِبَةً وَمَا مِثْلَهَا إِلَّا بِسَيْفِكَ يَكْشِفُ
 (١١٨آ) أَخَذَتْ بِهِ مِصْرًا وَقَدْ حَالَ دُونَهَا مِنْ الشَّرِّ نَاسٌ فِي نَبَأِ الْحَقِّ تَقْذِفُ ٣
 فَمَاتَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ بِاسْمِ إِمَامِنَا تَنْيِهِ عَلَى كُلِّ الْبِلَادِ وَتَشْرِفُ
 قِيلَ لِمَا قَطَعْتَ الْخَطْبَةَ عَنِ الْعَاضِدِ ، حَصَلَ لَهُ غَايَةُ الْقَهْرِ ، فَلَمَّا زَادَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ ،
 عَمِدَ إِلَى فَصٍّ مِنَ الْمَاسِ فَابْتَلَعَهُ ، فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ ؛ وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي عَاشِرِ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ ثَمَانٍ ٦
 وَسِتِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ؛ وَكَانَتْ مَدَّةَ خِلَافَتِهِ بِمِصْرَ اثْنَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَبِهِ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ
 بَنِي عَمِيْدِ اللَّهِ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ، وَقَدْ أَقَامَتْ دَوْلَتُهُمْ بِمِصْرَ نَحْوَ مِائَتَيْنِ وَسِتِّ سِنِينَ ؛ وَلَمَّا
 مَاتَ الْعَاضِدُ رَثَاهُ عِمَارَةُ الْيَمِينِيِّ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، وَهِيَ : ٩

يَا عَذْلِي فِي أَبْنَاءِ فَاطِمَةَ لَكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصُرَتْ فِي عَذْلِي
 بِاللَّهِ جَزَ سَاحَةِ الْقَصْرِينِ وَابِكٍ مَعِيَ عَلَيْهِمَا لَا عَلَى صَفِينٍ وَالْجَمَلِ
 وَقَالَ عَلَاءُ الدِّينِ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، فِيمَنْ تَوَلَّى مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي عَمِيْدِ بِمِصْرَ ، وَهُمْ الْفَاطِمِيُّينَ ، ١٢
 فَقَالَ مِنْ أَيْيَاتِ :

ثُمَّ الْمِعْزَ قَائِدَ الْجَيْشِ الَّذِي سَارَ إِلَى مِصْرَ وَنَعِمَ السَّارِ
 ثُمَّ ابْنَهُ الْعَزِيزَ عَزَّ الْمُسْتَبَاهَا وَالْحَاكِمَ الْمَعْرُوفَ ثُمَّ الظَّاهِرَ ١٥
 وَبَعْدَهُ الْمُسْتَنْصِرَ الْعَانِي الَّذِي تَلَاهُ مُسْتَعْلٍ وَجَاءَ الْأَمْرَ
 وَحَافِظَ وَظَافِرَ وَفَائِزَ وَعَاضِدَ ثُمَّ الْمَلِيكَ النَّاصِرَ

وَلَمَّا مَاتَ الْعَاضِدُ تَوَلَّى بَعْدَهُ صَالِحُ الدِّينِ يَوْسُفُ بْنُ أَيُّوبَ ؛ انْقَهَبَ مَا أُوْرِدَنَاهُ ١٨
 مِنْ أَخْبَارِ دَوْلَةِ الْفَاطِمِيِّينَ ، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِصَارِ .

ذكر ابتداء دولة الأكراد من بني أيوب

٣

فكان أولهم الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي
ابن مروان الكردي ، وكان أصلهم من أذربيجان ، من بلاد الكرج ، ولكن
أصلهم من الأكراد . ٦

وكان مولد صلاح الدين يوسف بقاعة تكريت ، سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ،
وكان أبوه أيوب في خدمة زنكي أبي نور الدين الشهيد ، فلما توفى زنكي ، صار أيوب
وأولاده في خدمة نور الدين الشهيد . ٩

فلما عظم (١١٨ ب) أمر نور الدين الشهيد ، وصار مستوليا على البلاد الشامية ؛
فلما أرسل الخليفة العاضد يستنجد به على الفرنج ، أرسل إليه أسد الدين شيركوه ،
أخا أيوب ، عم صلاح الدين يوسف ، فلما مات أسد الدين ، تولى بعده ابن أخيه
صلاح الدين يوسف بن أيوب ، واستمر صلاح الدين في الوزارة ، حتى مات العاضد ،
أرسل نور الدين الشهيد تقاييدا لصلاح الدين ، واستقر مستوليا على مصر ، نيابة
عن نور الدين الشهيد . ١٥

توفى زنكي ، والد نور الدين الشهيد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقد قتله
خادمه ، بعد ما أخذ مدينة الرها من يدي الفرنج في هذه السنة .

١٨ قيل لما استعرض صلاح الدين حواصل الخلفاء الفاطميين ، وجد بها من السلاح
والتحف والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك : سبعمائة درة يقيمة لا تقوم ، وصحفة
ياقوت أحمر ، وأربعين قصبة من الزمرد ، طول كل قصبة شبرا ، وسمكها نحو الإبهام ،
وغير ذلك من التحف ؛ ووجد خزانة كتُب ، فيها ألفا مجلد في علوم شتى ، فأرسل
٢١ لنور الدين الشهيد ما حسن من ذلك ، واصطفى لنفسه ما اختاره ، حتى قيل : أقام

(٨) أبوه : أباه .

(١٦ - ١٧) توفى . . . السنة : كتبت في الأصل على هامش س (١١٨ ب) .

نحو عشر سنين يبيع ما فضل من الخزائن ، وهو لا يفرغ .

ثم إن صلاح الدين أخذ في أسباب إصلاح أمر الديار المصرية ، وأبطل من

المكوس والمظالم ، ما كان استجد في الدولة الفاطمية ، وكتب بذلك مساميح ،
وقرئت على المنابر بعد صلاة الجمعة ، فضج الناس له بالدعاء ، واستألت إليه قلوب الرعية ،
وأظهر العدل بالديار المصرية ؛ وكان قدر ما أبطله من المكوس في كل سنة ، ما ينيف
عن مائة ألف دينار ترد للخزائن ، وتصرف في جهات .

وفيه يقول عرقلة الشاعر :

أصبح الملك بعد آل عبيد مشرقا بالملوك من آل شادى

وغدا الشرق يحسد الغرب له عدل ومصر تزهر على بندق

(١١٩ آ) ما حواها إلا بعزم وحزم وصايل الفؤاد في الفولاذ

لا كفرعون والعزير ومن كان بها كالخصيب والأستاذ

الأستاذ يعنى كافور الإخشيدي . - وقال العرقلة الشاعر :

أقول والأتراك قد أزمعت مصرا إلى حرب الأعراب

رب كمالها يوسف ال صديق من أولاد يعقوب

مآكها في عصرنا يوسف ال صادق من أولاد أيوب

ثم إن صلاح الدين أخلع على القاضي عيسى الدين عبد الرحيم بن علي بن حسن

الفاضل البيهقي ثم المصري ، واستقر به وزيرا ، وصاحب ديوان الإنشاء بالديار

المصرية ، وأقامه في الوزارة مقام نفسه لما كان وزيرا .

قلت : وكان القاضي الفاضل ، عالما فاضلا ، قد برع في الشعر وصناعة الإنشاء ،

حتى قيل إن مسودات رسائله لو جمعت ، بلغت مائة مجلد ؛ وهو الذي أظهر التورية

(٤) وقرئت : وقراءات .

(٦) في جهات : كذا في الأصل .

(١٢ - ١٥) وقال . . . أيوب : كتبت في الأصل على هامش من (١١٩ آ) ، وبلاحظ

أنه قد سبق ورودها في من (١١٦ ب) .

في الشعر وكشف عنها الغطاء ، وكان وقوعها في الشعر عزيزا جداً ، ومن لطائف شعره ، وهو قوله :

- ٣ لي عندكم دين ولكن هل له من طالب وفؤادي الرهون
فكأنني ألف ولام في الموى وكان موعود وملك التنوين
- قال الإمام أبو شامة : كان القاضي الفاضل دميم الخلقة ، وكان له حذبة ظاهرة
٦ خلف ظهره ، وكان يسترها بالطيلاس ، حتى لا ترى ، وقد قيل :
- سلطاننا أعرج ، وقاضيه ذو عمش ، والوزير منجذب
وكان صلاح الدين يوسف به بعض عرج ، والقاضي صدر الدين بن درباس به
٩ بعض عمش ، والوزير الفاضل منجذب ؛ وقال فيه ابن عنين مدائبة لطيفة :
- حاشي لعبد الرحيم سيدنا الفاضل ماذا تقوله السفلى
يكذب من قال إن حذبه في ظهره من عبيده حبل
١٢ (١١٩ب) هذا قياس في غير سيدنا يصح إن كان يحبل الرجل
- ومن النكت الطريفة ، قال الأسعد بن ممتا : دخلت يوماً على القاضي الفاضل ،
فرايت إلى جانبه أترجة بديعة الخلقة ، فجعلت أنظر إليها ، وأتعجب من خلقتها ،
١٥ فقال لي القاضي الفاضل : « أراك تطيل النظر إلى هذه الأترجة » ، فقلت : « أتعجب
من شكلها ، وبديع خلقتها » ، فقال الفاضل : « ولها بنا نسبة أيضاً ، فيما بها من
الاحتداب » ، فقلت : « الله ، الله ، يا مولانا القاضي » ؛ ثم إنني سكنت ساعة ،
١٨ وارتجت بيتين من الشعر في المعنى ، وهما :
- للحسن بل لله أترجة قد أذكرتنا بجنان النعيم
كأنها قد جمعت نفسها من هيئة الفاضل عبد الرحيم
- ٢١ ثم أنشدتهما بين يديه ، فلما سمع ذلك أعجبه ، وزال من فكره ما كان توهمه
منى ، فلما خرجت من عنده ، ذكرت ذلك لبعض أصحابي ، فقال لي : « الحمد لله
تعالى الذي أنشدته ذلك من لفظك ، ولم تكتبهما له ، فربما تصحفت عليه في اللفظ ،
٢٤ فيقرأها » من هيئة الفاضل عبد الرحيم « فيزداد حنقا من ذلك » ، انتهى .

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

فيها بلغ الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أن جماعة من أعيان القاهرة ، ومن جملةهم عمارة اليني ، الشاعر ، اتفقوا على إعادة دولة الفاطميين ؛ فلما تحقق ٣ صلاح الدين ذلك ، أمر بشنقهم ، ومن جملةهم عمارة اليني ، فشنقوا في عاشر رمضان ، سنة تسع وستين وخمسمائة .

وكان عمارة فقيها فريضا ، شاعرا ماهرا ، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة ، أنى ٦ من الين ، ودخل مصر سنة خمسين وخمسمائة ، وامتحن الخلفاء الفاطمية بقصائد سنية ، لكنه كان يميل إلى (١٢٠ آ) مذهب الرافضة ، ومن شعره الرقيق ، قوله :
ولا تحتقر كيد الصغير فرما تموت الأفاعى من سموم العقارب ٩
إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من التضييع في غير واجب

وفيها قبض الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، على مؤتمن الحبشى ، زمام ١٢ الخليفة العاخذ بالله ، فلما قبض عليه قتله ، فلما قتل ، ثارت عليه العبيد الذين كانوا بمصر ، وكان جملة العبيد يومئذ بمصر خمسين ألف عبد ، من أجناس شتى ، فاستمر الحرب ثائرا بينه وبين العبيد يومين ، وكانت قوة هذه الواقعة بين القصرين ، فقتل من العبيد ما لا يحصى ، ثم انهزموا وكانت الكسرة على العبيد . ١٥

وفي هذه السنة ، أعنى سنة تسع وستين وخمسمائة ، فيها جاءت الأخبار من دمشق بوفاة الملك السعيد نور الدين الشهيد ، صاحب دمشق ، المجاهد الم رابط الولي ، وقد عده اليافعى فى كتاب « روض الرياحين » أنه من الأولياء الأربعة ، ودفن بالشام ١٨ بجامع الكلاسة ، وقبره يزار إلى الآن .

وهو أول من حمل على رأسه الصنمى من المالك ؛ وكان اسمه محمود بن زنكى ، وقد أطلق عليه السلطان ، مثل ملك شاه الساجوقى ، وهو أول من تلقب بالسلطان ٢١ مع وجود الخلفاء .

(٣) إعادة : إعادت .

(١٢) الذين : الذى .

(١١-١٥) وفيها قبض . . . على العبيد : كتبت فى الأصل على هامش س (١١٩ ب) .

- قيل إنّه رأى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في المنام ، وهو يقول له : « أدركني
يانور الدين ، فإن شخصا من الرافضة جاء ليسرق جثتي » ، وأراه شكله في المنام .
- ٣ فلما أصبح نور الدين توجه إلى المدينة الشريفة ، في غير أوان الحاج ، فلما دخل
المدينة استعرض أهاها ، وأوهمهم أنّه يفرّق عليهم مالا ؛ فلما حضروا بين يديه ، قال :
« هل بقي منكم أحد » ؟ قالوا : « بقي شخص من الصالحين ، منقطع إلى الله تعالى ،
٦ لا يجتمع بأحد من الناس » ، قال : « آتوني به » .
- فلما حضر بين يديه ، فإذا هو الشخص الذي أراه له النبي ، صلى الله عليه وسلم ،
في المنام بعينه ، فلما رآه ، أمر بضاميه ، فصب ؛ ثم كبس داره ، وكانت داره بالقرب
٩ من الحجرة الشريفة ، فوجده قد حفر سربا تحت الأرض ، وقد قرب من لحد النبي ،
صلى الله عليه وسلم ، فحفر نور الدين الشهيد حول الحجرة الشريفة خندقا ، وردمه
بالحجارة الكبار ، ثم (١٢٠ ب) سبك عليهم بالرصاص ؛ وهذه الحكاية مشهورة
١٢ عن نور الدين الشهيد ، رحمة الله عليه .
- وهو أول من اتخذ حمائم الرسائل إلى الآفاق ؛ وهو أول من أطلق عليه
« السلطان » بعد ملك شاه السلاجوقي ، وكان يلقب بالملك العادل .
- ١٥ قال ابن فضل الله في « المسالك » : إن الاصطلاح أن لا يطلق التسمية بالسلطان ،
إلا على من يكون يملك عدّة بلاد ، مثل مصر والشام وأفريقية والأندلس ، وفي ولايته
عدّة ملوك ، ويكون عسكره عشرة آلاف فارس ، أو نحو ذلك ، وأن يُخطب باسمه
١٨ في عدّة أماكن شتى ، فجاز له أن يطلق عليه بالسلطان الأعظم ، فكان نور الدين
الشهيد يطلق عليه « السلطان الأعظم » ، فإنّه قد اجتمع فيه هذه الشروط كلها .
- فلما توفي السلطان نور الدين الشهيد ، انفرد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بما
٢١ كان فيه نور الدين الشهيد ، وأطلق عليه التسمية بالسلطان ، فصفا له الوقت ، وساعده
المقادير ، بما يختار من الأمور ، كما قيل في المعنى :

لو نطق مصرنا لقات يا ملك العصر والأقالم

(تاريخ ابن عباس ج ١ ق ١ - ١٦)

قد أصبح السعد عبد رقّ والنصر أمسى لديك خادم
له بقلب الملوك رعب أغنى عن السور والصوامر

٣ فلما انقرض صلاح الدين يوسف بملك مصر والشام، أزال ما كان بمصر من العساكر
الملفّقة ، وكانوا ما بين مقاتلة ومصامدة وأرمن وشناترة العرب ، وطائفة من العبيد
الزنج ، فحاربا هذه الطوائف كلها، واستجدة بمصر عساكرا من الأكراد خاصة ، فكان
٦ عدتهم اثني عشر ألفا من شجعان الكرد .

قال ابن الأثير : لما دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، شرع الملك الناصر
صلاح الدين يوسف بن أيوب في بناء سور القاهرة بالحجر (١٢١ آ) النصّ النحيت ،
وأبطل السور الذي كان بناه جوهر القائد ، سنة إحدى وستين وثلثمائة ، وكان بناه
٩ بالطوب اللبن في دولة الفاطميين .

ثم جعل دوره ثلاث و ثلاثين ألف ذراع بالعمل ، وجعل في هذا السور أحد عشر
بابا ، غير الأبواب الخمس ، وكان القائم على بناء السور الأمير بهاء الدين قراقوش ،
١٢ الخصى الحبشى .

قال ابن الأثير : وإن بابي زويلة القديم ، كان في الغرابيين عند مسجد سام بن
نوح ، وآثاره باق إلى الآن ، وأما باب زويلة الموجود الآن يسمى باب الفاضل ؛
١٥ ثم إن صلاح الدين شرع في بناء قلعة الجبل ، واتخذها دار المملوك .

قال ابن الأثير : مات صلاح الدين ولم يتمّ بنى قلعة الجبل ، وإنما أكمل بناءها
الملك الكامل محمد بن أخى صلاح الدين يوسف ، وهو أول من سكن بها من بنى
١٨ أيوب ، وبطل أمر قصر الزمرّد ، الذى أنشأه المعزّ الفاطمى ، وكان مكان دار
الضرب .

قال القاضي شمس الدين بن خلكان : إن في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، شرع
٢١ الملك الناصر صلاح الدين يوسف في بناء خانقاة سعيد السعداء ، وهى أول خانقاة عمرت
بالقاهرة ، وكانت دارا لشخص من خدام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، يقال له

قنبر سعيد السعداء ، فاشترها السلطان صلاح الدين وبنها خاتنة ، فسَمِيَتْ « خاتنة سعيد السعداء » مضافاً لاسم قنبر سعيد السعداء .

٣ ثم بنى المدرسة المعروفة بالسوفية ، وجعلها للحنفية ؛ ثم بنى المدرسة المعروفة بالقمحية ، وجعلها للمالكية ؛ ثم بنى المدرسة العظيمة التي بجوار الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، وجعلها للشافعية ؛ ثم بنى مدرسة عند دار الضرب ، وجعلها للحنابلة ، وأنشأ بجوارها مارستان ، ولم يكن بالقاهرة مارستان قبله ، غير (١٢١ ب) الذي أنشأه أحمد بن طولون في القطائع ، وبطل أمره ؛ وأنشأ مدرسة بالقدس الشريف ، وسماها الصلاحية .

٩ ومن ساسن الناصر صلاح الدين يوسف ، أنه أقام بمجد السادة الشافعية ، وقدمهم على غيرهم من المذاهب الثلاثة .

١٢ قل ابن الأثير : إن أول من قرّر الخدام الخصيان بالمدينة الشريفة ، الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان سبب ذلك ، أن بنى حسن ، لما تغلبوا على الخلفاء الفاطميين ، واستولوا على المدينة الشريفة ، فلما آل الأمر إلى الناصر صلاح الدين ، استمال بنى حسن ، وأغدق عليهم بالمال الجزيل والمدايا ، حتى مكّنوه من المدينة الشريفة .

١٨ فلما ملك أمرها ، جعل فيها أربعة وعشرين خادماً خصياً ، وجعل عليهم شيخاً من الخدام ، يقال له بدر الدين الأسدي ، وأوقف على مجاورى المدينة بلدين من أعمال الصعيد ، وهما نقادة ، وقبالة ، وهما إلى الآن جارية في أوقف الحرمين .

٢١ واستمر من يومئذ شيخ الحرم النبوي من الخدام الخصى ، وكان إذا قدم على المالك يقومون له ، ويجلسونه إلى جانبهم ، ويتبركون به ، لقرب عهده من تلك الأماكن الشريفة ، واستمر ذلك إلى أيام الأشرف برسبای .

ومن الحوادث في أيامه ، أن الفرنج أتوا إلى ثمر دمياط ، وحاصروا أهلها ، فتوجه إليهم الناصر صلاح الدين ، وتقاتل معهم ، وكسرهم ، وكانوا نحو مائتين مراكب ،

فأقام يحاصرهم نحو شهرين حتى كسرهم ، وانهزموا إلى بلادهم .

وفي سنة ست وسبعين وخمسة ، توفي الشيخ أبو الفناخر المأموني ، راوى

٣

صحيح الإمام مسلم .

وفي سنة ثمان وسبعين وخمسة ، فيها جاءت الأخبار من مدينة الخليل ، عليه

السلام ، بأن المغارة التي فيها الخليل مدفونا ، قد انخسفت من (١٢٢ آ) أعلاها ،

٦ فنزل بها جماعة ، فوجدوا بها ثلاث جثث ، وهم : إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ،

عليهم السلام ، وقد بايت أكفانهم ، وهم مستندون إلى حائط المغارة ، وأجسادهم

دارية لم تبل ، وهيئتهم على حالها كأنهم ينفقون ، وعلى رؤوسهم قناديل من ذهب

٩

وفضة .

فلما بلغ الملك الناصر صلاح الدين ذلك ، توجه إلى مدينة الخليل ، عليه السلام ،

ونزل المغارة ، وأمر بأن تجدد لهم أكفان بيض ، وسد ما كان قد انخسف من المغارة

١٢ بالحجارة الكبار ، ثم رجع إلى القاهرة ؛ وهذه الواقعة نقلها على المروى السواح ،

في كتاب « الإشارات في معرفة الزيارات » ، انتهى ذلك .

وفي هذه السنة ، وهي سنة ثمان وسبعين وخمسة ، فيها جاءت الأخبار من بغداد

١٥ بوفاة سيدي أحمد بن الرفاعي ، رحمه الله عليه ، توفي في رابع عشر جمادى الأولى من

هذه السنة .

وفي هذه السنة ، توفي القاضي موفق الدين بن محمد المصري ، صاحب ديوان

١٨ الإنشاء بالديار المصرية ، قال العماد الكاتب : « لم يكن في عصره أشعر منه » ، توفي

في جمادى الآخرة من تلك السنة ، ومن شعره قوله :

إن شهر الصيام ضيف أنانا وقرى الضيف لازم للكرام

٢١ وهو راض بصومه هل سمعتم قبله الضيف راضيا بالصيام

(٣-٢) وفي سنة . . . مسلم : كتبت في الأصل على هامش س (١٢١ ب) .

(٨) لم تبل : لم تبل . || ينفقون : ينفقوا .

(١٤-١٦) وفي هذه السنة . . . من هذه السنة : كتبت في الأصل على هامش س (١٢١ ب) .

(٢٠) ضيف : ضيفا .

وفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، توفى الإمام أبو القاسم السهيلي ، وكان أحد أهل زمانه ، وهو صاحب الأبيات المشهورة « يا من يرى ما في الضمير ويسمع » .

٣ وفي سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فيها ، في ثلثي عشر ذي القعدة ، توفى الشيخ نجم الدين الخبوشاني ، ودفن بجوار الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، وكان تلميذ الإمام أبي حامد الغزالي ، قدم مصر وأقام بها إلى أن مات .

٦ ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

فيها توجه الملك الناصر صلاح الدين يوسف إلى دمشق ، فلما دخلها ، نزل بالميدان الكبير ، وجلس في القصر الذي به ، فجاءت إليه أرباب الملاعب ، من المصارعين ، والمتأففين ، وغير ذلك . ٩

ثم جاء إليه رجل أعجمي ، فتكلم مع الملك الناصر بأن يريه أعجوبة في صنعة الشعبذة ، فأذن له في ذلك ، فنصب خيمة لطيفة في الميدان ، وأخرج من كمنه كبة خيط ، وربط ذلك الخيط في يده ، ثم حذف تلك الكبة الخيط في الهواء ، (١٢٢ب) ثم تعاقب بها ، وصعد حتى غاب عن الأبصار . ١٢

ثم بعد ساعة سقطت بين الناس إحدى رجليه ، وصارت ترحف على الأرض حتى دخلت الخيمة ، ثم سقطت رجله الأخرى ، وصارت ترحف حتى دخلت الخيمة ، ثم سقطت إحدى يديه ودخلت الخيمة ، ثم سقطت اليد الأخرى ودخلت الخيمة ، ولم تزل أعناؤه تتساقط عضوا عضوا حتى سقطت الرأس ، وصارت ترحف على الأرض حتى دخلت الخيمة ، ثم بعد ساعة خرج الرجل ، وهو سوى كما كان ، يمشي على أقدامه ، فقبل الأرض بين يدي الملك الناصر . ١٥ ١٨

ثم إن الرجل دخل إلى الخيمة قدام الناس ، فقال رفيقه للناظرين : « ادخلوا إلى الخيمة وفتشوها » ، فدخلوا الخيمة وفتشوها ، فلم يجدوا فيها أحدا ، ثم فكوها ونصبوها في مكان آخر ، فخرج منها الرجل ، وهو يمشي على أقدامه ، فتهجّب منه الناس . ٢١

(٢-١) وفي سنة . . . ويسمع : كتبت في الأصل على هامش من (١٢١ آ) .

(٣-٥) وفي سنة . . . إلى أن مات : كتبت في الأصل على هامش من (١٢٢ آ) .

وكان حاضرا عند الملك الناصر شخص من الأمراء ، يقال له سنقر الأخلاطي ، فلما رأى ذلك ، حنق وجرد سيفه ، وضرب عنق ذلك الرجل المشعبد ، وقال : « مثل هذا لا يؤمن أن يكون جاسوسا من عند أحد من الفرنج » .
٣ ثم إن الأمير سنقر أراد أن يقرب عنق رفيقه ، فاستجار بالملك الناصر ، وزعم أنه لا يعرف شيئا مما كان يعمل به رفيقه ، فمنع الملك الناصر الأمير سنقر من قتله ، وقال للرجل : « اخرج من الشام ، ولا تقم بها ، يقتلوك » ، فخرج من وقته ، انتهى
٦ ذلك .

ومن الحوادث ، ما نقله المقرئ في « الخطط » ، أن في سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، احترق بحر النيل احتراقا عظيما ، لم يهد بمثله ، فظهر قدام المقياس ، الذي تجاء برّ الجزيرة ، حائط في وسط البحر ، فقيل إنه مكان قبر نبي الله يوسف ، عليه السلام ، وكان به التابوت الذي به عظام يوسف ، ولم ينكشف هذا المكان قط ، من حين نقل جسده موسى ، عليه السلام ، إلى بيت المقدس ، فتعجب الناس
١٢ من ذلك .

ومن الفكت اللطيفة ، قيل : كان بدمشق خان يعرف بخان ابن الزنجاري ، وكان يعمل فيه من أنواع الفسوق ما لا يوصف شرحه ، فلما (١٢٣ آ) بلغ الملك الناصر خبره وهو بالشام ، فاشتره وهدمه وبناء جامعا ، وسماه جامع التوبة ، وولى خطابته لشخص يسمى العماد الواسطي ، وكان يهتم بشرب الراح ، وحب الملاح ، فكتب بعض الاخفاء قصة عن لسان هذا الجامع ، ورفعها إلى الملك الناصر ، وهو في
١٨ موكبه بالشام ، وكان شرح القصة هذه الأبيات ، وهي :

(١) شخص : شخصا .

(٣) يؤمن : يأمن .

(٨-١٣) ومن الحوادث . . . من ذلك : كثبت في الأصل على هامش ص (١٢٢ ب) .

(٩) الذي : التي .

(١٠) حائط : حائطا .

(١١) الذي به : التي بها .

- ٣ يا مليكا أوضح الحد بق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد قل مدني منه أمانه
قال قل للملك النا صر أبقى الله شأنه
- ٦ يا صلاح الدين يا من حمد الناس زمانه
لى خطيب واسطى يعشق السكر ديانه
ويحب الرد طبعاً وينفى بالجعانة
- ٧ فأننا فى كل حال لم أزل بالنسق حانه
فاستمع قصة حال زادك الله سيانه
- ٩ فلما وقف الملك الناصر على هذه القصة ، أمر بعزل العماد الواسطى عن خطابة
الجامع ، وولى عليه شخصاً من أهل العلم والصلاح ؛ انتهى ذلك .
قال ابن سناء الملك :
- ١٢ بدولة الترك عزت ملة العرب وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
وفى زمان ابن أيوب غدت حلب من أرض مصر وعادت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة بالصفح والعايج أو بالحرب والحرب
- ١٥ واستمر الملك الناصر بالشام حتى مرض ، وسلسل فى المرض ، حتى مات ،
رحمة الله عليه ؛ وكانت وفاته فى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة .
- ١٨ وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، نحواً من أربع وعشرين
سنة ، بما فيها من أيام الملك العادل نور الدين الشهيد؛ ومات الناصر صلاح الدين ، وله
من العمر نحو إحدى وسبعين سنة ، ودفن بدمشق ، فى مدرسة مجاهد الدين ، وخلف
من الأولاد سبعة عشر ولداً ذكراً .
- ٢١ ولم يخلف فى بيت المال لا ذهباً ولا فضة ، ولا قماشاً ، ولا سلاحاً ، وأنقذ جميع
ما (١٢٣ ب) فى الخزائن فى الغزوات والجهاد ، حتى فتح البلاد التى كانت بيد
الفرنج .

وكان له اشتغال بالعلم والحديث ؛ وهو أول من اتخذ قيام المؤذنين في أواخر الليل ، وطلوعهم إلى المآذن للتسبيح حتى يطلع الفجر ، واستمر ذلك إلى الآن .

وكان لا يلبس إلا الثياب القطن ، والجلبب الصوف ، وقد عدّه الياقعي في كتاب « روض الرياحين » أنه من جملة الأولياء الثلاثة ، ولما مات رثاه العماد الكاتب بقصيدة ، منها :

٦	والدهر ساء وأقلعت حسنانه	شمل الهدى والملك عمّ شتانه
	لله خالصة صفت نيّاته	بالله أين الناصر الملك الذي
	يرجى نداءه وتتقى سطوانه	أين الذي مازال سلطانا لنا
٩	وسمت على الفضلاء تشريفاته	أين الذي شرف الزمان بفضله
	دولا ومنها أدركت ثاراته	أين الذي عيت الفرنج سيموفه
	أطواق أجياد الورى مناته	أغلال أعناق العدى أسيافه

وأما ما افتتح من البلاد في أيامه ، قال ابن السبكي في « الطبقات » : ومن فتوحاته ، قلعة أيلان ، وطبرية ، وعكا ، والقدس ، وكان بيد الفرنج اثنتين وسبعين سنة .

١٥ وفتح مدينة الخليل أيضا ، والكرك ، والشوبك ، ونابلس ، وعسقلان ، وبيروت ، وصيدا ، وبيسان ، وغزة ، وصفورية ، والعلوة ، وهمليا ، والطور ، والإسكندرية ، وقبرس ، ويافا ، وأرسوف ، وقيسارية ، واللجون ، ومسجد نافول ، وريحا ، وحمص ، والديمر ، وأنطارطوس ، واللاذقية ، ومهران ، وجبله ، وقلعة الجماهرية ، ودر مسايل ، وبنراس ، وصفد ؛ وافتتح أكثر بلاد النوبة ، وكانت بيد النصارى .

٢١ (١٢٤ آ) ومن فتوحاته مصر من يدى بنى عبید الفاطمية الرافضة ، وفتح غالب

(٢) المآذن : المآذن .

(٢١) س ١٢٤ آ وس ١٢٤ ب ، عبارة عن ورقة صغيرة ألصقت في الأصل في هذا الموضع ،

ويلاحظ ما فيها من تكرار .

٣ بلاد اليمن؛ وفتح دمشق، وحمص، وحمّة، والمعة، وكفر طاب، وبارين، ومنبج، وعزاز، وحلب، والموصل، وسنجار، والرقّة، وجعبر، والرحبة، والخابور، وآمد، ونصيبين، والرها، وميافارقين، وسروج، والكرك، والشوبك، وبيت المقدس، وكان يمدى الفرنج نحو اثنتين وسبعين سنة.

٦ وفتح غزّة، وعسقلان، والرملة، وطبرية، وكوكب، وصفد، والطور، وبيت جبريل، وعكّا، وصيدا، ويبروت، والبطيرون، ونابلس، والداروم، وحيفا، والسارية، وشقيق، وصفورية، والناصرية، وتبنين، وهونين، وجبيل، وحسن الأكراد، وأنطرسوس، واللاذقية، وصهيون، وكداس، (١٢٤ ب) وبلاطنس، وسعر بكاس، وصابورية، وبفراس، ورودس، ودرب ساك، وأنطاكية، وحارم، وخلاط، والداروم، والبرنس، وحفرى، وفتح مدينة الخليل، عليه السلام، وغير ذلك من البلاد والقلاع والحصون، انتهى ذلك من فتوحاته المشهورة عنه، تمت.

١٢ وأما ما افتتح من بلاد المسلمين: حران، وسروج، (١٢٥ آ) وشمرزور، والرها، والرقّة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وآمد، وحلب، وأخذ الموصل بالأمان، قيل إنه أقام يحاصر عكّا سبعة وثلاثين شهرا حتى فتحها عنوة؛ وفتح مدينة طرابلس الغرب، وبرقة من بلاد المغرب؛ وأبطل في أيامه ما كان يؤخذ من حجّاج المغاربة من المكوس، لأمير مكّة، وعوّضه عن ذلك أشياء كثيرة، وأبطل ذلك عنهم.

١٨ فكان حكم الملك الناصر صلاح الدين من مصر إلى الفرات، ومن مصر إلى بلاد المغرب، والحجاز، واليمن.

٢١ فلما عظم أمره، تلاشى أمر خليفة بغداد الناصر لدين الله أحمد، فأرسل يقول لصلاح الدين: «أنت تلقبت بالناصر، وأنا ملقب بالناصر، فما يعرف لقبى من لقبك، فتلقب أنت بغير هذا اللقب»، فأرسل الناصر صلاح الدين يقول له: «أنا ما تلقبت بهذا اللقب، وإنما لقبني به الخليفة العاقد بالله، لما ولّاني الوزارة».

(١٢) وأما . . . وسروج: آخر سفر في صفحة (١٢٣ ب).

(١٤) يحاصر: ينصار.

واستمرّ صلاح الدين على لقبه حتى مات ؛ ثم تولّى من بعده ابنه العزيز بالله عثمان ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وذلك على سبيل الاختصار .

٣

ذكر

سلطنة الملك العزيز بالله عماد الدين عثمان

ابن الملك الناصر صلاح الدين

٦

يوسف بن أيوب

وهو الثاني من ملوك بني أيوب ؛ بويع بالسلطنة بعد موت أبيه ، وكان مولده

بمصر ، في جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسة ، وولى الملك وله من العمر نحو ٩ سبع وعشرين سنة ، وكان أصغر إخوته ، وكان أخوه الأفضل أكبر منه ؛ فلما توفى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بدمشق ، ولّى ابنه الأفضل على البلاد الشامية ، وولى ابنه الظفر غازى على البلاد الحامية ، وعهد لابنه عثمان بولاية مصر ١٢ (١٢٥ ب) .

فلما استقرّ عثمان بمصر ، وقع الخلاف بين الإخوة ، ووثب بعضهم على بعض ،

وجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ؛ وكان عثمان طائش العقل غلوفاً ، أخطأت ١٥ فيه فراسة والده الناصر بما كان يرجوه منه ، فكان كما قيل في المعنى :

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس فيهم فلاح

١٨ طال وقوفى بفناء ربهم من غير نفع فالرواح الرواح

فلما تولّى أمر مصر ، أعاد المكوس التى كان أبطالها والده ، وزاد فى شناعتها ؛

وتجاهر بالمعاصى ، حتى غلا سعر العنب فى أيامه لكثرة من يعصره ؛ وحيت بيوت

المزاراة والحانات ، وأما كنى الحشيش ، وأباحوا ذلك أرباب الأمر والنهى ؛ وأقيمت ٢١

(١٠) أخوه : أخاه .

(١٥) غلوفاً : غلوفاً .

على هدم الأماكن الضرائب الثقيلة ، وقرّر عليها في كل يوم ستة عشر دينارا ، حماية
للساحان ، وصار طاحون الحشيش عمالة كل يوم في حارة المسامدة ، وكذلك بيوت
المزار ، التي في الكباش ، عند الغور ؛ وكان القاضي عبد الرحيم الفاضل ، وزير أبيه ،
ينباه عن ذلك فلم ينته ؛ ووقع في أيامه الغلاء بمصر ، والتمح في الجرون ، واضطربت
أحوال الديار المصرية في أيامه .

ومن الحوادث أن دارا كانت عند فم السد ، تعرف بدار ابن مقشر ، وكان
يحصل من أجرتها يوم فتح السد ، ما لا يحصل من أجره غيرها في مدة سنة كاملة ،
بسبب فتح السد والفرجة عليه ، يوم وفاء النيل ؛ فلما كان يوم الأحد سابع صفر سنة
إحدى وتسعين وخمسمائة ، أوفى النيل على جاري العادة ، فأكرت الناس البيوت ،
التي في دار ابن مقشر ، بسبب الفرجة ، حتى ما بقي فيها ما يسع قدم إنسان ؛ فبينما
الناس محتبكة بها ، فسقطت عليهم تلك (١٢٦ آ) الدار على من بها من الناس ،
فأتوا أجمعين ، وكان بها من الناس نحو خمسمائة إنسان من رجال ونساء وسفار ،
فأقاموا يستخرجون منها الأموات ثلاثة أيام .

فبينما هم على ذلك ، فوجدوا تحت الردم شخصا يسمى بأبي البقا ، وفيه بعض
نفس ، فطلع من تحت الردم ، وأقام مدة وهو ضعيف ، ثم عوفي وعاش بعد ذلك مدة
طويلة ؛ ثم في بعض الأيام طلع إلى سطح داره ، فزلّت رجله من ثلاثة درج ، فأت
من وقته ، انتهى ذلك .

وفي هذه السنة توفي الإمام شجاع بن محمد بن سيدهم ، شيخ القراءات السبع .
قال ابن المتوج : جاء رجل أعجمي من توريذ العجم ، فأوحى إلى الملك العزيز أن
الهرم الصغير ، المكسو بالحجر الصوان ، تحته مطلب ، وكان الملك العزيز عنده خفة ،
فوجه إليه القطاعين ، فأقاموا نحو شهر ، ولم يهدم منه إلا اليسير ، فأفق على هدمه
مالا جزيلا ، ولم يفسد من ذلك شيئا ، فهرب العجمي ، وترك الملك العزيز هدمه
عن عجز .

وفي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، توفى الرئيس شرف الدين بن السديد ، شيخ الطب في عصره .

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، توفى أبو القاسم الكاتب الواسطي ، وهو يحيى ابن علي بن يحيى الوزان ، وكان من فحول الشعراء .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

فيها خرج الملك العزيز إلى نحو الفيوم يتصيد، فبينما هو في الفضاء، إذ لاح له ظبي، فساق خلفه، فكبا به الفرس، فدخل قريوس السرج في صدره، فمات من وقته، فحمل إلى القاهرة، ودفن عند الإمام الشافعي، رضي الله عنه؛ وكانت وفاته في يوم الخميس حادي عشرين المحرم، سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وكانت مدة سلطنته بمصر، نحو سبع سنين وأصهر؛ ولما مات تولى بعده ابنه محمد المنصور؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك العزيز عثمان وذلك على (١٢٦ ب) سبيل الاختصار، تمت .

١٢

ذكر

سلطنة الملك المنصور محمد

ابن الملك العزيز عثمان

ابن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب

١٥

وهو الثالث من ملوك بني أيوب؛ بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العزيز، في العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة؛ وكان القائم بأمر دولته الأمير بهاء الدين قراقوش، اخصى الحبشي، فساس الناس في أيامه أحسن سياسة .

١٨

وكان الملك المنصور صغير السن، فأقام في السلطنة مدة يسيرة، وأتت أعمامه من البلاد الشامية، وتخاصروا معه، فانكسر وسجن بقلعة الجبل، واستمر مسجوناً إلى أن مات في السجن، فكانت مدة سلطنته بمصر نحو عشرة أشهر؛ ولما خلع من السلطنة، تولى بعده عم أبيه الأمير أبو بكر بن أيوب؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المنصور محمد .

٢١

ذكر

سلطنة الملك العادل سيف الدين أبي بكر

ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي

٣

وهو الرابع من ملوك بني أيوب ؛ بويغ بالسلطنة بعد خلع ابن ابن أخيه المنصور محمد ، في شوال سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

وكان العادل هذا في أيام أخيه الناصر صلاح الدين يوسف ، قد استولى على عدة بلاد من بلاد الشرق ، وكان مولده بمدينة بابل ، سنة أربع وستين وخمسمائة ، وكان أصغر من أخيه صلاح الدين يوسف .

فلما تولى السلطنة مشى على نظام أخيه الناصر ، وكان وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ؛ قيل إنه كان يشتهي بمصر ، ويعتف بالشام ، وكان خفيف (١٢٧ آ) الركائب ، مسعود الحركات ، كثير الغزوات ، وافر العقل .

وفي سنة ست وتسعين وخمسمائة ، توفى الأمير محمد بن أبي الطاهر بن محمد بن بيان الأنباري الشافعي ، من أعيان العلماء الشافعية .

وفي أيامه توفى القاضي عبد الرحيم الفاضل ، وزير الديار المصرية ، وصاحب ديوان الإنشاء ، وهو أول من كشف الغطاء عن التورية في الشعر ، وكان فريد عصره في الإنشاء والبديع ، وغير ذلك من العاوم ؛ ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ومات في سابع ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ودفن بالقرافة بجوار تربة الشاذلي ، رحمة الله عليه ، ومن قوله في باب التورية في معذر :

وكننت وكذا والزمان مساعد فصرنا وهو غير مساعد

وزاحمتي في ورد ريقك شارب ونفسي تأبى شركها في الموارد

وفي سنة ست وتسعين أيضا ، توفى الشيخ أبو الفتح محمد بن محمود الطوسي ، كان إماما في مذهب الشافعي .

ومن الحوادث العظيمة في أيام العادل هذا ، أن في سنة سبع وتسعين وخمسة ،
توقف النيل عن الزيادة ، وانتهى في الزيادة إلى اثنتي عشرة ذراعا وأصعبا ، ثم انهبط
ولم يزد بعد ذلك شيئا ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وحصل الضرر الشامل
للبرية ، وأكلت الناس بعضها بعضا .

واستمرّ النيل على ذلك ثلاث سنين متوالية ، لم يزد غير اثنتي عشرة ذراعا ، ثم
يهبط ، فوقع القحط ، وهدمت الأقوات ، فصار الناس من شدة الجوع يأكلون
الكلاب والقطط والحمير والبغال والخيول والجمال ، حتى لم يبق بمصر دابة تلوح ؛ ثم
تزايد الأمر حتى صار الرجل يذبح ابن جاره ، أو عبده ، أو جاريته ، ويأكلهم ، ولا
ينكر عليه ذلك ؛ وقد تنافى سعر القمح في أواخر هذه السنين المجدة ، إلى مائة دينار
كل أردب (١٢٧ ب) ولا يوجد .

هكذا نقل الإمام أبو شامة ، ثم قال : وقد عقب هذه الغلوة فناء عظيم ، حتى إن
الملك العادل ، كفّن من ماله في مدّة يسيرة ، من مات من الغرباء نحو مائتين وعشرين
ألف إنسان ؛ وأما الذي مات من أهل مصر ، فلا يحصى عددهم ، حتى قيل : كان
النيل إذا طلع لم يجد من يزرع عليه الأرض ، فكانت الأتراك تخرج بنفسها ،
ويحرقون ويزرعون ويحصدون ، وذلك لعدم وجود الفلاحين .

قال الإمام أبو شامة : كانت الأطباء يدعونهم إلى المرض ، فإذا حصلوا عندهم
في الدار ، ينفقوا عليهم الأبواب ويذبّحونهم ويأكلونهم ؛ وكذلك كانوا يفعلون بالفواسل ،
يدعونهم إلى الأموات ، فإذا حصلوا عندهم في الدار ، ذبّحونهم وأكلونهم ، وصار
لا ينكر ذلك بين الناس .

قيل إن رجلا من أهل مصر استدعى بطبيب ، فلما أتى معه ، جعل الرجل يكتر

(٣) الديار : الدار .

(٧) لم يبق : لم يبق . دابة : ذابة .

(٩) تنافى : تنافى .

(١١) هكذا : هكذا .

(١٧) ينفقوا : كذا في الأصل . || ويذبّحونهم ويأكلونهم : كذا في الأصل .

من ذكر الله تعالى بطول الطريق، فسكن روع الطيب بعد ما كان في وجل، فاستمرّ
يمشي معه حتى وصلا إلى دار خربة، فخرج منها رجل، وقال للرجل الذي جاء بالطيب:
« وهل مع هذا البعء العظيم، جئت لنا بصيد »؟ فلما سمع الطيب ذلك ولّى هاربا،
وما خلس إلا بعد جهد كبير .

واستمرّ الأمر على ما ذكرناه مدة طويلة، ثم سكن الحال، وتراجع الأمر قليلا،
قليلا، وانحطّ سعر القمح، وظهر في العرصات، وامتلاّ أعين الناس منه، وزالت
تلك الشدة عن (١٢٨ آ) الناس، وانتسى أمر الغلاء، كأنه لم يكن، كما قيل في المعنى :

إذا مارماك الدهر يوما بنكبة فهنيء لها صبرا، وأوسع لها صدرا

فإنّ تصارب الزمان كثيرة فيوما ترى عسرا، ويوما ترى يسرا

انتهى ذلك . - وفي هذه السنة توفّي الإمام الحسن بن الخطير النعماني الفارسي،
وكان من أعيان العلماء الحنفية، وكان له تفسير القرآن في عدّة مجلدات، مات في
أوائل سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .

ولما توفّي الفاضل توفّي عوضه في الوزارة، الصاحب بهاء الدين زهير محمد بن
محمد بن علي بن يحيى بن الحسن الأزدي، ثم المصري، وكان عالما فاضلا، بارعا في البديع
والإنشاء، وله شعر جيّد ومعاني غريبة، أقام في الوزارة إلى آخر دولة بني أيوب،
ووزر للملك الكامل، والعادل، والصالح، والعظم، ومن شعره قوله :

عقبكم عقب المحبّ حبيبه وقلت بإذلال فقولوا بإصفا .

للمكّم قد صدّكم عن زيارتي مخافة أمواه لدمعى وأنواء

فأو صدق الحبّ الذي تدّعون وأخلصتم فيه مشيتم على الماء

وفي أيام العادل هذا، جاءت الأخبار بوفاة الشيخ مؤيد الدين الطغراني، صاحب
لامية العجم، وكان الطغراني كاتب الإنشاء للملك مسعود، صاحب حماة؛ فلما كانت
الواقعة بين الملك مسعود، وبين أخيه الملك محمود شاه، فانتصر محمود شاه على أخيه
الملك مسعود؛ فلما ولّى هاربا، فكان أول من أسر من جماعة الملك مسعود، مؤيد

الدين الطغرائي ، وكان الملك محمود شاه يكره الطغرائي .

وكان الطغرائي له شغف بمملوك الملك محمود شاه، وله فيه أشعار كثيرة، (١٢٨ب)

٣ فلما أسر الطغرائي ، أمر الملك محمود شاه بأن يصلب على شجرة ، وأمر ذلك المملوك ،
الذي كان يهواه الطغرائي ، أن يرمى عليه بالنشاب حتى يموت ؛ ثم إن الملك محمود شاه
اختفى في مكان ، حتى يرى ما يكون بينهما ؛ فلما أوتر المملوك قوسه ، وفوق السهام
٦ به ، فأنشد الطغرائي ارتجالاً :

ولقد أقول لمن يفوق سهمه نحرى وأطراف النية تسرع

والموت في اللحظات أحزر طرقة دوني وقلي دونه يتقطع

٩ بالله فتش عن فزادى هل ترى فيه لغير هواك أضحي موضع

أهـون به لو لم يكن في طيه عهد الحبيب وسيره المستودع

فلما سمع الملك محمود شاه شعره ، رق له وعنا عنه من القتل ، فأقام بعد ذلك مدة

يسيرة ، ومات .

١٢

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

فيها ، في شهر رمضان ، توفي العماد الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حامد

١٥ الأصفهاني ، ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة بأصفهان ، ثم تفقه ببنداد ، ودخل مصر
في دولة الفاطميين ، وكان عالماً فاضلاً ، شاعراً ناضلاً ناثراً ، وله شعر جيد ، فمن ذلك
قوله :

١٨ وما هذه الأيام إلا صحائف نورخ فيها ثم نضحى ونمحق

ولم أر شيئاً مثل دائرة المنى توسمها الآمال والعمر ضيق

قليل مر عليه القاضي الفاضل وهو راكب ، فقال له : « دام علا العماد » ، فأجابه العماد

٢١ على الفور : « سر فلا كبا بك الفرس » ، (١٢٩ آ) وهذا النوع يقرأ طرداً وعكساً ،
وهو عزيز الوقوع .

وفي سنة إحدى وستائة ، توفي الناشري ، البارع في القراءات بالروايات السبع ،

توفي في شوال .

٢٤

وفي سنة ثمان وستائة ، توفى القاضي السعيد هبة الله أبو القاسم عبد الله بن جعفر ابن سناء المملك المصرى ، عين أعيان الشعراء بالديار المصرية ، ولد سنة خمسين وخمسمائة ، وهو مؤلف كتاب « دار الطراز فى الموشحات » ، وله ديوان فى فن البديع ، ومن شعره الرقيق هذه الأبيات من قصيدة ، وهى من المختراعات ، منها قوله :

٦ سعدت بيدر خده برج عقرب فكذب عندى قول كل منجم
وأقسم ما وجه الصباح إذا بدا بأوضح منى حجة عند لوى
ولا سبى لما مرت بمنزل كفضلة سبر فى فؤاد متيم
وما بان لى إلا بعود أراكه تعلق فى أطرافه ضوء مبسم

وهذا البيت من المختراعات ، التى لم يُسبق إليها ؛ وكان القاضي الفاضل ، شيخ ابن سناء المملك ، وهذا الشبل من ذاك الأسد ، انتهى ذلك .

١٢ واستقر الملك العادل فى السلطنة بمصر ، حتى خرج إلى الشام لتفقد الأحوال ، فرض هناك ، ومات ، ودفن بدمشق ؛ فكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستائة ، وكانت مدة سلطنته بمصر ثمان عشرة سنة وتسعة أشهر .

١٥ وكان العادل رجلا طويلا جسيما ، مدور الوجه ، ثرها فى الأكل ، يأكل الخروف وحده ، وكان يحب من يأكل معه مثله ؛ وكان كثير الجماع لا يمل منه .

١٨ ولما مات خاف من الأولاد ثلاثة ، وهم الكامل محمد ، والمعظم عيسى ، والأشرف موسى شاه أرمن ؛ فاستقر الملك الكامل محمد ، بعده بمصر ، واستقر الملك المعظم عيسى ، بحماة ، واستقر (١٢٩ ب) الملك الأشرف موسى شاه أرمن ، بنجاب ، وكان موسى شاه أرمن بديع الجمال ، وهو ممدوح القاضي كمال الدين بن النبیه ، حيث يقول من قصيدة نائية :

يا طالب الرزق إن ضاقت مذاهبه قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت

(تاريخ ابن لياس ج ١ ق ١ - ١٧)

وفي سنة خمس وستمائة ، توفى القاضي ابن درباس الكردي الموصل ، قاضي
القضاة بالديار المصرية ، ولد سنة عشرة وخمسمائة ، ومات بمصر في رجب من تلك السنة .
[وتوفى] الشيخ سديد الدين بن سحاق ، توفى سنة اثنتي عشرة وستمائة ، مات ٣
بشفر دمياط .

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك العادل ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

سلطنة الملك الكامل ناصر الدين محمد

ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب

وهو الخامس من ملوك بني أيوب بمصر ؛ بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العادل ، ٩
يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة ، سنة خمس عشرة وستمائة ، وكان الملك الكامل أكبر
إخوته .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي : إن الملك الكامل استولى على الديار المصرية ، ١٢
نحو أربعين سنة ، نصفها في حياة أبيه ، ونصفها مستقلاً بها بمفرده .
وكان كثير الأسفار إلى البلاد الشامية ؛ وكان يكثر من الإقامة بوادي العباسية ،
ويقول : « هذه أحسن عندي من الإقامة بالقاهرة ، أسيد بها الطير من السماء ، والسمك ١٥
من الماء ، والوحش من الفضاء ، ويصل إلى خبر القاهرة في كل يوم مرتين » ؛ وأنشأ
بالعباسية القصور والبساتين ، وكانت من أجل متزهاته .

وهو الذي أكمل بناء قلعة الجبل ، وسكن بها ، وكان الملك الناصر صلاح الدين ١٨
يوسف ، هو الذي شرع في بنائها أولاً .

ومن الحوادث في أيامه ، أن في سنة ثمان عشرة وستمائة ، جاءت الأخبار من ثغر
دمياط ، بأن الفرنج أتوا من البحر في مائتي مركب ، واستولوا على مدينة دمياط ، ٢١
وملكوها .

(٤١-٤) وفي سنة . . . دمياط : كتبت في الأصل على هامش من (١٢٩ ب) .
(٣) [وتوفى] : تنقص في الأصل .

- فلما تحقق (١٣٠ آ) الملك الكامل صحة الأخبار ، نادى فى القاهرة بالنفير
عاما ، واضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، وعرض السلطان العسكر ، وجمع
سائر العربان من الشرقية والغربية ، فاجتمع من العساكر نحو عشرين ألف مقاتل . ٣
- فلما تكامل العسكر ، خرج الملك الكامل بطلب حربى على جرائد الخيل ، وخرج
صحبته السواد الأعظم من أهل مصر والقاهرة ، فتوجه إلى طلمبا ، ونزل على بحر
أشموم ، وصار يحاصر الفرنج بدمياط . ٦
- فلما دام بينهما الحصار ، ووقع الغلاء فى العسكر ، حتى أبيع الرغيف الخبز بثقله
فضة ، وأبيع بيضة الدجاجة بدينار ، وصار العسكر فى مقام الياقوت الأحمر ، وصار
العسكر يطعمون الخيول من أوراق الأشجار ، وتفاقت الرعية ، من عظم هذه البلية . ٩
- وأمر الفرنج كل يوم يتزايد ، وقد حصنوا مدينة دمياط ، ونهبوا ما فيها ، وسبوا
أهلها ، وجعلوا الجامع الكبير ، الذى بها ، كنيسة ، وصاروا لا يملكون من الحرب ليلا
ولا نهارا ، وقتل من المسمين ما لا يحصى عددهم ، من العسكر وغيره . ١٢
- وكانت مدة هذه المحاصرة بين الفريقين ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما .
وقد أشرف الملك الكامل على الغلب ، وصار يبعث السعاة إلى البلاد الشامية ،
يستحث إخوته على الحضور ، وحببتهم العساكر الشامية . ١٥
- وفى هذه المدة توفى فى القاهرة جماعة من الأعيان ، [منهم] الشيخ شرف
الدين يحيى ابن معط ، الفحوى ، كان من أئمة الفجويين ، مات بمصر سنة عشرين
وسبائة . ١٨
- وتوفى الشيخ علاء الدين على بن محمد بن النبیه ، الناظم النائر ، صاحب الأشعار
الرائقة ، والمعانى الفائقة ، مات سنة إحدى وعشرين وسبائة ، وكان له شعر جيد ،
لم يسبق إليه ، وكان غالب شعره مديحا فى الملك الأشرف موسى (١٣٠ ب) شاه أرمن ، ٢١

(١١) يملون : يملوا .

(١٦) [منهم] : تنقص فى الأصل .

(٢١) لم يسبق : لم سبق .

فمن ذلك قوله فيه :

٣ تعالى الله ما أحسن شقيقا حنّ بالسوسن
خـدود لثمها يرى من الأسقام لو أمكن
٦ فما تجنى وحارسها بقتل الصدغ قد زرفن
غزال ضيق العينية بن يسبي من الرشا الأعين
له قلب وأعطاف فما أقسى وما ألين
ولم أرَ قبل مبسمه سفير الجواهر المثنى
أبثّ عواه من حرق لنجم الليل لما جنّ
٩ وما ينفع كتمانى ودمع العين قد أعلن
فتنتُ بحسن صورته ومن يهوى الدما يفتن
وكم أسكنته قاي فسار وأحرق المسكن
١٢ فأنسى بعد وحشته بنظم مديح شاه أرمن

١٥ وفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، توفى جعفر بن شمس الخليفة بن محمد المصرى
الأفضلى ، كان من أعيان الشعراء بمصر ، مات سادس المحرم من تلك السنة ، وكان
له شعر جيّد ، فمن ذلك قوله :

إذا شئت أن تلقى دليلا إلى الهدى لتقفوا لآثار الهداية من كاف
نخل بلاد الشرق عنك فإنها بلاد بلا دال وشرق بلا قاف

١٨ وفي هذه السنة توفى الرئيس فخر الدين الفارسي ، رئيس الطب ، وكان بارعا في
العاب ، وله فيه مصنفات كثيرة .

٢١ وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة ، توفى الشيخ أبو الحسن بن الصباغ ، كان
من كبار الأولياء .

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، فيها توفى الشيخ العارف بالله ، الوارع الناسك
الزاهد ، المسلك ، أبو العباس أحمد البصير الخزرجي الأنصاري الأندلسي ، كان أبوه

- ٣ من ملوك المغرب ، فولد الشيخ وهو أطمس العينين ، تخافت أمته من سطوة أبيه ، فألقته في البرية ، فأنت إليه الغزلان وأرضعته ، ثم إن والده خرج إلى الصيد فلقمه ، فأخذه وهو لا يشعر أنه ابنه ؛ فلما أتى (١٣١ آ) به إلى منزله ، قال لزوجته : « ربيبه ، لعل الله تعالى أن يجعل لنا فيه خيرة » ؛ فلما كبر الشيخ ، فتح عليه ، وقرأ القرآن ، واشتغل بالعلوم الشرعية إلى أن برع فيها ، ثم تصوف ، وظهر له كرامات خارقة ، ومات في أثناء تلك السنة ، رحمة الله عليه ، ودفن بالقرافة الصغرى .
- ٦ وفي هذه السنة ، كانت وفاة الإمام الرافعى ، رضى الله عنه ، وقد عاش من العمر نحو خمس وستين سنة ، واسمه القاسم محمد بن عبد الكريم الرافعى ، انتهى ذلك .
- ٩ ومن هنا نرجع إلى أخبار الملك الكامل محمد ، فإنه لما أرسل يستحث إخوته إلى قتال الفرنج ، فحضر إليه أخوه الملك المعظم عيسى ، صاحب دمشق ، وأخوه الملك الأشرف موسى شاه أرمن ، صاحب حلب ، وماردين .
- ١٢ فلما جاءت العساكر الشامية ، تكامل عند الملك الكامل نحو أربعين ألف مقاتل ، فتحارب الملك الكامل مع الفرنج أشد الحاربة ، وحاصروهم برأ وبحرا .
- ١٥ قيل : كان في مدة هذه المحاصرة ، يمشى في ركاب الملك الكامل شخص يسمى شبايل ، وكان من جملة جنودارية الوالى ، فكان يسبح في البحر تحت الليل ، ويأتى الملك الكامل بأخبار الفرنج ، فلما انتصر الملك الكامل على الفرنج ، وحضر إلى القاهرة ، أخاع على شبايل المذكور ، واستقر به والى القاهرة ، وإليه تنسب خزانة شبايل ، التى كانت سجننا لأصحاب الجرائم .
- ٢١ فلما طال الأمر على الفرنج ، ورأوا عين الغلب ، أرسلوا يطلبوا الأمان من الملك الكامل ، وعلى أنهم يتركوا دمياط ، ويرحلوا عنها إلى بلادهم ، فاتفق الحال على ذلك ؛ ثم إن كلا من الفريقين ، يعطى رهائن من أقاربه ، ويتطابق من عنده من الأسراء ،
- (٣) ربيبه : كذا في الأصل .
(١٩-٢٠) يطلبوا . . . يتركوا : كذا في الأصل .
(٢٠) ويرحلوا : كذا في الأصل .
(٢١) الأسراء : كذا في الأصل .

من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف .

فلما تقرر الحال على ذلك ، ووقع الصلح ، أرسل ملك الفرنج عشرين ملكاً من
أقربيه (١٣١ ب) إلى عند الملك الكامل ؛ ثم إن الملك الكامل أرسل إلى عند ملك
الفرنج ابنه الأمير نجم الدين ، ومعه جماعة من الأمراء .

فعند ذلك سلم ملك الفرنج مدينة دمياط ، وأطلق من عنده من الأسراء ، وكذلك
الملك الكامل أطلق من عنده من الأسراء ، واتفق بينهما الصلح .
ومن جملة أطفاف الله تعالى ، لما وقع الصلح جاءت إلى ملك الفرنج نجدة من البحر ،
نحو مائتي مركب ، فلو جاءت هذه النجدة ، قبل أن يسلموا مدينة دمياط ، كانوا
تقووا بها على المسلمين ، وكسروهم .

قيل : لما رحلوا الفرنج عن دمياط ، ودخلها الملك الكامل ، كان يوم دخوله إليها
يوماً مشهوداً ؛ ثم إن الملك الكامل أرسل بهذه البشارة إلى القاهرة ، وكتب بها إلى
سائر الآفاق ، وكانت الفرنج أشرفوا على أخذ الديار المصرية .

وفي سنة ست وعشرين وستمائة ، توفي نجم الدين يعقوب بن صابر القرشي ،
المعروف بالمنجنيقي ، وكان من فحول الشعراء بالعراق ، ومولده سنة أربع وخمسين
وخمسمائة .

وكانت مدة استيلاء الفرنج على ثغر دمياط ، إلى حين رحلوا عنها ، ثلاث سنين
وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً ، وكانت مدة محاصرة الملك الكامل للفرنج ، سنة
وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً ، وهو معهم في جهاد ليلاً ونهاراً ، لا يكل من
الحروب ، إلى أن دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبي : لما حصلت هذه النصر للملك الكامل ، توجه
من دمياط إلى المنصورة ، ونزل في القصر الذي أنشأها بها سنة ست عشرة وستمائة ،
فاجتمع هناك هو ، وأخوه الملك المعظم عيسى ، وأخوه الملك الأشرف موسى ؛ قيل :

(٦٥٥) الأسراء : كذا في الأصل .

(١٣-١٥) وفي سنة . . . وخمسمائة : كتبت في الأصل على هامش من (١٣١ ب) .

٣ إنَّ أول من تلقَّب بالملك الأشرف موسى ، [هو] شاه أرمن ، وكان متولياً على حلب ؛ فمدَّ هناك سباط عظيم ؛ ثم أحضر بعد ذلك سفرة الشراب ، ونسى ما قاله من حصار (١٣٢ آ) الفرنج في هذه المدَّة ، فكان كما قيل في المعنى :

٦ فيوم علينا ، ويوم لنا ويوم نساء ، ويوم نسر
فلما دارت الكاسات بينهم ، أحضر الملك الأشرف موسى ، جارية تضرب بالعود ، فأخذت العود وحرَّكته ، ثم أنشأت تقول :

٩ ولما طغى فرعون عكاً بسحره وجاء ليسعى بالفساد إلى الأرض
أتى نحوه موسى وفي يده العصا فأغرقهم في اليمّ بعضاً على بعض
فطرب الملك الأشرف موسى لذلك ، فشقَّ على أخيه الملك الكامل محمد هذا المعنى ، وأرسل خلف الراجح الحلى ، وقال له : « أجب عن هذين البيتين » ، فأجاب عنهما بهذين البيتين ؛ ثم إنَّ الملك الكامل أحضر جارية تضرب بالعود ، فأخذت العود وحرَّكته ، وغنَّت في المجلس الثانى بييتين الراجح الحلى ، وهما :

١٥ أيا أهل دين الكفر بالله فاعجبوا لما قد جرى في عصرنا وتجددا
ألا إنَّ موسى قد أتنانا وقومه وعيسى جميعا ينصرون محمدا
أقول : والراجح الحلى ، توفى في دولة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وجاء من بعده العفى الحلى ؛ قال الشيخ جمال الدين بن نباتة في الفرق بينهما :

١٨ يا سائلى عن رتبة الحلى في نظم القريض وراضياً بي أحكم
للشعر حلّيان ذاك راجح ذهب الزمان به ، وهذا قيم
انتهى ذلك . - ثم إنَّ الملك الكامل أمر لكل جارية منهما (١٣٢ ب) بنخمسة مائة دينار ، وأجاز الراجح الحلى أيضاً .

٢١ ثم إنَّ الملك الكامل أمر أخويه أن يتوجَّها إلى بلادهما ، فلما توجَّها ، دخل الملك الكامل إلى القاهرة في موكب عظيم ، وكان يوماً مشهوداً .

(١) [هو] : تنفس في الأصل .

(٢) سباط عظيم : كذا في الأصل .

(١٢) بيبتين : كذا في الأصل .

وفى سنة إحدى وعشرين وستمائة ، توفى الشفخ أمفن الءفن مظفر التبرفزى ،
صاحب « المءنصر » ، مات بمصر فى ذى ءفة .

٣ ثم ءءلت سنة ثلاثفن وستمائة

فبها أكمل الملك الكافل بناء مدرسته التى بفن القصرفن ، المعروفة بالكاملفة ،
وسماها ءار الءفء ، وهى أول ءار بنفء للءفء فى القاهرة ، وكان شرع فى
بنائها من سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

قفل : لما ءفر أساس هذه المدرسة ، وءء ففه صنم كبرف من الذهب ، فأمر الملك
الكافل أن فسبك ءنائفرا ، وفصرف على بناء هذه المدرسة ، فبنفء من وءف ءفل .
ثم إن والءة الملك الكافل توففء إلى رءمة الله تعالى ، فءفنها ابنها عند الإمام
الشافعى ، رضى الله عنه .

ثم شرع فى بناء القبة التى على ضرف الإمام [الشافعى] ، ولم فعر فى ءنفا
مئلبا ؛ وأنشأ بها ءلاوى برسم الصوفة ؛ وأنشأ بها ءاما ، وبنى مءرة تنقل الماء من
بركة الءبش أيام النفل بسواقى ، إلى صهرفء عند تربة الإمام الشافعى ، وهى باقىة إلى
الآن ؛ وأنشأ هناك الءوض الذى على الطرفق السالكة ؛ ومما قفل فى السففنة التى
على القبة :

فسقى تربة الشافعى الإمام من الكوثر الأعفن ءارففة
لها قبة ءءبها سفء وبءر له فوقها ءارففة

ومن الءواءء فى أيامه ، أن شءفا مفربفما ءءل القاهرة ، وكان له فء طائفة فى
علم السفمفاء ، فأظهر لشءص من أعمان الناس بستانا ءارف القاهرة ، وهو من أءسن
ما فكون ، كءفر الأشءار من سائر أصناف الفواكه ، وبه ءمس سواقى ءائرة ،
وءولها نحو عشرين ثورا ، وءولة واقفة ءول ذلك البستان ، فلما رآه الرجل أعءبه
واشءراه من المفربف بألف ءفءار ، وقبضه الثمن ، وأشهد عفله المفربف بفسلفم ذلك

(٢-١) وفى سنة . . . ذى ءفة : كءبء فى الأصل على هامش من (١٣٣ آ) .

(١١) [الشافعى] : تنفس فى الأصل .

البستان ، بفاض وشهود ، ثم مضى المغربى إلى حال سبيله (١٣٣ آ) .

وبات ذلك الرجل فى البستان الذى اشتراه ، فلما أصبح ، وجد نفسه بين السكبان ،

٣ ولم يجد شيئا من ذلك البستان الذى رآه ، فصار يسأل من الناس : « هل كان فى هذا الموضع بستانا ؟ » فيقولون له : « ما سمعنا بهذا قط إلا منك » .

فحصل للرجل ماخولية ، وتجنن ، وشاع أمره بين الناس ، وصار متعجبا مما وقع

٦ له ؛ فبلغ الملك الكامل ذلك ، فطلب المغربى ، فلم يجده ، وأخذ الألف دينار ومضى ، وهذه الواقعة من الغرائب ، انتهى ذلك .

أعجوبة : قال بعض المؤرخين : إن مالوك اليمين أهدت إلى الملك الكامل شمعدان

٩ من نحاس أصفر ، وفيه حركة ، يخرج منه عند طلوع الفجر شخص من نحاس ،

لطيف الخلقة ، يخاطب الملك قائلا : « صبحك الله بالخير ، قد طلع الفجر » ، أو صفيرا

هذا معناه ؛ وكان هذا الشمعدان من صنعة الميقاتية ، وأقام فى حواصل المالوك إلى

١٢ أيام الملك الناصر محمد بن قلاون ، انتهى ذلك .

وفى أيامه جاءت الأخبار من حماة ، بوفاة الشيخ زكى الدين القوصى ، وكان

فاضلا شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد ، وكان سبب موته أنه كان فى خدمة الملك المظفر

١٥ محمود ، صاحب حماة ، من قبل أن يلى حماة ، وكان الملك المظفر يمد الشيخ زكى الدين

القوصى ، أنه إذا ولى مملكة حماة يزعم عليه بألف دينار ، فلما ولى مملكة حماة ، كتب

إليه الشيخ زكى الدين هذين البيتين ، وهما :

١٨ مولاي هذا الملك قد نلته برغم غلوق من الخالق

والدهر منقاد لا شئتبه فذا أوان الموعد الصادق

فعند ذلك أنعم عليه بألف دينار ، التى كان يده بها (١٣٣ ب) ، ثم إن الملك

٢١ المظفر صار يرسل الشيخ زكى الدين فى الأسفار إلى بعض أشفاله ، حتى نفدت منه

الألف دينار على ما كان يصرفه فى الأسفار ، ولم يبق معه منها شيء ، فبلغ الملك المظفر

(١٣) وفى أيامه : بمعنى الملك الكامل .

(٢٢) ولم يبق : ولم يبق . // شيء : شيئا .

عن الشيخ زكي الدين أنه قال :

٢ إن الذي أعطوه لي جملة قد استردّوه قليلا ، قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا وحسبنا الله ونعم الوكيل
فما بلغ الملك المظفر ذلك ، أمر بحبس الشيخ زكي الدين ، فحبس ، فبأنه عن
الشيخ زكي الدين أنه قال وهو في السجن :

٦ أعطيتني الألف تعظيما ومكرمة ياليت شعري أم أعطيتني ديتي
ولم يرجع عما هو فيه بسبب الألف دينار ، فعند ذلك أمر بحنقه ، فحنق وهو في
السجن ، ودفن تحت الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس ؛ انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وسمائة

٩ فيها ، في ثالث جمادى الأولى ، توفي الشيخ العارف بالله ، سلطان العشاق ، الشيخ
شرف الدين أبو القاسم عمر بن علي بن مرشد الحموي ، المعروف بابن الفارض ، رضى
الله عنه ؛ قيل : إن والده كان قد برع في علوم الفرائض ، حتى اتفرد به في عصره ،
١٢ فسمي الفارض .

وكان مولد الشيخ شرف الدين بالقاهرة ، في رابع ذي القعدة ، سنة سبع وسبعين
وخمسمائة ، فساكن مدة حياته أربع وخمسين سنة وستة أشهر ، ودفن تحت العارض ،
١٥ بجوار الجبل المقطم ، عند مجرى السيل ؛ وفيه يقول أبو الحسين الجزار الشاعر :
لم يبق صيب مزنة إلا وقد وجبت عليه زيارة ابن الفارض
(١٣٤ آ) لا غرو أن يسقى ثراه وقبره باق ليوم العرض تحت العارض
١٨ وكان الشيخ شرف الدين ، رحمة الله عليه ، فريد عصره في علم التصوف ، وكان
له نظم جيد في معاني الغراميات ، ومن رقائق شعره ما قلده في نوع الجناس التام ،
وهو قوله :

٢١ خليلي إن زرتما منزلي ولم تجداه فسيجا ، فسيجا
وإن زرتما منطقي من فمي ولم ترياها فسيجا ، فسيجا

وقد عاصر الشيخ شرف الدين جماعة من أكابر العلماء ، منهم : الشيخ زكي الدين ٢٤

المنذرى الشافعى ، والشيخ جلال الدين القزوينى ، والشيخ أمين الدين بن الرقاق ،
والشيخ جمال الدين الأميوطى الإمام ، والشيخ شمس الدين بن خلكان ، والشيخ
شمس الدين الأيبكى ، والشيخ سعد الدين بن الخارثى الحنبلى المحدث ، والشيخ برهان
الدين الجعبرى ، والشيخ أبو القاسم المنفلوطى ، والشيخ شهاب الدين السهروردى ،
والشيخ شهاب الدين بن الخيمى ، وغير ذلك من العلماء .

ولم يعترض عليه أحد منهم فيما يقوله من نظمه ، وكانوا معه فى غاية الأدب ؛ ولما
توفى الشيخ شرف الدين ، دفن تحت رجاين شيخه محمد البقال ، رحمة الله عليهما .

قيل إن الملك الكامل أرسل إلى الشيخ شرف الدين ألف دينار ، فردّها عليه ،
ولم يقبأها منه .

وكان الملك الكامل يميل إلى فنّ الأدب ، ويطارح الشعراء ، ومما وقع له ، قيل :

دخل عليه مظفر الدين الأعمى ، الشاعر ، فقال له الكامل : « أجز على نصف هذا

البيت : « قد بلغ العشق منتهاه » ، فقال مظفر : « وما درى العاشقون ما هو » ،

(١٣٤ ب) قال الكامل : « وإنما غرّهم دخولى » ، فقال مظفر : « فيه فهموا به

وتأهوا » ، قال الكامل : « ولى حبيب يرى هوأنى » ، فقال مظفر : « وما تغيّرت

عن هواه » ، قال الكامل : « رياضة الخلق فى احتمالى » ، فقال مظفر : « وروضة

الحسن فى حلاه » ، قال الكامل : « أسمر لدن القوام ألقى » ، فقال مظفر :

« يعشقه كل من يراه » ، قال الكامل : « ريقته كلها مدام » ، فقال مظفر :

« ختامها المسك من لسانه » ، قال الكامل : « ليلته كلها رقاد » ، فقال مظفر :

« وليأتى كلها انتباه » .

ثم إن مظفر أكمل هذه القصيدة بمدح فى الملك الكامل ، انتهى ذلك .

واستمر الملك الكامل فى السلطنة بمصر ، وهو وافر الجريمة ، نافذ الكلمة ،

محبب لأرعية ، وفيه يقول الشيخ كمال الدين بن النبیه :

دمتم بنى أيوب فى نعمة تمحوز فى التخليد حدّ الزمان

(٧) رجلين : كذا فى الأصل .

والله لا زلتم ملوك الورى شرقا وغربا وعلى الضمان
ثم إن الملك الكامل توجه إلى نحو دمشق ، بسبب تفقد أحوال البلاد الشامية ،
٣ فأقام في دمشق مدة يسيرة ، ومرض هناك ، وسلسل في المرض إلى أن مات ؛
وكانت وفاته في العشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكانت مدة سلطنته
بمصر ، نحو عشرين سنة ؛ ولما مات ، تولى بعده ابنه أبو بكر ، انتهى ما أوردناه
٦ من أخبار الملك الكامل محمد ، وذلك [على] سبيل الاختصار .

ذكر

سلطنة الملك العادل سيف الدين أبي بكر

٩ ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر

ابن نجم الدين (١٣٥ آ) أيوب

وهو السادس من ملوك بني أيوب بمصر ؛ بوبع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك
١٢ الكامل محمد .

وكان سبب سلطنته ، أنه لما توفي أبوه الملك الكامل بدمشق ، كان العادل هذا
نائباً عن أبيه بمصر ، فلما جاءت الأخبار بموت الكامل في دمشق ، اتفق رأى
١٥ الأمراء ، الذين كانوا بمصر ، على سلطنة العادل أبي بكر ، عوضاً عن أبيه ، فسلطنوه
ولقبوه بالملك العادل ، على اسم جدّه .

فلما بلغ أخاه الأمير نجم الدين ، وكان بحلب ، وكان أكبر من أخيه العادل ،
١٨ فشق ذلك عليه ، وحضر إلى مصر على جرائد الخيل ؛ فلما دخل القاهرة ، تعصب له العادل
جماعة من الأمراء ، وحاربوا الأمير نجم الدين ، وجرى بينهما من الحروب ما يطول
شرحده ، ثم قويت شوكة الأمير نجم الدين على أخيه العادل ، نغاه من السلطنة ،

(٦) [على] : تنقص في الأصل .

(١٥) الدين : الذي .

(١٧) أخاه : أخوه .

(٢٠) شوكة : شوكت .

- وسجنه بقاعة الجبل إلى أن مات ، كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه .
- فكانت مدة سلطنته بمصر سنة وثمانين وأياما ؛ ولما خلع من السلطنة ، تولى
- ٣ من بعده أخوه نجم الدين ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار العادل أبي بكر بن الملك الكامل ، وذلك على سبيل الاختصار ، تمت .

ذكر

سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب

ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر

ابن نجم الدين أيوب

- ٩ وهو السابع من ملوك بني أيوب بمصر ؛ بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه العادل أبي بكر ، في يوم الاثنين خامس عشرين ذى القعدة ، سنة ست وثلاثين وستمائة ، وكان له (١٣٥ ب) من العمر ، لما تولى السلطنة ، نحو أربع وثلاثين سنة ، وكان مولده بمصر سنة ثلاث وستمائة ، ولد بقاعة الجبل .
- ١٢ فلما تمت أمره في السلطنة ، أخذ في أسباب تدبير ملكه ، واستكثر من مشتري الممالك الأتراك .
- ١٥ وهو أول من جلب الممالك الأتراك إلى مصر ، حتى ضاقت بهم القاهرة ، وصاروا يشوشوا على الناس ، وينهبوا البضائع من على الدكاكين ، فضج الناس منهم ، وكثر الدعاء على الملك الصالح بسببهم ، وقد قال القائل :
- ١٨ الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
لا آخذ الله أيوبا بفعائه فالناس قد أصبحوا في صبر أيوب
- فلما زاد أمرهم في أذى الناس ، شرع الملك الصالح في بناء قاعة بالروضة ، بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها ، وسمّاهم الممالك البحرية ؛ وكان عددهم ألف مملوك ،
- ٢١

(١٦) يشوشوا . . . وينهبوا : كذا في الأصل .

(١٩) آخذ : واخذ .

قاطنين بهذه القلعة ، لا يخالطون الناس بالمدينة ؛ وأجرى عليهم ما يكفيهم من اللحوم والجراية والجوامك .

وجعل حول هذه القلعة مراكب حربية مشحونة بالسلاح ، واقفة عند الصناعة ، مكملة من جميع الآلات ، لا تبرح عن ذلك المكان ، يرسم ما يطرق من الأخبار عن الفرنج ، إذا طرّقوا ثغرا من البلاد ، فتخرج إليهم هذه الممالك في المراكب المذكورة ، ويتوجهون إلى قتالهم ، فكان هذا سببا لبناء قلعة الروضة ، انتهى ذلك ؛ وفيها يقول ابن أبي حجلة :

حول الجزيرة من مصر قد اجتمعت سبيع بها الرء مهما عاش ولهان
برّ وبحر ونجار وبهطالة وروضة وبساتين وبنيان
ذكر طرف يسيرة من أخبار الروضة :

قال ابن المتوج : كان اسم الروضة قديما « جزيرة مصر » ، فلما كان زمن
(١٣٦٦ آ) الأفضل بن أمير الجيوش ، فسوّيت « الروضة » ؛ ولم يكن في الديار
المصرية بقعة تشاكلها ، لما كان فيها من البساتين والمناظر ؛ وكانت هذه الجزيرة قبل
ظهور الإسلام متنزّها لملوك القبط .

فلما كان دولة الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ، قوى عزمه على أن يجعل هناك
قلعة ، ويسكن فيها ممالكه ، ويسمّيه « البحرية » ، فشرع في بنائها سنة ثمان
وثلاثين وستائة .

وكان بها أشجار ونخل وجميز ، فقطع منها ألف نخلة ، وأربعمئة جميزة ، كانوا
يتفرجون الناس تحت ظلها ؛ وكان بها المناظر الحسنة ، وكان بها عدّة مساجد ، وكان
بها كنيسة لليعاقة بجانب المقياس ، فهدم الملك الصالح ذلك جميعه ، وأدخله في ميدان
هذه القلعة .

٢١

وعمل لهذه القلعة ستين برجاً محيطاً بها ، وعمل بها جامعاً بخطبة ؛ ونقل إلى هذه
القلعة العمدة الصوان من برباء أخميم .

(١٨) كانوا : كان .

ولما كمل بناء هذه القاعة ، أشحنها بالأسلحة ، والآلات الحربية ، وأدّخر فيها الغلال ، خشية من محاصرة الفرنج ، فإنهم كانوا عزموا على أخذ الديار المصرية .

٣ قال الأمير موسى بن يعمور ، وإلى القاهرة : أمر الملك الصالح بهدم مسجد كان بالروضة ، وبني مكانه قاعة معالمة على البحر برسمه ، فلما انتهى العمل منها ، جاءت الأخبار بأنّ الفرنج طارقوا ثغر دمياط ، فخرج إليهم وهو عليل ، فمات هناك ، وجاءوا به في مركب تحت الليل ، ودفنوه في تلك القاعة التي هدم المسجد بسببها ، ولم يدخل تلك القاعة وهو في قيد الحياة ، فدفن بها مدة ، ثم نقل إلى مدرسته التي تجاه الصانعة ، فدفن بها .

٩ وكان بالروضة ، فيما بين الروضة والجيزة ، جسر من (١٣٦ ب) خشب ، يمرّ عليه الناس والدواب ، وكان من برّ مصر إلى الروضة جسر آخر من خشب ؛ وكان هذان الجسران ، من مراكب مصطفة بعضها ببعض ، وهي موثقة بالتزاب ، وكان عرض هذا الجسر ثلاث قصبات ؛ فكان الأمراء ، إذا قصد أحد منهم يعدّى إلى قاعة الروضة ، يترّون عن خيولهم ويمشون على هذا الجسر ، إلى أن يطاعوا إلى القاعة ؛ ولا يمكن أحد من العبور على هذا الجسر وهو راكب ، سوى السلطان فقط ؛ وكان مبدأ هذا الجسر من عند المدرسة الخروبية .

١٥ وكان بالروضة قصر يسمّى المودج ، بناه الخليفة الأمر بأحكام الله ، لأجل محبوبته البدوية الموارية ، التي هوىها وشغف بها ، وكان من غرائب الوجود ، فهدمه الملك الصالح لما بنى هذه القاعة ؛ وكانت هذه القاعة من محاسن الزمان ، وفيها يقول ابن قادوس :

٢١ انظر لحسن القاعة الفراء إذ محاسنها مثل النجوم تلالاً
ووافى إليها الماء من بعد بُعده كما زار مشغوقاً يروم وصالاً
فعاقتها من فرط شوقٍ لحنها ومدّ يميناً نحوها وشمالاً

وكان النيل قد احترق في تلك السنة ، وانطرد عن برّ مصر ، وصار رملاً ممتدّاً

(٢١) ووافى : ووافا .

إلى آخر برّ الجيزة ، حتى زاد ماء النيل في أوانه ، فتراجع الماء قليلا ، قليلا .

ولم تزل قلعة الروضة عامرة على ما ذكرناه ، حتى كانت دولة الملك المعزّ أيبك

التركاني ، فهدم منها جانباً ، وعمر به مدرسته التي في رحبة الحنا ، فأخذ منها أعمدة ٣
رخام ، وشبابيك حديد ، وأخشاب ، وغير ذلك .

فلما كانت دولة الملك (١٣٧٧ آ) الظاهر بيبرس البندقداري ، أمر بإصلاح ما فسد

منها ، وعمرها كما كانت ، وفرّق أبراجها على الأمراء . ٦

فلما كانت دولة الملك المنصور قلاون ، وشرع في بناء البيمارستان ، نقل من قلعة

الروضة ما يحتاج إليه من أعمدة وأعتاب ، وغير ذلك .

فلما كانت دولة ابنه الملك الناصر محمد ، أخذ ما بقي منها من أعمدة ورخام ، وغير ٩

ذلك ، وبني به الجامع الجديد ، المطلّ على البحر ، لجميع الأعمدة التي في الإيوان

بالقلعة ، والأعمدة التي في الجامع الجديد ، من قلعة الروضة .

فمن يومئذ دثرت معالم قلعة الروضة وخربت ، وكان بقي من معالمها عقد مبني على ١٢

شاطئ النيل ، تسميه العامة « القوس » ، وكان مما يلي الجانب الغربي تنتزه فيه

الناس ، وكان باقيا إلى دولة الملك الظاهر جقمق ، ثم هدم ، وفيه يقول النواجي :

١٥ مصر قلت دمشق لا تفقخر قط باسمها

لو رأت قوس روضتي منه راحت بهمها

وبقي من آثار هذه القلعة أبراج كثيرة ، فبني عليها الناس الدور الجميلة المطلّة على

البحر ، وهي باقية إلى الآن ، انتهى ذلك . ١٨

ومن هنا نرجع إلى أخبار الملك الصالح نجم الدين ، فلما دخلت سنة تسع وثلاثين

وسبائة ، فيها شرع الملك الصالح نجم الدين في بناء المدرستين اللتين تجاه الصاغة ، وهما

من أجل المدارس ، يجتمع فيهما الأربع مذاهب ، وتسمى الصالحيتين النجميتين ، ٢١

(١٠ و ١١) التي : التي .

(١٧) أبراج : أبراجا .

(٢١) الصالحيتين : الصالحين .

وها قامتا العلماء ، وباب مقصد الشرع الشريف ، قال السراج الورّاق (١٣٧ ب) :

فشيّدها للعلم مدرسة غدا عراق إليها شقيق وشام

ولا تذكر يوما نظامية لها فليس تضاهي ذا النظام نظام

٣

وفي هذه السنة ، أعنى سنة تسع وثلاثين وستمائة ، فيها أخلع الملك الصالح على الشيخ

عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، الملقّب بسلطان العلماء ، رضى الله عنه ، واستقرّ

به ، قاضى القضاة الشافعية ، بالديار المصرية ، وكان قاضيا بالوجه القبلى ، فنقله الملك

٦

الصالح إلى قضاء مصر ، فتولّى على كره منه .

قيل لما تولّى الشيخ عزّ الدين ، قاضى القضاة بمصر ، بلغه أنّ بعض الأمراء عمد

إلى مسجد بجوار بيته ، وعمل على ظهره طبلخاناة ، فأرسل هدم تلك الطبلخاناة ،

٩

وحكم بإبطالها ؛ وكان الذى عمل تلك الطبلخاناة الأمير نخر الدين ، أستاذار الملك

الصالح ، فحكم القاضي بإبطال الطبلخاناة ، وحكم بعزل الأمير نخر الدين من

١٢

الأستادارية .

فاتّفق أنّ الملك الصالح أرسل رسولا إلى الخليفة المستعصم بالله ببنداد ، فلما وصل

إليه الرسول ووقف بين يديه ، فقال له الخليفة : « هل سمعت هذه الرسالة من لسان

الملك الصالح ؟ فقال الرسول : « لا ، ولكن حملا عن لسان السلطان ، الأمير نخر الدين ،

١٥

الأستاذار » ، فقال الخليفة : « إنّ نخر الدين المذكور ، بلغنا أنّ قاضى القضاة عزّ

الدين بن عبد السلام حكم بعزله ، ونحن لا نقبل هذه الرسالة عن لسان شخص حكم

١٨

بعزله ابن عبد السلام » .

فرجع (١٣٨ آ) الرسول إلى الملك الصالح ، وذكر له ما قاله الخليفة ، فأخذ

الرسالة ثانيا عن لسان الملك الصالح ورجع إلى بنداد ، حتى قضى الخليفة حاجته .

ومما وقع له أنّه بلغه أنّ الملك الصالح ، استعان ببعض ملوك الفرنج ، وأعطاهم

٢١

مدينة ميّدا ، وقامة الشقيف ، فأنكر عليه ذلك ، وأمر بأن يُترك الدعاء له فى

الخطبة ، وساعده على ذلك الشيخ جمال الدين بن الحاجب المالكي .

فلما بلغ الملك الصالح ذلك ، غضب عليهما ، وأمر بإخراجهما إلى دمشق ،
فخرجا ؛ فلما كانا في أثناء الطريق ، أرسل الملك الصالح من تلطف بهما في العود ،
فلما عادا خرج إليهما السلطان إلى بلبس ، وتلقاهما ، وقبل يد الشيخ عز الدين بن ٣
عبد السلام ، وأعادته إلى القضاء كما كان .

ومما وقع له ، أنه تصدى لبيع أمراء الدولة ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم
أحرار ، وأنهم تحت الرق ، ولا يجوز لهم تصرف في المملكة ؛ فلما بلغ الأمراء ذلك ، ٦
حنقوا على القاضي ، فركب نائب السلطنة ، ويده سيف مسلول ، وجاء إلى بيت
القاضي ، فلما دق عليه الباب ، خرج إليه ولد القاضي ، فرأى نائب السلطنة واقفاً
على الباب ، ويده سيف مسلول ، رجع إلى والده وأعلمه بذلك ، فقال الشيخ : ٩
« يا ولدي ، أنا أقل من أن أقتل في سبيل الله » .

ثم إنه خرج إليه ، فلما وقع بصره على نائب السلطنة ، سقط السيف من يده ،
وأرعدت مفاصله ، فنزل عن فرسه ، وقبل يد الشيخ ، وقال له : « ادعولي » ، ١٢
فقال الشيخ : « ما أرجع حتى أبيعكم في السوق » ، فقال له نائب السلطنة : « ومن
يقبض ثمننا إذا بهتنا ؟ قال : « أنا » ، قال : « وما تصنع به » ؟ قال : « أصرفه في
مصالح المسلمين » . ١٥

فأرجع حتى جمع الأمراء كلها ، ونادى عليهم (١٣٨ ب) في السوق ، فوكلوا
جماعة في مشتراهم ، وباعهم القاضي بأغلا الأثمان ، وقبض ثمنهم ، وصرفه في مصالح
المسلمين ؛ ثم إن القاضي عزل نفسه عقيب ذلك ، فتلطف به السلطان في عوده إلى ١٨
القضاء ، فلم يوافق على ذلك .

ومما وقع له أنه أفتى بشيء ، ثم ظهر له أنه أخطأ في الذي أفتى به ، فنادى في
القاعة : « من أفتى له ابن عبد السلام بكذا ، فلا يعمل به ، فإنه قد أخطأ في ذلك » ، ٢١
وفيه يقول ابن الجزار :

سار عبد العزيز في الناس سيرا لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمنا حكمه بـ بدل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز ٢٤

قال الشيخ قطب الدين اليوبيني : وكان ابن عبد السلام ، مع شدته وصلابته ، حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار ، ويستشهد بالأشعار من كلام القوم ، ويحضر السماع ويرخص فيه ، وربما تواجد في السماع ؛ ولبس خرقة التصوف من الشيخ شهاب الدين السهروردي ، وكان يحضر عند الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، ويسمع كلامه في علم الحقيقة ، انتهى ذلك .

٦ ولما أن عزّل الشيخ عزّ الدين نفسه من القضاء ، وامتنع من العود إليه ، فعند ذلك أخلع الملك الصالح على الشيخ أفضل الدين محمد الخونجي ، صاحب « المنطق في المعقولات » ، وكان رئيس الأطباء ، ولكنه كان من أهل العلم ، بارعا في علوم الشافعية ، ٩ فاستقر قاضي القضاة بالديار المصرية ، عوضاً عن الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ، ولكن فرق عظيم بينهما ، وأين الثريا من يدى المتناول (١٣٩ آ) :

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

١٢ فيها ابتدأ الملك الصالح بعمارة مدينة على أطراف الرمل ، وسمّاها « الصالحية » ، وأنشأ بها المساجد والفنادق والأسواق والطواحين ، واستمرت من يومئذ تزايد في العمارة حتى صارت مدينة على انفرادها . - وفي سنة أربعين وستمائة ، كانت وفاة القرطبي ، رحمه الله عليه . ١٥

ومن أيقاع الغريبة ، ما وقع للأمير شهاب الدين بن موسى بن يغمور ، والى القاهرة ، أنه أمر بشنق عشرين رجلا كانوا قطعاً طريق ، قتالين قتلاء ، فلما شنقهم ١٨ أمر الخفراء بحفظهم ، فلما جاء الليل عدّوهم ، فإذا هم تسعة عشر إنساناً ، خافوا الخفراء من الأمير شهاب الدين أن يسألهم عن الواحد المفقود ، فعدّوا على الطريق ينتظرون من يمرّ بهم ، فيشنقوه عوضاً عن ذلك الرجل المفقود من المشائيق ؛ فبينما هم على ذلك ، ٢١ وإذا بشخص قد مرّ بهم ، فقاموا إليه ومسكوه وشنقوه مع جملة المشائيق .

فلما لاح الصباح ، أتى الأمير شهاب الدين وعدّ المشائيق ، فإذا هم واحد وعشرين

(١٤ - ١٥) وفي سنة ... رحمه الله عليه : كتبت في الأصل على هامش س (١٣٧ ب) .

(١٧) قتالين قتلاء : كذا في الأصل ، وتلاحظ اللهجة العامية .

رجلا ، فقال للخبراء : « ومن هذا الرجل الزائد الذي معهم » ؟ فبهتوا الخبراء ، فقال لهم : « ما شأنكم » ؟ فقالوا : « يا أمير قد عدّيناكم في الليل ، فأبناهم ناقصين واحدا ، فمرّ بنا هذا الرجل ، فسكناه وشتقناه معهم » ، فقال الأمير شهاب الدين : « أروني هذا الرجل المسكين الذي وقع لكم » ، فلما رآه وجده شخصا قاطع طريق ، وله مدّة يتطأ به ، فلم يقع له ولا قدر على تحصيله ، فلما رآه سرّ به ، وتعجب من هذه الواقعة (١٣٩ ب) الغريبة ، انتهى ذلك .

وفي أيامه ، توفّي الشيخ العارف بالله أبو الحجاج الأقصري ، واسمّه يوسف ابن عبد الرحيم ، تلميذ الشيخ أبي مدين ، توفّي في رجب سنة اثنيتين وأربعين وستائة ، ودفن بالأقصر ، من أعمال الصعيد .

وفي أيامه أيضا توفّي الشيخ العارف بالله قطب الوجود الشيخ أبو السعود ، واسمّه محمد بن أبي العشار القرشي الباذيبي الواسطي ، ولد في باذيين في شعبان سنة سبع وسبعين وخمسة ، ثم قدم مصر وأقام بها في زاويته التي عند باب القنطرة ، حتى مات في يوم الأحد تاسع شوال سنة أربع وأربعين وستائة ، وخرج مشهده من زاويته التي عند باب القنطرة ، ودفن بالقرافة الصغرى ، رضى الله عنه ؛ وكان له كرامات خارقة ، ومناقب حسنة ، ومن تلاميذه الشيخ داود العزب ، وغيره من الأولياء ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستائة

فيها ، في رمضان ، توفّي قاضي القضاة الشافعية أفضل الدين الخونجي الفيلسوف ، توفّي القضاء بعد الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام .

فلما توفّي الخونجي ، أخلع الملك الصالح على الشيخ تاج الدين بن بنت الأعزّ ، واستقرّ به قاضي قضاة الشافعية ، ووزير الديار المصرية ، وقد جمع بين القضاة ، والوزارة ، وتدرّس الشافعي .

قال ابن عبد الظاهر : اجتمع مع الشيخ تاج الدين بن بنت الأعزّ ، خمس عشرة

وظيفة من الوظائف السنية ، وكان يولّى عن الأربع مذاهب ، ويعزل من يختار ، ويولّى من يختار ، من غير مراجعة السلطان في ذلك .

٣ قال الإمام أبو شامة (١٤٠ آ) : كان القاضي تاج الدين بن بنت الأعز آخر قضاة العدل بمصر .

قلت : والأعز كان وزيرا بمصر أيام الملك الكامل محمد بن أيوب ، انتهى ذلك .
٦ وفي سنة ست وأربعين وستمائة ، توفي العلامة جمال الدين أبو بكر بن عثمان ، المعروف بابن الحاجب المالكي ، مات بثمر الإسكندرية ، وله من العمر خمس وسبعين سنة ، وكان أبوه حاجبا للأمير يوشك الصلاحى .

٩ ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

فيها تزايدت عظمة الملك الصالح ، وقويت شوكته بماليكه الذين أنشأهم ، وصار
العسكر في قبضة يده ، فعند ذلك عنّ له أن يقتل أخاه الملك العادل ، الذى كان فى السجن
١٢ بقامة الجبل ، فقتله صبّرا وهو فى السجن ، ودفن عند الإمام الشافعى ، وقد قتل من غير ذنب .
فلم يقم بعد قتله إلا أياما يسيرة ، وابتلاه الله بأكالة طلعت له فى وجهه ، فرعت
فيه إلى آخره ، واستمرّ عليلا ، وثقل فى المرض .

١٥ ثم جاءت الأخبار بأنّ الفرنج جاءوه إلى ثغر دمياط فى مائتى مركب ، وكان
ملك الفرنج يسمّى ريذا فرنسيس ، فهب مدينة دمياط ، وقتل من المسلمين ما لا
يحصى عددهم ؛ وكان ريذا فرنسيس ، ملك الفرنج ، قد استولى على غالب بلاد
١٨ الأندلس ، وسبى أهلها .

فلما جاءت الأخبار بذلك ، أمر الملك الصالح بإشهار النداء فى مصر والقاهرة

(٢) مراجعة : مراجعت .

(٨ - ٦) وفى سنة . . . الصلاحى : كتبت فى الأصل على هامش س (١٣٩ ب) .

(١٠) الذين أنشأهم : الذى أنشأها .

(١٣) فلم يقم : فلم يقيم .

(١٦ و ١٧) ريذا فرنسيس : كذا فى الأصل ، ولعله يعنى ملك فرنسا لويس التاسع ،
وسوف يرد اسم « ريذا » مرات أخرى فيما يلى .

بالنفير عاما ، ولا يتأخر كبير ولا صغير ، فإن الفرنج قد وصلت بوادرهم إلى المنصورة .
 فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، لمظلم هذه البلية ؛ ثم جاءت الأخبار بأن
 ٣ الفرنج ملكوا ثغر دمياط ، وسبب ذلك أن نائب دمياط خاف على أهل المدينة ، فهرب
 هو وإياهم تحت الليل ، وترك أبواب المدينة مفتحة ؛ فلما أصبحوا الفرنج ، وجدوا
 أبواب المدينة مفتحة ، ولا فيها أحد (١٤٠ ب) من الناس ، فظنوا الفرنج أن ذلك
 مكيدة من المسلمين ، فتمسوا حتى ظهر لهم أن ما في المدينة أحد من المسلمين ، فدخلوا
 ٦ إليها من غير مانع وملكوها .

ثم إن الملك الصالح خرج من القاهرة ، وهو عليل في عفة ، وخرج معه السواد
 الأعظم من أهل مصر ، وحضر عربان الوجه القبلي ، وعربان البحيرة ، وعربان
 ٩ الشرقية ، فاجتمع معه نحو عشرين ألف مقاتل ، خارجا عن المشاة .
 فلما وصل الملك الصالح إلى المنصورة ، أمر بشنق نائب دمياط ، ومعه جماعة من
 الأمراء الذين كانوا بدمياط ، فشنق في يوم واحد نحو خمسين أميرا ، بسبب خروجهم
 من مدينة دمياط ، بنير إذن من السلطان ؛ فلما فعل ذلك ، نثر عنه قلوب العسكر ،
 وقصدوا الوثوب عليه هناك ، وهو في الخيمة ، فأشار بعض الأمراء بترك ذلك ،
 وقال : « ما هذا صواب في هذا الوقت » .
 ١٥

ثم صار القتال عمالا بين المسلمين والفرنج ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ؛
 هذا والسلطان الملك الصالح كل يوم يتزايد في المرض ، وامتنع عن اجتماع الأمراء به .
 فلما كانت ليلة الأحد رابع عشر شعبان ، سنة سبع وأربعين وستائة ، توفي الملك
 ١٨ الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد .

فلما مات بالمنصورة ، كتم موته خوفا من الفرنج أن يطمعوا في أخذ الديار
 المصرية ؛ فحمل الملك الصالح في زورق تحت الليل ، وجىء به إلى قامة الروضة ،
 ٢١ فدفن في تلك القاعة المتقدم ذكرها ، فدفن بها مدة ثم نقل (١٤١ آ) من بعد ذلك

(١٢) الذين : الذي .

(٢٠) أن يطمعوا : أن لا يطمعوا .

إلى القبة التي بجوار اندرسة الصالحية ، فدفن بها ؛ فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوما .

- ٣ فلما مات الملك الصالح ، كتم موته عن العسكر ، فكانت انراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان ، فلا يشك من يراها أنها خط الملك الصالح ، وكانت الأمراء تجتمع في الموالك ، ويظهرون أن السلطان مريض ، وكانت الأطباء تدخل على جاري العادة في كل يوم ، وكذلك طبع المزاور ، يدخل في كل يوم على العادة ، والقصاد رايحة جيا من المنصورة إلى القاهرة ، ولا يعلم أحد بموت الملك الصالح .
- ٦ وكان القائم بتدبير هذه الأمور كلها ، الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير فارس الدين أقطاي ؛ وقد ضبطت هذه الأمور خوفا من الفرنج ، إلى أن يحضر الأمير مغيث الدين توران شاه بن الملك الصالح ، وكان في حصن كيفا ، فأبطأ عليهم حتى مات أبوه ، فلما حضر إلى المنصورة ، جاء ومعه عسكر من الأكراد .
- ٩ فعند ذلك أشيع موت الملك الصالح ، وتسلم ابنه توران شاه عونه ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وذلك على سبيل الاختصار .
- ١٢

ذكر

سلطنة الملك المعظم مغيث الدين توران شاه

١٥

ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد

- وهو الثامن من ملوك بني أيوب بمصر ؛ بويع بالسلطنة بعد موت أبيه ، في مستهل محرم ، افتتاح عام ثمان وأربعين وستمائة ، (١٤١ ب) وكانت ولايته بعد موت أبيه بأربعة أشهر .
- ١٨

- فلما تسلط نودي باسمه في العسكر بالدعاء للملك المعظم توران شاه ، والترحم على الملك الصالح نجم الدين ؛ فابس شعار الملك بالمنصورة ، وتلقب بالملك المعظم ، فلما
- ٢١

(٥) مريض : مريضا .

(٧) رايحة جيا : كذا في الأصل ، وتلاحظ اللهجة العامية .

(١٠) كيفا : كيف .

جاءت الأخبار إلى القاهرة بولايته ، دقت له البشائر ، وزينت له القاهرة ، ونودي فيها باسمه ، وخطب له على المنابر .

٣ فلما تحقق ريدا فرنسيس ، ملك الفرنج ، موت الملك الصالح ، طمع في أخذ مصر ، وزحف بمن معه من العساكر إلى فارسكور ؛ فلما رأوا الأمراء ذلك ، ضربوا مشورة ، وتحالفوا على أن يكونوا كلمة واحدة على الجهاد في سبيل الله .

٦ فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستائة ، ركب الأمير بيبرس البندقداري ، والأمير لاجين ، والأمير فارس الدين أقطاي ، وبقية الأمراء والعسكر قاذبة ، وخرج معهم السواد الأعظم من العربان والعوام والفلاحين .

٩ وحمل عليهم العسكر بالسيوف والأطيار والنشاب ، وحمل عليهم العربان بالرمح ، والعوام بالقاليع والحجارة ، وكانوا يلبسون على رؤوسهم طاسات نحاس أبيض ، عوضا عن الخوذ ، وقاتلوا في ذلك اليوم قتال الموت ، وهجموا عليهم هجمة واحدة ؛ فلم تكن إلا ساعة يسيرة ، وقد انكسرت الفرنج أنحس كسرة ، وكانت النصره للمسلمين ، كما قيل في المعنى :

لله درّ فوارس يوم الوغى تهوى الخياطة لا إليهم تنتمى

١٥ ذرعوا الفوارس بالرمح وفصلوا بالمرهفات وخيطوا بالأسهم

فبلغ عدّة من استشهد في هذه الواقعة من الأمراء نحو ستين أميرا ، غير المالك السلطانية ، (١٤٢ آ) وغير العربان والعوام ؛ وقتل على فارسكور من الفرنج نحو اثني عشر ألف إنسان ، وأسر من أعيان ملوك الفرنج سبعة - نقل ذلك المقرئ في الخطط .

٢١ نقل بعض المؤرخين ، أن الملك الصالح لما توجه إلى قتال الفرنج ، أخذ معه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، رضى الله عنه ، فلما كانت هذه الواقعة ، واستظهر الفرنج على المسلمين ، فلما عين الشيخ عز الدين ذلك ، نادى بأعلا صوته إلى الرّيح : « يا ريح خذهم » ، ثلاث مرات ، فجاء ريح أسود على مراكب الفرنج فكسرها ، وغرق

- أكثر الفرنج في البحر ، والذي في البر هلك بالسيف ، فسمع في الجوقا نلا يقول :
« الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، رجلا سخر له الريح » ،
٣ انتهى ذلك .
- ٦ قيل ، لما حصلت هذه النصر للمسلمين ، غنموا من الفرنج أشياء كثيرة ، من
القناش والسلاح وغير ذلك ؛ حتى قيل أبيع في المعسكر ، كل سيف بنصفين فضة ،
وكل درع بثانية أنصاف ، وكل فرس بعشرة أنصاف .
- ٩ وأما ريدا فرنسيس ، ملك الفرنج ، فإنه لما حصلت له هذه الكسرة ، وقف على
تل عال ، هو وأقاربه ، وأرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل إليه بعض الأمراء ،
قبض عليه ، وعلى أقاربه ، وقيدهم ، وسجنهم في دار القاضي فخر الدين بن لقمان ،
ووكّل به طواشيّاً يسمّى صبيح النظمي ، فكان يضرب فرنسيس كل يوم خمسمائة
عصاة .
- ١٢ وقرّر عليه السلطان توران شاه مائتي ألف دينار ، عوضاً عما صرف على التجاريد ،
فأقام في السجن هو وأقاربه ، وأرسل (١٤٢ ب) إلى بلاده ليحضّر المال الذي قرّر
عليه .
- ١٥ ثم إن الملك المعظم توران شاه ، أرسل ببشارة هذه النصر إلى القاهرة ، على يد
الأمير شهاب الدين بن موسى بن يعمور ، وإلى القاهرة ، فدخل القاهرة وهو لابس
ثياب فرنسيس ، ملك الفرنج ، أشكر لاط نخل أحمر بفرو سنجاب ، وقلنسوة ذهب ،
١٨ فكان يوم دخوله يوماً مشهوداً ، وزيّنت له القاهرة زينة حفلة ، ودقّت له البشائر
سبعة أيام .
- ٢١ وكانت هذه النصر على غير القياس ، وقد همت أهل مصر بالمحروب إلى نحو
الصعيد خوفاً من الفرنج أن يملكوا مصر ؛ ثم كتبت المراسيم السلطانية إلى سائر
الآفاق ببشارة هذه النصر .
- قيل ، لما ملكوا المسلمون مدينة دمياط ، أشار الأمراء على السلطان بهدم مدينة

دمياط ، فأرسل إليها جماعة من الهدادين ، فوق فيها الهدم يوم الاثنين ثامن عشر شعبان سنة ثمان وأربعين وستائة ، فهدمت عن آخرها ؛ واستمرت خرابا ، سكنها جماعة من السيادين ، في أخصاص من قش على شاطئ البحر من الجانبين ، ٣ وسموها المنشية .

واستمرت على ذلك إلى أيام الملك الظاهر بيبرس الركني ، فأمر بتجديدها سنة إحدى وخمسين وستائة ، وأمر بدم فم البحر ، عند البرزخ ، بالقراييص ، التي هدمت ٦ من مدينة دمياط ، حتى لا تدخل إليها مراكب الفرنج الكبار ، ثم جدّد سورها وبني به الأبراج ؛ وأعاد السلسلة التي كانت على فم بحر دمياط من أيام المقوقس ، وكانت من البرّ إلى البرّ تمنع المراكب من (١٤٣ آ) الدخول إلى ثغر دمياط ، انتهى ذلك . ٩ ومن هنا نرجع إلى أخبار فرنسيس ملك الفرنج ، فإنه أقام في السجن إلى أيام الملك المعزّ أيبك التركاني ، فلما أحضر المال الذي قرّر عليه ، كما تقدّم ، فأفرج عنه الملك المعزّ ، وعن أقاربه ، ورسم له بالتوجه إلى بلاده . ١٢ وحلفه أيمانا عظامه ، على قدر دينه ، أنه لا يندر المسلمين ، ولا يتعدّى على بلادهم ، ولا يفسد في البحر ، ولا في البرّ بوجه من الوجوه .

فلما حلت ، مضى إلى بلاده ، فأقام بها مدة يسيرة ، وجاءت الأخبار بأنه قد أتى ١٥ إلى ثغر دمياط ، في عدة مراكب ؛ فلما بلغ الملك المعزّ ذلك أرسل إليه الترجمان ، وعلى يده مرسوم ، من عند السلطان ، يهدّده فيه بما وقع له من الأيمان التي حانها وغدر فيها .

ثم إنّ الصاحب جمال الدين بن معاروح عمل هذه القصيدة وأرسلها إلى الفرنسي ١٨ ملك الفرنج ، وهي هذه :

٢١ قل للفرنسيس إذا جئته مقال نصيح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عباد لدين المسيح
أتيت مصرأ تبتغي ملكها تحسب أن الزمر يا حبل ريح

(١) الهدادين : كذا في الأصل ، والمعنى واضح .

فساقك الحين إلى عسكر ضاق به عن ناظريك الفسيح
 وكل أصحابك أودعهم بسوء تدبيرك بطن الضريح
 ٣ خمسون ألفا لا يرى منهم إلا قتيلًا أو أسيرا جريح
 إن كان باباكم بدا راضيا قرب غش قد أتى من نصيح
 وقتك الله لأمثالها لعل عيسى منكم يستريح
 ٦ إن كنت عوّلت على عودة لأخذ ثار أو لنقد صحيح
 (١٤٣ب) دار ابن لقمان على حالها والتيد باق والطواشي صبيح
 وقال آخر في المعنى :

٩ يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
 لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكرو فكبر

فلما وصلت هذه القصيدة إلى الفرنسيين ، وقرأها ، تذكر ما جرى عليه من
 ١٢ ضرب الطواشي صبيح ، وما قاساه منه ، فرجع إلى بلاده ، ولم يشوش على أحد من
 أهل دمياط ، انتهى ذلك .

ومن هنا نرجع إلى أخبار الملك المعظم توران شاه .

١٥ قال أبو شامة : لما حصلت هذه النصرة لتوران شاه ، ظن أن الوقت قد صفا له ،
 فتحول من المنصورة إلى فارسكور ، فنصب له هناك برجا من الخشب على شاطئ البحر ،
 وأحضر الأسارى من الفرنج ، وضرب أعناقهم بين يديه ؛ ثم شرع يقرب جماعة ممن
 ١٨ حضر معه من حصن كيفا ، وينعم عليهم بالوظائف السنية ؛ وأخذ في إبعاد ممالك
 أبيه الملك الصالح .

وأرسل إلى شجرة الدر زوجة أبيه ، يعدها بكل سوء ، فأرسلت تقول للأمرأه
 ٢١ والممالك البحرية : « إن قتلتموا توران شاه ، فعلى رضاكم بالمال » ؛ وأوعدت الممالك

(٤) باباكم : كذا في الأصل ، ويعنى قداسة « البابا » أو « الحبر الأعظم » عند المسيحيين .

(١٦) فارسكور : فارسكور .

(٢٠) شجرة الدر : شجر الدر . || زوجة : زوجت .

(٢١) قتلتموا : كذا في الأصل .

البحرية ، كل واحد بمائتى دينار ، والأمراء كل واحد بألف دينار .

وكان توران شاه أهوج رهاج ، عنده خفة زائدة ، فكان إذا سكر ، يصف

الشموع الكبار بالثليل ، ويأخذ السيف بيده ، ويضرب به تلك الشموع ، ويقول : ٣
« هكذا أفعَل بالماليك البحرية إذا دخلت القاهرة » ؛ وهذه أفعال المجانين الذين
سلبوا (١٤٤ آ) من عقولهم ، فكان كما قيل فى المعنى ، لمعظمهم :

٦ يا جامعاً لخصال قبيحة ليس تحصى
نقصت من كل فضل فقد تكامات نقصا
لو أن للجهل شخصاً لكنت للجهل شخصاً

٩ فلما بلغ ممالكك أبيه ذلك ، أضرروا له سوء ، وتغيرت خواطرها عليه ؛ فلما
كان يوم الاثنين تاسع محرم سنة ثمان وأربعين وستائة ، جلس الملك المعظم توران شاه
فى موكبته ، والأمراء بين يديه ، وكان أمر رؤوس النوب بأن يقفوا قدّامه بعضى ،
وهى ملبسة بالذهب ، فى أوقات المواكب . ١٢

فلما انتفض أمر الموكب ، حضر السباط ، وجلس الساطان على عادته بصدر السباط ،
فلما جلس ، تقدّم إليه جماعة من الممالك البحرية ، وبأيديهم السيوف ، فضربوه على
يديه ، قطعوها . ١٥

فقام وهرب ، ودخل إلى ذلك البرج الخشب الذى على شاطئ البحر ، وأغلق
عليه الباب ، فأطلقوا فيه النار ، فخرج من البرج وألقى نفسه فى البحر ، وصار يسبح
فيه ، والنشاب يأخذه من كل ناحية ، وهو يقول : « خذوا مُلككم ، ودعوني
أرجع إلى حصن كيمنا » ؛ فلم يفتنه أحد من العسكر الذى حضر معه . ١٨

فلا زال على ذلك حتى قتل وهو فى البحر ، فمات حريقاً غريقاً قتيلاً ؛ ثم دفن
فى بعض شواطئ البحر ، ولا يعلم له قبر . ٢١

قال أبو شامة : لما قتل توران شاه ، رأى أبوه الملك الصالح فى المنام ، وهو يقول :

قتلوه مَرَّ قَتْلَةً صار للعالم مثلاً

- لم يراعوا فيه أبا لا ، ولا من كان قبله
(١٤٤ ب) ستراهم عن قريب لأقل الناس أكله
- ٣ فلما قتل توران شاه اضطربت الأحوال ، ونهب الوطاق جميعه ، وبقي السباط
ممدودا تتخاطفه الكلاب من كل جانب .
- ٦ فكانت مدة سلطنته بالمصورة ، نحو أربعين يوما ، ولم يدخل إلى القاهرة ،
ولا جالس على سرير الملك بقاعة الجبل ، ولا كتب له تقليد كمادة السلاطين ؛ وكانت
قتلته على فارسكور يوم الاثنين تاسع المحرم من تلك السنة .
- ٩ وهو آخر من تولى السلطنة من بني أيوب ، وكانت مدة دولتهم بمصر ، من حين
تولى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، سنة سبع وستين وخمسة ،
إلى حين قتل الملك المعظم توران شاه ، سنة ثمان وأربعين وستة ، وذلك نحو
من ست وثمانين سنة إلا أشهر ، وزالت دولتهم كأنها لم تكن ، وكانت دولتهم أصاح
١٢ من أيام الخلفاء الفاطميين ، انتهى ذلك .
- ولما قتل توران شاه ، رجع الأمراء والعسكر إلى القاهرة ، وطامعوا قلعة الجبل ،
وضربوا مشورة فيمن يولوه السلطنة من الأمراء والعسكر ؛ فانفقوا [على تولية
١٥ شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يكون الأمير أيبك التركاني
مدبر المملكة معها ، فتحالفوا الأمراء على ذلك ، وسلطنوا شجرة الدر ، وهذا أمر
غريب لم يقع قط بالديار المصرية ، انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المعظم مغيث الدين
١٨ توران شاه ، وذلك على سبيل الاختصار .

(٦) كمادة : كمادت .

(٧) فارسكور : فارسكور .

(١٤) [فانفقوا] : تنفق في الأصل .

(١٥ و١٦) شجرة الدر : شجر الدر .

ذكر

سلطنة شجرة الدرّ

زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب

٣

فكانت تاسع من تولّى السلطنة بمصر (١٤٥٠ آ) من جماعة بني أيوب ؛ فلما وقع الاتفاق على سلطنتها ، حضر القاضي تاج الدين بن بنت الأعزّ ، وبايعها بالسلطنة على كره منه .

٦

قال الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام : لما تولّت شجرة الدرّ على الديار المصرية ، عملت في ذلك مقامه ، وذكرت فيها ، بماذا ابتلى الله به المسلمين بولاية امرأة عليهم . وكانت سلطنتها يوم الخميس ثاني صفر سنة ثمان وأربعين وستائة ، وألبسوها خلمة السلطنة ، وهي قندورة تحمل مرقومة بالذهب ، فباس لها الأمراء الأرض من وراء حجاب .

١٢ فلما تمّ أمرها في السلطنة ، أنعمت بالوظائف السنية على الأمراء ، وفترقت الأفاطيع الثقال على الممالك البحرية ، وأغدقت على الجند بالأموال والخيول ، حتى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن ، وساست الرعية أحسن سياسة . وكان الأمير أيبك التركاني مدبر المملكة ، لكن كان لا يتصرّف في شيء من أمور المملكة إلا بعد مشورتها ؛ وكانت علامتها على الراسيم بخطها : « والدة خليل » . وكانت الخطباء تخطب باسمها على منابر مصر وأعمالها ، وتقول بعد الدعاء للخليفة : « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجليل ، والستر الجميل ، والدة الرحموم خليل » ، وكان خليل ابن الملك الصالح ، وتوفّي في حياة والده .

٢١ قلت : وإلى شجرة الدرّ تنسب مرتبة خاتون ، التي في قاعة الأعمدة ، وكذلك ينسب إليها نوبة خاتون ، التي تدور في القاعة بعد العشاء بالعابِل والخليلية .

قال الشيخ شمس الدين الجزرى : لما بلغ الخليفة المستعصم بالله ، وهو ببغداد ، أن أهل (١٤٥ ب) مصر قد سلطنوا امرأة ، أرسل يقول لهم : أعلمونا إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل إليكم من يصلح لها ، أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة » ؛ وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الإنكار ، وقد قال القائل فى المعنى :

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا لمن رأينا سنيا
ولأجل الكمال لم يجعل الله تعالى من النساء نبيا

فلما بلغ شجرة الدر ذلك ، جمعت الأمراء والقضاة ، وخلعت نفسها من السلطنة برضاها ، فكانت مدة سلطنتها بمصر ثلاثة أشهر إلا أياما .

فلما خلعت نفسها من السلطنة ، أشار القاضى تاج الدين بن بنت الأعز أن تزوج شجرة الدر بالأمير أيبك التركمانى ، فلا زال يتلطف بها حتى أذعنت بذلك ، فقام من المجلس حتى عقد العقد بينهما .

ثم إن القاضى بايع أيبك التركمانى بالسلطنة ، بعد خلع شجرة الدر ، فهو أول ملوك الترك بمصر .

قال الأديب أبو الحسين بن الجزار هذه الأرجوزة ، فيمن ولى ملك مصر من بنى أيوب ، وهم الأكراد ، فقال من أبيات :

ثم تولّاها الصالح يوسف ثم العزيز ابنه مستنصف

ثم أتى الأفضل نور الدين وبعده العادل ذو التمكن

ثم ابنه الكامل ثم العادل كلاهما بالحكم فيها عادل

ثم أتى الصالح وهو الأعظم ثم تولّاها ابنه المعظم

وبعده أم خليل ملكة وطالت الأفعال منها وزكت

والملك الأشرف كان طفلا فلم يدبر عقدها والحلا

تمت . ٢٤

ذكر

ابتداء دولة الأتراك بمصر

- ٣ فكان أولهم عز الدين أيبك التركمانى الصالحى النجمى ؛ ببيع بالسلطنة بعد
 خلع شجرة الدر ، يوم السبت تاسع عشرين ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة ،
 وتلقب بالملك العز ؛ وركب بشعار السلطنة ، وحمت على رأسه القبة والطاير ، ولعب
 قدّامه بالنوائى الذهب ؛ وجلس على سرير الملك ، وبأس له الأمراء الأرض .
 ٦ وكان أصله من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراه ، وأعتقه ، وصار
 أميرا فى حياة أستاذه الملك الصالح ؛ ثم بقى أتابك العساكر ، بعد قتل الملك (١٤٦ آ)
 المعظم توران شاه ؛ ثم بقى ساطعانا ، بعد خلع شجرة الدر من السلطنة .
 ٩

ذكر طرف يسيرة فى أخبار أصل الترك :

- قال الحسن البصرى ، رضى الله عنه : أصل الترك من ولد يافث بن نوح ، عليه
 السلام ، يافث هو أبو الترك ، ويأجوج ومأجوج بنو عمّ الترك ؛ وإنما سميت الترك
 ١٢ تركا ، قيل إن الإسكندر ذو القرنين ، لما بنى السدّ على يأجوج ومأجوج ، كان منهم
 طائفة غائبة وقت بناء السدّ ، فما علموا بينائهم ، فتركوا خارجا عنه ، فسميت هذه الطائفة
 « تركا » ، لكونهم تركوا خارجا عن السدّ ؛ فالترك طائفة من نسل تلك الشرذمة
 ١٥ التى تركت ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

- قال صاحب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » : إن طائفة هذه الترك كانوا عدّة
 قبائل ، يسكنون بالبلاد الشمالية ، لا يتخذون جدارا ولا يستوطنونوطنا ، بل ينتقلون
 ١٨ من الأرض فى أماكن شتى ، عند مصابفهم ومشاتبهم ، وقد تناسلوا وكثروا وتفرقوا
 فى البلاد .

- فلما كان سنة ست وعشرين وستمائة ، قويت عليهم شوكة التتار ، وحاربوهم
 ٢١

(٩ و ٤) شجرة الدر : شجر الدر .

(١٣) بنى : بنا .

(٢١) شوكة : شوكت .

فكسروهم وأسروهم ، ونهبوا أولادهم ونساءهم ، وباعوهم للتجار ، فجابوهم إلى الأمصار .

٣ فاشتري منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واستكثر من مشتراهم ، وبني لهم قلعة بالروضة كما تقدم ، فهذا كان مبتدأ إحضارهم إلى الديار المصرية .

٦ فكأن الله لهم الأسباب ، وفتح أمامهم الأبواب ، وعوَّضهم بعد المذلة والهوان ، وفراق الأقارب والإخوان ، دخولهم في الإيمان ، وتخويلهم في جزيل الإحسان ، فمنهم من يصير (١٤٦ ب) أميرا ، ومنهم من يصير سلطانا ، فسبحان العاطى لهم بلا امتنان .

٩ فكان أول من تسلطن منهم الملك المعز أيبك التركاني ، وهو أول من جرى عليه الرق .

١٢ قال الإمام أبو شامة : لما تسلطن أيبك التركاني ، فلم ترض أهل مصر به ، فكان إذا ركب يسمعون العوام ما يكره ، ويقولون له : « نحن ما نريد إلا سلطانا رئيسا ، ولد على فطرة الإسلام » ، فكان أيبك يفتدق على العوام بالعطايا الجزيلة ، حتى يسكتوا عنه .

١٥ ثم إن جماعة من المماليك الصالحية ، تقلَّبوا على الملك المعز ، وقالوا : « لا بد لنا من واحد نسلطنه ، من أولاد بني أيوب » ؛ فوقع الاتفاق بينهم ، على أن يحضروا بشخص من أولاد الملك مسعود ، صاحب حماة ، وهو من ذرية بني أيوب ، وكان عند عماته ببلاد الشرق ، فأرسلوا خافه ، فلما حضر سلطنوه ولقبوه بالملك الأشرف ، وكان اسمه الأمير عيسى ، وقيل يوسف ، وكان له من العمر نحو عشرين سنة .

٢١ فلما تسلطن ، لم يعزل أيبك من السلطنة ، بل صار معه مثل الشريك له ، فكان يخطب باسمهما يوم الجمعة على المنابر ، وضربت السكة على الدنانير والدرهم باسمهما ، واستمرَّ شريك الملك المعز في السلطنة ، حتى قويت شوكة الملك المعز ، وأنشأ له

(١٣) العوام : الأعوام . || حتى يسكتوا : حتى يكتنون .

(٢٢) شوكة : شوكت .

مماليكها ، وأقام له عصابة ، فعند ذلك خلع الأشرف المذكور من السلطنة ، وانفرد بها وحده من غير شريك ، كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه .

٣ ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها ، في جمادى الآخرة ، توفى ابن بصافة الشاعر ، وكان من أعيان الشعراء ، توفى بدمشق ، ومن شعره :

٦ بي روضة علم أغصانها أهل الهوى العذرى كيف العناق
هبت بها ريح العبا سحرة فالتفت الأشجار ساقا بساق

وفي سنة تسع وأربعين وستمائة ، توفى الشيخ كمال الدين الإدقوى ، المؤرخ ،

٩ مات بالطاعون في تلك السنة . - (١٤٧ آ) وفيها توفى ابن وشق ، شيخ القراء ، وقيل توفى سنة إحدى وخمسين ، مات بالإسكندرية .

ثم دخلت سنة خمسين وستمائة

١٢ فيها ، في شعبان ، توفى العاصم جمال الدين بن مطروح ، وهو أبو الحسن يحيى ابن عيسى بن إبراهيم بن مطروح ، صاحب الأشعار الرائقة ، والعماني الفائقة ؛ ولد سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، ومات في هذه السنة ، في عاشر شعبان ، ومن شعره ، قوله :

١٥

وشرب أراقوا بينهم دم كرمه فباتت عليها عين راووقهم تبكي
وباتت أباريق الدام لديهم تقهقه من فرط المسرة بالضحك
وقد جعلوا قول العراقي حجة ولم يرجعوا فيها إلى مذهب المكي
وغنى بها ساق أغنى فزادهم سرورا بشعر لائق حسن السبك
ياعب فيهم بالكلام تأميا كما تفعل الأمواج في البحر بالفلك

٢١ ومن الحوادث في أيام الملك المعز ، أن في أوائل دولته ، جاءت الأخبار من مكة ، أن في يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة ، قام بمكة أرياح عاصفة عظيمة ، فزقت أستار الكعبة الشريفة ، فما سكن الريح إلا والكعبة عريانة ، وزال عنها الكسوة السوداء ، ومكثت واحد وعشرين يوما ليس عليها

٢٤

كسوة ، وكان هذا فألا لزوال دولة بني العباس ؛ فما عن قريب حتى جاء هولاءكو ، وأخرب بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وزالت دولة (١٤٧ ب) بني العباس من بغداد - ذكر ذلك أبو شامة ، انتهى .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستمائة

فيها جاءت الأخبار من حلب ، بأن وقع بها حريق عظيم ، فاحترق بسببه ستائة دار .

وفيها جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ، أن في ليلة الجمعة مسهل رمضان ، احترق المسجد الشريف النبوي ، وعمت النار في سقوفه ، واحترق سقوف الحجرة الشريفة ، والنبير الذي كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يخطب عليه ، وقد أعيت الناس عن طفئها ، وكانت هذه من جملة الآيات المنذرة .

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين [وستمائة]

فيها عزم الملك المزمز على أن يقبض على الأمير فارس الدين أقطاي ، وكان رأس الممالك الصالحية ، فطلبه وقت الظهر ، فلما طلع إلى القلعة ، أكن له كمينا عند قاعة الأعمدة ، وقرر معهم إذا مر بهم الأمير فارس ، يقتلوه سرعة ، من غير معاودة ؛ فلما طلع الأمير فارس ووصل إلى باب قاعة الأعمدة ، وثب عليه الممالك المزمزية ، وأذاقوه كأس المنية .

فلما شاع أمره بين الناس ، وثب خشداشينه على الملك المزمز ، وذلك يوم الاثنين حادي عشرين شعبان من تلك السنة ، وكانوا نحو سبعمائة إنسان ؛ فطعموا إلى الرملة على حمية ، وأحاطوا بالقاعة من كل جانب ، تلك الممالك البحرية ؛ فلما عين الملك المزمز ذلك ، أرمى إليهم رأس الأمير فارس الدين أقطاي ، من أعلا السور .

فلما تحقق خشداشينه قتله ، انقضوا خائبين ، وخرجوا على حمية ، نحو البلاد الشامية ، وهم الأمير بيبرس البندقداري ، والأمير قلاون الألفي ، والأمير سنقر

الأشقر ، والأمير يسرى ، والأمير (١٤٨ آ) سكر ، والأمير برمق ، وغير ذلك من الأمراء الصالحة .

٣ فلما هربوا تحت الليل ، وجدوا أبواب القاهرة مقفولة ، فتوجهوا إلى باب القراطين فأحرقوه ، وخرجوا منه هاربين ، فسَمِيَ من يومئذ الباب المحروق ؛ فلما بلغ الملك المعز هروبهم ، احتاط على موجودهم ، وخذت هذه الفتنة .

٦ ثم إن الملك المعز قبض على شريكه في السلطنة ، الذي كان بقى من أولاد بنى أيوب ، وقد تقدم ذكر ذلك ؛ فلما قبض عليه سجنه بقاعة الجبل ، وانفرد أيبك بالسلطنة وحده ، انتهى ذلك .

٩ قال الشيخ شمس الذهبي : إن طائفة من المماليك البحرية ، لما هربوا من الملك المعز ، توجهوا إلى نحو العقبة ، فبينما هم في التيه ، فتاهوا به خمسة أيام ، فلاح لهم في اليوم السادس سواد مبنى ، فقصده ، فإذا هو سور من رخام أخضر ، وفيه أبواب ، فدخلوا منها ، فإذا هي مدينة عظيمة مبنية بالرخام الأخضر ، وبها أسواق ودكاكين ودور ، ووجدوا بها صهاريج فيها ماء أحلى من العسل ، وأبرد من النايج ، فشربوا منه حتى ارتبوا ، ووجدوا في بعض الدكاكين دنائير ذهب ، وعليها كتابة بالقلم القديم ، فأخذوا تلك الدنائير وخرجوا من المدينة .

١٢ فبينما هم يسيرون في الرمل ، فرأوا طائفة من العربان ، فأتوا بهم إلى مدينة الكرك ، فلما أقاموا بها ، أخرجوا تلك الدنائير التي معهم ، وأتوا بها إلى بعض الصيارف ، فإذا عليها مكتوب اسم موسى ، عليه السلام .

١٨ وقيل إن هذه المدينة بنيت في زمن موسى ، عليه السلام ، وكان يقال لها المدينة الخضراء ، وهي من مدائن بنى (١٤٨ ب) إسرائيل ، وقد طمّت بالرمال ، فتارة تنقص عنها الرمال ، فتظهر ، وتارة تطمعها الرمال ، فلا تظهر ، وقد لاحت لهؤلاء المماليك وقت تناقص الرمال عنها ؛ انتهى ذلك .

(٢٠) (١٤٨ ب) : كتب في الأصل على هامش هذه الصفحة الخبر الآتي وقد سبق وروده هنا فيما تقدم صفحة (١٤٧ آ) : « وفي سنة أربع وخمسين وستمائة ، توفي الشيخ أبو إسحق إبراهيم بن وشق ، شيخ القراء ، مات بالإسكندرية في ربيع الآخر » .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين [وستمئة]

- فيها توفي الشيخ زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المعروف بابن
 ٣ أبي الأصبع ، وكان من أعيان علماء البديع ، وهو صاحب كتاب « تحرير التعبير في
 علم البديع » ، وكان إمام هذا الفن ، ومن رقيق شعره في معنى النحو ، وهو قوله :
 أيا قرا من حسن صورته لنا وظل عذاريه الفجى والأصائل
 ٦ جعلتك للتمييز نصبا لناظري فهل لا رفعت الحجر والمجر فاعل

ثم دخلت سنة أربع وخمسين [وستمئة]

- فيها دبت عقارب الفتن بين الملك المعز ، وبين زوجته شجرة الدر ، فتغيرت
 ٩ عليه ، وتغير عليها ، لأنها كانت تمنّ عليه في كل وقت ، وتقول له : « لولا أنا
 ما وصلت أنت للسلطنة » .

- وكانت أزمته بطلاق زوجته أم ولده الأمير على ، فطأها ؛ وكانت شجرة الدر
 ١٢ تركية الجنس ، شديدة الغيرة ، وبلغها أن الملك المعز ، أرسل يخطب بنت بدر الدين
 لؤلؤ ، صاحب الموصل ، فصار بينهما وحشة من كل وجه .

- وكانت شجرة الدر تظن أن هذا الأمر الذي هي فيه يتمّ لها ، ولو راح أيبك ،
 ١٥ وهذا عين الغلط ، ولكن النساء ناقصات عقول ، وقد طاشت بما وقع لها ، كما قيل :
 كتب القتل والقتال علينا وعلى الغافيات جرّ الذبول

- (١٤٩ آ) فلما تزايد الأمر ، غضب منها الملك المعز ، ونزل إلى مناظر اللوق ،
 ١٨ وكانت مناظر اللوق تشرف على البحر ، عند المنقس ، فأقام بها الملك المعز أياما وهو
 غضبان من شجرة الدر ، وكان معها في غاية الضنك .

- فلما أقام بمناظر اللوق ، أرسلت إليه قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ،
 ٢١ فتلقّاه به حتى طلع إلى القاعة ، وكانت شجرة الدر قد أضمرت له السوء ؛ فلما طلع
 لاقته ، وقبّلت يده من غير عادة ، فظنّ أيبك أن ذلك على وجه الرضا منها ، فكان

(٧١) [وستمئة] : تنقسم في الأصل .

(١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و ٢١) شجرة الدر : شجر الدر .

كما قيل في المعنى :

ألقى العدو بوجهه لا قطوب به يكاد يقطر من ماء البشاشات
فأدرب الناس من يلقى أعاديه في جسم حقد وثوب من مودات ٣
فلما كان ليلة الأربعاء خامس عشرين ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستائة ،
ندبت له شجرة الدر خمسة من الخدام الروم ، وقالت لهم : « إذا دخل الحمام ، اقتلوه
بها » . ٦

فلما نام معها ، ودخل الحمام ، وقد تراضيا ، فبينما هما في الحمام ، دخل عليهما
هؤلاء الخدام ، وبأيديهم سيوف مسلولة ، فلما عاينهم الملك المعز ، استجار بشجرة الدر ،
وقبل يدها ، فقالت للخدام : « اتركوه » ، فأعاط عليها بعض الخدام ، وقال لها : ٩
« متى تركناه لا يبقى عليك ولا علينا » ؛ فقتلوه في الحمام خنقا ، وقيل شدوا محاشمه
بوتر حتى مات ؛ فلما مات ، حمّله وأخرجوه من الحمام ، وأشاعوا أنه أغنى عليه من
الحمام ، فأرقدوه على فراش في الحمام . ١٢

وكانت قتلته ليلة الأربعاء خامس عشرين ربيع (١٤٩ ب) الأول من تلك
السنة ؛ فلما أصبح الصباح ، أسمع بين الناس موته ، فركب ابنه الأمير على ، والماليك
المعزية ، وطلعوا إلى القلعة ، ففسلوا الملك المعز ، وكفّنوه ، وصلّوا عليه ، ودفنوه ١٥
بالقرافة الصغرى .

ثم إن الأمير على قبض على شجرة الدر ، وسلمها إلى أمه ، فأمرت جواربها أن
يقتلوا بالقباقيب والنعال ، فقتلوا حتى ماتت . ١٨

فلما مات سحبوها من رجلها ، وأرموها في الخندق الذي وراء القامة ، وهي
عريانة ، ليس في وسطها غير اللباس فقط ، فاستمرت مرمية في الخندق ثلاثة أيام
لم تدفن ؛ وقيل إن بعض الحرافيش ، نزل تحت الليل إلى الخندق ، وقطع نكة لباسها ، ٢١
وكان فيها أكرة لؤلؤ ، وناجفة مسك ، فسبحان من يعزّ ويذلّ ، وقد قيل في المعنى :

(٨) هؤلاء : ذلك .

(٥ ، ٨ ، ١٧) شجرة الدر : شجر الدر .

- لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس
- ٣ ثم بعد ثلاثة أيام ، حملت إلى المدرسة التى بجوار بيت الخليفة ، فدفنت بها ؛ وكان أصلها من جوار الملك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراها أيام أيبك الملك الكامل ، فحظيت عنده ، واستولدها ابنه خليل ، ثم أعتقها وتزوج بها ، وكانت معه فى البلاد الشاميه مدة طويلة .
- ٦ فلما قدم مصر وتسلطن ، وكان كثير الفزوات ، فكانت شجرة الدر تتولى أمور المملكة عند غياب الملك الصالح .
- ٩ وكانت ذات عقل وحزم ، كاتبة قارئة ، عارفة بأمور المملكة ، فسلطنوها لحسن معرفتها ، وسداد رأيها ؛ وكان لها برّ ومعروف ، وإيثار ، وأوقف على جهات (١٥٠ آ) برّ وصدقة .
- ١٢ وقد نالت من الدنيا ما لم تنله امرأة قبلها ، ولا بعدها ، وخطب باسمها على منابر مصر وأعمالها ؛ وكانت مدة ساطنتها بالديار المصرية نحو ثلاثة شهور إلا أياما ؛ وكانت قتلها يوم الثلاثاء خامس عشرين ربيع الآخر من تلك السنة .
- ١٥ وأما الخدام الذين قتلوا الملك المعز ، فهرب بعضهم إلى بلاد الشرق ، وصلب بعضهم على باب القاعة .
- وكانت مدة الملك المعز فى السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشاميه ، سبع سنين وثلاثة أشهر ، منها مدة انتراده بالسلطنة خمس سنين وثلاثة أشهر .
- ١٨ وكان مدة الملك الأشرف عيسى ، الذى شاركه فى السلطنة ، سنة وثلاثة أشهر . وكان الملك المعز أيبك التركمانى أول ملوك الترك بمصر ، وكان كفوا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة ؛ ومن إنشائه المدرسة التى فى رحبة الحناء المعروفة بالمعزية .
- ٢١ ولما قتل الملك المعز ، وقع الاتفاق من الأمراء على أن يسلطنوا ابنه على ، فسلطنوه ؛

(٦) شجرة الدر : شجر الدر .

(١٤) الدين : الذى .

(٢١) يسلطنوا : ساطنوا .

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المعز أيبك ، وذلك على سبيل الاختصار .

ومن الأبيات اللطيفة ، هذه الأبيات التي تتضمن أسماء ملوك الترك والجرأكسة ،

دون أسماء أولادهم ، وهم على الترتيب من المبتدأ إلى يومنا هذا ، وهي :

٣

أيبك قطز يعقبو بيبرس ذو الأكمال

بعدو قلاون بعد دو كتبغا المفضل

٦

لاجين بيبرس بر قوق شيخ ذو الأفضال

ططر برسبيه جق مق ذو العلا أبنال

وخشقدم عنه قل يلбай ذو الأحوال

٩

تمربغا قيتيبه الفحل ذو الإقبال

(١٥٠ب) وقانصوه جنبلا ط خذ عنهما الأقوال

وبعده جاء طو مان باي بالإقبال

١٢

وبعده قانصوه الفوري أبو الأحوال

وبعده صار طومان باي في جل جال

وأما سليم شاه خادم سعده عمال

١٥

ومذ ولي الملك أعبي أمره الأبطال

وابنه بعد في غايه الإكمال

وبعده أحمد الباشاه بسينو جال

١٨

ذكر

سلطنة الملك المنصور نور الدين على

ابن الملك المعز أيبك التركماني الصالحى

٢١

وهو الثانى من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ بويص بالسلطنة بعد قتل أبيه الملك المعز ، يوم الخميس سادس عشرين ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستائة ، وكان له من العمر لما ولي السلطنة إحدى وعشرين سنة .

(٨) يلбай : يليه .

وكان القائم بتدبير مُلكه الأمير علم الدين سنجر الحلبي ، فساس الناس في أيامه أحسن (١٥١ آ) سياسة ، وتفق على الجند ، وفرّق الإقطاعات على من يستحق من الجند ، وأمر من يستحق من الأمراء ، وقبض على من اختار ، وأبقى من اختار ، فتمّ أمره في السلطنة ، وأطاعه الجند ، وتلقّب بالملك المنصور ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضحّ الناس له بالدعاء .

ثمّ جلس على سرير الملك ، وعمل الموكب ، وأخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير سيف الدين قطز المعزّي ، واستقرّ به نائب السلطنة ، وأتابك العساكر بمصر ؛ واستمرّ الحال مبنّى على السكون .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة

قلت : وفي هذه السنة ، توفي يحيى بن محمد بن هبة الله أبو جرادة بن العديم الحلبي ، وكان من أعيان علماء الحنفية بحلب .

قلت : وفي هذه السنة وقع فيها حوادث عظيمة ، وأمور شتى ، وتوفّي فيها جماعة كثيرة من الأعيان ، وأنا أذكر بعض شيء من ذلك على سبيل الاختصار .

فمنها : أن في سفر جاءت الأخبار من بندگان ، أن خارجياً يقال له هولأكو ، زحف على بندگان وملسكها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وأخرب بندگان ، وقتل أهلها ، ونهب ما فيها من الأموال ، فلما بلغ الناس ذلك ، اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال .

قال أبو شامة : إن شخصا من الزنّاد ، يقال له عفيف الدين بن البقال ، وكان بمصر ، قال : لما بلغني ما وقع ببندگان ، فأنسكرت ذلك بقائي ، وقلت : يارب ، كيف

هذا الأمر ، وفيهم الأطفال ، ومن لاذب له ؛ فرأيت في المنام رجلا ، وفي يده ورقة ، فأخذتها منه وقرأتها ، فإذا فيها مكتوب : « دح الاعتراض فما الأمر لك ، ولا الحكم

(٨) مبنّى : كذا في الأصل .

(١٠-١١) وفي هذه السنة . . . بحلب : كتبت في الأصل على هامش من (١٥١ آ) ، دون الإشارة إلى موضعها في المتن .

- في حركات الفلك ، ولا تسأل الله عن فعله ، فمن خاض لجة بحر هلك » ، (١٥١ ب)
 قال الشيخ : فلما انتبهت من منامى ، استغفرتُ الله تعالى مما هتف بيالى ، انتهت ذلك .
 ومنها : جاءت الأخبار بأن الدجلة طفت منها الماء ، حتى دخل الدور ، وغرقت
 الأسواق ، وتعطّلت إقامة الخطابة بسبب ذلك أربعين يوما .
 وفي هذه السنة ، توفى الأديب الزاهد الصرمصرى أبو زكريا الموصلى ، ثم البغدادى
 الحنبلى ، ناظم المدائح النبوية ، ولد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وتوفى سنة ست
 وخمسين وستمائة ، وهو شرف الدين يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر
 ابن عبد السلام البغدادى ، قتل في واقعة التتار وكان كفيفا .
 وفي خامس جمادى الآخرة ، جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ، أن في التاريخ
 المذكور ، ظهر نار بواى شطا ، شرق المدينة ، وأنه يخرج منها شرار ، يأكل
 الحجارة ؛ وذكروا أن قبل ظهور هذه النار بخمسة أيام ، وقع بالمدينة زلزلة عظيمة ،
 وسُمع من السماء أصوات مزعجة ؛ ولم تزل هذه النار عمالة ، ليلا ونهارا ، نحو شهر ،
 فكان طول هذه النار أربعة فراسخ في عرض أربعة أميال ، فصارت تأكل في الحجارة
 حتى تصير مثل الفحم الأسود .
 قال الشيخ صفى الدين التميمى الحنفى ، مدرس مدرسة بصرى : إنه رأى وهو
 ببصرى ، من نواحي الشام ، سفحات أعناق الإبل في الليل المظلم من ضوء تلك النار ،
 التي ظهرت بالمدينة الشريفة .
 قال أبو شامة : إن أهل المدينة ، لما طال عليهم أمر هذه النار ، صار يودّع بعضهم
 بعضا ، وتابوا من ذنوب كانوا يعملونها ، وتصدقوا بأموالهم ، ولزموا الصوم والصلاة ،
 حتى كشف الله تعالى عنهم هذه النار ، وأنجلت تلك الظلمة ، وفي ذلك يقول القائل :
 يا كشف الغرّ صفحا عن جرائمنا لقد أحاطت بنا يا رب بأساء
 (١٥٢ آ) نشكو إليك خطوبنا لانطيق لها حملا ونحن بها حقّا أحقادا .
 (٤) إقامة : إقامت .
 (٥) الصرمصرى : ورد ذكره مرة أخرى هنا فيما بلى س (١٥٥ آ) .

- ٣ زلازلا تخشع الصمّ الصلاب لها وكيف يقوى على الزلزال شملاء
أقام سبعا يرجّ الأرض فانصدعت عن منظر منه عين الشمس عوراء
بحر من النار تجرى فوقه سفن من الهضاب لها في الأرض إرساء
يرى لها شررا كالقصر طائشة كأنها ديمة تنصبّ عطلاء
يشقّ منها قلوب الصخر إن زفرت رعبا وترعد مثل السعف أضواء
منها تكاثف في الجو الدخان إلى أن عادت الشمس منه وهي دهاء
قد أثرت شعة في البدر لفحتها فنوره التّم بعد الغوء ليلاء
فيالها معجزات عن رسو ل الله قد ظهرت والناس أحياء
٩ يشير الناظم إلى ما رواه البخاري في صحيحه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ،
أنه قال : « لا تقوم الساعة ، حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء منها أعناق
الإبل بمصرى » ، رواه في أواخر كتاب « الفتن » في باب خروج النار ، انتهى
١٢ ذلك .

وقال الإمام أبو شامة (١٥٢ ب) :

- ١٥ سبجان من أصبحت مشيئته جارية في الورى بمقدار
في سنة أغرق العراق وقد أحرق أرض الحجاز بالنار
وقوله في المعنى :
- ١٨ بعد ست من المئين وخمسين لذي أربع جرى في العام
نار أرض الحجاز مع حرق ال مسجد معه تفريق دار السلام
ثم أخذ التتار بغداد في أول عام من بعد ذلك وعام
لم يعن أهلها ولا كافر أعوان عليهم يا ضيعة الإسلام
٢١ وانقضت دولة الخلافة منها صار مستعصم بغير اعتصام
ومن الحوادث في هذه السنة ، أن في رابع شهر رمضان ، وقعت إحدى الملتين ،
التي بأرض المطارية ، التي يزعمون الناس أنها مسألتا فرعون ؛ فلما وقعت إحداها ، وجد
٢٤ في قانسوتها مائتي قطار نحاس أصفر ، ووجد في داخل تلك القانسوة ، عشرة آلاف

دينار ، كل دينار أوقية من الذهب الأكبر - تقل ذلك ابن الجوزي في تاريخه ، انتهى .

وأما من توفى في هذه السنة من الأعيان منهم : الشيخ رشيد الدين بن العطار ٣ المالكي ، مات في جمادى الأولى من تلك السنة .

وفيها توفى الإمام الحافظ العلامة زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى المصرى ،

ولد في شعبان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ؛ وكان شيخ المدرسة الكاملية ، وأقام بها نحو عشرين سنة ؛ ومات يوم السبت رابع (١٥٣ آ) ذى القعدة من سنة ست وخمسين وستمائة .

وفيها توفى الشيخ القطب العارف بالله ، الشريف الحسين النسيب ، تقي الدين ٩ على بن عبد الله أبو الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه ؛ مات في ذى القعدة من هذه السنة .

وفيها توفى الشيخ الإمام العلامة إبراهيم بن أبي الدنيا الأندلسى ، مات يوم ١٢ مستهل صفر من تلك السنة ، وكان من الأولياء المشهورة .

وفيها توفى المولى الفاضل سيف الدين على بن يحيى بن قزل ، المعروف بالمشد ،

وكان من أعيان شعراء مصر ، ولد في شوال سنة اثنتين وستمائة ، ومات في ذلك ١٥ السنة ، وكان له شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

أذن القومى فيها عند تهويم النجوم

فأننى النمن يعلّى بتحيات النسيم ١٨

وفيها ، في ذى القعدة ، توفى صاحب بهاء الدين زهير محمد بن محمد بن على

ابن يحيى بن الحسن الأزدي ، كان وزيراً بالديار المصرية ، وكان من أعيان شعراء مصر ،

ومن شعره وقوله : ٢١

ومدام من رذاب بحباب من ثنايا

(٣) منهم : من ٤ .

(١٣) المشهورة : كذا في الأصل .

كان ما كان ومنه بعد في النفس بقايا

وقد أقام البهاء زهير في الوزارة مدّة طويلة .

- ٣ فلما مات ، تولى الوزارة الأسعد هبة الله الفائزى ، وكان نصرانياً وأسلم ، فلما
 × تولى الوزارة ، أحدث مكوسا كثيرة بمصر ، وفتح أبواب مظالم ، فغضب عليه قطز ،
 وهو نائب السلطنة أيام الملك المنصور على بن أيبك ، فصاحه على باب القلعة ، وأخذ
 ٦ جميع أمواله .

ثم أخلع على القاضي بدر الدين (١٥٣ ب) السخاوى ، واستقرّ به وزيراً ،
 عوضاً عن الفائزى ، وقد جمع بين الوزارة وقضاء الشافعية .

٩ ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

- فيها جاءت الأخبار بأنّ هولاءكو ، لما أخذ بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ،
 وجرى منه ما جرى ، طمع في أخذ مصر أيضاً ، فعدى الفرات ، وتوجّه إلى حلب
 ١٢ فملكها ، وكذلك حماة ، وقد زحف على البلاد الشامية .

قيل ، لما ظهر هولاءكو بالخليفة المستعصم بالله ، وضعه في تليّس ، ولا زال يرفسه
 بالنعال حتى مات ، وهو في التليّس .

- ١٥ فلما جاءت الأخبار بذلك ، جمع الأتابكي قطز الأمراء ، وضرب مشورة ، وأخذ رأى
 الأمراء ، فأشاروا بعقد مجلس ؛ لجمع القضاة ، ومشايخ العلم ، وكان المشار إليه في المجلس
 شيخ الإسلام ، الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ، رضى الله عنه .

- ١٨ فلما تكامل المجلس ، قام شخص بين يدي الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ،
 وذكر هيئة سؤال في أمر هولاءكو ، وقد استولى على البلاد ، ووصل إلى حلب ، وقد
 تقدّم ما فعله ببغداد ، وأنّ بيت المال خال من الأموال ، وقد ضاق الوقت عن استخراج
 ٢١ الأموال من البلاد ، وقد اضطربت الأحوال ، وأنّ الوقت محتاج لإقامة سلطان كبير ،

تركى ، تحشاه الرعية ، وأنّ السلطان الآن صغير السن ، وضاعت مصالح المسلمين ،
 والعدوّ زاحف على البلاد ، فما الجواب عن ذلك ؟

فأجاب الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، رضى الله عنه : إذا طرق العدو البلاد ،
وجب على الناس قتاله ، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأغنياء الناس ،
ما يستعان به على تجهيز العسكر (١٥٤ آ) لدفع العدو ، لكن بشرط أن لا يبقى في ٣
بيت المال شيء من السلاح ، والسروج الذهب والفضة ، والكنائش الزركش ،
والسيوف المسقطة بالذهب ، وأن وقت القتال يقتصر الجندى على فرسه ورمحه وسيفه ،
ويساوى في ذلك العامة ؛ وأما أخذ أموال التجار والأغنياء مع وجود إبقاء ما في ٦
بيت المال مما ذكر ، فلا يجوز أخذ أموال الرعية بغير حق .

ثم إن الأمراء تكلموا مع القضاة في إقامة سلطان تركى ، تهابه الرعية ، فوقع
الاتفاق على سلطنة الأتابكى قطاز ، نخلع الملك المنصور على من السلطنة ، وولى قطاز . ٩
وكان المنصور على طائش العقل ، ياعب بالحمام مع أولاد الغلمان ، وكانت أمه
تدبر أحوال المملكة ؛ فلما خلع من السلطنة ، قيدوه وأرسلوه مع إخوته وأمّه إلى ثغر
دمياط ، فاعتقلوه ببرج السلسلة ؛ فأقام به مدّة طويلة ، حتى مات هناك ، ودفن بثمر ١٢
دمياط ؛ فكانت مدّة سلطنته نحو ثلاث سنين إلا أربعة أشهر ، وكانت أيامه أشرّ
أيام مع قصرها .

وتوفى في أيامه أيضا الشيخ سعد الدين بن عربى ، صاحب النظم الرقيق . - وتوفى ١٥
الصرصرى ، وله ديوان لطيف النظم .

وتوفى الشيخ شعله شيخ القراءات . - وتوفى ابن الأبار ، المؤرخ . - وتوفى
الفاسى الغربى المالكى ، وغير ذلك من الأعيان . ١٨

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المنصور على بن أيبك التركمانى ، وذلك على سبيل
الاختصار .

(٤) نى : شينا .

(٨) ساملان : ساملانا .

ذكر

سلطنة الملك المظفر سيف الدين

قطز المعزى

٣

وهو الثالث من الترك وأولادهم (١٥٤ ب) بالديار المصرية ، وكان أصله من ممالك المعز أيبك التركمانى . . .

٦

قيل ، إن قطز لم يكن مرقوقا ، وإنما أخذ من سبايا التتر ، وقُدّم إلى الملك المعز فرقى حتى صار أتابك العساكر بمصر ، ثم بقى سلطان مصر .

٩

قال ابن الجوزى : كان قطز فى رقّ ابن الزعيم ، فلطمه يوما على وجهه ، فبكى بكاء شديدا ، فقيل له : « من لطمه واحدة ، تبكى هذا البكاء » ؟ فقال : « إنما أبكى

من لعنته لأبى وجدى ، وهما أفضل منه » ، فقيل له : « ومن أبوك وجدك ، وهما من النصارى » ؟ قال : « بلى ، إنما أنا مسلم بن مسلم ، أنا كان اسمى محمود بن ممدود

ابن أخت خوارزم شاد ، من أولاد ملوك الشرق ، وإنما أخذونى من جملة سبايا التتر ، لما وقعت الكسرة عليهم » ؛ فعلى هذا الحكم لم يكن قطز مرقوقا .

فلما خلع الملك المنصور من السلطنة ، بويع قطز يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستائة .

فلما تمّ أمره فى السلطنة ، عمل الموكب فى القامة ، فلما طلع الأمراء إلى القلعة ، قبض على جماعة من أعيان خشداشينه المعزىة ، وقيدهم وأرسلهم إلى السجن بشر دمياط والإسكندرية .

فلما فعل ذلك استقامت أحواله فى السلطنة ، وأنشأ له عصابة من الأمراء ، فأخلع

(٦) مرقوقا : يعنى من الرقيق .

(٧) فرقى : فرقا .

(١١) بلى : بلا .

(١٢) سبايا : سبايا .

(١٤) ذى القعدة : ذى قعدة .

على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، واستقرّ به أتابك العساكر ، عوضاً عن نفسه ، وفوض إليه أمور المملكة جميعها ؛ وأخلع على جماعة من الأمراء ممن يثق بهم .

ثم عزل صاحب بدر الدين (١٥٥ آ) محمد السخاوى من الوزارة ، واستقرّ ٣ بالقاضى تاج الدين بن بنت الأعزّ ، وزيراً ، عوضاً عن السخاوى ، فجمع ابن بنت الأعزّ بين القضاء والوزارة ، فى هذه السنة ، وهى سنة سبع وخمسين وستائة .

فبينما المظفر قطز فى أحوال مملكته ، إذ جاءت الأخبار على جرائد الخيل ، أن ٦ جاليش عسكر هولاكو قد وصل إلى دمشق ، ونهب البلاد ، وقتل العباد ، وأطلق فيهم الزناد ؛ فلما وصل هذا الخبر إلى الديار المصرية ، اضطربت منه القاهرة ، وعظمت البلية . ٩

فلما كان يوم السبت خامس صفر سنة ثمان وخمسين وستائة ، حضر إلى الأبواب الشريفة ، قاصد هولاكو ، وهو شخص من التتار ، يقال له كتبغا نويز بك ، وصاحبه أربعة من التتار ، وعلى يده كتاب من عند هولاكو ، فكان مضمون كتاب هولاكو ١٢ هذه الألفاظ الفاحشة :

« من ملك الملوكة شرقاً وغرباً ، القان الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، نُعَلِّم أمير مصر قطز ، الذى هو من جنس المالك ، الذين هربوا من سيوفنا ١٥ إلى هذه الأرض ، بعد أن ابتاعوا إلى التجار بأبخس الأثمان . »

« أما بعد : فإننا نعبد الله ، فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، يسلطانا على من يشاء من خلقه ، فسلموا إلينا الأمر ، تسلموا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ؛ وقد سمعتم أننا أخرجنا البلاد ، وقتلنا العباد ، فلکم منا الحرب ، ولنا خلفكم الطاب ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، وأنتم معنا فى الأقفاس ، خيولنا سوابق ، وسيوفنا صواعق ، فقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن تأخر ٢١ عنا سلم . »

« فإن أنتم لشرطانا أطعتم ، وما قلناه سمعتم ، فلکم ما لنا ، وعليكم (١٥٥ ب) ما علينا ، وإن أنتم خالفتُمونا ، هلككم ، فلا تهلكوا أنفسكم بأيديكم ، فقد حذر ٢٤

من أنذر ، وقد ثبت عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا أنكم فجرة ، والله يلقي الكفرة على النجرة » .

- ٣ « فأسرعوا إلينا بالجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترميكم بشرارها ، فلا يبقى لكم جاه ولا عز ، ولا يصممكم منا حصن ولا حرز ، ونترك الأرض منكم خالية ، والمنازل خاوية ، فقد أيقظناكم ، إذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم » .
- ٦ « وقد حذرنا قبلكم أهل بندا بمثل ذلك ، فما سمعوا ، فجري عليهم ما سمعتم به ، وقتلنا خطيبهم الذي يزعمون أنه الخليفة ، وخربنا بلادهم ، ونهبنا عدادهم ، وهذا آخر كلامنا لكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من اتبع الهدى ، وخشى عواقب الردى » .

وكتب له في آخر هذه المطالعة ، هذين البيتين وهما :

- أين المفرّ ولا مفرّ لمارب ولنا البيطان الثرى والماء
ذلت لهيئتنا الأسود وأصبحت في يدنا الأمراء والخلفاء
- ١٢ فلما سمع الملك المظفر هذه العبارة ، خرج من الطارة ، وجع الأمراء ، واستشارهم فيما يكون من أمر هولاء ، وقال : « إن تأخرتم عن قتالهم ملكوا الديار المصرية ، وفعلوا بنا كما فعلوا في بندا » .
- ١٥ ثم إن الملك المظفر حبس قاسد هولاء ، وأخذ في أسباب خروجه إلى هولاء ، ونادى بالفتير عامّا إلى الفزاة في سبيل الله ؛ ثم عرض العسكر ، وأرسل خاف عربان الشرقية والغربية ، فاجتمع عنده من عساكر مصر نحو أربعين ألفا .
- ١٨ ثم أخذ في أسباب جمع الأموال ، فقرّر على كل رأس من أهل مصر والقاهرة ، من كبير وصغير ، ديناراً واحداً ؛ وأخذ من أجرة الأملاك شميرا واحداً ؛ وأخذ من

(٤) يبتى : يبقا .

(٧) يزعمون : يزعموا .

(١٠-١٢) وكتب . . . والخلفاء : كتبت في الأصل على هامش س (١٥٥ ب) .

(تاريخ ابن لباس ج ١ في ١ - ٢٠)

أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً ؛ وأخذ (١٥٦ آ) من الترك الأهلية
ثلاث المال ؛ وأخذ على الفيطان والسواقى أجرة شهر واحد ؛ وأحدث من أبواب هذه
المظالم أشياء كثيرة .

فبلغ جملة ما جمعه من الأموال في هذه الحركة ، ستمائة ألف دينار وكسور ، فأنفق
ذلك على العسكر والعربان ، وجهاز حاله ، وبرز خايمه إلى الريدانية ، وفيه يقول ابن
عنين :

إن ساجاننا الذي نرتجيه واسع الحال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

ثم جاءت الأخبار بأن أوائل جاليس هولاء ، قد وصل إلى العريش ، فخرج الملك
المظفر من القاهرة ، في الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فنزل
من قلعة الجبل في موكب حفل ، وكان يوماً مشهوداً .

فلما نزل بالريدانية ، أحضر قاصد هولاء ، المسمى كتبنا نوز ، فوسطاه هناك ،
ومن معه من التار .

ثم رحل من الريدانية ، وجد في السير حتى وصل إلى عين جالوت ، من أرض
كندان ، فتلاقى هناك عسكر هولاء وعسكر مصر ، فكان بينهما ساعة تشيب منها
النواصي ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى .

فكانت النصر لعسكر مصر ، وانكسر عسكر التتار كسرة قوية ، وشحته
العسكر المصري إلى بيسان ؛ وكان ذلك يوم الجمعة خامس عشرين رمضان من سنة
ثمان وخمسين [وستمائة] ، فكان بينهما على بيسان واقعة أعظم من الأولى ، وقتل من
عسكر التتار نحو النصف ، وغنم منهم عسكر مصر غنيمة عظيمة ، من خيول وسلاح
وبرك وغير ذلك .

(٢) شهر واحد : شهراً واحداً .

(١٥) فتلاقى : فتلاقا .

(١٩) [وستمائة] : تنقس في الأصل .

ثم إن الملك المظفر دخل الشام في موكب عظيم ، وجلس للحكم في الميدان ، وأرسل (١٥٦ ب) بهذه البشارة إلى القاهرة ؛ وفي ذلك يقول أبو شامة :

٣ غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه بالشام أهلكتهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه

ثم إن الملك المظفر أخلع ، وهو بالشام ، على الأمير علم الدين سنجر الحلبي ، واستقر به نائب الشام ؛ وأخاع على الأمير علاء الدين ، صاحب الموصل ، واستقر به نائب حلب .

ثم استخاض البلاد الشامية من أيدي أولاد بني أيوب ، وكان غالبها في أيديهم ؛ فهد البلاد الشامية ، والبلاد الحلبية ، وولى بها من يختار .
ثم قصد العود إلى الديار المصرية ، وظن أن الوقت قد صفاه وأن الدهر ساعده ، فكان كما قيل في المعنى :

١٢ أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف غب ما يأتي به القدر

وسالتك الليالي فافترت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

فلما خرج من دمشق ، ووصل إلى قريب الصالحية ، اتفق جماعة من الأمراء على قتله ، وكان المشار إليه في ذلك الوقت الأمير بيبرس البندقداري .

فلما وصل الملك المظفر إلى القرين ، قصد يسير في الفضاء ، فرأى أرنبا ، فساق خلفه ، فلما ساق ، ساق معه الأمراء ، فدنا منه الأمير (١٥٧ آ) بيبرس البندقداري ليقتل يده ؛ وكان الملك المظفر أنعم عليه بجارية مميحة من سبايا التتار ، فظن أنه جاء يقبل يده بسبب ذلك .

فلما مد يده إليه ، قبض عليه وضربه بالسيف ، ثم حملوا عليه بقية الأمراء بالسيوف ، فقتلوه وتركوه ميتاً ملقى على الأرض ، ثم سافوا وهم شاهرون سيوفهم إلى الوطاق ، فجلس الأمير بيبرس على مرتبة السلطان قطار ، وأخذ المملكة باليد .

فلما شاع قتل الملك المظفر ، فعز ذلك على بقية الأمراء ، لأنه قتل من غير ذنب ، وكان خيار ماوك الترك ، وله اليد البيضاء في قيامه لدفع التتار عن البلاد الشامية ،

وقد أشرفوا على أخذ الديار المصرية .

وكانت قتل الملك المظفر قطز ، يوم السبت خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان

وخمسين وستائة ، ودفن بالقرين ، وقيل نقل بعد ذلك إلى مدرسته التي بالقرب من ٣
حدرة البقر ، فدفن بها ؛ وكانت مدة سلطنته بمصر سنة إلا أياما .

قال الإمام أبو شامة : ما جلس سلطان على كرسي مملكة مصر ، وكان متقلداً

بغير مذهب الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، إلا عزل سريعاً ، أو قتل ، وقد جرب ٦
ذلك فى الملك المظفر قطز ، فإنه كان حنفيّاً ، فلم يمكث إلا يسيراً وقتل ، وهذا سرّ فى
الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، لأنه صاحب مصر ؛ انتهى ما أورده من أخبار الملك
المظفر قطز ، وذلك على سبيل الاختصار (١٥٧ ب) . ٩

ذكر

سلطنة الملك الظاهر ركن الدين

بيبرس الملاى البندقدارى ١٢

الصالحى النجمى

وهو الرابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ تسلمن بعد قتل الملك

المظفر قطز بالقرين ، كما تقدّم ، وقد أخذ المملوك باليد من غير حرب ولا قتال ، ١٥
تسلمن يوم السبت خامس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستائة .

وكان تلقّب أولاً بالملك القاهر أبى الفتوحات ، فمها بعض العلماء عن هذا اللقب ،

وقال له : « ما تلقّب أحد من الملوك بهذا اللقب وأفلح » ؛ وقد تلقّب به جماعة من ١٨
الخلفاء العباسية ، فلم تطل أيامهم ، وفيهم من قتل ، فلما سمع ذلك ، ترك هذا اللقب ،
وتلقّب بالملك الظاهر أبى الفتوحات .

قلت : وكان أصله تركى الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير ، وكان مولده ببلاذ ٢١
قبيجاق ، فى سنة عشرين وستائة ، فأخذ من بلاده وأبيع بدمشق ، فابتاع لشخص

يسمى العماد الصايغ .

٣ ثم بعد مدّة اشتراه منه الأمير علاء الدين أيديكين ، المعروف بالبندقدارى ، ومن العجائب أن أيديكين البندقدارى ، أستاذ الملك الظاهر بيبرس ، عاش حتى أدرك أيام سلاطنته ، وصار من جملة أمرائه بمصر .

٦ فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، احتاط على موجوده ، فأخذ بيبرس مع جملة الموجود ؛ فأقام مدّة ، ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقاشا ، وجعله من جملة المماليك البحرية .

٩ وكان شجاعا بطلا ، فأظهر يوم واقعة الفرنج التي كانت على المنصورة ، أيام الملك العظيم توران شاه ، الشجاعة التي لم يسمع بمثالها ؛ ولا زالت الأقدار تساعد ، حتى بقى أتابك المساكر بمصر ، فى دولة الملك المظفر (١٥٨ آ) قطز .

١٢ فلما قتل الملك المظفر ، أخذ الملكة باليد ، وجلس على مرتبة السلطنة ، وبأس له الأمراء الأرض ، وذلك بمنزلة القرين ؛ ثم حانف سائر الأمراء لنفسه ، فخلعوا له على مصحف شريف .

١٥ فلما جرى ذلك ، قصد الدخول إلى القاهرة ، فدخلها تحت الليل ، وطلع إلى القامة ، وكانت القاهرة قد زينت للملك المظفر بسبب هذه النصرة .

فلما طلع النهار ، نادى الممادى فى القاهرة : « ترحموا على الملك المظفر قطز ، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس » .

١٨ فمن الناس من فرح بسلاطنة الملك الظاهر بيبرس ، ومن الناس من تأسف على قتل الملك المظفر قطز ، فإنه قتل من غير ذنب ، وله الراية البيضاء فى دفع التتار ، وقتالهم ، ومنعهم عن دخول مصر ، كما قيل :

٢١ ومن سوء حظّ الرء فى الدهر أنه يلام على أفعاله وهو عسّن
ثم إن الملك الظاهر عمل الموكب بالقامة ، وأخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ، واستقرّ به أتابك المساكر ، عوضا عن

نفسه ؛ وأخلع على الأمير لاجين الدرفيل ، واستقرّ به دوادار كبير ؛ وأخلع على الأمير بلبان الرشيدى ، واستقرّ به دوادارا ثانيا ؛ وأخلع على الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى ، واستقرّ به أمير آخور كبير ؛ وأخلع على الأمير أيبك الأفرم ، واستقرّ ٣ به أمير جاندار .

وأنعم على الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، بتقدمة ألف ؛ وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، بتقدمة ألف ؛ وأنعم على الأمير بكتوت الجوكندار ، ٦ بتقدمة ألف ؛ وأنعم على الأمير بيدغان المعروف بسمّ الموت ، بتقدمة (١٥٨ ب) ألف ؛ وأنعم على الأمير أنص الأسفهانى ، بتقدمة ألف ؛ وأخلع على الأمير ركن الدين أياجى ، والأمير سيف الدين بكجورى ، واستقرّ بهما حجابا : حاجب كبير ٩ وحاجب ثانى .

ثم أفصل القاضي تاج الدين بن بنت الأعزّ من الوزارة ، وأبقاه فى قضاء الشافعية ؛ ثم أخلع على القاضي زين الدين يعقوب بن عبد الرافع بن الزبير ، واستقرّ به وزيرا ، ١٢ عوضا عن ابن بنت الأعزّ ؛ وأخلع على القاضي نحر الدين بن لقمان ، واستقرّ به كاتب الإنشاء الشريف .

ولما تمّ أمره فى السلطنة ، وقويت شوكته ، أخلع على مملوكه الأمير بيلىك ، ١٥ واستقرّ به نائب السلطنة ، فعظم أمره ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحلّ والعقد بالديار المصرية ، وصار ينفذ الأمور من غير مشورة السلطان ؛ وكان نائب السلطنة يفرّق الإقطاعات الخفيفة ، ويعيّن الوظائف ، ويتصرّف فى أمور المملكة ، ١٨ يتصرّف المطلق .

ثم أخلع السلطان على الأمير آقوش النجيبى ، واستقرّ به أستاذارا ؛ قيل ، إن هذه الوظيفة حادثة من أيام بنى أيوب ، وهى فرع من الوزارة ، تولى بها شخص ٢١ يسمّى الظفر بن جهير ، وهو أول من أطلق عليه الأستاذار ، وأفرد إليه جوامك الجند والعامق ، ومصالح أمر بيوتات السلطان كلها ، فاستمرت من يومئذ هذه الوظيفة

عمالة إلى الآن .

قال الصالح الصفدى فى « تذكرته » : إنَّ التاجر الذى أباع الأمير بيليك
٣ إلى الملك الظاهر بيبرس ، كان من أغنياء التجار ، فى سعة من المال ، فدارت عليه
الدوائر حتى افتقر ، وصار من (١٥٩ آ) جملة الخرافيش .

فلما ضاق الأمر عليه ، دخل القاهرة ، فقال له بعض التجار : « إنَّ مملوكك
٦ بيليك ، الذى بعته للملك الظاهر ، قد صار صاحب الحل والعقد بمصر ، فلو أنك تدخل
إليه ، وتشكو له حالك ، فعسى ينعم عليك بشىء تستعين به على ما أمالك » .

فكتب قسمة ، ومن مضمونها هذان البيتان :

٩ كفا جميعا فى بؤس نكابده والقلب والعارف منا فى أذى وقذى
والآن أقبت الدنيا عليك كما ترضى فلا تنسى إنَّ الكوام إذا
فلا قرأ هذه الأبيات ، وتحقق أنه التاجر الذى أباعه للملك الظاهر ، وقد افتقر
١٢ وصار فى هذه الحالة ، أنعم عليه بعشرة آلاف دينار ، انتهى ذلك .

ثم إنَّ الملك الظاهر أفصل العاصب زين الدين بن الزبير ، واستقر بالصاحب بهاء
الدين بن حنا فى الوزارة ، عوضا عن ابن الزبير .

١٥ ثم إنَّ الملك الظاهر أراد استجلاب خواطر الرعية ، بالأفعال المرضية ، فأبطل
ما كان أحدثه الملك المظفر قطز ، من أبواب المظالم ، عند توجهه إلى التجريدة ، فأبطل
١٧ ذلك جميعه ، وكتب بذلك مساميح ، وقرئت على المنابر بعد صلاة الجمعة ، فضجَّ الناس
له بالدعاء ، ومالت إليه قلوب الرعية ، وفى ذلك يقول القائل :

لم يبق للجزور فى أيامكم أثر إلا الذى فى عيون الغيد من حور (١٥٩ ب)

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة

٢١ فيها جاءت الأخبار بأنَّ سمجر الحلبي ، نائب الشام ، قد خرج عن الطاعة ،
وأظهر العبيان ، وتسلطن بدمشق ، وتلقب بالملك الأعبد ، وخطب باسمه على
منابر دمشق ، وباس له الأمراء الأرض ، وصار يركب بشعار الملك ؛ وكان قد تولّى

نيابة دمشق من أيام الملك المنصور على بن أيبك .

فلما بلغ الملك الظاهر ذلك ، أرسل إليه بعض الخاصكية ، وعلى يده مثال شريف ، وهو يوبّخه فيه بقبيح فعله ، وأمره بالرجوع عن ذلك ، فعادت الأجوبة بالمخالفة ، وعدم الطاعة ، وقد وافقه على العصيان جماعة من النوّاب ، واضطربت أحوال البلاد الشامية .

وحصل للملك الظاهر في أوائل دولته غاية الاضطراب ، منها : عصيان النوّاب ، ووثوب المالك المزيّة عليه ، وخراب البلاد الشامية مما فعله هولاء ، ثم إن الملك الظاهر قبض على جماعة من المالك المزيّة ، وأرسلهم إلى السجن بئر الإسكندرية ، فصفا له من بعد ذلك الوقت .

ومن الوقائع : قال الإمام أبو شامة : رفعت قصة إلى القاضي تاج الدين بن بنت الأعز في الملك الظاهر بيبرس ، أن لشخص من الأمراء عليه دعوة بسبب بئر ، فطلبه القاضي برّسول إلى المدرسة الصالحية ، فنزل الملك الظاهر إلى الصالحية ، ووقف هو وغريمه بين يدي (١٦٠ آ) القاضي ، وادّعى عليه ذلك الأمير ، وكان الحق بيد الملك الظاهر ، وله بيّنة عادلة ، فحكم القاضي بالبئر للملك الظاهر ، ونزع البئر من يدي غريمه ، وأسلمها له .

وفي هذه السنة ، أمر الملك الظاهر بتجديد الخطبة في جامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وكانوا مهجورين من أيام الخلفاء الفاطميين . وفي هذه السنة ابتدأ السلطان الملك الظاهر بعمارة مدرسته ، التي بجوار المدرسة الصالحية ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ستين وستمائة

فيها ، في تاسع صفر ، جاءت الأخبار بأن شخصا من بني العباس يسمّى الإمام أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله ، وهو عمّ الخليفة المستعصم بالله ، وأخو الخليفة المستنصر بالله ، وكان معتقلا ببغداد عند جماعة من عربان العراق ، من حين قتل

(١٧) وكانوا مهجورين : كذا في الأصل . || من أيام : من أيامه .

الخليفة المستعصم بالله ، سنة ست وخمسين وستائة ، ثم حضر إلى مصر مع جماعة من العربان .

٣ فلما بلغ الملك الظاهر ورسوله إلى العكرشا ، خرج إلى تلقئه ، فلما وقعت عين

الملك الظاهر على الإمام أحمد ، نزل عن فرسه ، ونزل الإمام أحمد عن فرسه ، وتماثقا .

وكان الإمام أحمد أسمر اللون ، أمه حبشية ، فحضر معه جماعة من عربان العراق ،

٦ وفيهم الأمير ناصر الدين بن مهنا ، شيخ العرب ، وحضر صحبته طوائف بغدادى .

ثم إن الملك الظاهر ركب ، وصحبته الإمام أحمد ، فدخلوا من باب النصر ، وشقا

القاهرة ، وكان ذلك اليوم يوما مشهودا ، وجاءت الناس قاطبة ينظرون إلى خلفاء

٩ بنى العباس ، (١٦٠ ب) وكان الناس يظنون أن الخلافة قد انقطعت من الوجود ، فإن

الخلافة أقامت شاغرة نحو ثلاث سنين ونصف ، والدنيا بلا خليفة من بنى العباس .

فلما حضر الإمام أحمد ، فرح الناس به ، وحمدوا الله الذى بقى من نسل العباس

١٢ بقية ، فإن هولاء كوكعد أن يقطع جادة بنى العباس عن آخرها .

وقد ورد فى بعض الأخبار ، أن الخلافة العباسية تستمر فى الدنيا حتى ينزل

عيسى بن مريم ، عليه السلام ، ثم تنقطع من بعد ذلك .

١٥ فلما شق الإمام أحمد القاهرة ، طلع مع السلطان إلى القلعة ، فأنزله بقاعة الأعمدة ،

فأقام بها أياما .

ثم إن الملك الظاهر قصد أن يثبت نسب الإمام أحمد ، فأمر بعقد مجلس ، وجمع

١٨ القضاة ومشايخ العلم ، ومشايخ الصوفية ، وأعيان الصالحاء والزهاد ، وسائر الأمراء ،

وأرباب الوظائف ، وكان هذا الموكب فى قاعة الأعمدة .

فلما تكامل المجلس ، جلس الملك الظاهر بين يدى الإمام أحمد ، على ركبته ، من

٢١ غير مرتبة .

وكان المشار إليه فى ذلك المجلس شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، رضى

الله عنه ، وحضر قضاى القضاة تاج الدين بن بت الأعز الشافعى ، والشيخ جمال الدين

ابن الحرانى ، والشيخ صدر الدين الجزرى ، والشيخ سديد الدين الترمتى ، وغير ذلك من أعيان العلماء والشافى .

ثم حضر الإمام أحمد ، والربان الذين حضروا معه ، والطوائى ، وابن مهنا ٣ أمير العرب ، وشهدوا بين يدى القضاة ومشايخ العلم ، أن هذا الإمام أحمد ، هو ابن أمير (١٦١ آ) المؤمنين الظاهر بأمر الله ، وعم أمير المؤمنين المستنصر بالله ؛ فلما قامت البيئة بذلك ، ثبت على قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وسجله على ٦ نفسه ، وحكم بصحته .

فلما ثبت نسب الإمام أحمد ، بويغ بالخلافة ، وتلقب بالمستنصر بالله ، على لقب ٩ أخيه خليفة بغداد .

فلما بويغ بالخلافة ، فوض للناس على قدر طبقاتهم ، فأول من فوض إليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

ثم بايع الملك الظاهر بالسلطنة ، وفوض إليه أمر البلاد الشامية والمصرية ، ١٢ وما سيفتح على يديه من البلاد الكفرية .

ثم بايع قاضى القضاة ابن بنت الأعز ، بالتصرف فى الأحكام الشرعية ، وأنه ١٥ يولى من القضاة من يختار ، ويعزل من يختار ؛ ثم بايع الوزراء ، والأمراء ، وأرباب الوظائف ، على قدر طبقاتهم .

فلما انتهى المجلس ، أحضر السلطان القاضى نضر الدين بن لقمان ، كاتب السر ، وأمره بكتابة مراسيم إلى سائر أعمال المملكة ، بأخذ البيعة الصحيحة من الخليفة ١٨ المستنصر بالله ؛ وهو أول من تلقب بقسيم أمير المؤمنين ، وكان من تقدمه من ملوك بنى أيوب ، يلتقب بولى أمير المؤمنين ، أو حاجب أمير المؤمنين ، وقد قل القائل :

يا أسد الترك ويا ركنهم ويا أخذ النار بعد الخانة
كسرت الطفلة جبرت العفاة قطعت الفرات وصات الخلافة

- فلما كان يوم الجمعة ، رسم السلطان للخليفة أن يخطب بنفسه على المنبر بجامع القامة ، فاجتمع القضاة والعلماء ، فركب الخليفة من قاعة الأعمدة وهو في أبهة السواد ، حتى جاء إلى الجامع ، وصعد المنبر ، وخطب خطبة بليغة ، (١٦١ ب) فكان معناها :
- « الحمد لله الذي أقام آل العباس ركنا وظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا ، أحمد على السراء والضراء ، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء ، وأستنصره على الأعداء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء ، وأئمة الاقتداء ، الأربعة الخلفاء ، وارضى عن العباس عمه ، وكشف غمه ، وارضى عن السادة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين » .
- « أيها الناس ، اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ، فاستبييت الحرم ، إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء ، إلا بارتكاب المآثم ، فلو شاهدتم أهل بغداد ، حين دخلوا التتار دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا النساء والأطفال والرجال ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم ، وأذاقوهم العذاب الأليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والويل ، وعات الضججات من هول ذلك اليوم الطويل ، فكلم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يُرحم لبكائه ، فشمروا عن ساعد الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، فلم يبق معذرة في التعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين » .
- « وأما السلطان الفاهر (١٦٢ آ) ببيرس ركن الدنيا والدين ، قد أقام بنصرة الإمامة ، عند قاة الأنصار ، وشرذ جيوش الكفر ، بعد أن جاسوا خلال الديار ، فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود ، والدولة العباسية متكاثرة من الجنود ، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نيّاتكم تنصروا ، وقتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، ولا يرد عنكم ما جرى لنا ، فالحرب سجال ، والواقبة للمتقين ، جمع الله على التقوى أمركم ، وأعز بالإيمان نصركم ، وأنا أستغفر الله العظيم ، لى ولكم ،

ولسائر المسلمين ، إنه هو الغفور الرحيم .

ثم نزل عن المنبر ، وصلى بالناس صلاة الجمعة ، وانفض ذلك الجمع .

٣ فلما كان يوم الاثنين ، رابع ربيع الأول من تلك السنة ، خرج السلطان إلى نحو المطارية ، وضرب هناك خيمة كبيرة ، وجلس على كرسي ، وحوله الأمراء ؛ ثم إن القاضي نحر الدين بن لقمان ، كاتب السر ، نصب هناك منبرا ، وصعد عليه ، وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة للسلطان ، وهو أول من بايعه الخليفة من ملوك الترك بمصر ، ٦ وهي البيعة الصحيحة له بالسلطنة .

فلما فرغ من ذلك ، لبس خلعة السلطان ، وهي جبة سوداء ، وعمامة سوداء ،

٩ وطوق ذهب في عنقه ، وقيد ذهب في رجليه ، وسيف بداوى مقلد به ، وهذه كانت صفة هيئة السلطنة قديما ، لما يتولى السلطان - ذكر ذلك الحافظ أبو شامة .

ثم ركب على فرس يوز أبيض قرطاسي ، ودخل القاهرة من باب النصر ، وشق

١٢ المدينة وهو لابس شعار السلطنة ؛ فزينت له المدينة زينة حفلة ، ومشت قدامه الأمراء من باب النصر إلى القاعة ، والصاحب بهاء الدين بن حنا ، شليل التقليد (١٦٢ ب) على رأسه ، حتى طلع إلى القاعة ، وكان يوما مشهودا .

١٥ ثم إن السلطان أخذ في أسباب تجهيز الإمام أحمد وعوده إلى بغداد ، فأقام له بركا ، وعين معه عسكريا .

وكان هولاكو لما استولى على بغداد ، وجرى منه ما جرى ، رحل عنها ، واستتاب

١٨ على مدينة بغداد شجعنا من أمرائه ، يقال له قرايغا ، ومعه جماعة من التتار .

فظن الإمام أحمد أنه إذا أمده سلطان مصر بعسكر ، ورجع إلى بغداد ، يعاود

عنها قرايغا ، ويملكها كما كانوا ، ويقوم بها ، فجاء الأمر بخلاف ذلك .

٢١ فلما أقام له السلطان بركا ، جعل له طشت خاناه ، وشربخاناه ، وفرشخاناه ،

وركب خاناه ، ومطبخها ، وجعل له إماما ، ومؤذنا ، وقاضيا ، وجعل له وزيرا ،

وأستادارا ؛ فأما القاضي فالشيخ نجم الدين الدارابي ؛ وأما الوزير فالصاحب كمال الدين

- السخاوى ؛ وأما الأستاذار فالشريف شهاب الدين الدمشقى ؛ وجعل له دوادارا ،
وحاجبا ، فأما الدوادار فالأمير بلبان الرشيدى ؛ وأما الحاجب فالأمير سنقر الرومى .
- ٣ ثم عين معه خمسمائة مملوك ، وعشرة طواشية ، وأفرد له خيم ، وقماش بدن ،
وآلة مطبخ ، وآلة طشت خاناه ، وأعطاه ذهب عين ، مائة ألف دينار ؛ فكان جملة
ما أنفقه الملك الظاهر على تجهيز الخليفة المستنصر بالله ، مائة ألف دينار وستين ألف دينار .
- ٦ ثم إن الإمام أحمد قصد التوجه إلى بغداد ، فنزل من القامة فى موكب (١٦٣ آ)
عظيم ، ومعه السلطان ، وسائر الأمراء ، إلى المطارية ، فودعه ورجعوا ، وتوجه
الإمام أحمد إلى بغداد ، انتهى ذلك .
- ٩ وقيل إن الملك الظاهر كان يقصد التوجه إلى دمشق ، فلما خرج الإمام أحمد
من مصر ، خرج السلطان صحبته ، واستمر معه إلى دمشق ، فأقام بها ، ومضى
الإمام أحمد إلى الثرات ، كما تقدم .
- ١٢ وفى هذه السنة ، أعنى سنة ستين وستمائة ، فيها ، فى عاشر جمادى الأولى ، توفى
شيخ الإسلام سلطان العلماء ، الشيخ عز الدين عبد العزيز أبو محمد بن عبد السلام بن
أبى القاسم بن حسن بن محمد بن مذهب السامى ، رضى الله عنه ؛ ولد سنة سبع أو ثمان
١٥ وسبعين وخمسمائة ، وقدم مصر وأقام بها عشرين سنة ، وهو ناشر للعالم ، أمر بالمعروف ،
ناه عن المنكر ، تهأظ على المملوك والأمراء ، وتفقه على الشيخ نحر الدين بن عساكر ،
وأخذ الأصول عن السيد الشريف الأموى ، وسمع الحديث من الشيخ سراج الدين
١٨ عمر بن طبرزد ، وبرع فى الفقه والأصول والعربية .
- قال الذهبي فى « العبر » : انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع ، وبلغ
رتبة الاجتهاد ، ولما دخل مصر بالغ الشيخ زكى الدين المنذرى فى الأدب معه ، وامتنع
٢١ من الثنيت لأجله ، وقال : « كفا نقتى قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما مع وجوده
فلا نقتى » .

وهو أول من ألقى التفسير بمصر دروساً ، وله من المصنفات : تفسير القرآن ،
ومجاز القرآن ، والفتاوى الموسمية ، ومختصر النهاية ، وشجر المعارف ، والقواعد
الكبرى والصغرى ، وبيان أحوال يوم القيامة .

٣

وكان له كرامات خارقة ، ولبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي ، وكان
يحضر عند الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، ويسمع كلامه في علم الحقيقة ، ويحضر
(١٦٣ ب) السماع ، وربما تواجد ، وكان ينظم الشعر ؛ ومن شعره قوله في إمام :

٦

وبارد النية عنيها يكرر الرعدة والمزّة
مكبر سبوعين في وقفة كأنما صلى على حمزة

قال ابن كثير : كان الشيخ عز الدين في آخر أمره لا يتقيد بالمذهب ، ويفتي بما
أدى إليه اجتهاده .

وقال الشيخ جمال الدين بن الحاجب المالكي : ابن عبد السلام أفقه من الإمام أبي
حامد الغزالي .

١٢

قيل ، فلما بلغ الملك الظاهر بيبرس وفاة الشيخ عز الدين ، قال : « ما استقرّ
مُلْكِي إلا الآن » ، وكان الشيخ عز الدين يزجره عن المظالم ، وينهاه عن ذلك ،
انتهى .

١٥

ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة

فيها ، في ثامن المحرم ، اهتم السلطان بحفر خايج أشوم ، وبأشر ذلك بنفسه ،
وأصرف على حفره مالاً له صورة .

١٨

وفيها جاءت الأخبار بأن الإمام أحمد المستنصر بالله ، لما وصل إلى الفرات ، بلغ
ذلك قرابنا ، أمير التتار ، الذي استنابه هولاكو على بندا ، بأن الإمام أحمد أتى ومعه
عساكر من مصر ، فخرج إليه قرابنا في عسكر كثيف ، فالتقت العساكر المصرية ،
والبندادية ، على مكان يسمى الأنبار ، فحماوا عساكر مصر على عساكر التتار ،
فكسروهم كسرة قوية ؛ فلما دخل الليل هجم التتار على عساكر مصر ، واحتاطوا بهم

٢١

- فلم ینج منهم أحد ، ونهبوا ما معهم من قماش وسلاح وغير ذلك .
- وأما الإمام أحمد ، فلم یعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر ، فمن الناس من یقول
- ٣ إنه نبأ بنفسه ، وهو مجروح ، مع طائفة من العرب ، فأقام عندهم أياما ومات ؛
(١٦٤ آ) ومن الناس من یقول إنه قتل تحت الليل في المعركة ، والله أعلم .
- فأما تحقق الملك الظاهر ذلك ، تأسف على قتل الإمام أحمد ، وتأسف على ما أنفق
- ٦ عاياه من المال ، ولم یفد من ذلك شيئا ، فكان كما قيل في المعنى :
- أنفقت كنز مدائحي في ثنره وجمعت فيه كل معنى شارد
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة فأبى وراح تغزى في البارد
- ٩ وفي هذه السنة ، رتب السلطان لعب القبقق .
- وفيها وقع الغلاء بالديار المصرية ، وشح النيل ، وهدمت الأقوات ، فأمر السلطان
- بجمع الخرافيش كلهم ، فكانوا نحو ألفين وخمسمائة إنسان ، فقرقهم على الأمراء ، وأخذ
- ١٢ لنفسه منهم جانباً ، وأضاف لولده الملك السعيد جانباً ، وأضاف للأمير بيبيك ، نائب
- السلطنة ، جانباً ، ورسم لهم برطل خبز ، ورطل لحم في كل يوم ، ورسم لهم أن
- لا یسألوا بعد ذلك أحداً من الناس .
- ١٥ وفيها توفي الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الحموي ، شيخ الشيوخ
- بحماة ، وكان مولده سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وتوفي سنة إحدى وستين وستمائة ،
- وعاش من العمر نحو خمس وسبعين سنة ؛ وكان من أعيان الشعراء ، وله شعر جيد ،
- ١٨ فمن ذلك قوله :
- هزم الهمم عن ندامي راح حظيت من ساءهم بالاحزون
لم تكدي في السكؤوس تظهر لطفا فبدت من خدودهم في الصحون
- ٢١ (١٦٤ ب) وفيها توفي الشيخ كمال الدين الضرير ، شيخ القراء ، صاحب الشاطبي ،
- رضي الله عنه .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار بوفاة هولاكو ، ملك التتار ، الذي جرى منه

(١) فلم ينج : فلم ينجى .

(٢٣) بوفاة : بوفات .

ما جرى فى خراب بغداد ، وقتل الخليفة المستعصم بالله .

وفىها جاءت الأخبار بوصول شخص من بنى العباس ، يقال له الإمام أحمد أيضا ،
غير الذى قتل ، وكان مستخفيا عند جماعة من العرب فى بعض أعمال بغداد ، فسبقة
الإمام أحمد المتقدم ذكره ، وكان الإمام أحمد الذى قدم أولا ، من أولاد الخليفة الظاهر
بأمر الله ، وهذا من أولاد الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بن المتدى بن محمد
الذخيرة ؛ فلما وصل إلى المطرية ، خرج السلطان والأمراء إلى تنقيته ، فطلع مع السلطان
إلى القامة ، وأنزله بالبرج الكبير الذى بالقامة ، وحضر معه طواشى من بغداد ، وهو
روى الجنس ، وجماعة من العربان .

فأقام أياما ، ثم عقد السلطان مجلسا ثانيا ، وأثبت نسبه كما فعل بالإمام أحمد الأول ،
فجمع القضاة ومشايخ العلم ، وأثبت نسبه بشهادة ذلك الطواشى والعربان الذين
حضروا معه .

فلما ثبت نسبه ، ولوه الخلافة ، ولقبوه بالحاكم بأمر الله ، وكان أسمر اللون
ابن مولدة ؛ فلما تولى الخلافة ، بايع السلطان والقضاة وأرباب الدولة ، كما فعل الإمام
أحمد المستعصر بالله .

ثم رسم له السلطان أن يسكن فى مناظر السكبش ، التى أنشأها أحمد بن طولون ،
وكانت مطلّة على بحر النيل ، ورتب له ما يكفيه فى كل شهر .

ورسم بأن ينقش اسمه مع اسم السلطان على الدنانير والدرهم ، وأن يخطب باسمه
مع اسم السلطان فى كل جمعة ، ويدعاهما على المنابر ، (١٦٥ آ) وأن يقدم اسم الخليفة
على اسم السلطان فى الدعاء ، ورسم السلطان للخليفة أن يطلع إلى القامة عند مستقبل
كل شهر ، ويهتئ السلطان بالشهر .

وقيل : لما أقام الإمام أحمد بمصر ، نزل الملك الظاهر ، وتوجّه إلى القصر الذى
كان بقلة الروضة ، وأرسل خلف الإمام أحمد إلى هناك ، وأضاف ضيافة حافلة ،
ولعبوا قدامه بالشوانى فى البحر ، ذهابا وإيابا ، والعلبول والبوقت والنفوط عمالة ،
وكان يوما مشهودا جدّا .

- والإمام أحمد هذا ، هو أول خلفاء بني العباس بمصر ، وإليه تنسب الخلفاء إلى يومنا هذا ، فهو جدّهم كلهم على الإطلاق ؛ وهذا سبب نقل الخلافة من بغداد إلى مصر ، على يد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، رحمة الله عليه . ٣
- قال الحافظ أبو شامة : لما نُقلتُ الخلافة من بغداد إلى مصر ، فعظم أمر مصر على سائر البلاد ، وتشرف قدر سلطانها على سواه من العباد ، وصارت مصر مسكن العلماء والفضلاء والزهاد ، وعلا فيها قدر السنّة ، وعفّت منها البدعة ، وهذا سرّ في بني العباس ، إذا حلّوا بأرض تشرف بهم على غيرها من البقاع ، ألم ترّ إلى السرّ الذى كان في بغداد ، كيف انتقل إلى مصر وصارت كدار السلام ؟ وهذا من أسرار الله تعالى في الخلافة النبوية ، حيثما كانت يكون فيها ، انتهى ذلك . ٦
- فلما صار الخليفة يطالع ويهتئ السلطان في مستهل كل شهر ، فعن السلطان أن يجعل من كل مذهب قاضيا كبيرا ، ويولّى من تحت يده نوابا ، وكان بمصر لا يحكم بها غير قاض شافعى فقط ، وهو الذى يولّى من تحت يده عن الثلاثة مذاهب ، وآخر من كان يفعل ذلك ، القاضى تاج الدين بن بنت الأعزّ . ١٢
- فكان أول قضاة الحنفية بمصر ؛ القاضى صدر الدين بن سليمان بن أبى العزّ ؛ وأول قضاة المالكية ، القاضى شرف الدين عمر بن السبكى ؛ وكان أول قضاة الحنابلة ، القاضى شمس الدين (١٦٥ ب) محمد بن العماد الجمعتلى ؛ وكان ذلك فى أوائل سنة ثلاث وستين وستمائة ، وفى هذه الواقعة يقول القائل :
- لقد سرّنا أن القضاة ثلاثة وأنك تاج الدين للقوم رابع ١٨
فلا عجب أن وسّع الله فى الهدى مذاهبنا بالعلم فالشرع واسع
تفرقت الآراء والدين واحد وكل إلى رأى من الحق راجع

(٩) حيثما : حيث ما .

(١١) قاضيا كبيرا : قاضى كبير .

(١٢) قانس : قاضى .

فهذا اختلاف صار للناس رحمة كما اختلفت فى الراحتين الأصابع
فكم رخص أبدوا لنا وعزائم هدينا بها ففى النجوم الطوالع
بهم بنية الإسلام صحت وكيف لا تصح وهم أركانها والطبايع
٣ قيل لما فعل الملك الظاهر ذلك ، رأى الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، فى المنام ،
وهو يقول له : « بهدلت مذهبي بمصر ، وفرقت كلمة المسلمين ، والله لأعزلنك أنت
وأولادك إلى يوم القيامة » ؛ فلما تولى ابنه الملك السعيد ، فلم يقم إلا مدة يسيرة ،
٦ وعزل ، وكذلك ابنه سلامش ، عزل وفقى إلى بلاد الفرنج ، وأقام بها إلى أن مات ؛
وقيل متى تولى سلطان على غير مذهب الشافعى ، زالت دولته سريعاً ، وقد جرب
ذلك وصح .

قال ابن التوَجّ : إن القاضى سراج الدين الهندى ، لما ولى قاضى قضاة الحنفية ،
أراد أن يساوى القاضى الشافعى فى مودع الأيتام ، وغير ذلك من أمور الشافعية ،
١٢ فأجابه السلطان إلى ذلك ، فاتفق أنه توَعك عقيب ذلك ، وطال مرضه إلى أن مات ،
ولم يتم له ما أراد من ذلك .

وكذلك الأتابكى يابغا العمري ، تعصّب للحنفية على الشافعية ، فقتل فى سنته ،
وذلك ببركة الإمام الشافعى ، رضى الله عنه .

وقد خصّ الله تعالى الإمام الشافعى ، [رضى الله عنه] ، بمصر ، كما جعل لأبى
حنيفة من العراق إلى ما وراء النهر ، وجعل للمالك بلاد الغرب ، وجعل لأحمد بن حنبل
١٨ بغداد وما شاكاها ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وستمائة

فبها ختن السلطان ولده الملك السعيد محمد ، (١٦٦ آ) ورسم للأمراء والجنود
والرعية ، أن كل من كان له ولد يطلع به إلى القلعة ، يختنه مع ابن السلطان ، فطلع
٢١

(٨) سلطان : سلطانا .

(١٦) ما بين القوسين ينقص فى الأصل .

(٢١) ولد : ولدا .

الناس بأولادهم إلى القاعة ، فبلغ عدتهم ألف وستائة وخمسة وأربعين ولدا ، خارجا
عن أولاد الأمراء ، وأعيان الناس ؛ فرسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام
أبيه ؛ وأما أولاد العوام ، فرسم لكل واحد منهم بكسوة ، وخروف ومائة درهم . ٣
واستعزّ المهرّ عمّالًا بالقاعة ، سبعة أيام ، فركب ابن السلطان من الحوش
إلى دور الحرم ، ولعبت قدّامه الفلمان بالفوائى الذهب ، ومشّت بين يديه الأمراء
المقدّمون قاطبة . ٦

وفيها حضر إلى الأبواب الشريفة غالب ماولك الشرق ، لينظروا وجه السلطان ،
ويهنئوه بالسلطنة ؛ فحضر منهم الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين أولو ، صاحب
الموصل ؛ وأخوه الملك المجاهد سيف الدين إسحق ، صاحب الجزيرة ؛ وأخوه الملك
المظفر ، صاحب ماردين . ٩

فلما حضروا ، أكرمهم السلطان ، وأقرّهم على ما بأيديهم من الممالك التى بالشرق ،
وأثّروا وصحبتهم تقادم حفلة للسلطان ، فأقاموا بمصر مدّة ، ثم توجّهوا إلى بلادهم ،
انتهى ذلك . ١٢

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وستمائة

فيها أراد الملك الظاهر أن يسلك فى مملكته طريقة ملوك التتار ، فى شعائر
الملكمة ، من أرباب الوظائف ، ففعل ما أمكنه من ذلك ، وربّ أشياء كثيرة لم تكن
قبل ذلك بمصر . ١٥

منها : أنّه أحدث إمريّة السلاح ، ولم تكن تعرف قبل ذلك بمصر ، وموضوع
أمير سلاح ، أنّه يتحدّث على السلاح ، ويناول السلطان آلة السلاح فى الحرب ،
ويوم عيد الأضحى . ١٨

وأحدث أمير مجلس ، وموضوع أمير مجلس ، أنّه يجرس مجلس قعود (١٦٦ ب)
السلطان ، وفرشه ، ويتحدّث على الأطباء والكخّالين ونحو ذلك ، وكانت وظيفة
جارية ، أكبر قدرا من أمير سلاح . ٢١

(٦) المقدمون : المقدمين .

(٧-٨) لينظروا . . . ويهنئوه : لينظرون . . . ويهنئونه .

وأحدث رأس نوبة النوب ، وهى وظيفة عظيمة ، أكبر من أمير سلاح ، وأمير مجلس ، وكان يسمى رأس نوبة الأمراء ، وكان يجلس عن ميسرة السلطان ، فوق أمير مجلس .

٣

وأحدث أمير آخور ، وموضوع أمير آخور ، النظر فى الاصطبل الساطانى ، ومعالف الخيول ، وآخور بالعجمى هو مذود الفرس الذى يأكل فيه .

وأحدث وظيفة أمير جاندار ، وكان موضوع هذه الوظيفة ، إذا أراد السلطان أن يقتل أحدا من الأمراء ، فيقول ذلك أمير جاندار .

وأحدث وظيفة نقابة الجيوش ، وموضوع هذه الوظيفة ، إذا أراد السلطان بالقبض على أحد من الأمراء ، يترسم عليه ، ويدور على الأمراء والجند ، فى عرضهم للمهمات الشريفة .

وأحدث وظيفة أمير علم ، وموضوع هذه الوظيفة ، أن يحكم أمير علم على الطبال والنرمار ، قيل : والملك الظاهر هو أول من أحدث البوقات والطبول .

١٢

وأما وظيفة الولاية ، فهى وظيفة قديمة ، وهو صاحب الشرطة ، ويطوف فى الليل ، ويقبض على أصحاب الجرائم ، ولكن عظم أمر هذه الوظيفة فى أيام الظاهر بيبرس ، حتى صار الوالى يقتل من يستحق القتل ، من غير مشورة السلطان . وكذلك الحسبة ، عظم أمرها فى أيامه أيضا .

١٥

قال الإمام أبو شامة : إن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، هو أول من توجه إلى فتح السد فى يوم وفاء النيل ، ولم يفعل ذلك أحد قبله من ملوك الترك ؛ ثم تبعه من بعد ذلك الظاهر برقوق ، ثم ابنه الناصر فرج ، ثم المؤيد شيخ ، ثم الأشرف برسباى ، ثم الظاهر خشقدم ، وبطل ذلك بعده .

١٨

ومن الحوادث فى هذه السنة ، كثر الحريق بالقاهرة ، وأشيع بين الناس أن هذا من فعل بعض النصارى ، (١٦٧ آ) فرسم السلطان يجمع سائر النصارى ، من مصر والقاهرة ، فلما جمعوا أمر بحرقهم ، فجمعت لهم الأحطاب والحلأ .

٢١

فعند ذلك طاع الأتابكى فارس أقطاى المستعرب ، إلى القاهرة ، واجتمع بالسلطان ،

٢٤

وشفع في النصارى ، فرسم السلطان بأن يوردوا إلى الخزائن الشريفة ، خمسين ألف دينار ، وأن يصلحوا ما قد فسد من الدور التي احترقت ، فتخلعوا من الحرق على ذلك الشرط الذي قرر عليهم ، انتهى ذلك . ٣

ثم دخلت سنة أربع وستين وستمائة

وفي سنة أربع وستين وستمائة ، نشف البحر قاطبة ما بين الروضة وبرّ الجزيرة ، حتى نزل السلطان بنفسه ، والعسكر ، حتى حفروه ، وجرى فيه بعض ماء . ٦

وفيهما خرج السلطان إلى نحو البلاد الشامية ، ووصل إلى صند ، وحاصر أهلها ، حتى افتتحها ، وعمر بها عدة أبراج ، ثم رجع إلى الديار المصرية ، فأقام بها مدة يسيرة . ثم عين تجريدة إلى نحو سيس ، وكان باش العسكر ، الأمير عز الدين بيدغان المعروف بسم الموت ، والأمير قلاون الألفي ، وجماعة من الأمراء والمماليك ، فخرجوا من القاهرة في موكب عظيم . ٩

فلما وصلوا إلى مدينة سيس ، حاصروا أهلها ، فلما رأوا عين الغلب ، سلموا المدينة بالأمان ؛ ثم توجهوا إلى قلعة إياس ، ففتحوها أيضا بالأمان ؛ وفتحوا في هذه السنة عدة قلاع كانوا بيد الأرمن ، ثم رجعوا إلى مصر ، وهم في غاية النصر . ١٢

وقد هنى الأمير بيدغان بعض الشعراء بهذين البيتين :

بقيت مدى الدنيا جمالا لدولة لها منك (١٦٧ب) سهم في اللقاء رسيس
تسوق لها عز الفتوح جنائبا وأول هاتيك الجنائب رسيس

ثم دخلت سنة خمس وستين وستمائة ١٨

فيها ، في سابع عشر رجب ، توفي قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الشافعي ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر ، جمع بين القضاء والوزارة ، وتولى من الوظائف السنوية أربع عشرة وظيفة ، وكان من القضاة العدول . ٢١

(٦-د) وفي سنة . . . بعض ماء : كتبت في الأصل على هامش م (١٦٧ آ) .

(١٥) هني : كذا في الأصل .

(١٩) سابع عشر : كتبت في الأصل على الهامش .

فلما مات أخلع السلطان على القاضي يحيى الدين عبد الله بن عز الدولة، واستقر به
قاضي القضاة الشافعية، عوضا عن ابن بنت الأعز.

وفي هذه السنة، في النصف من شعبان، أمر السلطان بإبطال ضمان الحشيش،
وإحراقها؛ وأخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمر، وأراقها؛ ومنع
الخانات من الخواطيء؛ واستتب العلق والواطي؛ وعم هذا الأمر سائر جهات
الديار المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات بالبلاد الشامية؛
فظهرت في أيامه سائر البقاع وامتنع الناس من ذلك غاية الامتناع.
ثم في أثناء ذلك ظفر والى الشرطة بشخص يسمى ابن الكازروني، وهو سكران،
فأشهره في القاهرة، وعلق الجرة والقدر في عنقه، ثم صلبوه على باب النصر.
فلما عاينوا أرباب الخلاعة ما جرى على ابن (١٦٨ آ) الكازروني، أذعنوا
بالسمع والطاعة؛ وفي ذلك يقول ابن دانيال:

لقد كان حدّ السكر من قبل صلبه خفيف الأذى،
إذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا الصلب قلت لصاحبي ألا تب فإن
الحد قد جاوز الحد

ثم إن الشيخ شمس الدين بن دانيال عمل في هذه الواقعة مقامة لطيفة، فقال:
لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية، سقى الله من سحب الإنعام
عندها، وأعذب مشارب وردها، فوجدت تلك الرسوم دارسة، ومواطن الأنس بها
غير آنسة، وأرباب المجون والخلاعة عابسة، وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان،
وتولى الحراني والى القاهرة، إهراق الخمر، وحرق الحشيش، وتبديد الزور،
واستتب العلق والواطي، وحجّر على البغايات والخواطي، وتأذى الخلاع غاية
الأذى، وصب ابن الكازروني وفي عنقه نبازية، ثم شاعت الأخبار، ووقع الإنكار،

(٩) ثم صلبوه على باب النصر: كُتبت في الأصل في الهامش.

(٢١) البغايا: كذا في الأصل.

وانعكف المسطول فى الدار ، وأقيمت الحدود ، وعطلت البدود ، فعند ذلك دعانى
بعض أصدقائى إلى محله ، وأنزلنى بين عياله وأهله ، واعتذر إلى تقصره فى إكرامى ،
وانحصاره إذ لم يأتنى بمرامى ، وقال : قد غلب على ظنى أن أبا مرة قد مات ، وعُدَّ
من الرفات ، فقم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ، ونرثيه ، (١٦٨ ب) فابتدأت ، وقلتُ
فى المعنى :

- | | | |
|----|--------------------------------|--------------------------------|
| ٦ | مات يا قوم شيخنا إبليس | وخلا منه ربه المانوس |
| | ونعمانى حدسى به إذ توفى | ولعمرى مماته محدوس |
| | هو لو لم يكن كما قلت ميتاً | لم يغير لأمره ناموس |
| ٩ | أين عيناه تنظر الحجرة إذ | عطل منها الراوق والمحريس |
| | ومواعينها تكسر والخمار | من بعد كسرهما محبوس |
| | وذوو القصف ذاهلون وقد | كادت على سيلها تسيل النفوس |
| ١٢ | كم خميع يقول ذا اليوم يوم | مثل ما قيل قطيراً عبوس |
| | وفى قائلاً لقد هان عندى | بعد هذا فى شرِّها التجريس |
| | أين عيناه تنظر المزر وقد | أوحش منه الماجور والقادوس |
| ١٥ | وعجين البقول قد بددوه | وهو بالترب خاطه مبسوس |
| | والقناني مكسرات كما قد | كسرت فى دجى الليالى الكؤوس |
| | أين عيناه والحشائش تحرقن | بنار ترع منها المجوس |
| ١٨ | قاموها من البساتين إذ ذاك | منارا خضراء وهى عروس |
| | والحرافيش حولها يتباكون | وهذا يطاق لهذا الوطيس |
| | ذا ينادى رفيقه يا عنىكر | بل وهذا يصيح يا بغنوس |
| ٢١ | أسر الكرك بين الأكواس يسعى | وهو كركى بكل حسّ يموس |
| | أين عيناه تنظر المقاصف والحانة | قد هدمت (١٦٩ آ) دراها النفوس |
| | وترى زنكلون يزعى زيتون | ونانوا يصيح يا جاموس |
| ٢٤ | أين شكشاكتى وطاجنة الفار | وأين المزارق والدبوس |

نهبوا الحسن والطراير والطار وضاعت خريطتي والفلوس
 ارحلوا هذه بلاد عفاف وسعود الخلاع فيها نحوس
 وقضيب وزجس وسعاد باكيات وزينب وعروس ۳
 وذی تنادی حریفها لوداع لَا عِناق لَا ضَمَّ لَا تبویس
 وینادی قَـوَادهم شه علينا نجم سَتی قد عكسته العكوس
 عكس الله نجم سَتی ففی سابع ضرب تحت رملها إنكيس ۶
 أين تمشی حزنا یجور زمان لا قحاب فيه ولا خندريس
 من لنا بعد ذلك الشيخ إلف وسمیر ومؤنس وأنیس
 لم تر بعده فتی ضاحك الـ ن وكل یبدو له تعیس ۹
 فسأبکیه أرمد العين حتی لشقائی یعیش جالینوس

قال إبراهيم المعمار ، لما وقفتُ على قصيدة الشيخ شمس الدين بن دانيال ، فقلتُ

لو أني أدركت ذلك الزمان ، لرثيتُ الخلاعة والمجون ، بهذا الزجل المصون ، وهو
 قولي في المعنى :

منعوننا ماء العنب يا أسين رب سلم لا يمنعونا التين
 (١٦٩ب) هالك قل لي إذا مُنِعنا الراح وحرُمننا من الوجوه الصباح ١٥
 يش نَبَقًا نستجيب الأفراح والخليع كيف نراه يعيش ، مسكين
 على موت العنب بكاء الراووق والشمع صار بِمِثْرَتُو غُنُوق
 والوترات من النروب للشروق من أيننو تسمع لو في الليل حنين ١٨
 ولقد هان حضرة المحضر وتلَوْن ذا الزهر واتغير
 وبنيطلو ريمحنا انتقر وعلى وجهو صاب اليسين
 والندامى جميعهم في شتات حزنو كَنّ مات لهم أموات ٢١
 هذا قاعد يبكي على ما فات وذا يندب ، وذاك الآخر حزين

(٩) لم تر : لم ترى .

(١٨) أيننو : أيننوا ، وهو بمعنى « أيننه » .

- ولی صاحب زمان معو کان نطیب
لجریره لو إنها من زبیب
فَقَصَدْنَا النِّیَّةَ إِلَى شَبْرَا ۳
- وفی قلیوب قالوا ولا قَطْرًا
ومعدنا قبلی ذا البلدان
ما أمرَ الطاریق إلى حِلْوَان ۶
- قد تعبنا مما نَجِدَ السیر
جینا عند المِسا لواحد دیر
وتقول لو یا بونا قد جیناک ۹
- ویمیتک ربّی علی دیناک
لانا نضحک علیه ونهزّر
(۱۷۰ آ) ووهبناه من بیننا مئزر ۱۲
- فدخل غاب زمان ونحن وقوف
وأنا ندعو ذاك الدعا الموصوف
بعد ساعة إلاً وهواً قد ردّ ۱۵
- ونصیب من وراه شویح برعد
کم ندور فما لقت عندی
مَتَ نَمَدَدَ مِنَ الفرح یدی ۱۸
- خدت نكب منها قنينة
سودا دریدی ملاّنه للطنينة
فرجعنا إیش رجعة المكسور ۲۱
- فی المقیلات وتَقْتَنِعُ بالمزور
حين قطعنا الأیاش من الخمار
قال لی نشرب ما العجین قُتِلْتُ فشار ۲۴
- جائی قال لی مشتاق أنا یا أدیب
أرى قلبی يرتاح لها ذا الحین
ما لقینا ، رحنا طنان الأخرّا
دُرْنَا من مرسفا إلى شبین
ونبشنا طموه لدير شعران
أخرب الله طُرّا علی التَّبَّین
ولا صبنّا فی ذا السفر من خیر
صرنا نزعق للشیخ أبو مرتین
عسی جرّة بحیاة رهاییناک
وأنا نذری بأنّو أحسن الدین
حتى لا ینکح وینخنزر
ووقفنا نَحْطِطُوا باللین
وانتو تَدْرُو إیش وقفو الملهوف
إنّو یفتح وأخی یقول آمین
جا یقول بالله رآکم حدّ
ومعو جرّة وهو یصیح یا السین
إلاً هدی وأظنها یردی
ونصیح لو من الظما أروین
صبتّها مثل زِفْت مکینة
قلت : معمار دی نَحْسَه للطین
قلت : کیف العمل فقال لی : ندور
ولا ترجع من ذا السفر خایبین
جینا نِسْمی لو أَشَنَ الأمزار
فما ذا الککم أصل من ذا العجین

ونا مالى غية سوى ابن الكروم والشراب المعتق المعلوم
 تَبْعُوْهُ لَوْ يَصِيرُ بِأَقْصَى الرُّومِ وَلَوْ أَنَّى نَدْخُلُ لِقِسْطَانِطِينِ
 وَلَا نَهْوَى إِلَّا الشَّرَابَ الْقَدِيمَ وَمُمَيْشِقٌ جَدِيدٌ يَكُونُ لِي نَدِيمٌ ٣
 (١٧٠ب) نَفَقَ الْمَالُ عَلَى إِيشَ نَسَمَى عَدِيمٌ وَنَا مِمَّا مُمْكِنٌ فِي غَايَةِ التَّمَكُّنِ
 وَمَرَادِي مِنَ الصَّنَارِ أَطْفَالُ هُمْ يَقُولُوا غَزْلَانُ وَلَا جِمَالُ
 وَلَقَدْ رَأَيْتُ فِي ذَا الصَّنَارِ احْتِمَالُ ابْنِ سَبْعَةٍ يَحْمِلُ وَلَدَ سَبْعِينَ ٦
 إِلَّا أَنَّى قَدْ أَثْقَلْتَنِي الذُّنُوبُ مَا بَقِيَتْ يَحْمِلُ لَكُنَّ الْعُيُوبُ
 وَمَا عَادَ لِي أَوْفَقُ سِوَى إِنِّي أَتُوبُ يَا إِلَهِي اكْتُبْنِي مَعَ التَّائِبِينَ
 وَأَرْخُوا بِاللَّهِ تَوْبَةَ الْعَمَارِ وَاكْتُبُوهَا بِالتَّبَرُّ طُولَ أَعْمَارِ ٩
 قُولُوا مِنْ هَجْرَةِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ سَبْعُمِائَةِ سَنَةٍ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ
 انْتَهَى ذَلِكَ .

ثم دخلت سنة ست وستين وستمائة ١٢
 فيها توفى الحافظ العلامة الإمام المحدث زين الدين أبو الفتح محمد بن محمد
 الأبيوردي ، مات في جمادى الأولى من تلك السنة .
 وتوفى الشيخ أبو الحسن بن عدلان . - وتوفى الشيخ ناصر الدين الطوسي ، ١٥
 والورقي .

وفيهما توجه السلطان إلى نحو البلاد الشامية ، وحاصر مدينة يافا والشقيف ،
 ففتحهما ؛ ثم توجه إلى أنطاكية ، ففتحها في يوم الجمعة ثالث رمضان ؛ ثم توجه إلى ١٨
 بفراس ، ففتحها ؛ ثم رجع إلى الديار المصرية ، فزيت له القاهرة ، وكان يوم دخوله
 يوما مشهودا .

ثم دخلت سنة سبع وستين [وستمائة] ٢١

فيها حج السلطان إلى بيت الله الحرام ، فخرج من القاهرة في ثالث شوال ،

- وتوجه إلى غزة ، وأخذ الإقامة التي عبأهم له نائب غزة ؛ ثم توجه من غزة إلى الكرك ، وتوجه من الكرك إلى المدينة الشريفة ، فزار النبي ، صلى الله عليه وسلم ؛ ثم توجه إلى مكة ، فدخلها خامس ذى الحجة ، ثم وقف بالجبل ، وكان تلك السنة الوقفة الجمعة ؛ وكان ولد السلطان الملك السعيد ، (١٧١ آ) أمير المحمل .
- فلما انتضى الحاج ، توجه السلطان من هناك إلى الشام ، ورجع ابنه الملك السعيد ، محبة المحمل ، مع الركب المصرى .

ثم دخلت سنة ثمان وستين [وستمائة]

- فيها رجع السلطان إلى القاهرة ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، فأقام بالقاعة إلى شعبان ، ثم توجه لزيارة بيت المقدس ، والخليل ، عليه السلام ، فزار القدس ، والخليل ، ثم رجع إلى القاهرة .

- وفيها توفى الشيخ مجد الدين ، والد الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد .
- وفي هذه السنة عمر السلطان جامع ، الذى بالقرب من الحسينية ، عند زقاق الكحل ، وكان انتهاء العمل منه فى سنة ثمان وستين وستمائة ، وأصرف عايه ما لا يحصى من المال ، من وجه حل ، من غنيمة الفرنج ، من الفتوحات .

ثم دخلت سنة تسع وستين [وستمائة]

- فيها أرسل صاحب طراباس مقدمة حفلة للسلطان ، ودخل تحت الطاعة ، فأرسل له السلطان خامة ، وأقره على ما بيده من البلاد .
- وفي سنة تسع وستين وستمائة ، توفى صاحب يعقوب بن عبد الرافع بن زيد ابن مالك الأسدى الزبيرى ، وكان مولده سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وكان وزر لسلطانين .

- وفيها رتب السلطان خيل البريد ، بسبب سرعة أخبار البلاد الشامية ، فكانت

(١) عبأهم : كذا فى الأصل .

(٥) انتضى : انقضا .

(١٥ و ٧) [وستمائة] : تنقش فى الأصل .

الأخبار ترد عليه فى الجمعة مرتين ، وقيل إنه أحسرف على ذلك جملة مال ، حتى تم له ترتيب ذلك .

وكانت خيل البريد عبارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق ، وفيها عدة خيول ٣ جيدة ، وعندها رجال يعرفون بالسواقين ، ولا يقدر أحد يركب من خيل البريد ، إلا بمرسوم سلطانى ؛ وكان عند كل مركز ما يحتاج إليه المسافر من زاد ، وعلف ، وغير ذلك ، وهذا كله كان لأجل سرعة مجىء أخبار البلاد الشامية . ٦

وقيل ، كان الملك الظاهر يعمل موكبا بمصر ، وموكبا بالشام ، فرتب خيل البريد بسبب ذلك ، وقد قال القائل فى المعنى :

يوما بمصر ، ويوما بالشام ، ويوما بالفرات ، ويوما فى قرى حاب ٩
(١٧١ ب) واستمر هذا الأمر باقيا بعد انلك الظاهر مدة طويلة ، ثم تلاشى أمره قليلا ، قليلا ، حتى بطل فى دولة الناصر فرج بن برقوق ، عندما قدم تمرلنك إلى الشام ، وأخرب البلاد الشامية ، وذلك سنة ثلاث وثمانائة ، فعند ذلك بطل أمر خيل ١٢ البريد ، مع جملة ما بطل من شعائر المملكة القديمة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة سبعين وستمائة

فيها جاءت الأخبار بأن أبنا بن هولأكو ، ملك التتار ، قد تحرك على البلاد ، ١٥ وبأن التتار قد تحركوا على البلاد السلطانية ، ووصلوا إلى الفرات ، وملكوا البيرة ، فخرج إليهم السلطان ، ومعه سائر الأمراء ، وكان جاليش العسكر الأمير قلاون الألفى ، والأمير يسرى ؛ فتلاقى العسكر المصرى ، مع عسكر التتار ، على الفرات ، ١٨ فكان بينهما واقعة عظيمة ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم .

فلما دخل السلطان إلى البيرة ، أخلع على نائبها ، وأقره على حاله ، وفرق على من ٢١ بها من العساكر ، لكل مقاتل مائة دينار ، لأنهم قاتلوا مع التتار قتال الموت ، حتى كسروهم .

فأقام السلطان فى البيرة أياما ، ثم رحل إلى حاب ؛ ثم توجه إلى الشام ؛ ثم دخل

القاهرة ، فكان له يوم مشهود ، وءمات على رأسه القبة والطفر ، وزفنت له القاهرة ، انتهى ذلك .

٣ أعجوبة : نقل الءافظ أبو شامة ، أن فى سنة سبعة وسائة ، وُلدت زرافة ، بالاصطبل الساطانى ، عجيبة الءلفة ، فأرضعت على بقرة ، وهذا لم ففهد قط بمصر ، فعء من العجائب .

٦ ثم ءءلت سنة إءءى وسبعة [وسائة]

ففها وقع الطاعون بالءفار المصرفة ، ومات من الناس ما لا فءصى ، من نساء ، ورجال ، وأطفال ، وعففء ، وجوار ، وأقام فحو ستة أشهر .

٩ وففها ءوفى الشفء عبد الءءاءى بن عبد الكرفم القفسى ، إمام جامع المفساس ، شفء القراء .

١٢ وففها كان الففل شفففا ، وأبطأ عن (١٧٢ آ) مفجال الوفا . إلى ساءس أيام الفسى ، وبلغ منءهى الزفاءة فى تلك السنة ، ستة عشر ذراعاً وسبعة عشر أصبعا ، ثم انهبط فوق الفلاء ، وءصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك .

ثم ءءلت سنة اءنءفن وسبعة [وسائة]

١٥ ففها ءوفى الإمام أبو عبء الله مءء بن سافان الشاطففى المافرفى ، صاءب نظم الشاطففة ، رضى الله عنه ، وعاش من العفر فحو ثمانفن سنة ، وءفن بالقرافة الصفرى ، بفوار ءربة الفائل ؛ قفل مات الشاطففى وهو كففف ، وله كرامات ءارفة .

١٨ وففها ، فى شوال ، ءوفى الأءفب البارع العلامة جمال الءفن فففى بن عبء العظفم ابن فففى بن مءء الصفرى أبو الءفسن المعروف بالءزار ، وكان من فءول الشعراء ، مولءه سنة إءءى وسائة ، وعاش من العفر فحو إءءى وسبعة سنة .

٢١ قل الشفء أءفر الءفن أبو ففان : رأفء أبا الءفسن بمجالس الشفء قطب الءفن ابن القسطلانى ، فقال لى الشفء قطب الءفن : « هذا الأءفب أبو الءفسن الءزار » ، فأنشدنى من لفظه لنفسه قوله :

مَنْ منصفى من معشر كثروا على وأكثروا
صادقهم وأرى الخرو ج من الصداقة يعسر
كانخط يسهل فى الطرو س وعوه يتعذر
وإذا أردت كسبته لكن ذاك يؤثر
ومن تغزلاته :

أمولأى ما من طباعى الخروج ولكن تعلمته من خمولى
أتيت لبابك أرجو الفنا فأخرجنى الضرب عند الدخول
ومن مجونه :

سقى الله أكفاف الكنافة بالقطر وجاد عليها سكر دائم الذر
وتباً لأوقات المختل إنها تمر بلا نفع ونحسب من عمرى
أهم غراما كلما ذكر الحمى وليس الحمى إلا القطايف بالقطر
وأشتاق إن هبته نسيم قطايف الـ
١٢ (١٧٢ب) ولـى زوجة إن تشبهى قاهرية أقول لها ما القاهرية فى مصر
ولما مات رثاء السراج الوراق بهذين البيتين ، وهما :

ياعيدنا الأضحى سقى دوب الغمام أبا الحسين
لو عاش فيك لقد غدا يشكو بوار الصنعتين
انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين [وستائة] ١٨

فيها توفى الإمام الحافظ وجيه الدين أبو المظفر منصور بن العمادية ، توفى فى شوال من تلك السنة .

وفى سنة ثلاث وسبعين وستائة ، كانت وفاة الشيخ جمال الدين يوسف بن أحمد محمود بن أحمد الحافظ اليممورى الدمشقى ، وكان له شعر جيد إلى الغاية .

(١٦) يشكو : يشكوا .

(١٨) [وستائة] : تنقسم فى الأصل .

وفيهما كان دخول الملك السعيد ، ابن السلطان ، على بنت الأمير قلاون الألفى ،
وكان المهيم بالقاعة ، فأقام سبعة أيام ؛ وكان السلطان يظن أنه إذا أزوج ابنه ببنت
الأمير قلاون ، يكون له من بعده عوناً على تقلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين [وستائة]

ففيها أرسل السلطان تجريدة إلى نحو بلاد النوبة ، وسبب ذلك ، أن ملك النوبة
دخل إلى أسوان ، ونهب ما فيها وأحرقها ؛ فلما بلغ السلطان ذلك ، أرسل الأمير شمس
الدين سنقر الفارقانى ، الأستاذار ، والأمير عز الدين أيك الأفرم ، أمير جندار ،
وجماعة من الأمراء العشراوات ، وأرسل معهم خمسمائة مملوك .

فلما وصلوا إلى النوبة ، تقابلوا مع ملكها ، على أسوان ، فانكسر ملك النوبة
أشد كسرة ، وهرب ، وقتل من عسكره ما لا يحصى ، وأسر أخوه وأولاده وأقاربه ،
وغنموا منهم عسكر السلطان ، غنائم كثيرة ، من عبيد وجوار وخيول وغير (١٧٣ آ)
ذلك ؛ ثم رجعوا إلى مصر وهم في غاية النصر ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وستائة

ففيها ، في ثمانى عشر ربيع الأول ، توفى سيدى أحمد البدوى ، رضى الله عنه ،
[وهو] أبو العباس أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر القرشى أبو الفتيان ،
ولد سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وأمه تسمى فاطمة بنت محمد بن أحمد ، وتوفى أبوه
بسكة سنة سبع وعشرين وخمسمائة .

وإنما عرف بالبدوى للازمته اللثام ، وكان له لثامان لا يفارقهما ؛ وعرض عليه
التزويج فامتنع من ذلك ، وأقبل على العبادة ؛ وكان يحفظ القرآن ، وشيئا من الفقه
على مذهب الشافعى ، رضى الله عنه ؛ وكان يعطى من يؤذيه من الأوباش ؛ ثم إنه
لازم الصمت ، حتى أنه صار لا يتكلم إلا بالإشارة ، واعتزل عن الناس قاطبة .

(٤) [وستائة] : تنقس في الأصل .

(٨) مملوك : مملوكا .

(١٥) [وهو] : تنقس في الأصل .

- فلما كان المحرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، رأى فى النوم من بشره أن سيكون له حالة حسنة بمصر ؛ وكان له أخ يسمّى حسن ، سافر إلى العراق ؛ فلما دخل سيدى أحمد إلى مصر لازم العيام ، فكان يطوى أربعين يوما ، لا يتناول طعاما ولا شرابا ٣ ولا ينام ، وهو رافع بصره إلى السماء ، وعيناه كالجمرتين .
- ثم توجه إلى طندتا سنة أربع وثلاثين وستمائة ، فأقام بها على سطح دار يصيح ليلا ونهارا ؛ وكان طويل القامة ، كبير الوجه ، ولونه بين البياض والسمر ، واستمر ٦ على ذلك مدة طويلة .
- وظهر له كرامات خارقة ، منها أن امرأة شكت له ، أن ولدها أسر ببلاد الفرنج ، فأحضره إليها فى قيوده ؛ فاشتهرت كراماته فى الآفاق ، ونمت بركته على الإطلاق ، ٩ إلى أن مات فى تلك السنة كما تقدم ، انتهى ذلك .
- وفى هذه السنة ، طيف بالمحمل الشريف ، وكسوة الكعبة ، بالقاهرة ، فى رجب ، وكان يوما مشهودا ؛ وهو أول من فعل ذلك من الملوك بمصر ؛ وأذن للناس فى الحج ١٢ رجبى ، فسمّى الحجّ الرجبى من يومئذ ، واستمرّ ذلك فى كل سنة ، تارة يبطل ، وتارة يعمل (١٧٣ ب) .
- وفى هذه السنة ، أعنى سنة خمس وسبعين وستمائة ، فيها توفى الشيخ رضى الدين ، ١٥ من أئمة النحو ، وهو صاحب كتاب « لسان العرب » .
- وفى هذه السنة ، أعنى سنة خمس وسبعين وستمائة ، فيها جاءت الأخبار ، بأن التتار قد زحفوا على البلاد ، ووصل أوائلهم إلى حلب ، وكان ملك التتار شخصا ، ١٨ يقال [له] أبنا ، وقد جمع من العساكر نحو ستمائة ألف .
- فلما سمع السلطان بذلك ، خرج من مصر على جرائد الخيل ، هو والعسكر ؛ فلما دخل الشام ، أقام بها ، وعقد مجلسا بأن التتار قد ملكوا البلاد ، وأن الخزائن نفذ ما فيها ٢١

(٢) أخ : أبا .

(٥) طندتا : يعنى طنطا .

(١٩) [له] : تنفس فى الأصل .

من المال، وأنَّ القصد أنْ يأخذ من أموال الرعية ، ما يستعان به على دفع التتار ؛ فأفتوه علماء الشام بأنه يجوز له أخذ أموال الرعية ، فأخذ خطوطهم بذلك .

٣ ثم قال : « هل بقى من أعيان العلماء أحد » ؟ قالوا : « نعم ، بقى الشيخ محيى الدين النواوى ، رأس علماء الشافعية » .

فأحضره ، وقال له : « اكتب خطك بذلك مع الفقهاء » ، فامتنع من ذلك ، فقال له : « ما سبب امتناعك » ؟ قال : « أنا أعلم أنك كنت فى الرقِّ للأمرير أيديكن البندقدارى ، وليس لك مال ، ثم إنَّ الله تعالى منَّ عليك وجعلك ملكا ؛ وبلغنى أنْ عندك سبعة آلاف مملوك ، ولكل مملوك حياصة ذهب ؛ وعندك مائتا جارية ، لكل جارية حلّى فاخرة ، ما بين ذهب ولؤلؤ وفصوص ثمينة ، فإذا بُمتَّ ذلك جميعه ، وبقيت ممالكك بالبندود الصوف ، بدلا عن الخوايص الذهب ، وباعت جواريك الحلّى التى عندها ، أفيتتكَ بأخذ أموال الرعية » .

١٢ فلما سمع (١٧٤ آ) ذلك الملك الظاهر ، غضب منه ، ورسم بأنْ يخرج من الشام ، ولا يقيم بها ، فقال الشيخ محيى الدين : « السمع والطاعة » ؛ وخرج من الشام ، وتوجّه إلى بلده نوى .

١٥ فوقف العلماء والفقهاء إلى السلطان، وقالوا : « إنَّ هذا من كبار علمائنا وصالحائنا، ومن يقتدى به » ؛ فرسم السلطان برجوعه إلى دمشق ، فامتنع الشيخ من العود إلى دمشق ، وقال : « لا أدخاها والظاهر فى قيد الحياة » ؛ فلم يقم الظاهر بعد ذلك إلا مدة يسيرة ومات ، كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

١٨ قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « كان الملك الظاهر نعم الملك ، لولا ما كان فيه من الظلم ، وأخذ أموال الرعية بغير حق ، انتهى ذلك .

٢١ فلما خرج السلطان من دمشق ، توجّه إلى حلب ، وتقاتل مع التتار فكسرهم ، وقتل منهم نحو النك ؛ وهرب أبنا ، ملك التتار ، فتبعه السلطان إلى الأبلستين ،

(١٧) فلم يقم : فلم يقيم .

فكان بينهما هناك واقعة أعظم من الأولى ، ففهرّب أبنا ، فتبعه السلطان إلى دربند .
ثم رجع من هناك إلى قيسارية ، وحاصر أهلها ، فأرسلوا يطلبوا منه الأمان ،
فأرسل لهم أماناً على يد الأمير بيسرى ، فسلموا المدينة ، فدخلها السلطان في موكب
عظيم ، وكان يوماً مشهوداً ؛ فنزل السلطان بدار الماسكة ، وصلى بها ركعتين ، وحكم
بين الناس ، وأقام بها أياماً ، ثم قصد التوجه إلى دمشق ، كل ذلك في أواخر سنة
خمس وسبعين وستمائة .

ثم دخلت سنة ست وسبعين [وستمائة]

فيها دخل السلطان إلى حاب ، فتوَعَّك جسده ، وأخذته الحمى ، فأسقوه الحكماء
دواء مسهلاً ، فأفرط في الإسهال ، وثقل في المرض ، فرحل من حاب في (١٧٤ ب)
محفة على أنه يدخل الشام ، فمات في بعض الفتياع ، قبل أن يدخل الشام بليلة ، فكان
ما قاله الشيخ محيي الدين النواوى كشفاً منه .
ولما توفى الظاهر بيبرس ، دخل الشيخ محيي الدين النواوى إلى دمشق ، فأقام بها
سنة أشهر ، ومات ليلة الأربعاء رابع عشرين رجب ، من سنة ست وتسعين وستمائة ؛
فكان بينه وبين وفاة الملك الظاهر بيبرس ستة أشهر لا غير ، ومات بنوى ، ودفن
بها ، رحمة الله عليه ، انتهى ذلك .
فلما مات السلطان ، كتم موته عن العسكر ، واستمر في المحفة إلى أن دخل
دمشق ، فدفن بها ليلاً ، ولم يشعر بموته أحد من الناس ؛ وكانت وفاته في يوم الخميس
ثامن عشرين المحرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وعاش من العمر نحو اثنتين وستين
سنة .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، سبع عشرة سنة وثمانين

ونصف .

(٢) يطلبوا : كذا في الأصل .

(٧) [وستمائة] : تنقص في الأصل .

(٩) دواء مسهلاً : دوى مسهل .

(١٤) وفاة : وفات .

وخلف من الأولاد عشرة ، ثلاثة ذكور ، وهم : الملك السعيد محمد ، الذي تسلطن بعده ، والملك العادل سلامش ، وسيدى خضر ، لكنه لم يتسلطن ؛ وخلف من البنات سبع . ٣

ولما مات الملك الظاهر ، رثاه القاضي محي الدين بن عبد الظاهر بهذه الأبيات :

ما مثل هذا الرزء قلب يحمل كلا ولا صبر جميل يجمّل
الله أكبر إنها لمصيبة منها الرواسي خيفة تتفاقل
لحقى على الملك الذى كانت به الد نيا تطيب فكل قعر منزل
الظاهر السلطان من كانت له من على كل الورى وتطول
لحقى على آرائه تلك التى مثل السهام إلى المصالح ترسل
لحقى على تلك العزائم كيف قد غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل
(١٧٥٠) ما لارماح تحولتها رعدة لكنها إذ ليس تعقل تمقل
سهم أصاب وما رأتى من قبله سهم له فى كل قلب مقتل
أنا إن بكيت فإن عذرى واضح ولئن صبرت فإننى أتمل
خاف الشهيد لنا السعيد فأدمع منهلة فى أوجه تنهل

وأما فتوحاته التى افتتحها فى أيامه ، وهى : قيسارية ، وأرسوف ، وصفد ، وطبرية ، ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وبفراس ، والقصير ، وحصن الأكراد ، والقرين ، وحصن عكا ، وصافيتا ، والمرقبة ، وحلباء ، وبانياس ، وطرشوس ، وكانت هذه البلاد كلها بأيدي الفرنج . ١٥

وأما ما افتتحه من بلاد الشرق ، وهى : مدينة سيس ، أخذها من أهلها بالأمان ، ودركوش ، وتاميش ، ورعيان ، ومرزبان ، وكيمنوك ، وأدنة ، والمصيعة .

وأما ما افتتحه بالحصار : دمشق ، وبعابك ، وقلة الصبية ، وقلة شيزر ، وعجلون ، وبصرى من أعمال دمشق ، وصرخد ، وحمص ، والصات ، وتدمر ، والرحبة ، وتل باشر ، والحواري ، وصهيون ، وقلة الكهف ، والقدموس ، والسكر ، ٢١

والشوبك ، وبيت المقدس ، ومدينة الخليل عليه السلام .

وأما ما افتتحه من بلاد السودان ، وهى : النوبة وأعمالها ، وقلعة العميدى من

أعمال برقة ، وافتتح عدة جزائر من أعلا الجنادل .

وأما ما أنشأه من المائر ، فإنه جدّد (١٧٥ ب) عمارة الحرم النبوى ، وجدّد

عمارة قبة الصخرة ببيت المقدس ، وأوقف على سماء الخليل ، عليه السلام ، جهات كثيرة باقية إلى الآن .

وأما ما أنشأه بالديار المصرية ، فمن ذلك : قناطر شبرامنت بالجيزة ، وقناطر على

بحر أبى المنجا ، وقناطر السباع التى بالقرب من ميدان المهارة ؛ وعمر سور مدينة

الإسكندرية ، وجدّد بناء المنار الذى بها ؛ وأنشأ منارا بشفر رشيد ؛ وجدّد عمارة ثغر

دمياط بعد ما كان خرابا من أيام الملك الكامل ، وردم فم بحر دميّاط بالقرايىص ،

حتى لا تدخل إليه مراكب الفرنج .

وجدّد عمارة قلعة الروضة ، التى أنشأها الملك الصالح أيوب ، وأعاد الشوانى التى

كانت بالصناعة ، وحفر بحر أشموم طنّاح ، وعمر القلاع التى ببلاد الشرق ، التى أخربها

هولاكو ، وعمر مدرسة بدمشق ، وأنشأ قرية على فم وادى العباسية ، وسماها

الظاهرية .

وأنشأ القصر الأبقى بدمشق ، وعمر الخان الكبير بالقدس ، وجدّد حفر خليج

الإسكندرية ، وبائر حفره بنفسه ، وأنشأ البرج الكبير بقلعة الجبل ، وعمر مدرسة

تجاه البيارستان ، وعمر الجامع الكبير الذى بزقاق الكحل ، وأتفق عليه جملة مال ،

قيل إنّه عمر من وجه حلّ ، من الفنائم التى حصلت له من فتوحات بلاد الفرنج ، وكان

مكان هذا الجامع ساحة برسم التقيق ، يلبسون هناك المالك .

وهو الذى جدّد عمارة جامع الأزهر ، وأعاد فيه الخطبة ، بعد ما أقام خرابا من

أيام الحاكم بأمر الله ، وجدّد عمارة جامع أحمد بن طولون ، وكان خرابا ، وجدّد عمارة

(٥) الصخرة : الصخرآ .

(٨) المنجا : المرجا .

جامع عمرو بن العاص، وكذلك جامع الحاكم؛ وله آثار كثيرة بمصر والشام، وغير ذلك من البلاد الإسلامية، (١٧٦ آ) انتهى ذلك.

وفيه يقول الشيخ زين الدين بن الوردي، قوله:

الملك الظاهر أخباره تشمل لأراحل والقاطن
تأملوا أخباره وانظروا ما فعل الظاهر بالباطن

٦ قالت: وأخبار الملك الظاهر ببيرس كثيرة، في عدة مجلدات، والغالب فيها موضوع، ليس له حقيقة، والذي أوردناه هنا هي الأخبار الصحيحة، التي ذكرها العلماء من المؤرخين.

٩ وكان الملك الظاهر ببيرس ملكاً عظيماً، جليل القدر، مهاباً، كفواً للسلطنة، وافر العقل، عارفاً بأحوال الممالك، خضعت له ملوك الشرق، وملوك الفرنج؛ وكان خفيف الركاب، له موكب بالشام، وموكب بحلب؛ وكان كثير الغزوات، مشهوراً بالفروسية، وله إقدام في الحرب؛ وكان كثير الأسفار في الصيف والشتاء؛ وكان يلقب بأبي الفتوحات، لكثرة فتوحاته للبلاد والشعور.

١٥ وكان يصنع في رنكه سبعمائة، إشارة لفروسيته، وشدة بأسه؛ وكان يفرق الفنائم التي تحصل من الفتوحات على عسكره، حتى يرغبهم في القتال؛ وكان محباً لجمع الأموال، كثير المصادرات لأرباب الأموال لأجل التجاريد.

وهو الذي رتب خيل البريد، لأجل سرعة مجيء أخبار البلاد الشامية.

١٨ وكان حسن الشكل، طويل القامة، أبيض اللون، مستدير اللحية، الغالب في لحيته الشعر الأبيض؛ وكان مبهجاً في موكبته، منقاداً إلى الشريعة، يحب العلماء والصالحاء، وفعل الخير.

٢١ ولو لم يكن من أفعاله الحسنة سوى رد الخلافة لبني العباس، وإكرامه لهم، بعد ما كادت أن تنقطع عنهم الخلافة، وأتفق على ذلك جملة مال كما تقدم.

وهو الذي جعل لكل مذهب (١٧٦ ب) قاضياً كبيراً، عزل ويولى.

(٦) قالت: ابن إياس، يعني نفسه.

(٢٣) قاضياً كبيراً: قاضى كبير.

وكان الملك الظاهر خيار ملوك الترك على الإطلاق ، وقد قال القائل فى المعنى :

تاريخه فى الملوك أضجى يحتر العرب والأعجم
فاكتبه بالتبر لا ببحر وأعجب لأخباره العظام
اختاره الله من إمام لقمع أهل الفساد صارم
قد أظهر العدل فى الرعايا وأبطل الجور والمظالم
فإنه يرحمه كل يوم ما دام هذا الوجود قائم

ولما مات الملك الظاهر ، تولى بعده ابنه الملك السعيد ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وذلك على سبيل الاختصار من أخباره .

ذكر

سلطنة الملك السعيد أبى المعالى محمد

ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى

وهو الخامس من ملوك الترك وأولادهم بمصر ؛ بويع بالسلطنة بعد موت أبيه ١٢
الملك الظاهر ؛ وكان مولده فى صفر سنة ثمان وخمسين وستائة ، وكان يسمى محمد بركة خان ،
على اسم جدّه لأبيه .

وكان القائم بتدبير دولته الأمير بدر الدين بيلىك ، نائب السلطنة ، فخاف له ١٥
الأمراء ، وكان الأمير بيلىك من ذوى العقول .

قيل ، لما مات الملك الظاهر فى أثناء طريق الشام ، كتم الأمير بيلىك موته ،
خوفا من التتار أن لا يرجعوا على البلاد إذا بانهم موت السلطان ، فدفن السلطان بالشام ١٨
تحت الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس .

ثم إن الأمير بيلىك احتاط على خزائن المال (١٧٧ آ) والبرك السلطاني ، وقصد
التوجه إلى الديار المصرية ، فكانت المحفة تمشى فى الموكب وقدّامها الجنائب ، ويشيعوا ٢١
أن السلطان مريض ، وكان لا يجسر أحد أن يقرب [من] المحفة ، وكانت الأطباء

(٢١) ويشيعوا : كذا فى الأصل .

(٢٢) مريض : مريضا . || [من] : تنقص فى الأصل .

تحضر على جارى العادة ، وطبق المزاوَر يدخل كل يوم إلى المحفّة ، واستمرّ الأمر على ذلك ، حتى دخل إلى القاهرة ، وطلع القلعة .

٣ فعند ذلك أشيع موت السلطان ، وتسلطن ولده عوضاً عنه ، فلما تمّ أمره في ولايته ، مشى في السلطنة على نظام والده ، وصار منقاداً مع الأمير بيليك ، فساس أمره أحسن سياسة ، واستمرّ على ذلك مدّة يسيرة .

٦ ثم إن الأمير بيليك مرض في أثناء ذلك ، وسلسل في المرض ، حتى مات في أواخر سنة ست وسبعين [وستائة] ، فكثّر عليه الحزن والأسف ، وكان أميراً ديناً خيراً ، كثير البرّ والصدقات ، قليل الأذى في حقّ الرعية ، وكان الناس عنه راضية إلى أن مات .

١٢ فلما مات طاش الملك السعيد ، واقتدى برأى الأوباش ، فقبض على جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير سنقر الأشقر ، والأمير يسرى ، وكافا جناحى والده الملك الظاهر ، ثم قبض على جماعة من الأمراء العشاوات من ممالك والده .

١٥ ثم أخلع على الأمير آقسنقر الفارقانى ، واستقرّ به نائب السلطنة ، عوضاً [عن] الأمير بيليك ، فأقام في نيابة السلطنة مدّة يسيرة ، ثم قبض عليه ، وسجنه بشفر الإسكندرية ، ثم أرسل خنقه وهو في السجن .

ثم أخلع على الأمير كوندك ، واستقرّ به نائب السلطنة ، عوضاً عن الأمير آقسنقر الفارقانى .

١٨ واستمرّ الملك السعيد يفعل من (١٧٧ ب) هذه المساوىء ، حتى نفرت عنه قلوب العسكر ، وتمنى كل أحد زواله .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وستائة

٢١ فيها توفى قاضى القضاة المالكى شرف الدين بن عمر بن السبكى ، وهو أول قضاة

(٧) [وستائة] : تنقّس في الأصل .

(١٠) واقتدى : واقتدا .

(١٣) [عن] : تنقّس في الأصل .

المالكية بمصر؛ فأخلع السلطان على القاضي تقيس الدين شكر، واستقرّ قاضي قضاة المالكية، عوضا عن شرف الدين عمر بن السبكي.

وفيها عزل قاضي قضاة الحنابلة، محمد بن العماد الجماعتلي، وهو أول قضاة الحنابلة؛
ثم تولى من بعده القاضي نحر الدين عمر بن عبد الله بن عوض.

وفيها توفى صاحب بهاء الدين بن حنا، فأخلع الملك السعيد على القاضي برهان الدين السنجاري، واستقرّ به وزيراً، عوضا عن بهاء الدين بن حنا؛ فأقام في الوزارة مدة يسيرة، وأخلع الملك السعيد من السلطنة عقيب ذلك، فقال فيه ناصر الدين ابن النقيب مداعبة:

تطيرت الوزارة من قريب بصاحبها الجديد ومن بعيد
وقالت كعبه كعب مشوم ولا سيما على الملك السعيد

وفيها جاءت الأخبار، بأن نائب الشام خامر وخرج عن الطاعة، فمجرّد إليه الملك السعيد، وخرج بنفسه إلى الشام، فلما دخلها نزل بالقصر الأبلق، الذي أنشأه والده.

فلما أقام أياماً بالشام، خامرت عليه جماعة من الأمراء، وقد عوّل الملك السعيد على قبض جماعة منهم؛ فلما تحقّقوا ذلك خرجوا من دمشق، وتوجّهوا إلى الرّج الأصفر، وأقاموا به.

فلما بلغ الملك السعيد ذلك، أرسل إليهم بعض (١٧٨ آ) الأمراء، ليشي بينهم وبين السلطان بالصلح؛ فلما توجه إليهم، عاد الجواب إليه بأنهم أبوا من الصلح قاطبة، وامتنعوا من الحضور.

فلما بلغ ذلك خوند أم الملك السعيد، وكانت توجهت صجبة ابنها إلى الشام، في محفة، فركبت على فرس وتوجهت إلى الأمراء في الرّج الأصفر، فلما اجتمعت بالأمراء، ومشت بينهم وبين ابنها بالصلح، فأبوا من ذلك، فرجعت من عندهم والمجلس مانع.

فلما تحقّق الملك السعيد ذلك، رحل من دمشق، وأخذ بقية الأمراء والعسكر،

وقصد التوجه إلى القاهرة؛ فجمع معه عربان جبل نابلس، وعسكر دمشق، وعسكر صفد، وعسكر طرابلس.

٣ فلما وصل إلى غزّة، تقى على ذلك العساكر؛ فأخذوا منه النفقة، ثم صاروا يتسحبون من عنده قليلا، قليلا، حتى لم يبق معه سوى العسكر المصرى؛ فلما خرج من غزّة، جدّ في السير حتى دخل سرياقوس.

٦ فلما بلغ الأمراء الذين بمصر بجىء السلطان، خرجوا على حمية ليقتلوه؛ وكان من لطف الله تعالى في ذلك اليوم ضباب ثقیل في الجو، فستر الله عليه حتى طلع إلى القلعة، ونجا بنفسه.

٩ فلما بلغ الأمراء طالع السلطان إلى القلعة، رجعوا من المطرية، وحاصروه بالقلعة سبعة أيام؛ فلما رأى من كان عنده في القلعة أنّ حاله قد تلاشى، صاروا يتسحبون من عنده، وينزلون إلى الأمراء في الرملة.

١٢ فلما رأى الملك السعيد عين الغلب، أرسل خلف أمير المؤمنين أحمد الحاكم بأمر الله، ليثني بينه وبين الأمراء، فيما يكون من المصالحة في ذلك، (١٧٨ ب) فنزل إليهم الإمام أحمد، وقال لهم: «إيش آخر هذا الأمر، وما قصدكم؟» قالوا: «قصدا يخلع نفسه من السلطنة، ويمضى إلى الكرك».

١٨ فرجع الإمام أحمد إلى الملك السعيد، وأخبره بما قالوه الأمراء، فأشبه على نفسه بالخلع من السلطنة، بحضرة أمير المؤمنين والقضاة، وأرسل الخلع إلى الأمراء، وخرج من يومه إلى الكرك، وكان الأمير بيدغان سمّ الموت وتسفرا عليه.

فكانت مدة سلطنة الملك السعيد محمد بن الظاهر بيبرس بالديار المصرية، نحو سنتين وثمانين وأياما.

٢١ ومن الحوادث في أيامه، أنّ العرب خرجوا على الحجاج في أثناء الطريق، ونهبوا جميع أموالهم، وقتلوا منهم جماعة؛ وكان أمير الحمل في تلك السنة، الأمير بوري، فلما جرى ذلك هرب، وفي ذلك يقول الممار:

لقد أخذوا الحجاج في عام سبعة وسبعين حقاً بعد نهب تمكنا
وصار أمير الركب بوري هاربا ولولا اختفاه صار بوري مكفنا

٣ قات : والملك السعيد هو صاحب الحمام الذي عند سوق القبو .
فلما توجه إلى الكرك ، أقام بها مدة يسيرة ، ومات ؛ وكان سبب موته ، قيل
إنه لعب بالأكرة في ميدان قلعة الكرك ، فتقنطر به الفرس ، فانسكس ضلعه ، ومات
٦ من وقته ، ودفن بالكرك ، ثم نقل من بعد ذلك ، ودفن بالقرافة الصغرى ، وقيل
بل دفن بالشام على أبيه الملك الظاهر .

وكان الملك السعيد شابا جميل الصورة ، حسن الهيئة ؛ ولما خلع من السلطنة ،
تولّى من بعده أخوه سلامش ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك السعيد محمد بن الظاهر
٩ بيبرس ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

سلطنة الملك العادل سيف الدين سلامش

ابن الملك الظاهر بيبرس

١٢ وهو السادس من ملوك الترك وأولادهم بمصر ؛ بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه
الملك السعيد ، في ربيع الأول (١٧٩ آ) سنة ثمان وسبعين وستمائة ؛ وكان له من
١٥ العمر لما تولّى السلطنة ، سبع سنين ونصف ، وكان يعرف بابن البدوية ؛ وكان حسن
الشكل ، أحسن من أخيه الملك السعيد .
وكان القائم بتدبير مملكته الأتابكي قلاون الألفي ، فكان يخطب باسمهما على
١٨ المنابر ، وضربت السكة باسمهما على الدينارين والدرهم ؛ وكان في الحقيقة قلاون هو
السلطان ، وكان سلامش معه آلة ، ليس له في السلطنة إلا مجرد الاسم فقط .

(٣) قلت : ابن لباس يعني نفسه . || المذى : النى .

(٩) أخوه : أخيه .

- ٣ ثم إن قلاون رسم بالإفراج عن الأمير سنقر الأشقر ، والأمير بيسرى ، اللذان كان الملك السعيد سجنهما بشفرة الإسكندرية ، فلما حضر الأمير بيسرى ، سلم أمور المملكة إلى قلاون ، وكان مغرماً بحب العبيد .
- ٦ فلما خرج يتصيد ، قبض الأتابكي قلاون على جماعة من الأمراء ، وأرسلهم إلى السجن بشفرة الإسكندرية ، ثم أرسل بالقبض على جماعة من النواب ، وولى عوضهم من يختار ، وكان في الباطن يمهّد الأمور لنفسه ، والأمراء في غفلة عن ذلك .
- ٨ فلما سفا له الوقت ، خلع العادل سلامش من السلطنة ، وأرسله إلى الكرك ، هو وأخاه سيدي خضر ، فأقاما بالكرك .
- ٩ فكانت مدة العادل سلامش بمصر ، خمسة أشهر وأياماً ، وبه انقضت دولة الملك الظاهر بيبرس ، كما بشر الإمام الشافعي بذلك في النوم ، وقد تقدّم ذكر ذلك ؛ ولما خلع سلامش من السلطنة ، تولى بعده قلاون ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار العادل سلامش ، وذلك على سبيل الاختصار .
- ١٢

ذكر

سلطنة الملك المنصور (١٧٩ ب) سيف الدين أبي المعالي

قلاون الألفي الصالحى النجمى

- ١٥ وهو السابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ بويع بالسلطنة بعد خلع الملك العادل سلامش ، يوم الأحد ثمانى عشرين رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه في القاهرة ، وضيّع الناس له بالدعاء ، ودقت له البشار بالقلعة .
- ١٨

وكان أصله من مماليك الأمير آقسنقر الكاملى ، ثم قدمه إلى الملك الصالح نجم

(١) سنقر الأشقر : آقسنقر الفارقانى ، وقد ورد هنا فيما سبق (س٣٤٣س١٣) خبر القبض على الأمير آقسنقر الفارقانى ، وخلفه في السجن بشفرة الإسكندرية ، كما ورد أيضاً (س٣٤٣س١١) خبر القبض على الأمير سنقر الأشقر والأمير بيسرى . || اللذان : الذى .

(٨) وأخاه : وأخوه .

الدين أيوب ، فأعتقه في أثناء سنة سبع وأربعين وستائة ، ولا زال يرقى حتى بقى سلطان مصر .

٣ فلما جلس على سرير الملك ، وتمّ أمره في السلطنة ، أنعم على جماعة من خشداشيته بتقادم ألوف ، وهم : طرنتاي ، وكتبغا ، ولاجين ، وقفجق ، وسنجر الشجاعى ، وأبيك الخازندار ، وآقوش الموصلى ، وسنقر جر كس ، وأزدمر العللى ، وفلجق ، وبابان الطباخ ، وغير ذلك من الأمراء .

٦ ثم أخرج عن الأمير أبيك الأفرم ، واستقرّ به نائب السلطنة ، فأقام فيها مدّة يسيرة ، واستعفى من النيابة ، فأعفاه السلطان ، ورتّب له ما يكفيه ، ولزم بيته .

٩ ثم أخلع السلطان على مملوكه طرنتاي ، واستقرّ به نائب السلطنة، عوضاً عن أبيك الأفرم ؛ وأخلع على الأمير سنقر الأشقر ، واستقرّ به نائب الشام ، فخرج من يومه ، وكان الأمير سنقر الأشقر مجرماً ، وعنده جهل زائد ، فأبعده المنصور (١٨٠ آ) قلاون إلى الشام ليكفى شرّه ، فما كفى ذلك .

١٢ وفى هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وسبعين وستائة، فيها توفى قاضى القضاة الشافعى، محيى الدين بن عزّ الدولة؛ فلما مات أخلع السلطان على القاضى وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى ، واستقرّ به قاضى القضاة الشافعية ، عوضاً عن ابن عزّ الدولة .

١٥ وفيها عزل السلطان قاضى القضاة الحنفية ، صدر الدين أبى العزّ ؛ وأخلع على القاضى معزّ الدين النعمان بن الحسن ، واستقرّ به قاضى قضاة الحنفية ، عوضاً عن أبى العزّ .

١٨ وفيها أخلع السلطان على القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، واستقرّ به كاتب السرّ ، وهو أول من لقب بكاتب السرّ .

٢١ وسبب ذلك ما حكاه الصلاح الصفدى ، أن الملك الظاهر بيبرس ، رفع إليه مرسوم بالقبض على بعض النواب، فأنكر السلطان ذلك، وقال: «أنا لم أرسوم بذلك»،

(١) يرقى : يرقا .

(٩) طرنتاي : كتب هنا على الهامش بخط غير خط المؤلف : « صوابه طوروماي » .

وطالب الموقّع ، وسأله عن ذلك ، فقال : « إن الأمير بلبان ، الدوادار ، رسم بذلك عن لسان السلطان » ، فقال السلطان : « ينبغي أن يكون للملك كاتب سرّ ، يتأمّن الكلام شفهاها عن لسان السلطان » .

وكان قلاون حاضراً ذلك المجلس ، فوقعت هذه الكلمة في أذنه ، فلما تسلم ، أخلع على القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، واستقرّ به كاتب السرّ ؛ فهو أول من تسمّى « كاتب السرّ » ، وقد قال القائل في المعنى :

عليك بكتب السرّ لا تفشينه وما كان من عيب فقابله بالستر
فإن أختار الملوك كثيرة ولكن أحظاهم به كاتب السرّ

(١٨٠ ب) وموضوع هذه الوظيفة قراءة الكتب الواردة من البلاد ، وكتابة أجوبتها ، وتصريف المراسيم إلى سائر الآفاق لقضاء حوائج الناس ، وكان كاتب السرّ يجلس بحضرة السلطان لقراءة القصص .

وأحدث في أيامه وظيفة « نظر الجيش » ، وموضوعها النظر في أمر الإقطاعات ، ما يخرج منها وما يدخل إليها ، وتحرير جزئياتها .

وأحدث في أيامه وظيفة « نظر الخزانة » ، وكانت وظيفة كبيرة جليلة ، وموضوعها أن يستوعب ما يخرج من بيت المال ، وما يدخل إليه ، وما يصرف في أمور المملكة ، وما يرد من البلاد الشامية وغيرها .

وأحدث وظيفة « وكالة بيت المال » ، وكانت وظيفة جليلة ، ولا يليها إلا من هو من ذوى العدالة المبرزة .

وأحدث في أيامه « نظر الاصطبلات » ، وموضوعها التحدث في الاصطبل الشريف ، وعليق الخيول ، وأمر مناخات الجمال ، وما أشبه ذلك .

وأحدث في أيامه « نظر كتابة المالك » ، وموضوعها معرفة أسماء الجند وأنسابهم ، وقت العرض للأسنار ، وعند تفرقة الجوامك والنفقات ، وما أشبه ذلك . ثم إن السلطان عزل صاحب برهان الدين السنجاري ، من الوزارة ؛ واستقرّ

بالقاضي نضر الدين بن لقمان ، الذي كان كاتب السرّ أيام الملك الظاهر بيبرس .

وكانت هذه الوظائف كلها مغدوقة بديوان الوزارة من أيام الخلفاء ، فانقسمت على عدة فروع في دولة الأتراك ، لما تلاشى أمر الوزارة في تلك الأيام .

وفيها توفي أبو المعالي يوسف بن رباح ، (١٨١ آ) وكان من أعيان الشعراء ٣
بمصر ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

قلّوا تبدّل من تهوى فقلت لهم لولا تبدّله ما نلت مقصودي

هذا دليل على ما فيه من كرم والجود بالنفس أقصى غاية الجود ٦

ثم دخلت سنة تسع وسبعين [وستمئة]

فيها جاءت الأخبار من دمشق بأن الأمير سنقر الأشقر ، الذي استقر نائب

الشام ، خامر وخرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان ، وادّعى الساطنة لنفسه بالشام ، ٩
وبأس له الأمراء الأرض هناك ، وتآبب بالملك الكامل ؛ فأقام على ذلك مدة يسيرة ،
ثم بطل أمره ، وخشى من السلطان ، فهرب إلى صهيون .

وفيها جاءت الأخبار بأن أبنا ، ملك التتار ، زحف على البلاد ، وأرسل أخاه ١٢
منكوتمر في جاليش العسكر ، وقد وصل إلى حلب ، وملك ضياعها ، وأخذ أطراف
مدينة حلب وأمر على أخذها .

فلما بلغ السلطان ذلك ، خرج بنفسه ، هو والأمراء ، على جرائد الخيل ؛ فلما وصل ١٥
إلى غزة ، جاءت الأخبار بأن منكوتمر أخا أبنا ، لما بلغه بجى ، السلطان ، رحل عن
حلب بعد ما أحرق ضياعها ، وقتل أهلها ، ونهب أموالهم ؛ فلما بلغ السلطان رجوع
منكوتمر إلى بلاده ، رجع من غزة إلى القاهرة . ١٨

فأقام دون الشهر ، ثم جاءت الأخبار بـرجوع منكوتمر إلى حلب ، وفعل أضعاف ٢١
ما فعله أولا ، فخرج السلطان ثانيا ، وهو على جرائد الخيل ، فتلاقى مع عسكر التتار
على المرج الأسفر ، فكان بينهما وقعة عظيمة ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى .
وتقنطر منكوتمر عن فرسه ، وجرح ، فأحاطت به التتار وحملوه (١٨١ ب)

(٢٠) فتلاقى : فتلاقا .

(٢١) وقعة : كذا في الأصل .

وهربوا به وهو مجروح ، ووقع النهب في عسكر التتار ، وغنم منهم عسكر السلطان
 ما لا يحصى ، من سلاح وخيول وغير ذلك ؛ وكانت هذه الوقعة من الوقعات المشهورة ،
 فلما حصلت هذه النصر للملك المنصور قلاون ، قصد التوجه إلى مصر .

ثم دخلت سنة ثمانين وستمائة

فيها حضر السلطان إلى القاهرة ، فخرج الناس قاطبة إلى ملتقاه ، وزينت
 له القاهرة ، وطلع إلى القاعة في موكب حفل ، وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشت
 قدّامه الأمراء ، حتى طلع إلى القاعة .

وفي هذه السنة توفّي قاضي قضاة المالكية ، نفيس الدين شكر ؛ وتولّى بعده
 القاضي تقيّ الدين محمد بن عباس المالكي .

وفي هذه السنة توفّي الشيخ ناصر الدين بن المنير ، والشيخ جمال الدين الشريشي ،
 شارح « مقامات الحريري » .

وفيها عزل السلطان نحر الدين بن لقمان من الوزارة ؛ وأعيد صاحب برهان
 الدين السنجاري .

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين [وستمائة]

فيها قبض السلطان على جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير بيسرى ، والأمير
 بكتوت الشمسي ، والأمير كشتندي ، وجماعة كثيرة من المالك السلطانية ؛ وأنعم
 بإمرائهم على ماليكه ، وقدم منهم جماعة .

وفيها تزوج السلطان بخوند أشلون ، بنت الأمير نكاي ، وزوّت عليه ، وأقام
 المهّم سبعة أيام بالقاعة ، ليلا ونهارا ، حتى قيل أصرف السلطان على ذلك المهّم عشرة
 آلاف دينار ؛ وخوند أشلون هذه ، هي أم الملك (١٨٢ آ) الناصر محمد بن قلاون .

وفي هذه السنة ، في رجب ، توفّي القاضي شمس الدين محمد بن خلكان الأربلي ،
 ولد سنة ستائة ، وكان من أعيان المؤرخين ، صحيح العقل ، وكان له شعر جيّد ،

(٢) الوقعة من الوقعات : كذا في الأصل .

(١٤) [وستائة] : تنقص في الأصل .

فمن ذلك قوله :

أمثلكم والبعد بيني وبينكم نخيل لى أن الفؤاد لكم معنى
 ٣ وناجاكم قلبي على بعد نايكم فأنتم لفظا وأوحشتم معنى
 وقد هجاه الأديب سميكة بهذين البيتين ، وهما :

أمولاي بدر الدين قل لابن خلكان يأخذ حذرا من لسان وحده
 ٦ فإني أدريه وأعرف أصله وتاريخه عندي وتاريخ جده
 وفي هذه السنة عزل الصاحب برهان الدين السنجاري؛ واستقر في الوزارة الصاحب
 نجم الدين حمزة بن محمد بن هبة الله الأصفوني .

٩ وفي هذه السنة توفي الأمير مجير الدين محمد بن تميم الدمشقي ، وكان من فحول
 الشعراء ، وله شعر جيد ، وهو من شعراء المائة السادسة ، ومن نظم الرقيق ، قوله :

خليلي قد صاد الفؤاد بحسنه غزال به عذر المحبين واضح
 ١٢ ولا غرو أن صاد الفؤاد بالحظه ألم تعلم أن العيون جوارح
 ومن نكته المخرعة ، وهو قوله :

وميفهف الأعطاف قبل وردة بمقبل عذب الرضاب صقيل
 ١٥ فأغارها طيباً وحياني بها فلتمت عاطر ثغره برسول

(١٨٢ ب) وتوفي في هذه السنة أيضاً الشيخ بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي ،

وكان من شعراء مصر من المائة السادسة أيضاً ، وكان من فحول الشعراء ، وله شعر
 جيد ، فمن ذلك قوله :

١٨ وحديقة مطالوة باكرتها والشمس ترشف ريق أزهار الربا
 يتكسر الماء الزلال على الحصى فإذا جرى بين الرياض تشعبا

٢١ ومن لطائف تغزلاته قوله ، وقد ضمن المثل السائر :

سدوا وقد دبّ العذار بخده ما ضرهم لو أنهم خبروه
 هل ذاك غير نبات خد قد حلا لكنهم لما حلا هجروه

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وستمائة

فيها ابتدأ الملك المنصور قلاون بعمارة القبة التي تجاه المدرسة الظاهرية ؛ وأضاف إليها قاعة القطبيين ، وسمّاه « البيارستان المنصوري » ؛ وأنشأ بجوار القبة مدرسة تجاه المدرسة الصالحية ؛ وقيل انتهى العمل من ذلك في مدّة عشرة أشهر - هكذا نقله بعض المؤرخين - وغالب ما فيها من الأعمدة والأعتاب نقل من القلعة التي كانت بالروضة كما تقدّم .

فلما مكّلت العمارة ، أوقف عليها عدّة من ضياع وأملاك وبساتين ومستقّات، وغير ذلك ؛ وجعل لها في كل يوم من الرواتب نحو ألف دينار (١٨٣ آ) .

وأُشرط في وقفه أن لا يمنع من دخول البيارستان ، من كان مريضاً ، أو رمداناً ، أو مبطوناً ، أو مجنوناً ، أو من به عاهة ، ويقيم به إلى أن يبرأ ، أو يموت ؛ وربّ لهم الأطبّة ، والأشربة ، والسكر ، والمزاور ، والفرايح ، حتى الخيار البلدي ، والتمرحنا ، والياسمين ، وجعل يرسم ذلك غيطان معروفة ؛ قال ابن عبد الظاهر : كانت أوقاف البيارستان ، تشتمل في كل سنة على ستين ألف دينار .

وأُشرط في وقفه أن في كل ليلة يحضر من أرباب الآلات أربعة ، يضربون بالعود حتى يساهروا الضعفاء ، وأجرى عليهم الجوامك في كل شهر ؛ وأُشرط أيضاً أن يرمى على سطح القبة ، التي يدفن تحتها ، في كل شهر أربع أرباب قبح ، برسم الطيور والحمام .

وأُشرط أشياء كثيرة من هذا النمط ما لا فعله أحد من الملوك قبله ، ولا بعده . وهذا المعروف باق إلى الآن ، وهو من حسنات الزمان ، تحتاج إليه الملوك ، ولا يستغنى عنه الغنى ولا الصعلوك ، وقد قيل في المعنى :

تمشى الملوك على آثار غيرهم وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع

وقال آخر :

(١٥) يساهروا : يساهرون .

(تاريخ ابن إياس ج ١ ق ١ - ٢٣)

- ما من ملك له ذكر يشاع به إلا الذي بعده للخير آثار
قال الشيخ تقي الدين المقرئى : وكان سبب بناء هذا البيمارستان ، وهذا المعروف ،
والآثار العظيم الذى صنعه قلاون ، قيل إنه أمر بشىء كان له فيه اختيار ، يخالفه جماعة ٣
من العوام ، ورجعوا المالك ، فغضب عليهم السلطان ، وأمر المالك أن يقتلوا كل من
وجدوه من العوام ، فاستمر السيف يعمل فيهم ثلاثة أيام ، فقتل فى هذه المدة ما لا
يحصى (١٨٣ ب) عددهم من العوام وغيرهم ، وراح الصالح بالطالح ؛ فلما تزايد الأمر ، ٦
طلع القضاة ومشايخ العلم إلى السلطان وشفعوا فيهم ، فأمر بكف القتل عنهم ، بعد
ما قتل من الناس جماعة كثيرة .
- فلما جرى ذلك ، ندم السلطان على ما وقع منه ، فأشار عليه بعض العلماء أن يفعل ٩
شيئاً من أنواع البر والخير ، لعل أن يكفر عنه ما جرى منه ، فشرع فى بناء هذا
البيمارستان ، وصنع فيه هذا الخير العظيم ، من الرواتب الجزيلة ، لعل الله تعالى أن
يمحو ما تقدم من ذنبه « إن الحسنات يذهبن السيئات » - هكذا نقل المقرئى ، ١٢
انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين [وستائة]

- ففيها خرج السلطان بنفسه إلى نحو البلاد الشامية ؛ ثم توجه إلى حصن الرقب ١٥
وحاصره ، ونصب عليه المناجنيق ، واستمر يحاصره ثمانية وثلاثين يوماً ، فطلب أهله
الأمان ، فأعطاهم الأمان ، وسأموا الحصن ، ثم رجع السلطان إلى الديار المصرية .
- وفيها عزل السلطان العاصم هبة الله الأصغرى ؛ واستقر بمملوكه علم الدين ١٨
سنجر الشجاعى ، وهو أول من ولى الوزارة من الأتراك ، ودقت له على بابه
الطبلخانة ، على قاعدة وزراء الخلفاء ببغداد . - وفيما توفى ابن الساعاتى صاحب « مجمع
البحرين » . ٢١

(١٤) [وستائة] : تنقسم فى الأصل .

(١٧) الديار المصرية : كتب المؤلف هنا على الحامش ما بأتى : وفيها فتحت مرقب ، ونصب
عليها السلطان قلاون تسعة عشر منجنيقا ، وفتحت يوم الثلاثاء رابع جادى الآخرة وفتحت طرابلس ،
وكانت بيد الفرنج مدة مائة سنة وأشهر .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين [وستمائة]

- فيها أرسل السلطان الأمير طرنتاي ، نائب السلطنة ، بالقبض على سنقر الأشقر ،
 ٣ الذي كان نائب الشام ، وأظهر العسبان ، وتسارطن بدمشق ، وقد تقدّم ذكر ذلك ؛
 فلما وصل الأمير طرنتاي إلى صهيون ، حاصر سنقر الأشقر أشد الحاصرة ، فلما رأى
 سنقر عين الغلب ، أرسل بطاب من الأمير (١٨٤ آ) طرنتاي الأمان ، فأجابه إلى
 ٦ ذلك ، فلما وثق منه بالأمان ، نزل إليه من قلعة صهيون وقابل الأمير طرنتاي ، خاف
 له على مصحف شريف ، أنه إذا قابل السلطان لا يشوش عليه ، ولا يسجنه ، ولا
 يقتله ؛ فلما وثق منه بذلك ، أخذ عياله وأولاده وأتى صحبة الأمير طرنتاي .
 ٩ فلما بلغ السلطان مجيء سنقر الأشقر ، خرج إلى تلقّيه ، فلما وصل إلى المطرية ،
 تلاقى هو وسنقر الأشقر عند مسجد التبّين ؛ فلما وقعت عين سنقر على السلطان نزل عن
 فرسه ، فلما رآه السلطان نزل عن فرسه ، نزل [هو] الآخر عن فرسه ، وتعانقا .
 ١٢ فبكى سنقر الأشقر ، وطلب من السلطان الأمان ، فأعطاه منديل الأمان ، فوضعه
 على رأسه ، ثم ركبا وطلعا إلى القاعة ، وكان يوما مشهودا .
 وطلع في موكب حفل ، وهو راكب إلى جانب السلطان ، فلما طلع إلى القاعة ،
 ١٥ أخلع عليه السلطان خامة ، ونزل معه سائر الأمراء إلى بيته الذي في التبانة ، انتهى
 ذلك .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وستمائة

- فيها توفي قاضي قضاة الشافعية وجيه الدين عبد الوهاب البهنسي ؛ فأخلع السلطان
 ١٨ على القاضي تقي الدين عبد الرحمن ابن القاضي تاج الدين بن بنت الأعز ، واستقرّ به
 قاضي قضاة الشافعية ، عوضا عن البهنسي .
 ٢١ وفيها ، في رجب ، توفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن الخيمي ، وكان من خول

(١) [وستمائة] : تنقص في الأصل .

(١٠) تلاقى : تلاقا .

(١١) [هو] : تنقص في الأصل .

الشعراء ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

وأعد حديثك يا عدول فإن في أثناء عذلك ما يسرّ سرائري
وإذا أتيت من الملام بفاطر كثره من ذكر الحبيب بغافر
(١٨٤ ب) وقوله أيضا :

زمان الورد أعلام الزمان وروح الراح راحة كل عانى
وما اجتمعت هموم قاتلات مع الصبباء يوما في مكاني
وفيهما توفى الشيخ محي الدين بن قرناص الحموي ، وكان من فحول الشعراء ،
وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

أظن نسيم الزهر والروض قد روى حديثا ففاحت من شذاه المسالك
وقال دنا فصل الربيع فكله ثغور لما قال النسيم ضواحك
وقوله :

أيا حسنها روضة قد غدا جنوني فنونا بأفنانها
أتى الماء فيها على رأسه لتقبيل أقدام أغصانها
وفيهما قبض السلطان على مملوكه سنجر الشجاعى ، وعزله عن الوزارة ؛ وأخلع
على مملوكه الأمير بدر الدين بيدرا ، واستقرّ به وزيرا ، عوضا عن الشجاعى .
ثم صادر الشجاعى ، واستعفى أمواله ، بعد أن عصره بالعصير ، وضربه كسارات ،
واحتمط على موجوده .

وفيهما ، فى ذى الحجة ، توفى قاضى قضاة المالكية ، تقى الدين بن عباس ؛ ثم
ولى بعده القاضى زين الدين بن مخلوف النورى .

ثم دخلت سنة ست وثمانين وستمائة

ففيهما توفى الشيخ أبو العباس أحمد بن على الرسى ، (١٨٥ آ) رضى الله عنه ،
وكان أصله من الإسكندرية ، ومات بها ، ودفن هناك ، وهو تلميذ الشيخ أبى الحسن
على الشاذلى ، رضى الله عنه .

وفى المحرم سنة ست وثمانين وستمائة ، توفى الشيخ قطب الدين القسطلانى ، ولد

بمصر سنة أربع عشرة وستائة .

وفيها توفيت جسد الأمير علي بن السلطان قلاون ؛ وكان والده قلاون وآله
السلطنة في أيام حياته ، وركب بشعار الملك ، وجلس على سرير الملك ، وبأس له
الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الصالح ، وكان يجلس إلى جانب والده قلاون
على التكة .

وسبب سلطنته في حياة والده ، أن الملك المنصور قلاون كان كثير الأسفار إلى
البلاد الشامية ، فسلطن ولده الأمير علي في أيام حياته ، ليكون عوضا عنه بمصر ،
إذا سافر إلى البلاد الشامية ، فأقام على ذلك مدة في حياة والده ، ثم إنه مرض ولزم
الفرش ، وسلسل في المرض ، وكانت عاتته حمة كبدية .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وستائة

فيها ، في المحرم ، توفي الشيخ أبو إسحق إبراهيم بن معضاد الجعبري ، الواعظ ،
وعاش من العمر نحو سبع وثمانين سنة .

وفيها توفي الشيخ ناصر الدين محمد بن حسن بن شاور الكنانى المعروف
بابن النقيب ، وكانت وفاته في ربيع الأول من هذه السنة ، وعاش من العمر نحو تسع
وتسعين سنة ، وكان من فحول الشعراء ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

جودوا لنسجع بالمديح على علاكم سرمد
فالطير أحسن ما يندرد عند ما يقع النداء

وقوله :

أنت طوقتني منيما وأسمعتك شكرا كلاهما ما يفيح
فإذا ما شجباك شجوى فإني أنا ذاك المطوق السموع

(١٨٥ ب) وفي هذه السنة ، أعني سنة سبع وثمانين وستائة ، فيها ، في ذى القعدة ،
توفي الرئيس علاء الدين بن النفيس ، شيخ الأطباء ، صاحب كتاب « الموجز » ،
و « شرح القانون » ، وكان علامة في عصره .

(٩) حمة : كذا في الأصل ، ويقصد : حمى .

(٢١-٢٣) وفي هذه السنة ... في عصره : كتبت في الأصل على هامش ص (١٨٥ ب) .

وفيهما ، فى ليلة الجمعة رابع شعبان ، توفى الملك الصالح على بن الملك المنصور قلاون ،
فلما مات حزن عليه والده حزناً شديداً ؛ وكان الأمراء جلوساً على باب الستارة
ينتظرون ما يكون من أمره .

٣

فلما وقع الصراخ فى دور الحرم ، دخل الأمير طرنتاي ، نائب السلطنة ، فوجد
السلطان مكشوف الرأس وشاشه على الأرض ، وهو يبكى ويصيح ، فلما رآه الأمير
طرنتاي على هذه الحالة ، فأرمى الآخر شاشه عن رأسه ، ثم إن بقية الأمراء دخلوا
على السلطان ، وأرموا كلوتاتهم عن رؤوسهم ، فأقاموا على ذلك ساعة .

ثم إن الأمير طرنتاي أخذ كلوته السلطان ، وبأس الأرض ، هو والأمراء ،
وناولها له ، فدفعها له ، وقال : « إيش بقيت أعمل بالملك بعد ولدى ؟ » ثم صبروا
له ساعة ، وتقدم الأمير سنقر الأشقر ، الذى كان تسيطر بالشام ، وبأس الأرض ،
ووضع كلوته السلطان على رأسه ، واستمر العزاء قائماً تلك الليلة .

فلما أصبح يوم الجمعة ، شرع السلاطون فى تجهيز ولده وإخراجه ، فلما غسلوه ،
صاؤا عليه عند باب الستارة ، ثم نزلوا به من باب المدرج ، فأراد السلطان أن يمشى
فى الجنائز ، فمنعوه الأمراء من ذلك .

ثم مشى الناس قاطبة ، من أمير وقاض وغير ذلك ، حتى أتوا به إلى تربة والدته
خوند خاتون ، التى بجوار المدرسة الأشرافية ، التى بطريق السيدة نفيسة ، رضى الله
عنها ، فدفن هناك ، (١٨٦ آ) وكان له مشهد حفل لم يسمع بمثله ، وكان ذلك يوم
الجمعة قبل الصلاة .

١٨

فلما أصبح يوم السبت ، نزل السلطان لزيارة قبر ولده ، وجلس عنده ذلك اليوم ،
وحضر قراء البلد قاطبة ، واستمر المأتم عملاً سبعة أيام .

وكانت مدة حياة الملك الصالح على ، هذا ، نحو عشرين سنة ، وكان أكبر
إخوته ؛ وخلف ولداً ذكراً يسمى الأمير موسى ، وهو صاحب الربع الذى فوق
الغرابايتين .

قال الصلاح الصفدى : فلما مات الملك الصالح على ، فكتب القاضى محي الدين

٢٤

ابن عبد الظاهر ، عن لسان الملك المنصور قلاون ، إلى نائب الشام ، وبقية النواب ، مطالعات ضمنها ما جرى على السلطان من فقد ولده ، ثم قال عن لسان السلطان : « ونحن نحمد الله تعالى على حزن ، حزننا به الأجور الفاخرة ، وكان قصدنا أن نجعله ملكا في الدنيا ، فاختاره الله تعالى أن يكون ملكا في الآخرة » ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وستمائة

٦ فيها ، في ثالث عشر صفر ، خرج السلطان ، على حين غفلة ، إلى نحو البلاد الشامية ، فوصل إلى طرابلس ، وحاصر أهلها أشد الحاصرة ، ونصب على سورها المناجنيق ؛ واستمر يحاصرها نحو أربعة وثلاثين يوما ، ففتحها بالسيف يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وستمائة ، فوردت البشائر إلى الديار المصرية بفتح طرابلس وجبيل .

١٢ ثم إن السلطان عاد إلى القاهرة ، فزيت له ، وحملت على (١٨٦ ب) رأسه القبة والطير ، وكان يوم دخوله يوما مشهوداً .

١٥ وفيها جاءت الأخبار ، بأن ملك النوبة هجم على مدينة أسوان ، ونهب ما فيها ، وأحرق جرونها ؛ فلما بلغ السلطان ذلك ، أرسل الأمير أيبك الأفرم ، مع جماعة من العسكر ، فلما وصلوا إلى هناك هرب منهم ملك النوبة ، فتبعوه إلى آخر النوبة ، وكسروه كسرة قوية ، وغنموا منه أشياء كثيرة ، من جوار وعبيد وخيول وجمال وغير ذلك ، ورجع العسكر إلى الديار المصرية .

١٨ وفيها توفي الشيخ ظهير الدين بن البارزى الدمشقى ، وكان عالماً فاضلاً ، وله شعر جيد ، قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : رأيت الشيخ ظهير الدين بن البارزى ، صوفيّاً بحماسة ، فأنشدنى من لفظه لنفسه :

٢١ أراك فاستجى فأتق هيبة وأخفى الذى بى من هوائك وأكتم
وهيبات أن يخفى وأنت جعلتنى جميعى لسانا فى الهوى يتكلم

ثم دخلت سنة تسع وثمانين [وستمائة]

فيها ، في ربيع الآخر ، توفي الشيخ نور الدين علي بن الكفتي ، شيخ الإقراء ، وكان علامة في عصره .

٣

وفيها ، في ثامن عشر شوال ، عزم السلطان على التوجه إلى عكا ، فنزل من القلعة ، وتوجه إلى الريدانية ، وأقام بها حتى يتكامل خروج العسكر ؛ فلما أقام هناك ، توقعك جسده ، وصار كل يوم يزايد عليه الأمر ، حتى ثقل في الرض ولزم الفراش . وكان لما أراد السفر (١٨٧ آ) إلى عكا ، عهد إلى ولده خليل من بعده ، ولقبوه بالأشرف .

٦

فلما سلسل السلطان في الرض ، اضطربت الأحوال ، وصار ولده خليل ينزل إليه من القلعة كل يوم لتفقد أحواله ، وكانت الأمراء يدخلون عليه كل يوم مع الحكماء ، فلما تزايد الأمر عليه ، وتغير حاله ، منع الأمير طرنتاي الأمراء من الدخول عليه ، حتى ولده الأشرف خليل .

١٢

فلما تحقق الأمراء موت السلطان ، جاءوا إلى الأمير طرنتاي ، النائب ، وقالوا له : « أنت تعلم ما بينك وبين ولد السلطان من حظوظ النفوس ، وقد صار الأمر إليه ، والسلطان ما بقي فيه رجوة ، ومتى صار الحكم إليه ، فإنه يقتلك لا محالة ، فبادر إليه وامسكه قبل أن يمسكك ، ونحن كأننا عصبتك » .

١٥

فسكت الأمير طرنتاي ساعة ثم قال للأمراء : « كيف أمسك ابن أستاذي

١٨

أو أقتله ، ويشاع عني بين الناس أنني قتلت ابن أستاذي وأنا مملوك والده ، فإن رضي بي وأبقاني على حالي ، فكان الفضل له ، وإن قتلتني ، رحت شهيدا من جملة الشهداء » . ثم إن السلطان دخل في النزاع ، فقعده الأمير طرنتاي عند رأسه حتى مات ، وغمضه بيده .

٢١

(١) [وستمائة] : تنقسم في الأصل .

(٤) على التوجه : إلى التوجه .

(١٨) رضي بي : رضي بي .

فلما أصبح الصباح جاءت الأمراء على جارى العادة ، فلم يمكنهم من الدخول إلى السلطان ؛ ثم أرسل خزائن المال والأطلاب ، التي كانت مع السلطان ، برسم السفر ، للقاعة . ٣

ثم إن الأمير طرنتاي أرسل عرّف ولد السلطان أن والده قد مات ، وأشار عليه أن لا ينزل من القاعة ، ووكل به مقدّم المالك .

ثم إن الأمير طرنتاي حمل السلطان ، (١٨٧ ب) وهو ميت ، في حفة ، وطلع به إلى القاعة بعد المغرب ، فمسّله وكفّنه ، ونزل به في تابوت بعد العشاء ، والأمراء وأعيان الناس مشاة قدّامه ، وكثر عليه الحزن والأسف من الناس ، إلى أن وصلوا به إلى البيمارستان ، فصلّوا عليه هناك ، ودفن داخل القبّة التي تجاه مدرسة الملك الظاهر بيبرس . ٦ ٩

فكانت وفاته يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين أوسبائة ، ودفن ليلة الأحد ؛ وكانت مدّة توعّكه تسعة عشر يوما . ١٢

وكانت مدّة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام ، وزالت دولته ، وقد قيل :

كل ابن أنبى وإن طال سلامته يوما على آلة حذاء محمول ١٥

ولما مات المنصور قلاون ، خاف من الأولاد ثلاثة ذكور : سيدى خليل الذى تسلطن بعده ، وسيدى محمد الذى تسلطن بعد أخيه خليل ، وسيدى أحمد ولد بعد وفاة أبيه . ١٨

وكان الملك المنصور قلاون حسن الشكل ، قصير القامة ، درى اللون ، وكان قليل الكلام بالربى ، عظمى اللسان ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ؛ وكان مفرما بمشترى المالك ، حتى قيل تكامل عنده فى وقت واحد ، اثنى عشر ألف مملوك . ٢١

(٢) التى كانت : الذى كانوا .

(١٧) وفاة : وفات .

(٢١) مملوك : مملوكا .

ومما يدل على علو همته ، وحسن اعتقاده ، (١٨٨ آ) وهو عمارته للبيمارستان ، وما فعل فيه من وجوه البر والخيرات العميمة ، ما لا فعله أحد من الملوك قبله ، ولا بعده ، وقد كفاه ذلك في الدنيا والآخرة .

ومن حسنه أنه غير تلك الملابس الشنيعة ، التي كانت تلبسها الممالك في الدول القديمة ؛ قيل كانت كلوتاتهم من صوف كحلي غميق ، وهي مضربة عريض بغير شاش عليها .

وكانت الممالك تربي لهم ذوايب شعر خلفهم ، ويجعلونها في أكياس حرير أحمر أو أصفر .

وكانوا يشدون في أوساطهم البنود البعلبكي ، عوضا عن الحوايص الفضة والذهب ؛ وكانت أخفافهم من البرغالي الأسود .

وكانوا يشدون فوق أثوابهم أبازيم من جلد ، وفيها حلق من نحاس أصفر ، ويعلقون فيها صوالق برغالي أسود ، وقد ركل صولق يسع ويبة قح ، ويعلقوا فيه معاقبة خشب كبيرة ، وسكين كبيرة .

وكانت لهم مناديل من الخام ، والطرح ، كل منديل قدر فوطة كبيرة ، يمسحوا فيه أيديهم ؛ وكانوا يربون لهم شوارب ، قدر السافة الكتان .

فلما تسلطن قلاون ، أبطل ذلك جميعه ، وجدّد لهم هيئات جميلة ، بخلاف ما كانوا عليه من الهيئات الشنيعة ؛ وكان خلع الأمراء المقدمين من العنتابي والطرد وحش ، فصنع لهم خاما من المخمل الأحمر بالزراء السمر .

وهو أول من أسكن الممالك في أبراج القلعة ، وسماهم الممالك البرجية . وأما ما فتحه في أيامه من الفتوحات ، وهم : الرقب ، وجبله من بلاد الفرنج ،

(١٢) ويعلقوا : كذا في الأصل .

(١٣) معاقبة : كذا في الأصل ، ومعنى : معلقة .

(١٤) يمسحوا : كذا في الأصل .

(١٨) السمر : الصمور .

وطرابلس الغرب ، واللاذقية ، وجبيل ، والكرك ، والشوبك ، وغير ذلك من البلاد الكفرية (١٨٨ ب) .

٣ ✕ وأما ما أبطله من المظالم في أيامه ، وهو أن كان وظيفته قديمة ، تسمى « ناظر الزكوات » ، كان يؤخذ ممن له مال زكاته في كل سنة ، حسبما تقرر عليه في الدفاتر القديمة ، فإن مات صاحب المال أو عدم ماله ، يؤخذ ما تقرر عليه في الدفاتر من أولاده وأولاد أولاده أو أقاربه ، ولو بقي منهم واحد ، فأبطل قلاون ذلك ، وسطر أجر ذلك في صحيفته إلى اليوم .

✕ ٩ ومما أبطله من المظالم أيضا ، وهو أن كان يؤخذ من أهل مصر للمبشرين ، إذا حضروا ببشارة فتح حصن ، أو بنصرة عسكر ، أو بسلامة الحجاج ، أو ما أشبه ذلك ، فيجبي من أهل مصر على قدر طبقاتهم في السعة ، ويعطى للمبشر ، فأبطل ذلك .

١٢ ومما أبطله أيضا ، وهو أن كان يجبي من أهل مصر ، عند وفاء النيل المبارك ، ثمن حاوى وفاكهة وأغنام للشوى ، برسم السباط الذى يصنع في المقياس يوم وفاء النيل ، فأبطل ذلك عن الناس ، وجعل مصروفه من بيت المال .

✕ ١٥ وأبطل في أيامه أشياء كثيرة من أبواب هذه المظالم ، وجعل ذلك في صحيفته إلى اليوم ، كما قال القائل :

للخير أهل لا تزال وجوههم تدعو إليه

١٨ طوبى لمن جرت الأمور ر الصالحات على يديه

قال الإمام الإسئوى : إن في رابع عشرين رجب سنة ست وسبعين وستمائة ، توفى الإمام العالم العلامة ، فريد عصره ووحيد دهره ، الشيخ محي الدين يحيى ابن شرف أبو زكريا النواوى الشافعى ، قدس الله (١٨٩ آ) روحه ، ونور ضريحه ، مات ببيلة نوى ، ودفن بها .

(١) طرابلس الغرب : كذا في الأصل .

(١٠) ويعطى : وبعضا .

قلتُ : وكانت وفاة الشيخ محي الدين النواوى فى أوائل دولة الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس ، ولكن فاتنى إيرادها عن المحل المقصود ، لعذر أوجب ذلك ، من السهو .

٣

وكان مولد الشيخ محي الدين النواوى فى عاشر المحرم سنة إحدى وثلاثين وستائة ، وولد ببلدة نوى بدمشق ؛ وفيه يقول الشيخ زين الدين بن الوردى :

٦

لَقَيْتُ خَيْرًا يَانُوى وَوَقِيتُ مِنْ أَلَمِ النُّوى
فَلَمَقْدُ نُوَى بِكَ عَالَمٌ اللَّهُ أَخْلَصَ مَا نُوَى
وَعَلَا عِلَاهُ بِنُضْلِهِ فَضَلَ الْحُبُوبَ عَلَى النُّوى

٩

وقوله فيه أيضا :

أَيَا محي الدين صارت نوى لَهَا قِيَمَةٌ بِكَ بَيْنَ الْوَرَى
فَالْآنَ أَلَّا تَدْعَى الْكِبَا أَلَيْسَ قَابَتِ نُوَى جَوْهَرَا

١٢

قيل ، مات الشيخ محي الدين عن خمس وأربعين سنة ونصف سنة ، ومن مصنفاته كتاب « المنهاج » على مذهب الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، والعمل عليه الآن ، وكان من الأئمة المجتهدين .

١٥

وتوفى فى دولة قلاون: ابن المنير، وابن النجاس النحوى ، وغير ذلك من العلماء ، ممن تقدّم ذكره ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المنصور قلاون الألفى ، وذلك على سبيل الاختصار ، ولما مات قلاون تولى بعده ابنه خليل .

(١) قات : ابن إياس يعنى نفسه ، وقد كتب الفقرة التالية على هامش ص (١٨٨ ب) . ||

وفاة : وفات .

ذكر

سلطنة الملك الأشرف صلاح الدين خليل

ابن الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى

٣

وهو الثامن من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية؛ تولى الملك بعد أبيه، بعهد منه ، وجلس على سرير الملك يوم الأحد سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة، وكان مولده سنة ست وستين وستمائة .

٦

فلما تساطن، ركب بشعائر السلطنة، ونزل من القامة إلى الميدان الذى تحت القامة؛ وسبب ذلك فإن الأمراء ، لما تولى الأشرف خليل ، لم يطلع (١٨٩ ب) أحد منهم إلى القامة ، وخشوا من القبض عليهم ، فلما علم الساطن ذلك ، نزل إلى الميدان وهو بشعار الملك، وجلس بالميدان واستحلف له الأمراء قاطبة .

٩

ثم أخلع فى ذلك اليوم على سنجر الشجاعى ، واستقر به وزيراً ، كما كان فى حياة والده .

١٢

فلما تم أمره فى السلطنة ، تلقب بالملك الأشرف ، وباس له الأمراء الأرض ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ؛ وفيه يقول الأديب محمد بن غانم :

مليكان قد لقبا بالصلاح فهذا خليل وذا يوسف

١٥

فيوسف لا شك فى فضله ولكن خليل هو الأشرف

ثم إن الأشرف خليل عمل الموكب، فلما تكامل الأمراء قبض على الأمير طرنتاي، نائب السلطنة ، وكان بينه وبين الأمير طرنتاي عداوة قديمة ، من أيام والده ، والذى كان طرنتاي خائفاً منه ، وقع فيه ، فلما قبض عليه، ندم الأمير طرنتاي الذى ما قبض على الأشرف خليل وسجنه ، قبل أن يقبض عليه .

١٨

ثم إن الأمير طرنتاي أقام فى السجن ثلاثة أيام ، ثم أمر السلطان بنخفته ، فخنق تحت الليل وهو بالسجن فى القامة ، ففسل وكفن ، ونزل به تحت الليل ، فدفن فى

٢١

تربته التي بالقرافة الصغرى ؛ وقد نال الأشرف خليل من الأمير طرنتاي مقصده ،
فكان كما قيل :

٣ احذر من الناس ولا في معرك الشك تجل
في قلب ليث بت وخف إن يت في قلب رجل
وكان الأمير طرنتاي ديناً خيراً ، كثير (١٩٠ آ) البر والصدقات ، يحب فعل
٦ الخير ، وينقاد إلى الشرع ، ويقرب العلماء .

ثم إن السلطان رسم للشجاعى أن يحتاط على موجود الأمير طرنتاي ، فنزل إلى
بيته ، وما أبقي ممكناً في الأذى لجماعة طرنتاي ، فرسم على مباشرينه ، وعياله ،
٩ ونسائه ، وسراريه ، وجميع حاشيته من كبير وصغير ، وأحضر لهم المعاصير ، وعصر
جماعة منهم ، وقرّرهم على الأموال والذخائر ، فكان الشجاعى ينزل من القامة كل
يوم ، ويعاقب جماعة الأمير طرنتاي ، فظهر له من الأموال والتحف ما لا يسمع بمثله ،
١٢ فحمل ذلك إلى السلطان .

ثم إن السلطان عمل الموكب ، وأخلع على الأمير بدر الدين بيدرا ، واستقرّ
به نائب السلطنة ، عوضاً عن الأمير طرنتاي .
١٥ ثم إن السلطان أرسل خاف القاضي شمس الدين بن الساعوس ، وكان بمكة
من أيام الملك المنصور قلاوون ؛ قيل لما أرسل السلطان خاف ابن الساعوس ، كتب إليه
مرسوماً بالحنور ، وحشاه بخطه بقلم العلامة بين السطور يقول : « يا شقير ، جدّ
١٨ السير ، جاء الخير » .

وكان الأشرف خليل كثيراً ما يحشني بخطه في الراسيم بين السطور .
ومما حشاه أيضاً ، أنه قال في مرسوم أرسله إلى دمشق ، بإبطال ما كان يؤخذ
من المكس على التمع عند باب الجابية ، على كل أردب خمسة دراهم ، فكتب بخطه
٢١

(٨) ممكناً : ممكن . || مباشرينه : كذا في الأصل .
(١٥) ابن الساعوس : كذا في الأصل ، في هذا الموضع ، وكذلك في المواضع التالية التي
ورد فيها هذا الاسم .
(١٧) مرسوماً : مرسوم .

بين السطور : « وقد أمرنا بأن تكشف عن رعايانا هذه الظلامة ، ونستجاب بذلك الدعاء إلينا من الخاصة والعامة » ؛ فهو أول من حشا بخطه في المراسيم (١٩٠ ب) من الملوك ، ولم يفعل ذلك غيره من الملوك .

٣ فلما حضر شمس الدين بن الساموس من مكة ، جاء صحبة مبشر الحاج ، وقد جد السير .

٦ قلت : وكان أصل ابن الساموس من دمشق ، وكان تاجرا ، فجاء إلى مصر ، وكان له خط جيد فسعى عند الأشراف خليل ، وهو أمير في أيام والده قلاون ، فجعله ناظر ديوانه ، وصار يتجر له في الأصناف من البضائع نحو البلاد الشامية ، فيحصل له في كل سنة جملة مال من الفوائد ؛ فحظى ابن الساموس عند الأشراف خليل ، حتى صار نديمه ، لا يصبر عنه ساعة واحدة ؛ فلما بلغ الملك المنصور ذلك ، أمر بنفى ابن الساموس إلى مكة ، فأقام بها إلى أن مات المنصور قلاون .

١٢ فلما تسلم ابن الأشراف خليل ، أرسل خلفه بالحضور على يد نجاب ، فلما حضر ، استقرت به وزيراء عوضا عن الشجاعى ، وفوض إليه أمور الملكة ، يتصرف فيها حسبما يختار ، فكان إذا نزل من القامة ، نزل معه الأمراء ، وروس النوب بالعصى قدامه ، يفسحوا الناس ، وكانت القضاة الأربعة تركب قدامه كل يوم خميس واثنين ، إلى أن ينزل إلى بيته حسبما رسم له السلطان بذلك ؛ وكانت اقتصص تقرأ عليه ، فينفذ أمرها من غير مشورة السلطان .

١٨ ونال من العز والعظمة ، ما ناله جعفر البرمكى أيام الرشيد ؛ ثم صار ابن الساموس يبيت عند السلطان ، (١٩١ آ) ويقضى حوائج الناس من صعبها لسهولها ، كما قيل في المعنى :

٢١ ملك إذا قابلات بشر جبينه فارقته والبشر فوق جبينى
وإذا لثمت يمينه وخرجت من أبوابه ثم الملوك يمينى

(٦) قلت : ابن عباس يعنى نفسه .

(١٥) يفسحوا : كذا في الأصل .

ثم دخلت سنة تسعين وستمائة

- فيها جاءت الأخبار بأن ملك الفرنج ، صاحب عكا ، صار يقطع الطريق على المسافرين من المسلمين في البر والبحر ؛ فلما تحقق السلطان ذلك ، أمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن يخطب في جامع القامة ، ويحرض الناس على قتال الفرنج ؛ فابس السواد ، وخطب بالناس في جامع القامة خطبة بليغة في معنى ذلك .
- ثم إن السلطان عرض العسكر ، ونفق عليهم ، وخرج بنفسه إلى حصار عكا .
- فلما وصل إلى هناك ، نصب حول المدينة خمسة وسبعين منجنيقا ، وحاصرها حتى فتحها بالسيف ، يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من سنة تسعين وستمائة ؛ فلما افتتحها هدم سورها وقلعتها ، وكانت عكا من أجل المدائن ، وكانت بيد الفرنج .
- فلما خربت ، صار الناس ينقلون منها الرخام والأعمدة ؛ ومن جملة ما نقلوه البوابة الرخام الأبيض ، التي على المدرسة الناصرية ، التي بجوار البرقوقية ، وكان هذا الباب على كنيسة في مدينة عكا .
- وكان مدة حصار عكا نحو خمسة أشهر ، وقد استشهد في فتحها من الأمراء اثنا عشر أميراً ، ومن جملة ذلك : العزى ، (١٩١ ب) نقيب الجيوش المنصورة ، وهو صاحب سويقة العزى المعروفة به ؛ وقتل من المماليك السلطانية مائة وعشرون مملوكاً .
- ولما فتح عكا ، توجه إلى صيدا وبيروت ففتحهما تلك السنة ؛ وكان فتح عكا من أجل الفتوحات ، فإن الفرنج كانوا يشوشون على التجار ، يأخذون أموالهم ، ويقطعون الطريق على المسافرين في البر والبحر .
- فلما فتح الأشرف عكا ، رجع إلى الديار المصرية ، فزيت له ، وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ولاقته القضاة الأربعة من المطارية ، فدخل من باب النصر في موكب حفل .
- فلما وصل إلى البيمارستان ، نزل عن فرسه ، ودخل زار قبر والده ، ثم ركب ، وطاع إلى القامة ، فأخلع على الأمراء ونزلوا إلى بيوتهم .

قال الشيخ شرف الدين الأبوصيري، ناظم البردة : رأيت في المنام، قبل توجه الملك الأشرف إلى عكا بمدة ، قائلا ينشد هذه الأبيات :

٣ قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا
وساق ساطاننا إليهم خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت لا يتركوا للفرنج ملكا

٦ فلما انتبه الشيخ شرف الدين ، أخبر بهذه الرؤيا (١٩٢ آ) جماعة من أصحابه ، وكانت الرؤيا في شوال ، فخرج الملك الأشرف أواخر حرّم ، فكان الأمر كما قال الهاتف في المنام ؛ قال القاضي كاتب السرّ محي الدين بن عبد الظاهر :

٩ يا بني الأصغر قد حلّ بكم نعمة الله التي لا تنفصل
نزل الأشرف في ساحلكم فأبشروا منه بسك متصل

فلما فتح الأشرف عكا ورجع ، عظم أمره واستخفّ بالأمرء ، فأخذ في أسباب القبض على جماعة من الأمراء ، فقبض على الأمير لاجين ، الساحدار ، وكان نائب الشام ، فقبض عليه وأرسله من هناك إلى نهر الإسكندرية ؛ ثم قبض على الأمير سنقر الأشقر ، الذي كان تسانن بدمشق كما تقدّم ؛ وقبض على الأمير طقصوا ، والأمير جرمك ، وجماعة من الأمراء ، وسجنهم بقلعة الجبل .

١٢ ثم أرسل خلف الأمير لاجين ، الذي كان نائب الشام ؛ فلما تكاملوا سبعة من الأمراء ببرج الحية الذي بالقلعة ، فلما كان ليلة الأحد في العشرين من رجب ، أمر بخنق هؤلاء الأمراء السبعة ، فخنقوا تحت الليل .

١٨ فلما أرادوا دفنهم ، وجدوا الأمير لاجين ، نائب الشام ، فيه الروح ، فأخبروا السلطان بذلك ، فعطف عليه ، وأمر بالإفراج عنه ، ونزل إلى بيته .

٢١ قلت : ولاجين هذا ، تسانن بعد كتبنا ، سنة ست وتسعين وثمانية ، فكيف

(٢١) قالت : ابن إيّاس يعنى نفسه ، وقد تكرّر ذلك منه في عدة مواضع فيما يلي ، عندما يريد التعليق على بعض ما يذكره من أخبار .

كان يموت ، وقد أوعده الله تعالى أن يكون سلطان مصر ، فسبحان من لا يخلف
الميعاد ؛ فلما تعافى الأمير لاجين ، أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف ، ورسم له [أن]

يقيم بمصر .

ثم أفرج عن الأمير يسرى ، وسبب ذلك أن السلطان لما جاء من التجريدة
وشق القاهرة ، فوقف إليه أولاد الأمير يسرى عند (١٩٢ ب) المدرسة الكاملية ،

وكانوا ستة أولاد ذكور ، فلما جاز عليهم السلطان ، بأسوا له الأرض ، وكان فيهم
من هو مرضع ، فقال السلطان : « من هؤلاء » ؟ فقال له الأمراء : « هؤلاء أولاد
مملوكك يسرى » ، فرق لهم السلطان ، وقال : « يحصل الخير إن شاء الله » .

فلما طلع إلى القلعة ، وقبض على هؤلاء الأمراء ، وقتلهم ، فعند ذلك أفرج عن
الأمير يسرى ، وأنعم عليه بتقدمة ألف ، وأقام بمصر ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين [وستائة]

فيها جرد السلطان إلى نحو حلب ، وحاصر قلعة الروم ، ونصب حولها ثلاثة
وعشرين منجنيقا ، ففتحها بالسيف يوم السبت حادى عشر رجب من هذه السنة ،
وكانت بيد الأرمن ؛ ثم رجع السلطان إلى الديار المصرية ، وهذه التجريدة الثانية التي
خرج فيها بنفسه .

وفي هذه السنة ، أعنى سنة إحدى وتسعين وستائة ، فيها ، في رمضان ، توفى
الشيخ فتح الدين بن القاضي محيي الدين ، كاتب السر ، ابن عبد الظاهر ، توفى في
حياة والده ؛ وقد تفقه في الإنشاء ، وتقدم على والده في صنعة الإنشاء ؛ وكان مولده
بالقاهرة سنة ثمان وثلاثين وستائة ، وكانت وفاته بدمشق ؛ ولما بلغ القاضي محيي الدين
وفاة ولده ، رثاه بقوله :

فما ابن كثير الدمع إذ مات نافع ولا عاصم حزن عليك يحتم

(٢) تعافى : تماذا . || [أن] : تنفس في الأصل .

(٨) إن شاء الله : إنشاء الله .

(١١) [وستائة] : تنفس في الأصل .

خزانة علم قبره فلذا غدا بها كل يوم بالتلاوة يختم
 قيل ، لما مرض كتب إلى والده هذه الأبيات اللطيفة ، وشرح حاله بهذه الإشارة
 ٣ الفاريفة ، وهو قوله :

إن شئت تبصرني وتنظر حالي قابل إذا هبّ النسيم قبولا
 تلقاه مثلي رقة ونحافة ولأجل قلبك لا أقول عليلا
 ٦ (١٩٣ آ) فهو الرسول إليك مني ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا
 وما أحسن قوله : « ولأجل قلبك لا أقول عليلا » ، فيه ما يفتت الأكباد ،
 ويحرك الجناد ، انتهى ذلك .

٩ ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وستمائة

فيها خرج السلطان على حين غفلة ، وتوجه إلى نحو الكرك ، وهذه ثالث تجريدة ،
 فخرج بمفرده ، ورسم للأمرء بأن يلاقوه على دمشق ، فلما دخل الكرك ، أخلع على
 ١٢ الأمير آقوش ، واستقر به نائب الكرك .

ثم توجه إلى دمشق ، فأعرض العسكر هناك ، وعين منهم جماعة إلى نحو سيس ؛
 فلما وصلوا إلى هناك ، أرسل صاحب سيس يطلب من السلطان الأمان ، فأرسلت
 ١٥ الأمرء مكاتبات للسلطان بذلك ، فأرسل السلطان الجواب للأمرء : « إن سلم قامة
 تلّ حمدون ، وقلمة البهسنا ، وقلمة الرعش ، فأعطوه الأمان ، وإن لم يسلم هذه الثلاث
 قلاع ، فحاصروه » ؛ فلما جاء الجواب بذلك ، سلم صاحب سيس تلك القلاع الثلاث ،
 ١٨ وحصل الصلاح ، ورجع العسكر من غير قتال .

ثم إن السلطان أقام بدمشق مدة ، ثم توجه إلى حمص ، فأضافه الأمير مهنا
 ابن عيسى ثلاثة أيام ؛ ثم إن السلطان قبض عليه وعلى إخوته ، وولى الأمير على
 ٢١ ابن حديثه عوضا عنه .

ثم إن السلطان رجع إلى دمشق ، ورسم للأمير بيدرا ، نائب السلطنة ، أن
 يأخذ العسكر ويتوجه إلى القاهرة ، فامثل ذلك .

ثم إن السلطان أقام بدمشق بعد العسكر مدة ، وتوجه إلى مصر ، فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وزينت له القاهرة بالزينة الفاخرة ، وسار في موكب حفل حتى طلع (١٩٣ ب) إلى القلعة .

٣

وفي هذه السنة ، أعني سنة اثنتين وتسعين وستمائة ، فيها ، في رجب ، توفي القاضي كاتب السر محي الدين بن عبد الظاهر ، فكان بينه وبين وفاة ولده فتح الدين دون السنة ؛ وكان مولد القاضي محي الدين سنة عشرين وستمائة ، فكانت مدة حياته اثنتان وسبعون سنة ، ولما مات دفن بالقرافة الصغرى ؛ وهو أول من تسمى كاتب السر ، وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ، وله ديوان أدبيات كله غرر ومحاسن ، ومما ينسب إليه من التغزلات الرقيقة ، وهو قوله :

٩

لئن جاد لي بالوصل منه خياله وأصبح بجهودا رقيب ولائم
ألا إنما الأقسام تحرم ساهرا وآخر يأتي رزقه وهو نائم

١٢

ومن تضمينه البديع :

لقد قال لي إذ رحلت من خمر ريقه أحت كؤوسا من الذّ مقبل
بأثم شفاهي بعد رشف سلافها تنقل فلذات الهوى في التنقل

١٥

ولما توفي القاضي محي الدين ، تولى بعده القاضي تاج الدين بن الأثير ، وصار

صاحب ديوان الإنشاء بمصر .

وفي هذه السنة ، أعني سنة اثنتين وتسعين ، فيها توفي قاضي قضاة الحنفية معز

١٨

الدين النعمان ؛ وتولى بعده القاضي شمس الدين محمد السروجي الحنفي .

وفي هذه السنة ، في شعبان ، توفي الإمام الحافظ الأسعدي نور الدين علي ، ومن

لطائف مجونه قوله :

٢١

لما ثنى جيده لاسكر مضطجعا وهنّا ولولا شفيع الراح لم ينم
ديبت ليلا عليه بعد هجمته سكرّا فقالوا : ديب النور في الظلم

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وستمائة

فيها (١٩٤ آ) توجه السلطان إلى نحو البحيرة ، على سبيل التنزه ، فخرج في ثالث المحرم ، فلما وصل إلى هناك ، ضرب وطافه في مكان يعرف بالحمامات ، وهو غربي تروجة ؛ فأقام هناك مدة ثم قصد التوجه إلى نهر الإسكندرية ، فأرسل العاصب شمس الدين بن الساموس إلى نهر الإسكندرية ليجهز الإقامة ، لأجل قدوم السلطان . فلما دخل ابن الساموس إلى الإسكندرية ، وجد غلمان الأمير بيدرا ، النائب ، قد استولوا على البهار ، وأدخلوه الحواصل ، فحصل بين ابن الساموس ، وبين غلمان الأمير بيدرا ، تشاجر بسبب ذلك .

فأرسل ابن الساموس كاتب السلطان بما جرى له مع غلمان الأمير بيدرا ، وما قالوه ، وشرع يزيد على كل كلمة ، عشرة ، وأغلظ القول في حق الأمير بيدرا ، وأنخن جراحاته عند السلطان ، حتى حرّضه عليه . وكان ذلك سببا لروال مُلك الأشرف خليل ، « وربّ غشّ قد أتى من نصيح » ، وقد قيل في المعنى :

يا ناقلا إلى قول حاسدى لا ينبغى نقل الذى لا ينبغى

لا تؤذنى في حجة النصح فما أسمعنى سوء سوى مبلغى

ثم إن السلطان أرسل خلف الأمير بيدرا ، وقت الظهر ، فلما حضر بين يديه ، وبّخه بالكلام ، وقصد القبض عليه ، وتوعده بكل سوء ، فتلطف الأمير بيدرا في الكلام ، حتى خرج من بين يديه ، فاجتمع بخشداشينه من الأمراء ، واتفق رأيهم على قتله .

وكان الأشرف خليل مولما بالعيد ، فأعطى العسكر دستورا بالتوجه إلى القاهرة ، وخلا بنفسه ؛ فمضى العسكر ، وجماعة من الأمراء ، وبقي (١٩٤ ب) السلطان في نهر قليل من الممالك والخاصكية .

فلما كان يوم السبت خامس عشر المحرم ، ركب السلطان وانفرد وحده ، وليس

معه سوى أمير شكار ، أحمد بن الأشل .

فلما بلغ الأمراء ذلك ، ركب الأمير بيدرا ، والأمير لاجين ، والأمير قرا سنقر ،

والأمير بهادر ، وجماعة من المماليك السلطانية ، وشدوا في أوساطهم تراكيش ^٣ وسيوف ، وساقوا خلفه ، فوجدوا السلطان وحده ، وليس معه سوى أمير شكار ، وبعض مماليك جمدارية ، فقالوا : « هذا وقت انتهاز الفرصة » ، كما قيل :

وانتهز الفرصة إنَّ الفرصة تصير إن لم تنتهزها غصة ^٦

فلما رآهم السلطان قاصدينه ، أحسن بالشر ، وظهر له منهم الغدر ، فلما قربوا منه ،

عاجلوه بالحسام قبل الكلام ، فكان أول من بادر إليه بالحسام ، الأمير بيدرا ، النائب ،

فضربه بالسيف على يده ، فصاح عليه الأمير لاجين ، وقال : « ويلك ، الذي يريد ^٩ السلطنة يضرب هذه الضربة » .

ثم ضربه الأمير لاجين على كتفه بالسيف ضربة ، فوقع إلى الأرض ، فجاء إليه

الأمير بهادر ، رأس نوبة النوب ، ونزل عن فرسه ، وأدخل السيف في دبره ، وأطلمه ^{١٢}

من حلقه ، وصار كل أحد من الأمراء يظهر ما في نفسه منه ، وتركوه ميتاً في الفضاء ،

ملقياً على ظهره ومضوا ، وفيه يقول ابن حبيب :

تبّاً لأقوام بمالك رقبهم فتكوا وما رقبوا لحالة مترف ^{١٥}

(١٩٥ آ) وافوه غدرا ثم صالوا جملة بالمشرفي على المليك الأشراف

ثم إنَّ الأمراء رجعوا إلى الوطاق ، واشتدوا فيمن يولوه السلطنة ؛ وهذه

الواقعة تقرب من واقعة المظفر قطز مع الظاهر بيبرس البندقداري ؛ ثم إنَّ الأمراء ^{١٨}

تحالفوا أن يكونوا عصبة واحدة ، ووقع الاتفاق على سلطنة الأمير بيدرا ، النائب ،

فباس له الأمراء الأرض ، ولقبوه بالملك الأجد ، وقيل بالملك الرحيم .

ثم إنَّ الأمراء توجهوا إلى القاهرة ، وركب بيدرا تحت العصائب السلطانية ، ^{٢١}

وقبض على جماعة من الأمراء وقيدهم ، منهم : الأمير بيسرى ، والأمير بكتمر

(٧) قاصدينه : كذا في الأصل .

(١٢) النوب : النوبة .

السلحدار ، وغير ذلك من الأمراء ، وسار في موكبه إلى الطرانة .

فلما وصل الخبر إلى القاهرة بما جرى ، ركب العسكر قاطبة ، والأمراء الذين كانوا

٣ بمصر ، وخرجوا على حية ، فلما عدّوا من الجيزة ، ووصلوا إلى الطرانة ، تلاقى هناك الفريقان من العسكر ، فوقع بينهما هناك وقعة تشيب منها النواصي ، فانكسر بيدرا ، ورجع إلى تروجة ، وكان قد جمع من عربان البحيرة نحو خمسمائة فارس ، فلما انكسر ، تسحب من كان معه من العربان وغيرها .

٦ فلما توجه بيدرا إلى تروجة ، تبعوه المماليك الأشرفية ، فهرب نحو الجبل ، فقبضه جماعة من المماليك فقبضوا عليه ، وأحضروه بين يدي الأمير كتبنا .

٩ فلما رأوه المماليك الأشرفية ، قطعوه بالسيوف ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا كبده ، وصار كل أحد من المماليك يقطع منه قطعة ويأكلها ، من شدة قهرهم على أستاذهم الأشرف خليل .

١٢ ثم إن الأمير (١٩٥ ب) كتبنا حَزَّ رأس بيدرا وجعلها على رمح ، وأرسلها إلى القاهرة ، فطافوا بها ، ثم علّقوها على باب بيته .

١٥ ثم إن الأمير سنجر الشجاعى نادى أن أحدا من النواتية لا يعدى بأحد من العسكر ، الذين كانوا مع بيدرا ، واستمرت الأحوال مضطربة .

هذا ما كان من أمر بيدرا ، وأما ما كان من أمر الأشرف خليل ، فإنه أقام ملقيا في البرية ثلاثة أيام لم يدفن ، حتى أكل الذئب وجهه ويديه ورجليه ، وقد قيل فيه :

١٨ ألم ترَ أن الليث حقاً تناهشت ذئاب الفلا منه ذراعا وساعدا
فلا تمذلا يا صاحبي على الأسى وعينا على صرف الزمان وساعدا

(١٥٢) الذين : الذى .

(٣) تلاقى : تلاقا .

(٤) الفريقان : الفريقين . || وقعة : كذا في الأصل .

(١٧) ويديه ورجليه : ويداه ورجلاه .

(١٨) ألم تر : ألم ترى .

ثم إن أيدمر الفخرى ، والى تروجة ، حمل السلطان من هناك على جبل وأتى به إلى القاهرة ، ففسأوه وكفنوه وصلوا عليه ، ودفنوه في مدرسته التي أنشأها بالقرب من مشهد السيدة نفيسة ، رضى الله عنها .

وأما الأمير بيدرا ، فأخذت رأسه ، وما بقى من جثته ، ودفن في تربته التي أنشأها بالقرافة الصغرى .

وكان أول من أنشأ تربة بالقرافة الصغرى ، الأمير يلبنيا التركمانى ، ثم صارت الأمراء تنشىء بها توبا وخوانق جليلة ، ورغب الناس فى سكناها ، وذلك فى دولة الناصر محمد بن قلاون فى مبدأ سنة إحدى وسبعائة .

وكان من باب القرافة إلى تربة بيدرا ميدان واحد ، يتسابق فيه (١٩٦ آ) الأمراء بالخيول ، ويجتمع الناس هناك للتفرج على السباق ، وكان الشرط فى السباق ، من تربة الأمير بيدرا إلى باب القرافة ، انتهى ذلك .

وكان الأشرف خليل حسن الوجه ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، ضخيم الجسد ، كبير الوجه ، وكان مهابا فى أعين الناس ، كفوا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة ، وكان شجاعا بطلا ، مقداما وقت القتال ، خفيف الركاب ، يحب الحركة والأسفار ، وكان مسعود الحركات ، ولو طال عمره ، لفتح غالب بلاد العراق ، ولا يعرف فى أبناء الملوك من يناظره فى شدة العزم والشجاعة ، وقوة البأس .

وعلى هذا قد اتفق أرباب التواريخ فى ترجمته ؛ وكان يميل إلى شرب الراح ، وحب

الملاح ، وكان حسن الفهم ، يقظ الفكر .

وكان القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر يقول : ما رأيت ولا سمعت بأحسن من فهم الملك الأشرف خليل ، ولقد كنت أحضر بالمراسيم للعلامة ، فما كان يعلم على مرسوم قط ، إلا قرأه جميعه ، ويفهم ما فيه ، بل وكان يخرج علينا بأشياء كثيرة فى صنعة الإنشاء ، ونرى فيها الصواب منه ، ولقد تعاظم فى أمره ، حتى صار يكتب فى

(٩) يتسابق : تسابق .

(١٨) يقظ : ياقظ .

علامته على المراسيم ، حرف الخاء فقط ، إشارة إلى الحرف الأول من اسمه ، ومنع الموقعين أن يكتبوا لأحد من الأمراء والنواب « الزعيمى » ، وكان يقول : « من زعيم الجيوش غيرى » ؟ وله أشياء كثيرة من هذا النمط .

ولكن كان من مساوئه أشياء كثيرة ، منها : أنه قتل جماعة كثيرة من الأمراء والنواب ؛ ومن مساوئه أنه قرّب ابن (١٩٦ ب) السلجوس وجعله وزيراً ، وحكّمه في الناس ، فحصل منه الضرر الشامل .

ومن مساوئه أنه لما توجه إلى الكرك ، أخرج أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وها سلامش ، وأخاه سيدى خضر ، وكانا بالكرك من حين تولى قلاون ، فأخرجهما من الكرك وأرسلهما إلى القسطنطينية ، صحبة الأمير أيبك الموصلى ، وأمهاتهما معهما ؛ فلما وصلوا إلى القسطنطينية ، أكرمهم الأشكرى ، ملك الفرنج ، ورتب لهم ما يكفيهم من النفقة في كل يوم ، فأقاموا بها مدّة .

فأما سلامش فأدركته المنية هناك ، فمات ، فلما مات صبرته أمه وجعلته في سحلية ، إلى أن اتفق عودها إلى مصر ، فحملته معها ، ودفنته بالقرافة ، ومات وله من العمر نحو اثنتين وعشرين سنة .

وأما سيدى خضر ، فإنه عاد إلى مصر ، كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه ، انتهى ذلك .

وكانت قتلة الأشرف خليل يوم السبت بعد العصر ، خامس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وسبائة ، ومات وله من العمر نحو ثلاثين سنة ؛ وكانت مدّة سلطنته بالديار المصرية ثلاث سنين وثمانين وخمسة أيام .

وأما فتوحاته التى افتتحها في أيامه : عكا ، وصيدا ، ويبروت ، وعتليت ، وبهسنا ، وقامة الروم ، ومرعش ، وتلّ حمدون ، وصور .

(٢) أن يكتبوا : أن لا يكتبوا .

(٤) مساوئه : مساوئه .

(٢٠) التى : الذى .

وأما ما أنشأه من العمارات وهي : قاعة الأشرفية التي بالقامة ، والإيوان الأشرفي ،
والمدرسة التي بجوار مشهد السيدة نفيسة ، رضى الله عنها .

وكان (١٩٧ آ) منوما بمشترى المالك حتى قيل بانفت عدة ممالكه في هذه
المدّة اليسيرة ستة آلاف مملوك .

وفيه يقول الصفي الحلي من قصيدة ، وهو قوله :

يا أيها الملك الذي سطوانه حلمت بها الأعداء في يقظاتها
ملك تقرّ له الملوك بأنه إنسان أعينها وعين حياتها
شتت شمل المال بعد وفوره وجعت شمل الناس بعد شتاتها
وظهرت بالعدل الذي أمسى به في البيد يخشى ذنبها من شاتها

ولما قتل الأشرف خليل ، وقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة أخيه محمد ،
فسلطوه عوضاً عنه ، وتلقب بالناصر ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الأشرف
خليل ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

سلطنة الملك الناصر محمد

١٥ ابن الملك المنصور قلاوون

وهو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ بويع بالسلطنة بعد
أخيه الأشرف خليل ، يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ؛
وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو تسع سنين ، وكان مولده سنة أربع وثمانين
وستمائة ، وكانت أمه خوند أشلون بنت الأمير نسكاي .

فلما جلس على سرير الملك ، باس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الناصر ،
ونودي باسمه في القاهرة ، وضجّ له الناس بالدعاء ، ودقت (١٩٧ ب) له البشائر .
فلما تمّ أمره في السلطنة ، عمل الوكب ، وأخلع على من يذكر من الأمراء ،
وهم : الأمير كتبنا ، واستقرّ نائب السلطنة ، عوضاً عن الأمير بيدرا ؛ وأخلع على

- الأمير سنجر الشجاعى ، واستقرّ به وزيراً ، عوضاً عن ابن السلوس ؛ وأُخلع على
الأمير بيبرس الجاشنكير ، واستقرّ به أستاذاراً ، وكشف الكشاف .
- ٣ وفى ذلك اليوم ، طاف والى القاهرة برأس الأمير بيدرا ، وهى على رمح ، ثم
علّقت على باب القلعة ، ثم نقات وعلّقت على باب بيته ، ثم بعد أيام دفنت فى تربته
التي فى القرافة الصغرى .
- ٦ ثم إنَّ الأمير كتبنا أخذ فى أسباب القبض على جماعة من الأمراء الذين كانوا
سببا لقتل الملك الأشرف خليل ؛ فنزل الشجاعى وقبض على الأمير قفجق الساحدار ،
والأمير قرمش ، والأمير بورى ، والأمير لاجين جر كس ؛ والأمير مغلاوى السعوى ،
والأمير كرى الساقى ، وهو صاحب الحمام التي كانت بالمدايق ؛ فلما قبض عليهم
٩ قيدهم وسجنهم فى البرج الذى بالقلعة ، ثم إنّه قبض على جماعة من المالك السلطانية
وسجنهم بخزانة شمائل .
- ١٢ ثم إنَّ الأمير بيبرس الجاشنكير ، تولّى عقوبة هؤلاء الأمراء الذين كانوا فى
البرج ، وصار يقرّهم على من كان سببا فى قتل الأشرف خليل ، فمنهم من قرّ ومنهم
من لم يقرّ .
- ١٥ ثم إنَّ الأمير كتبنا رسم بقطع أيديهم وأرجلهم وسمرهم على جمال ، ثم (١٩٨٨ آ)
طاف بهم فى القاهرة ، والمشاغبة تنادى عليهم : « هذا جزاء من يقتل أستاذه » ،
وكان لهم فى القاهرة يوم مشهود ؛ ثم وسطوهم فى الرملة ، عند سوق الخيل .
- ١٨ ثم إنَّ الشجاعى قبض على صاحب شمس الدين بن السلوس ، واحتاط على
موجوده ، ورسم على أقاربه وعياله وحاشيته ، وصار يعاقب ابن السلوس كل ليلة ،
ويعصر أكمابه بالمعاصير ، حتى مات تحت الضرب ، وكانت وفاته يوم الأحد خامس
٢١ عشر صفر من سنة ثلاث وتسعين وستائة ، فذهب ماله ، وزال سلطانه ، وقد قيل
فى المعنى :

(٥) التى : الذى .

(١٢) الذين : الذى .

(١٧) مشهود : مشهود .

لا تفرحن بخير جاء من غايط فللزمان إساءات وإحسان
وكن من الدهر إن يصح على حذر فما تقدمت إلا وهو سكران

- ٣ قال الشيخ شمس الدين الذهبي : كان للصاحب شمس الدين بن الساموس أقارب
بالشام ، فلما صار إليه من الأمر ما صار ، أرسل خاف أقاربه ، فكلهم حضروا إلى
القاهرة ، إلا شخص من أقاربه يقال له زين الدين ، فإنه أبى من الحضور إلى مصر ،
٦ وخاف على نفسه ، وكتب إلى ابن الساموس ، وهو يقول له :

تنبه يا وزير الملك واعلم بأنك قد وطئت على الأفاعي
فكن بالله محتسبا فإني أخاف عليك من نهش الشجاعى

- ٩ فكان الفال بالملطق ، فما عن قريب حتى جرى عليه ما جرى ، ونهشه الشجاعى
أى نهش ، انتهى ذلك .

- وفي أيامه ظهرت أعجوبة ، وذلك أن شخصا من أهل القرى بنواحي الصعيد ،
١٢ خرج بثور له ليسقيه من البحر ، فلما شرب الثور وفرغ ، قال : « الحمد لله » ، فتعجب
منه صاحبه ، وأحكى ذلك لأصحابه ، فلم يصدقوه على ذلك .

- ثم خرج بالثور في اليوم الثانى ، فلما شرب من البحر ، قال : « الحمد لله » ؛ فلما
١٥ كان في اليوم الثالث ، اجتمع أهل القرية قاطبة ، فلما خرج الثور وشرب من البحر ،
قال : « الحمد لله » ، فسمعه الناس قاطبة .

- فتقدم إليه شخص من الحاضرين ، فقال له : « أيها الثور ، أنت تتكلم مثل
١٨ بنى آدم » ؟ فقال : « إن الله تعالى كان قد قدر على عباده أن الأرض تجذب سبع سنين ،
فشفع فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى زاد النيل ، ووقع الخصب في الأرض ،
وأن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قد أمرني أن أبلغ ذلك للناس » ، فقال له ذلك
الرجل : « وما معداق قولك أيها الثور » ؟ فقال : « معداق قولى ، أنى أموت
٢١ عقيب هذا اليوم » .

(٢) إن يصح : إن يصحو .

(س ٣٨٠ س ١١ - س ٣٨١ س ٣) وو أيامه . . . فاضى الناحية : كتبت في الأصل
على هامش س (١٩٧ ب) وس (١٩٨ آ) .

فلما مضى الثور إلى دار صاحبه ، فمات عقيب ذلك اليوم ، فتسامعت به أهل القرية ، فأتوا إليه وكفّنوه ودفنوه ، وكتب بذلك محضر ، وثبت على قاضي الناحية . ٣

وواقعة الثور المقدم ذكرها ، أوردها الشيخ جلال الدين الأسيوطي ، وذكر أنها وقعت في أوائل دولة محمد بن قلاوون ، في أثناء سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ، وأن السلطان وقف على المحضر الذي كتب ، وتعجب من هذه الواقعة ، انتهى ذلك . ٦
وفي هذه السنة ، أعني سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ، (١٩٨ ب) فيها ، في جمادى الأولى ، توفى الأمير أحمد بن موسى بن يغمور ، وكان من أعيان شعراء مصر ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله : ٩

سوداء بيضاء الشمائل حلوة معشوقة الحركات والألفاظ
مسكية مسكية أنفاسها هندية هندية الأحاظ
وكانت وفاته بالحملة ، ودفن بها . ١٢

وفيهما توفى الإمام الحافظ العلامة أبو القاسم عبيد بن محمد بن عياش الشافعي ، ولد سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة ، ومات في شعبان من تلك السنة .

ومن هنا نرجع إلى ما كنا فيه : ثم إن الشجاعى صار يستخف بالسلطان لصغر سنه ، فلما رأى الكلمة اجتمعت فيه ، وصار صاحب الحل والعقد في تلك الأيام ، حدثته نفسه بالسلطنة ، فصار يرى الفتن بين الأمراء ، وبين الأمير كتبنا ، نائب السلطنة . ١٨

وصار ينعم على جماعة من المماليك البرجية ، ونفق عليهم في الدس نحو ثمانين ألف دينار ، وقال لهم : « كل من قتل أميراً وجأ برأسه ، يأخذ إقطاعه وبركه وبيته » ، فصار العسكر فريقين ، فريق مع الشجاعى ، وفريق مع كتبنا . ٢١

فلما كان يوم الجمعة ثالث عشرين رجب ، وثب المماليك البرجية على الأمير كتبنا ،

(٦-٥) وواقعة . . . انتهى ذلك : كتبت في الأصل على هامش س (١٩٨ ب) .

(٧) وفي هذه السنة : آخر سطر في صفحة ١٩٨ آ .

وتوجهوا إلى بيوت الأمراء ، فركب الأمير كتبغا ، هو وخشداشينه ، وطلعوا إلى سوق الخيل ، وحاصروا القلعة أشد الحاصرة ، وقطعوا عنها الماء ، فنزل إليهم المالك البرجية ، وتحاربوا معهم في الرملة ، حتى كاد الأمير (١٩٩ آ) كتبغا أن ٣
ينكسر .

فجاء إليه الأمير يسرى ، والأمير بكتاش ، أمير سلاح ، والأمير بكتوت العلای ، والأمير أيبك الموصلی ، والأمير آقسنقر ، والأمير بلبان الحسنی ، وغير ذلك من الأمراء ٦
العشراوات ، والممالك السلطانية .

فكان بينهم وبين المالك البرجية وقعة قوية ، فلم تكن إلا ساعة يسيرة ، وقد انكسرت المالك البرجية ، وطلعوا إلى القامة مهزومين ، وكانوا يسكنون في الأبراج ٩
التي بالقلعة ، وكانوا نحو أربعة آلاف وسبعمائة مملوك .

فلما تزايد أمر الفتنة ، نزلت خوند أشاون ، أم الملك الناصر ، إلى باب السلسلة ، وأرسلت خلف الأمير كتبغا ، وتحدثت معه من أعلا السور ، وقالت له : « إيش آخر ١٢
هذه الفتنة ؟ إن كان قصدك خلع ابني من السلطنة فافعل ، وارسله في مكان تقصده » .
فقال لها كتبغا : « أعوذ بالله السميع العليم ، والله لو بقي من أولاد أستاذنا بنت عمياء ، ما خرّجنا الملك عنها ، وإنما قصدنا ملك الشجاعی الذي يرى بيننا الفتن » . ١٥
فلما رأوا عصبية الشجاعی أن الكسرة عليهم ، صاروا يتسحبون من القامة ، وينزلون إلى عند الأمير كتبغا .

فلما رأى الشجاعی عين الغلب ، أرسل يطلب من الأمير كتبغا أمانا لنفسه ، ١٨
فلم يعطه كتبغا أمانا ، ولا وافقه على ذلك أحد من الأمراء .

ثم إن الشجاعی دخل عند السلطان وقت الظهر ، فقال له السلطان : « يا عمی
إيش آخر هذا الحال الذي أنتم فيه » ؟ فقال له الشجاعی : « هذا كله لأجلك يا ابن ٢١

(٨) وقعة : كذا في الأصل .

(١٠) التي : الذي . || مملوك : مملوكا .

(١٩) فلم يعنه : فلم يعطيه .

أستاذى ، فإنهم يقصدوا خلعك من السلطنة ، ويمسكونى أنا » ، فقال له السلطان :
« يا عمى ، أنا أعطيتك نيابة حاب ، واخرج روح (١٩٩ ب) عنهم واستريح من
هذا الحال كله » . ٣

فلم يوافق الشجاعى على ذلك ، وأغاظ على السلطان فى القول ، فقام إليه جماعة
من المماليك الذين حول السلطان ومسكوه ، وقيدوه ، وأرسلوه إلى البرج .
٦ فبينما هو فى أثناء الطريق ، خرج عليه جماعة من المماليك الأشرفية ، قطعوا رأسه ،
وكان الذى قطع رأسه شخص من المماليك يسمى بهاء الدين أقوش ، فلما قطع رأسه ،
وضعهما فى فوطه حرير ، وأرسلها إلى الأمير كتبها .

٩ فلما وصل الذى معه الرأس إلى باب القامة ، قالوا الممالك البرجية ، الذين هم من
عصبة الشجاعى : « ما معك فى هذه الفوطه » ؟ قال : « خبز سخن أرسله السلطان
للأمراء ، ليعلموا أن عندنا الخبز كثير » ، فتركوه حتى مضى ونزل من القامة ،
١٢ ولو علموا أن معه رأس الشجاعى لقتلوه أشر قتلة ؛ فلما نزل إلى الرملة ، وضع رأس
الشجاعى بين يدى الأمير كتبها ، فلما تحققوا الأمراء قتله ، توجه كل أحد منهم
إلى بيته ، وخذت الفتنة .

١٥ ثم إن الأمير كتبها رسم بأن تعلق رأس الشجاعى على رمح ، ويطاف بها مصر
والقاهرة ، فطافوا بها وهى على رمح طويل ، والمشاغلية تنادى عليها : « هذا جزاء
من برى الفتن بين الملوك » .

١٨ وكان أكثر الناس يكرهون الشجاعى من ظلمه ، فصاروا يعطوا المشاغلية شيئا
من الفضة ، يأخذون منهم رأس الشجاعى ، ويدخلون بها عندهم فى الدار ، ولا يزالون
يصنعونها (٢٠٠ آ) بالنعال والقباقيب حتى يشتفوا منه ؛ فدخلوا بها حتى حارة زويلة ،
٢١ وصار اليهود يدخلون بها عندهم ويعصمون بها بالنعال ، وربما قيل كانوا يبولون عليها .

(١) يقصدوا : كذا فى الأصل .

(٩ و ٥) الذين : الذى .

(١٨) يملأوا : كذا فى الأصل . || المشاغلية : المشاغلى .

(٢١) وربما : ورب ما .

فأقاموا يطوفون بها ثلاثة أيام متوالية ، حتى قيل إن المشاعلية كانت معهم برنية خضراء ، يحصلون فيها ما يدخل عليهم من الناس ، من فضة وفلوس ، فقيل إنهم ملأوا تلك البرنية فضة ثلاث مرات ؛ ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الوقائع الغريبة .

وكان الشجاعى رجلا طويلا ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، أزرق العينين ، روى الجنس ، ظالم الصورة ، عنده قسوة زائدة ، إذا ظفر بأحد لا يرحمه ، فلما قتل ، لم يرث له أحد من الناس قاطبة ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تفعل الشر فتسمى به وافعل الخير تجازى عليه

أما ترى الحية من شرها يقتلها من لا أساءت إليه

فلما قتل الشجاعى خمدت الفتنة ، وطلع الأمراء إلى القلعة ، وعرضوا المالك

البرجية ، فكانوا نحو أربعة آلاف وسبعائة ، فرسم لهم الأمير كتبنا أن ينزلوا

من القلعة ، وسكنوا فى الأبراج التى فى سور القاهرة ، خاف البرقية ، فنزلوا من

القلعة وسكنوا بها ، ورتب لهم ما يكفيهم فى كل يوم ، وشرط عليهم أنهم لا يركبوا ،

ولا يخرجوا من الأبراج .

ثم إن الأمير كتبنا قبض على جماعة من الأمراء ، ممن كان من عصبة الشجاعى ،

وهم (٢٠٠ ب) : الأمير بيبرس الجاشنكير ، الأستاذار ، والأمير اللقانى ، أمير

آخور كبير ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات ، فقيدهم ، وأرسلهم إلى السجن بشعر

الإسكندرية .

ثم أفرج عن جماعة من الأمراء ، وهم : الأمير قفجق الساجدار ، والأمير عبد الله ،

حامل الجتر ، والأمير قرمش ، والأمير بورى ، والأمير لاجين جرکس ، والأمير

منلطاي السعوى ، والأمير كردى الساقى ، والأمير عمر شاه الساجدار ،

(١) يطوفون : يمشون .

(٧) لم يرث : لم يرث .

(١٢) التى : الذى .

(١٩) ففجق : ففجق .

وهو صاحب القنطرة التي عند درب الشمسي ؛ فلما حضروا أخلع عليهم وأعادهم إلى وظائفهم وإماراتهم .

٣ ولما قتل الشجاعى ، أخلع السلطان على الصاحب تاج الدين بن الصاحب نخر الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنا ، واستقرّ به وزيراً ، عوضاً عن سنجر الشجاعى ، بحكم قتله كما تقدّم .

٦ قالت : والصاحب تاج الدين هذا ، هو الذى اشترى الآثار الشريف النبوى ، وكان هذا الآثار عند جماعة من بنى إبراهيم بالينبع ، فتلطّف بهم حتى اشتراه منهم بستين ألف درهم فضّة ، وحمله إلى مصر ، فأودعهم أولاً فى رباط الأفرم ، المطلق على بركة الحبش ، ثم إنّه أنشأ مسجداً مطلاً على بحر النيل ، وتقلّ إليه الآثار الشريف ، واستمرّ به مدّة طويلة ، وكانت الناس تقصد الزيارة إليه فى كل يوم أربعاء .

٩ فلما تلاشى أمر ذلك المكان ، وصار مقطع طريق ، واستمرّ على ذلك إلى سنة تسع وتسعمائة ، فنقله الملك الأشرف قانصوه الغورى إلى مدرسته ، التى أنشأها فى الشرايشين ، كما سيأتى ذكر ذلك (٢٠١ آ) فى موضعه .

١٥ وكان نقله عن مكانه غير شرط الواقف ، وقد ذكر نقله أيام الشيخ أمين الدين الأقصر اى رحمة الله عليه ، فلم يوافق على نقله من مكانه ، وقال : « ما نتبع فى ذلك إلا شرط الواقف » ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وستمائة

١٨ فيها ، فى يوم عاشر المحرم ، ركب جماعة من المماليك الأشرافية تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة ، وهجموا على اصطبلات الناس ، وأخذوا خيولهم ؛ فلما طلع النهار ، أرسل الأمير كتبنا قبض على من فعل ذلك من المماليك ، وقطع أيديهم ، وطاف بهم القاهرة ، ثم صلبهم على بابى زويلة ، ووسط منهم جماعة ، وكان الذى فعل ذلك نحو ثمانية مملوك .

(١٨) عاشر : عشر .

(٢٢) مملوك : مملوكا .

فلما اضطربت الأحوال ، اجتمعت الأمراء ، وضربوا مشورة في أمر المملكة ، وقالوا : إن السلطان صغير السن ، وطمع فيه المالك ، ومن رأى أن يتولى المملكة سلطان كبير من الأتراك ، لقمع المالك والعربان .

فوقع الاتفاق على سلطنة الأمير كتبنا ، فأرسلوا خاف القضاة الأربعة ، وخاعوا الملك الناصر من السلطنة ، وولّوا كتبنا ، وباعه الخليفة .

فكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد في هذه المرة الأولى ، أحد عشر شهرا ٦ وأياما ، ثم يعود إلى السلطنة ثانيا مرة ، كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر محمد بن قلاون ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

سلطنة الملك العادل زين الدين كتبنا

ابن عبد الله المنصوري

وهو العاشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ (٢٠١ ب) بويغ بالسلطنة ١٢ بعد خلع الملك الناصر محمد بن قلاون ، يوم السبت حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة ، وتلقب بالملك العادل ، وجلس على سرير الملك ، وبأس له الأمراء الأرض ، ونودى باسمه في القاهرة ، وضجّ له الناس بالدعاء . ١٥

قلت : وكان أسله من سببايا التتار ، أخذه الملك المنصور قلاون في وقعة حمص الأولى ، سنة تسع وخمسين وستمائة ، فصار من جملة المالك السلطانية ، ثم بقى خاصكى ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير طبليخاناة ، ثم بقى مقدّم ألف ؛ فلما قتل الأشرف خليل وتولى أخوه محمد ، جعله نائب السلطنة ، عوضا عن بيدرا ، ثم بقى سلطان مصر .

فلما جلس على سرير الملك ، أخلع على الأمير لاجين ، واستقرّ به نائب السلطنة ، عوضا عن نفسه ؛ وكان الأمير لاجين من جملة من تواطأ على قتل الأشرف خليل ،

فلما قتل بيدرا ، هرب لاجين ، واختفى في مئذنة جامع أحمد بن طولون ، فأقام بها مدة طويلة ؛ ثم إن الأمير كتبنا شفيع فيه عند الملك الناصر ، وقابل به ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف ، فلما تسلمنا كتبنا ، جعله نائب السلطنة ، وفوض إليه أمور الماسكة . ٣
ثم أخلع على الأمير بهادر ، وجعله حاجب الحجاب ؛ وهو أول من أحدث هذه الوظيفة ، وجعلها وظيفة كبيرة ، ولم يكن قبل ذلك شيء يقال له حاجب الحجاب ، فعظم أمرها من يومئذ . ٦

ثم إن العادل كتبنا صار ينعم على جماعة من خشداشينه بتقدم ألوف ، حتى (٢٠٢ آ) تقوى شوكته ، ويروج أمره ، وتصير له عصابة ، فالتفت عليه جماعة من الأمراء ، وتعصبوا له ، فراج أمره في السلطنة ، وثبتت قواعده ، وصار له حلف من الأمراء والماليك السلطانية . ٩

وفي هذه السنة ، أوفى النيل في السادس من أيام النسيء ، وكسر ، فبلغت الزيادة في تلك السنة ستة عشر ذراعا وسبعة عشر أصبعاً ؛ ثم انهبط ، ولم يثبت ، فشرقت البلاد بسببه . ١٢

ولما تولى العادل كتبنا ، عزل صاحب تاج الدين بن حنا ، من الوزارة ، واستقرّ بفخر الدين عمر بن عبد العزيز بن الخليلي ، وزيراً ، عوضاً عن تاج الدين ابن حنا . ١٥

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وستمائة

فيها ، في ليلة الجمعة ثامن ربيع الآخر ، توفي الشيخ الزاهد الناسك ، سيدي فتح الأسمر ، رحمة الله عليه ، وهو فتح بن عثمان بن عبد الله الأسمر التكروري المراكشي ، قدم من مراكش إلى نثر دمياط ، على سبيل التجريد ، وكان يسقي الماء بدمياط في الأسواق ، احتساباً لله ، من غير أن يأخذ من أحد شيئاً . ٢١

(١) مئذنة : مادنة .

(١١-١٣) وفي هذه السنة . . . بسببه : كتبت في الأصل على هامش ص (٢٠١ ب) .

(١٩) فتح : طاع .

وكان يلازم الصلاة في المسجد مع الجماعة ، وكان لا يرى إلا وقت إقامة الصلاة ،
فإذا سأم الإمام ، عاد إلى انعكافه ؛ وأشار عليه الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد بالتزوّج ،
فتزوّج قرب موته ، ورزق ولدين ؛ وكان لا يقبل من الناس شيئاً .

وجدّد عمارة مسجد الفتح بدمياط ، وكان خراباً منذ سنين ، فبناه على سبيل
التجريد ، وساعدته الناس على بنائه ؛ ولما مات ، دفن بجوار مسجد الفتح .

وكان ساوكة على طريقة السلف في التمسك بالكتاب والسنة ، وكان له كرامات
خارقة ، وكان يبذل جهده في كتم حاله ، والله تعالى يظهر خيره وبركته للناس ؛ وقبره
في دميّاط يزّار إلى يومنا هذا ، والدعاء عنده مجاب ، قال الشهاب المنصوري
(٢٠٢ ب) :

لعمرك ما دميّاط إلا حبيبة تهيم الورى منها بأحسن منظر

وذات جمال إن تبسم ثفرها تبسم من معناه عن عقد جوهر

لما ناظر منه تصول بأبيض وتلعن من فتح القوام بأسمر

وفي هذه السنة أيضاً ، كانت وفاة الشيخ سراج الدين عمر الوراق ، الشاعر الماهر ،
وكان من فحول الشعراء ، وله شعر جيّد معين له على أغراضه ، وكان لقبه قابلاً
للتنسكيت ، حتى قيل له : « لولا لقبك ومناعتك ، لذهب غالب شعرك » ، وكان
مولده سنة خمس عشرة وستائة ، ووفاته في هذه السنة ، وهي سنة خمس وتسعين
وستائة ، فكانت مدّة حياته ثمانين سنة .

وقد عاصر ابن سناء الملك ، وأبا الحسين الجزّار ، والنصير الحمّامى ، وناصر الدين
حسن بن النقيب ، وشمس الدين بن دانيال الحكيم ، والقاضى محيى الدين بن عبدالظاهر ،
وأدركه الشيخ جمال الدين بن نباتة في أواخر عمره ؛ وله ديوان في الأدبيات ، يشتمل
على سبعة مجلدات في القطع الكامل ، يسمى « لمع السراج » .

قيل إن الشيخ نصير الدين الحمّامى قال للسراج الوراق : « عملت قصيدة في
الصاحب تاج الدين السبكي ، وأشتهى أن تشنى عليها إذا قرئت بحضرتك » ، فلما

أنشدنا الفصير الجمامى بمحضرة السراج الوراق ، فأنشد السراج الوراق على الفور
(٢٠٣ آ) ارتجالاً :

- ٣ شافنى للفصير شعر بديع ولمشلى فى الشعر نقد بصير
ثم لما سمعت باسمك فيه قلت نعم المولى ونعم الفصير
ومما وقع للسراج ، أنه اجتمع هو وأبو الحسين الجزار ، فى مجلس بهض الرؤساء ،
٦ فقام أبو الحسين الجزار إلى الخلاء ليقتضى حاجة ، فقام السراج الوراق بين يديه بالشمعة ،
فقال أبو الحسين : « إنا تعودنا ما نخرأ إلا على السراج » ، فقال السراج : « قد آليت
على نفسى أن لا أتيل علقاً قط » ، وكانت دقة السراج الوراق ، أقدم من دقة
٩ أبى الحسين ؛ ومما ساعد السراج الوراق فى شعره ، من لقبه وصناعته ، وهو قوله :
واخجأتى وصحائفى سوداً غدت وصحائف الأبرار فى إثمراق
وموبخ لى فى القيامة قائل أكذا تكون صحائف الوراق
١٢ وقوله أيضاً :
- إلهى لقد جاوزت سبعين حجة فشكراً للهماك التى ليس تكفر
وعمرت فى الإسلام فازددت بهجة ونوراً كذا يبدو السراج المعمر
١٥ وعمم نور الشيب رأسى فسرّنى وما سأنى أن السراج منور
انتهى ذلك ؛ وفيه يقول أبو الحسين الجزار :
- إنّ السراج نسيم الريح يوقظه إلى فوائد كالإبريز تنقد
١٨ تزيد الريح انتقاداً لفكرته وما رأينا سراجاً فى الهوى يتد
وفى هذه السنة ، أعنى سنة خمس وتسعين وستائة ، فيها توفى الشيخ فخر الدين
والد الشيخ تقي الدين بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى الحنبلى ، توفى
٢١ فى صفر من تلك السنة .

ومما وقع فى هذه السنة من الحوادث العظيمة ، أن الطاعون وقع بمصر وأعمالها ،
واشتد الأمر جدّاً (٢٠٣ ب) حتى صار الناس يتساقطون موتى فى الطرقات ، من

نساء ورجال وأطفال ، حتى فنى من أهل مصر نحو الثالث .

قال الإمام أبو شامة فى تاريخه : إن الملك العادل كتبنا ، كفّن من ماله ، فى

مدة يسيرة ، من مات من الغرباء فى الطرقات ، نحوا من مائتى ألف وسبعين ألف ٣
إنسان ، حتى جافت منهم الطرقات والحارات والأزقة ، وصار الرجل يكون ماشيا
فيقع ميتا فى الحال عن دابته ، أو ماشيا ؛ وقد قال المعمر :

٦ يا طالبا للموت قم واغنم هذا أواب الموت ما فاتنا

قد رخص الموت على أهله ومات من لاعمره ماتا

وتوفى فى هذه السنة ، فى سؤال ، الشيخ سحنون المالكي ، شيخ القراءات ،

وكان علامة فى عصره . - وتوفى فيها أيضا الشيخ عبد البارى الصعيدى ، وكان ٩
أحد العالخين بمصر ، وكان شيخ القراءات .

وفىها ، فى ذى القعدة ، توفى الإمام العالم ، العامل العلامة ، البارع الوارع ، الناسك

الزاهد ، أبو محمد عبد الله بن أبى جرة ، المالكي المذهب ، مات بمصر ، ودفن بجوار ١٢
تربة الشيخ تاج الدين بن عطا الله ، رضى الله عنهما .

وهو الذى جمع الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، التى

تقرأ عند قبره فى أول يوم من السنة ، فتجتمع الناس هناك ، ويفتتحوا العام بزيارته ، ١٥
ويسمعوا ما جمعه من الأحاديث الشريفة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة

١٨ فيها وقع من الحوادث (٢٠٤ آ) العظيمة ، أن النيل بلغت زيادته إلى أول توت

خمسة عشر ذراعا وثمانية عشر أصبعا ، ثم انهبط ، ولم يزد بعد ذلك شيئا ، فشرقت
البلاد ، ووقع الغلاء بمصر وأعمالها ، وانتهى سعر القمح إلى مائة وسبعين درهما ،

وانتهى سعر الشعير إلى مائة وعشرين درهما كل أردب ، وكذلك القول ، وبلغ ٢١

(١٠) أحد : إحدى .

(١٥) تقرأ : تقرأ .

(١٥ - ١٦) ويفتتحوا . . . ويسمعوا : كذا فى الأصل .

(٢١) وكذلك : وكذلك .

الرطل اللحم إلى سبعة دراهم ، وأبيع الفروج بخمسة عشر درهما ، وأبيعت البيضة
الواحدة بأربعة دراهم ، وأبيعت التفاحة والرمان والسفرجلة كل واحدة منهم بثلاثين
درهما ، وأبيعت القطعة السكر بثقلها فضة . ٣

فلما اشتد الأمر على الناس ، أكلوا القلط والكلاب والحمير والبغال والخيول
والجمال ، ولم يبق عند أحد شيء من الدواب ، حتى قيل أبيع كل كلب بخمسة دراهم ،
وكل قط بثلاثة دراهم ؛ وقد عمّ هذا الغلاء سائر البلاد الشامية ، حتى مكة والمدينة . ٦
ولطف الله تعالى بأهل مصر ، فأرسل عليهم جرادا كثيرا ، فأكل منه الناس
قائمة ، وصار يباع منه كل أربعة أرطال بدرهمين ، وحصل به غاية النفع للناس ؛
واستمرت هذه الشدة على الناس سنة كاملة ، حتى حضرت لهم غلال كثيرة من بلاد
الفرنج وغيرها ، ووقع الرخاء ، كما قيل في المعنى : ٩

قل لمن يحمل همّا إن هذا لا يدوم

مثامنا تنفى السرّا ت هكذا تنفى الموموم

١٢

نقل ذلك ابن أبي حجلة في كتاب « السكردان » .

وفيها ، أعنى هذه السنة ، خرج السلطان كتبنا إلى نحو البلاد الشامية ، لأمر
أوجب ذلك ؛ فلما دخل الشام ، (٢٠٤ ب) نزل بالميدان ، وحكم بين الناس ، ولعب
هناك الأكرة ، وصلى الجمعة بدمشق ، وأقام بها أياما ، وعزل من عزل ، وولى من
ولى ، واستقامت أموره ، فعند ذلك قصد العود إلى الديار المصرية . ١٥

فلما رحل من دمشق ، ووصل إلى وادي الفحمة ، فوقع بين الأمير لاجين ،
نائب السلطنة ، وبين جماعة من الأمراء ، تشاجر بسبب فشروى ، لا له أصل ، فبادر
الأمير لاجين ، وقبض هناك على جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير بتخاص العادل ،
والأمير بكتوت الأزرق ، وغير ذلك من الأمراء ، وكان هذان الأميران جناحى ٢١
الملك العادل كتبنا .

(٢٠١) وأبيعت : وأبيعت .

(٥) ولم يبق : ولم يبق . ١١ شى : شبتا .

فلما جرى ذلك ، رجع كتبنا إلى دمشق في ثور قليل من العسكر ؛ فلما دخل دمشق ، احتوى الأمير لاجين على خزائن المال ، وركب تحت العنائب السلطانية ، وقصد التوجه إلى مصر ؛ وأما العادل كتبنا لما رجع إلى دمشق ، أقام بقاعة دمشق ، ٣ وأطاعه عسكر دمشق ، وتعصبوا له .

فما عن قليل حتى جاءت الأخبار من القاهرة بأن لاجين قد تسلطن ، وتلقب بالملك المنصور ؛ فعند ذلك تلاشى أمر العادل كتبنا ، وانتقلت عنه الناس ، وانحلت ٦ برمه .

فأقام على ذلك أياما ، ثم حضر إلى دمشق الأمير حسام الدين لاجين ، أستاذار العالية ، وعلى يده مراسيم شريفة لقضاة دمشق ، وللأمرء الذين هناك ، بأن يجتمعوا ٩ في دار السعادة ، وقرأوا مراسيم السلطان لاجين على الملك العادل كتبنا .

فحضر القاضي بدر الدين (٢٠٥ آ) بن جماعة الشافعي ، وبقية القضاة ، وطلبوا الملك العادل كتبنا ، فحضر ، وقرأوا عليه مراسيم السلطان لاجين ، بأن يخلع نفسه ١٢ من السلطنة ، ويتوجه إلى صرخد ، ويقيم بها ، وله ما يكفيه من النفقة في كل يوم ؛ فأجاب بالسمع والطاعة ، وخرج من يومه إلى صرخد وهو معزوز مكروم ، ومعه عياله ومماليكه وغلماؤه وبركه ، وتوجه إلى صرخد فأقام بها . ١٥

فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ، إلى أن خلع من السلطنة ، سنة وعشرة أشهر إلا أياما ، واستمرّ مقبلا بصرخد إلى سنة تسع وتسعين وسبائة .

فلما عاد الملك الناصر محمد بن قلاون إلى ملكه ثاني مرة ، أنعم على الملك العادل ١٨ كتبنا بممالة حماة وأعمالها ؛ وكان الناصر محمد يميل إلى كتبنا ، دون مماليك أبيه . واستمرّ كتبنا في حماة إلى أن مات بها ، وكانت وفاته في ليلة عيد النحر من سنة اثنين وسبعمائة ، في دولة الناصر محمد بن قلاون ، ودفن بحماة ، ثم نقل من بعد ٢١ ذلك إلى دمشق ، ودفن بسفح جبل قاسيون .

وفي أيام العادل كتبنا ، في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين وستمائة ، توفي قاضي
قضاة الشافعية ، تقي الدين عبد الرحمن بن القاضي تاج الدين بن بنت الأعز ، وقد أقام
قائما بمصر نحو عشر سنين ونصف .

ولما مات تقي الدين ، أخلع السلطان كتبنا على الشيخ تقي الدين أبي الفتح محمد
ابن مجد الدين علي بن وهب بن مطيع القشيري القوصي ، المعروف بابن دقيق العيد ،
رضي الله عنه ، فاستقر قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية ، (٢٠٥ ب) عوضا عن
تقي الدين بن بنت الأعز .

قال السبكي في «الطبقات» : لما تولى ابن دقيق العيد ، تولى على كره منه ، وعزل
نفسه عن القضاء غير مرة ، وكان السلطان كتبنا ، والسلطان لاجين ، يقبل يده على
اللاحم ، كلما طلع إليه ، فلم يلتفت له ؛ ولما تولى أخلع عليه خلعة حرير مخمل ، وكانت
هذه عادة خلع القضاة ، وغيرهم من أرباب الوظائف ، فامتنع الشيخ من لبس الحرير ،
وقال : « هذا حرام لا يجوز لبسه » ، وأمر أن تكون خلع القضاة من الصوف ،
فاستمرت من يومئذ خلع القضاة صوفا إلى الآن ، انتهى ذلك .

وفي هذه السنة ، أعني سنة ست وتسعين وستمائة ، انتهت زيادة النيل إلى خمسة
عشر ذراعا وثمانية أصابع ، ثم انهبط ، ولم يوفى فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء بمصر .
وكان الملك العادل كتبنا ، قصير القامة ، أسمر اللون ، أجروء اللحية ، وكان
موصوفا بالشجاعة ، وكان ديننا خيرا ، قايل الأذى ، سليم الباطن ، ومات وله من
العمر نحو ثلاثة وستين سنة .

ومن صفاء ذمته ، كان سببا لخلاص الأمير لاجين من القتل ، وشفع فيه عند الملك
الناصر من القتل ، لأن لاجين كان ممن تعصب في قتل الأشراف خليل ، فلما تسلطن
كتبنا جعله نائب السلطنة ، وفوض إليه أمور المملكة .

وكان لاجين باغيا على كتبنا ، وخافه من السلطنة من غير موجب ، وكان

(٧) تقي الدين بن : تقي الدين بن بن .

(١٥) أصابع : أمبعا .

(٢٢) باغيا : باغى .

لاجين يظهر لكتبنا محبة ، وهو في الباطن بخلاف ذلك ، كما قد قيل في المعنى :

والخلّ كلما بُدِىَ لى ضائرهُ مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك العادل كتبنا ، (٢٠٦ آ) وذلك على سبيل الاختصار ؛ ولا خلع كتبنا ، تولى عوضه لاجين ، انتهى ذلك .

ذكر

سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين

ابن عبد الله المنصورى

وهو الحادى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ بويغ بالسلطنة ،

وخلع الملك العادل كتبنا من السلطنة ، لما دخل لاجين إلى القاهرة ، فجلس على سرير الملك ، وتلقب بالملك المنصور ، وباس له الأمراء الأرض ، ونودى باسمه في القاهرة ، وضجّ له الناس بالدعاء ، ودقّت له البشار في القلعة .

قال الإمام أبو شامة : كان عادة السلاطين ، يوم يكتب لهم التقليد بالسلطنة ، يركب السلطان ، ويشقّ القاهرة ، وهو لابس خامة السلطنة ، الجبة السوداء ، والعمامة السوداء المدوّرة ، والسيف البداوى ، مقلّد به ، فيشقّ القاهرة في هذه الأبهة ، والوزير حاملا التقليد على رأسه في كيس حرير أسود ، والأمراء وأرباب الدولة مشاة بين يديه ، حتى يطلع إلى القلعة في ذلك الموكب العظيم ، ويكون يوما مشهودا ، فبطل ذلك .

فلما تسلطن لاجين شقّ القاهرة ، وهو في هذه الأبهة على ما ذكرناه ، فجاء في

ذلك اليوم مطر عظيم ، واستمرّ المطر سبعة أيام متوالية ، وفي ذلك يقول الوداعى :

يا أيها العالم بشراكم بدولة المنصور ربّ الفخار

فإنّ الله قد بارك فيها لكم فأمطر الليل وأضحى النهار

قلتُ : وكان أصل الملك المنصور لاجين من مماليك (٢٠٦ ب) الملك المنصور

قلاون ، فلما وثب الأمير بيدرا ، نائب السلطنة ، على الأشرف خليل ، وقتله ، كما

- تقدّم ، فكان لاجين هذا من جملة مَنْ تواطأ على قتلة الأشرف خليل .
- فلما تولى الملك الناصر محمد أخو الأشرف خليل ، فاخفى لاجين في مؤذنة جامع أحمد بن طولون ، وكان هذا الجامع خراباً بغير سقوف ولا أبواب ، مدة مائة وسبعين سنة .
- فاستمرّ لاجين مختفياً في المؤذنة ، حتى شفع فيه كتبنا ، وقابل به الملك الناصر ، فأنعم عليه بتقدمة ألف ؛ فلما أن تسلطان كتبنا جعله نائب السلطنة ، عوضاً عن نفسه ، ثم فوّض إليه أمور المملكة جميعها ، وصار صاحب الحُلّ والعقد في أيام كتبنا .
- فلما جرى ما جرى من لاجين في حق كتبنا ، وتسلطن لاجين ، أخذ في أسباب عمارة جامع ابن طولون ، وعمر في سطحه دكة برسم الميقاتية ، لتحرير الوقت ، وأوقف على ذلك عدة جهات ، وهي باقية إلى الآن ، وأحيى رسوم هذا الجامع بعد ما كان خراباً ، وأصرف على عمارته جملة مال من ماله ، وصار ذلك في صحيفته إلى الآن .
- ولما تمّ أمر لاجين في السلطنة ، أخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير قراسنقر المنصوري ، واستقرّ به نائب السلطنة ، عوضاً [عن] نفسه ؛ وأخلع على الأمير قفجق المنصوري ، واستقرّ به نائب الشام ، فخرج من يومه إلى الشام بغير طلب ؛ وأخلع على مملوكه منكوتمر ، واستقرّ به مشير المملكة .
- ثم عزل صاحب تاج الدين بن حنا من الوزارة ، واستقرّ بالأمير سنقر الأعسر وزيراً ، عوضاً عن تاج الدين بن حنا ، وهو أول تركي ولي الوزارة بمصر ؛ ثم أنعم على جماعة كثيرة من خشداشينه بتقادم ألوف ، (٢٠٧ آ) وعلى جماعة منهم بإقطاعات سنّية ، فتمّ أمره في السلطنة ، وخضع له العسكر .

(٢) مؤذنة : مادنة .

(٥) المؤذنة : المادنة .

(١١) وأحيى : وأحيا .

(١٥) [عن] : تنقّس في الأصل .

ثم إنّه رسم بإحضار أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، وكان الملك الأشرف خليل أرسلهم إلى القسطنطينية، كما تقدّم ذكر ذلك، فأمر بإحضارهم إلى مصر.

فأما سلامش بن الملك الظاهر، أدركته المنية بالقسطنطينية فمات بها، فصبرته أمه حتى أتت به إلى مصر في سحلية، ودفنته بالقرافة الصغرى، وكان جميل الصورة، حسن الشكل، وكان يسمّى ابن البدوية.

وأما أخوه سيدى خضر، فإنه أتى إلى مصر، وأقام بها مدّة، ثم طلب من السلطان لاجين دستوراً بأن يحجّ، فأذن له في ذلك، فتوجّه إلى الحجاز وحجّ، ثم عاد إلى مصر، فأقام بها مدّة، ومات، ودفن على أخيه سلامش؛ وبه انقرض نسل الملك الظاهر بيبرس.

ثم إن الملك المنصور لاجين، لما ثبت أمره في السلطنة، قبض على نائب السلطنة، الأمير قراسنقر، وأرسله إلى السجن؛ وأخلع على مملوكه منكوتر، واستقرّ به نائب السلطنة، عوضاً عن سنقر المذكور؛ فلما جرى ذلك، عزّ على بقيّة الأمراء ما فعله السلطان، انتهى ذلك.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وستمائة

ففيها رآك الملك المنصور لاجين البلاد المصرية، وهو «الروك الحسامي»؛ وكان ابتداء ذلك في يوم الاثنين سادس جمادى الأولى من هذه السنة، وكان المتكلّم في ذلك شخص من المباشرين الأقباط، يقال له التاج الطويل، فشرع في كتّاب قوائم بمساحة البلاد وأسمائها، فأظهر النتيجة في ذلك، وجار على الناس، وضح منه الأمراء وسائر الجند، وصار لا يراعى في الأنام خايلاً، حتى (٢٠٧ ب) قال فيه بعض الشعراء مداعبة:

٢١ تبا لكم الريش من بلدة ليس بها رُفد لِحِجّاج
والسبعة الأوجه لا تنسبها ولعنة الله على التاج

(١٧) شخص : شخصاً .

(١٨) بمساحة : بمساحت .

وكانت ضواحي مصر يومئذ مقسومة على أربعة وعشرين قيراطا ، منها أربعة
 قراريط للسلطان ، وعشرة قراريط للأمراء والإطلاقات ، وعشرة قراريط للجند
 ٣ كلهم ؛ فرسم السلطان للتاج المذكور ، أن يكفي الأمراء والجند بعشرة قراريط ، وأن
 يزداد الذي يشكي من الأجناد قيراطا ، وبقي للسلطان ثلاثة عشر قيراطا ، فشكوا
 الجند من ذلك وضيّجوا .

٦ وكان المتكلم في هذا الأمر الأمير منكوتمر ، النائب ، فصار يقابح الأمراء والجند
 أنحس مقابحة ، وكرهه سائر العسكر ، وكثر عليه الدعا من الناس ؛ وكان الأمير
 منكوتمر من سيئات الدهر ، قبيح السيرة ، ظالم الصورة ، فجمع بين قبح الفعل
 ٩ والشكل .

فلما كان يوم الخميس ثامن رجب من تلك السنة ، فرقت المثلثات على الأمراء
 والعسكر بما تقرّر عليه الحال ، وهم غير راضين بذلك ، وصاد كل أحد من العسكر
 ١٢ يقصد الوثوب على السلطان .

ثم إن الأمير منكوتمر حسن للسلطان بأن يقبض على جماعة من الأمراء ، فقبض
 على الأمير أيبك الحموي ، وعلى أميرين معه ، وأرسلهم إلى السجن بشفر الإسكندرية .
 ١٥ ثم إنّه أرسل بالقبض على قفجق ، نائب الشام ، فلما تحقق قفجق ذلك ، خرج
 من الشام هاربا ، وأخذ معه جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير بكتمر الأبوبكري ،
 (٢٠٨ آ) والأمير بزلاز ، وغيرها من الأمراء الذين كانوا بدمشق ؛ فلما خرجوا
 ١٨ من دمشق ، توجهوا إلى عند القان غازان ، ملك التتار ، وكان هذا سببا لوقوع الفتنة
 العظيمة الآتية ذكرها في محله .

وفي هذه السنة أوفى النيل في آخر أيام النسيء ، ولم يثبت ، فوقع الغلاء بمصر ،
 ٢١ وشرقت البلاد .

وفي هذه السنة توفي قاضي القضاة الحنبلي نضر الدين عمر بن عوض ؛ فلما مات

أخلع السلطان على القاضي شرف الدين عبد الغنى بن يحيى الحرانى ، واستقرّ به
قاضى حنبلى ، عوضا عن شرف الدين بن عوض .

ومن الوقائع فى هذه السنة ، أنّ أمير المؤمنين أحمد الحاكم بأمر الله ، استأذن
السلطان بأنّ يحجّ ، فأذن له فى ذلك ، وأنعم عليه بمال جزيل ، يصرفه على إقامة بركّ ،
مثل أمير الحاج الأول .

ولم يمهّد بعده أنّ خايفة حجّ وعاد إلى مصر ، إلا الحاكم هذا ، فخرج من
مصر فى ريق عظيم ، فحجّ وعاد إلى مصر ، فأخلع عليه السلطان خلعة سنّية ، وأنعم
عليه بتقادم ماوكية ، وكان السلطان لاجين يضع الأشياء فى محلّها ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وستمائة

ففيها عزل السلطان قاضى القضاة الحنفى شمس الدين السروجى ؛ وولى القاضي
حسام الدين حسن بن أحمد الرازى الحنفى ، عوضا عنه .

ومن الحوادث فى هذه السنة ، أنّ السلطان كان مسافرا فى يوم شديد الحرّ ، فتوجّه
إلى القصر الكبير يشتمّ فيه الهواء ، فأقام فيه إلى المغرب ، وفطار هناك ، وكان
عنده قاضى القضاة حسام الدين الرازى ، وأمامه محب الدين بن العسان ، وشيخ العرب
يزيد ، فجلس إلى المغرب ، وفطار ، ثمّ جالس يلعب الشطرنج .

فبلغ ذلك جماعة من المماليك الأشرافية ، وكان فى قلوبهم الغدر للسلطان لاجين ،
من حين تواطأ على قتل الأشراف خليل ، فقالوا : « هذا وقت (٢٠٨ ب) انتهاز
الفرصة » .

فاتفقوا مع الممالك البرجية ، واجتمعوا فى دهايز القصر الكبير ، وكانت تلك
الليلة نوبة شخصين من الساجدارية ، يقال لهما : نوغان الكرمان ، وكرجى .

فلما دخل وقت العشاء ، تقدّم كرجى إلى عند الشمعة ليصليها ، فأرمى الفوطة
على النجاة ، والسلطان منكبّ على لعب الشطرنج ، لا يدري ما خبيء له فى الغيب ،

(٢) قاضى حنبلى : كذا فى الأصل .

(١٣) الهواء : الهوى .

فلما مضى وقت العشاء ، التفت السلطان إلى كرجى ، وقال له : « غلقت أبواب الأطباق على المالك البرجية » ؟ فقال له : « نعم » ، فشكره وأثنى عليه ، وكانت المالك البرجية واقفة بالسيوف في دهليز القصر من بعد المغرب .

٣

فلما أبطأ السلطان في لعب الشطرنج ، تقدّم إليه كرجى ، وقال له : « يا خجّم ، ما تصلى العشاء » ؟ فقال : « نعم » ، فلما قام يصلى العشاء ، ضربه كرجى بالسيوف على كتفه فبهله ، فبادر السلطان ليأخذ النجاة ، فلم يجدها ، فقبض على كرجى ، وأرماه إلى الأرض ، فهجمت عليه المالك البرجية الذين كانوا في دهليز القصر ، ووقعوا في السلطان بالسيوف ، قطعوه قطعاً .

فصاح عليهم قاضى القضاة حسام الدين : « ويلكم ، قتلوا أستاذكم » ، فتركوه ميّتا في القصر مكانه ، وغلقوا عليه الأبواب ، ومنعوا ، وتركوا عنده القاضى حسام الدين ، والإمام ، وشيخ العرب ، وقد نالوا قصدهم من السلطان بالقتل ، كما قيل في المعنى :

١٢

لما رأيت الغدر منهم بدا والبغض من أعينهم لى يلوح
فقلت للقلب ارجع عنهم ما قصدهم منك سوى أخذ روح

(٢٠٩ آ) ثم إن كرجى لما قتل السلطان ، توجه إلى بيت الأمير منكوتر ، النائب ، وكان ساكنا بدار النيابة بالقاعة ، فدقّ عليه الباب ، وقال له : « قم كلم السلطان » ، فأنكر منكوتر ذلك ، وقال لكرجى : « قتلت السلطان يا محس ، وجئت تقتانى » ؟ قال : « نعم » ، وكان بين كرجى ومنكوتر عداوة من قديم الزمان .

١٨

ثم إن كرجى أحرق باب منكوتر ، ودخل قبض عليه ، وتوجه به إلى الحبّ الذى كان بالقاعة ، يسجن فيه الأمراء ، وكان في هذا الحبّ جماعة من الأمراء مسجونين ، وكان منكوتر سببا للقبض عليهم ، فلما عاينوا منكوتر ، قاموا إليه وقتلوه أشرّ قتلة .

٢١

(٧) الذين : الذى .

(٩) قتلوا : كذا في الأصل .

هذا كله جرى بالقلمة تحت الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس ، فلما طلع النهار ، شاعت الأخبار بذلك .

ثم إن الزمام شرع في تجهيز السلطان ، ففسله وكفنه ، وصلى عليه ، ونزل ٣ به من باب الدرفيل ، هو والأمير منكوتر ، فدفنا بالقرافة الصغرى ، فكانت مدة سلطنة الملك المنصور لاجين إلى أن قتل ، نحو سنتين وشهرين وأيام .

وكانت قتلاته ليلة الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة ، ومات وله ٦ من العمر ، نحو ثلاث وستين سنة .

وكان صفته طويل القامة ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، أزرق العينين ، مهيب الشكل ، موصوفاً بالفروسية ، شجاعاً بطلاً ، ديناً خيراً ، أبطل في أيامه ما حدث ٩ من المكوس بالديار المصرية ، وكان ناظراً إلى فعل الخير .

ولم يكن من سيئاته سوى مملوكة منكوتر ، لما راك البلاد ، فأوقع الفتنة بين الأمراء والسلطان ، وكان يجب الدعاء من الناس على السلطان بما يحدث منه من المظالم ، حتى ١٢ تحتى كل أحد زوال السلطان لاجين ، وعود الملك الناصر محمد من الكرك .

وفي ثاني يوم قتل السلطان لاجين ، (٢٠٩ ب) حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير بكتاش ، أمير سلاح ، وكان توجه إلى دمشق مع طائفة من العسكر ، بسبب ١٥ القبض على قفجق ، نائب الشام .

فلما حضر ، نزل إليه نوغان وكرجى ، اللذان قتلا السلطان لاجين ؛ فلما وقعت عين الأمير بكتاش عليهما ، قبض عليهما وأمر بتوسيطهما ، فوسطا في الحال ، فكان ١٨ بين قتلة الملك المنصور لاجين ، وبين توسيطهما ، ليلة واحدة ، وقد أظهر الله تعالى سر السلطان لاجين فيهما ، انتهى ذلك .

ثم إن الأمراء اجتمعوا بالقامة ، وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطاناً ، فوقع ٢١

(١٤) وق : في .

(١٧) اللذان : الذى .

(٢١) يولونه : يولوه .

الاتفاق على عود الملك الناصر محمد بن قلاون ، وكان مقبلاً بالكرك ، فأرسلوا خلفه
نجاباً وعلى يده مطالعات من عند الأمراء ، تتضمن سرعة إحضاره إلى الديار المصرية .
٣ فلما ورد النجباب على الملك الناصر ، تكاسل عن الحضور ، وثبت حتى يرى
ما يعير بمصر من حال الأمراء ، فأبطأ واحداً وأربعين يوماً حتى دخل إلى مصر ،
وأقامت مصر بلا سلطان هذه المدة إلى أن حضر ؛ انتهى ما أوردناه من أخبار دولة
٦ الملك المنصور لاجين ، وذلك على سبيل الاختصار .

ذكر

عود الملك الناصر محمد بن قلاون

إلى السلطنة بالديار المصرية

وهي السلطنة الثانية ، دخل إلى القاهرة يوم الخميس ثامن جمادى الأولى سنة ثمان
وتسعين وستمائة .

١٢ فلما دخل زينت له القاهرة ، وحمت على رأسه القبة والطير ، ولاقاه القضاة
الأربعة من المطارية ، فدخل القاهرة في موكب عظيم ، والأمراء مشاة بين يديه ، وفرشت
له الشقق الحرير ، (٢١٠ آ) حتى طلع إلى القلعة ، فحضر الخليفة الإمام أحمد ، والقضاة
١٥ الأربعة ، وبياعوه بالسلطنة ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ،
ودقت له البشار ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء .

نقل بعض المؤرخين ، أن الملك الناصر محمد ، لما رجع من الكرك ، بان له أن
١٨ الخليفة الإمام أحمد الحاكم بأمر الله ، قال عنه : « هذا خارجي » ، فلما حضر الإمام أحمد
للمبايعة ، وبخه الناصر بالكلام ، وقال له : « تقول عني بأني خارجي ، يا أسود الوجه » ،
فلم ينطق الإمام أحمد بحرف واحد ، وكان الإمام أحمد أسمر اللون جداً ؛ قال الشيخ
٢١ علاء الدين الوداعي :

(٢) نجاباً : نجاب .

(٥) سلطان : سلطاناً .

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس
عاد إلى كرسيه مثلما عاد سليمان إلى الكرسي
٣ قيل لما عاد الملك الناصر من الكرك ، بلنه أن ابن المراحلي ، الشاعر ، قال عنه
في قصيدة نظمها ، منها :

ما للصبى وما للملك يكفله شأن الصبي بغير الملك مألوف
٦ فأحضره وقال له : « تقول عني ، ما للصبى وما للملك يكفله » ، خلف ابن
المراحلي بالطلاق ثلاثة أنه ما قال هذا البيت ، وإنما الأعداء زادوا هذا البيت في
القصيدة ، فعني عنه بشفاعة بعض العلماء ، انتهى ذلك .
٩ ثم إن الملك الناصر عمل الموكب ، وأخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم :
الأمير سلاز المنصوري ، واستقرّ به نائب السلطنة ، عوضا عن منكوتمر ؛ وأخلع على
الأمير آقوش الأفرم ، واستقرّ به نائب الشام ، عوضا عن قفجق المنصوري ؛ وأخلع
١٢ على الأمير بيبرس الجاشنكير ، واستقرّ به أتابك (٢١٠ ب) العساكر ، وكانت نيابة
السلطنة يومئذ أكبر من الأتابكية .

ثم إنه عزل قاضي القضاة حسام الدين الرازي الحنفي ، وأعاد شمس الدين السروجي ؛
وَأَبْقَى شيخ الإسلام ابن دقيق العيد ، في قضاء الشافعية ؛ وأبقى القاضي المالكي ابن
١٥ مخاوف النويري ؛ وأبقى القاضي الحنبلي شرف الدين الحرائي .
وأبقى الأمير سنقر الأعسر في الوزارة ؛ وأبقى الأمير لاجين في الأستادارية ؛
وأنعم على جماعة من مماليك أبيه بتقادم ألوف ، وأنعم على جماعة من الممالك السلطانية
١٨ بإقطاعات سنية .

وتم أمره في السلطنة بخلاف المرة الأولى ، فهذا كان شرح مبتدأ دولته في هذه
٢١ المرة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وستمائة

- ٣ فيها جاءت الأخبار من حلب ، بأن القان غازان ، ملك التتار ، قد زحف على البلاد ، ووصل أوائل عسكره إلى البيرة ، وكان غازان هذا ابن أرغون بن أبنا بن هولأكو ، الذي أخرب بندگان ، وقتل الخليفة ، وجرى منه ما جرى ؛ فلما وردت هذه الأخبار الردية ، اضطربت أحوال الديار المصرية ، لعظم هذه البائية .
- ٦ وكان سبب مجيء غازان وزحفه على البلاد ، وهو أن قنجنق ، نائب الشام ، لما بانته أن الملك المنصور لاجين أرسل بالقبض عليه ، أخذ عياله وأولاده وبركه ، وخرج من الشام هو وجماعة من الأمراء ، وتوجه إلى عند القان غازان ، فأقام عنده ، وحسن له أن يزحف على البلاد ، ويملك البلاد الشامية من غير مانع ، فإن السلطان صغير السن ، والأمراء في خاف بينهم ، وأنه إذا زحف لم يجد من يقابله ؛ فجمع غازان العساكر ، فاجتمع معه نحو (٢١١ آ) من مائتي ألف مقاتل .
- ١٢ فلما ورد هذا الخبر على السلطان ، جمع الأمراء وضرب مشورة ، فوقع الاتفاق على أن الأتابكي بيبرس الجاشنكير يتوجه إلى حلب ، ومعه خمسمائة مملوك ، قبل خروج السلطان ، فخرج الأتابكي بيبرس على جرائد الخيل ، ومعه جماعة من العسكر .
- ١٥ ثم في خامس عشر صفر من سنة تسع وتسعين وستمائة ، خرج السلطان ، ومعه الإمام أحمد الحاكم بأمر الله ، والقضاة الأربعة ، وسائر الأمراء والعسكر ، فجد السلطان في السير ، حتى وصل إلى دمشق في ثامن ربيع الأول من تلك السنة ، فأقام بالشام يومين .
- ١٨ ثم توجه إلى حلب ، فتلاقى مع جاليس غازان ، في مكان يعرف بسلمية ، بالقرب من بعلبك ، فكان بينهما هناك وقعة عظيمة لم يسمع بمثالها فيما تقدم ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر ، انكسر عسكر السلطان ، وهرب الملك الناصر إلى نحو بعلبك ، فتهب التتار برك السلطان والعسكر جميعه .

(١٣) مملوك : مملوكا .

(١٨) فتلاقى : فتلاقا .

(١٩) وقعة : كذا في الأصل .

ثم إن القان غازان زحف على ضياع الشام ، ونهب ما فيها وسبي أهلها ؛ فلما بلغ أهل الشام ، خافوا على أنفسهم أن يفعل بهم كما فعل بغيرهم ، فخرج إليه علماء دمشق يطلبوا منه الأمان .

٣

فخرج إليه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي ، والشيخ زين الدين الفارقي ، والشيخ تقي الدين بن تيمية الحراني الحنبلي ، والقاضي نجم الدين بن الصصري ، والقاضي عز الدين بن الزكي ، والشيخ عز الدين بن القلانسي ، والقاضي جلال الدين القزويني ، وغير هؤلاء من الصالحاء والزهاد .

فلما دخلوا على غازان (٢١١ ب) وقفوا بين يديه ، فتكلم الترجمان مع غازان في أمرهم ، بأنهم جاءوا يطلبوا منه الأمان ، فقال للترجمان : « قل لهم إنني أرسلت لهم الأمان قبل حضورهم » .

فلما سمعوا ذلك ، رجعوا إلى دمشق ، واجتمعوا في جامع بني أمية ، وأهل الشام قاطبة ، فقرئ عليهم الأمان الذي أرسله لهم غازان ، فلما سمعوه سكن ما كان عند أهل الشام من الاضطراب .

ثم دخل إلى دمشق الأمير قفجق الذي كان نائب الشام ، وتوجه إلى غازان وأثار هذه الفتنة العظيمة ؛ فلما دخل دمشق نزل بالميدان الأخضر ، وأرسل يقول لنائب قلعة دمشق : « سآم إلينا القلعة ، ولا تحوجنا إلى حصارك » ، فأرسل نائب القلعة يقول له : « كيف أسلم القلعة والملك الناصر في قيد الحياة » ؟

فلما بلغ غازان ذلك ، حاصر القلعة أشد المحاصرة ، ونصب عليها المناجنيق ، وأحرق البيوت التي حولها ، فلم يقدر على أخذها .

فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، رحل القان غازان

(١) وسبي : وسب .

(٢) أن : أن لا .

(٩٣) يتنبأوا : كذا في الأصل .

(١٢) فقرئ : فقرأ .

- عن دمشق ، واستتاب عليها أميراً من التتار ، يقال له قطاوشاه بك ، ومعه عسكر من التتار ، وولى الأمير قفجق نائب الشام ، كما كان أولاً ؛ هذا ما كان من أمر غازان .
- وأما ما كان من أمر الملك الناصر بعد هذه الكسرة ، فإنه دخل بعلبك وأقام بها أياماً ، فتسامع به العسكر ، وتراجع إليه قليلاً ، قليلاً ؛ فلما تكامل العسكر ، قصد التوجه إلى نحو الديار المصرية ، فجدّ السير حتى وصل إلى القاهرة في خمسة عشر يوماً ، فدخل إلى القاهرة على حين غفلة ، وطلع إلى القلعة ، وقد نهب جميع بركه من صامت وناطق ، وكذلك الأمراء والعسكر (٢١٢ آ) قاطبة .
- فلما طلع إلى القلعة ، فتح الزردخانة ، وفرّق ما فيها من لبوس وخوذ وسيوف ؛ ثم فتح خزائن المال ، ونفق على العسكر ، فأعطى لكل مملوك ثمانين ديناراً ، وأعطى لجماعة منهم سبعين ديناراً ، وجماعة ستين ديناراً ، وأعطى لجماعة خمسين ديناراً .
- ثم نفق على عسكر الشام الذى حضروا صحبته ، فأعطى لكل واحد منهم عشرة دنانير ذهب ، وعشرة أراذب شعير ، وعشرة أراذب قح .
- ثم نفق على الأمراء المتقدمين ، والأمراء الطليخانات ، والأمراء العشراوات ، فأعطى كل واحد على قدر مقامه ، وكان القائم بتدبير ملكه الأمير سار ، نائب السلطنة ، والأتابكي بيبرس الجاشنكير .
- ثم إن الملك الناصر قصد العود إلى محاربة غازان ، فبرز خامه بالريدانية ، وخرج من القاهرة ثانياً ، وصحبته الإمام أحمد الحاكم بأمر الله ، والقضاة الأربعة ، والأمراء والعسكر .
- فلما أراد الرحيل من الريدانية ، تقلّب عليه العسكر ، وشكوا ، فنفق عليهم نفقة ثانية ، ثم رحل من الريدانية ، طالباً للبلاد الشامية ، فتقدم في جاليش العسكر الأمير سار ، النائب ، والأتابكي بيبرس الجاشنكير .
- فلما وصل الجاليش إلى دمشق ، خرج إليه الأمير قفجق ، نائب الشام ، وأظهر

الطاعة للسلطان ، وبأس الأرض له ، وتسكلم مع الأمراء بأن السلطان يرجع إلى القاهرة ، ولا يدخل إلى دمشق ، فإن في ذلك عين المصلحة ، فكاتب الأمير سلاسل السلطان بما وقع من (٢١٢ ب) أمر قفجق ؛ فلما رأى السلطان أن ذلك صوابا ، ٣
رجع إلى القاهرة ، وكان رجوعه في أوائل شهر رمضان من سنة تسع وتسعين وستائة .

ومن النكت اللطيفة ، نقل الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة في « السكردان » ، ٦
أن الملك المنصور قلاون ، أستاذ قفجق ، خرج يوما إلى خليج الزعفران ، على سبيل التزّه ، ومعه جماعة من الأمراء ، فأنشراح ذلك اليوم ، وذبح خروفا سمينا بيده ، فلما حضر السباط ، قدموا ذلك الخروف في صدر السباط ، فقطعه السلطان بيده ، وأخذ ٩
لوح الكتف ، وجردّه من لحمه ، وتركه ساعة حتى جفّ ثم لّوحه على النار قليلا ، ثم أخرجه ، ونظر فيه ساعة ، وأطال فيه التأمل ، ثم تفل عليه وألقاه من يده ، ١٢
وظهر في وجهه الغضب .

فسأله بعض الأمراء عن ذلك بعد أن سكن غضبه ، فقال : « لا تخرجوا قفجق ١٥
بعدي ، ولا تولّوه نيابة الشام ، فيحصل منه غاية الفساد ، وسوف ترون ذلك إن خرجتوه من مصر » ؛ وكانت هذه الواقعة قبل أن يلي قفجق نيابة الشام بعشر سنين ، وكان الأمر كما قال : « والملك لهم فراسة في الأمور » ، وقد قيل في المعنى :

يرى العواقب في أثناء فكرته كأن أفكاره بالغيب كنهان
لا طريقة منه إلا تحمها عمل كالدهر لا دولة إلا لها شان ١٨

ولم يزل قفجق عند قلاون في غاية الطرد ، حتى توفي قلاون ؛ ولما تسلطن لاجين استقرّ بقفجق نائب الشام ، فأظهر العصيان ، فأراد لاجين القبض عليه ، فهرب إلى ٢١
(٢١٣ آ) عند غازان ، وجرى منه ما تقدّم ذكره .

(٢) ف كانب : فكأنكب .

(١٤) ترون : تروا .

(١٥) خرجتوه : كذا في الأصل .

(١٩) ولما : لما .

قال القاضي محيي الدين بن فضل الله ، كاتب السر الشريف : حكى لي الأمير قنچق بعد أن جرى منه ما جرى ، ورجع إلى القاهرة ، قال : لما تلاقى عسكر السلطان مع عسكر غازان ، فكاد غازان أن يفسكر ، وهم بالمهروب ، فطلبني ليضرب عنقي ، لأنني كنت السبب في بغيته إلى دمشق ، فلما أحضرني بين يديه ، قال لي : إيش هذا الحال ؟ هذا كله ، ما هو شغلك ؟ فقلت له : القان يصبر ساعة ، فإن عسكرنا لهم أول صدمة ، ثم يولّوا عن القتال ، فلا يقابلوا بعدها أبدا .

فلما انكسر عسكر السلطان ، أراد عسكر غازان أن يزحف عليهم ، فقلت في نفسي متى أن أزحف عليهم لم يبق منهم أحد ، فقلت للقان : اصبر ساعة ، فإن عسكرنا لهم حيل وخداع ، فربما يكون لهم كمين يخرج علينا فننكسر ؛ فسمع لي وصبر ساعة حتى أبعثتم عنا ، فلو زحف عليكم ما بقي منكم أحد ، فلو أنا ، ما سلم منكم أحد ؛ فكان كما قيل في المعنى :

ولو شئت قابلت السيء بفعله ولكنني أبقيت للصالح موضعا
وفي أواخر هذه السنة ، اضطربت أحوال البحيرة ، ووقع بها فتنة عظيمة ، واختلف طائفتان من العرب ، وهما جابر ومرديس ، فهبوا ضياع البحيرة جميعها ، وأحرقوا الجرون .

فلما بلغ السلطان ذلك ، أرسل إليهم تجريدة ، وكان باش العسكر الأمير بيبرس المنصوري ، أمير دوا دار كبير ، ومعه عشرين أمير عشرة ، وخمسمائة مملوك سلطان . فلما وصاوا إلى البحيرة ، تحاربوا مع العرب ، فانكسروا أشد كسرة ، وهربوا نحو الجبال ، فاحتاط بهم العسكر ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، أي (٢١٣ ب) من العرب ، وغنموا منهم جمالا وخيلا وأغناما ، وأسروا نساءهم .

(٢) تلاقى : تلاقا .

(٦) يولوا : كذا في الأصل .

(٨) لم يبق : لم يبق .

(١٢) ولكنني : ولاكنني . || موضعا : موضع .

(٢٠) جمالا وخيلا وأغناما : جمال وخيل وأغنام .

فلما حصلت هذه النصره ، عاد العسكر إلى القاهرة وهم في غاية النصره ، فطلع
الأمير بيبرس ، الدوادار ، إلى القلعه ، وأخضع عليه السلطان خامة سنیه ، ونزل إلى بيته
في موكب حفل ، والأمراء قدّامه ؛ وكان الأمير بيبرس ، الدوادار ، سعيد الحركات ،
وكان علما فاضلا ، فقيها نحويا ، ينظم الشعر ، وله شعر جيّد ، وألف له تاريخا ، سَمّاه
« زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » ، وجمع فيه جملة محاسن وفوائد ، ومن شعره
قوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
الناس في نظر العيون كما ترى صور وإن قليهم من يفهم
انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة سبعمئة من الهجرة

وهو القرن السابع والمائة ، فيه رسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بتغيير
زى اليهود والنصارى والسمره ؛ وكان سبب ذلك ما حكاه الشيخ شهاب الدين
ابن أبي حجلة في « السكردان » ، أن شخصا مغربيا كان جالسا بباب القلعه ، فدخل
عليه بعض كتاب الديوان ، وهو بعمامة بيضاء ، فقام إليه ذلك المغربي ، وبالحق في
تعظيمه ، وظن أنه مسلما ، فتبين له أنه من النصارى .

فدخل ذلك المغربي على السلطان ، وفأوضه في الكلام ، بأن يغيّر زى أهل الذمة ،
فأجابته الملك الناصر إلى ذلك ، وأمر بإشهار النداء في القاهرة ، بأن اليهود يلبسوا
عمائم صفر ، والنصارى يلبسوا عمائم زرق ، والسمره يلبسوا عمائم حر ، فامتلأوا ذلك
من يومئذ ، واستمرّوا على هذه الهيئة إلى اليوم ، فهذا كان سببا (٣١٤ آ) لتغيير
زيهم ؛ وفي هذه الواقعة يقول الشيخ شمس الدين محمد الطيبي ، وهو قوله :

تعجبوا للنصارى واليهود معا والسامريين لما عُمّموا الخرقا

(٤) تاريخا : تاريخ .

(١٧ و ١٨) يلبسوا : كذا في الأصل .

(١٨) عمائم حر : عائم حر .

كأنما بات بالأصبغ منسها نسر السماء فأضحى فوقهم درقا
وقال الوداعى :

لقد لبسوا الكفار شاشات ذلة تزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسكم عماثما ولكنهم قد ألبسكم براطيشا
انتهى ذلك .

٦ ومن الحوادث ، جاءت الأخبار من البيرة بأن جاليش غازان قد وصل إلى
الفرات ، فلما تحقق السلطان ذلك ، جمع الأمراء وضرب مشورة ، وقال فى المجلس :
« أنتموا تعلموا أنى رجعت من التجريدة الأولى مكسورا ، ونهب جميع بركى ،
والآن لم يبق فى بيت المال لا دينار ولا درهم ، فمن أين أتق على العسكر » ؟ فقال الأمير
٩ سنار ، النائب ، والأتابكى بيبرس الجاشنكير : « وزعوا هذه النفقة على المباشرين ،
وأعيان التجار ، وأعيان الناس » .

١٢ ثم ندبوا الأمير سنقر الأعسر ، وزير الديار المصرية ، ليجبى الأموال من الناس ،
فعمل فى الناس بالباع والذراع ، وجبى منهم الأموال فى أربعين يوما ، أو دون ذلك ،
فتحصل من هذه الحركة نحو مائتى ألف دينار وكسور .

١٥ ثم إن السلطان تلقى على العسكر ، وخرج من القاهرة قاصدا حلب ؛ فلما وصل
إلى غزوة ، جاءت إليه (٢١٤ ب) الأخبار بأن نائب حاب كسر عسكر التتار كسرة
قوية ، ورجعوا إلى بلادهم هاربين .

١٨ فلما بلغ السلطان ذلك رجع من غزوة ، وقيل كان سبب رجوعه أن العسكر تقلب
عليه هناك ، وطلبوا منه نفقة ثانية ، لأن التبن والشعير كان لا يوجد أصلا .

٢١ فلما جرى ذلك رجع السلطان إلى القاهرة ، وعين الأمير بكتمر السلحدار ،
وجعاة من الأمراء العشراوات ، والماليك السلطانية ، بأن يتوجهوا من هناك إلى
حاب ، ويقيموا بها إلى أن يظهر من أمر التتار ما يكون ، فتوجهوا من هناك .

ثم إن السلطان عاد إلى القاهرة ، ودخل في موكب عظيم ، وطلع إلى القلعة ، وسكن الحال قليلا ، انتهى ذلك .

ومن الوقائع في هذه السنة ، أن ربا عند جامع قوصون وقع على ثلاثين نفساً ، ٣
فمات منهم ثلاثة وعشرون ، وسلم منهم سبعة ؛ فأقاموا مدة يسيرة ، وسافروا في البحر
نحو الصعيد ، فهب عليهم ريح شديد ، ففرقت بهم المراكب ، فماتوا السبعة بالفرق ،
بعد أن سلموا من تحت الردم ، وعاشوا هذه المدة ، فماتوا بالفرق ، ولم يموتوا بالردم ، ٦
فسبحان القادر على كل شيء - ذكر ذلك ابن أبي حجلة .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعمائة

فيها ، في ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى ، توفى الخليفة الإمام أحمد الحاكم ٩
بأمر الله ؛ وهو أول خلفاء بني العباس بمصر ، قدم من بغداد إلى مصر سنة تسع وخمسين
وسمائه ، وقيل بل كان قدومه سنة ستين وسمائه ، في دولة الملك الظاهر بيبرس
البندقدارى ، وأقام في الخلافة (٢١٥ آ) نيفا وأربعين سنة ؛ وحج في دولة الملك المنصور ١٢
لاجين سنة سبع وتسعين وسمائه ؛ وكان ياعب مع السلطان الملك الناصر محمد بالأكرة ،
وسافر معه إلى تجريده غزان ؛ واستمر في الخلافة إلى أن مات ، ودفن بجوار تربة
السيدة نفيسة ، رضى الله عنها ، وبنيت عليه قبة ، وهو أول خليفة من بني العباس ١٥
دفن بمصر .

ولما مات الإمام أحمد ، تولى بعده ابنه أبو الربيع سليمان المستكنى بالله ، وهو ثاني ١٨
خلافة من بني العباس بمصر ، وإليه تنسب الخلفاء إلى الآن ، انتهى ذلك .
وفي سنة إحدى وسبعمائة ، توفى الشيخ رشيد الدين أبو طالب الحنفى ، وكان
من أعيان الحنفية ، وله شعر جيد في النظم .

ومن الأعاجيب ما ذكره الشيخ تاج الدين بن عبد الوهاب بن المتوج ، أن في يوم ٢١
الخميس سابع جمادى الآخرة من هذه السنة ، ظهرت دابة من بحر النيل من نواحي

(١٩ - ٢٠) وفي سنة ... النظم : كتب المؤلف هذا الخبر في الأصل على هامش س (٢١٤ ب) .

(٢٢) ظهرت : ظهيرة .

المنوفية ، وهى عجيبه الخلقة ، لونها لون الجاموس ، وهى بلا شعر ، وأذان كآذان
الجل ، وعيناها وفرجها مثل الناقة ، ولها ذنب يغطى فرجها ، طولها شبر ونصف ،
وهو كذنب السمك ، ورقبتها غاظ الشايف المحشو تبنا ، وفمها وشفتاها مثل الكربال . ٣
ولها أربعة أنياب من فوق ، واثنان من أسفل ، وطول كل ناب دون الشبر ،
وعرضها عرض أصبعين ، وفى فمها ثمانية وأربعون ضرسا ، وهم مثل بيادق الشطرنج ؛
وطول بذنها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف ، ومن ركبتيها إلى حافرها مثل بطن
الثعبان ، أصفر مجمد ؛ ودور حافرها مثل الرخا ، وفيه (٢١٥ ب) أربعة أظافر ،
مثل أظافر الجمل .

٩ وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف ، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر
ذراعا ، وفى بطنها ثلاثة كروش ، ولحمها أحمر يميل إلى الزرقة ، وطعمه مثل لحم الجمل ؛
وغاظ جلدها أربعة أصابع ، ما يعمل فيه السيوف .
١٢ خفمت من هناك على عجلة تسحبها خمسة أجمال ، حتى أحضرت إلى القامة ،
وشاهدها السلطان ، وكان يوم دخولها إلى القاهرة يوما مشهودا ، انتهى ذلك .
وفى هذه السنة ، توفى صاحب تاج الدين بن صاحب نجر الدين بن صاحب
١٥ بهاء الدين بن حنا ، مات وهو منفصل عن الوزارة ، وقيل بل مات سنة سبع مائة ،
والله أعلم .

ثم دخلت سنة اثنيتين وسبع مائة

١٨ فيها ، فى يوم الجمعة حادى عشر صفر ، توفى شيخ الإسلام قاضى القضاة الشافعية ،
تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين على بن وهب بن مطيع القشيري القوصي ،
المعروف بابن دقيق العيد ، رضى الله عنه ؛ وكان مولده بساحل الينبع ، فى يوم السبت
٢١ خامس عشر شعبان سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وكان تلميذ الشيخ عز الدين بن عبد
السلام ، رضى الله عنه ، ولما مات دفن إلى جانبه بالقرافة الصغرى ، وقد فاق شيخه ابن
عبد السلام .

قال الشيخ تاج الدين السبكي : ابن دقيق العيد ، هو العالم المبعوث على رأس المائة السابعة ، كما جاء في الحديث ؛ وله عدة مصنفات ، منها : الإلمام في الحديث وشرحه ، وشرح العمدة ، والاقتراح في مصطلح الحديث ، وشرح العنوان في أصول الفقه ، ٣ وكتاب أصول الحديث ، وله ديوان خطب وديوان أشعار أدبيات ، ومن نظمه الرقيق وهو قوله في نوع الجناس التام :

٦ تهم نفسي طربا عند ما أستلح البرق الحجازيا
(٢١٦ آ) ويستخف الوجد على وقد لبست أثواب الحجا زيا
يا هل أفضى من منى ليلتي وأنحر البزل المهاريا
٩ وأرتوى من زمزم فهي لي ألد من ريق المهاريا
نقل بعض المؤرخين ، أن القاضي تقي الدين بن دقيق العيد ، كان يحجر على نوابه فيما يحكمون به بحسب الوقائع .

١٢ قال الإسنوى : ومع هذا رآه بعض أصحابه في المنام ، وهو في سجن ، فسأله عن حاله ، فقال له : أنا معوق ههنا بسبب ما كان يعملونه نوابي من الأحكام ، وتعطى على .

١٥ فلما توفي ابن دقيق العيد ، أخلع السلطان على القاضي بدر الدين بن جماعة ، واستقر به قاضي القضاة الشافعية ، عوضا عن ابن دقيق العيد ، انتهى ذلك .

ومن الحوادث ، جاءت الأخبار من حلب ، بأن طائفة من عسكر غازان دخلوا

١٨ إلى حلب على حين غفلة ، ومعهم أمير يقال له قطلوشاه ، فذكروا أن بلادهم أعمت ، وقصدهم الإقامة بحلب ، حتى يشتروا لهم مغلا ، وكل هذا حيل وخداع ، ثم بعد ذلك جاءت طائفة أخرى نزلوا بالمرعش ، فأرسل نائب حلب يكاتب السلطان بذلك .

٢١ فلما جاء هذا الخبر ، عين السلطان جماعة من الأمراء القدمين عدتهم ستة أمراء ، وعين معهم ألف مملوك ، ورسم أن يخرجوا على الفور مسرعين ؛ فلما خرجوا ووصلوا

(١١) يحكمون : يحكمو .

(٢٢) مملوك : مملوكا .

إلى غزّة ، جاءت الأخبار إليهم بوصول القان غازان بنفسه ، وقد وصل إلى الرحبة ، فنزل إليه نائب الرحبة ، وأرسل إليه الإقامات ، فمنع المحاصرة عن المدينة .

٣ فلما تحقق السلطان ذلك ، أحضر الأمير سلاّر ، (٢١٦ ب) النائب ، والأتابكي بيبرس الجاشنكير ، وضربوا مشورة في أمر غازان ، فأشاروا على السلطان بالخروج قبل أن يتمكن العدو من البلاد ؛ فعلق الجاليش ، ثم نادى بالنفير عاما .

٦ ثم إن السلطان جمع طائفة من عربان الشرقية والغربية ، فاجتمع معه ما لا يحصى من العساكر ، وخرج على جرائد الخيل ، ومعه القضاة الأربعة ، والخليفة المستكني بالله سليمان .

٩ فلما خرج من القاهرة ، تقدّمه الأتابكي بيبرس مع جماعة من العسكر ؛ فلما وصلوا إلى الشام ، وجدوا جاليش غازان ، وقد وصل قرب حماة ، فأرسل الأتابكي بيبرس يستحث السلطان في سرعة الحضور ، فجدّد السلطان السير حتى وصل إلى الشام في مستهل شهر رمضان ؛ فأحضر عربان جبل نابلس ، وعسكر الشام ، وطرابلس ، وصفد ، وغير ذلك ، فاجتمع معه من العساكر نحو مائتي ألف مقاتل .

١٥ فلم يبق بالشام غير ثلاثة أيام ، وبرز إلى لقاء غازان ، فتلاقى الفريقان على مرج راهط ، تحت جبل غباغب ، فكان بينهما وقعة لم يسمع بمثليها فيما تقدّم من الوقعات المشهورة ، فكانت النصر يومئذ للملك الناصر محمد بن قلاوون ، وانهزم عسكر غازان بعد أن قتل منهم نحو النصف ، وأسر البعض منهم ، كما قيل في المعنى :

١٨ جيوشه كالأسود أضحت تقتحم الحرب بالعزائم

وسيفة في الوغى طويل له نفوس العدى غنائم

والنصر مذ جاءه سريعا صير قلب الحشود وارم

٢١ وأما من قتل في هذه الوقعة من الأمراء (٢١٧ آ) وهم : الأمير لاجين ،

(١٤) فلم يبق : فلم يبق . || فتلاقى الفريقان : فتلاقا الفريقين .

(٢١٥ و ٢١٦) وقعة . . . الوقعة : كذا في الأصل .

(١٥) الوقعات : كذا في الأصل .

- الاستادار ، والأمير سنقر الكافرى ، والأمير أيدير الشمسى المعروف بالقشاش ،
والأمير آقوش ، حاجب الحجاب ، والأمير أيدير المعروف بالرفا ، والأمير أيدير ،
٣ تقيب الجيوش ، والأمير علاء الدين بن التركمانى ، والأمير على بن ساخل ، والأمير
بهادر الدكاجكى ، وغير هؤلاء من أمراء دمشق ، وطرابلس ، وصفد ، وحماة ،
وغزة ، وقتل من المالك السلطانية نحو ألف وخمسمائة مملوك ، هذا خارجا عما قتل
٦ من العربان والعشير والنملان وغير ذلك .
فلما حال بينهما الليل ، التجأ عسكر غازان إلى جبل هناك ، وبات يوحد النيران ،
وبات عسكر السلطان ضاربا عليهم يزكا .
٩ فلما لاح الصباح من يوم الأحد خامس رمضان تقلق عسكر غازان من المحاصرة ،
وهلك من العطش والجوع ، فصار يتسحب من الجبل إلى الأودية ، فتتبعوهم ممالك
السلطان ، وحموا عليهم بالسيوف ، فصيروهم كالرمم في الأرض ، وأسر منهم ماشاء ،
١٢ والذى سلم منهم هلك في الطرقات من الجوع والعطش والمشى ، وقال القائل :
مشوا متسابقى الأعضاء فيهم لأرجلهم بأرؤسهم عثار
إذا فاتوا السيوف تناولتهم بأسيا من العطش القفار
١٥ فلما حصلت هذه النصر لملك الناصر ، أرسل ببشارة هذه النصر إلى القاهرة
الأمير بكتوت الفتاح ، وفرح الناس بذلك .
ثم إن السلطان توجه إلى الديار المصرية ، فدخاها في ثالث عشرين شوال ، وكان
١٨ يوم دخوله إلى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له زينة حفلة ، (٢١٧ ب) وحملت
على رأسه القبة والطير ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه ، ودخل من باب
النصر ، وشق القاهرة في موكب عظيم ، وقدامه القضاة الأربعة والخليفة ، وضج
٢١ له الناس بالدعاء .

(٤) بهادر : بهارد .

(٥) مملوك : مملوكا . || عما : عما .

(١٢) والمشى : المشى .

فلما وصل بين القصرين ، نزل عن فرسه ، وزار قبر والده قلاون ، ثم طلع إلى القامة ، وقدّامه الأمراء مشاة ، وبين يديه الأسارى الذين أسروا من عسكر غازان ، وهم في زناجير حديد ، وصناجق غازان منكسة ، وكانت هذه المنصورة على غير القياس ، « وما النصر إلا من عند الله » .

٣ قيل ، لما حصلت هذه المنصورة ، عمل الأمير بيبرس الفارقاني ، وهو صاحب الحقام التي تجاه مدرسة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى هذه القصيدة في الملك الناصر لما انتصر ؛ وكان الأمير بيبرس الفارقاني أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يزن الشعر بالطباع ، وينظم منه ما لا تمجّه الأسماع ، ومن القصيدة الموعود بذكرها هذه الأبيات :

١٢ إذا ما شئت أن تحيا هنيئاً فبادر للصناجق والبنود
ترى من تحتها ملكاً هماماً وفيها بالموائق والعهود
هو الضرغام خواض المنايا إذا ما الحرب تسع بالوقود
أتى مثل النمام بجيش مصر وكوسات كأصوات الرعود
لما وقع ترن الأرض منه وترعد منه آفاق الوجود
وأسياف لها لمع كبرق تقذفها العظام مع الجلود
(٢١٨آ) فلا برحت يدها في عداها مصرفة يأسعاف السعود
ولا زالت ملوك الأرض طرا له ما عاش أمثال العبيد

١٨ انتهى ذلك ، وإنما أوردنا هذه القصيدة هنا ، ليعلم السامع أن في الأتراك من لا يخلو عن فضيلة .

٢١ قيل لما انكسر عسكر غازان ، غنم منه عسكر السلطان غنائم كثيرة ، من خيول وسلاح وبرك ، كما غنم عسكر غازان من عسكر مصر ، لما انكسر الملك الناصر تلك المرة ، والمجازاة من جنس العمل ، كما قد قيل في المعنى :

فيوم علينا ، ويوم لنا ، ويوم نساء ، ويوم نسر

وفي هذه السنة ، أعنى سنة اثنتين وسبعائة ، فيها ، فى شعبان ، توفى الشيخ يحيى

ابن على بن يحيى الصنافيرى المجذوب ، رحمة الله عليه ، ولما مات دفن عند الشيخ ٣
أبى العباس البصير .

ومن الحوادث فى هذه السنة ، أن فى ثالث عشرين ذى الحجة ، وقعت زلزلة

عظيمة بالديار المصرية وأعمالها ، وكان قوة عمالها بشعر الإسكندرية ، فهدمت سورها ٦
والأبراج التى به ، وهدمت من المنار جانباً ، وفاض ماء البحر الملح ، حتى غرق
البساتين التى هناك .

وأما الديار المصرية ، فهدمت من جامع الحاكم جانباً ، وهدمت مئذنة المدرسة ٩
المنصورية ومئذنة جامع الظافر ، ومئذنة جامع الصالح الذى عند باب زويلة ، وهدمت
جانباً من حيطان جامع عمرو الذى بمصر العتيقة ، وتشقق من هذه الزلزلة مواضع
بالجبل المقطم . ١٢

فلما تزايد الأمر ، خرج الناس إلى الصحارى ، وهرب الناس من دكاكينهم
وتركوها مفتحة ، وخرجن النساء من بيوتهن مسبات ، وظنّ الناس أنها القيامة ،
وسقطت أما كن كثيرة على الناس ، وهلكوا تحت الردم ؛ وأقامت هذه الزلزلة تماود ١٥
الناس مدة عشرين يوماً .

قيل إن شخصاً كان (٢١٨ ب) يبيع اللبن ، فسقطت عليه الدار ، فظنّ الناس
أنه مات ، فأقام تحت الردم ثلاثة أيام بلياليها ، فلما شالوا عنه الردم ، وجدوا فيه الروح ، ١٨
وقد تصلب عليه أخشاب الدار فسلم ، وسلمت معه الجرّة اللبن التى كانت فى يده ،
وهذا من العجائب .

(٢-٤) وفى السنة ... البصير : كتب المؤلف هذا الخبر فى الأصل على هامش من (٢١٧ ب) .

(٧) التى : الذى .

(٧ و ١١) جانباً : جانب .

(٩ و ١٠) مئذنة : مادنة .

وكانت هذه الزلزلة في قوة الصيف ، فجاء عقيبها ريح أسود ، فيه سموم تلمح ،
حتى أغمى على الناس منها ؛ وقيل ، كانت هذه الزلزلة متصلة إلى دمشق ، والكرك ،
والشوبك ، وصفد ، وغالب البلاد الشامية ، وقد قيل في المعنى :

زلزلت الأرض نخاف الورى وابتهلوا إلى العزيز الحكيم
فليذكروا مع خوفهم قوله زلزلة الساعة شيء عظيم

وفيها توجه الشيخ تقي الدين بن تيمية ، ومعه جماعة ، إلى مسجد الفارنج بدمشق ،
وأحضروا معه جماعة من الحجارين ، وقطعوا صخرة كانت هناك يزورها الناس ،
فادعى أنها من البدع فأزالها .

وفي هذه السنة ، في جمادى الأولى ، توفي الشيخ نهار المغربي المجذوب ، رحمة
الله عليه .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعمائة

فيها توجه الأمير بيبرس ، الدوادر ، لعارة ما تهدم من الأبراج والصور بشعر
الإسكندرية ، بسبب الزلزلة ؛ فكان عدة ما سقط من الأبراج سبعة عشر برجاً ، ونحو
سته وأربعين بدنة .

ثم إن السلطان رسم للأمرء أن كل من كان ناظراً على جامع ، يصلح ما تهدم
منه في الزلزلة ، فامثلوا ذلك ، وشرعوا في إصلاح ما فسد من ذلك .

وفي هذه السنة جاءت الأخبار من بندا ، ب وفاة غازان ، الذي جرى منه
ما جرى ، وكان غازان من أولاد هولاكو الذي أخرب بندا ؛ وقيل إن غازان مات
مسموماً ، سمته زوجته في منديل الفرش ، وكان موته بالقرب من همدان ، وحمل إلى
(٢١٩ آ) تبريز ، ودفن بها ؛ وكان قد عول على أن يزحف على البلاد الشامية مرة

(١) تلمح : تلمح .

(٧) يزورها : يزورونها .

(١٧) ب وفاة : بوفات .

أخرى ، فكفى الله الناس شرّاً ، قال الوداعى :

قد مات غازان بلا علة ولم يمّت في السنة الماضية
بل شنعوا عن موته فأنشئ حياً ولكن هذه القاضية
وفي هذه السنة ، شرع السلطان في بناء مدرسته التي بجوار البيارستان ، وتقل
الباب الرخام الأبيض ، الذي على بوابة المدرسة الآن ، من مدينة عكا ، قيل كان على
باب كنيسة بها .

ثم دخلت سنة أربع وسبعمائة

فيها حضر إلى الأبواب الشريفة صاحب دققة ، من أعمال الصعيد ، وكان صحبته
هدية للسلطان ، من رقيق وجمال وأبقار وأغنام وغير ذلك ؛ فأخلع عليه السلطان
خلعة ، وأنزله بدار الضيافة .
وفي هذه السنة ، توفي الشيخ صدر الدين بن الوكيل ، وكان من فحول الشعراء ،
وله نظم جيد ، ومعان رقيقة ، فمن ذلك قوله :

قال لي من أحبّ والبدر يبدو من خلال السحاب ثم يغيب
ما حكى البدر قات وجهك لما يخفى عند ما يلوح الرقيب
وقوله أيضا :

قات وقد أسبل من لحاظه درّ دموع وفؤادى ذاهل
واجبنا من نرجس في روضة يقطر منه الماء وهو ذابل

ثم دخلت سنة خمس وسبعمائة

فيها ابتدأ الأنابكي ببيرس الجاشنكير بعمارة خانقته ، التي برحبة باب العيد ،
قبالة درب الأصفر ؛ قيل لما كملت عمارة هذه الخاتقة ، كتب الشيخ شرف الدين
ابن الوحيد ، للأنابكي ببيرس ، ختمة في سبعة أجزاء ، في ورق قطع البندادى

(٥) الذى : التى .

(٢١) ابن الوحيد : كذا في الأصل .

(٢١٩ ب) ، بقلم الشعر ؛ قيل إن الأتابكي بيبرس ، أصرف على ليقة هذه الأجزاء ألف وسبعمائة دينار ، حتى كتبت بالذهب ، ووضعها في الخائقة ، فهي من أحاسن الزمان ؛ وأوقف على هذه الخائقة الأوقاف الجليلة ، وجعل بها حضورا وصفوة ، ورتب لها أشياء كثيرة من أنواع البر والمعروف ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ست وسبعمائة

٦ فيها وقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال ، وشطح سعرها ، وعزّ الخبز من الأسواق ، وبلغ ثمن الرغيف الخبز نصفين فضة ، واشتد الأمر على الناس ، ولكن أقام ذلك مدة يسيرة ، وانحلّ السعر قليلا ، قليلا ، وظهرت الغلال في السواحل .

٩ وفيها جاءت الأخبار ، بأن صاحب اليمن ، الملك المؤيد هزبر الدين داود ، أظهر المخالفة للسلطان ، ومنع ما كان يرسله في كل سنة من التقادم للسلطان ؛ فعزّ ذلك على الملك الناصر ، وعيّن له نجريدة ، وشرع في عمارة جليات ومراكب كبار بسبب العسكر ، وعيّن جماعة من الأمراء والماليك السلطانية ، فلما دخل الشتاء ، اتقن عزم السلطان عن ذلك ، وبطل أمرها .

١٥ وفيها ادعى الشيخ نجم الدين أبو بكر بن خاسكان ، أنه قد أوحى إليه ، وأنه يخاطب بكلام يشبه الوحي ، أي : افعل ما هو كذا وكذا ، فقصّدوا يثبتوا عليه كفرا ، فاستتبوه ، فتاب من ذلك .

١٨ وفيها توفي الشيخ ضياء الدين الطوسي ، شارح « الحاوى » . - وتوفي الشيخ زين الدين الفارقي ، وغير ذلك من العلماء .

ثم دخلت سنة سبع وسبعمائة

٢١ فيها دبّت عقارب الفتن بين السلطان ، وبين الأمير سلا ، نائب السلطنة ، وثار بينهما فتنة عظيمة ، وكثر القيل والقال ؛ ثم إن السلطان قبض على جماعة من الخاصكية الذين (٢٢٠ آ) هم من عصبة سلا ، وكان من أعيان الخاصكية الذين

(١) ليقة : كذا في الأصل ، وهو من اللياقة ، بمعنى الزخرفة .

(١٢) اتقن : كذا في الأصل ، وتلاحظ العيفة العامة .

(٢٢) الذين : الذي .

قبض عليهم : بيبغا التركمانى ، وخاص ترك العالى ، وينتمو الفارسى ؛ فلما قبض عليهم أرسلهم إلى القدس ، فعز ذلك على الأمير سار .

وفيهما جاءت الأخبار من حلب بأن التتار قد تحركوا على البلاد ؛ فلما تحقق ٣ السلطان ذلك ، عرض العسكر وعين تجريدة ، وعين بها من الأمراء المقدمين : الأمير جبال الدين آقوش الموصلى المسمى قتال السبع ، وهو صاحب الفيظ المعروف به ، والأمير شمس الدين الذكر السلحدار . ٦

وعين معهما أمراء طبلخانات ، وأمراء عشراوات ، وخمسمائة مملوك سلطاني ، ورسم لهم بأن يتوجهوا إلى حلب ، ويقيموا بها إلى أن يصير من أمر التتار ما يكون . فلما شرعوا في أمر السفر ، وهموا بالخروج ، جاءت الأخبار من حلب بأن ٩ التتار وقع بينهم خاف ، ورجعوا إلى بلادهم ، فبطل أمر التجريدة .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعمائة

فيها ، في شهر رمضان ، أظهر السلطان أنه يحج ، وشرع في عمل اليرق ، وعين ١٢ صحبته جماعة من الأمراء ، وهم : الأمير أيدير الخطيرى الأستاذار ، وهو صاحب الجامع الذى فى بولاق ، ورسم بأن يتقدم إلى العقبة بالإفامات إلى أن يحضر السلطان . وعين الذى يخرج صحبته ، وهم : الأمير لاجين قرا ، أمير مجلس ، والأمير ١٥ آل ملك الجوكندار ، والأمير بلبان المحمدى أمير جاندار ، والأمير أيبك الروى ، والأمير بيبرس الأحمدي ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والماليك السلطانية . ١٨

فلما كان يوم السبت خامس عشرينه ، (٢٢٠ ب) خرج السلطان من القاهرة ، وصحبته الأمراء ، وأخذ عياله وأولاده ونساءه ، فعيد عيد الفطر فى بركة الحاج ، ثم ٢١ رحل .

فلما وصل إلى العقبة ، جمع الأمراء وصرح لهم بما عنده كمين فى خاطره من سار ،

(٨) وقيموا : وقيمون .

(١٥) الذى يخرج : كذا فى الأصل .

- النائب ، والأتابكي بيبرس الجاشنكير .
- ٣ ثم رسم للأمراء الذين [في] صحبته أن يرجعوا إلى القاهرة ، وأنه قد اختار الإقامة بالكرك ، وخلع نفسه من الملك ، وأشهد عليه بذلك .
- ثم إنه أرسل خزائن المال ، والجنائب والعصائب السلطانية ، والمهجن ، والكنابيش الزركش الذي كانوا معه ، صحبة الأمراء .
- ٦ وقرر معهم أن إذا وصل المحمل إلى العقبة ، يرسلوا حريم السلطان من هناك إلى الكرك ، وكان أمير المحمل في تلك السنة الأمير جمال الدين خضر بك بن نوكبيه ، فلما وصل حريم السلطان إلى العقبة ، أرسلوهم من هناك مع أمير إلى الكرك ، وصحبهم السنيح .
- ٩ وكان السلطان ، لما خلع نفسه من الملك ، كتب مع الأمراء مطالعة تتضمن أنه رغب عن الملك واختار الإقامة بالكرك ، وأن الأمراء يولّوا من يختاروه سلطانا عليهم ، فإنه ما بقي له رغبة في الملك .
- ١٢ قال الصلاح الصفدي : وكان سبب توجه الملك الناصر إلى الكرك ، فإنه كان مع سارر ، والأتابكي بيبرس ، كالمحجور عليه ، لا يتصرف في شيء من أمور المملكة إلا باختيارها .
- ١٥ حتى قيل إنه طلب يوما رميسا بدرى ، يرسله إلى الطبّاخ ، يصنعه شوى ، فمنع منه ، وقيل له حتى يجي ، كريم الدين ، كاتب الأتابكي بيبرس .
- ١٨ فعز ذلك على السلطان ، وأخذ في نفسه ، فأظهر أنه يريد الحج في (٢٢١ آ) تلك السنة ، فلما وصل إلى العقبة صرح بما عنده إلى الأمراء ، وتوجه من هناك إلى الكرك ، فدخلها يوم الأحد عاشر شوال ؛ فلما دخل الكرك ، زينت له ، ولاقاه نائب الكرك .
- ٢١

(٢) الذين : الذى . || [في] : تنقس في الأصل .

(٥) الذى كانوا : كذا في الأصل .

(١١) يولوا من يختاروه : كذا في الأصل .

- فلما وصل إلى خندق القاعة ، مُدّله جسر من الخشب ليعبر عليه إلى القاعة ، فلما
مشى عليه ، تكاثرت حوله المالك ، فأنكسر الجسر من تحت أرجلهم ، بعد أن
تقدّم فرس السلطان بخطوتين ، فتساقطت المالك إلى الخندق ، فانصدع منهم جماعة ٣
كثيرة ، ومات منهم واحد في الخندق ، فتفتكّد السلطان لذلك ؛ فلما طلع إلى قاعة
الكرك أقام بها ، ونزل نائب الكرك سكن بالمدينة هو وعياله .
- ٦ قيل ، لما رحل السلطان من العقبة ، وتوجّه إلى الكرك ، رجع الأمراء الذين
كانوا معه إلى القاهرة ، فدخلوا يوم السبت ثالث عشرين شوال .
- فلما بلغ بقيّة الأمراء مجيئهم ، ركبوا جميعا وطاعوا إلى القاعة ، فلما وقفوا على
مطالعة السلطان بأنّه رغب عن الملّك ، وأشهد عليه بالخلع ، واختار الإقامة بالكرك . ٩
- فلما تحقّقوا ذلك اشتوروا الأمراء في بعضهم ، وقالوا : « إن عاودنا السلطان
في العود إلى الملّك ، نخشى أنّه لا يجيب إلى ذلك ، وتطمع العربان في البلاد إلى أن
يعود الجواب إلينا بما يكون » ، ثم انفضّوا ولم ينتظم لهم أمر . ١٢
- فلما كان وقت الظهر ، اجتمع الأمراء بدار النيابة ، وضربوا مشورة فيمن يولّوه
السلطنة ؛ وكانت الكلمة يومئذ مجمّعة في سار ، نائب السلطنة ، فتكلّم الأمراء
معه بأنّ يتسلطن ، فامتنع من ذلك ، وحاف بالطلاق من نسائه أنّه ما يتسلطن . ١٥
- فترشح أمر الأتابكي بيبرس الجاشنكير إلى السلطنة ، وأنّ سار يكون نائب
السلطنة على حاله ، فانتظم الأمر (٢٢١ ب) على ذلك ، وتحالفوا الأمراء على السمع
والطاعة لبعضهم ، وتولى بيبرس الجاشنكير . ١٨
- فكانت مدّة الملك الناصر في هذه السلطنة الثانية ، عشر سنين وأياما ، وسيعود
إلى السلطنة ثالث مرّة ، كما يأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى .

(٢) مشى : مشا .

(٦) الذين : الذي .

(١٣) يولّوه : كذا في الأصل .

(٢٠) إن شاء : إنشاء .

وفي هذه السنة ، أعني سنة ثمان وسبعائة ، في ذى القعدة ، توفي الإمام الحافظ العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي شامة الحنبلي ، المؤرخ ، وكان عمدة المؤرخين ، صحيح النقل . ٣

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر محمد بن قلاون ، على سبيل الاختصار من ذلك .

ذكر

سلطنة الملك المظفر ركن الدين

بيبرس الجاشنكير المنصوري

وهو الثاني عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ يبيع بالسلطنة بعد خلع الملك الناصر محمد بن قلاون ، فحضر الخليفة المستكفي بالله سليمان ، والقضاة الأربعة ، وبايعه بالسلطنة ، وتلقب بالملك المظفر . ٩

فركب بشعار السلطنة من الإيوان الأشرفي ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ومشت بين يديه الأمراء حتى جلس على سرير الملك ، وباسوا له الأرض ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، وكان ذلك يوم السبت بعد العصر ، ثالث عشرين شوال ، من سنة ثمان وسبعائة . ١٢

قيل لما كتب الخليفة تقليدا للملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، ألبسه خلعة السلطنة ، وهي عمامة سوداء مدورة ، وجبة سوداء ، بعذبة زركش ، وسيف حمائي ، فشق القاهرة وهو في هذه الأبيّة ، والعاحب ضياء الدين النشاي حامل التقليد على رأسه في كيس حرير أسود . ١٨

وكان هذا عادة السلاطين ، يوم يكتب لهم التقليد ، يلبسوا خلعة السلطنة ، ويشقوا القاهرة ، وتزين لهم ، ويكون يوما مشهودا ، انتهى ذلك . ٢١

(٢٠) عادة : نادت . || يلبسوا : كذا في الأصل .

(٢١) وبشقوا : كذا في الأصل . || يوما مشهودا : يوم مشهود .

فلما تمّ أمره في السلطنة ، أخلع على الأمير سار ، واستقرّ به نائب السلطنة ، على عادته ؛ وأخلع في ذلك اليوم على جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين ، حتى قيل أخلع في (٢٢٢ آ) ذلك اليوم نحو ألف وثلثمائة خلعة ، ما بين مشمرات ، وخلعة ، ٣ وكوامل تحمل بسمور ، انتعى ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وسبعمئة

فيها ، في ربيع الأول ، توفي قاضي القضاة الحنبلي شرف الدين الحراني ؛ فأخلع ٦ السلطان على الشيخ سعد الدين الحارثي الحنبلي ، واستقرّ به قاضي قضاة الحنابلة ، عوضاً عن الحراني . - وفيها توفي الشيخ نجم الدين بن الرفعة ، إمام الشافعية .

وفي هذه السنة ، كانت وفاة الشيخ تاج الدين بن عطا الله أبو العباس أحمد بن ٩ محمد بن عبد الكريم الجذامي ثم الإسكندراني ؛ وكان مالكي المذهب ، صاحب الشيخ أبا العباس المرسى ، وله تصانيف كثيرة ، منها : كتاب التنوير في إسقاط التدبير في الحكمة ، وكتاب لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي الحسن ؛ ولما مات ١٢ دفن بالقرافة الصغرى ، رحمة الله عليه ، والدعاء عند قبره بحجاب .

ومن الحوادث في هذه السنة ، أن النيل توقف عن الوفاء إلى سابع عشرين توت

من الشهور القبطية ؛ ثم نقص في تاسع عشر بابه ، فضجّ الناس لذلك ، وتشحّطت الغلال ، ١٥ وارتفع الخبز من الأسواق ، واضطربت الأحوال جداً ، فرسم السلطان بفتح السدّ من غير وفاء ، وقد نقص عن الوفاء ثلاثة أصابع ، فلما فتح ، لم يخلق المقياس لذلك ؛ وفيه يقول بدر الدين بن الصاحب : ١٨

جاءوا بردع وكذب وفرّحوا قلب الورى
وقيل لى النيل ونى فقلت هذا ما جرى

واستمرّ إلى سابع عشرين بابه ، فنقص جملة واحدة ، فكان منتهى الزيادة ٢١ خمسة عشر ذراعا وإحدى وعشرين أصبعا ، فشرقت البلاد ، وضجّت العباد ؛

(٤) بسمور : بسمور .

(٧) واستقر : واستقر .

قال النصير الجملى :

إنَّ عَجَلَ النوروز قبل الوفا عَجَلَ للعالم صنع القفا

فقد كفى من دمهم ما جرى وما جرى من نيلهم ما كفى

٣

قال الصارى إبراهيم بن دقاق ، فى تاريخه : إنَّ فى (٢٢٢ ب) هذه الواقعة

صَنَّفُوا أهل مصر كلاما ولَحَنُوهُ ، وصاروا يَغَنُّون به العوام ، فى أما كن المفترجات

وغيرها ، وهو هذا :

٦

سلطاننا رُكَيْن ونايبو دقين

يجينا المآ من أين

هاتوا لنا الأعرج يجى المآ ويدحرج

٩

وكان الأمير سار ، النائب ، أجروود ، فى حنكه بعض شعرات ، لأنه كان

من التتار الخطاى ، فسَمَّته العوام « دقين » ، وكان الملك الناصر محمد به بعض عرج ،

فسَمَّته العوام « الأعرج » ، وكان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين فسَمَّته العوام

١٢

« ركين » .

فلما فشى هذا الكلام بين الناس ، بلغ السلطان ، فرسم للوالى أن يقبض على

جماعة من العوام ، فقبض على جماعة منهم ، نحو ثلثماية إنسان ، فرسم السلطان بضرب

١٥

جماعة منهم بالمقارع ، وإشهارهم فى القاهرة على جبال ، ورسم بقطع السنة جماعة منهم ؛

وقد قال القائل فى المعنى :

إنَّ كان خاق نيلنا قبل الوفا فالكسر منه لكل قلب فى الورى

١٨

والآن نادوا مذ وفى فأجبتهم صدق المخبر والحديث كما جرى

وقد اضطربت الأحوال فى أوائل دولة المظفر بيبرس ، وصار العسكر فريقين ،

فرقة مع الملك الناصر ، وفرقة مع بيبرس الجاشنكير ، والأكثر كان مع الملك الناصر .

٢١

ثم بلغ الملك المظفر بيبرس ، أن جماعة من الأمراء كاتبوا الملك الناصر ، وهو

(٣) كفى : كفا .

(١٩) وفى : وفا .

- بالكرك ، فقبض عليهم ، وأرسلهم إلى السجن بشفر الإسكندرية ؛ وقبض على جماعة من المماليك الناصرية ، وأرسلهم إلى قوص ، وكان عدتهم نحواً من ثمانية مملوك .
- فلما وقع ذلك من الملك المظفر ، نفر عنه قلوب الرعية قاطبة من الأتراك والعوام ، واختار كل أحد منهم عود الملك الناصر .
- ثم صار جماعة من المماليك الناصرية يتسحبون تحت الليل من القاهرة ، ويتوجهون إلى عند الملك الناصر بالكرك ، ويتركون بيوتهم وأولادهم .
- فلما بلغ الملك المظفر ذلك ، أرسل إلى الملك الناصر الأمير منغلطاي ، (٢٢٣ آ) والأمير قطلوبغا ، وعلى أيديهما مطالعة من عند الملك المظفر ، فكان مضمون مطالعة الملك المظفر إلى الملك الناصر : « إذا أنت لم ترجع عن مكاتبتك للأمراء ، وإلا قتلتك من الكرك إلى القسطنطينية ، كما فعل الملك الأشرف خليل مع أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري » ، واستكثر فيها من التهديد عليه ، واستوعده بكل سوء .
- فلما وصلت هذه المطالعة إلى الملك الناصر ، اشتد غضبه على الأمير منغلطاي ، وقطلوبغا ، فأغاظ عليه الأمير منغلطاي في القول ، فعراه وضربه بالمقارع ، ثم اعتقله هو وقطلوبغا في الحب بقاعة الكرك .
- ثم إن الملك الناصر أرسل مكاتبات إلى نائب حلب ، ونائب طرابلس ، ونائب صدد ، ونائب حماة ، وهو يقول لهم فيها : « لما اشتد عليّ الضنك من الأمراء ، خرجت من مصر ، وتركت لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر الأماكن ، وأضيق المساكن ، ليستريح خاطري من النكد ، فما يرجعوا عني ، وأرسل المظفر يهددني بالنفي إلى القسطنطينية ، كما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب مني

(٢) مملوك : مملوكا .

(٨) أيديهما : أيدهما .

(١١) البندقداري : البندقداري .

(١٨) يرجعوا : كذا في الأصل ، ونلاحظ استعمال الباء في أول الفعل المضارع المستمر ،

وهو أسلوب عامي شائع في لغتنا الحاضرة .

- ما لا أقدر عليه، وأنتم تعلموا ما لوالدى عليكم من العتق والتربية ، وما أظنكم ترضوا
 لى بهذا الحال ، فإما إنكم تكفونى أمر هؤلاء الأمراء الذين تعصبوا علىّ ، وإما إنى
 ٣ أتوجه إلى بعض ملوك الشرق ، وألتجىء إليه ، قبل أن يرسلونى إلى القسطنطينية » .
- ثم إن الملك الناصر أرسل مطالعة المظفر بيبرس ، التى أرسلها له ، إلى نائب
 حلب ، وكان الذى توجه إلى النوّاب بمطالعات الملك الناصر شخص يسمى تاج
 الدين أوزان ، من أبناء العجم . ٦
- فلما وصلت هذه (٢٢٣ ب) المطالعات إلى النوّاب ، فأخذتهم الحمية إلى ابن
 أستاذهم ، وتعصبوا له . وأرسلوا يقولون له : « نحن ممالكك وممالك أبيك ، فهما
 ٩ شئت ، نحن طوع يدك ، وتحت أمرك » .
- فلما عاد الجواب إلى الملك الناصر بالطاعة له ، فرح بذلك ، وأخذ فى أسباب
 التوجه إلى القاهرة ، فخرج من الكرك ، ومعه جماعة من العربان .
- ١٢ فلما وصل إلى البرج الأبيض ، من أعمال البلقاء ، أرسل آقوش الأفرم ، نائب
 الشام ، يعرف الملك المظفر بذلك ، وكان نائب الشام من عصبة الملك المظفر .
- فلما وقف المظفر على مطالعة نائب الشام ، أرسل خلف سار ، النائب ، وضرب
 ١٥ معه مشورة فى أمر الملك الناصر ، فأشار سار أن يرسل إليه تجريدة ؛ فعرض العسكر ،
 وعين منهم جماعة ، وعين من الأمراء المقدمين أربعة ، وهم : الأمير بانار صهره ،
 والأمير أيبك البغدادى ، والأمير الدكر السلجدار ، والأمير آقوش الذى كان نائب
 ١٨ الكرك ، وعين معهم ألفى مملوك .
- ثم إن الملك المظفر تفق على العسكر ، واستحثهم فى سرعة التوجه إلى الشام ؛
 فخرجوا يوم السبت تاسع رجب ، ونزلوا بالريدانية ، فأقاموا بها يوما وليلة ، ثم عادوا
 ٢١ إلى القاهرة ، ففتاءل الناس بزوال الملك المظفر .

(١) ما لا : مال لا . || تعلموا : كذا فى الأصل . || ترضوا : كذا فى الأصل .

(٢) تكفونى : تكفونى . || التدين : الذى .

(٥) شخص : شخصا .

وكان سبب عود الأمراء والعسكر ، وهو أن ورد كتاب من نائب الشام ، أن
 الملك الناصر تسلّم الشام ، ودخل إليها في موكب عظيم ، وزينت له ، وكان يوم
 دخوله يوما مشهوداً ، وأن جميع النواب دخلوا تحت طاعته ، وحمل الأمير الحاج بهادر
 القبة والطير على رأسه ، وضج أهل الشام له بالدعاء ، ونزل بالقصر الأباقي الذي
 (٢٢٤ آ) بالميدان الكبير ، فذلّه هناك الأمير يابغا السنجري ، نائب قلعة دمشق ،
 مدّة عظيمة .

ثم إن الملك الناصر أخلع على الأمير آقوش الأفرم ، وأقرّه نائب الشام ، على عادته ؛
 وأخلع على الأمير أسندمر كرجي ، وأقرّه نائب طرابلس ، على عادته ؛ وأخلع على
 الأمير بكتمر الجوكندار ، وأقرّه نائب صفد ، على عادته ؛ وأخلع على الأمير تمر
 الساق ، وأقرّه نائب حمص ، على عادته ؛ وأخلع على الأمير علي نائب حماة ، وأقرّه
 على عادته ؛ ثم حضر إليه الأمير قرا سنقر ، نائب حاب ، فأخلع عليه ، وأقرّه على
 عادته في نيابة حاب ؛ وهؤلاء النواب كلهم منصورية ، ممالك أبيه .
 فلما كان يوم الجمعة ، خطب باسم الملك الناصر على منابر دمشق وأعمالها ؛ فلما
 تحقّق الملك المظفر ذلك اضطربت أحواله ، وضاعت الدنيا عليه ، ونسى حلاوة اللحم
 بمرارة الأشنان ، كما قيل :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاريه
 فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان ، دخل الأمير سار ، النائب ، ومعه
 جماعة من الأمراء ، إلى عند الملك المظفر ، وقالوا له : « يامولانا السلطان ، إنّ غالب
 الأمراء والمالّيك ، توجّهوا إلى عند الملك الناصر ، ووقع الاختيار على عوده ، ومن
 الرأي أن ترسل إلى الملك الناصر تسأله في مكان تتوجّه إليه أنت وعيالك ، فلعله

(١) كتاب : كتابا .

(٢) يوم : يوما .

(١٥) الأشنان : كذا في الأصل .

(١٦) تصفو : تصفوا .

يجيبك إلى ذلك ، وإن لم تبادر إلى هذا ، وإلا دهمتكَ العساكر ويهجموا عليك وأنت هنا » .

٣ فقال المظفر : « ومن يتوجّه إلى عند الملك الناصر بهذه الرسالة ؟ فقال الأمير سار : « يتوجّه إليه الأمير بيبرس الدوادار ، فإنه فقيه ومن ذوى العقول ، ويأخذ صحبته الأمير بهادر آص » .

٦ فلما وقع الاتفاق على ذلك ، كتب الملك المظفر كتابا إلى الملك (٢٢٤ ب) الناصر وهو يترقّى له فيه ، ويسأله أن ينعم عليه بمكان يتوجّه إليه هو وعياله ، إما الكرك ، وإما صهيون ، وإما حاة .

٩ ثم إن الملك المظفر أحضر القضاة الأربعة ، وخلع نفسه من الملك ، وأشهد عليه بذلك ، وجّهز الإسمهاد على يد الأمير بيبرس الدوادار ، وبهادر آص ، فخرجا من يومهما وتوجّها إلى الشام .

١٢ ومن غرائب الاتفاق أن الساعة التي خلع فيها الملك المظفر ، كانت هي الساعة التي ركب فيها الملك الناصر ، وخرج من الشام قاصدا إلى الديار المصرية ، فكانت ساعة سعد ؛ واستمرّ في هذه الساطنة حتى مات على فراشه بعد مدّة طويلة ، كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

١٨ فلما وصل الأمير بيبرس ، والأمير بهادر آص ، إلى غزّة ، تلاقيا مع الملك الناصر هناك ، وباسا له الأرض ، وقدّما له مطالعة الملك المظفر ، والخلع الذى أهد به المظفر على نفسه .

٢١ فلما رأى الملك الناصر ذلك فرح ، وقال : « الحمد لله ، الذى أمان الله دماء المسلمين عن القتال » ، ثم أخلع على الأميرين خلعين ، وكتب معهما أمانا إلى الملك المظفر ، وأرسل له منديل الأمان على أيديهما ، ورسم لهما أن يتوجّها من يومهما إلى

(١) ويهجموا : كذا فى الأصل .

(٩) القضاة الأربعة : الأربع القضاة .

(١٦) تلاقيا : تلاقا .

القاهرة، حتى يطمئن المظفر على نفسه، وأخرجهما من غزوة في يومهما، وجدا في السير.
هذا ما كان من أمر الملك الناصر لما توجه إليه الأمير بيبرس ، والأمير
بهادر آص .

٣

وأما ما كان من أمر الملك المظفر بيبرس ، بعد توجه الأمير بيبرس ، وبهادر ،
فإنه دخل إلى الخزائن وأخذ منها ما قدر عليه من مال ونحف وسلاح ، وعين معه
من مماليكه المشتراوات سبعمائة مملوك ، وأخرج لهم الخيول من الاصطبل السلطاني ،
(٢٢٥ آ) وعين الأمير بكتوت الفتاح ، والأمير أيدير الخطيري ، والأمير قجماس ،
بأن يتوجهوا معه .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشر رمضان ، نزل الملك المظفر من القاعة بعد
العشاء ، من باب الدرفيل ، وأخذ معه من الاصطبل السلطاني ثلاث طوائل خيل من
الخيول الخاص .

فلما بلغ العوام نزوله، اجتمع له السواد الأعظم عند باب القرافة ، ورجوه بالحجارة
والمقاليح ، وسبوه سباً قبيحاً ، فلولا أنه أشغلهم بشيء من الفضة نثرها لهم ، وإلا
كان قتل لا محالة ، فإنه أخش في حقهم ، وشوش على جماعة منهم كما تقدم ؛ فلما خلاص
منهم ، توجه إلى بركة الحبش ، فأقام بها ساعة حتى تكامل عسكره ، ثم توجه إلى
نحو أطنيح .

فلما أصبح الصباح ، أشيع بين الناس هروب الملك المظفر من القاعة ، فلما جرى
ذلك دخل الأمير سلار ، النائب ، وختم على خزائن المال ، والحواصل السلطانية ،
وأطلق من كان مسجوناً من الأمراء في الأبراج بالقاعة .

ثم إنه أرسل يكتاب الملك الناصر بما وقع من أمر المظفر بيبرس ، وأرسل
الكتاب على يد آلطينغا الجدار .

٢١

فلما كان يوم الجمعة ، خطب باسم الملك الناصر على منابر القاهرة، قبل دخول الملك
الناصر إليها .

٣ فلما عاد الأمير بيبرس الدوادار ، والأمير بهادر آص ، من عند الملك الناصر ، وجدا الملك المظفر قد توجه إلى نحو أطفيج ، فأرسلا له الأمان وهو في أطفيج ؛ فكانت مدة غيبة الأمير بيبرس الدوادار ، والأمير بهادر آص ، سبعة أيام ، وعادا بالأمان إلى الملك المظفر .

٦ ثم إن الملك الناصر خرج من غزة ، وجد في السير ، فوصل إلى خانقة سرياقوس . ليلة عيد الفطر ، فبات هناك ، وصلى صلاة العيد ، فخرج إليه القضاة الأربعة (٢٢٥ ب) والأمير سار ، النائب ، وسائر الأمراء ، فلما مثلوا بين يديه باسوا له الأرض ، ودخلوا في خدمته .

٩ ذكر

عود الملك الناصر محمد بن قلاوون

إلى السلطنة

١٢ وهى السلطنة الثالثة ، دخل إلى القاهرة يوم الخميس ثاني شوال سنة تسع وسبع مائة ، فزيّنت له القاهرة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، لكن طلع من التراب ، ففرشت له الشقق الحرير من رأس الصوة إلى القامة ، فطلع من باب السلسلة ، وجلس في المقعد الذى بالاصطبل السلطاني ، وقدامه الأوزان والشبابة السلطانية ، وكان يوما مشهودا ، وفي ذلك يقول العسلى :

١٨ تثنى عطف مصر حين وفى قدوم الناصر الملك الخبير
وذلل الجشنكير بلا قتال وأمسى وهو ذو جاش نكير
إذا لم تعضد الأقدار شخصا فأول ما يراع من النصير

٢١ فلما جلس بالمقعد ، حضر الخليفة المستكفى بالله سليمان ، والقضاة الأربعة ، وهم : قاضى قضاة الشافعية بدر الدين بن جماعة ، وقاضى قضاة الحنفية شمس الدين السروجى ، وقاضى قضاة المالكية زين الدين بن مخلوف النورى ، وقاضى قضاة الحنابلة سعد الدين الحارثى ؛ وحضر كاتب السرّ شرف الدين بن فضل الله العمرى ، وحضر الوزير ضياء الدين النشأ .

- فلما تكامل المجلس ، التفت الملك الناصر إلى القاضي بدر الدين بن جماعة ، وقال له : « كيف تفتي بأني خارجي ، ويجب قتالي » ؟ فخاف القاضي بدر الدين بالطلاق ثلاثة ، أنه ما علم أن السؤال عن السلطان ، وإنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتي . ٣ ثم إن الخليفة بايعه بالسلطنة ، (٢٢٦ آ) وأحضرت له خادمة السلطنة ، وهي جبة سوداء بعذبة زركش ، وعمامة سوداء مدورة ، وسيف حمالي .
- ٦ فركب من باب السلسلة والأمراء قدّامه مشاة ، حتى طلع إلى القلعة ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضجّ له الناس بالدعاء ، ودقّت له البشائر .
- ٩ ثم أخلع على الخليفة ، ونزل [إلى] بيته ؛ وأخلع على النواب الذين حضروا معه خلع الاستمرار ، وأخلع على القضاة الأربعة ، وأرباب الدولة من المتعممين والأمراء . ثم بعد انقضاء الموكب ، طلع إليه الشيخ شمس الدين بن عدلان ، فاستأذن في الدخول عليه ، فأرسل يقول له : أنت أفتيت أنه خارجي وقتاله جائز ، مالك عليه ١٢ دخول ، فقد كفاني فيك وفي ابن الراحلي قول الأديب شهاب الدين السارساحي ، حيث قال :

- | | | |
|----|-------------------------------|--------------------------------|
| ١٥ | وناصر الحق وافي وهو منتصر | وتلى الظفر لما فاته الظفر |
| | كادت على عصبة الإسلام تقتصر | وقد طوى الله من بين الورى فتنا |
| | أثواب غارية في طولها قصر | فقل لبيرس إن الدهر ألبسه |
| ١٨ | لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا | لما تولى ، تولى الخير من أمم |
| | لا النيل أوفى ولا واقاهم مطر | وكيف تمشي به الأحوال في زمن |
| | وابن الرحل قل لي كيف ينتصر | ومن يقوم ابن عدلان بنصرته |

- ٢١ قال السبكي : وكلهم مظلومون مع الملك الناصر ، فإنهم أفتوا بالحق ، ولكن أين من يقضي على نفسه ، ولو بالحق (٢٢٦ ب) .

وفي أثناء ذلك اليوم ، دخل الأمير سلا ، النائب ، على السلطان وباس الأرض ،

- وسأل السلطان أن يعفيه من النيابة ، وأن يخرج من مصر ، ويتوجه إلى الشوبك ، فيقيم بها حتى ينقضى عمره ، وكانت الشوبك جارية في إقطاع سار .
- ٣ فلما سأل السلطان في ذلك ، امتنع ، فبكى سار ، وتضرع إليه ، وقال : « قد كبر سنّى ، ووهن حيلى » ، فلا زال يتضرع إلى السلطان حتى أجابه إلى ذلك ، وأخلع عليه خلعة ، وخرج من يومه إلى الشوبك .
- ٦ فكانت مدة نيابته بالديار المصرية إحدى عشرة سنة وكسور ، وقد فاته السلطنة من قبل الجاشنكير ، وكان أميراً دينا خيراً ، كثير البرّ والمعروف ، وافر العقل ، ثابت الجنان ، ساس الناس في أيام نيابته أحسن سياسة ، وكانت الناس راضية عنه .
- ٩ فلما خرج من مصر ، وتوجه إلى الشوبك ، عمل السلطان الموكب ، وأخلع على الأمير بكتمر الجوكندار ، واستقرّ به نائب السلطنة ، عوضاً عن سار .
- ثم إن السلطان أرسل الأمير بيبرس الدوادار ، والأمير بهادر آص ، إلى عند الملك المظفر ، وكان قد رحل من أطفيج ، وأتى إلى أخميم ؛ فلما توجهوا إليه ، تطلقاً معه ١٢ في القول ، حتى استخلصا منه ما كان أخذه من الأموال من الخزائن ، عند ما توجه إلى أطفيج ، واستخلصا منه الخيول التي كان أخذها من الاصطبل السلطاني ؛ ١٥ واستخلصا منه المماليك الذين كانوا معه .
- ثم قالوا له : « إن السلطان يقول لك امض إلى الكرك ، وأقم بها ، ويرتب لك ما يكفيك » ، فقال الملك المظفر : « السمع والطاعة » ، ثم رحل من يومه ، وتوجه ١٨ من هناك إلى السويس .
- ثم إن الأمير بيبرس ، (٢٢٧ آ) والأمير بهادر ، رجعا إلى القاهرة ، وصحبتهما الأموال والخيول والمماليك الذين كانوا مع الملك المظفر ، فلما حضروا بين يدي الملك ٢١ الناصر ، ردّ الأموال إلى الخزائن ، والخيول إلى الاصطبل ، والمماليك إلى الطباق .

(٣) فبكى : فبكا .

(١٥ و ٢٠) الذين : الذى .

(١٦) امض : امضى .

ثم لما بلغ الملك الناصر توجه المظفر من هناك إلى السويس ، أرسل الأمير أسندمر
كرجى خلفه ، فقبض عليه من أثناء الطريق ، وأحضره إلى القلعة تحت الليل ، فسجن
بالبرج الكبير .

فلما كان يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة ، جلس السلطان وقت الظهر في محل
خلوة ، ثم طاب الملك المظفر ، فلما مثل بين يديه وبخه بالكلام ، وعدد له ما وقع منه
من القبائح في حقّه .

ثم إن السلطان أحضر المشاعلى ، وأمر بخنق المظفر بيبرس بين يديه ، فخنق حتى
مات ، وقضى نحبّه ، وكانت وفاته في يوم الخميس المذكور أعلاه ، من سنة تسع
وسبعمائة .

فلما مات ، أرسل السلطان إلى زوجته ، وأمرها أن تدفنه ، فحمل من القلعة ،
ودفن في تربة في القرافة الصغرى ؛ ثم بعد مدة شنع فيه بعض الأمراء عند السلطان ،
فرسم بنقله ، ودفنه في خانقته التي أنشأها عند درب الأصفر ، بالقرب من خانقة سعيد
السعداء ، فدفن بها في أواخر سنة تسع وسبعمائة .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ، أحد عشر شهرا وأياما ، وكانت دولته أشر
أياما مع قصرها ، وقع فيها الغلاء ، وشرقت البلاد من عدم النيل ، ووقع الفناء ،
والفتن بين الأمراء ، وثقل أمره على الرعية ، ولم ير الناس في أيامه ما يسهّم من
الخير ، بل كانت كلها أنكادا وشرورا ، ووقوف حال بين الناس (٢٢٧ ب) .

وكان الملك المظفر بيبرس جميل الصورة ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، أنمهل
العينين ؛ وكان وافر العقل ، عارفا بأحوال المملكة ، كفوا للسلطنة ؛ وكان كثير البر
والصدقات ، ولا سيما ما فعله في خانقته ، التي أنشأها ، من البر والمعروف ، ولكن
تلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بغيره ، كما قد قيل في المعنى :

يا طالب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار

(١٦) ولم ير : ولم يرا .

(١٧) حل : حالا .

- دار متى ما أنضحكت في يومها أبكت غدا تباً لها من دار
انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، وذلك على سبيل
الاختصار من أخباره . ٣
- وكانت تلك السنة شديدة جدًّا ، فيها توفى جماعة من الأعيان ، منهم : قتل الملك
المظفر بيبرس الجاشنكير ؛ وتوفى الإمام نجم الدين بن الرفعة الشافعي ؛ والشيخ شمس
الدين السروجي الحنفي ؛ وعزّ الدين النراوى ؛ ونجم الدين بن العنبري الواعظ ؛ ٦
والشيخ كريم الدين الإربلي ؛ وعبد الله الحلي ، ناظر الجيش ، واسمه بهاء الدين ؛
والأسعردى ، المحتسب ، وغير ذلك من الأعيان .
- ثم دخلت سنة عشر وسبعمائة ٩
- فيها عزل السلطان قاضي القضاة الشافعية بدر الدين بن جماعة القدسي ؛ وولّى عوضه
القاضي جمال الدين سليمان الزرعي الشافعي ، وذلك في ربيع الأول من تلك السنة .
- وعزل قاضي القضاة الحنفي شمس الدين السروجي ؛ وولّى عوضه القاضي شمس ١٢
الدين محمد بن عثمان الجزري .
- وعزل قاضي القضاة الحنبلي سعد الدين الحارثي ؛ وولّى عوضه القاضي تقي الدين ١٥
ابن قاضي القضاة عزّ الدين .
- فعزل الثلاثة في تلك السنة ، وأبقى قاضي قضاة المالكية زين الدين بن مخلوف
النوري ، لأنه كان وصى الملك الناصر .
- ثم عزل صاحب ضياء الدين النشأى ؛ وولّى الناصري محمد بن الأمير بكتر ١٨
الحاجب ، عوضاً عن ضياء الدين النشأى .
- وفيها قبض السلطان على أخى الأمير سلار ، وقد بلغه عنه (٢٢٨ آ) أنه اتفق ٢١
معه جماعة من الأمراء على أنهم يقتلوا السلطان ، فبادر إليهم وقبض على أربعة عشر
-
- (٦) السروجي : سوف يرد ذكر وفاة السروجي هنا فيما بعد ، في نهاية أخبار سنة
عشر وسبعمائة .
(٢٠) أخى : أخو .
(٢١) يقتلوا : كذا في الأصل .

أميرا في يوم واحد ، وأودعهم في السجن بالقاعة .

ثم إن السلطان أرسل يكتاب سار بما وقع من أخيه ، وعين الأمير سنجر الجاولي ، بأن يتوجه إلى سار ويحضره من الشوبك ، فتوجه إليه وغاب عشرة أيام ٣ وحضر ، وصحبته سار مقيدا ، فأودعه السلطان في السجن بالقاعة ، فأقام به أياما ، وأشيع موته .

وكان أصل سار من ممالك الملك الصالح نور الدين على بن قلاون ، الذي تسلطن في حياة والده قلاون ، وقد تقدم ذكر ذلك .

قال الصالح الصفدي : لما سجن سار ، بعث إليه السلطان بأكل من السماط ، فردّه عليه ولم يأكل منه شيئا ، وأظهر الحنق ، فنع عنه السلطان الأكل والشرب ، ٩ فأقام على ذلك أياما ؛ فلما تزايد به الجوع أكل أخفاه من رجايه ، من شدة الجوع ؛ فلما بلغ السلطان ذلك رق له ، وأرسل يقول له : « قد عفا عنك السلطان » ، ففرح بذلك ، وقام ومشى خطوات ، ثم وقع ميتا من شدة الجوع . ١٢

وكان سار مربع القامة ، غليظ الجسد ، أسمر اللون ، خفيف اللحية ، له بعض شعرات في حنكه ، وكان تترى الجنس ؛ وكان شديد الغضب ، صعب الخلق . لكن كان ترفا في ملبسه ، وهو الذي ينسب إليه السالاري إلى الآن ، والمناديل ١٥ السالارية ، وقد اقترح أشياء كثيرة من الملبوس ، ومن قماش الخيل ، وآلة الحرب ، وهي منسوبة إليه إلى اليوم .

وكان كثير البرّ والصدقات ، وكان في سعة من المال ؛ ولما مات بالقاعة ، غسل ١٨ (٢٢٨ ب) وكفن ، ودفن في المدرسة الجاولية ، التي عند الكباش .

ثم إن السلطان احتاط على موجود الأمير سار ، فظاهر له من الموجود ما لا يسمع بمثله . ٢١

قال محمد بن شاكر الكتبي : وقفت على قوائم بخط القاضي جمال الدين بن الفورية ،

(٣) أيام : أياما .

(٩) شيئا : شئ .

- تتضمّن ما اشتمل عليه موجود الأمير سلاّر ، وهو ما ضبط أول يوم ، ذهب عين مائتي ألف دينار ، ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم ؛
- ٣ وصناديق إفرنجي مصفحة بنجاس ، ضمنها فصوص ياقوت أحمر بهرمان رطلين ، فصوص بلخش رطلين ونصف ، فصوص زمرد ذبابي عشرين رطلا ، فصوص ماس وعين الحرّ ثلثماية قطعة ، لؤلؤ كبار مدور وزن مثقال كل حبة العدة مائة وخمسين حبة .
- ٦ ثم في يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى ، ظهر له من الذهب العين خمسة وخمسين ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف درهم ؛ ومن الفصوص المختلفة رطلان ؛ وظهر له مصاغ من ذهب ، ما بين خلاخيل وسوار ، الوزن أربعة قناطير مصري ؛
- ٩ ووجد عنده طاسات فضة عمل الفرنج ، وأطباق فضة ، وطشوت فضة ، وأهوان ذهب ، الوزن ستة قناطير .
- ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشره ، ظهر له من الذهب العين خمسة وأربعون ألف دينار ، ومن الفضة ثلثماية ألف وثلثون ألف درهم ؛ ووجد عنده طامات فضة للصناجق ، وقطريات فضة ، الوزن ثلاثة قناطير .
- ١٥ ثم في يوم الأربعاء تاسع عشره ، ظهر له من الذهب العين ألف ألف دينار ، ومن الفضة ثلثماية ألف درهم ؛ ووجد عنده أقبية (٢٢٩ آ) حرير بفرو قاقم ثلثماية قباء ، ووجد عنده أقبية حرير أيضا عمل الدار ملون بفرو سنجاب ، العدة أربعماية قباء ؛ ووجد عنده سروج ذهب ، العدة مائة سرج بمياتر زركش على نخل أحمر ؛ ووجد
- ١٨ عنده من الشقق الحرير الطارد وحش وغيره ألف شقة ، ووجد له عند صهره الأمير موسى ثمانية صناديق لم يعلم ما فيها .
- ووصل له مما كان أخذه صجبتة لما توجه إلى الشوبك ، من الذهب العين ، مائة
- ٢١ ألف دينار ، ومن الفضة أربعماية ألف درهم ؛ ومن القماش الملون ثلثماية قطعة ؛ ووجد عنده من الخيام ستة عشر نوبة ، وفيهم خرّكة خشب بنشاء أطلس أحمر مرقوم بزركش .

ووجد عنده من الخيول الخاص ثلثماية رأس دون الدشار ، ومن البغال مائة وعشرون قطارا ، ومن الجمال مائة وعشرون قطارا .

وظهر له غبأة في داره ، فيها أكياس ذهب ما يعلم لهم عدة ؛ ووجد له غبأة ٣ أيضا ، في مكان عند بيت الخلاء ، فيها ذهب سكب بغير أكياس ما يعلم قدره .

ووجد له من الأملاك ، والضياع ، والمعاصر ، والشون ، والراكب ، ما لا ينحصر ، حتى قيل كان متحصّله في كل سنة من أجرة أملاكه وضياعه ٦ ومستأجراته وحماياته ، ما ينيف عن مائة ألف دينار في كل سنة .

ووجد عنده من الماليك ، والحدّام ، والعبيد ، والجوار ، نحو ثلاثة آلاف رأس ؛

ووجد عنده من الفرش ، والمقاعد والبسط الرومي ما لا ينحصر ؛ ووجد عنده من ٩ الأغنام والأبقار ما لا يحصى ؛ ووجد عنده من الغلال ثلثماية ألف أردب في الشون على بعضها ، ومع هذا مات بالجوع وهو في السجن ، فسبحان المانع .

قال بعض المؤرّخين : عجبت من أمر سلاّر في جَمْع هذه الأموال العظيمة ، وكانت ١٢ مدّته في نيابة السلطنة إحدى عشرة سنة ، (٢٢٩ ب) فكيف حوى هذه الأموال العظيمة في هذه المدّة اليسيرة ؟ والذي يظهر بعين الفراسة ، إما أنّه ظفر بكنز من كنوز القدماء ، وإما أنّه أخذ هذه الأموال والتحف من بيت المال ، عندما توجّه الملك ١٥ الناصر إلى الكرك ، فإنّ مفاتيح بيت المال كانوا بيد سلاّر ، فأخذ من بيت المال ما قدر عليه ، وهذا الوجه أقرب من أن يكون ظفر بكنز ، انتهى ذلك ، وقد قيل في المعنى :

١٨ اجمع وأنت من الدنيا على حذر واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدّمت من عمل محصى عليك وما خافت موروث
وفي هذه السنة ، أعني سنة عشر وسبعمائة ، فيها كانت وفاة الشيخ شمس الدين بن ٢١ دانيال الحكيم ، وهو صاحب كتاب « طيف الخيال » ، قدم من الموصل إلى الديار

(١٠) أردب : أردبا .

(١٦) كانوا : كذا في الأصل .

المصرية في دولة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ وكان ابن دانيال هذا شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد ، فمن ذلك ما قاله عن نفسه ، وهو قوله :

يا سائل عن حرفتي في الورى وضيعتي فيهم وإفلاسى
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس
وقوله :

ما عاينت عيناى فى عطائى أقل من حظى ولا بختى
قد بعت عبرى وحمارى معا وأصبحت لا فوقى ولا تحتى

وتوفى في هذه السنة قاضى القضاة الحنفى شمس الدين السروجى ، مات وهو منفصل عن القضاء . - وتوفى العلامة الحافظ التبريزى ، محدث مكة ؛ وغير ذلك من العلماء والصايحاء .

وفى ذى القعدة من سنة عشر وسبعمائة ، توفى الشيخ بهاء الدين على بن عيسى ابن سليمان الثعالبي المصرى ، وكان ناظر الأوقاف ؛ وليس هو الشيخ أبو الحسن الثعالبي المحدث (٢٣٠ آ) .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وسبعمائة

فيها عزل القاضى شرف الدين بن فضل الله العمرى ، عن كتابة السرّ بمصر ، واستقرّ كاتب السرّ بدمشق ؛ وتولّى عوضه بمصر القاضى علاء الدين بن تاج الدين ابن الأثير ، وكان عالما فاضلا ، شاعرا ناظما ناثرا ، ومن شعره ، وهو قوله :

لا تعجب الناس للورقاء إذ سقطت على مايح بديع القدّ فتان
رأته مثل قضيب البان معتدلا والورق ما برحت تصبو إلى البان

وفى سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، عزل جمال الدين الزرعى ، عن قضاء الشافعية ؛ وأعيد بدر الدين بن جماعة ، واستمرّ بها مدة طويلة إلى أن كفّ بصره ، ومات . وفيها جاءت الأخبار من أفريقية ببلاد الغرب ، بأن قد خطب فيها على المنابر باسم

(٨) السروجى : ورد ذكر وفاة السروجى هنا فيما سبق ص ٤٣٥ س ٦ .

(١٩) تصبو : تصبوا .

الملك الناصر ، وكان سبب ذلك أن صاحب أفريقيا ، وهو أبو يحيى اللحياني ، قدم
على الملك الناصر ، وقال له : « أرسل معي عسكريا إلى أفريقيا ، فإذا فتحت المدينة
وملكتها ، التزمت للسلطان أن أقيم نفسي بها نائبا عنه » ، فعين السلطان معه تجريدة ، ٣
بها نحو مائة مملوك ، ومعهم أمير عشرة بأثمهم .

فلما توجهوا إلى أفريقيا تسامعت بهم أهل تلك النواحي ، فالتف عليهم جماعة
من المغاربة والعربان ، فعظم أمر أبو يحيى ، ومشى على غالب بلاد تونس ، وحاصر ٦
مدينة أفريقيا ، حتى فتحها ، ودخل إليها وعلى رأسه الصناجق السلطانية ، وحوله
العساكر المصرية ، فطرد من كان بها من ملوك الغرب ، وملكها أبو يحيى ؛ فلما
استقرّ بها ، خطب باسم الملك الناصر على منابرها ، كما قرّر معه ، واستقرّ بها ، ورجع ٩
العسكر إلى القاهرة .

ومن الحوادث في تلك السنة ، أن السلطان عزل نائب الشام ، الأمير آقوش
الأفرم ؛ واستقرّ بالأمير كراي المنصوري ، (٢٣٠ ب) وهو صاحب الحمام التي في ١٢
سوق الغنم ، نائب الشام ، عوضا عن آقوش الأفرم ؛ فأقام كراي في نيابة الشام مدة
يسيرة ، وأرسل السلطان قبض عليه ، وأعاد الأمير آقوش الأفرم إلى نيابته ، كما
كان بها . ١٥

وفي هذه السنة ، قبض السلطان على الأمير بكتمر الجوكندار ، نائب السلطنة ،
وسجنه بالقاهرة ؛ ثم أخلع على الأمير بيبرس الدوادار ، واستقرّ به نائب السلطنة ،
عوضا عن بكتمر الجوكندار . ١٨

وفيها جاءت الأخبار من الشام ، بأنّ نائب الشام قد تسحب من هناك ، هو
والأمير قراسنقر ، وتوجهوا إلى بلاد التتار ، وقد بلغهما أن السلطان يروم القبض عليهما ،
فهربا بسبب ذلك . ٢١

وفي هذه السنة ، أعني سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، فيها ، في ثاني عشر رجب ،
توفي الإمام العلامة نجم الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن الرفعة الأنصاري ،

كان ثالث الشيخين : الرافعي ، والنواوي ؛ ولد سنة خمس وأربعين وستائة ؛ قال الإسنوي : « كان ابن الرفعة إمام عصره في الشافعية » .

ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة

٣

فيها جاء قاصد صاحب اليمن ، وصحبته تقادم حفلة ، فأكرمه السلطان غاية الإكرام ، وأخلع عليه .

وفيها حضر ملك النوبة إلى الأبواب الشريفة ، وصحبته تقادم حفلة للسلطان ، منها : ألف رأس رقيق ، من عبيد وجوار ، وخمسمائة جمل ، وخمسمائة بقرة خيسية ، وألف رأس غنم ، وعشرين جملا عليها تمر في أجربة ، وغير ذلك ، فأكرمه السلطان ، وأخلع عليه .

٩

وفيها قبض السلطان على الأمير بيبرس الدوادر ، الذي استقرّ به نائب السلطنة ، وسجنه ؛ ثم أخلع على الأمير أرغون الدوادر ، واستقرّ به نائب السلطنة ، عوضا عن بيبرس المذكور .

١٢

وفيها أخلع السلطان على الأمير تنكز الحسامي ، واستقرّ به نائب الشام ، عوضا عن آقوش الأفرم ؛ فلما تولى تنكز نيابة الشام ، جعل السلطان نيابة دمشق أكبر من نيابة حلب ، وكان من قديم الزمان ، نيابة حلب أكبر من (٢٣١ آ) نيابة الشام . ثم أخلع على الأمير سودون الناصري ، واستقرّ به نائب حلب ، عوضا عن الأمير قفجق المنصوري .

١٥

وفيها ابتدأ السلطان بعارة جامعته الذي في موردة الخلفاء ، تجاه الروضة ، وهو الذي يسمّى بالجامع الجديد ، وكان بحر النيل يجري من تحته صيفا وشتاء ؛ قيل إن السلطان نقل هذه الأعمدة التي به من قلعة الروضة ، التي كانت هناك من أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فنقل منها الملك الناصر أشياء كثيرة من أعمدة وأعتاب وغير ذلك .

١٨

٢١

وفيها ابتدأ السلطان بعارة الميدان ، الذي تحت القاعة ، وهو أول من أنشأ هذا

الميدان ، وبني عليه السور . - وفي هذه السنة ابتداء السلطان بعمارة الميدان الكبير ، الذي عند البركة الناصرية .

وفيهما حضر مملوك نائب حاب ، وأخبر أن التتار تحرّكوا على البلاد ؛ فلما تحقّق السلطان ذلك ، عرض العسكر ، ونفق ، وخرج بنفسه في أوائل شهر رمضان ، قاصداً إلى حاب .

فلما وصل إلى غزّة ، جاءت الأخبار بأنّ التتار تسامعوا بمجيء السلطان ، فخافوا ورحلوا عن البلاد ، فتبعهم نائب حاب وتحارب معهم ، فكسّرهم كسرة قوية ، ونهب برّكهم وخيولهم .

فلما تحقّق السلطان ذلك ، رسم للعسكر بالعود إلى الديار المصرية ، وتوجّه هو من هناك إلى الحجاز الشريف ، ومعه بعض أمراء ، فسَمّيت هذه التجربة « الكذّابة » لرجوع العسكر من غزّة .

وفي هذه السنة ، في ربيع الآخر ، توفّي الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن هرون الثعلبي ، المحدث الثقة ، عاش من العمر ست وثمانين سنة ، ومات بمصر ، ودفن بها ، وهو صاحب كتاب « العرائس » في قصص الأنبياء عليهم السلام .

وفي هذه السنة عزل السلطان ، الناصري محمد بن بكتمر الحاجب ، عن (٢٣١ ب) الوزارة ؛ واستقرّ بالأمر منجك اليوسفي وزيراً ، عوضاً عن الناصري محمد بن بكتمر الحاجب ، وذلك في ربيع الآخر من تلك السنة ؛ وفي أيام منجك هذا ظهر اللحم السميط بالديار المصرية ، ولم يكن يعرف قبل ذلك بمصر ، إلا في أيام منجك لما كان وزيراً .

وفي هذه السنة ، توفّي الشيخ شمس الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي ، وكان من أعيان العلماء ، وكان له نظم رقيق ، فمن ذلك قوله :

الناس قد أثموا فينا بظلمهم وصدّقوا بالذي أدري وتدرينا
ماذا يضرّك في تصديق قولهم بأنّ نحقّ ما فينا يظنّونا

حملى وحملك ذنبا واحداً ثقة بالعفو أجل من إثم الورى فينا
وفيها توفى ابن جبارة ، شارح الشاطبية ، وكان من أعيان العلماء .

٣ وفيها كانت وفاة الشيخ نصير الدين بن الحمى ، وكان من فحول الشعراء ؛ عاصر
السراج الوراق ، وأباه الحسين الجزار ، وابن دانيال ، وناصر الدين بن النقيب ، وكانت
تساعدهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية ، فمن ذلك قول النصير الحمى من نوع
٦ التورية في صناعته ، وهو قوله :

وكدردت حمأى بنيتك التى تكدر فيها العيش من كل مشرب
فما كان صدر الحوض منشرحا بها وما كان قاب الماء فيها بطيب
٩ وقوله ولم يخرج عن التورية :

لى منزل معروفه ينهل غيثا كالسحب
أقبل ذا العذر به وأكرم الجار الجنب
١٢ وكتب إلى السراج الوراق ، وكان السراج مقباً بالروضة يتنزه :

وكم ترددت للباب الكريم لى أبلى شوقى وأحيى منيت أشعارى
وأثنى خائبا فيما أومله فانت فى روضة والقلب فى نار
١٥ (٢٣٢ آ) انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة

فيها ، فى ثالث عشر صفر ، حضر الملك الناصر من الحجاز ، وسبب ذلك أنه
١٨ لما قضى حجّه ، توجه إلى المدينة الشريفة ، زار النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثم توجه
من هناك إلى الشام ، وأقام بها أياما ، وأتى إلى القاهرة .

فلما دخل إلى القاهرة ، زينت له ، ولافته القضاة الأربعة ، وحملت على رأسه القبة
٢١ والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ولافته المنانى من أثناء الطريق ،
وكان يوما مشهودا ، وهذه الحجة الأولى .

ثم إن السلطان أقام بالقاهرة نحو شهر ، وخرج بنفسه إلى نحو بلاد الصعيد بسبب
٢٤ فساد العربان ، وكان قد حصل منهم غاية الفساد .

فلما تسامعوا بالسلطان ، هربوا إلى الجبال ، فقتل أكثرهم من العطش والجوع ، وأسر منهم نحو النصف ، فصعدوا بالجبال ، وخمأوا في المراكب إلى القاهرة ، فلما دخلوا ، رسم السلطان بسجنهم ، فسجنوا ؛ ثم صار السلطان يستعملهم في حفر الجسور ، وهم في زناجير .

ولما عاد السلطان من الصعيد ، أقام عند الأهرام مدة ، على سبيل التزّه ، وكان قد دخل شهر رمضان ، فصام هناك ؛ فلما قرب الفطر ، طلع إلى القامة ، وعيّد بها .
وفي هذه السنة ، شرع السلطان في روك البلاد الشامية ، وأحضر جيوش الشام ، وأجناد غزّة ، وأعرضهم وفرّق عليهم المثالات ، حسبما وقع الاتفاق عليه ؛ وتوجّه الأمير قجاييس ، أمير سلاح ، إلى الشام ، وعلى يده المناشير والمثالات ، فتولّى نائب الشام أمر ذلك .

وفي هذه السنة ، تحوّلت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة الخراجية ، إلى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الهلالية ، وحصل في هذه السنة وقائع كثيرة ، وحوادث ، وغير ذلك ، انتهى (٢٣٢ ب) .

ثم دخلت سنة أربع عشرة وسبعمائة

فيها أخلع السلطان على كاتبه ، القاضي كريم الدين عبد الكريم بن عبد الله بن السيد ، واستقرّ به ناظر الخاص ؛ وهو أول من تلقّب بناظر الخاص ، وأول من ولى هذه الوظيفة ، وهى محدثة ، فرع من الوزارة ؛ وموضوع هذه الوظيفة ، أن يكون مباشرها متحدثا فيما هو خاص من أمور المملكة وعام ، وأفردت إليه النفقات ، والكساوى ، وخلع الأمراء والجند ، والأضيحة ، وخلع عيد الفطر ، وكساوى حرم السلطان ، وما يجرى مجرى ذلك .

فلما تولّى هذه الوظيفة القاضي كريم الدين ، عظم أمره وصار يتصرّف في أمور المملكة كما يختار ، وكانت الأمراء ، وأعيان الناس ، يركبون في خدمته لما ينزل من القامة إلى بيته ؛ وكان الملك الناصر أباح له التصرف في خزائن بيت المال من غير مانع ،

وعظم أمره على سائر المباشرين ، وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري :

يا كريمًا قد وافق الاسم بالفعل وأنسى في الفضل كل قديم
لا تخف نبوة الحوادث فالله كريم يحب كل كريم

٣

وفي سنة أربع عشرة وسبعمائة ، توفى الشيخ شرف الدين عمر بن أبي الفتوح الدماميني ، وكان من أعيان الصلحاء ، توفى بمصر ، ودفن بها ، رحمة الله عليه .

وفي هذه السنة شرع السلطان في عمارة القصر الأباقي ، وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة في بعضها ، وفيهم خمس قاعات ، وثلاثة مراقد .

قال بعض المؤرخين : إن الملك الناصر أكمل عمارة هذه الثلاثة قصور في مدة عشرة أشهر ، وهذا من العجائب ، وقيل فيه :

٩

قصر عليه تحية وسلام خلعت عليه شبابه الأيام
قرت به عين المليك وغردت بالبشر فيه بلابل وحمام

قيل ، لما انتهى العمل من القصر الكبير ، أولم السلطان في ذلك (٢٣٣ آ) اليوم ، وجمع القضاة الأربعة ، وسائر الأمراء ، وقرأ ختمة ، ومد سماطاً حفلاً ، وملاً الفسقية التي بالقصر سكرًا وماءً ليمون ، ووقف رؤوس النوب على الفسقية يفرقوا السكر

١٢

١٥ على الناس بالطاسات .

وأخلع السلطان في ذلك اليوم على المهندسين ، والبنائين ، والمرحمين ، والنجارين والدهانين ، فجمع ذلك ألفين وخمسمائة خلعة ؛ فالمشدين مشورات وكوامل ، والبقية خلع حرب ؛ وفرق على الفعلة لكل واحد عشرة دنانير ؛ وفرق على الفقراء في ذلك اليوم نحو خمسين ألف دينار .

١٨

ثم أحضر آخر الليل المغاني وأرباب الآلات ، ووقد به وقدة عظيمة ، وبات بالقصر تلك الليلة ، وأحرق حراقة نفض بالرملة ، وكانت ليلة ملوكية لم يسمع بمثليها ، انتهى ذلك ، وفيه يقول القائل :

٢١

الناصر الملك الذي في عصره شكر الطبيا لصنيعه السرحان

ساوى البلاد كما تساوى فى النداء بين العباد مواهب السأطان
قد عزّ دين محمد بسميه وسما بنصرته على الأديان

- ٣ ثم دخلت سنة خمس عشرة وسبعائة
ففيها شرع السأطان فى روك البلاد المصرية ، وأبطل الروك الحسامى ، وراك
الروك الناصرى ، وهو المعمول به الآن ، فزاد عن الروك الحسامى أشياء ، وأنقص
٦ عنه أشياء ، واستمرّ ذلك إلى اليوم .
وفيها جاءت الأخبار من دمشق ، بأنّ تنكز ، نائب الشام ، جمع النواب وتوجّه
إلى نحو ملطية ، وحاصر من بها من الأرمن ، فلما رأوا عين القلب ، طلبوا منه
الأمان ، ففتحت ملطية بالأمان ، وذلك يوم الاثنين ثانى عشرين ربيع الآخر من تلك
٩ السنة .

- وفيها ، أعنى سنة خمس عشرة وسبعائة ، كانت وفاة الشيخ شمس الدين محمد بن
١٢ العفيف التلمسانى ، المعروف بالشاب الظريف ، وكان مولده سنة اثنتين وستين
وسمائة ، فكانت مدّة حياته ثلاث وخمسين سنة ، وكان من فحول الشعراء بمصر ،
وله (٢٣٣ ب) شعر جيّد ، ومعان رقيقة ، فمن ذلك قوله :

- ١٥ يا ساكنا قلبى المعنى وليس فيه سواه ثاب
لاى معنى كسرت قلبى وما التقى فيه ساكنان
وقوله فى واقعة حال :

- ١٨ ولقد أتيت إلى جنابك قاضيا بالآثم للعتبات بعض الواجب
وأتيت أقصد نظرة أحيا بها فرُددت يا عيني هناك بحاجب
وفى هذه السنة فتحت ملطية على يد تنكز ، نائب الشام ، وغنم منها غنائم كثيرة .

(٨) رأوا : رأو .

(٢٠) تنكز : دنكز ؛ ونلاحظ أنّ المؤلف كتب هذا الخبر على الهامش ، وقد سبق

وروده فى المتن .

ثم دخلت سنة ست عشرة وسبعائة

٣ فيها عين السلطان تجريدة إلى صحراء عيذاب ، بسبب فساد العربان ، فعين ستة مقدمين ألوف ، وألف مملوك ؛ فلما وصلوا إلى هناك توجهوا إلى بلاد البجاة ، وجاوزوا الأقاليم الثلاثة ، ولم يظفروا بأحد من العربان العصاة ، فتلقى العسكر ، وكان غالب قوتهم الذرة ، والشرب من الحفائر ، فرجعوا إلى القاهرة من غير طائل .

٦ وفي هذه السنة ، كانت وفاة الشيخ علاء الدين علي بن مظفر الكندي ، المعروف بالوداعي ، وكان مولده سنة أربعين وستمائة ، فكانت مدة حياته ستاً وسبعين سنة ، وكان من فحول الشعراء ؛ وقد تطفّل الشيخ جمال الدين بن نباتة على موائد نكته ومعانيه القريبة في نوع التورية ؛ وقد عاصر جماعة من الشعراء ممن تقدّم ذكرهم ، وقد أدركه الشيخ جمال الدين بن نباتة في أوائل عمره ، واجتمع عليه ، وطارحه بالأشعار .

١٢ ومما وقع للشيخ علاء الدين الوداعي ، أنه توجه من دمشق (٢٣٤ آ) إلى مكان من ضياع الشام ، يعرف بالبلقاء ، لزيارة شخص من أصحابه ، يلقّب بالشمس ، فلما وصل إلى البلقاء ، وجد ذلك الشخص قد توجه إلى مكان يعرف بحسبان ، فكتب إليه بهذين البيتين ، وهما :

أتيت إلى البلقاء أبني لقاكم فلم أركم فازداد شوقي وأشجاني
فقلت لي الأقوام من أنت قاصد لرؤياه، قلت الشمس، قالوا بحسبان

١٨ وله في واقعة حال ، وهي نكتة غريبة :

لقد سمح الزمان لنا بيوم غدا فيه السميّ مع المسميّ
تجمعا كأننا ضرب خيط على في على في على

٢١ ومن تغزلاته البديعة :

قال لي العاذل المغند فيها يوم جازت وسلّمت مختالة

(٣) مقدمين ألوف : كذا في الأصل .

(٩) بمن : بما .

قم بنا ندعى النبوة في العشر ق فقد سلمت علينا الغزاة
وقوله أيضا :

- ٣ يا جنة كوثرها رضا به الروق وفوق غصن أقده عذاره مطوق
قلت : نكتة المطوق من مخترعات الوداعي ، لا يشاركه فيها أحد قبله ، وقد
تطفل عليها الشيخ جمال الدين بن نباتة ، حتى في تسمية كتابه الذي سماه : « سجع
المطوق » ، ونظم من نكتة المطوق عدة مقاطيع ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة سبع عشرة وسبع مائة

- فيها أوفى النيل المبارك تاسع عشرين أيب ، وزاد عن الوفاء نصف ذراع ، فرسم
السلطان بفتح السد بعد العصر ، خوفا من قوة عزم الماء ، أن يقبل السد ، وفي ذلك
يقول الممدار (٢٣٤ ب) :

- سمعت يوما سد مصر يقل النيل وافي زائدا عندي
١٢ وكان هذا خبرا صادقا فرحت أرويه عن السدي
وفيها شرع السلطان في عمارة الجامع الذي بالقاهرة ، فوسعه وزاد في طوله وعرضه ،
وجعل فيه مقصورة حديد يصلي فيها السلطان .

- ١٥ قلت : وأول من اتخذ المقصورة في الجامع ، وصلى بها ، معاوية بن أبي سفيان ،
رضي الله عنه .

- ثم إن الملك الناصر زخرف هذا الجامع بالرخام الملون ، وبني به القبة الخضراء
والمئذنة الخضراء ، وعلى سقفه ، وزخرفها بالذهب ؛ قيل : وانتهى العمل منه في
١٨ مدة ستة أشهر ، وصلى به في أول يوم من رمضان ، وكان يوما مشهودا ، وخطب
به القاضي بدر الدين بن جماعة .

(٥) تسمية : تسميت .

(٨) أوفى : أوفى .

(١١) وافي : وافي .

(١٥) معاوية : معاوية .

(١٧) وبني : وبني .

(١٨) والمئذنة : والمئذنة . // وعلى : وعلى .

- وفي هذه السنة ، توجه السلطان إلى زيارة بيت المقدس ، فزاره ؛ ثم توجه إلى الخليل ، عليه السلام ، فزاره ؛ ثم رجع إلى الديار المصرية .
- ٢ وفيها أرسل السلطان تجريدة إلى آمد ، فلما وصلوا إلى هناك ، حاصروا المدينة ، فطلب أهلها الأمان ، فملكها عسكر السلطان من غير قتال ولا حرب ، ونيب بها السلطان نائبا من قبله .
- ٦ وفيها ، في ذى الحجة ، توفي الشيخ زين الدين محمد بن سليمان بن أحمد بن يوسف الصنهاجي المراكشي ، ثم الإسكندراني ، كان من أعيان العلماء ، عالما صالحا ، شافيا المذهب ، انتهى ذلك .
- ٩ ثم دخلت سنة ثمان عشرة وسبعمائة
- فيها عين السلطان تجريدة إلى برقة ، بسبب فساد العربان ، لأنهم منعوا غنم الزكاة التي كانوا يرسلونها ، وأظهروا العصيان ؛ فجرد إليهم السلطان العساكر ، فتحاربوا معهم ، وقتلوا منهم جماعة ، وهرب الباقون إلى بلاد الغرب .
- ١٢ وفي هذه السنة (٢٣٥ آ) شرع السلطان في عمارة مجرة من بحر النيل إلى القلعة ، فشي الماء في المجرة ، وعقد تحتهما قناطر بالحجر الفصّ الفحيت ؛ وجعل لها سواقى نقالة في عدة أماكن ؛ وكان قد ابتدأ بهذه المجرة من عند الرصد ، ثم نقلها إلى المكان الموجودة بها الآن عند درب الخولي .
- وفي هذه السنة ، شرع السلطان في عمارة الخوش الكبير الذي بالقلعة ، وأنشأ به
- ١٨ جنيئة ، ونقل إليها الأشجار والرياحين من سائر البلاد ، حتى من بلاد الهند ، مثل جوز الهند ، والسنبيل ، والقرنفل ، والسكادي ، وغير ذلك من الفواكه الشامية .
- وفيها ، في جمادى الآخرة ، توفي قاضي قضاء الحنفية شمس الدين الجزري ؛ فلما مات أخلع السلطان على القاضي برهان الدين بن عبد الحق ، واستقرّ به قاضي حنفى ،
- ٢١

(١٦) الموجودة : الموجود .

(٢١) قاضي حنفى : كذا في الأصل .

عوضا عن شمس الدين الجزرى ، وفيه يقول القائل :

طوبى لأمر فقد حلّ السرور بها من بعد ما رميت دهرًا بأحزان

٣ كنانة الله قد قام الدليل على تفضيها مذ ولى للحق برهان

وفي هذه السنة ، قوى عزم السلطان على أن يحجّ ، فعيّن معه اثني عشر أميراً
مقدّم ألف ، وخرج صحبته الخليفة المستكفي بالله سليمان ، وثلاثين أميراً طبايخانات

٦ وعشراوات ، ومن المباشرين القاضي علاء الدين بن الأثير ، كاتب السرّ ، والقاضي
نحر الدين ، ناظر الجيش ، والقاضي كريم الدين بن السديد ، ناظر الخصاص .

فلما خرج المحمل من القاهرة ، تأخّر السلطان ، بعد خروج (٢٣٥ ب) المحمل

٩ إلى تاسع ذى القعدة ، نخرج من القاهرة ، وجدّ في السير ، فدخل مكة قبل الصعود
إلى الجبل بثلاثة أيام ، فأحرم من رابع ، وكشف رأسه ، ولما دخل الحرم كنس مكان
الطواف ومسحه بيده ، وتواضع هناك إلى الناية ، وكان لا يطوف إلا بالليل ، ثم
١٢ صعد الجبل ، وقضى مناسك الحجّ .

ثم رجع إلى مكة ، وأقام بها أياماً ، وفرّق على فقراء مكة نحو عشرين ألف دينار ؛
وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التي كانت بمكة ؛ ثم بعد ذلك توجه إلى المدينة
الشريفة ، فدخلها وهو مائى على أقدامه حافى ، كما قد قيل في المعنى :

١٥ دنوت تواضعا وعلوت مجدا فشأنك انخفاض وارتفاع
كذلك الشمس تبعد إن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

١٨ فلما دخل المدينة الشريفة ، زار قبر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو مكشوف
الرأس ، ثم فرّق على فقراء المدينة عشرين ألف دينار ، كما فعل في مكة .

فلما انتهى أمر الزيارة ، قصد التوجه إلى الديار المصرية ، فدخلها في أوائل صفر ،

٢١ وكان يوم دخوله إلى القاهرة يوماً مشهوداً ، على حكم مواكبه المقدّم ذكرها ، وهذه
الحجّة الثانية ، انتهى ؛ وحجّ مع السلطان في تلك السنة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ،
صاحب حماة .

(١٥) مائى : كذا في الأصل . || حافى : كذا في الأصل .

(١٧) ويدنو : ويدنوا .

وفي هذه السنة ، أعتى سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، في جمادى الآخرة ، توفى
قاضي قضاة المالكية ابن مخلوف النويري ، وتوفى بعده القاضي تقي الدين محمد بن أبي بكر
ابن الأحنأ .

ثم دخلت سنة تسع عشرة وسبعمائة

فيها تزوج السلطان بنت أزيك خان ، صاحب الموصل ، فحضرت من بلاد
الشرق إلى مصر في محنة مرقومة بالذهب ؛ فلما طلعت إلى القاهرة ، أقام المهم عمالا
سبعة (٢٣٦ آ) أيام بالقاهرة ، والسلطان في أرغد عيش .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بوفاة القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل
الله العمري ، كاتب السر بمصر ، ثم نقله السلطان إلى كتابة السر بالشام ، فأقام بها
حتى توفى هناك ، وقد جاوز من العمر أربع وتسعين سنة ، وكان عالما فاضلا ، ناظما
ناثرا ، عارفا بأحوال المملكة ، ومن نظمه الرقيق ما كتبه على طاسة ، وهو قوله :

١٢ ريقتي تشفى نديمي وتبجلي الكرب عنه .
لم أسن عنه رضائي وهو عني لم يعنه
فندا برشف مني مثما أرشف منه

١٥ ثم دخلت سنة عشرين وسبعمائة

فيها جرّد السلطان العساكر إلى سويس ، فلما وصلوا إليها ، حاصروا من كان بها
من الأرمن ، فطلبوا الأمان ، فلكها العسكر ، وأقام بها باش العسكر نائبا من قبل
السلطان ؛ ورجع عسكر السلطان وهم في غاية النصر ، فأخلع السلطان على باش العسكر
خلعة ، ونزل إلى بيته .

وفيها توفى الشيخ مهاب الدين محمود أبو الثناء ، وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ،
وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

٢١ عريب سبّوا نومي ولم تدر مقلتي كما سلبوا قلبي ولم تشعر الأعضاء
وطالقت نومي والجفون حوامل فمن أجل ذا في الخلد أبقت لها فرضا

وكانت هذه السنة قليلة الحوادث ، لم يحدث فيها شيء من ولاية ولا عزل .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وسبعمائة

- ٢ فيها وقع من الحوادث (٢٣٦ ب) أن خوند طماي ، زوجة الملك الناصر ، أم ولد له أنوك ، توجهت في هذه السنة إلى الحجاز الشريف ، وكان القاضي كريم الدين ، ناظر الخاص ، متسفراً عايتها ، وكان أمير المحمل في تلك السنة الأمير قجاييس ، أمير سلاح ، وجماعة من الأمراء العشراوات .
- ٦ فخرجت من القاهرة في ثامن شوال ، وكان يوماً مشهوداً ، فخرجت في محفة زركش ، وصحبها الكوسات والعصائب السلطانية ، فحجبت ، ورجعت إلى القاهرة في عاشر المحرم ؛ فلما وصلت إلى بركة الحاج ، نزل إليها السلطان وتلقاها ، ودخلت في موكب عظيم ، والأمراء مشاة قدام محفتها ، حتى طامت إلى القلعة .
- الحافظ الإقهي ، ولد في هذه السنة ، وتوفي سنة إحدى وعشرين وثمانمائة .
- ١٢ وفيها جاءت الأخبار بأن العسكر ، لما رجع من سيس ، وقلعة إلياس ، رجع إليها الأرمن وملكوها ، وطردوا من كان بها من قبل السلطان ؛ فلما بلغ السلطان ذلك ، عين لهم تجريدة ثقيلة ، فكان بها من الأمراء : الأمير طرجي ، أمير مجاس ، والأمير أمانس ، حاجب الحجاب ، وهو صاحب الجامع الذي بجوار زاوية الشيخ خانف ، والأمير أصلام ، وهو صاحب الجامع الذي عند سوق النعم ، والأمير بهادر آص ، والأمير سنجر الجمدار ، والأمير كجكر العلمي ، والأمير آقوش الأشرفي ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات ، وعين معهم نحو ألفين مملوك سلطانية .
- ١٨ فخرجوا من القاهرة على حمية ، وقصدوا التوجه إلى البلاد الخلبية ، فلما وصلوا إلى سيس ، حاصروا من بها من الأرمن أشد الحاصرة ، حتى ضجر منهم أهل (٢٣٧ آ) المدينة ، وقتل منهم نحو النصف ، وأخرب العسكر سور المدينة ، وأخذوها

(١) شيء : شيئاً .

(٢) قجاييس : بحرف السين ، كما في الأصل .

(١١) في هذه السنة : يعني سنة ٧٢١ ، وقد كتب المؤلف هذا الخبر على الهامش .

(١٨) ألفين : كذا في الأصل .

بالسيف ، وانطارد عنها الأرمن ، وجعلوا بها الغائب الذي كان بها أولا وطردوه عنها الأرمن ، وفيه يقول بعض الشعراء :

٣ عساكر السلطان قالوا اجعلوا على مدينة سييس نائب رسيس
فقال الأرمن من جاءنا نجعله في القلعة يبقى بسيس
ثم إن المسكر أتوا إلى القاهرة وهم في غاية النصر .

٦ وفي هذه السنة ، شرع السلطان في عمارة ميدان الماهرة ، الذي عند فناطر السباع ، ووزع معسوف عمارته على أمير آخور كبير ، وبتيسة الأمراء الآخورية ، فانتجز العمل منه في أسرع مدة .

٩ وفيها عزل السلطان القاضي علاء [الدين] بن الأثير عن كتابة السر ؛ واستقر بالقاضي يحيى الدين بن فضل الله العمري .

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة

١٢ فيها تغير خادار السلطان على القاضي كريم الدين عبد الكريم بن السديد ، ناظر الخواص الشريفة ، فقبض عليه وعلى ولده ؛ وهو أول من تولّى ناظر الخواص بالديار المصرية ، وقد نال من العز والعضلة ما لا ناله غيره في عصره ؛ فلما تغير خاطر السلطان عليه ، احتاط على موجوده ، ورسم بنفيه إلى الشوبك ، هو وولده ، وصادر غلمانه ونساءه ، وحاشيته ، واستعفى أموالهم .

١٨ ثم إن السلطان أخاع على القاضي تاج الدين بن عبد الوهاب بن شمس الدين محمد ، واستقر به ناظر الخواص ، عوضا عن كريم الدين .

٢١ ثم إن السلطان نقل كريم الدين من الشوبك إلى أسوان ، فسجن بها وهو مقيد بالحديد ، فأقام في (٢٣٧ ب) السجن مدة يسيرة ، ومات وهو في السجن ؛ قيل إنه لما ضاق به الأمر ، عمد إلى خشبة ، وعمل فيها حبلا ، وشنق نفسه به ، فمات ودفن بأسوان .

(٩) [الدين] : تنس في الأصل .

(١٦) ونساءه : ونسائه .

فلما مات أحضر السلطان ولد القاضي كريم الدين ، وعاقبه أشد العقوبة ، وقرّره على الأموال والذخائر ، فأظهر في دهايز بيته غبطة فيها من الذهب العين مائتي ألف دينار ، ووجد فيها من النصوص والتحف ما لا يحصى ، هذا بعد ما ظهر له من الوجود في ٣ المصادرة الأولى .

وقد اجتمع عنده هذه الأموال في مدة يسيرة ، وكان السلطان قرّبه حتى إنه سلّمه مفاتيح بيت المال ، يتصرّف فيها حيثما يختار من ذلك ، وكانت الكلمة مجتمعة فيه بموجب قرّبه من السلطان ، فكان كما قيل في المعنى :

أحذر مداخلة الملوك ولا تكن ماعشت بالتقريب منهم واثقا
فالفيت غوثك إن ظمئت وربما ترى بوارقه إليك صواعقا ٩

نقل الصارمي إبراهيم بن دماق في تاريخه ، أن القاضي كريم الدين هذا شرب يوما دواء ، فجمع له كل ورد كان بالقاهرة ، فشره في داره ، حتى عمّ دور القاعة ، وعمّ الدهاليز ، حتى فرش منه على ملاقي بيت الخلاء ، وأخذ منه الناس ما قدروا عليه ، ثم ١٢ إن العبيد أخذوا ما فضل من ذلك الورد ، فأباعوه بعشرة دنانير ؛ ودخل عليه جماعة من الشعراء في ذلك اليوم يهنّونه بشرب الدواء ، فأنعم عليهم بمائتي دينار ، فمنهم الشيخ جمال الدين بن نباتة ، يقول فيه في المعنى (٢٣٨ آ) :

أمط بالدواء ثياب الأذى وطب في الرواح به والندو
وكرر أحاديث بيت الخلا ولكن على رغم أنف العدو ١٥

وكان القاضي كريم الدين هذا ، له برّ ومعروف ، وأنشأ جامعا بالجزيرة الوسطى ، وأنشأ خانقاة بالقرافة الصنرى ، وأوقف على الجامع والخانقاة عدّة جهات ؛ ومات بأسوان ، ولم يدفن بمصر ، وعاش من العمر نحو ستين سنة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ٢١

فيها شرع السلطان في عمارة خانقاة في سرياقوس ، وهى من ضياع مصر ، قيل إنه رأى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في المنام ، وأشار عليه أن يبني في هذا المكان خانقاة ، فلما انتبه من المنام شرع في عمارة هذه الخانقاة . ٢٤

فلما كملت قُرّر بها صوفة يقيمون بها دائماً ، وجعل الشيخ مجد الدين الآقصرای شيخ الحضور بها ، وكان عالماً صالحاً ، فصارت الصوفة قاطنين بها ، ورتّب لهم الرواتب ، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة ، قال المعيار في معنى ذلك : ٣

قد صار في الخانقاة عرف من فاعلم وهو سرّ عادة
لا يدفعون النصيب فيها إلا لمن يترك الشهادة
ثم إن بعض الأعاجم كتب للسلطان ربعة بالذهب ، فكان مصروفها ألف دينار ،
فجعلها في هذه الخانقاة . ٦

قيل : لما كملت عمارة هذه الخانقاة ، نزل إليها السلطان وبات بها ، وقرأ هناك
ختمه ، وجمع القضاة الأربعة ، وسائر الأمراء . ٩

ولم نزل هذه البقعة تنزايد في العمارة إلى أيام الملك الأشرف برسبای ، فبنى هناك
جامعاً ، (٢٣٨ ب) وجعل به خطبة ، ولم نزل الناس تبني بها الدور الجليلة ، والأماكن
الفاخرة ، حتى صارت مدينة على انفرادها ، وسكن بها أعيان الناس ، وصارت من
كور مصر ، وهي حادثة من أيام الناصر محمد بن قلاون ، انتهى ذلك . ١٢

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة

فيها من الوقائع ، أن السلطان شرع في حفر خليج ، وابتدأ بحفره من عند
موردة الجبس ، وسبب ذلك أن الخليج الذي كان يسمى خليج الذكر ، تلاشى أمره
جداً ، وضعف جريان الماء فيه ، فجدّد الملك الناصر هذا الخليج ، وسمّاه الخليج
الناصری . ١٥ ١٨

فلما شرع في حفره ، وزع حفره على جماعة من الأمراء الذين لهم البلاد في هذه
الجهة ، فامتلأوا ذلك ، واحتفلوا بحفره ، حتى نبع الماء من أرضه ، وتوزّعوا حفره
بالقسبة الحاكمية ، فانتجز منه العمل في مدّة شهرين . ٢١

قيل : لما واصلوا بحفر هذا الخليج إلى بين النيطان ، أرادوا أن يطعموا به من على
كوم الریش ، فجاءهم شخص من الصالحين يقال له الشيخ خايل الرطلى ، قيل كان

يصنع صنع الأرطال فمُعرف بذلك ، وهو الذى دُفن بجوار جامع البشيرى ، وقيل دُفن
فى بعض جهات بركة الرطلى ، والله أعلم ، فأشار عليهم بأن يمشوا به من على أرض
الطباية ، فمشوا به من هناك ، حتى طلعوا به من قبالة زقاق الكحل ، فاختلط مع
الخليج الحامى من هناك .

وكانت بركة الرطلى مقاطع للطبائنة ، يقطعوا منها الطين ، فباس الأمير بكتور ،
الحاجب ، الأرض للسلطان على تلك البقعة ، فأنعم عليه بها ، فخرها بركة وأجرى
إليها الماء من الخليج الناصرى ، وعمل لها الجسر بينها وبين الخليج ، وهى جارية فى
وقف الأمير بكتور الحاجب إلى الآن .

وإنما سميت ببركة الرطلى ، لأن الشيخ خليل الرطلى كان مقباً (٢٣٩ آ) بتلك
البقعة ، فعرفت به من يومئذ ، وفى ذلك يقول الشيخ شمس الدين بن الصايغ الحنفى ،
وهو قوله :

فى أرض طبائتنا بركة مدهشة للعين والعقل
ترجح فى ميزان عقلى على كل بحار الأرض بالرطل
قيل ، لما أوفى النيل فى تلك السنة ، ودخل الماء فى الخليج الناصرى ، كان ذلك
اليوم يوماً مشهوداً ، ونزل إليه السلطان ، وشاهد كسره بنفسه ، وفى ذلك يقول
الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة ، وهو قوله :

ولرب أقطع قال لى والنيل قد عمّ الخليج وصار كالطوفان
أجرى لنا السلطان بحراً ثانياً ملى بشكر نوالهن يدان
انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وسبعمائة

فيها وقع بالقاهرة مطر عظيم ، مثل أفواه القرب ، لم يسمع بمثله ، حتى غرقت

(١) صنع : صنع .

(٥) يقطعوا : كذا فى الأصل .

(١٤) أوفى : أوفى .

الطرافات والأسواق ، وجاء سيل عظيم انحدر من الجبل في بحر النيل ، حتى تغيّر لونه ، وزاد في فسقية القياس أربعة أصابع ، ووقع من هذا السيل عدة أماكن بالقاهرة ، وهذا كان من غرائب الاتفاق ، ذكر ذلك الشيخ تاج الدين بن المتوج ، المؤرخ ، انتهى ذلك . ٣

وفيهما حضر إلى الأبواب الشريفة ملك التكرور المسمى موسى ، وحبته تقادم جليلة لاسطان ، فلما حضر أكرمه السلطان وأخاع عليه ؛ وسبب محبته إلى مصر أنه قصد أن يهجر ، فخرج ورجع ، ثم توجه إلى بلاده . ٦

وفيهما برزت المراسيم الشريفة إلى نائب حلب ، بأن يروك البلاد الحامية ، كما فعل نائب الشام بالبلاد الشامية ، فخرج من (٢٣٩ ب) القاهرة أمير عشرة ، وحبته جماعة من المباشرين ، فتوجهوا إلى حلب ، بسبب روك البلاد على حكم البلاد الشامية ، فالبلاد المصرية والشامية والحلبية الآن في الروك الناصري . ٩

وفيهما رسم السلطان بإبطال الضرب بالمقارع من مصر ، وسائر أعمال مملكته ، وكتب بذلك مراسيم شريفة ، وقرئت على منابر مصر والشام وحلب ؛ فبطل ذلك في أيامه ، فمّدت هذه الفعلة من عاصمه . ١٢

وفيهما أرسل السلطان جماعة من البنائين إلى مكة ، وأجرى بها عين ماء ، وهي العين المعروفة بعين بازان ، فحصل لأهل مكة بها غاية النفع ، وهي إلى الآن جارية ، ويعمّ نفهها أهل مكة . ١٥

وفي هذه السنة جاء النيل شحيحا ، وشرقت البلاد ، ووقع الغلاء بالديار المصرية ، واضطربت أحوالها ، انتهى ذلك . ١٨

ثم دخلت سنة ست وعشرين وسبعمائة

ففيها عمل السلطان الموكب في القصر ، وقبض على الأمير طشتور المعروف بمحمص أخضر ، وعلى الأمير قطلوبغا الفخري ؛ فأما الأمير طشتور ، شفعوا فيه الأمراء ، ٢١

فأنفـرج السلطان عنه من يومه ؛ وأما الأمير قطـلوبغا الفخري ، فأرسله السلطان إلى الشام بطالا .

واستمرّ الأمير طشتـمر ممقوتا عند السلطان ، فإنه كان مرّ اللسان ، صعب الخلق ، كثير الشرّ ، ظالم الصورة ، وفيه يقول الممدار :

١ طغى طشتـمر واعتدى تنال الناس بأقوالها
٢ (٢٤٠ آ) دنا حماد الحص المعتدى ولم تزل مصر بأقوالها

وفي هذه السنة عمـرت القرية المعروفة بالبحريرية ، من أعمال الغربية ، وكان سبب إنشائها أن الأمير سنقر السعدى ، تقيب الجيوش المنصورة ، وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من حمام الفارقانى ، وكانت أرض هذه القرية جارية فى إقطاعه ، فعمـر بها الأمير سنقر جامعا وطاحونا وخانا ومعصرة .

ثم صارت تزايد فى العمارة ، وسكن بها جماعة من الفلاحين ، فبلغ خراجها فى كل سنة خمسة عشر ألف دينار ، فسمع بها الملك الناصر ، فبعث أخذها منه ، وصارت من جملة بلاد السلطان ؛ فحصل للأمير سنقر قهر عظيم بسبب ذلك ، فأقام مدّة يسيرة ومات ، ودفن فى مدرسته التى أنشأها ، المعروفة بالسعدية ، انتهى ذلك .

١٥ ثم دخلت سنة سبع وعشرين وسبع مائة

فبها عزل السلطان القاضي عبي الدين بن فضل الله عن كتابة السرّ ، واستقرّ بها القاضي شرف الدين بن الشهاب محمود .

١٨ وفيها حفـر إلى الأبواب الشريفة الملك المؤيد عماد الدين ، صاحب حماة ، وصحبته هدية جليلة لاسـطان ، فأكرمه وأخلع عليه ، وأقام بالقاهرة مدّة ، ثم توجه إلى بلاده وهو فى غاية الإكرام .

٢١ وفيها ، فى سادس عشر رمضان ، توفى الشيخ الإمام العالم العلامة كمال الدين محمد بن على بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصارى الزمـلكانى الشافعى ، ولد بدمشق

٣ في شوال سنة سبع وستين وستمائة ، وتوفي ببلييس في سادس عشر رمضان من تلك السنة ، وحمل من ببلييس إلى القاهرة ، ودفن بالقرب من تربة الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، (٢٤٠ ب) وكان من أعيان علماء الشافعية ، وكان قد تولى قضاء الشافعية بدمشق .

٦ ومما وقع له أن شخصا من الشعراء ، يقال له أبو جلنك الحلبي ، دخل على قاضى القضاة كمال الدين بن الزملاكانى المشار إليه ، فامتدحه بقصيدة سنية ، وصار ينتظر الجائزة ، فرسم له برطائين خبز ، فعز ذلك على أبي جانك ؛ فاتفق أن أبا جانك دخل يوما إلى بستان فأقام به يومه ، فقبل له إن هذا البستان لقاضى القضاة ابن الزملاكانى ، فكتب أبو جانك على باب البستان هذين البيتين ، وهما من المحترعات :

لله بستان حللنا دوحه فى جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبه سنابير رأت قاضى القضاة فنغشت أذنانها

١٢ فاستطارد فى وصف البستان وتشبيهه بالبان التشبيه الذى من المحترعات ، ثم انعطف على هجو قاضى القضاة بالطف عبارة ، وهذه من الوقائع القريبة ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة

١٥ فيها شرع السلطان فى بناء قناطر على الخليج الناصرى الذى حفره ، فبنى عليه قنطرة عند موردة الجبس ، وبني قنطرة دونها تعرف الآن بقنطرة قديدار ، قيل إن قديدار كان مشرفا على عمارتها فعرفت به ، قيل إن قديدار كان والى القاهرة ، وبني قنطرة بظاهر باب البحر ، وبني قنطرة عند بركة قرموط تعرف الآن بالقنطرة المسراء ، وبني قنطرة عند بركة الرطلى تعرف الآن بقنطرة الحاجب ، قيل إن الأمير بكتمر الحاجب كان مشرفا على عمارتها ، فعرفت به ، وبني قنطرة عند زقاق السكحل تعرف الآن بالقنطرة الجديدة ، فهؤلاء القناطر من إنشاء الملك الناصر محمد بن (٢٤١ آ) قلاون ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وسبعمائة

فيها شرع السلطان في حفر البركة الناصرية ، وأجرى إليها الماء من الخليج
الناصرى ، وبنى القصر الكبير بالميدان المجاور لهذه البركة ، وأنشأ بستانا تحت هذا
القصر .

وكان ينزل إلى هذا القصر ويبات به ، ويوكب من هناك إلى القامة ، والأمراء
في خدمته ، والعسكر مشاة من الميدان إلى القامة ، وتجلس الناس على الدكاكين
للفرجة ، وتكون أيام المواكب من الأيام المعدودة في القصف والفرجة .
وفي هذه السنة ، رسم السلطان لولده الأمير أحمد ، أن يتوجه إلى نحو الكرك ،
ويقیم بها ، ورتب له ما يكفيه ، فتوجه إلى الكرك وأقام بها .
وفي هذه السنة ، رسم السلطان بهدم الإيوان الأشرى ، الذى كان بالقامة ، وبنى
مكانه هذ الإيوان الموجود الآن ، وعقد فوقه هذه القبة العظيمة ، وكان يعمل فيه
المواكب ، وتجتمع فيه الأمراء ، ويكثر به الزحام ، حتى قال فيه بعض الشعراء فى
المعنى :

ما كان يكنى حرّ ذا الإيوان حتى ازداد قبة
فكاننى فيه خروف شوى من فوق مكبة
وفيه يقول بعض الشعراء :

فلو حاول الشهبان كسرى وقیصر نظيرا له فيما أقام وعمر
لأبصر كسرى كسر إيوان صرحه وقصر عنه قصر قیصر فى الوری

ثم دخلت سنة ثلاثين وسبعمائة

فيها شرع السلطان فى إنشاء دور الحرم فعمرها ، وتناهى فى بنائها ، وفى زخرفها
ورخامها ، وجدّد بناء قاعة الأعمدة ، والبیسرية ، وبنى الدهيشة المطالة على الحوش
السلطانى ، وقيل إنمّا أكمل عمارتها ابنه الملك الصالح إسمعیل ؛ وقد عمر الملك

- الناصر محمد بن قلاوون غالب أماكن القامة الموجودة (٢٤١ ب) بها الآن .
- وفيها حضر إلى الأبواب الشريفة المقر السيقي تنكز ، نائب الشام ، ليزور
السلطان وينظر وجهه ؛ وحضر صديقه تقادم حفلة للسلطان والأمراء ، ما بين خيول
ووشق وسمور وسنجاب وققم ، وصوف وغمل وشقق حرير ، ومما ليك وجوار
بيض ، وذهب عين ، وغير ذلك مما يهدي للملوك ؛ فأكرمه السلطان ، وأخلع عليه ،
وأزله بالميدان الكبير ، فأقام بمصر مدة ، ثم توجه إلى الشام ، على عادته .
- وفي هذه السنة أعيد القاضي محيي الدين بن فضل الله ، إلى كتابة السر ، وصرف
القاضي شرف الدين بن الشهاب محمود .
- ومما يحكى عن القاضي محيي الدين هذا أنه كان إذا دخل على الملك الناصر وقت
العلامة ، وخرج من عنده ، يحضر فوطاة العلامة ، ويجمع ما فيها من الرمل الذي
يتناثر من العلامة بحضرة السلطان ، فيجمع ذلك الرمل كله ، ويضعه في مرماته التي
لنفسه ، ويقول هذا رمل سعيد لا يُرمى منه شيء ، فكان إذا كتب شيئا رمله من
ذلك الرمل الذي جمعه من فوطاة العلامة بحضرة السلطان ، وفيه يقول ابن نباتة :
- ياسائلى عن كاتب السر الذى تعزى علاه إلى أب أواه
هذاك غيث الله محيى الأرض من بعد المات وذاك فضل الله
- وفي سنة ثلاثين وسبعمائة ، فى المحرم ، توفى الشيخ تاج الدين محمد بن عبد الوهاب
ابن المتوج النهري ، المؤرخ ، ومولده فى سنة تسع وثمانين وستائة .
- ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة
- فيها رسم السلطان أن يعمل للكعبة الشريفة باب جديد من الخشب السنط الأحمر ،
فعمل لها هذا الباب الموجود الآن ، وصفحه بالفضة عوضا عن الحديد ، فكان زنة
تلك الصفائح ثلاثون ألف درهم ؛ فلما قلع الباب العتيق الذى كان بها ، فوزنوا ما عليه

(٤) وسور : وسور .

(١٩) باب جديد : بابا جديدا .

(٢٠) زنة : زنت .

(٢١) درهم : درهما .

من الفضة ، فكان زنتها ستون (٢٤٢ آ) رطلا ، فأنعم السلطان بتلك الفضة على
بنى شيبية ، خدام البيت الشريف ، فتقاسموه بينهم ؛ وهذا الباب القديم كان قد عمله
الخليفة العباسي ، الملقب بالمتقي بالله ، في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .
وفيها عمل السلطان له يرقا عظيما ، وقصد التوجه إلى الحجاز الشريف ، انهبى
ذلك .

وفي هذه السنة ، أرسل السلطان أبو سعيد خان ، ملك العراقيين ، فيلا عظيم
الخاقية إلى مكة ، صحبة الحاج العراقي ، فتطارت أهل مكة من ذلك ؛ فلما انقضى أمر
الحج ، وتوجهوا إلى المدينة الشريفة ، امتنع ذلك الفيل من دخول المدينة ، فوكزوه
بالحراب ، فلم يتحرك ، ثم خر ميتا من وقته .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة

فيها كانت وفاة الشيخ الصالح الورع الزاهد الناسك ، سيدى ياقوت الرضى ،
رحمة الله عليه ، وكان عبدا حبشيا من تلاميذ الشيخ أبي العباس الرسى ، مات
بالإسكندرية في تلك السنة ، وعاش من العمر نحو ثمانين سنة ، ودفن بالإسكندرية ،
وكان له كرامات خارقة .

وفيها عيد السلطان عيد الفطار ، وخرج في سابع عشر شوال ، وقصد التوجه إلى
الحجاز الشريف ، وهذه هي الحجة الثالثة ؛ وسبب هذه الحجة أن السلطان لما عمل
للكعبة هذا الباب الجديد المقدم ذكره ، قصد أن يضعه على باب البيت الشريف
بحضرته ، فحج في تلك السنة ، وأظهر العظمة الزائدة في هذه الحجة .

فكان صحبته من الأمراء المقدمين : الأتابكي بكتر الساقى ، وولده الأمير أحمد
ابن أخت السلطان ، والأمير أيدير الخطيرى ، وأظن أنه صاحب الجامع الذى فى
بولاق ، والأمير جنكلى بن البابا ، وهو صاحب الدرب المعروف به ، والأمير بيبرس

(٦) عظيم : عظيم .

(٧) فتطارت : قطارت .

(١١) الورع : الوارع .

- الأحمدي ، والأمير بهادر المعزتي ، والأمير أيدغمش ، وهو صاحب الحقام التي عند
البرطيين ، والأمير قطز ، أمير آخور كبير ، والأمير طقز دمر ، وهو صاحب القنطرة
المروقة به ، والأمير سنجر الجاولي ، وهو صاحب المدرسة التي عند الكباش ، والأمير ٣
(٢٤٢ ب) قوصون ، صاحب الجامع [المعروف به] ، والأمير موصون ، والأمير
بشتاك العمري ، صاحب الجامع المعروف به ، والأمير طائر بنما ، والأمير آقبغا آص
الجاشنكير ، والأمير طقتمر الخازن ، وهو صاحب الدرب المعروف به ، والأمير قماري ، ٦
والأمير تمر الموسوي ، والأمير مسعود ، حاجب الحجاب ، والأمير أيدمر ، أمير
جانداز ، والأمير صاروجا ، نقيب الجيوش المنصورة ، وهو صاحب الجامع الذي عند
بركة الرطلي ، فهؤلاء الأمراء المقدمين ، غير الأمراء الطبايخانات والعشراوات . ٩
- فكان عدة من توجه صحبة السلطان من الأمراء المقدمين والطبايخانات
والعشراوات ، في هذه الحجة ، اثنين وسبعين أميراً ، ما بين مقدمين ألوف ، وغيرها ١٢
من الطبايخانات ، والعشراوات ، ومن المالك السلطانية نحو ألفين مملوك .
- وكان صحبة السلطان ، لما توجه إلى الحجاز ، الملك الأفضل محمد بن الملك المؤيد
عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، فخرج مع السلطان ، ورجع إلى بلاده من هناك ؛
فخرج الملك الناصر في موكب عظيم ، ولم يقع له مثل ذلك في تلك الحجتين المقدم ١٥
ذكرهما .
- وفي أواخر هذه السنة ، في ذي الحجة ، توفي الشيخ عبد المال خليفة سيدي
أحمد البدوي ، رحمة الله عليهما ، ولما مات ، دفن بطندتا عند سيدي أحمد البدوي ، ١٨
انتهى ذلك .

(٤) [المعروف به] : تنفس في الأصل .

(١١) . مقدمين ألوف : كذا في الأصل .

(١٢) ألفين : كذا في الأصل .

(١٨) بطندتا : كذا في الأصل ، ويعني بطندلا .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة

- فيها حضر مبشر الحاج ، وأخبر ب وفاة الأتابكي بكتمر ، وولده الأمير أحمد بن
 ٢ أخت السلطان ، وكان الأتابكي بكتمر صهر السلطان ، زوج أخته ؛ وكان سبب
 موتها ، أن الأتابكي بكتمر وولده ، لما رجعا من الحجاز ، ووصلا إلى عيون القصب ،
 بلغ السلطان أن الأتابكي بكتمر يقصد الوثوب عليه هناك ، فلم يمكن السلطان أن
 ٦ يقبض على الأتابكي بكتمر ، فدرس عليه من أسفاه سماء ، هو وولده الأمير (٢٤٣ آ)
 أحمد ، فمات الأتابكي بكتمر بعيون القصب ، ودفن بها ، ومات ولده الأمير أحمد
 بنخل ، ودفن بها .
- ٩ قيل ، لما توفي الأتابكي بكتمر ، في ثاني الحرم من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ،
 احتاط السلطان على بركة الذي كان معه ، فوجد معه خمسمائة ثشريف ، ما بين
 مشعرات ، وكوامل ، وخلع حرير مائون ، ووجد معه حملين قيود وزناجير ، فتأكد
 ١٢ عند السلطان صحة ما نقلوه عن الأتابكي بكتمر ، في أمر وثوبه على السلطان .
- وكان الأتابكي بكتمر يحجر على السلطان إذا رأى منه الجور في حق الرعية ،
 وكان السلطان يخشى منه ولا يخالفه فيما يأمره به ، وكان السلطان لا يتصرف في شيء
 ١٥ من أمور المملكة إلا بعد مشورة الأتابكي بكتمر .
- وكان لا يهدي للسلطان شيء من التقداد حتى يهدي للأتابكي بكتمر مثله أو
 أحسن منه ، فاجتمع عنده من الأموال والتحف ما لا يحصر ، حتى قيل كان في
 ١٨ اصطبله مائة سطل نحاس بيد مائة سانس ، وتحت يد كل سانس طوالة خيل من الخيول
 الخاص .
- وكان الملك الناصر ينزل إلى بيته ، وبيات عنده في بعض الأوقات ، وكان
 الأتابكي بكتمر ساكنا على بركة الفيل في البيت الذي عند المدرسة الجاولية ؛ وكانت
 ٢١ أخت السلطان تحته ، والسلطان في قبضة يده ، فعظم أمره في تلك الأيام ، وصار
 صاحب الحل والعقد في دولة الملك الناصر ، فنقل أمره على السلطان إلى الغاية .

(١٤) فيما : فإ .

(١٦) يهدي : يهدا . || نى : شينا .

وكان أصل الأتابكي بكتمر من ممالك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، فلما مات أخذه الملك الناصر مع جملة موجود الملك المظفر بيبرس ، فخطى عنده حتى جعله في أول يوم سابقا ، ثم صار يرقى في دولة الملك الناصر ، حتى بقى أتابك العساكر ، وأزوجه (٢٤٣ ب) السلطان بأخته ، ورقى في تلك الأيام حتى كاد أن يكون هو السلطان .

٦ قيل ، لما مات الأتابكي بكتمر ، رقى من بعده الأمير قوصون ، فأنعم عليه السلطان بزرذخانة الأتابكي بكتمر ، فقوم ما فيها من السلاح وغيره ، فكان بستائة ألف دينار .

٩ ثم إن الملك الناصر أزواج الأمير قوصون بإحدى بناته ، وصار صهر السلطان كما كان الأتابكي بكتمر ، بل فاقه في العز والعظمة ، ووقع له أمور في تصرف المملكة ، ما لا وقع للأتابكي بكتمر ، كما سيأتى ذكر ذلك في مواضعه .

١٢ ومن النكت اللطيفة ، قيل ، وقع يوما تشاجر بين الأتابكي بكتمر ، وبين الأمير قوصون ، فقال قوصون للأتابكي بكتمر : « أنا ما نقلت من الأطباق إلى الاصطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته ، فلما أخذنى اتفق أن شخصا من الخاصكية توفى فى ذلك اليوم ، فأنعم على السلطان بإقطاعه وبركه وبيته ، وصرت خاصكيا فى ذلك اليوم ، ولم أدخل تحت رقى » .

١٨ وسبب ذلك ، أن التاجر الذى كان عنده قوصون ، لما قال له السلطان : « بمعنى هذا المملوك » ، فقال التاجر : « هو حرّ لوجه الله تعالى » ، فأخذه السلطان برضاه ، وجعله فى ذلك اليوم خاصكيا ، ولم يقعد فى طبقة ، ولم يكن تحت حكم أغاة يتصرف فى أمره ؛ فلما سمع الأتابكي بكتمر كلام قوصون ، ما وسعه إلا السكوت ، انتهى ذلك .

(٣) يرقى : يرقا .

(٦٠٤) ورقى : ورقا .

(١٧) بمعنى : بيعنى .

(١٩) خاصكيا : خاصكى .

ثم إن السلطان ، لما قضى حجّه ، دخل إلى القاهرة في خامس المحرم من تلك السنة ، وكانت مدّة غيبته ، ذهابا وإيابا ، أربعة (٢٤٤ آ) وخمسون يوما لا غير ، ودخل إلى القاهرة في موكب حفل ؛ وقد تزايدت عظمته ، وصفاله الوقت بموت الأتابكي بكتمر .

ثم إن السلطان لما استقرّ بالقلمة ، عمل الموكب ، وأخلع على المقرّ السيفي قوصون الناصري ، واستقرّ به أتابك المساكر ، عوضا عن الأمير بكتمر الساقى ، انتهى ذلك . وفيها توفى المسند أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن نعمة ، الشهير بالحجار ، توفى بدمشق .

وفيها ، توفى صاحب حماة الملك المؤيد إسماعيل ، وكان فاضلا ، وله مشاركة في العلوم .

وفي هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، فيها عزل السلطان قاضي القضاة الشافعية بدر الدين بن جماعة ، وقد كفّ بصره ؛ وأخلع على الشيخ جلال الدين محمد القزويني ، واستقرّ به قاضي قضاة الشافعية ، عوضا عن بدر الدين بن جماعة ، وكان الشيخ جلال الدين القزويني عالما فاضلا ، وهو مؤلف كتاب « التلخيص في المعاني والبيان » .

وفيها عزل السلطان قاضي قضاة الحنفية برهان الدين بن عبد الحق ؛ وولى القاضي حسام الدين عمر البسطامي ، رضى الله عنه ، قاضي قضاة الحنفية ، عوضا عن برهان الدين بن عبد الحق ؛ والقاضي عمر البسطامي ، هو الولي المشهور في القرافة ، بجوار ابن الفارض .

وفيها توفى الشيخ شهاب الدين النويري ، أحد المؤرخين بمصر ، توفى في رمضان من تلك السنة .

٢١

(٧-٨) وفيها توفى . . . بدمشق : كتب المؤلف هذا الخبر في الأصل على هامش ص (٢٤٣ آ) .

(٩-١٠) وفيها . . . العلوم : كتب المؤلف هذا الخبر على هامش ص (٢٤٣ آ) .

(١٦) وولى : وولا .

وفيهما حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير مهنا بن عيسى ، من عربان آل فضل ، وأحضر معه تقادم حنلة للسلطان ، فأكرمه ، وأخلع عليه ، وأقره على حاله شيخ آل فضل . ٣

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وسبعمائة

فيها رسم السلطان بنقل جثة الأتابكي بكتمر ، وجثة ولده الأمير أحمد ؛ وقد تقدم أن الأتابكي بكتمر مات ودفن بعيون القصب ، وولده الأمير أحمد (٢٤٤ ب) مات ودفن بنخل ، فرسم السلطان بنقلهما ، وأن يدفنا ، الأتابكي بكتمر وولده الأمير أحمد ، في الخانقاة التي أنشأها الأتابكي بكتمر ، في القرافة الصغرى . ٦

وكان الأتابكي بكتمر أنشأ هذه الخانقاة في القرافة الصغرى ، بجوار مقام سيدى محمد وفا ، رضى الله عنه ، وأنشأ بهذه الخانقاة حماما ، وفرنا ، وطاحونا ، وساقية ، وجنينة ، وقرّر بها صوفية وحضوراً ، وجعل للصوفة خلاوى في هذه الخانقاة يسكنون بها دائما . ١٢

وجعل في هذه الخانقاة ربة شريفة مكتوبة بالذهب ، مصروفها ألف دينار ، وكانت بخط بعض الأعاجم .

ولم تزل هذه الربة مقيمة بهذه الخانقاة ، والناس يتوجهون إلى هذه الخانقاة بسبب الدرجة على هذه الربة ، فإنها كانت من محاسن الزمان ؛ ولم تزل هناك إلى سنة تسع وتسعمائة ، فلما أنشأ الملك الأشرف قانصوه النورى مدرسته التي في الشراشيتين ، نقل هذه الربة إلى مدرسته ، وهي مقيمة بها إلى الآن . ١٨

وكانت القرافة في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون عامرة آهلة ، وبنت بها الأمراء

(٩ و ٨) الصغرى : الصغراء .

(١٦ - ١٧) سنة تسع وتسعمائة : كذا في الأصل ؛ ويلاحظ أن هذا التاريخ لاحق لتاريخ

الفراغ من كتابة هذا الجزء ، وهو سنة ٩٠١ ، المذكور هنا فيما يلى س (٢٥٧ آ) .

وقد ذكر ابن إياس خبر نقل هذه الربة إلى مدرسة السلطان النورى ، وذلك بين أخبار

شهر جمادى الأولى سنة ٩١٠ - انظر : بدائم الزهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ٤ : ص ٦٩ .

الترب الجميلة ، ولا سيما بمزارات الأولياء التي بها ، وفيها يقول بعض الشعراء :

تعجبت من أمر القرافة إذ غدت على وحشة الموتى لها قابنا يصبو

فألفيتها مأوى الأحبة كلهم ومستوطن الأحاب يصبو له القاب

وقال العميدى :

إذا ما ضاق صدرى لم أجدرى مقرّ عبادة إلا القرافة

لئن لم يرحم المولى انكسارى وقامة ناصرى لم ألقى رافة

واستمرت القرافة تزايد في العمارة إلى سنة ثلاث (٢٤٥ آ) وثلاثين وأربعمائة ،

وكانت الناس يرغبون في سكناها ، ويختارونها على سكنة المدينة ؛ ولم يزالوا على ذلك

حتى ظهر بالقرافة شيء يقال له القطربة ، فكانت تنزل من الجبل المقطم في الليل ،

وتختطف الأولاد الصغار الذين في الترب ، فلما تزايد أمر القطربة ، رحل من القرافة

أكثر الناس خوفا على أولادهم ، فهذا كان سببا لخراب القرافة ، وتلاشى أمرها من

يومئذ .

وقد حكى عن هذه القطربة ، أنها كانت تنبش قبور الموتى ، وتأكل أجوافهم ،

وتتركهم مطروحين على الأرض ، فعند ذلك امتنع الناس من الدفن في القرافة ،

واستمرت ذلك مدة طويلة حتى انتقطع خبر تلك القطربة .

وحكى أن شخصا خرج من أطنايح ، وهو راكب على حمارة في الليل ، فلما وصل

إلى حلوان ، رأى امرأة جالسة على الطريق ، فشكت له من ضعف المشى ، فحملها

خلفه ، فلم يشعر بالحمار إلا وقد سقط ميتاً ، فنظر إلى المرأة وإذا بها قد خرقت جوف

الحمار بمخاليبها ، ففزع الرجل خوفا منها على نفسه .

فلما أشيع أمره بين الناس ، فكانت الأتراك تخرج إلى حلوان بالقسي والنشاب ،

فلم يقدروا على تحصيل تلك القطربة ، ورأوا إلى الحمار ميتاً ، وقد أكلت جوفه عن

(١) بمزارات : بمزاراة .

(٨) سكنة : كذا في الأصل .

(١٠) الذين : الذين .

آخره - نقل ذلك الشيخ تقي الدين المقرئ في الخطوط ، انتهى ذلك .

وكان صفة الأتابكي بكتنر ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة ، أسود اللحية ،

معتدل القامة ، غليظ الجسد ؛ وكان وافر العقل ، حسن العبارة ، قليل الأذى ، ٣

محبا للرعية ؛ وكان يرجع الملك الناصر عن الظلم ، ويسمع له في ذلك ؛ وكان له برّ

ومعروف ، وأوقف كثيرة ، على جهات برّ وصدقة ، ولا سيما هذه الخائفة التي أنشأها

في القرافة ، وما فعل فيها (٢٤٥ ب) من وجوه البرّ والخير ، انتهى ذلك . ٦

وفيها توفى الإمام فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس المصري ، وكان من

أعيان العلماء ، وله سند في الحديث .

وفي هذه السنة ، حضر المقرّ السيفي تنكز ، نائب الشام ، وكان يزور السلطان ٩

في كل سنة مرة ، فحضر معجته تقادم حفلة للسلطان .

فلما حضر أكرمه ، وأنزله بالبيدان الكبير ، الذي عند البركة الناصرية ، فأقام

به مدة ، ثم توجه إلى الشام ، فأخلع عليه السلطان خاتمة سنّية ، ونزل من القلعة ، ١٢

والأمراء قدّامه ، حتى وصل إلى الريدانية ؛ وكان هذا آخر اجتماعه بالسلطان ، ومنتهى

سعدته ، كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه .

وفي هذه السنة ، توفى الشيخ تاج الدين الفاكهاني ، من أعيان علماء المالكية ، ١٥

ولد سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، ومات سنة أربع وثلاثين وسبعمائة .

وفيها توفى الشيخ ناصر الدين محمد بن شافع بن علي سبط القاضي محي الدين

ابن عبد الظاهر ، وكان عالما فاضلا ، وله شعر جيّد ، وهو من أعيان شعراء مصر ، ١٨

فمن ذلك قوله :

مولاي إنّ البحر لما زرتَه حياك وهو أبو الوفاء بأصبع

فانظر لبسطته التي قد أصبحت هي مشتهاه وروضة التمتع

أرخى عليه السترا جثته خجلا ومدّ تضرعا بالأذرع

وفي هذه السنة ، في شعبان ، توفى الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد

(٧-٨) وفيها . . . الحديث : كتب المؤلف هذا الخبر على هامش من (٢٤٤ ب) .

(٢٣) فتح الدين : سبق ورود خبر وفاته هنا .

الناس اليعمرى ، وكان أصله من الأندلس ، وهو مؤلف السيرة النبوية ، وكان مولده
 فى ذى القعدة من سنة إحدى وسبعين وثمانى ، ومات (٢٤٦ آ) فى هذه السنة ،
 وهى سنة أربع وثلاثين وسبعائة ، وكان حافظا ، علامة ، ناظما ناثرا ، راويا من
 أعيان الرواة ، ومن شعره قوله :

قضى ولم يقض من أحبابه أربا سب إذا مر خفاق النسيم صبا
 لا تحسب قتل الحب مات فى شرع الهوى عاش للإخلاص منتسبا
 فى جنة من معانى حسن قاتله لا يشتكى نصبا فيها ولا وصبا
 ما مات من مات فى أحبابه كلنا وما قضى بل قضى الحق الذى وجبا

قيل ، لما بلغ الصلاح الصفدى وفاة الشيخ فتح الدين ، وكان بدمشق ، فرثاه وقال :
 كان سمعى فى مصر بالشيخ فتح الدين يجنى الآداب وهى طرية
 يا لها غربة بأرض دمشق أذكرنى الفواكه الفتحية

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وسبعائة

ففىها أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء الذين كانوا فى السجن بغير الإسكندرية ،
 وهم : الأمير بيبرس ، حاجب الحجاب ، والأمير تمر الساقى ، والأمير غانم بن أطاس
 خان ، والأمير طغلق ، والأمير بلاط اليونسى ، والشيخ على الأوجاقى ، والأمير بلرغى ،
 والأمير بتخاص ، والأمير لاجين العمري ، والأمير بيبرس العلمى ، والأمير كجلى .

فلما حضروا هؤلاء الأمراء إلى القاهرة ، أخلع عليهم ، وأعادهم إلى إمرائهم ؛
 ثم بعد ذلك قبض على جماعة من الأمراء وأرسلهم إلى السجن بغير الإسكندرية ، عوضا
 عن أفرج عنهم .

وفى هذه السنة شرع السلطان فى بناء قنطرة على بحر أبى الرجا ، عند شيبين
 القصر .

وفىها جاءت الأخبار من حلب ، أن الأرمن ملكوا مدينة سيس ، وطردها

(١٥) بلرغى : كذا فى الأصل .

(٢٠) أبى الرجا : كذا فى الأصل ، ولعله يعنى : أبى المنجا . // شيبين : شيبين .

من كان بها من المسلمين ؛ فرسم (٢٤٦ ب) السلطان لنائب حلب بأن يتوجه إلى
سيس ، هو ومن في حلب من العساكر ، فخرج في سابع عشرين رمضان ، وحاصر
٣ من في سيس من الأرمن ، وأحرق الضياع التي حول المدينة ، وأسر جماعة من
الأرمن ، نحوا من ثمانية إنسان .

فلما وقع ذلك ثار من كان في قلعة إياس من الأرمن على المسلمين ، وحشروهم في
٦ فندق ، وأحرقوا ذلك الفندق بمن فيه من المسلمين ، وكانوا نحو ألفين إنسان ، ما بين
رجال ونساء وصغار ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فجاء هذا الخبر إلى السلطان ليلة عيد النحر ، فتشوش لذلك ، واضطرب من
٩ هذا الخبر ، فدخل عليه ابن الشهاب محمود الثناء ، وأنشده هذه الأبيات ، وهي :
أيا ملك الإسلام وابن مليكهم ومن أيد الرحمن بالنصر جنده
ومن جيشه ملء الفضاء وأتته ليهزم جيش الكفر بالله وحده
أتاك بعيد النحر سعدك غبرا لنا أن عيد النصر يأتيك بعده
فصل لرب الناس وانحر فبعدها ستنحر من يدعو مع الله نده
انتهى ذلك .

١٥ وفيها شرع الأتابكي قوصون في بناء خانقته ، التي هي خارج باب القرافة ، وكذلك
في إنشاء جامعها ، الذي بالقرب من زقاق حلب .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وسبعائة

١٨ فيها وقع الفناء والغلاء بمصر ، ومات من الناس ما لا يحصى عددهم ، واستمر
الطامن عمالا مدة أربعة أشهر ، ففتح السلطان (٢٤٧ آ) له مفسلا برسم الأموات
الغرباء ، فكفّن من ماله في تلك السنة من مات من الغرباء بنحو من عشرين ألف
٢١ دينار .

(١) إنسان : إنسانا .

(٦) ألفين إنسان : كذا في الأصل .

(١٩) عمالا : عمال . // مفسلا : مفسل .

ووقع النلاء عقيب الفناء ، فتناهى سعر القمح إلى سبعين درهما كل أردب ، وعدم الخبز من الأسواق ، وماجت الناس على بعضها ؛ فرسم للأمراء أن يفتحوا شوارعهم ويبيعوا منها للناس ، ففعلوا ذلك ، فانحط سعر القمح إلى ثلاثين درهما كل أردب ، فلما دخل شهر رمضان انحط سعر القمح جدًّا ، وكثر في العرضات ، وسكن الرهيج الذى كان فيه الناس .

ومن الحوادث فى هذه السنة ، أن السلطان تغيّر خاطره على الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، ورسم له أن يتحوّل من مناظر الكباش ، ويسكن بالقاعة ، فتحوّل من يومه ، وسكن بالقاعة ، هو وعياله ، فى البرج الكبير ، الذى كان الملك الظاهر بيبرس أنزل به الإمام أحمد الحاكم بأمر الله ، عندما قدم من بغداد .
فاستمرّ الخليفة المستكفى بالله ساكنًا فى هذا البرج مدّة ، ومنع السلطان الناس عنه ، ولم يمتكن الناس من الاجتماع به ، فأقام على ذلك نحو خمسة أشهر ، حتى شفع فيه بعض الأمراء عند السلطان ، فرسم له بالنزول إلى مناظر الكباش ، على عادته ، والسكن بها .

وفىها أرسل السلطان تجريدة إلى سيّس ، بسبب ما فعله الأرمن ، مما تقدّم ذكره . وفىها حضرت الحرّة ، زوجة ملك الغرب ، طالبة التوجّه إلى الحجاز ؛ وحضر معها تقادم حفلة للسلطان ، ومن جملتها أمعجوبة (٢٤٧ ب) وهو ثور أصفر ، فاقع اللون ، كامل الخلقة ، وفى وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع منه رؤس أضلاعه ، وذلك الكتف بمرفق وذراع ، وحافر مفروق مثل حافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة ويُجّبي عليه ، كما يُفعل بالسباع ، وكان يطوف القاهرة ، وعليه جلّ من حرير أصفر .

وفى هذه السنة ، رسم السلطان للمقرّ السيفى تنكز ، نائب الشام ، بأن يتوجّه إلى

(١) فتناهى : فتناها .

(٤) العرضات : الرضات .

(١٩) ويجّبي : ويجبا .

عمارة قلعة جبر ، فامتثل ذلك وعمرها ، وجعل فيها حرسية ، ونائب ، وأودع بها السلاح ، وكتب بذلك محضرا ، وأرسله إلى السلطان .

٣ ثم رسم السلطان للأمير أزدمر الشمسي ، نائب بهسنا ، بأن يتوجه إلى قلعة درنده ، ويحاصر أهلها ، فلما حاصروهم ، طلبوا منه الأمان ، وسلموا له القلعة ؛ ثم توجه إلى قلعة النقيز وحاصرها ، ففعلوا كما فعل أهل قلعة درنده ، وسلموا بالأمان .

٦ وفيها توفي الشيخ عبد الواحد بن شرف الدين بن المنير ، وكان من أعيان علماء المالكية ، ولد سنة إحدى وخمسين وستائة ، وتوفي في أثناء هذه السنة ، انتهى ذلك . وفي هذه السنة فتحت ، درنده من الأرمن ، وقد فتحت بالأمان ، وفتحت أيضا قلعة نقيز ببلاد سيس بالحصار . - وفيها توفي السلطان أبو سعيد خان ، ملك العراقيين ، وكان لا بأس به .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وسبعماية

١٢ فيها توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي ، كان من أعيان علماء المالكية ، مات بمصر ، ودفن بها ، وقد داعبه بعض شعراء مصر بهذه المداعبة اللطيفة ، وهو قوله :

١٥ ومفربي دخله مستخرج ليس له ذكر يرى في الناس
فأصله وأسته وذقنه كل غدا منتسب لفاس

وفيها قبض السلطان على الحاج علي بن فضيل ، شيخ مدينة ملوى ، وكان له دواليب ومعاصر ، وكان يزرع (٢٤٨ آ) في كل سنة من القصب الحلو خمسمائة فدان .

٢١ فلما قبض عليه السلطان ، وجد عنده في الحواصل أربعة عشر ألف قنطار من السكر المكرر ، ومثلها قطر نبات ، ومثلها غسل أسود ، هذا خارجا عما وجد له من العبيد والجوار والفلال ، وغير ذلك من الذهب العيين والفضة ، فحمل ذلك جميعه إلى الحواصل السلطانية ؛ وأقام علي بن فضيل في الترسيم مدة ، ثم أفرج عنه ، وأخلع عليه ، وأعيد إلى حاله بمدينة ملوى ، انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة

- فيها تغير خاطر السلطان على الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ، ورسم له بأن يتوجه ، هو وعياله ، إلى قوص ، نخرج من يومه ، وتوجه إلى قوص ، وذلك ٣ يوم السبت ثاني عشر ذي الحجة من تلك السنة .
- فهو أول خليفة نفي من مصر من غير جنحة ولا سبب ، ومعه أولاده وعياله ، فشق ذلك على الناس ، ولم يستحسنوا منه هذه الفعلة ؛ قال الشيخ زين الدين عمر ٦ ابن الوردي في هذه الواقعة ، وهو قوله :
- أخرجوكم إلى الصعيد لأمر غير مجز في مآتي واعتقادي
لا يغيركم الصعيد وكونوا فيه مثل السيوف في الأغناد ٩
- وكان سبب ذلك ، أن الخليفة المستكفي بالله ، رفعت إليه قعدة ، بأن شخصاً له على الملك الناصر دعوة شرعية ، فكتب عليها الخليفة : « ليحضر أو يوكل » ، وأرسلها إلى الملك الناصر ، فلما قرأها شق ذلك عليه ، وبقي في خاطره منه ، فتناقل ١٢ عنه مدة ثم رسم بإخراجه إلى قوص .
- فلما خرج أقام بقوص مدة ثلاث سنين ونصف ، ومات هناك في شعبان سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة خلافته بمصر خمس وثلاثين سنة وسبعة أشهر ١٥ (٢٤٨ ب) وأياما .
- وكان المستكفي بالله لما خلع من الخلافة ، عهد إلى ولده أحمد من بعده ، وثبت ذلك العهد على قاضي قوص ، بشهادة أربعين رجلاً من العدول ، فلما حضر ذلك ١٨ العهد بين يدي الملك الناصر ، فلم يمسيه ، لما في نفسه من الخليفة المستكفي بالله .
- ثم إن السلطان عقد مجلساً ، وجمع القضاة الأربعة بسبب من يلي الخلافة ؛ فلما رأوا ٢١ القضاة ذلك العهد تمسكوا بحكم قاضي قوص ، وانقض المجلس مانعاً ، ولم يول السلطان أحمد بن المستكفي بالله ، واستمر على عدم ولايته لأحمد ، فأقامت مصر بلا خليفة أربعة أشهر ، فكانت الخطباء لا يدعون إلا لسلطان فقط ، ولم يذكروا اسم الخليفة .

(٢١) ولم يول : ولم يول .

(٢٢) ولم يذكروا : ولم يذكرون .

فلما كان يوم الخميس ثانی جمادی الأولى ، طلب السلطان إبراهيم ابن الإمام أحمد الحاكم بأمر الله ، أخا المستكنی بالله سليمان ، فولاه الخلافة على حين غفلة ، بعد أن تروى أربعة أشهر في أمر من يلي الخلافة ، ولم يول أحمد بن المستكنی بالله ، لما عنده من حظ النفس من أبيه ، فتولى إبراهيم من غير عهد ، واستمر في الخلافة إلى أن مات وتلقب بالوائق بالله ، فتولى إبراهيم من غير عهد ، واستمر في الخلافة إلى أن مات الملك الناصر . ٦

قال الشيخ شهاب الدين بن حجر ، رحمة الله عليه ، في تاريخه : لما تولى إبراهيم هذا أمر الخلافة ، كانت العامة تسميه المستعطى بالله ، لقذارة نفسه وطعمه ، وكان في الخلافة عارية مستردة ، إلى أن تولى الإمام أحمد بن المستكنی بالله سليمان (٢٤٩ آ) ، كما سيأتي ذكر ذلك في موضعه . ٩

وفي هذه السنة توفى الشيخ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي ، وكان إماما فاضلا ، توفى وهو في السجن لأمر أوجب ذلك . ١٢

وفي هذه السنة ، أعني سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، فيها توفى القاضي محيي الدين يحيى بن فضل الله العمري ، كاتب السرّ بالديار المصرية ، توفى في شهر رمضان من تلك السنة ، وعاش من العمر ثلاث وتسعين سنة ، وكان عالما فاضلا ، شافعي المذهب ، تولى كتابة السرّ بمصر والشام ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر . ١٥

ثم إن السلطان أخلع على القاضي علاء الدين علي بن القاضي محيي الدين بن فضل الله ، واستقرّ كاتب السرّ ، عوضا عن أبيه محيي الدين ، فلما تولى كتابة السرّ بالديار المصرية ، قال فيه المعمار : ١٨

(١) جمادی الأولى : نفهم من ذلك أن الواثق بالله بويع بالخلافة في جمادی الأولى سنة ٧٣٩ ، بعد أربعة أشهر من تقي المستكنی بالله إلى قوس في ذي الحجة سنة ٧٣٨ .

(٣) ولم يول : ولم يول .

(١١ - ١٣) وفي هذه السنة... أوجب ذلك : كتب المؤلف هذا الخبر على هامش ص (٨ : ٢٤ ب) .

لابن فضل الله فضل غمر الناس ووفى
كيف لا وهو على علم السر وأخفى

وفي هذه السنة ، عزل السلطان قاضي قضاة الشافعية جلال الدين محمد القزويني ؛
واستقر بالقاضي عز الدين عبد العزيز بن القاضي بدر الدين بن جماعة المندسي .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وسبعمائة

فيها تغير خاطر السلطان على النشو ، ناظر الخواص الشريفة ، وسلمه إلى الأمير
بشتاك الناصري ، حاجب الحجاب ، فلما تسلمه عاقبه أشد العقوبة ، حتى مات تحت
الضرب ، واحتاط على موجوده جميعه من سامت وناطق .

وكان السلطان قرب النشو هذا ، حتى صار عنده في أعلا المراتب كما كان كريم
الدين بن السديد ، وكان يظن أن الدهر قد صفا له ، فكان كما قال الإمام علي ، كرم
الله وجهه : « مَنْ أَمْسَى مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ عَلَى جَنَاحٍ (٢٤٩ ب) أَمِنْ ، أَسْبَحَ مِنْهَا
وَهُوَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ » .

فلما مات النشو ، أخلع السلطان على صهر النشو ، واستقر به ناظر الخواص ،
عوضا عن النشو ، فجاء أظلم منه ، وفيه يقول المعمار :

قد أخلف النشو صهر سوء قبيح فعل كما تروه
أراد للشر فتح باب فأغلقوه وسهروه

ومن الوقائع في هذه السنة ، أن ظهر بالقاهرة امرأة تسمى الخنافة ، فاشتهر
أمرها بين الناس ، فكانت تحتال على النساء والأطفال ، وتخفهم ، وتأخذ ما عليهم
من الثياب ؛ فلما شاع أمرها ، وبلغ السلطان ، رسم لوالى القاهرة أن يقبض عليها ،
فلا زالوا يتبعونها حتى قبضوا عليها ، فأشبهوها فى القاهرة ، ثم شتموها على باب
زويلة ، وكان لها يوم مشهود لما علقت لاشنق ، انتهى ذلك .

وفيها توفى الشيخ ركن الدين محمد بن القويح التونسي المغربي ، كان من أعيان
علماء المالكية .

ثم دخلت سنة أربعين وسبعمائة

فيها ، في صفر ، توفي سيدي أنوك بن السلطان الملك الناصر محمد ، توفي في حياة والده ؛ وكان أنوك هذا بديع الجمال ، مليح الشكل ، وكان الملك الناصر يحبه دون أولاده ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ؛ فحزن عليه السلطان حزنا شديدا ، وتأسف عليه ، وقد رثاه الصلاح الصفدى بقوله فيه :

مضيت وكنت للدنيا جمالا وجرعت النجوم الزهر فقدك
ومن عجب الليالى فيك أن لا يموت أبوك يا أنوك بعدك
(٢٥٠ آ) فكان الفال بالانطق .

وفي هذه السنة تغير خاطر السلطان على المنقر السيفى تنكز ، نائب الشام ، فأرسل إليه الأمير بشتاك الناصرى ، والأمير يلبغا اليحياوى ، وصحبتهم جماعة من المماليك السلطانية ، وأرسل على أيديهما مراسيم شريفة لأمرأء دمشق ، بأن يكونوا لهم عوناً على قبض الأمير تنكز ، نائب الشام .

فلما وسلا إليه ، قال له : « إن السلطان رسم أن تحضر إلى القاهرة » ، فقال تنكز : « أنا بالأمس كنت عند السلطان ، فما يصنع بى الآن » ؟ فقال له : « إن السلطان يريد أن يزوج ابنته بابنك » ، فقال تنكز : « أنا لى شغل فى هذا الشهر ، وقد عرمت للتوجه إلى عربان نابلس لأصلح بينهم ، ولكن امضوا انتموا إلى مصر ، وأنا أحضر وولدى بعدكم » .

فأغلظ عليه فى العبارة الأمير بشتاك الناصرى فى القول ، ولم يسمع له ، وأرسل كاتب السلطان ، أن تنكز امتنع عن الحضور إلى الأبواب الشريفة ، وأثنى جراحاته عند السلطان .

فلما سمع السلطان هذا الجواب ازداد حنقه على تنكز ، وعين له تجريدة ، صحبة الأمير طاجار ، الدوادر الكبير ، بالتمبض عليه ؛ ولو أن تنكز حضر مع الأمير بشتاك ، والأمير يلبغا ، إلى عند السلطان ، ما كان يحصل له إلا كل خير ، ولكن ضل رأيه عن الصواب .

- فلما وصل الأمير طاجار إلى دمشق ، قال لتفكز : « قم احضر إلى عند السلطان » ،
فامتنع تفكز من الحضور ، وقال للأمير طاجار : « امض أنت ، وأنا أمضي بعدك
ببأية أيام » ، فرجع الأمير طاجار إلى مصر ، وما أبقى يمكننا في حق تفكز . ٣
فازداد السلطان غيظا على تفكز ، وعيّن له تجريدة ثقيلة ، وبها ستة أمراء مقدّمين
وخمسة مملوك ، ورسم للنّواب أن يمشوا عليه من هناك .
فلما وصلوا إلى دمشق (٢٥٠ ب) حاصروا تفكز أشدّ المحاصرة ، فطلب منهم ٦
الأمان ، ونزل إليهم وفي رقبتهم منديل ، فقبضوا عليه وقيدوه ، وكان ذلك يوم السبت
ثالث عشر ذي الحجة سنة أربعين وسبعمائة .
فلما مسك تفكز ، احتاطوا على موجوده ، فوجد له من الذهب والتحف والقماش ٩
ما لا يسمع بمثله ، فمن ذلك من الذهب العين ثلثمائة ألف دينار وستين ألف دينار ،
ومن الفضة النقرة ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ؛ ووجد له من الفصوص
اليافوت والباخش واللؤلؤ الكبار ثلاثة صناديق ؛ ووجد عنده من الطرز الزركش ١٢
والخوايص الذهب والكنائش الزركش والخلع الأطلس مائة وخمسين بقجة ، ومن
القماش الصوف الملون ، ومن السمور والوشق والسنباب وغير ذلك خمسمائة بقجة ؛
ووجد عنده من البرك والفرش والأواني ما حُمِل إلى القاهرة على مائة وخمسين جملا . ١٥
ووجد له ودائع عند الناس ما ينيف عن مائتين وخمسين ألف دينار ، ومن
الفضة ألف ألف ومائة ألف درهم ؛ وظهر له من الأملاك والضياع بمصر والشام
ما قوّم بمائتي ألف دينار ؛ هذا خارجا عن الخيول والبغال والجمال والغلال والماليك ١٨
والعبيد والجوار ، وحلّى نسائه ، وغير ذلك ، فوصل ذلك إلى الخزانة الشريفة صحبة
الأمير بشتاك الناصري .

(٢) امض : امض .

(٣) يمكننا : ممكن .

(١٤) السمور : الصمور .

(١٦) مائتين : مائتي .

ثم حفر الأمير تنكز ، نائب الشام ، حربة الأمراء ، وهو مقيد ، فلما حضر إلى
الخطارة ، رسم السلطان بأن يتوجهوا به من هناك إلى السجن بشفر الإسكندرية ،
فمضوا به إلى السجن من هناك . ٣

فلما سجن أقام في السجن أربعين يوما وهو مقيد ، ثم إن السلطان رسم
(٢٥١ آ) بخنقه ، فأرسل إليه الحاج إبراهيم بن صابر ، مقدم الدولة ، خنقه وهو
بالسجن ؛ فلما مات غسلوه وكفّنوه وصلّوا عليه ، ودفنوه بشفر الإسكندرية ؛ فذهبت
روحه ، وأخذ ماله ، وتخلّى عنه سلطانه ، وقد قيل في المعنى :

لا فهم في الدنيا لمستيقظ يلمحها بالفكرة الباصرة
إن كدّرت عيشته ملأها وإن صفت كدّرت الآخرة ١
وقال بعض الحكماء : « ثلاثة لا يؤمن إليهم : المال وإن كثر ، والملوك وإن
قربوا ، والمرأة وإن طال صحبتها » .

واستمر تنكز مدفونا بشفر الإسكندرية مدة يسيرة ، ثم إن بعض الأمراء شفع فيه
بأن ينقل جثته إلى دمشق ، ويدفن في مدرسته التي أنشأها بدمشق ، فرسم السلطان
بنقله من الإسكندرية إلى دمشق ، فنقل في أواخر سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ،
ودفن بدمشق ، وفيه يقول الصلاح الصفدى :

إلى دمشق نقلوا تنكزا فيألفها من آية ظاهرة
في جنة الدنيا له جثة وروحه في جنة الآخرة ١٥
وقوله فيه أيضا :

في نقل تنكز سرّ أراد الله ربّه
أتى به نحو أرض يحبها وتحبّه ١٨

وكان أصل تنكز من ممالك الملك المنصور لاجين ، ولهذا كان تنكز يدعى
بالحسامي ، فلما قتل المنصور لاجين ، وعاد الملك الناصر إلى السلطنة ، أخذ تنكز من

جملة موجود الملك المنصور لاجين ، فصار من ، اليك الناصر محمد بن قلاون ،
(٢٥١ ب) فأخرج له خيلا وقاشا ، وجعله خاصكياً ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى
أمير طبلخانة ، ثم بقى مقدم ألف ، كل ذلك في دولة الملك الناصر .

فلما راج أمر تنكز جعله الملك الناصر نائب الشام في سنة اثنتى عشرة وسبعائة ،
عوضا عن الأمير آقوش الأفرم ؛ واستمر تنكز في نيابة الشام ثمانية وعشرين سنة ،
وهذا لم يتفق لأحد قبله من النواب ، فعظم أمره ، وكثرت أمواله .

وكان له عند السلطان منزلة عظيمة ، حتى كان يكتبه في الراسيم : « أعز أنصار
انقر الكريم العالى » ، وزاده في الألقاب عن العادة ، وكان السلطان لا يفعل شيئا
من أمور المملكة حتى يرسل يشاور تنكز عليها .

وكان تنكز يزور السلطان في كل سنة مرة ، وصحبته الهدايا والتقدم الحفلة ،
ويقيم بمصر أياما ، ثم يخلع عليه ، ويمضى إلى الشام ؛ واستمر على ذلك ، حتى وقع
بينه وبين السلطان ، وعادت المحبة بفضة ، وتغير خاطر السلطان عليه ، ودبت بينهما
عقارب الفتن ، فأرسل قبض عليه .

قيل ، سئل بعض الحكماء : « ما السبب أن تستحيل المحبة بفضة ، ولا تستحيل
البغضة بحبة » ؟ فأجاب : « إن خراب العامر ، أسهل من عمارة الخراب ، وكسر
الزجاج ، أسهل من تصحيحه » ، وقال الشاعر :

لا تقبح بـد هرك لى تحسب أنى بالجنا أرضه

الولاية بعدها عزلان والمحبة بعدها بفضة

وقال سفيان الثوري : « لا تقرب السلطان إلا كما تقرب الأسد ، فإن طاووعته
أثميك ، وإن خالفته أعطيك » .

وكان صفة الأمير تنكز ، أسمر اللون ، خفيف العوارض ، طويل القامة ، حسن
الشكل ، وافر العقل ، سديد رأى ، حسن السياسة في أحكامه ؛ وكان ديناً خيراً ،
كثير البر (٢٥٢ آ) والمعروف ، فمن ذلك أنه أنشأ خانقاة بمصر تحت الجبل الأحمر ،
بالقرب من قبة الهواء ، وأنشأ له جامعاً بدمشق ، وله غير ذلك أوقاف كثيرة على

٣ جهات برّ وسدقة ، وكان طاهر الذيل عن الزنا واللواط ، لكنه كان صعب الخلق ، شديد الغضب ، إذا غضب على أحد لم يرض عنه أبداً ، ويقف عند حظّ نفسه ، ولا يُطلق له مسجون قط ؛ وبالنسبة إلى غيره كان خيار نواب الشام مطلقاً ، وكان محبباً لأهل دمشق ، انتهى ذلك من أخباره .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وسبعائة

٦ فيها تزايدت عظمة الملك الناصر ، وصفا له الوقت ، وكثرت ممالكه ، حتى صار راتبه وراتب ممالكه في كل يوم ، من اللحم الضأن ستة وثلاثين ألف رطل ؛ وبالف في مشترى المالك حتى بلغ عدّة مشراواته اثني عشر ألف مملوك .
٩ وهو أول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر ، والسيوف المسقطة بالذهب والفضة ، والحوايص الذهب ، والطارز الزركش ، والريش ، والأقبية المفتوحة المفرّة بالقافم والسنباب .

١٢ وهو أول من رتبّ المراكب بالقصر الكبير ، وشرب السكر بعد السباط ، ورتبّ وقوف الأمراء في المراكب على قدر منازلهم في الوظائف ، وكذلك المباشرين ، ورتبّ بيات الأمراء بالقصر ليالى المراكب ؛ ورتبّ أشياء كثيرة من نظام المملكة ، وهى باقية إلى الآن ، ومشى عليها من جاء من بعده من الملوك على ذلك النظام .

١٨ وقد طالت أيامه في السأطنة بخلاف من تقدّمه من الملوك ، وصفا له الوقت ، وصار غالب الأمراء والنواب ممالكه وممالك أبيه ؛ ولا يعلم لأحد من الملوك آثار (٢٥٢ ب) مثله ، ولا مثل ممالكه ، حتى قيل ، قد تزايدت في أيامه بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، من العمار مقدار النصف ، من جوامع وخوانق وقناطر وجسور وخلجان ، وغير ذلك من العمار بالقلة وغيرها .

(٢) لم يرض : لم يرضا .

(٣) وبالنسبة : وبالنسبت .

(٨) ملوك : مملوكا .

(١٨) بالديار : الديار .

قال الشيخ سيف الدين أبو بكر بن أسد في تاريخه : لقد وقفتُ على تواريخ الملوك
السالفة ، فما سمعتُ لأحد من الملوك مثل أخبار الملك الناصر محمد بن قلاون ، وما وقع
له من الوقائع الحسنة ، فإنه خُطب له في أماكن ، لم يُخطب فيها لأحد من الملوك غيره ،
وكتابه سائر الملوك من مسلم وكافر ، وهادوه ، وصار جميع العسكر ، من كبير وصغير ،
في قبضته ؛ وفيه يقول الشيخ صفي الدين الحلّي من قصيدة :

الناصر السلطان قد خضعت له كل الملوك مشارقا ومغاربا
ملك يرى تعب المكارم راحة وبعدّ راحات الفراغ متاعبا
يرجى مكارمه ويخشى بطشه مثل الزمان مسالما ومحاربا
فإذا سطا ملأ القلوب مهابة وإذا سخا ملأ العيون مواهبا

ولم يزل الملك الناصر محمد قائما على سرير مُلكه حتى مرض وسلسل في الارض ،
ومات على فراشه ، فكانت وفاته في ليلة الخميس في العشرين من ذى الحجة سنة
إحدى وأربعين وسبعمائة ، فمات وله (٢٥٣ آ) من العمر نحو ثمانية وخمسين سنة .
فلما مات دفن بعد العشاء على والده قلاون ، داخل القبة المنصورية ، وكانت له
جنازة مشهودة ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، « إن أجل الله إذا جاء لا
يؤخر » ، كما قيل :

حكم النية في البرية جارى ما هذه الدنيا بدار قرار
ومكث الأيام ضد طبائها متطّلب في الماء جذوة نار
طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقدار والأكدار
ليس الزمان وإن حرصت مسالما طبع الزمان عداوة الأحرار
وإذا رجوت الاستحيل فإنما تبني الرجاء على شفير هار
فالعيش نوم والنية يقظة والرء بينهما خيال سار

وكانت مدة سُلطنة الملك الناصر محمد بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، ثلاثة
وأربعين سنة وثمانية أشهر وأيام ، وذلك دون خلعها من السُلطنة ، وقد خلع

- ٣ ثلاث مرار ، فكانت مدّة الخلع ، دون الولاية ، نحو أربع سنين وأيام .
ولما مات خاف من الأولاد أحد عشر ولدا ذكرا دون البنات ، فأما الذى من أولاده تولّى السلاطنة ، وهم : سيدى أبو بكر الذى تولّى بعده ، وسيدى أحمد الذى كان بالكرك ، وسيدى بكك ، وسيدى شعبان ، وسيدى إسماعيل ، وسيدى حاجبى ، وسيدى حسن ، وسيدى صالح ، فهؤلاء الثمانية تولّوا السلاطنة بعده ، كما سيأتى ذكر ذلك فى مواضعه .
- ٦ وأما الذى لم يل السلاطنة من أولاده ، وهم : سيدى رمضان ، وسيدى حسين ، وسيدى يوسف ؛ وأما الذى توفّى فى أيام حياته من أولاده ، (٢٥٣ ب)
٩ وهم : سيدى إبراهيم ، وسيدى محمد ، وسيدى أنوك ، وسيدى على ، فهذا مجموع ما جاءه من الأولاد الذكور دون الإناث .
- ١٢ وأما فتوحاته التى فتحت فى أيامه ، وهى : مدينة آمد ، ومالطية ، وقامّة إياس ، ودارنّدة ، وبهسنّا ، والمرعش ، وتلّ حمدون ، وقامّة الغنير ، وقامّة نجيمة ، والهارونية ، وكاورا ، واسفندكار ، وغير ذلك من الفتوحات .
- ١٥ وجرّد فى أيامه إلى البلاد الشامية والحلبية ، عدّة تجاريد ، وحجّ فى أيامه ثلاث حجّات ، وزار القدس والخليل ، عليه السلام ، ثلاث مرار .
- ١٨ قلت : والناصر محمد بن قلاون هو أول من اتخذ التذكير يوم الجمعة على المآذن لتستعدّ الناس للصلاة ، وذلك فى سنة سبع مائة ، واستمرّ ذلك إلى الآن .
- وأما من تولّى نيابة السلاطنة فى أيامه ، وهم : الأمير كتبغا الذى تساطن ، والأمير سلاّر ، والأمير بكتمر الجوكندار ، والأمير ببيرس الدوادار المنصورى ، والأمير أرغون الناصرى مملوكه .

(١) ثلاث مرار : كذا فى الأصل ، وهو يعنى أن الناصر تولّى السلاطنة ثلاث مرات .

(٥) فهؤلاء : فهذه .

(٧) لم يل : لم يلى .

(١١) التى : الذى .

(١٦) المآذن : المواذن .

وأما قضااته الشافعية : القاضي تقي الدين بن دقيق العيد ، والقاضي بدر الدين بن جماعة المقدسي ، والقاضي جمال الدين الزرعي ، والقاضي جلال الدين القزويني ، والقاضي عز الدين ابن القاضي بدر الدين بن جماعة ؛ وأما قضااته الحنفية والمالكية والحنابلة ، ٣ فقد تقدّم ذكرهم من مبتدأ دولته .

وأما وزراؤه : الأمير سنجر الشجاعى ، والصاحب تاج الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنا ، والصاحب نحر الدين الخليلي ، تولى الوزارة في أيامه مرتين ، ٦ والأمير سنقر الأعرس ، والأمير أيبك البغدادى ، والصاحب شمس الدين محمد بن الشيخى ، والأمير (٢٥٤ آ) أيبك الأشقر ، وهو أول من تلقب بمسند المملوك ، ثم تولى الصاحب بن عطا ، ثم تولى الصاحب ضياء الدين النشأى ، والصاحب بدر الدين محمد ٩ ابن التركمانى ، والصاحب أمين الدين بن الغنام ، تولى الوزارة في أيامه ثلاث مرار ، وتولى الناصرى محمد ابن الأمير بكتمر الحاجب ، والأمير منلاطاي الجمالى .

وأما كتاب سرّه : القاضي شرف الدين بن فضل الله ، والقاضي علاء الدين بن الأثير ، ١٢ والقاضي محمود أبو الثناء ، والقاضي محيى الدين بن فضل الله ، وولده القاضي علاء الدين ابن فضل الله .

وأما نظار جيوشه : القاضي بهاء الدين بن الحلى ، وأظنه صاحب النيعط المعروف به ، ١٥ والقاضي الفخر ، وهو صاحب القنطرة المعروفة به ، تولى في أيامه مرتين ، والقاضي قطب الدين ابن شيخ المدرسة السلامية ، والقاضي شمس الدين بن التاج ، والقاضي مكين الدين بن قروينة ، وهو صاحب النيعط المعروف به ، والقاضي جمال الدين ١٨ جمال الكفاة .

وأما نظار الخالص : القاضي كريم الدين بن السديد ، وهو أول من تلقب بنظر الخالص ، وهى وظيفة محدثة ليس لها أصل في أيام الخلفاء ، وتولى بعده القاضي تاج الدين ٢١ ابن عبد الوهاب ، وتولى شخص يسمى النشو ، ثم تولى من بعده صهره ، وهو الذى هجّاه الممار ، كما تقدّم .

- وأما دوا دارياته : الأمير عز الدين أيدير الناصري ، والأمير أرغون الناصري ،
 ٣ والأمير رسلان ، والأمير آجاي الناصري ، والأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد ،
 والأمير بُغا ، والأمير طاجار الناصري .
- وأما ما أنشأه في أيامه من البناء ، وهو : القصر الكبير الأبلق الذي بالقاعة ،
 ٦ والقصران (٢٥٤ ب) اللذان يليانه ، وعمر الإيوان الكبير ، وعقد فوقه القبة
 العظيمة ، وعمر الدهيضة المطلة على الحوش السلطاني ، وقيل إنما أكمل عمارتها ابنه
 الملك الصالح ، وعمر الجامع الذي بالقاعة ، والجامع الجديد المطل على بحر النيل عند
 ٩ موردة الحلفا ، وعمر خانقاة سرياقوس ، وعمر الحوش الكبير الذي بالقاعة ، وعمر
 دور الحرم كلها ، وعمر المجرة المتصلة بالقاعة ، وأجرى إليها الماء من بحر النيل ،
 وعمر سور الميدان الذي تحت القاعة ، وعمر الميدان الكبير الذي عند البركة الناصرية ،
 ١٢ وأنشأ به القصر الكبير ، وغرس حوله الأشجار .
- وحفر الخليج الناصري ، وأجرى إليه الماء من عند موردة الجبس ، وحفر البركة
 الناصرية ، وأجرى إليها الماء ، وعمر ميدان المهارة الذي عند قناطر السباع ، وأنشأ
 ١٥ على الخليج الناصري عدة قناطر ، وعمر قناطر أم دينار ، وقناطر شيبين ، وقناطر
 أبو صير ، وقناطر الميني ، وعمر الجسر الذي بشبرامنت ، وعمر جسرا بالفيوم .
- وجدّد عمارة الجامع الذي يسمّى بالرصد ، وجدّد عمارة جامع راشدة ، وجدّد
 ١٨ عمارة مشهد السيدة نقيسة ، رضى الله عنها ، ووضع به المحراب الذي حرّره على الصلحة ،
 وجدّد عمارة قبة الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، وعمر زاوية الشيخ رجب التي تحت
 القاعة ، وعمر الاصطبل السلطاني ، وجدّد عمارة الطباخانة السلطانية ، وعمر زريبة
 ٢١ بشر دمياط ، وله غير ذلك من الإنشاء أشياء كثيرة بمصر والشام ، وأجرى عين
 بزان التي بمكة ، وصنع للبيت الشريف بابا مصفّحا بالفضة ، وهو الموجود (٢٥٥ آ)
 على الكعبة الشريفة إلى الآن .

(٥) والقصران اللذان يليانه : والقصرين الذي تليه .

(٩) وأجرى : وأجرا .

(١٥) قناطر الميني : كذا في الأصل .

- وأما ما أبطله في أيامه من وجوه الظلم، وهو: ضمان المغاني، وكان عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، وذلك لو خرجت أجل امرأة من نساء القاهرة تقصد البغاء، ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة، وأقامت بما يلزمها من القدر الذي يتعين عليها، لَمَّا قَدِرَ أكبر من في الحكم بمنعها عن البغاء، وعمل الفاحشة، وكان يحصل من ذلك لنساء أعيان مصر، وبناتهم، غاية الفساد من ذلك، فأبطل هذه الفاحشة العظيمة من مصر، وكان يتحصل من هذه الجهة جملة مال.
- وأبطل أيضاً ما كان يؤخذ ممن يبيع ماله، عن كل ألف درهم عشرين درهماً، فأبطل ذلك جميعه، وكان يتحصل من هذه الجهة أيضاً جملة مال؛ وأبطل من هذا النمط أشياء كثيرة كانت بمصر من وجوه المظالم، وصارت في صحيفته إلى الآن.
- قال بعض المؤرخين: لم يل من أبناء الملوكة قاطبة مُلْك مصر أعظم من الملك الناصر محمد، وهذا متفق عليه كل مؤرخ.
- ولما مات الملك الناصر محمد، تولى بعده ابنه أبو بكر، انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الناصر محمد بن قلاوون، وذلك على سبيل الاختصار، تمت.

ذكر

١٥ سلطنة الملك المنصور سيف الدين

وهو أبو بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون

- وهو الثالث عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، وهو أول من تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ يبيع بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه، وكان في أولاده من هو أكبر منه، ولكن الملك الناصر اختار سلطنته من (٢٥٥ ب) بعده دون أولاده، وقدمه عليهم، فتولى الملك وله من العمر نحو عشرين سنة.

٢١

فلبس شعار الملك من دور الحرم، وركب من باب الستارة، والأمراء مشاة

بين يديه ، حتى دخل القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضيح له الناس بالدعاء ، ودقت له البشار ، وذلك في يوم الخميس حادى عشرين ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمئة .

فلما تم أمره في السلطنة ، عمل الموكب بالقصر الكبير ، وأخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير طغر دمر ، صاحب القنطرة التي عند مدرسة قراقجا الحسنى ، واستقر به نائب السلطنة بمصر ؛ وأخلع على الأمير قوصون ، صاحب الجامع ، واستقر به أتابك العساكر بمصر ؛ وأخلع على الأمير طشتور المعروف بمحمص أخضر ، واستقر به نائب حلب ؛ وأخلع على الأمير طاجار ، وأقره دوادارا كبيرا على عادته .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وسبعمئة

١٢ فيها عمل السلطان الموكب ، وأخلع على الخليفة الإمام أحمد بن المستكنى بالله سليمان ، وهو صاحب العهد المقدم ذكره ، الذى توقف الملك الناصر في ولايته ، فتعصبت له الأمراء ، فعزلوا إبراهيم الذى كانت العوام تسميه المستعلى بأمر الله ، وولوا الخليفة أحمد بن المستكنى بالله ، وتلقب بالحاكم بأمر الله ، مثل لقب جدّه الإمام أحمد ، فوافقه في الاسم واللقب ، فكان رابع خليفة من بنى العباس بمصر .

١٨ وفيها عزل السلطان القاضي علاء الدين بن فضل الله عن كتابة السر ؛ وولى القاضي شهاب الدين بن فضل الله (٢٥٦ آ) أخا القاضي علاء الدين ، وكان عالماً فاضلاً ، ناظماً ناثراً ، وهو صاحب كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ، وله كتاب في صنعة الإنشاء ، وهو قوله :

٢١ يا طالب الإنشاء خذ علمه عني فعلمي غير منكور
ولا تقف في باب غيري فما تدخله إلا بدستوري

وكان مولد القاضي شهاب الدين هذا في شوال سنة سبعمئة ، وكان من أعيان

٢٤ شعراء مصر ، وكان من أذكى العالم ، ومن نظم الرقيق قوله :

أنا مع التمكن في قدرتي ليس يشكّ الناس في عفتي
 يثنى على صدق لساني الوري في حال أثنائي وفي خفتي
 كم من يد ممتدة في الغنى صارت بما تحويه في كفتي
 ومن تفرّلاته :

جاءوا بأنواع من الطيب لنا تحملها معشوقة ممشوقة
 قلت خذوا الطيب لكم جميعه بشرط ألا تأخذوا المعشوقة
 ومن الحوادث في هذه السنة ، أنّ العسكر صار فريقين ، فرقة مع الأتابكي
 قوصون ، وفرقة مع الأمير طاجار الدوادار ؛ ثم إنَّ الأمير طاجار حسن للسلطان أن
 يقبض على الأتابكي قوصون وهو في الخدمة بالقصر الكبير ، فأسرَّ السلطان ذلك إلى
 بعض الخاصكية ، وكان من طبعه الرهج والخفة ، فتوجّه الخاصكي إلى عند الأتابكي
 قوصون ، وذكر له ما قد عوّل عليه السلطان من القبض عليه ، فأخذ حذره منه ،
 فكان حال السلطان كما قيل في المعنى :

إذا الرء أفشى سرّه بلسانه ولام عليه غيره فهو أحمق
 إذا ضاق صدر الرء من سرّ نفسه فصدر الذي يستودع السرّ أضيق
 (٢٥٦ ب) فلما تحقّق الأتابكي قوصون ذلك ، اجتمع بالأمير أيدغمش ، أمير
 آخور كبير ، وجماعة من الأمراء ، وذكر لهم ما عوّل السلطان عليه ، فاتفقوا الجميع
 على خامة .

فلما كان يوم الموكب لم يطلع الأتابكي قوصون إلى القلعة ، فاضطربت الأحوال في
 ذلك اليوم .

ثم إنَّ الأتابكي قوصون طلع القلعة بعد الظهر ، وقبض على الملك المنصور ، وهو
 في دور الحرم ، وأرسله إلى قوص ، فسجن بها ، وأرسل معه أخواه سيدي يوسف
 وسيدي رمضان ، وهما أشقته ؛ وكان خلع الملك المنصور في أواخر صفر من تلك
 السنة ، فكانت مدة سلاطنته نحو ثلاثة شهور لا غير .

فلما أرسله إلى قوص ، شرع في القبض على جماعة من الأمراء ، فقبض على الأمير طاجار الدوادار ، والأمير بشتاك الناصري ، وعلى جماعة من الأمراء العشراوات ، ثم أرسل الأميرين إلى السجن بشفر الإسكندرية ؛ ثم قبض على جماعة من المالك السلطانية ، فقبض على نحو مائتي مملوك .

٣ قيل ، لما وصل الملك المنصور أبو بكر إلى قوص ، فسجن بها ، وأقام في السجن أياماً ؛ ثم إن الأتابكي قوصون أرسل إلى متولى ناحية قوص ، بأن يقتل الملك المنصور ، وهو في السجن ، فقتله خنفاً ، ثم قطع رأسه وأرسلها للأتابكي قوصون في الدس ، وكتب موته عن الناس ، ثم فشا قتله بين الناس ؛ وهو أول من قتل من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وكان ذلك سبباً لزوال أمر الأتابكي قوصون ، ودماره .

٦ انتهى ما أوردناه من أخبار الملك المنصور أبي بكر ، وذلك على سبيل الاختصار . ١٢ يتلوه « الجزء الخامس » في أخبار الملك (٢٥٧ آ) الأشرف علاء الدين كجك ، ومن ولي من إخوته من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون .

١٥ قيل : كان بعض الحكماء يقول لولده : « يا بني اكتب أحسن ما تسمع ، واحفظ أحسن ما تكتب ، وحدّث بأحسن ما تحفظ » ، وقد قال القائل :

إذا رمت جمعا فاجتهد أن تجيده لملك يوما أن تفوز بأغربه
فإن كان درّا ألبسوك جماله وإن كان صخرًا حق أن يرجوك به

١٨ وكان الفراغ من هذه النسخة المباركة ، على يد كاتبها ومؤلفها ، فقير رحمة ربه محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، عامه الله باطلفه الخفي ؛ وذلك يوم الأحد ثاني عشر شهر الله المحرم الحرام ، افتتاح عام سنة إحدى وتسعمائة من الهجرة النبوية العربية .

٢١ وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلّم ، ورضى الله عن كل الصحابة أجمعين ، والتابعين لهم ، بإحسان إلى يوم الدين ، وسلّم ، انتهى ذلك .

[مقدمة المؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حسبي ونعم الوكيل

٣

وقد قلتُ في معناه :

أقول لمن طالعه : دع عن ملاله وأفرغ له قلبا ، وأوسع له صدرا

٦

فتأليفنا كالضيف ، والضيف حقه بأن يُتَلَقَّى بالقبول ، وأن يُقْرَأ

وقد قلت :

في التواريخ قد وضعت كتابا نخبرا عن ملوكنا والحوادث

٩

ثم رقت في حواشيه معنى ولهذا أضحت رقيق الحواشي

ذكر

سلطنة الملك الأشرف علاء الدين كجك

١٢

ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

وهو الرابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بمصر ؛ وهو الثاني من أولاد الملك

الناصر محمد بن قلاون ، ممن ولي السلطنة من بعده بالديار المصرية .

١٥

بويح بالسلطنة بعد قتل أخيه الملك المنصور أبي بكر ، تولى المُلْك وله من العمر

نحو سبع سنين ، فتصرف في الأحكام صغيرا ، وأوتى ، على صغر سنّه ، مُلْكًا كبيرًا .

(٢) بسم الله الرحمن الرحيم : بداية صفحة (١ ب) من مخطوط فاتح ٤٢٠٠ ، الذي تنتقل عنه المتن هنا فيما يلي ، وهو بخط المؤلف ابن لإياس ، ورمز إليه في الحواشي بمخطوط « الأصل » ؛ وهذا المخطوط عبارة عن « الجزء الخامس » من كتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، وذلك في تقسيم ابن لإياس لكتابه هذا .

(٦) يقرأ : يقرى .

(٧-٩) وقد قلت . . . رقيق الحواشي : كتبها المؤلف في الأصل على هامش من (٢ آ) .

(٩) معنى : معنا .

وكان سبب تسميته بكجك ، فهو لفظ أعجمي ، معناه بالعربي « صُغِير » ؛ فكان والده لحظ فيه ، حال التسمية ، أنه سيلي بعده الملك وهو مُصَغَّرٌ ، فسماه كجك ؛ والملك لهم فراسة في الأمور قبل وقوعها .

٣

وكان جالوسه على سرير الملك ، يوم الاثنين حادى عشرين من سنة اثنتين وأربعين وسبعائة ؛ فلبس شعار الملك ، وركب من باب الستارة ، والأمراء بالشاش والقمش ، وهم مشاة بين يديه ، حتى دخل إلى القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، ودُقت له في ذلك اليوم البشائر بالقاعة ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء .

٦

فلما تم أمره في السلطنة ، عمل الموكب ، وأخلع على المقر السيقي قوصون ، وقرره نائب السلطنة بمصر ، وأتابك الساكر ، فتضاعفت حرمة ، وتزايدت عظمته ، فكان كما يقال في المعنى :

٩

إذا تم أمر بدا تقصه توق زوالا إذا قيل تم

١٢

ثم إن قوصون (٢٢ آ) سكن بدار النيابة ، التي بالقاعة ، وتصرف في أمور المملكة بما يختار ، فبدا له أن يقبض على الأمير طغر دمر ، نائب السلطنة ، وهو صاحب القنطرة التي عند درب الشمس ، فلما قبض عليه ، نذاه إلى ثغر دمياط ؛ ثم قبض على جماعة من الأمراء من بعد ذلك ، ونفاهم إلى ثغر الإسكندرية .

١٥

وأخلع على جماعة من الأمراء غير هؤلاء ، ممن كانوا من عصيته ، وقرره في وظائف سنية ؛ وفرق الإقطاعات على من كان من حلفه من الجند ؛ وعزل من عزل ، وولى من ولى ، وظن أن الدهر قد صفا له ، « وعند صفو الليالي يحدث الكدر » .

١٨

فكان إذا حضرت العلامة ، يأخذ الأمير قوصون القلم بيده مع يد الأشراف كجك ، ويريه كيف يكتب على الراسيم ، والمناشير ، والربعات ؛ وكان الأشراف كجك مع قوصون ، كالمصفور في يدي النسور ، فاضطربت أحوال الديار المصرية في تلك الأيام ، وتعطلت أحوال البلاد الشامية ، وضاعت مصالح الرعية .

٢١

وجاءت الأخبار بعصيان النوّاب ، ووَقَعَ الخلف بين الأمراء بالديار المصرية ،
وصار الأمر في تزايد ، حتى قال في ذلك بعض الشعراء :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر في خُافَ وينهم الشيطان قد نَزَغَا ٣
فكيف يطمع من مسّته مظلمة أنْ يبلغ السؤل والسلطان ما بلنا ✕
ثم إنَّ الأتابكي قوصون صار يمسك في كل يوم جماعة من المالك الساطانية ؛ ثم
إنَّه أرسل بالقبض على ألعنينا المارديني ، نائب الشام ، وهو صاحب الجامع الذي في ٦
البرادعيين ؛ وأرسل بالقبض على طشتمر حمص أخضر ، نائب حلب .
فلما بلغ النوّاب ، أن قوصون قد أرسل بالقبض عليهم ، توجه طشتمر ، نائب
حلب ، إلى الكرك ، وأخذ الأمير أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، الذي كان ٩
بقاعة الكرك .

وقد تقدّم القول أن الملك الناصر ، لما ولد له ابنه الأمير أحمد هذا ، (٢ ب)
أرسله إلى الكرك ، فأقام بقلعتها ، وذلك في سنة تسع وعشرين وسبعائة ؛ فلما أرسل ١٢
قوصون بالقبض على طشتمر ، نائب حلب ، أخرج الأمير أحمد من قلعة الكرك ؛
فتسامعت به النوّاب ، فحضر إليه قطلو بُنا الفخري ، نائب طراباس ، وحضر نائب
حماة ، ونائب صفد . ١٥

ثم إنَّ جماعة من عربان جبل نابلس التفّوا عليهم ، فقوى عزيمتهم على قتال نائب ١٦
الشام ، لأنّه كان من عصبة قوصون ؛ فلما تحقّق نائب الشام ذلك ، أرسل يطلب
الأمان من النوّاب ، الذين خامروا على قوصون ، وأنّه يكون معهم ، حيث توجهوا ، ١٨
فأرسل إليه بالأمان طشتمر ، نائب حلب ، وبقية النوّاب ، فلما أرسلوا إليه بالأمان ،
حضر إلى عندهم ؛ فلما تكاملت النوّاب ، قصدوا التوجه إلى الديار المصرية .

فلما بلغ ذلك إلى الأتابكي قوصون ، أراد أن يقبض على الأمير أيدغمش ، أمير آخور ٢١
كبير ؛ فلما بلغ الأمير أيدغمش ذلك ، ركب هو والأمير آقسنقر ، الذي أنشأ الجامع

(١٢) أرسله : أرسل .

(١٨) الذين : الذي .

بالتبانة ؛ وركب الأمير بلبغا اليحياوى ، وجماعة من الأمراء ، وطلعوا إلى الرملة ، واحتاطوا بالقاعة .

٣ ثم إن الأمير أيدغمش نادى للعوام ، بأن ينهبوا بيت الأتابكى قوصون ، الذى فى حذرة البقر ، فنهبوه فى ذلك اليوم ، وأخذوا كل ما فيه من قماش ، وخيول ، وبغال ، وسلاح ، حتى أخذوا رخام القصر الذى به ، وأبوابه ، حتى أخذوا ما فى حواصله من البرك ، والخيام ؛ وأخذوا ما كان بالحواصل من الصينى ، والنحاس ، وغير ذلك ، حتى أخذوا ما كان بها من السكر ، والمخللات ، والأشياء الفاخرة الملوكية .

٦ واستمرّ النهب عمال فى بيت الأتابكى قوصون ، ذلك اليوم ، وأحرقوا بابه ، وقوصون فى القصر الكبير ، ينظر إليهم من شبك القصر ؛ فقال قوصون إن حوله من الأمراء : « يامسلمين ، ما تحفظوا هذا المال ، الذى ينهبوه العوام ، أما يكون لكم ، أو للسلطان » ؛ فقال له بعض الأمراء : « إن الذى معك من الأموال ، والتحف ، يكفى السلطان ، وهذا شكرانه تكون من عندك للعوام » .

١٢ ثم إن الأمير أيدغمش نادى للعسكر ، أن كل (٣ آ) من لا يكون عنده فرس ، يطلع إلى الاصطبل السلطانى ، ويأخذ له فرس ؛ فطلع العسكر قاطبة إلى الاصطبل السلطانى ، ففرق فى ذلك اليوم على جماعة من أعيان الخاصكية ، نحو ثمانية فرس ؛ فلما تحقق قوصون أن الركبة عليه ، فقد بالقاعة ، وحصنها .

١٨ ثم إن العسكر وقف بالرملة ، وصار كل من لاح لهم من ممالك قوصون ، أو من حاشيته ، يقبضوا عليه ، ويقتلوه أشر قتلة ؛ وكذلك من يمر بهم فى الأزقة والطرقات .

(٤) حذرة : حذرة .

(٨) عمال : كذا فى الأصل .

(١٠) ينهبوه : كذا فى الأصل .

(١٣ و ١٤) فرس : كذا فى الأصل .

(١٨) يقبضوا . . . ويقتلوه : كذا فى الأصل .

واستمرّ الحال على ذلك ، من باكر النهار إلى بعد العصر ، فأرسل الأتابكي قوصون يطالب من الأمراء الأمان على نفسه من القتل ، فطلع إليه الأمير أيدغمش ، وقبض عليه ، وقيّده ، وسجنه بالزردخانة .

٣

فلما أشيع بالقبض عليه ، تسامعت العوام بذلك ، فتوجّهوا إلى خانقته ، التي هي خارج باب القرافة ، ونهبوا كل ما بها من البسط ، والقناديل ، وغير ذلك ؛ ثم توجهوا إلى جامع ، الذي بالقرب من زقاق حاب ، ونهبوا ما فيه أيضاً .

٦

ثم في تلك الليلة ، نزلوا بالأتابكي قوصون من القاعة ، وهو مقيد ، وتوجهوا به إلى ثغر الإسكندرية ، فسُجن بها ؛ وكان قد ثقل أمره على أهل مصر ، وجار عليهم بالظلم ، ففرح كل أحد من الناس بزواله .

٩

ومن النكت الخفيفة ، أن أهل مصر صوّروا هيئة الأتابكي قوصون ، في العالليق ، وهو مسمر على جمل ، وعلقوه على دكان في باب زويلة ؛ وفي هذه الواقعة يقول المعمار :

١٢

شخص قوصون رأينا في العالليق مُسَمَّر
فهبنا منه لما جاء في التسمير سَكَّر

١٥

فلما نفي قوصون إلى ثغر الإسكندرية ، خَافَ الأشرف كجك من السلطنة ، ودخل إلى دُور الحرم ؛ وصار العسكر في كل يوم ، ينتظرون قدوم الأمير أحمد من الكرك ، فخطب باسمه على منابر مصر ، قبل حضوره إلى مصر ، ولقّبوه بالملك الناصر ، على لقب والده محمد بن قلاون .

١٨

فكانت مدّة سلطنة الأشرف كجك بالديار المصرية ، إلى أن خُلع من السلطنة ، خمسة أشهر (٣ ب) وأيام ؛ وأقام في دور الحرم في الاعتقال إلى أن مات في دولة أخيه الملك الكامل شعبان ، كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه .

٢١

انتهى ما أوردناه من الأخبار ، من دولة الملك الأشرف كجك ، وذلك على سبيل الاختصار ؛ ولم يتسلطن من أولاد الناصر محمد بن قلاون ، أصغر من كجك هذا .

ذكر سلطنة الملك الناصر أحمد

ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون

٣

وهو الخامس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ وهو الثالث ممن
ولى السلطنة بمصر ، من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ؛ أتى من الكرك ، ودخل
الديار المصرية ، يوم الاثنين عاشر شوال سنة اثنيتين وأربعين وسبعمائة .

٦

فلما طلع إلى القامة ، حضر الخاينة الحاكم بأمر الله ، وحضر القضاة الأربعة ،
وبايعوه بالسلطنة في ذلك اليوم ؛ وجلس على سرير الملك ، وكان أكبر إخوته سنّاً ؛
فباس له سائر الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر بالقامة ، وفودى باسمه في القاهرة ،
وضجّ له الناس بالدعاء ، وظنّوا أنه لا يث الغالب ، والشهاب الثاقب ، نغبت فيه
الظنون ، وقيل : معام مجنون .

١٢

فلما تمّ في السلطنة أمره ، وكتب عهده ، قبض على سبعة من الأمراء ، وأرسلهم
إلى السجن بشفر الإسكندرية ؛ ثم بعد أيام أمر بقتلهم أجمعين ، فهذا كان أول أفعاله
الشيعة .

١٥

ثم أخلع على الأمير طشتمر حمص أخضر ، وقرّره في نيابة السلطنة بمصر ، عوضاً
[عن] قوصون ؛ وأخلع على الأمير قطاوبغا الفخري ، وقرّره نائب الشام ، عوضاً
عن الأمير الطنبغا المارديني ؛ وأخلع على الأمير أيدغمش ، أمير آخور كبير ، وقرّره
في نيابة حلب ، عوضاً عن طشتمر حمص أخضر ؛ وعزل من عزل ، وولّى من ولّى ،
واستمرّ على ذلك ثلاثة وثلاثين يوماً .

١٨

ثم بدا له أن يقبض على (٤ آ) الأمير طشتمر حمص أخضر ، الذي قرّره نائب
السلطنة بمصر ، فقبض عليه ، وقيّده ، وسجنه بالبرج في القامة .

٢١

ولما خرج الأمير قطاوبغا الفخري ، إلى محل ولايته بالشام ، أرسل قبض عليه في
أثناء الطريق ، وقيّده .

وهذا الذى فعله ، لم يقع فيه من [فى] عقله خلل ، وهذان الأميران كانا سببا
لسلطنته ، كما تقدّم القول على ذلك ، فلما أن وقع منه هذه الأفعال الشنيعة ، والأمور
الوضيعة ، ففرت عنه قلوب الرعيّة ، وأضمرّوا له كل الأذية .

٣

واستمرّ على ذلك إلى سلخ سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فأظهر أنه يريد السفر
إلى نحو البلاد الشامية ، فخرج من القاهرة ، وصحبته جماعة من الأمراء ، والعسكر ،
ولا يعلم أحد إلى أين يتوجّه ؛ وأخذ من خزائن بيت المال الأموال الجزيلة ، والتحف
الفاخرة ، فعيّد عيد النحر فى خانقة سرياقوس ؛ وأخذ صحبته الأمير طشتمر حمص
أخضر ، وهو مقيّد فى شقدف .

٩

فلما رحل من خانقة سرياقوس ، عرج إلى نحو الكرك ، التى هى محطّ رحاله ،
وبغية آماله ؛ واسترجع الأمير قطلوّبنا الفخرى ، الذى كان ولاءه نيابة الشام ، فأخذه
صحبته إلى الكرك ؛ فلما وصل إلى قاعة الكرك ، اعتقل بها الأمير طشتمر حمص
أخضر ، والأمير قطلوّبنا الفخرى .

١٢

ثم أذن لجماعة من الأمراء ، والعسكر ، بالرجوع إلى مصر ؛ واختار الإقامة
بالكرك ، وكان عوّل على ذلك وهو بمصر ، ولم يعلم أحد من الناس ما فى ضميره .

١٥

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة

ففيها فى خامس المحرم ، رجع جماعة من الأمراء ، والعسكر ، ممن كان صحبة
السلطان ، وأخبروا أن السلطان اختار الإقامة بالكرك ، كما كان أولا ؛ فلما بلغ
الأمراء ذلك ، ركبوا ، واجتمعوا بسوق الخيل ، وضربوا مشورة فى أمر من بلى
السلطنة .

١٨

ثم إن الأمراء اقتضى رأيهم ، بأن يكتبوا السلطان (٤ ب) فى أمر عوده إلى
المملك ؛ فإن الأحوال قد فسدت ؛ واضطربت أحوال الديار المصرية ، لغيبة السلطان ،
وضاعت حقوق المسلمين .

٢١

(١) [فى] : تنقّس فى الأصل .

(٩) التى : الذى .

(٢٠) اقتضى : اقتضا .

ثم إنهم أرسلوا هذه المكاتبة على يد خاسكي، يقال له طقتمر الصلاحى؛ فلما وصل إلى السلطان بالكرك، وقرأ ما فى المطالعة، كتب للأمرء الجواب عن ذلك، وهو يقول: « إن الشتاء قد دخل، وإنى قد اخترت الإقامة بالكرك، إلى أن يمضى الشتاء، وبعد ذلك إن أراد الله تعالى، عدت إلى مصر »؛ فلما عاد طقتمر الصلاحى بهذا الجواب، شق ذلك على الأمرء.

ثم [إن] طقتمر، لما حضر، أخبر بأن السلطان لما أقام بالكرك، وسط الأمير طشتمر حمص أخضر، والأمير قطلوبغا الفخرى، بين يديه فى ميدان قاعة الكرك، بحضرة طقتمر الصلاحى؛ وهذا الأمر لا يقع إلا من المجانين، الذين ليس فى رؤوسهم عقول.

فلما سمع الأمرء ذلك، انقلبوا عليه قاطبة، وتميَّرت خواطيرهم عليه بسبب ذلك، واتفقوا على خاومه من السلطنة، فكان كما قيل فى المعنى:

ما تفعل الأعداء فى جاهل ما يفعل الجاهل فى نفسه

ولما أشيع قتل الأمير طشتمر حمص أخضر، فرح به كل أحد من الناس، فإنه كان ظلوماً عسوفاً، سىء الخلق، صلباً فى الأمور، جاثراً على أهل مصر فى أفعاله، حتى قال فيه إبراهيم العمار:

أوردت نفسك ذُلًّا ورد النفوس المهانة

وبالرشا حزت مآلاً ملأت منه الخزانة

وكم عليك قلوب ياحمص أخضر ملانة

وقوله فيه أيضاً:

جننت بالملك لما أتاك بالبسط ما جن

وقد أمنت الليالى ياحمص أخضر وداجن

(٦) [إن]: تنفس فى الأصل.

(٨) الذين: الذى.

وفيه يقول بعض الشعراء :

لما رجعت إلينا من بعد ذا البعد والبين

(٥٥) خلناك تحموا علينا يا حمص أخضر بقابين ٣

وقال آخر من الشعراء :

طوى الردى طشتمرا بعد ما بالغ في دفع الأذى واحترس

عهدى به كان شديد القوى أشجع من يركب ظهر الفرس ٦

ألم تقولوا حمصا أخضرا تعجبوا بالله كيف اندرس

ثم إن الأمراء طلوعوا إلى القلعة ، واجتمعوا في الإيوان الكبير ، وضربوا مشورة

فيعين يولوه السلطنة ؛ فوقع الاتفاق منهم على سلطنة سيدى إسماعيل ابن الملك الناصر ٩

محمد بن قلاون .

فخسر الخليفة ، والقضاة الأربعة ، وخلعوا الملك الناصر أحمد من السلطنة ، بموجب

إقامته في الكرك ؛ فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ، ثميرين واثني عشر يوما ؛ ١٢

فلم تكن إلا كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ؛ واستمر مقما في الكرك إلى

أن قُتل ، كما سيأتى الكلام على ذلك في موضعه .

انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الناصر أحمد بن محمد بن قلاون ، وذلك على ١٥

سبيل الاختصار .

ذكر

١٨ سلطنة الملك الصالح أبو الفدا عماد الدين إسماعيل

ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

وهو السادس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ وهو الرابع ممن

٢١ ولى السلطنة من أولاد الناصر محمد بن قلاون .

(٣) تخنو : تخنوا .

(٥) الردى : الردا .

(٩) يولوه : كذا في الأصل .

ببيع بالسلطنة بعد خلع أخيه الناصر أحمد ، لما أن عاد إلى الكرك ، وذلك يوم الخميس ثاني عشر شهر الله المحرم الحرام سنة ثلاث وأربعين وسبعمئة .

٣ فلبس شعار المملك من باب الستارة ، وركب فرس النوبة ، ومشت الأمراء بين يديه ، بالشاش والقماش ، حتى دخل إلى القصر الكبير ، وجلس على سرير المملك ، وباس له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر بالقامة ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء (٥ ب) .

٩ فلما تم أمره في السلطنة ، عمل الموكب ، وأخلع على من يذكر من الأمراء : فقرر الأمير آقسنقر السلاوي ، في نيابة السلطنة ، عوضاً عن الأمير طشتمر حمص أخضر ، بحكم قتله بالكرك ؛ وأخلع على الأمير أيدغمش واستقر به نائب الشام . ثم أمر بالقبض على الأمير الطنبغا المارديني ، وهو صاحب الجامع ، الذي في البرادعيين ، فلما قبض عليه قيده ، وأرسله إلى السجن بشفر الإسكندرية .

١٢ وعزل من عزل ، وولى من ولى ، وأظهر العدل في الرعية ، ونظر إلى القوى والضعيف بالسوية ، وبسط فيهم العدل ، وأثنى كل أحد من الناس عليه بالفضل ؛ واستمر على ذلك ، وسلك طريقة أبيه على أحسن المسالك ، فأحبته الرعية ، وسار فيهم سيرة مرضية . ١٥

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وسبعمئة

١٨ فيها في المحرم ، تغير خاطر السلطان على الأمير آقسنقر ، فقبض عليه ، وقيده ، وأرسله إلى السجن بشفر الإسكندرية ، لأمر أوجب ذلك .

ثم أخلع على الأمير الحاج آل ملك ، وهو صاحب الجامع ، الذي بالحسينية ، واستقر به نائب السلطنة ، عوضاً عن آقسنقر السلاوي ؛ فلما ولى آل ملك نيابة السلطنة ، أظهر العدل في الرعية ، وكانت له بمصر حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وعظمة زائدة ، حتى قال فيه بعض الشعراء :

آل ملك الحاج غدا سعه يملأ ظهر الأرض مما سلك

فالأمر من دونه سوقة والملك الصالح هو آل ملك

فلما وَلِيَ نيابة السلطنة ، أمر بهدم خزانة البنود ، التي كانت سجننا يحبس فيها أصحاب الجرائم، قبل خزانة شمائل، فلما ظهر أمر خزانة شمائل، بطل أمر خزانة البنود. وقيل : كانت خزانة البنود بالقرب من رحبة الأيدمرى ، وكانت مكان المدرسة السابقة ؛ فلما بطل أمرها من السجن ، صارت حانة ، (٦ آ) يجتمع بها أنواع الفسوق ، من المناحيس ، والمقامين ، وكان يحصل منهم غاية الفساد .

٦ فلما وَلِيَ الحاج آل ملك نيابة السلطنة ، أمر بهدمها ، فهدمت ؛ ثم أنشأ مكانها مسجداً للعبادة ، فلما كمل بناؤه ، لم يصل به أحد من الناس ، لما تقدّم في أرضه من سفك الدماء ، وكثرة الرمم التي دفنت بأرضه ، فامتنعت الناس من الصلاة فيه ، فصار باب هذا المسجد لا يزال مقفولاً دائماً لا يعلى فيه أحد من الناس .
٩ فكتب بعض الشعراء هذه الأبيات ، عن لسان هذا المسجد ، وأرسلها إلى نائب السلطنة الأمير آل ملك ، وهو يقول :

١٢ أنا مسجد متمت بيت عبادة عارى الملابس ليس في حصير
هجر المؤذن والمصلّي جانبي وجفائي التهليل والتكبير
الشمع في خلل المساجد مشعل وفناء ربعى مظلم مهجور
١٥ ما جاء في القرآن في عبارة واليوم للشيطان في عبور
هل من يبلغ للأمير رسالتي فأنا الذي بين المساجد بور

وفي أثناء هذه السنة ، أعني سنة أربع وأربعين وسبعائة ، فيها كانت وفاة الإمام العالم العلامة ، الشيخ شمس الدين محمد الذهبي ، المؤرخ ، صاحب التاريخ المسمى بدول الإسلام ؛ وكان من ثقات المؤرخين، صحيح النقل عن الأخبار والواردة عنه في تاريخه، رحمة الله عليه .

٢١ وفيها توفي الشيخ شمس الدين محمد بن قدامة الحنبلي ، وكان من أعيان علماء الحنابلة ، انتهى ذلك .

(٧) بناؤه : بناه . // لم يصل : لم يصلي .

(٨) وكثرة : وكثرت .

(٢١) شمس : الشمس .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وسبعائة

- فيها في ثانی عشر صفر ، كانت وفاة الإمام العالم العلامة ، الشيخ أثير الدين محمد
 ٣ ابن يوسف بن علي بن يوسف بن أبي حيان الأندلسي الفرناطي ، مولده سنة أربع
 وخمسين وستائة ، وذلك في شوال ؛ وكان مالكيًا في مذهبه ، فلما دخل مصر ، تقلد
 بمذهب الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، فسئل عن ذلك ، فقال : « بحسب البلدة » .
 ٦ وأخذ العلم بمصر عن أبي الحسن الآبدى ، والشيخ شمس الدين بن الصايغ الحنفي ،
 وابن النجاس ، وغير ذلك من أعيان العلماء بمصر ، (٦ ب) وكان بارعا في العلم ،
 والنحو ، والشعر ، واشتهر ذكره بمصر ، في حياة شيوخه ، وألف الكتب بالعلوم
 ٩ الجميلة ، وفاق على علماء مصر في عصره ؛ وكان ناظما ناثرا ، لطيف الذات ، وله شعر
 جيد ، فمن ذلك قوله :

- سال في الخلة للحييب عذار وهو لا شك سائل محروم
 ١٢ وسألتُ التثامه فتجتنى فأنا اليوم سائل محروم
 ولما توفي الشيخ أثير الدين أبو حيان ، رثاه الصالح الصفدي بهذه القصيدة ،
 وأجاد :

- ١٥ مات أثير الدين شيخ الوري فاستعر البارق واستعبرا
 ورق من حزن نسيم الصبا واعتل في الأسحار لَمَّا سرى
 وصادحات الأيك في نوحها ترثيه في السجع على منبرا
 ١٨ ياعين جودي بالدموع التي تروى بها ما ضمه من ثرى
 مات إمام كان في علمه يري إماما والوري من ورا
 أمسى ينادى لابلا مفردا فضمه القبر على ما ترى
 ٢١ وكان جمع الفضل في عصره صح فلما أن قضى كُسرا
 وعُرف الفضل به برهة والآن لما أن مضى نُكُرا
 وكان ممنوعا من الصرف لا يطارق من وافته خطب عرا
 ٢٤ لا بذل عن نعيمه بالتقى ففعله كان له مصدرا

- لا أفعل التفضيل ما بينه وبين من أعرافه في الورا
بكى له زيد وعمرو فمن أمثلة النحو ومن قرأ
ما عقد التسهيل من بعده فكم له من عسرة يترأ
وجسر الناس على خوضه إذ كان في النحو قد استبحرا
شاركه من ساد في فنه وكم له فن به استأثرا
فالنحو قد سار الردي نحوه والصرف للتصريف قد عيرا
تفسيره البحر المحيط الذي يهدي إلى وارده الجوهرا
فوائد من فضله جمّة عاينه فيها يعقد الخنصرأ
وكان يثبت نقله حجة مثل ضياء الصبح إن أسفرا
(٧٢) له الأسانيد التي قد غلت فاستغلت عنها سوامي الدرا
أفديه من ماضٍ لأمر الردي مستقبلا من ربه بالقري
ما مات في أبيض أكفانه إلّا وأضحى سندسا أخضرا
إن مات فالذكر له خالد يحيى به من قبل أن ينشرا
قد زاده من ربه رحمة توردته في حشره الكوثرأ
انتهى ذلك .

- وفي هذه السنة ، كانت وفاة القاضي ناظر الجيش ، وناظر الخاص ، وهو إبراهيم
ابن عبد الله الثمير بجبال الكفأة ، وكان من الأقباط ، وكان رئيسا حثما ، جمع بين
نظارة الجيش ، ونظارة الخاص ، وهو أول من جمع بين هاتين الوظيفتين من المباشرين .
وفي هذه السنة ، أرسل السلطان الملك الصالح تجريدة إلى أخيه الناصر أحمد ،
وهو بالكرك ؛ فلما وصل إليه الأمراء ، والعسكر ، إلى الكرك ، حاصروه بالقاعة
أشدّ المحاصرة ، فلم يقدروا عليه ، وقد تحصّن بقاءة الكرك ، فصار الملك الصالح يرسل
إليه تجريدة ، بعد تجريدة ، وهم لا يقدرون عليه ، فلم يبق بمصر أمير من الأمراء ،
إلا وقد خرج إليه ، وحاصره ، وهو لا يقدر عليه .

(١٦) وناظر : ناظر .

(٢٢) فلم يبق : فلم يبق . || أمير : أميرا .

ثم إن الناصر أحمد استمرّ في المحاصرة ، حتى نفذ جميع ما كان عنده من المال ،
والغلال ؛ فعار يسبك ما عنده من السروج الذهب ، والكنائش الزركش ، ويخاط
٣ عليه شيئاً من النحاس ، ويضربها مثل الدنانير ، وينفقها على عسكره ، فكان الدينار
من ذلك ، يساوي خمسة دراهم من الفضة .

فتنّاب عليه عسكره ، الذي كان عنده بقاعة الكرك ، وصاروا يتسحبون
٦ من عنده شيئاً ، فشيئاً ، وقد كدّهم الجوع ، والعطش ، والتعب من القتال ، وقد
أقاموا معه في المحاصرة بقاعة الكرك ، نحو ثلاث سنين ، حتى ضجروا من المحاصرة ،
ليلاً ونهاراً .

٩ فلما كان يوم الاثنين ثاني عشرين ذى الحجة من سنة خمس وأربعين وسبعائة ،
أرسل الملك الناصر أحمد يطلب الأمان لنفسه ، من الأمراء الذين توجهوا إليه في
التجريدة ، فأرسلوا له بالأمان ، فنزل إليهم وفي رقبته منديل ؛ (٧ ب) فلما نزل
إليهم ، قيدوه ، وأرسلوا يعلموا أخاه الملك الصالح بمسكه ؛ فلما ورد ذلك الخبر إلى
١٢ القاهرة ، دقت البشار بالقامة ، وزينت القاهرة .

ثم إن السلطان عين الأمير منجك اليوسفي ، وزير الديار المصرية ، بأن يتوجه
١٥ إلى الكرك ، ويقطع رأس أخيه الناصر أحمد ؛ فتوجه من يومه إلى الكرك ، وقطع
رأس الناصر أحمد ، ووضعها في علبة ، وأحضرها إلى بين يدي الملك الصالح ؛ وآخر
الطبّ الكيّ ، فكان كما يقال في المعنى مضمّناً للمثل السائر :

١٨ حاصرته فنقبت صور لباسه نقبا له تحت اللباس نفوذ
فأجابني لما رأي ظافراً خذها فكل مُحاصراً مأخوذ

ومما نقله الصلاح الصفدي ، في تاريخه ، أن الملك الصالح إسماعيل ، لما وُضعت بين يديه
٢١ رأس أخيه الناصر أحمد ، سجد لله شكراً ، وصار يتأتماها طويلاً ، ثم أمر بدفنها ، فدفنت .

(٦) وقد : وقد وقد .

(١٠) الذين : الذي .

(١٢) يعلموا : كذا في الأصل .

وكان الناصر أحمد أشجع إخوته ، وأكبرهم سنًا ، وأحسنهم شكلاً ؛ ولكنه كان سيئ التدبير ، الغالب عليه الجهل في أفعاله ، وكان عنده قوة رأس زائدة ؛ ومن سيئاته ، أنه قتل الأمير طشتمر حمص أخضر ، والأمير قطاوبغا الفخري ، ظلاماً من غير ذنب ؛ وله غير ذلك مساوي كثيرة .

قال الصالح الصفدى : لما رأى الملك الصالح رأس أخيه أحمد بين يديه ، زعم منها ، واستمرّ مرجوفاً من ذلك إلى أن مات ، بعد ذلك بمدة يسيرة ؛ وكان قد عزم على أنه يحجّ تلك السنة ، فرض ، وسلسل في المرض إلى أن مات ، كما سيأتى ذكر ذلك في موضعه .

وفي هذه السنة ، توفى الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وهو صاحب المدرسة العروفة به ، وكان له سند في الحديث ، وشرح مسند الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، وكان شافعى المذهب ؛ وكانت وفاته في شهر رمضان من تلك السنة .
وفيها توفى الأمير آقبا عبد الواحد ، وهو صاحب المدرسة الآقباوية ، التى بجوار الجامع الأزهر ؛ ومات وهو فى السجن ، وكان أستاذار العالية (٨٨) بالديار المصرية .

وفيها أكمل الملك الصالح عمارة الدهيشة ، التى بالقاعة ، المطلّة على الحوش السلطانى ، وكان والده محمد بن قلاون ابتداءً فى عمارتها ، ومات ولم يتمّها ، فأكملها من بعده ابنه الملك الصالح ، وتناهى فى زخرفها ، وجلس بها مدة يسيرة ، ومات .

ثم دخلت سنة ست وأربعين وسبعمائة

١٨ فيها مرض الملك الصالح ، وثقل فى المرض ، واستمرّ ملازم الفراش إلى أن مات ؛ فكانت وفاته يوم الخميس حادى عشرين ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة ،

(١٧) وتناهى : وتناهأ .

(٢٠) الخميس حادى عشرين ربيع الأول : كذا فى الأصل . وهذا هو التاريخ المذكور أيضا فى طبعة بولاق ج ١ ص ١٨٢ . ويكرر ابن لياس هذا التاريخ ، بمناسبة تولى السلطان الكامل شعبان الساطنة ، هنا فما يلى ص ٩٠ . وفى طبعة بولاق ج ١ ص ١٨٣ .

- وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ، ثلاث سنين وشهر ونصف .
- وكان خيار أولاد الملك الفاصر محمد بن قلاوون ، رحمة الله عليه ؛ وله برٌّ ومعروف ، وإيثار ، فمن ذلك أنه أوقف ضيعة كاملة بالشرقية ، تسمى بيسوس وجعلها مُرسدة ٣ على كسوة الكعبة الشريفة ، وهي باقية إلى الآن برسم كسوة الكعبة ؛ وكان يحبّ العدل في الرعية ، وينصف المظلوم من الظالم ؛ وكان محبباً للناس في أيامه ، فلما مات ، تأسفت عليه الناس غاية الأسف ؛ وقد رثاه الصلاح الصفدى بهذين البيتين :
- مضى الصالح المرجو للبأس والندى ومن لم يزل يلقى المنا بالمنايح
فيا مُلك مصر كيف حالك بعده إذا نحن أثينا عليك بصالح
- ٩ قال الشيخ صلاح الدين الصفدى ، في تاريخه ، إن الملك الصالح إسماعيل كان يميل إلى حبّ الجوار الحبش ، والمولدات ، والسود ، وكان يحبّ مَنْ يمدح له في الشُّر ، والسود ، فكانت الشعراء يكثرّون له من مدحهم ، فمن ذلك قول الشيخ زين الدين بن الوردى : ١٢
- لو كان يرضى بحكمى فى الناس بيض وسود . . . وا
لقات للبيض بيضوا وقات للسود سُودُوا
- ١٥ وقال ابن نباتة :
- يكون الخال فى خدّ قبيح فيكسوه الملاحه والجمال
(٨ب) فكيف يلام مشغوف على مَنْ يراه كاله فى العين خالاً
- ١٨ وقال آخر فى حبشية :
- سمراء تسبى الورى بشرط كذنجر همّ بالرقيب
أقامه عشقهـا طريقا يسير فيه إلى القلوب
- ٢١ وقال آخر :
- سمراء كالغصن الرطيب قوامها تسبى الأنام بفاتر الأحداق
ترى بقسى حواجب من لحفلها نبلا تعيب مقاتل العشاق
- (١٥) ابن نباتة : ابن سيابة .

وقال آخر دو بيت :

في السر معان لا ترى في البيض تالله لقد نصحت في تقريضي
ما الشهد إذا طعمته كالأبن يكفي فطنا محاسن التعريض ٣
وقال الشيخ إبراهيم الجعيري :

لما أعان الله جلّ بطقه لم تسبني بجمالها البيضاء
ووقعت في شرك الردي متخبلا وتحكمت في مهجتي السوداء ٦
وقال آخر في أسماء الجوار :

إذا زار الحبيب باشتياق فقد زال العنا وقت الصباح
وإن افتك خمرًا مع نسيم فقد دام السرور بانسراح ٩
وقال آخر في المعنى :

بدأ السعد لي حين زار الحبيب وجاء الهناء ودام السرور
وجاءت نسيم بتفاحة مباركة من غزال نفور ١٢
انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر محمد
ابن قلاون ، وذلك على سبيل الاختصار ، تمت .

١٥ ذكر

سلطنة الملك الكامل زين الدين شعبان

ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

١٨ وهو السابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ وهو الخامس ممن
ولى السلطنة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون .

٢١ بويج بالسلطنة بعد موت أخيه الملك الصالح إسماعيل ، بعهد من أبيه له ؛ وكان شقيق
الملك الصالح ، من أبيه وأمه .

لبس (٩ آ) شعار الملوك ، وركب من باب الستارة ، ومشى بين يديه الأمراء ،
بالشاش والقماش ، حتى دخل إلى القصر الكبير ، وجلس على سرير الملوك ، وباس

له الأمراء الأرض ، ودّقت له البشائر بالقاعة ، ونودى باسمه في القاهرة ، وُضجَ له سائر الناس بالدعاء ؛ وكان جلوسه على سرير المُلْك يوم الخميس حادى عشرين ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة .

وفيه يقول جمال الدين بن نباتة :

طلعة سلطاننا تبدّت بكامل السعد فى الطلوع

واعجب لنا منه كيف أبدت هلال شعبان فى ربيع

فلما تمّ أمره فى السلطنة ، عمل الموكب ؛ فلما طلعت الأمراء ، وتكامل المجلس ، قبض السلطان على الأمير الحاج آل ملك ، نائب السلطنة ، وسجنه بالبرج الذى بالقاعة ؛ فأقام به أياما ، ثم أفرج عنه ، وولّاه نيابة صفد ، وأئزّمه بأن يخرج من يومه ، ويسافر ؛ فلما خرج ، ووصل إلى العريش ، أرسل قبض عايه ، وقيدته ، وأرسله إلى السجن بشفر الإسكندرية .

ثم عمل الموكب ، وأخلع على الأمير أرقطاي ، وقرّره فى نيابة السلطنة ، عوضا عن الأمير الحاج آل ملك .

ثم قبض على الأمير المعروف بقمارى ، أستاذار العالمية ، وقيدته ، وأرسله إلى السجن بشفر الإسكندرية ؛ ثم أرسل بالقبض على الأمير طقز دمر ، نائب الشام ، وسجنه بقاعة الكرك .

ثم أخلع على الأمير يابغا اليحياوى ، وقرّره فى نيابة الشام ، عوضا عن الأمير طقز دمر .

وفى هذه السنة ، كانت وفاة الملك الأشرف بكك ، أخو الملك الكامل شعبان ، وكان من حين خُليع من السلطنة ، وهو مقيم بدور الحرم ، إلى أن مات .

وفيهما فى شهر رمضان ، توفّى الرئيس ضياء الدين بن البيطار ، صاحب « كتاب المفردات » ، وكان علامة فى علم الطب ، توفّى بالشام ، ودفن بها .

(٢-٣) الخميس حادى عشرين ربيع الأول : انظر فى ذلك الحاشية ، هنا فيما سبق ص ٨٨ .

(١٣ و ١٤) آل ملك : آل الملك .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وسبعمائة

فيها وردت الأخبار من الشام ، بأن الأمير يابغا ، الذي استقرّ نائب الشام ،
 قد خامر على السلطان ، وخرج عن الطاعة ؛ (٩ ب) فلما وردت هذه الأخبار ، جمع
 السلطان الأمراء في القصر الكبير ، بسبب ضرب مشورة في أمر يابغا اليحياوى ،
 نائب الشام ؛ فلما اجتمعت الأمراء وقع الاتفاق على أن السلطان يرسل إليه الأمير
 منجك اليوسفى ، وزير الديار المصرية ، ليكشف الأخبار ، فتوجّه الأمير منجك
 إلى الشام من يومه .

ثم إن السلطان عرض في ذلك اليوم العسكر ، وأشيع أنه يخرج إلى الشام
 بنفسه ، لأجل عصيان نائب الشام ، واضطربت الأحوال بالديار المصرية .
 وفي هذه الأيام ، طاش الملك الكامل ، وصار يُخرج من ديوان الجيش الإقطاعات ،
 بقدر معلوم من المال ، ويُدخله إلى الذخيرة .

ولما أشيع أمر سفره إلى الشام ، قبض على جماعة من المباشرين ، وصادرهم ، وأخذ
 أموالهم ، وابتدأ في الجور على الرعية ، وتزايد منه الضرر الشامل .
 ثم إنه تخيل من أخيه سيدى حاجى ، وسيدى حسين ، فبدا له أن يقبض عليهما ،
 فأرسل إليهما الزينى سرور ، الساقى ، فقال لهما : « إن السلطان يطالبكما لتحضرا في
 الدهيشة » ، فقالا له : « نحن اليوم قد شربنا دوى ، ونحن ضعاف » .

فلما ردّ عليه سرور ، الساقى ، هذا الجواب ، اشتدّ غضبه عليهما ، فطلب الأمير
 الزمام ، صواب الطولونى ، وقال له : « امضى إلى إخوتى ، واحضرهما لى فى هذه
 الساعة » ؛ فلما دخل الزمام إليهما ، قال لهما : « قوما كآما السلطان » ، فقالا له
 كما قالوا لسرور ، الساقى .

فلما ردّ الزمام عليه هذا الخبر ، تزايد غضبه على أخويه ، فأرسل خاف الأمير
 أسندمر الكاملى ، والأمير قطلوبغا السكركى ، فلما حضرا ، قال لهما : « إني قد
 طلبت أخى حاجى ، وأخى حسين ، فامتنعا من الحضور إلى عندى » .

فقال الأمير أسندير الكاملي ، للأمير أرغون العلاي ، زوج أم السلطان :
« ادخل أنت إليهما ، وأخرجهما من دور الحرم » ؛ فدخل الأمير أرغون إلى دور
الحرم ، وأخرج سيدي حاجي ، وسيدي حسين ، سحبا على وجوههما ، وهما في غاية
البهيلة ، يتباكيا .

فلما وقفا بين يدي السلطان ، (١٠ آ) باسا له الأرض ، وقال له : « يا مولانا
السلطان ، لا تؤاخذنا ، فإننا كنا قد شربنا دوى » ؛ فقال لهما السلطان : « هذا كله
كذب ، وحيل منكما » ؛ فأخرج سيدي حاجي ختمة لطيفة ، كانت في كفه ،
وحلف عليهما أنه ما امتنع عن الحضور ، إلا كان قد شرب دوى ، فلم يصدق السلطان
على ذلك .

ثم جاءت أمهاتهما ، وكشفن رؤوسهن ، وحلفن له أنهما ما امتنعا عن الحضور ،
إلا كانا قد شربا دوى ؛ فلم يقبل السلطان منهن عذرا عن ذلك ، وقال لهن : « أنتم
نساء ، قليلين العقول » .

ثم أمر بإدخال أخويه إلى موضع في الدهيشة ، ووكل بهما جماعة من الخدام ؛
فلما بات تلك الليلة ، وأصبح ، قصد أن يدخلهما في مكان ، عقدت تحت الدهيشة ،
وبينى عليهما حائط ؛ ثم شرع في رمي حجارة مسقطات ، فأرمى عشرين مسقطا ،
وحامين جبس وجير ، وقصد يصد عليهما باب ذلك العقد ، ويجعله لهما قبرا .

فلما كان يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى ، دخل على السلطان ، وقت صلاة الصبح ،
بعض الخاصكية ، وأخبره أن الأمير ملكشهر الحجازي ، قد لبس آلة الحرب ، هو
ومماليكه ، وتوجه إلى نحو قبة الهواء ، التي تحت القامة ؛ وكان الملك الكامل قد عول
على القبض عليه ، فلما تحقق ذلك ، ركب .

(٦ و ٨ و ١١) دوى : يعى دواء .

(٦) فقال لهما : فلما .

(١٢) قليلين العقول : كذا في الأصل .

(١٥) مسقطات : مصدقات .

- ثم إنَّ السلطان لما سمع هذا القول ، أرسل خانف الأمير أرغون العلاءى ، زوج أمه ، وقال له : « ما الخبر » ؟ وكان الأمير أرغون ساكنا فى القلعة ، فقال له أرغون : « بانغنى أن الأمير ملكتمر الحجازى ، والأمير أرغون شاه ، وجماعة من الأمراء العشرات ، قد توجَّهوا إلى قبة الهواء ، وهم لابسون آلة الحرب » .
- فعند ذلك فتح السلطان باب الزردخانة ، وأخرج منها اللبوس ، والسلاح ، وفرَّقها على المالك ، وأمر بشدَّ الخيول .
- ثم ركب ، ونزل من باب السلسلة ، ولم يكن معه غير ممالك صفار ، جمدارية ، ومن الأمراء : الأمير أرغون العلاءى ، زوج أمه ، والأمير قطلوبغا الكركى ، والأمير أسندمر الكاملى ، ومقدَّم المالك جوهر السجرتى ، حامل الصنَّجق السلطانى .
- فلما نزل السلطان من القلعة ، مشى إلى تحت الطليخانة ، ووقف هناك ساعة ، ينتظر من يطلع له من الأمراء ، (١٠ ب) والعسكر ، فلم يطلع إليه أحد من العسكر ، ولا من الأمراء ؛ فلما طلعت الشمس ، وتضحَّى النهار ، لم يطلع إليه أحد .
- فلما طال الأمر عليه ، دقَّ الطبل حربى ، ومشى إلى رأس الصوَّة ، فلاقاه الأمير أرغون شاه ، والأمير قرايُغا القاسمى ، والأمير آقسنقر ، واحتاطوا عليه ، وضربوا به يرك ؛ ووقع بين الفريقين القتال فى رأس الصوَّة ، فبرز إلى السلطان الأمير بييغا أروس ، فلاقاه الأمير أرغون العلاءى ، زوج أم السلطان ، فضربه بييغا أروس بطبر على وجهه ، فسقط عن فرسه ، فقبضوا عليه ، وأسروه .
- فلما رأى من كان حول السلطان ، أن الأمير أرغون العلاءى قد أُسِر ، تسحَّب أكثر من كان حول السلطان من المالك ، ولم يبق معه غير المالك الجمدارية ؛ فلما رأى السلطان عين الغاب ، هرب فى أربعة من المالك الصفار ، فتوجَّه إلى باب السلسلة .
- فلما ولَّى السلطان مهزوما ، قبضوا على من كان معه من الأوجاقية ، والخُدَّام ،

(٤) لابسون : كذا فى الأصل .

(٩) السجرتى : كذا فى الأصل .

(١٥) يرك : كذا فى الأصل ، ولعله يعنى أنهم التفتوا حوله .

الذين كانوا تحت الصنجق الساطاني ؛ وقبضوا على مقدم المالك جوهر السجرتي ، فإنه كان واقفاً تحت الصنجق ، فقطعوا رأسه .

٣ وأما السلطان ، لما أن ولى وهو مهزوم ، ساق حتى أتى باب السلسلة ، فوجده قد قُتل ، فصار يدق الباب ، ويسأل الأوجاقية الذين وراء الباب أن يفتحوا له ، حتى يطالع إلى القاعة ، فما فتحوا له إلا بعد جهد كبير .

٦ فلما فتحوا له ، طلع إلى القاعة وهو سائق ، حتى دخل إلى الحوش ؛ فأراد في تلك الساعة أن يقتل أخويه : سيدي حاجي ، وحسين ، فلم يمكنوه الخُدام من ذلك ، وأغلقوا في وجهه باب الدهيشة ؛ فرجع السلطان وصار لا يدرى إلى أين يتوجه ، فمضى إلى بيت أمه الذي بالقاعة ، فدخل إليه ، واختفى به .

فأما بلغ الأمراء أن السلطان قد هرب ، سافوا خلفه إلى الرملة ، فلم يحصوه ، فطعموا إلى القاعة وهم سائقون ، فوقفوا على باب الستارة ، وقلوا للخُدام : « أين ابن أستاذنا، سيدي حاجي » ؟ فقالوا لهم : « في الدهيشة ، هو وأخوه سيدي حسين » . فتوجهوا إلى نحو باب الحوش ، وطلعموا الدهيشة ، وأخرجوا سيدي حاجي ، (١١ آ) وسيدي حسين ؛ ثم أجلسوا سيدي حاجي على الرتبة ، وباسوا له الأرض .

١٥ ثم سألوا بعض الخُدام عن الملك الكامل شعبان ، فقالوا لهم : « قد اختفى في بيت أمه » ؛ فتوجهوا إليه ، وهجموا بيت أمه ، فلم يجدوه في البيت ؛ فسكوا الجوار ، وأرادوا توسيطهم ، فأقروا على أنه في بيت الأزار ؛ فهجموا عليه ، فوجدوه قد دخل في الزير ، وابتلت أثوابه بالماء ، فقبضوا عليه من الزير ، ومضوا به إلى الدهيشة ، فسجنوه في المكان الذي كان فيه أخويه ؛ والمجازاة من جنس العمل .

٢١ قال الشيخ صلاح الدين الصفدي ، في تاريخه : « حكى لي الأمير أسنبغا ، أستاذار الصحابة ، قال : هيئنا السباط على جاري العادة ، على أن الملك الكامل يأكل منه ، ثم أفردنا من الأكل شيئاً لسيدي حاجي ، وسيدي حسين ، اللذين كنا في السجن

بالدهيشة ، نخرج سيدى حاجى ، وجلس على السباط ، وأكل منه ؛ ثم دخانا بالطعام
الذى كنّا أفردناه لسيدى حاجى ، وسيدى حسين ، فأكل منه الملك الكامل شعبان ،
وهو فى السجن بالدهيشة ، فى المكان الذى كان فيه أخويه « ؛ وهذا من الفرائب ٣
والعجائب ، كما يقال :

ما بين طرفة عين وانتباهتها يقاب الدهر من حال إلى حال

وقد قيل فى المعنى : ٦

لا تأمنن الدهر وهو مسلم سلس القياد فقد يعود محاربا

واحذر تقلبه ولا تعجب له إن أركب الماشى وأمشى الراكبا

ولكم ذليل ساعدته عناية من ذى الجلال فعزّ فيها جانبا ٩

وقال آخر فى المعنى :

كم حاربتنى شدة بجموعها وضاق صدرى عن لقائها وانزعج

حتى إذا أيست من خلاصها جاءتنى الألفاف تسعى بالفرج ١٢

فلما قبضوا على الملك الكامل ، أقام محبوسا ، فى مكان بالدهيشة ، ثلاثة

أيام ؛ فلما تسلم حاجى ، أمر بخنق أخيه الملك الكامل شعبان ، خنق تحت الليل ،

فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة من سنة سبع وأربعين وسبعمائة . ١٥

وكانت مدة سلطنة الملك الكامل شعبان بالديار المصرية ، سنة وثمانين ونصف ؛

ولما مات دفن على والده الناصر محمد بن قلاون ، داخل القبة التى بين القصرين (١١ب) .

وكان صفة الملك الكامل شعبان ، أشقر اللون ، أزرق العينين ، وافر الأنف ، ١٨

مجدّر الوجه ، يميل إلى الصفرة ، وكان شديد الخلق ، سىء التدبير ؛ وكانت أمه

جارية رومية الجنس ، فجمع بين قبح الفعل والشكل ؛ وقال الصلاح الصمدى :

بيت قلاون سعاداته فى عاجل كانت بلا آجل ٢١

حلّ على أملاكه لاردى دين قد استوفاه بالكامل

ومن الحوادث فى دولة الملك الكامل ، أن بحر النيل قد احترق ، فيما بين مصر

(٥) وانتباهتها : أنت باهتها .

والمقياس ، حتى عزّ الماء الذي ينقل إلى القاهرة على ظهور الجمال في الراوية ، وامتنع منه السقاويون ، حتى وقعت النقطة ، وتزايد النيل في تلك الأيام .

٣ انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاون ، وذلك على سبيل الاختصار منها ، تمت .

ذكر

سلطنة الملك المظفر حاجي

ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

٩ وهو الثامن عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ وهو السادس ممن ولي السلطنة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون .

ببيع بالسلطنة بعد قتل أخيه الملك الكامل شعبان ، وذلك يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعماية ؛ وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن بناة :

١٢ يا إمام الورى مضى نصف عام لم أنل فيه من وصولي ربع

سنة إن غفلت عني فيها كسرتني وكيف لا وهي سبع

وكان مولد الملك المظفر حاجي سنة اثنتين وثلاثين وسبعماية ؛ ولد بطريق الحجاز ،

١٥ عند عود أبيه الملك الناصر من الحجاز ، في الحجّة الثالثة ؛ فلما بُشِّر به ، قال : « سمّوه

سيدي حاجي » .

فلما أرادوا سلطنته ، لبس شعار الملك ، [وركب] من باب الستارة ، ومشت

١٨ الأمراء قدّامه بالشاش والقماش ، حتى دخل القصر الكبير ، وجلس على سرير

الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، وتلقّب بالملك المظفر ، ودقّت له البشائر بالقلعة ،

(١٢ آ) ونودى باسمه في القاهرة ، وضيّج له الناس بالدعاء .

٢١ فلما تمّ أمره في السلطنة ، عمل الموكب ، ورسم لنقيب الجيوش المنصورة بأن

(١) الراوية : الراوية .

(١٧) [وركب] : تنقّص في الأصل .

يدور على الأمراء المقدمين ، ويعلمهم أن الموكب غداً بالشاش والقاش فى القصر الكبير .

٣ فلما كان يوم الاثنين ، طلع سائر الأمراء من المقدمين ، والطبلخانات ، والعشرات ، فلما أن باتوا بالقصر ، دخل عليهم ، بعد المغرب ، جماعة من المماليك السلطانية ، وبأيديهم سيوف مسالوة ، وأطبار ، وكانوا نحو خمسمائة مملوك ؛ فلما دخلوا ، قبضوا على جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير آقسنقر ، والأمير ملكتمر الحجازى ، والأمير ٦ قرابغا القاسمى ، والأمير أيتمش من عبد الغنى ، والأمير نزار العمري ، والأمير صمنار .

٩ قيل إن الأمير آقسنقر ، لما أرادوا أن يقبضوا عليه بالقصر ، جرد سيفه ، وقصد نحو السلطان ليقتله ، فسكه الأمير شجاع الدين غرلوا ، وأخذ سيفه من يده ، وقبض عليه .

١٢ فلما قبضوا على هؤلاء الأمراء ، قيدوهم ، وأرسلوهم إلى السجن بشرف الإسكندرية ؛ وأما الأمير آقسنقر ، والأمير ملكتمر الحجازى ، فحبسهم السلطان فى البرج بالقامة ؛ فلما دخل الليل ، أمر بخنقهما ، فخنقا تحت الليل ودُفنا ، ولم يشعر بهما أحد من ١٥ الناس .

ومن العجائب ، أن هؤلاء الأمراء كانوا سببا لسلطنة الملك المظفر حاجى ، فأخذوا من الجانب الذى كانوا يأمنوا إليه ، فكان كما يقال فى المعنى :

١٨ ربما يرجو الفتى نفع فتى خوفه أوّلَى به من أمّله
ربّ من ترجو به دفع الأذى سوف يأتيك الأذى من قبله

(١) غدا : غدّى .

(٥) مملوك : مملوكا .

(١٢) قيدوهم : قيدهم .

(١٧) يأمنوا : كذا فى الأصل .

(١٨) يرجو : يرجوا . || أوّلَى : أولا .

(١٩) ترجو : ترجوا .

وفي هذه السنة كانت وفاة الصاحب شرف الدين بن الصاحب زين الدين بن الصاحب
نفر الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنا ، باني الآثار الشريف النبوي ، وكان من
أعيان علماء الشافعية ، تفقه على جماعة من العلماء بمصر ، حتى صار إماما ثقة . ٣

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وسبعمائة

فيها ، في جمادى الآخرة ، عزل السلطان قاضي القضاة الحنفى حسام الدين عمر
البسطامى ؛ ووَلَّى (١٢ ب) القاضي علاء الدين على التركمانى ، قاضي قضاة الحنفية ، عوضا
عن حسام الدين البسطامى . ٦

وفيها فرّق السلطان الإمريات على الأمراء ، فأمر في يوم واحد خمسة عشر أميراً ،
ما بين مقدمين ألوف ، وطبايخانات ، وعشرات ، وأقام له عصبة تختص به ، وعزل
من عزل ، ووَلَّى من ولى . ٩

وفي هذه السنة وردت الأخبار من الشام ، بأن يابغا اليحياوى ، نائب الشام ،
قد هرب ، فتبعه جماعة من عسكر دمشق ، وتقاتلوا معه ، فانتصروا عليه في مكان
خارج دمشق ؛ فقتلوه ، وقطعوا رأسه ، وأرسلوها إلى السلطان ، فرسم بأن تعلق
على باب زويلة ، فعلقت عليه ثلاثة أيام . ١٢

وفيها قبض السلطان على الأمير شجاع الدين غرلوا ؛ وكان سبب ذلك أنه صار
يرى الفتن بين الأمراء ، فلما بلغ السلطان ذلك قبض عليه ، وسجنه بالقاهرة ، فوقع
منه كلمات فاحشة في حق السلطان ؛ فلما بلغ السلطان ذلك ، أمر بمخنقه ، فخنق
تحت الليل ، ودُفن في تربة في القرافة ؛ فلما بلغ العوام ذلك ، توجهوا إلى قبره ،
ونبشوا عليه ، وأخذوا كفنّه ، وأحرقوا عظامه ؛ فلما بلغ السلطان ذلك ، رسم
لوالى القاهرة أن يقبض على من فعل هذه الفعل من العوام ، فقبض على جماعة كثيرة ،
وضربهم بالمقارع ، وقطع أيدي جماعة من العوام ، وطاف بهم في القاهرة . ١٥

وفي هذه السنة تزايد الطيشان من الملك المظفر حاجي ، وكان مولعا بأعب الحمام ،
فخرج في ذلك عن الحد ، حتى قيل : لما وصل إليه موجود يابغا اليحياوى ، نائب

الشام ، فكان من جماته ذهب عين خمسين ألف دينار ، فأصرف السلطان ذلك المال جميعه على الحمام ، فصنع لهم خلاخل ذهب في أرجلهم ، وألواح ذهب في أعناقهم ، وصنع لهم مقاصير خشب ، مقطعة بالعاج والأبنوس ، وأقام لهم غلمان يكلفونهم ،^٣ ورتب لهم في كل شهر جوامك ، بسبب خدمة الحمام ، فأفنى ذلك المال الذي وصل من الشام ، جميعه ، على ما ذكرناه من أمر الحمام .

قال (١٣ آ) الشيخ مهاب الدين بن أبي حجلة ، في ترجمته للملك المظفر حاجي ،^٦ هذا : « وقد اشتغل بأعب الطيور ، عن تدبير الأمور ، والتهى عن أمر الأحكام ، بالنظر إلى الحمام ، فجعل السطح داره ، والشمس سراجيه ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه ، وخالف من نهائه ، وخرج في ذلك عن الحد ، ولا صار يعرف الهزل من الجد » .

واستمر على ذلك ، حتى صار لا يبيت في القصر ليالى المواقب ، واستخف بالأمراء ، فعند ذلك تغيرت خواطر الأمراء عليه ؛ فلما تزايد هذا الأمر منه ، دخل^{١٢} في أثناء الشهر الأمير جيبنا ، رأس نوبة النوب ، وكان مسافرا في البلاد الشامية ؛ فلما بلغه هذه الأخبار عن السلطان ، طلع إلى القامة بعد الظهر ، وخلا بالسلطان ، وعنقه عن هذه الأمور الشنيعة ، الذي يتوقع منه .^{١٥}

فلما سمع كلامه ، غضب ، وقام من وقته ، وطلع إلى السطح ، وذبح الحمام التي عنده جميعها عن آخرها ، وخرب تلك المقاصير التي كانوا في السطح ، وأرسل إلى الأمير جيبنا ، وهو يقول له : « إني قد ذبحت ما عندي من الحمام جميعها ، وأنا ، إن شاء الله تعالى ، أذبح في هذا القرب خياركم من الأمراء ، كما ذبحت الحمام » .^{١٨} فلما بلغ الأمير جيبنا هذا الكلام ، دخل إلى نائب السلطنة ، وذكر له ما قاله

(٧) والتهى : والتها ، وهو من اللهو .

(١٥) الذي يتوقع : كذا في الأصل .

(١٦-١٧) التي عنده جميعها عن آخرها : كذا في الأصل ، ويلاحظ الأسلوب العامي فيما يلي .

(١٧) كانوا : كذا في الأصل .

الملك الظفر ؛ فأرسل نائب السلطنة خاف الأمراء قاطبة ، وذكر لهم ما سمعه عن السلطان ، فاتفق رأي الأمراء كلها على خلعه .

٣ فلما كان يوم الأحد ثاني عشر شهر رمضان ، وثبوا الأمراء على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجهوا إلى قبة النصر ، التي تحت القاعة .

٦ فلما بلغ السلطان ذلك ، أمر بشدة الخيول ، ودق الطبول حربى ، وزعق النفير ، ثم نزل من القاعة ، ومشى تحت الصنجق السلطاني ، ولم يكن معه من الأمراء العشرات ، والماليك السلطانية ، إلا بعض شيء ، وكان صحبته تحت الصنجق مقدم الماليك عنبر ، وبعض ماليك جدارية صفار ؛ فلما مشى ، توجه إلى رأس الصوة ، ووقف ينتظر من يطلع إليه من الأمراء ، فلم يطلع إليه أحد من الأمراء ، فوقف هناك ساعة يسيرة ، ثم مشى إلى بين الترب ، ووقف هناك .

وأرسل خاف الأمير شيخوا العمري ، فإنه كان من ذوى العقول ؛ فلما حضر بين يديه ، قال له : « ما قصدكم متى حتى ركبتم على من غير (١٣ ب) موجب لذلك » ؟ فقال له الأمير شيخوا : « إيش كنت أنا ، هذا الأمر من الأمراء الذى هم أكبر متى » ؛ فقال له السلطان : « امضى إلى الأمراء ، وقل لهم : إيش قصدكم ؟ ومهما قالوه رد على الجواب » .

١٨ فمضى الأمير شيخوا إلى الأمراء ، وهم بقبة النصر ، وذكر لهم ما قاله السلطان ، فقالوا له الأمراء : « امضى إليه ، وقل له : القصد أن تخلع نفسك من السلطنة ، وادخل إلى دور الحرم ، وصن دماء المسلمين ، وكف القتال عنهم » .

٢١ فلما عاد الأمير شيخوا إلى السلطان بهذا الجواب ، حنق منه ، وكان الأمير شيخوا يومئذ مقدم ألف ؛ ثم إن السلطان قال لشيخوا : « كيف أخلع نفسى من السلطنة ، ما عندى لهم إلا حد السيف » .

فرجع الأمير شيخوا إلى الأمراء بجواب السلطان ؛ فلما سمعوا ذلك ، زحفوا عليه ، وأشاروا بالحرب إليه ، فأثار بينهم غبار الحرب الوارد ، وحملاوا عليه حملة رجل واحد .

وكان رأس الفتنة في هذه الحركة ، الأمير بيينا أروس ، فجاء من وراء السلطان ،
وضرب عليه يرك بمن معه من المالك الساطافية ، فصار من كان مع السلطان من المالك
يتسحبون قليلا ، قليلا ، فلم يبق معه إلا القليل من المالك .
فتقدم إليه الأمير بيينا أروس ، وضربه بطبر ، فوقع إلى الأرض ، فلما وقع ،
تكاثر عليه العسكر وأسروه ، وأخذوه وهو مائى ، مكشوف الرأس ؛ فأتوا به إلى
بين يدى الأمير أرقطاي ، نائب السلطنة ، فلما رآه نزل عن فرسه ، وأرمى عليه قباه ،
وقال : « أعوذ بالله أن أقتل ابن أستاذى » ؛ وكان الأمير أرقطاي رجلا حليما ، قليل
الأذى .

ثم إن الأمير بيينا أروس قبض على السلطان ، وتوجه به ، وهو مائى ، إلى تربة
عند الباب المحروق ، نخفته في تلك التربة ، ودفنه بها ، ولم يشعر به أحد من الناس ،
ومضى أمره ؛ وكانت قتله يوم الأحد ثانى عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين
وسبعمائة .

وكان المظفر حاجي مايح الشكل ، صبيح الوجه ، وكان شجاعا بطالا ؛ وكان
له من العمر نحو عشرين (١٤ آ) سنة وأشهر ؛ وكان سفاكا للدماء ، قتل في مدة
سلطنته جماعة كثيرة من الأمراء ، والمالك السطانية .
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ، سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ؛ وفيه
يقول الصلاح الصفدى :

حان الردى للمظفر وفى الثرى قد تعفر
كم قد أباد أميرا على المعالى توقر
وقايل النفس ظلما ذنوبه ما تكفر

وكان من مساوئه ، اللعب بالحمام ، حتى خرج في ذلك عن الحد ، حتى قال فيه
الصلاح الصفدى أيضا :

أيها العاقل اللبيب تفكر فى المالك المظفر الضرغام

- قد تهادى في البغى والغنى حتى كان لعب الحجام جدّ الحجام
- ٣ قيل لما قتل المظفر حاجي ، طلع جماعة من الأمراء المقدمين إلى القاعة ، وضربوا مشورة فيمن بلى السلطنة من بنى قلاون ، فلم يقع في ذلك اليوم اتفاق على تولية أحد من أولاد محمد بن قلاون ، واختلفوا في ذلك اليوم ، فطائفة من الأمراء مالت إلى سيدي حسين ، وطائفة مالت إلى سيدي حسن ؛ وكان سيدي حسين أكبر من سيدي حسن ، لكنه كان صعب الخلق ، شديد البأس ، فلم يوافق العسكر قاطبة على ولايته للسلطنة .
- ٦ ووقع القتال والقتيل بين الناس ، وأقامت مصر يومين بلا سلطان ، والناس يدعون إلى الله تعالى بإصلاح الحال ، وتخمين هذه الفتنة .
- ٩ ثم في اليوم الثالث ، وقع الاختيار من الأمراء على سلطنة سيدي حسن ، فطالبوه من دور الحرم ، وسلطنوه ، كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه .
- ١٢ انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاون ، وذلك على سبيل الاختصار منها ، تمت .

ذكر

سلطنة الملك الناصر أبي المحاسن حسن

١٥ ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون

- وهو التاسع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية؛ وهو السابع ممن ولي السلطنة من (١٤ ب) أولاد الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون .
- ١٨ بويع بالسلطنة بعد قتل أخيه المظفر حاجي ؛ قيل إنه لما ولي الملك ، كان له من العمر نحو ثلاثة عشر سنة ، وكان مولده سنة ست وثلاثين وسبعائة .
- ٢١ فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، حضر أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله سليمان ، وحضر القضاة الأربعة ، وهم : قاضي القضاة الشافعي عز الدين بن جماعة المقدسي ، وقاضي القضاة الحنفي علاء الدين التركاني ، وقاضي القضاة المالكي تاج الدين محمد الأحنائي ، وقاضي القضاة الحنبلي

تقي الدين ابن قاضي القضاة عز الدين عمر ؛ وحضر القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري ، كاتب السر الشريف .

٣ فلما تكامل المجلس ، طلبوا سيدي حسن ، فخرج من دور الحرم ، وجلس على باب الستارة ؛ فلما أرادوا أن يبايعوه بالسلطنة ، قيل كان اسمه سيدي قماري ، فقال للخليفة والقضاة : « أنا ما اسمي قماري ، إنما اسمي سيدي حسن » ، فقال الخليفة والقضاة : « على بركة الله » .

٦ ثم يابعد بالسلطنة ، ولبس شعار الملك من باب الستارة ، ثم ركب من هناك ، ومشت الأمراء بين يديه ، بالشاش والقماش ، حتى دخل إلى القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الناصر ، على لقب والده ، ودقت له البشائر بالقامة ، ونودي باسمه في القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بولايته على مصر .

١٢ فلما تم أمره في السلطنة ، عمل الموكب يوم الاثنين في العشرين من شهر رمضان ، وأخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير بيغا أروس ، واستقر به نائب السلطنة ، عوضاً عن الأمير أرقطاي ؛ وأخلع على الأمير أرقطاي ، وقرره في نيابة حلب ، وكانت يومئذ نيابة حلب أكبر من (١٥ آ) نيابة الشام ؛ وأخلع على الأمير ١٥ أرغون شاه ، وقرره في نيابة الشام ؛ وأخلع على الأمير منجك اليوسفي ، وقرره في الأستاذارية العالية ، مضافاً لما بيده من الوزارة .

١٨ وأخلع في ذلك اليوم على جماعة كثيرة من الأمراء ، والمباشرين ، وقرّهم في الوظائف السنية ؛ ثم إنّه فرّق الإقطاعات على المالك السلطانية ، وأرضى الجند بكل ما يمكن .

٢١ ثم إنّه عين الأمير أسنبغا المحمودي الساجدار ، بأن يتوجه إلى البلاد الشامية بشارة ولايته على السلطنة ؛ وعين جماعة آخرين بشارة ولايته إلى ثغر الإسكندرية ، ودמיاط ، وغير ذلك من الثغور الإسلامية ؛ وأخذ في أسباب تدبير مملكته ، وعزل

مَنْ عَزَلَ ، وَوَلَّى مَنْ وَلَّى ؛ وفيه يقول الشهاب بن أبي حَجَلَة من أبيات :

غدا سلطاننا ملك البرايا رعاه الله يعدل في الرعايا
حواصل عدل والده حواها وأخرج من زواياها الخبايا
فمَهْلًا في التماذي والأياذي فقد حُزَّتْ النهاية في العطايا
ووجهك حاز كل الحسن طرًا فهل خَلَفْتَ خلفك من بقايا

٣

٦

٩

١٢

١٥

(١٥ ب) :

لم تزل للوفاء يا نبيل أهلاً ولك الفضل في الدفانر تملأ

إن مصرا ترملت منك دهرًا وهي ترجو مراجعًا منك بعلًا

١٨

فلما جرى ذلك ، اتفق رأى الأمراء على أن يسدوا البحر مما يلي برّ الجزيرة ،

فندبوا الأمير منجك اليوسفي ، وزير الديار المصرية ، بأن يتولى أمر ذلك ؛ فأظهر في

هذه الحركة أنواعًا كثيرة من أبواب المظالم ، فأرمى على كل دُكَّان بمصر والقاهرة /

٢١

(١) وولى من ولى : وولا من ولا .

(٧ - ٨) واختلاف في وفاته : انظر ماورد عن ذلك ، هنا فيما سبق ، ص ٦ آ .

(١٨) ترجو : ترجوا .

درهمين فضّة ؛ وبرزت المراسيم الشريفة إلى كاشف الشرقية ، بأن يرى على كل نخلة في البلاد درهما من الفضّة ؛ حتى قيل اجتمع في هذه الحركة جملة من المال .

فأخذ منجك ذلك المال تحت يده ، واشترى به مراكب ، وأوسطها حجارة كبار ، وغرق تلك المراكب في البحر ، مما يلي برّ الجزيرة ؛ وفي ذلك يقول الشيخ بدر الدين بن الصاحب في المعنى :

يا أيها السلطان إن النيل عن مصر تنقل بعد طول جوار
فاحفظ لنا جريانه وجواره فله قد أوصى بحفظ الجار
فعمل الأمير منجك جسرا ، من الجزيرة إلى المقياس ، وعمل جسرا آخر ، من الروضة إلى جزيرة أروى ؛ فأما الجسر الذي من الجزيرة إلى المقياس ، فكان طوله مائتان قسبة ، في عرض ثمان قصبات ، وارتفاعه أربع قصبات ؛ وأما الجسر الذي من الروضة إلى جزيرة أروى ، فكان طوله مائة قسبة وثلاثين قسبة ؛ وأرى في البحر في أساس هذين الجسرين ، ألف مركب ، موسوقة بالحجارة ؛ فقليل إنه أصرف على عمارة هذه الجسور أربعمئة ألف دينار .

فلما زاد النيل ، وبلغ اثنتي عشرة ذراعا ، انقلب ذلك الجسر الذي صنعه منجك ، من الجزيرة إلى المقياس ، ولم يفد من ذلك شيئا .

قال إبراهيم بن دقاق في تاريخه : لما زاد النيل ، هجم الماء على بولاق فسقط من دورها عدة أماكن ، من قوة عزم الماء ، لما انحبس خلف الجسر ؛ فلما جرى ذلك ، تغير خاطر السلطان ، والأمراء ، على الأمير منجك بسبب ذلك (١٦ آ) المال الذي أصرفه على تلك الجسور ، ولم يفد من ذلك شيئا .

(٧) الجار : الجارى .

(٨) جسرا : جسر .

(١٠) مائتان قسبة : كذا في الأصل .

(١٥ و ١٩) يفد : يفتد .

(١٩) تلك الجسور : ذلك الجسور .

ثم إن السلطان صادر منجك ، وقرّر عليه مالا ، وعزله من الوزارة ، واستمرّ في الترسيم حتى يردّ ما قرّر عليه من الأموال ، فأقام مدّة ، ثم أعيد إلى الوزارة كما كان ، وراحت على الناس أموالهم التي أوردوها في هذه الحركة بغير طائل ، انتهت ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وسبعمائة

٦ فيها ، في شهر صفر ، توفى الرئيس الطبيب شمس الدين محمد بن الألفاني ، وكان علامة في الطب ؛ وهو الذي هجاه المعيار ، بقوله :

لابن الألفاني طبّ أسأل الله السلامة

٩ ما له قط مريض قام إلا للقيامة

وقال آخر :

لنا طبيب لم يزل طبّه يستجاب الداء إلى طالبه

١٢ ما فيه من عيب سوى أنّه مسهله صعب على شاربه

قيل إن هذين البيتين قيدا في الرئيس تاج الدين التبريزي . - وفيها توفى الرئيس

الطبيب شمس الدين محمد بن صمير ، وكان علامة في الطب . - وفيها توفيت خوند

١٥ طغاي ، زوجة الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وفي هذه السنة وقع الطاعون بالديار المصرية ، وعمّ سائر البلاد ، وكان فناء

عظيما جدّا . - وقد وقع في هذه السنة الفناء والغلاء ، بسبب الشراق ، الذي وقع

١٨ بمصر ، من خسة النيل في هذه السنة ؛ وقست الناس فيها شدائد عظيمة ؛ وتوفى

بها جماعة كثيرة من الأعيان ، يأتي الكلام على ذلك في مواضعه .

وفيها أخلع السلطان على الأمير جبغا ، وقرّره في نيابة طرابلس ؛ وأخلع على

٢١ الأمير أحمد ، شاد الشربخانة ، وقرّره في نيابة صند ؛ ونقل جماعة كثيرة من الأمراء

إلى نيابات بالبلاد الشامية .

(١) . الا : مال .

(٣) أموالهم التي : أموالها التي .

(١٣) قيدا : قيل .

وفي أوائل هذه السنة ، كانت وفاة الإمام العالم العلامة ، الشيخ زين الدين عمر
ابن مظفر بن الوردى المَعْرِى الكندى الشافعى ، رحمة الله عليه ، وكان من أعيان
علماء الشافعية ؛ وكان عالما فاضلا ، نحويًا ، فقيها ، (١٦ ب) ناظما ، ناثرا ، شاعرا ٣
ماهرا ؛ وهو مؤلف كتاب البهجة فى الذبح ، وله عدة تأليف فى علوم جلية ؛ وكان
ولى قضاء الشافعية بدمشق فى أواخر عمره ؛ وفيه يقول الصالح الصفدى :

يا سائلا عن غدا فضله مشتهرا فى القرب والبعد ٦
الناس زهر نامت فى الثرى وما نرى أذكى من الوردى

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : كان الشيخ زين الدين بن الوردى فى مبتدأ عمره
ضيق العيشة ، رثّ الهيئة ، فكان يزدرىه من يراه ، فدخل الشام وهو على تلك الهيئة ، ٩
وأتى إلى مجلس القاضى نجم الدين بن مصرى ، فجلس مع الشهود ، فاستخفت به
الشهود وأجاسوه فى طرف المجلس ، فحضر فى ذلك اليوم مبايعة بمشترى كرم فى
أرض بغوطة دمشق ، فقال بعض الشهود : أعطوا المَعْرِى يكتب هذه المبايعة ، وذلك ١٢
على سبيل الاستهزاء به ، فأخذ الشيخ زين الدين الورقة ، ومسك القلم بيده ، وقال :
أكتب لكم هذه المبايعة نظما أو نثرا ؟ فتزايد استهزاؤهم به ، فقالوا له : بل أكتبها
لنا نظما ، فأقام ساعة يسيرة وهو يكتب ، ثم عرض عليهم ما كتبه ، فإذا هو قوله : ١٥

باسم إله الخلق هذا ما اشتري محمد بن يونس بن سنقرا
من مالك بن أحمد بن الأزرق كلاهما قد عرفا من جلق
فباعه قطعة أرض واقعة بكورة الغوطة وهى جامعة ١٨
أشجارها مختلف الأجناس والأرض فى البيع مع الفراس
وذرع هذه الأرض بالذراع عشرون فى الطول بلا نزاع
وذرعها فى العرض أيضا عشرة وهو ذراع باليد المعتبرة ٢١
وحدتها من قبلة ملك التقى وحاز الروى حدّ المشرق
ومن شمال ملك أولاد على والغرب ملك عامر بن جهيل

- ٣ وهذه تعرف من قديم
بما صححها لازما شرعيا
بشمن مبالغه من فضة
(١٧ آ) جارية للناس في المعاملة
وسلم الأرض إلى من اشترى
بينهما بالبدن التفرق
٦ تتم ضمان الدرك المشهور
وأشهدا عليهما بذلك في
من عام سبعمائة وعشرة
والحمد لله وصلى ربى
يشهد بالضمون من هذا عمر
١٢ فلما انتهى الشيخ من كتابة هذه المباينة ، وقرأها على اليهود الذين في المجلس ،
فلما سمعوا منه ذلك ، قاموا على أقدامهم ، وقبأوا رأسه ، واعتذروا له بالتقصير في
حقه ، واعترفوا له بالفضيلة عليهم .
١٥ ثم إن الشيخ قال لبعض اليهود الذين في المجلس : « سدد في هذه الورقة بخطك » ،
فقال له : « والله يا سيدى أنا ما أحسن النظم ، فمن فضل الشيخ يمد عني بخطه » ،
فقال له : « ما اسمك » ؟ قال : « أحمد بن رسول » ، فكتب الشيخ عن لسانه ،
١٨ وهو يقول : « قد حضر العقد الصحيح أحمد بن رسول ، وبذلك يشهد » ؛ انتهى ذلك .
ثم إن الشيخ زين الدين بن الوردى اشتهر فضله بين الناس ، وساعدته الأقدار
حتى ولى قضاء دمشق ، فأقام مدة في ولايته قضاء دمشق ، حتى مل من ذلك
٢١ وأنشأ يقول :
- ولولا أننى أرجو خلاصى
من الأحكام كنت قتلت نفسى
تقضى العمر فى شكوى ودعوى
وإنكار وإقرار وحبس

فلما انفصل عن القضاء ، أنشأ وهو يقول :

خامت ثوب القضاء طوعا ولم أكن فيه بالظالم
إن زال جاء القضاء عني كان لي الجاه بالعام
ولما توفيت زوجته بالشام ، أنشأ يقول :

إذا ما زوجة الإنسان ماتت فما بقيت لمسكنه سكينه
وكيف يطيعه نظم ونثر ولا بيت لديه ولا قرينة
(١٧ ب) ومن شعره اللطيف ما قاله من فنّ دو بيت ، موريا باسمه في ماء
سائبة ، وهو قوله :

ياروضة حسن ليتها لي وحدي الشركة فيك قد أذابت كبدي
ما ضرّك أن تسقى بماء فرد والواجب أن يكون ماء الورد
وفي هذه السنة ، أعنى عن سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فيها توفى الشيخ صفى
الدين أبو الخطاب عبد العزيز الحلي ، وكان من فحول الشعراء ، وله شعر جيّد ، غير
أنّه كان غير ماهر في فنّ التورية ، وكانت من غير مذهبه ، وكان يرضى في نظمه
بالشعر الساذج ، ولم يتعرّض إلى التورية في شعره ، والدليل على ذلك ما قاله الشيخ
جلال الدين بن خطيب داريا ، مداعبة في حقّ الصفيّ الحليّ ، وهو قوله :

تصفّحت ديوان الصفيّ فلم أجد لديه من السحر الحلال مرامى
فقلت لقابي دونك ابن نباتة ولا تصحب الحليّ فهو حرامى
فالشّيخ جلال الدين أراد بالسحر الحلال ، الذى ما وجدته في ديوان الصفيّ الحليّ ،
عن التورية في شعره ، بخلاف ابن نباتة ؛ ومن لطائف شعر الصفيّ الحليّ قوله :
غارت وقد قلتُ لمساوكها أراك تبجى ريقها يا أراك
قلت تمنيت جنى ريقى وفاز بالترشاف منها سواك
ومن مخترعاته قوله :

قل شأن العميق أن يبطل الـ سحر بتختميه لسرّ حقيقى

(٨) قوله : يقول .

(١٧) ابن نباتة : ابن نباتة .

فأرى مقلتيك تنفث سجرا وعلى فيك خاتم من عتيق
وقوله من باب الحكمة :

٣ من شاء يملك حفظ صحة جسمه ويفوز طول حياته بدوامها
فليجمعان غذاءه من أربع لا يقبل التغير في أقسامها
من لحم ساعته وخبز نهاره وطعام ليلته وقهوة عامها
٦ وقد داعبه ابن نباتة بقوله :

أوقعنى ودّى مع هاجر يبخل بالدرج وبالوصل
(١٨ آ) والله لا غدرت من بعدما ولا جعلت الودّ في حلّ

٩ وفي هذه السنة ، وهى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، فيها توفى الشيخ إبراهيم
المعمار ، وكان من فحول الشعراء ، وله شعر جيّد ؛ وكان قاضى القضاة بـمهاب الدين
ابن حجر ، رحمة الله عليه ، يقول : « المعمار أبياته كلها عامرة بمحاسن التورية ، وكان
١٢ من فرسانها » ؛ فمن شعره الرقيق ، ما جمع بين الاقتباس والتورية ، وهو قوله :

كم عاشق أحرقته نار الغرام فنادى
لعمرك إن عدت أهوى لعنة ثمود أو عاد

١٥ ولما توفى المعمار ، رثاه الشيخ برهان الدين القيراطى ، وهو قوله :

مذ عمّر المعمار دار البلا رى بيوت النظم بالنقض
فياله من شاعر ميّت بكى عليه طوبة الأرض

١٨ وفي هذه السنة توفى أيضا الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد الدمشقى ثم المصرى ،
الشمير بابن اللبان ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، ولد بدمشق ، ثم قدم إلى مصر ،
ومات بها ، وكان له شعر جيّد ، فمن ذلك قوله :

٢١ أهديت ماء وقت هذا ماء خلاف للارتشاف
فعندما أبصرته عيني رأيت ماء بلا خلاف

وفي شهر رمضان تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية ، وهجم جملة واحدة ، وعظم

(١٧) فياله من شاعر ميت : كتب إلى جانبها في الأصل على الهامش : طوبى له من شاعر ميت .

أمره جدًّا، حتى صار يخرج من القاهرة في كل يوم نحو عشرين ألف جنازة؛ وقد ضبط في مدّة شهر شعبان ورمضان من مات في هذا الطاعون ، فكان نحوًا من تسعمائة ألف إنسان ، من رجال ونساء ، وكبار وصغار ، وجوار وعبيد ، ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدّم من الطواعين المشهورة في صدر الإسلام .

وتوفّي في هذا (١٨ ب) الطاعون الشيخ الصالح، العابد الزاهد، الشيخ عبد الله محمد بن سليمان المنوفي المغربي ، المالكي المذهب، وكان من كبار الأولياء، وله كرامات خارقة، ودفن بالصحراء ، بالقرب من تربة الأشراف قايتباي ، وصار قبره يزار في كل يوم سبت إلى الآن .

قال الشيخ شمس الدين محمد الذهبي في تاريخه: نقل المدائني، أن الطواعين المشهورة في صدر الإسلام خمسة ، وهي : طاعون شيرويه ، كان بالمدائن ببلاد الفرس، في حياة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

وطاعون عمواس ، كان في زمن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان بالشام سنة سبع عشرة من الهجرة ؛ وإنما سمّي طاعون عمواس ، لأن كان مبدأه من قرية بين الرملة والقدس ، تسمّى عمواس ، وهي بلدة صغيرة ، ظهر منها الطاعون، ثم انتشر إلى الشام ، فنسب إليها ، وسمّي طاعون عمواس .

وتوفّي في هذا الطاعون جماعة من الصحابة منهم : أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ ابن جبل ، وشرحبيل بن حسنة ، يزيد بن أبي سفيان ، أخو معاوية ، والحارث ابن هشام ، أخو أبي جهل ، وأبو جندل ، وسهيل بن عمرو ، وهو والد أبي جندل ، فهؤلاء توفّوا في طاعون عمواس ، ومات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم .

ثم وقع الطاعون بالكوفة ، سنة تسع وأربعين من الهجرة ، فلما وقع الطاعون بالكوفة ، خرج المنيرة بن شعبة من الكوفة فارًّا من الطاعون ، فلما ارتفع الطاعون من الكوفة ، رجع إليها وأقام بها مدّة يسيرة ، وطعن ، ومات عقيب ذلك ؛ ومات به من الناس نحو ألف ألف وستائة ألف وخمسون ألف إنسان ، وكان يسمّى هذا

الطاعون « طاعون الأشراف » لكثرة من مات فيه من أشراف الناس .
 ووقع الطاعون بالبصرة، سنة سبع وستين من الهجرة، وهو المسمى « بالجارف »،
 وقع في زمن عبد الله بن الزبير ، وإنما سمي بالجارف ، لأنه صار يجرف الناس ، كما
 يجرف السيل في الأرض ، حتى قيل ، مات في يوم واحد من أهل البصرة ، سبعون
 ألفاً ، ومات في اليوم الثاني ، أحد وسبعون ألفاً ، ومات في اليوم (١٩ آ) الثالث
 سبعون ألفاً ، وفي اليوم الرابع ، لم يمض فيه من الناس إلا القليل ، فسبحان القادر على
 كل شيء .

قال الواقدي : مات في هذا الطاعون لأنس بن مالك ، رضي الله عنه ، ثلاثة
 وثمانون ولداً في ثلاثة أيام ، وكان قوة عمل هذا الطاعون في شهر رمضان ؛ وفي رواية
 أن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، رزق من صلبه مائة وأربعة وعشرين ولداً .
 قال ابن أبي الدنيا : لما تزايد أمر الطاعون الجارف ، عجز الناس عن دفن موتاهم ،
 فكانت الوحوش تدخل إلى البيوت ، وتأكل من لحوم الموتى ، فكانت الناس
 يسدوا على الأموات باب الدور ، حتى لا تدخل إليهم الوحوش .
 قال أحمد بن عصام : حدثني معدي عن رجل يكنى أبا الفضل ، وكان قد أدرك
 هذا الطاعون ، قال : كنا نطوف في القبائل وندفن الموتى ؛ فلما كثر الموت كنا ندخل
 الدار فنرى قد مات أهلها جميعاً ، فنسد عليهم باب الدار ، فدخلنا داراً فلم نجد فيها أحداً
 من الأحياء ، فسدنا عليهم باب الدار ، فلما ارتفع الطاعون جئنا إلى دار ففتحنا سدة
 الباب ، فلم نجد فيه أحداً من الأحياء ، وإذا نحن بغلام في وسط الدار ملقى على قفاه ،
 عمره نحو شهر ، أو أكثر من ذلك ، فوقفنا نتعجب من أمره ، وإذا نحن بكلبة قد
 دخلت من شق حائط في الدار ، فجعلت ترضع ذلك الغلام ، والغلام يألف إليها ويمص
 من ثديها ؛ قال معدي : فانتشى ذلك الغلام ، وكبر ، وطامت لحيته ، ورأيت يمشي في
 جامع البصرة ، والناس تتحدث في أمره .

(١٣) يسدوا : كذا في الأصل .

(١٦ و ١٨) أحداً : أحد .

ثم وقع الطاعون بالبصرة ، سنة سبع وثمانين من الهجرة ، وكان يسمى « طاعون الفتيات » لكثرة من مات فيه من البنات العذارى الفتيات ؛ قال ابن أبي الدنيا عن أم بكر اوى ، إنها قالت : « خرجنا هاربين من طاعون الفتيات ، فزلنا ٣ بالقرب من قرية تسمى سنام ، ونزل إلى جانبنا رجل من العرب ، ومعه عشرة من الأولاد ، فلم تمض عليه إلا أيام يسيرة ، حتى ماتوا (١٩ ب) بنوه جميعاً ، فكان يجلس بين قبورهم ويقول :

بنفسى فتية هلكوا جميعاً براية مجاورة سناما
أقول إذا ذكرت العهد منهم بنفسى تلك أياما كراما
فلم أر مثلهم هلكوا جميعا ولم أر مثل هذا العام عاماً ٩
فهذه الطواعين الخمسة المشهورة التى وقعت فى صدر الإسلام ؛ وأما هذا الطاعون الذى وقع فى دولة السلطان حسن ، سنة تسع وأربعين وسبعائة ، فلم يسمع بمثله فيما تقدم من الطواعين المشهورة ، فإنه عمّ سائر البلاد قاطبة ، حتى دخل مكة المشرفة ، ١٢ ومات به جماعة من أهل مكة ، وهذا لم يهد قط ، ولا سمع بأن دخل مكة طاعون .

وكان قوة عمل هذا الطاعون فى بلاد الفرنج ؛ وأقام دائراً فى البلاد نحو سبع ١٥ سنين ، حتى عزّت جميع البضائع ، لقلة الجالب من البلاد ؛ وبلغ ثمن الراوية الماء اثنى عشر درهما ، بسبب موت الجمال ؛ وبلغ طحين الأردب القمح خمسة عشر درهما ؛ ولم يزرع من أراضى مصر فى تلك السنة إلا القليل ، بسبب موت الفلاحين ، وعدم ١٨ من يزرع الأراضى ؛ فوقع الغلاء بمصر ، حتى أبيع كل وبة قح بمائتى درهم ، وكادت مصر أن تخرب فى تلك السنة من الغلاء والفناء .

وقد وقع الطعن أيضا فى القطط والكلاب والوحوش ، ولقد رثيت أشياء ٢١ كثيرة من الوحوش ، وهى مطاروحة فى البرارى ، وتحت إبطها الطواعين ؛ وكذلك الخيول والجمال والحمر ، وسائر الحيوان ، حتى الطيور ، كالنعام وما أشبه ذلك .

فلما تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية، وخرج عن الحدّ، أشارت العلماء أن الناس تخرج قاطبة إلى الصحراء، تحت الجبل الأحمر، ويفعلوا كما يفعلون في الاستسقاء؛ فخرجت الناس قاطبة، واجتمعوا تحت الجبل الأحمر، وضيّقوا إلى الله تعالى بالدعاء، أن يرفع عنهم الطاعون.

ثم إن شيخ الإسلام سراج الدين (٢٠ آ) عمر الباقر، خرج وهو مائى على أقدامه، من بيته الذى فى حارة بهاء الدين، والناس حوله يذكرون، حتى أتى إلى الجامع الأزهر، وكان ذلك يوم الجمعة، فخطب بالناس خطبة بليغة، وأمرهم بالتوبة من ذنوبهم، وابتهل الناس إلى الله تعالى بالدعاء؛ فلما رجعوا من الجامع، وأصبحوا، تزايد أمر الطاعون وفشى فى القاهرة، حتى جاوز الحدّ فى ذلك.

ومما روى فى بعض الأخبار عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه لم يثبت عنه أنه دعا برفع الطاعون عن أمته، بل ثبت أنه دعا به وطابه لأمته، وكان إذا بعث جيشاً إلى الشام، قال: «اللهم ارزقهم الشهادة طمعاً وطاعوناً».

وقد تمسك بعض العلماء بقول الإمام الرافعى، والإمام النووى: «إن القنوت يشرع فى سائر العساوات عند نزول نازلة تقنع»؛ وقد تمسك جماعة من العلماء بالدعاء برفع الوباء، ولكن الطاعون أخص من الوباء، فلهذا شرع الدعاء برفع الوباء، دون الطاعون.

وقيل إن معاذ بن جبل، رضى الله عنه، امتنع من الدعاء فى طاعون عمواس، فلو كان الدعاء جائزاً برفعه، لما امتنع من الدعاء برفعه معاذ بن جبل، رضى الله عنه، انتهى ذلك.

وقد أوردت عدّة مقاطيع، بما قالته الشعراء فى أمر الطاعون، فمن ذلك قول الصلاح الصفدى:

لما افترست سحابة يا عام تسع أربعينا ما كنت والله تسماً، بل كنت سبيعاً يقينا
وقوله:

دارت من الطاعون كأس الفنا فالنفس من سكرته طافحة

- قد خالف الشرع وأحكامه لأنه يثبت بالرأحة وقوله أيضا :
- ٣ لا تثق بالحياة طرفة عين في زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع والبرايا لها فراش تطير
- وقال الشيخ زين الدين بن الوردي :
- ٦ يقولون سمّ الخلّ في زمن الوبأ وقال لما قال الأطباء يا خلى
(٢٠ب) فإن قلت للطاعون تسطو على الوري يقول نعم أسطو وأثقت في الخلّ
- وقال إبراهيم المعمار :
- ٩ قُبِحَ الطاعون داء فقدت فيه الأحبة
بيعت الأنفس فيه كل إنسان بحبّه
- ومن مجونه قوله :
- ١٢ قلت لمن بالحشيش مشتغل ويك أما تخش هذه الكتبة
فالناس ماتوا بكبة ظهرت فقال إني أعيش بالكبة
- وقوله أيضا :
- ١٥ يا طالبا للموت قم واغتم هذا أوان الموت فما فانا
قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره مانا
- وقال آخر :
- ١٨ نُرَاعُ بذكر الموت ساعة ذكره ونعرض للدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا [ما] خُلقنا لغيرها وما كنتُ منه فهو شيء محبب
- وقال آخر :
- ٢١ نُرَوِّعُنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مُدبرات

(٧) تسطو : تسطوا . || أسطو : أسطوا . || الخل : الخلى .

(١٨) فنلهو : فنلهوا .

(١٩) بنو : بنوا . || [ما] : تنفس في الأصل .

(٢١) ونلهو : ونلهوا .

كروعة جبهة لغار سبع فلما غابَ عادت راتعات
ثم دخلت سنة خمسين وسبعمائة

٣ فيها توفي القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري ، كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وكان عالماً فاضلاً ، بارعاً في صنعة الإنشاء ، وله في ذلك المصنفات الجليلة ، والعبارة اللطيفة في الإنشاء ، وصار العمل على ما وضعه في صنعة الإنشاء إلى الآن عند الموقعين ؛ وقد رثى نفسه قبل أن يموت بهذين البيتين ، وجدت مكتوبة في ورقة في دوائه ، بخط يده ، وهو قوله :

٩ قُلْتُ لأقلامي اكتبني وانطقى فقالت الأقلام واسوءتاه
وشقت الألسن من حزنها وولولت واسود وجه الدواء

وكان ناظماً ناثراً ، وله خطٌ جيّد ، على الطائفة ؛ ولما توفي القاضي شهاب الدين ، أخلع السلطان على ولده القاضي بدر الدين محمد ، (٢١ آ) وقرّره في كتابة السر ، وصاحب ديوان الإنشاء الشريف ، عوضاً عن أبيه ، بحكم وفاته .

١٢ وفيها توفي قاضي القضاة الحنفى علاء الدين التركمانى ؛ فلما توفي أخلع السلطان على ولده جمال الدين عبد الله ، وقرّره قاضي قضاة الحنفية ، عوضاً عن أبيه .

١٥ وفيها توفي قاضي القضاة المالكي تقي الدين محمد بن أبي بكر بن الأخنأى ، وكانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة ؛ فلما مات أخلع السلطان على القاضي بدر الدين ابن عبد الناصر السنجارى ، وقرّره قاضي قضاة المالكية ، عوضاً عن الأخنأى . - وفيها ١٨ توفي الرهونى ، وكان من أعيان علماء المالكية .

وفيها عزل السلطان الأمير منجك ، من الوزارة ؛ وأخلع على الصاحب علم الدين عبد الله بن أحمد بن زنبور الدميرى القبطى ، وقرّره في الوزارة ، عوضاً عن منجك اليوسنى ؛ فعظم أمر الصاحب علم الدين في هذه الأيام ، واجتمع فيه من الوظائف السنية : وزارة الديار المصرية ، ونظارة الجيوش المنصورة ، ونظارة الخواص الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف ؛ فصار له بمصر حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، حتى قال فيه

الأديب أحمد سُمَكِيَّة الشاعر :

- هذا ابن زنبور صاحب في الناس ما أكثر سُمّه
 ٣ يا من درى زنبور إيش كان زنبور أبوه وَلَا أُمّه
 وفيها وردت الأخبار من دمشق بأن أرغون شاه ، نائب الشام ، قد قُتل تحت
 الليل ؛ وكان سبب ذلك أن الأمير جبغا ، نائب طرابلس ، دَخَلَ دمشق ، وصحبته
 ٦ جماعة من عسكر طرابلس ، وكان أرغون شاه ، نائب الشام ، مقياً بالقصر الأباقي ،
 الذي في ميدان دمشق ، فدخل عليه الأمير جبغا ، نائب طرابلس ، فوجده نائماً ،
 فهجم عليه وقبده ، وسجنه بقلعة دمشق .
 ٩ فلما طلع النهار ، طلب الأمير جبغا قضاة دمشق ، والأمراء ، فلما حضروا أخرج
 لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه ، نائب الشام ، فعند ذلك سكن ما كان
 من الاضطراب بين الناس بدمشق ، وظنوا أن ذلك (٢١ ب) صحيح ؛ ثم إن الأمير
 ١٢ جبغا احتاط على موجود أرغون شاه جميعه .
 فلما كانت ليلة الجمعة رابع عشرين رجب ، شاعت الأخبار بمصر ، أن أرغون
 شاه ، نائب الشام ، وجد مذبوحاً ، وهو في السجن ، ولا يُعلم من ذبحه ؛ فأحضر
 ١٥ الأمير جبغا القضاة ، والأمراء ، وكتب الأمير جبغا صفة محضر ، بأن أرغون شاه ،
 نائب الشام ، وجد مذبوحاً في السجن ، ولا يُعلم من ذبحه .
 ثم فشا الكلام بين أهل دمشق ، بأن هذا كله من فعل الأمير جبغا ، فكثرت
 ١٨ الكلام في حق الأمير جبغا بذلك ؛ فتعصب لثأر أرغون شاه جماعة من عسكر دمشق ،
 وحاربوا الأمير جبغا فانكسر ، وهرب ، وتوجه إلى نحو المزة ، وهي من ضياع
 دمشق ، فأقام بها أياماً ، ثم توجه إلى طرابلس .

(٣) يامن . . . أمه : يلاحظ الأسلوب العامي في هذا البيت .

(٧) نائماً : نائم .

(١٥) محضر : محضرا .

(١٧) فثما : فثى .

٣ فلما جَرى ذلك ، أرسلوا أهل دمشق ، وكتبوا السلطان بما وقع من أمر أرغون شاه ، نائب الشام ؛ فلما وصل الخبر إلى السلطان ، أنكر ذلك ، وحاف على مصحف شريف بحضرة الأمراء ، أنه لم يكن له علم بذلك ، ولا كاتب جبنا يقتل أرغون شاه ، نائب الشام ؛ ثم برزت المراسيم الشريفة إلى أمراء دمشق ، بأن يتوجهوا إلى طرابلس ، ويحاربوا جبنا نائبيها .

٦ فلما وصلت مراسيم السلطان إلى أمراء دمشق ، بأن تخرج إلى جبنا ، وتحاربه ، فخرج إليه عسكر دمشق قاطبة ، وتوجهوا إلى نحو طرابلس ، وحاربوا جبنا ، فأنكسر ، وهرب ، فقبضوا عليه ، وأتوا به إلى الشام ، وهو أسير ؛ فكان يوم دخوله إلى الشام من الأيام المشهودة .

١٢ وكان في مراسيم السلطان ، التي وردت من مصر ، بأن : « إذا ظفرتم بجبنا ، اشتقوه على باب قلعة دمشق » ؛ فلما ظفروا به ، شفقوه على باب قلعة دمشق ، وأقام معلقا ثلاثة أيام ، لم يدفن ، ثم بعد ذلك أنزلوه ودفنوه ، وخمدت هذه الفتنة من دمشق ، بعد ما كانت أهل الشام نسبوا قتلة (٢٢ آ) الأمير أرغون شاه إلى السلطان ، ولاموه على ذلك ، فظهرت براءة السلطان في ذلك .

١٥ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وسبعائة

١٨ فيها وردت الأخبار من البيرة ، بأن التتار هجموا على مدينة سنجان ، وملكوها ، فلما تحقق السلطان ذلك ، عين لهم تجريدة ؛ فلما وصل العسكر إلى سنجان ، حاصروا من بها من التتار ، فلما رأوا التتار عين الغلب ، طلبوا الأمان من العسكر ، فأرسل لهم الباش بالأمان ، فسلموا له المدينة ، وملكها عسكر السلطان ، ورجع إلى القاهرة مع السلامة .

٢١ وفيها وقع حريق بخط البندقائيين ، وكان حريقا عظيما ، حتى ركب الأمير شيخوا ، ومماليكه ، والأمير بينا أروس ، نائب السلطنة ، وتوجهوا إلى البندقائيين بسبب

(١٠) التي : الذي .

(١٣) ولاموه : ولامومه .

ذلك الحريق ؛ فعمت النار في البيوت ، فاحترق في تلك الليلة نحو ألف دار ، وأعي الناس خمود تلك النار ، فإنها كانت ليلة شديدة الرياح العواصف ، فعمت النار في البيوت ، واشتد الأمر جداً .

٣

وفيها توجه الأمير طاز ، الدوادر ، إلى الحجاز ، وكان أمير ركب الحمل ؛ فلما وصل إلى مكة ، وصعد الجبل ، وقع بينه وبين الملك المجاهد ، صاحب اليمن ، وكان حج في تلك السنة ، فتحاربوا وما يجبل عرفات ، فانكسر الملك المجاهد ، صاحب اليمن ، وأسر ، ووضع في الحديد ، وخرج به من مكة ، وأتى به إلى القاهرة ، لما تقضيه به الآراء الشريفة .

وفي هذه السنة ، جمع السلطان الأمراء ، وأحضر القضاة الأربعة ، ورشد نفسه ، وثبت رشده في ذلك اليوم ، واستعذر الأوصية من الأمراء ، فأعذروا له في ذلك ، وسلموا إليه أمور المملكة .

فلما ثبت رشده ، أقام بعد ذلك مدة يسيرة ، وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير بيينا أروس ، والأمير منجك اليوسفي ، وجماعة آخرين من الأمراء ؛ فقيدهم ، وأرسلهم إلى السجن بئر الإسكندرية ، وهذا أول تصرفه في أمور (٢٢ب) الملكة .

ومن الحوادث في هذه السنة ، أن السلطان أبطل ما أحدثه النساء من لبس القمصان الواسعة ، والأكمام الكبار ، وأمر بإبطال ما أحدثوه أيضاً من الأزر الحرير الملون ، والأخفاف الزركش ، وأمر بإشهار المناذاة في مصر ، والقاهرة ، بإبطال ذلك جميعه ، فرجع النساء عن ذلك من يومئذ .

١٨

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وسبعائة

فيها وردت الأخبار بوفاة أبي الحسن علي بن أبي سعيد ، صاحب فاس ، من بلاد الغرب ، وكان من أعيان ملوك الغرب ، وله شهرة طائلة .

٢١

(١) وأعي : وأعياء .

(١٠) الأوصية : يعني جمع وصى .

(٢٠) فاس : فارس .

- وفيهما عاد الأمير طاز ، أمير ركب المحمل ، وقد عاد من الحجاز ؛ فلما طلع إلى القاعة ، عرض على السلطان الملك المجاهد ، صاحب اليمن ، فلما مثل بين يدي السلطان ،
- ٣ أمر بنزع قيوده ، وأطلقه ، ورسم له بالعود إلى بلاده ؛ ثم إن السلطان أرسل معه الأمير قشتمر المنصوري ، أحد الأمراء العشرات ، ليوصله إلى مكة .
- وكان الملك المجاهد لما أفرج عنه السلطان ، أهدى إلى السلطان هدية حافلة ، من جوار ، ومن عبيد ، ومن أزر ، ومن شاشات ، ومن صيني ، ومن عود ، ومن حصي لبان ، وغير ذلك من التحف ، وقيل ، وأهدى إليه جملة مال .
- فلما خرج من مصر ، ووصل إلى ينبع ، وثب هناك ، ومن معه من جماعته على الأمير قشتمر ، الذي خرج صحبته ، وأراد قتله ؛ فلما جرى ذلك ، قبض أمير ينبع على الملك المجاهد ، ووضعه في الحديد ، وسأله إلى الأمير قشتمر ، فرجع به إلى القاهرة ؛ فلما علم السلطان بذلك تغير خاطره على الملك المجاهد ، وأرسله وهو مقيد إلى ثغر الإسكندرية ، واحتاط على موجوده .
- ١٢ وفي هذه السنة تزايدت المظالم بالديار المصرية ، وسبب ذلك : أن شخصا من الأراذل ، يقال له الفار ، وكان أصله مكناسا ، ثم بقى من رُسُل الديوان المفرد ، ثم صار يتقرب إلى السلطان بأذى (٢٣ آ) الناس قاطبة ، فخطى عنده بسبب ذلك ، وصار من خواصه ، فأحدث من المظالم ما لا أحده هناد في زمانه ، فكثر الدعاء على السلطان بسبب ذلك ، وتغيرت خواطر الأمراء عليه .
- ١٨ فلما كان يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة ، وثب جماعة من الأمراء على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وطاعوا إلى الرملة ، ووقفوا بسوق الخيل ؛ وكان رأس الفتنة الأمير طاز المنصوري ، والأمير بييما الشمسي ، والأمير بينرا الناصري .
- ٢١ فخطم الأمير طاز ، ومعه جماعة من الأمراء ، والعسكر ، فلكوا باب السلسلة ، ثم طاعوا إلى القاعة ، وهم راكبون ، إلى الحوش ، ثم إنهم دخلوا إلى الدهيشة ، وقبضوا على الملك الناصر حسن ، فلما قبضوا عليه ، أدخلوه إلى دور الحرم ، ووكّلوا به جماعة من الخدام .
- ٢٤

فكانت مدّة سلطنته هذه الأولى ، ثلاث سنين وتسعة أشهر وأيام ؛ ثم يعود إلى السلطنة ثانياً ، كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ؛ فلما خلع الناصر حسن من السلطنة ، تولى مِنْ بعده أخوه سيدى صالح ، انتهى ذلك على سبيل الاختصار .

٣

ذكر

سلطنة الملك الصالح صلاح الدين صالح

٦ ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون

وهو العشرون من ماوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ وهو الثامن ممن ولى السلطنة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون .

٩ ببيع بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك الناصر حسن ، يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة ؛ وكان مولده بقاعة الجبل فى أوائل ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، وكانت أمّه تسمى خوند قطاوى ملك ، بنت ملك الأمراء تنكر الحسامى ، نائب الشام .

١٢

وكان ممن تعصّب لسلطنة سيدى صالح ، الأمير طاز ، دون إخوته ، فطلبه من دور الحرم ؛ (٢٣ ب) فلما حضر ، أرساوا خلف أمير المؤمنين ، والقضاة الأربعة ، وحضر سائر أعيان الأمراء ، وباعوا سيدى صالح بالسلطنة ، وتلقّب بالملك الصالح ، ولبس شعار الملك من باب الستارة .

١٨ وركب من هناك ، والأمراء مشاة بين يديه ، بالشاش والقماش ، حتى دخل القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، ودقّت له البشائر بالقاعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، ونسج له الناس بالدعاء ، من الخالص والعام .

فلما تمّ أمره فى السلطنة ، فوضّ أمور المملكة كلها إلى الأمير طاز ، وصار صاحب الحلّ والعقد فى أيام دولته ؛ واجتمعت فيه الكلمة ؛ فشقّ ذلك على بقيّة الأمراء قاطبة ، ودبّت بينهم عقارب الفتن ، فتزايد الأمر منهم .

(٣) أخوه : أخيه .

(١٠) اثنتين : اثنين .

- فلما كان يوم الاثنين ، وثب الأمير منكلى بُنا الفخري ، والأمير مغطاي ،
وجاعة من الأمراء العشرات ، والتفت عليهما جماعة كثيرة من المالك السلطانية ،
٣ فابسوا آلة الحرب ، وتوجهوا إلى نحو قبة النصر .
- فلما بانغ الأمير طاز هذه الحركة ، طلع إلى القلعة ، وركب السلطان ، ونزل به من
القلعة ، وجمع العسكر في الرملة ، وفرق عليهم اللبوس والسيوف والأتراس ؛ ثم دقت
٦ الطبول حربى ، وزعق النفير ، ومشى السلطان تحت الصنجق .
- ثم إن السلطان نادى للعوام ، أن من وجد مملوكا من ممالك الأمير منكلى بُنا ،
والأمير مغطاي ، يقتله ، ويأخذ عريه ؛ فقتل في ذلك اليوم جماعة كثيرة من المالك ،
٩ وراح الصالح بالطالح .
- ثم إن السلطان توجه إلى قبة النصر ، بمن معه من العسكر ، فوقع بين الفريقين
هناك وقعة مهولة ، وقتل فيها من المالك ما لا يحصى ؛ وكان معظم هذه الوقعة بالقرب
١٢ من خايج الزعفران ، وقتل من الغلمان ، والعوام ، جماعة كثيرة .
- وآخر الأمر انكسر الأمير منكلى بُنا ، والأمير مغطاي ، الذى كانا سببا
لإثارة هذه الفتنة ، فقبض عليهما ، وكانا قد توجهوا إلى بعض البساتين بالمطرية .
١٥ فلما أحضر وهما إلى بين يدي السلطان ، رسم بسجنهما (٢٤ آ) فى خزانة شتايل ،
- فأقاما بها أياما ، ثم بعث بهما إلى السجن بشفر الإسكندرية ؛ فلما سجنهما ، رسم
بالإفراج عن الأمير منجك اليوسفى ، والأمير شيخوا النموى ، وكانا فى السجن
١٨ بشفر الإسكندرية من أيام الملك الناصر حسن ، فلما حضرا ، أنعم على الأمير شيخوا
بتقدمة ألف ، وكذلك الأمير منجك اليوسفى .
- ثم إن السلطان أرسل بالإفراج عن الأمير بيينا أروس ، وكان فى السجن بقلعة
٢١ الكرك ، فلما حضر أخاع عليه ، وقرره نائب حلب ؛ وأخاع على الأمير أرغون

(٦) وزعق : وصعق .

(١١) وقعة : كذا فى الأصل . || الوقعة : كذا فى الأصل .

(١٣) الذى : كذا فى الأصل .

الكامل ، وقرره نائب الشام ؛ وأخلع على الأمير قبلاى ، وقرره نائب السلطنة بالديار المصرية ؛ وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ؛ وجعل له عصابة من الأمراء تخص به ، فاستقامت أموره في السلطنة ، بما فعله من انتقالات الوظائف بين الأمراء ، وعزل من عزل ، وولى من ولى .

وفي هذه السنة ، وردت الأخبار بوفاة العلامة الحافظ شمس الدين محمد بن قيم الجوزية ، وكان من أعيان العلماء ، وله عدة مصنفات في علوم شتى ، انتهى ذلك . ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة

فيها في شهر المحرم ، وردت الأخبار من حلب ، بأن الأمير بيينا أروس ، لما خرج من مصر ، وتوجه إلى حلب ، خامر على السلطان ، وأظهر العسيان ، وخرج عن الطاعة ؛ وكذلك بكلمش ، نائب طرابلس ؛ وكذلك الأمير أحمد ، نائب حماة ؛ وكذلك الأمير ألتنبغا برناق ، نائب سفد ، وهو صاحب الدرب المعروف به ، الذى هو بالقرب من قنطرة سنقر ؛ فلما تحقق السلطان عسيان هؤلاء النواب ، أرسل بالكشف عن أخبارهم .

ثم بعد أيام وردت الأخبار ، بأن الأمير بيينا أروس ، قد جمع الجَمّ الفير من العساكر والعربان ، وقد وصل إلى الشام ، وهو يحاصر المدينة ؛ وأن نائب الشام ، لما رأى عين الغلب ، هرب من الشام تحت الليل ، هو وعياله وأولاده ، وأتى إلى غزة ، وأرسل يكتب السلطان بما وقع من أمر بيينا أروس ، نائب حلب ، وأنه دخل إلى الشام ، وصحبته من (٢٤ ب) العساكر ما لا يحصى ، ومن الأمراء نحو ستين أميراً ؛ والتفّ عليه من العربان والعشير جماعة كثيرة ؛ وأنه لما دخل الشام وملكها ، عدّ عساكر الشام ، وعساكر حلب ، فكان عدتهم نحو عشرة آلاف إنسان .

ثم إن بيينا أروس لما دخل إلى الشام ، أرسل يطلب من الأمير أياجى ، نائب

(٨) أروس : أوس .

(١٢) هؤلاء : هولاء .

- ٣ قلعة دمشق ، أميرا كان مسجوناً بقلعة دمشق ، فأرسل الأمير أياجي يعتذر إليه عن ذلك ، وأنه لا يقدر على إطلاقه من السجن إلا بمرسوم السلطان ؛ ثم إن الأمير أياجي حتم قلعة دمشق ، وركب عليها الكاحل بالمدافع ؛ وأرسل يقول لأهل دمشق : « لا تفتحوا دكا كينكم ، ولا تبيعوا على عسكر بيينا أروس شيئا » .
- ٦ فلما بلغ بيينا أروس ذلك ، اشتد غضبه على أهل دمشق ، وأمر عسكره بأن ينهب ضياع دمشق ، وبساتينها ، ويقطعوا الأشجار التي بها ؛ فلما سمع بذلك من كان مع بيينا أروس من العربان ، ومن العشير ، فنبهوا ما كان في الضياع من القماش والنساء والبسات والخيول والمواشي ، وما أبقوا في ذلك ممكنا ، وجرى على أهل دمشق من بيينا أروس ، ما لا خير فيه من النهب والسبي والقتل .
- ٩ فلما تحقق السلطان صحة هذه الأخبار ، بما جرى في دمشق ، علق الجاليس على الطليخانة ، وعرض في ذلك اليوم العسكر ؛ ثم عين الأمير عمر شاه ، وهو صاحب القنطرة ، وعين الأمير محمد بن الأمير بكتمر الساقى ، والأمير قمارى الحموى ، بأن يخرجوا إلى جهة بلاد الصعيد ، حتى يحفظوا الضياع من فساد العربان ، بسبب أن لا ينهبوا المفل ، فإن القمح كان في الجرون ، نخرجوا هؤلاء الأمراء من يومهم .
- ١٢ ثم إن السلطان أسرع في عمل يرقه ، وخرج من القاهرة على جرائد الخيل ، وطلب طلباً حربياً ؛ وخرج صحبته (٢٥ آ) أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكن بالله سليمان ، والقضاة الأربعة .
- ١٨ ومن الأمراء المقدمين : الأمير طراز ، والأمير شيخوا العمري ، والأمير صرغتمش ، والأمير أسندمر العمري ، والأمير جردمر ، والأمير قراؤنا ، والأمير بتخاص الناصري ، والأمير طشتمر القاسمي ، والأمير قبا الساجدار ، والأمير سنقر الحمدي ، والأمير قطاؤنا الذهبي ، وآخرين من الأمراء المقدمين ؛ وخرج صحبته من الأمراء الطليخانات والعشرات نحو ثمانين أميراً .

(١١) الطليخانة : الطليخاناه .

(١٤) هؤلاء : هولاء .

(١٦) حربيا : حربى .

ثم إنَّ السلطان رسم للأمير قبلاى ، نائب السلطنة ، بأنَّ يقيم بمصر ، ويسكن بالقلعة ، إلى أنَّ يحضر السلطان من الشام ؛ وترك بمصر ثلاثة من الأمراء المقدمين ، بسبب حفظ المدينة .

ثم إنَّ السلطان نزل من القلعة يوم الثلاثاء سابع شهر شعبان من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة ، فنزل بالريدانية ، فأقام بها يوما وليلة ، ثم رحل من هناك وجدَّ في السير ، حتى دخل إلى دمشق ؛ فلما بلغ بيبنا أروس ، نائب حاب ، بجى السلطان ، هرب من وجهه ، وتوجَّه إلى حاب .

فلما دخل السلطان إلى دمشق ، كان له يوم مشهود ، وأوكل موكبا حَفَلا ، وركب قدَّامه الخليفة الإمام أحمد الحاكم بأمر الله ، والقضاة الأربعة ، وهم : قاضى القضاة الشافعى عزَّ الدين بن جماعة المقدسى ، وقاضى القضاة الحنفى جمال الدين عبد الله ابن التركمانى ، وقاضى القضاة المالكي عبد النصير السنجارى ، وقاضى القضاة الحنبلى تقيَّ الدين ابن قاضى القضاة عزَّ الدين عمر ؛ ودخل صحبته الأمراء قاطبة ، من كبير وصغير ، وسائر العسكر ، وكان يوما مشهودا .

فدخل إلى دمشق ثانى شهر رمضان ، ونزل بالقصر الأباقي ، الذى بميدان دمشق ، وصلى صلاة الجمعة فى جامع بنى أمية ؛ ثم إنَّ السلطان طلع إلى قلعة دمشق ، وأقام بها . ثم (٢٥ ب) إنَّ السلطان عيَّن جماعة من الأمراء والعسكر ، بأنَّ يتوجَّهوا خاف بيبنا أروس ، فخرجوا من دمشق على حمية ، وتوجَّهوا فى طلب بيبنا أروس ، فتلاقوا معه فى مكان يسمى تلَّ النار ، فتحاربوا معه هناك ، فانكسر بيبنا أروس ، وهرب إلى ملطية ، وتشتَّت من كان معه من العساكر .

ثم إنَّ عسكر السلطان صار يقبض على من كان مع بيبنا أروس من الفؤاب والأمراء ، الذين خامروا ، وخرجوا عن الطاعة ، فأسروهم ، ووضعوهم فى القيود ، وفى الزناجير ، ثم توجَّهوا بهم إلى دمشق ، فكان يوم دخولهم إلى دمشق يوما مشهودا ، لم يُسمع بمثله .

فلما عرضوا على السلطان ، أمر بتوسيطهم أجمعين ، فكان الذى توسط من
الأمراء والنواب ستة أنفس ، وهم : الطنبغا برناق ، نائب صفد ، والأمير طينغا
الأوجاق المعروف بحلاوة ، والأمير مهدي العلاى ، شاد الدواوين بحلب ، والأمير ٣
أسنبغا التركمانى ، والأمير الطنبغا ، شاد الشربخانة ، والأمير شادى أخو الأمير أحمد ،
نائب حماة ؛ ثم إن السلطان أراد أن توسط الأمير ملكشمر السعدى ، فشفع فيه بعض
الأمراء ، فحبس بقلعة دمشق . ٦

فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بهذه النصرة ، فى ثالث شوال ، دقت البشائر
بالقاعة ، وزينت القاهرة زينة حفلة ، وأقامت الزينة سبعة أيام متوالية .
ثم إن السلطان ، لما بان له أن يبينغا أروس هرب إلى نحو البيرة ، عين له جماعة ٩
من العسكر ، يتبعوه حيث توجه ؛ ثم إن السلطان أقام بدمشق أياما ، فعزل من عزل ،
وولى من ولى .

١٢ فلما انتهى أربه من دمشق ، قصد التوجه إلى نحو الديار المصرية ، فدخل القاهرة
فى أواخر شوال ؛ وفيه يقول ابن أبى حجلة :

الصالح الملك المعظم قدره تطوى له أرض الفلاة النازح

١٥ لا تعجبوا من طيها لمسيره فالأرض تطوى دائما للصالح

فلما دخل الملك الصالح إلى القاهرة ، زينت له ، وكان له موكب (٢٦ آ) حفل ،
وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالنواشى الذهب ، وفرشت تحت
١٨ حوافر فرسه الشقق الحرير ، من باب النصر إلى القاعة ، ونثرت على رأسه خفاف
الذهب والفضة ، ومشت قدامه الرؤوس النوب ، بالشاش والقماش ، ولاقاه الأوزان ،
والشبابة السلطانية ، والشاوشية ، واصطفت له المنانى ، من الرجال والنساء ، على
٢١ الدكاكين ، وكذلك العابول والزمرور .

فشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وعظم أمره بهذه

(١٠) يتبعوه : كذا فى الأصل .

(١٩) الرؤوس النوب : كذا فى الأصل .

النصرة، التي وقعت له على النّوَاب؛ فلما أنْ طلع إلى القلعة، أخلع على الأمراء المقدّمين، ونزلوا من القلعة إلى منازلهم .

ومن الحوادث، أنّ الأمير صرغتمش، رأس نوبة النّوب، وقع بينه وبين ٣
الصاحب علم الدين بن زنبور الدميري، فقبض عليه وقيده، ثم أعلم السلطان بذلك،
وقال له: « إن ابن زنبور قد ثقل أمره على الناس »، وعدّ له مساوى كثيرة وقعت
منه، وقد حاز من الأموال ما لا يحصى، ولا وقع لأحد من المباشرين ما وقع له . ٦
فشكره السلطان على ذلك، وأرسل أحضر ابن زنبور، فسجنه بالقلعة، واحتاط
على جميع موجوده، من سامت وناطق؛ فكان كما يقال في المعنى :

ومباشر السلطان شبه سفينة في البحر ترجف دائما من خوفه ٩
إن أدخات من مائه في جوفها أذخاها وماءها في جوفه
ثم إن السلطان، لما قبض على ابن زنبور، أخلع على القاضي موفق الدين هبة
الله بن سعد الدولة القبطي، وقرّره في الوزارة، عوضاً عن الصاحب علم الدين ١٢
ابن زنبور، بحكم القبض عليه .

قال الشيخ برهان الدين بن جماعة ابن عمّ قاضي القضاة عزّ الدين بن جماعة :
وقفتُ على قوائم بخطّ ابن الفويرة، المباشر، فيها ما ضبط من موجود ابن زنبور، ١٥
فكان من مضمون تلك القوائم : سناديق خشب ضمنها ذهب عين، جمالته ستمائة
ألف دينار، ووُجد عنده فضّة نقرة، فخرّ ذلك بالكيل المصري (٢٦ ب) فكان
ثلاثون أردباً مصرياً؛ ووُجد عنده سناديق ضمنها فصوص ملوّنة، ما بين ياقوت ١٨
أحمر وأصفر وأزرق، وبإخش وفيروز وماس وعين الحرّ، وحبّات لؤلؤ كبار،
فخرّ ما في تلك الصناديق من الفصوص، فكان نحو قنطارين؛ ووُجد عنده زكائب
فيها لؤلؤ حبّ صغير، فاعتبره بالكيل، فكان أردبين بالمصري . ٢١

ووُجد عنده أوان ذهب وفضّة، فخرّ ذلك، فكان زنته نحو ستين قنطاراً؛ ووُجد
عنده من القماش الملوّن، ما بين صوف وجوخ وحرير وبياضات، ألفين وستمائة قطعة،

- منها مفرى بسمور ووشق وسنجاب وقاقوم ، ألفين قطعة ؛ وجندات ملون بوجهين ،
نحو ستمائة قطعة ؛ ووُجد عنده خنينيّات جالوس ملوّنة ، خمسة آلاف قطعة ؛ ووُجد
عنده حوايص ذهب ، ستة آلاف حياصة ؛ وكلفقات زركش ، ستة آلاف كلفقة . ٣
- ووُجد له عند الناس ودائع كثيرة في أماكن شتى ، فلم ينحصر ذلك لكثرتة ؛
ووُجد له في حواصل أزر ، وشاشات ، العدة ثلثماية ألف شاش وإزار ؛ ووُجد له
في حواصل بسط روى ، ومقاعد جوخ ومغمل ، من سائر الألوان والأنواع ، خمسة
وثلاثون مقعدا ؛ ومن الأنطاع ما بين كبار وصغار ، ثلاثون ألف نطع . ٦
- ووُجد له عنده في حواصل : صحون وزبادى صينى ، ما بين لازورد وشفاف
أبيض ، وصينى أخضر ، نحو ثلاثين ألف قطعة ؛ ووُجد عنده في حواصل : أوانى
نحاس أصفر مكفّت ، ما بين أطباق ، وطسوت ، وأباريق ، وثريات ، وغير ذلك
أربعين ألف قطعة . ٩
- وكان ساكنة في بيت بعض الأمراء المقدمين الألف ، فوُجد في دوّاره من
الغزلان ، والكراكي والفرانق والنعام ، وحير الوحش ، والبطّ الصينى ، والخرفان
البشموريات ، أشياء كثيرة لا تنحصر لكثرتها . ١٢
- ووُجد عنده من الخيول والبغال والجمال ، نحو عشرين ألف رأس ؛ ووُجد له في
مخبأة تحت سلّم ، سبعمائة ألف دينار ؛ ووُجد عنده من الجوارى والعبيد ، سبعمائة
رأس ، ومن الماهليك الرّوم ، خمسون مملوكا ، ومن الخدّام الخصى مائة رأس . ١٥
- ووُجد له من (٢٧ آ) فالخر الأملاك والضياع والرّبوع والخوانيت والمسقّات ، ١٨
-
- (١) مفرى : يعنى بفراء . || بسمور : بسمور . || ألفين : كذا في الأصل . |||
وجندات : كذا في الأصل .
(٢) خنينيّات : كذا في الأصل .
(١٢) المقدمين الألف : كذا في الأصل .
(١٣) وحير : وحير .
(١٧) رأس : رأسا .

سبعة آلاف مكان ، فقوموا بثلمية ألف دينار ؛ ووُجد له من المعاصر خمسة وعشرين معصرة ، وبها من القنود السكر ما لا ينحصر ؛ ووُجد لأولاده من الإقطاعات الثقيلة ، سبعائة إقطاع .

٣

ووُجد له في حاصل بمصر العتيقة ، من السروج الذهب والفضة ، والكنابيش الزركش ، والبدرات الذهب ، وعدد الخيل ، فقوم ذلك بثلاثين ألف دينار ؛ ووُجد له في حواصل ، بضائع وأصناف من البهار ، فقوم ذلك بأربعمائة ألف دينار ؛ ووُجد له من المراكب ستمائة مركب .

ووُجد له من السواق في البلاد الشرقية والغربية ، وجهات الصعيد ، ألف وأربعمائة ساقية ؛ ووُجد له من البساتين والغيطان ، مائتا بستان ، في أماكن شتى ؛ ووُجد له من الأبقار الحلابة ، والأغنام السياق ، والجاموس ، ثلثمائة ألف رأس ؛ ووُجد له من الغلال ، ما بين قمح وشعير وفول ، ما لا ينحصر كياله .

ووُجد له مائتا سرية ، ما بين بيض وحبش ؛ وكان متزوجاً بأربع نسوة ؛ وقد ضاع له عند أصحابه وغلماؤه من الودائع ، ما بين مال وقماش ، ما لا ينحصر ، هذا كله خارجاً عما وُجد عند نسائه وجواريه من الخيل والنصوص واللؤلؤ ، ومن القماش الفاخر ما لا ينحصر ، وكذلك سُوار بناته فما انحصر ذلك لكثيرته ؛ وهذا الموجود الذي ظهر للعاصم بن الدين بن زنبور ما لا شمع بمثل ذلك عن موجود الخلفاء العباسية ، ولا الخلفاء الأموية ولا الوزراء البرامكة .

وقد نقلت هذه الواقعة من تاريخ العاصم بن إبراهيم بن دقاق المسمى : « بالنفحة »

(٢) وبها : وبهم .

(٣) إقطاع : إقطاعا .

(٧) مركب : مركبا .

(٩) مائتا بستان : مائتي بستانا .

(١٠) رأس : رأسا .

(١٢) مائتا : مائتي . || بأربع : بأربعة .

(١٤) عما : عما .

المسكية في الدولة التركية » ، على ما شرح هنا بالتام والكمال .

٣ فلما انتهى موجود ابن زنبور ، احتاط عليه السلطان جميعه ، وعجب من ذلك ؛
ثم إن السلطان أحضر العاصب علم الدين بن زنبور بين يديه ، وقال له : « كيف
كنت تشكو لي كل وقت ، وتقول : أنا باخصر في الوزارة كل سنة جملة مال ؟ فكيف
كنت تنحصر (٢٧ ب) وعندك هذه الأموال كلها ؟ »

٦ فبطحه على الأرض ، وضربه ضرباً مبرحاً ، ورسم بنفيه إلى قوص ، فنفي إلى
قوص ، وأقام بها مدة يسيرة ومات هناك ، ودفن بقوص ؛ وقيل رسم السلطان
بنفيه إلى بلد دميصة فأقام بها إلى أن مات ، ودفن بها .

٩ وكان قد جمع بين الوزارة ، ونظارة الخصاص ، والأستادارية ؛ وكان له بمصر حرمة
وافرة ، وكلمة نافذة ، في تلك الأيام ؛ وقد عجبوا الناس لابن زنبور ، كيف حوى
هذا المال الجزيل في هذه المدة اليسيرة ؛ ولكن قد زال عنه ماله وجاهه بسرعة ،
١٢ كأنه لم يكن ، وقد قيل : « المال كالماء ، من استكثر منه ، غرق فيه » .

وقد قال القائل في المعنى :

١٥ خذ القناعة من دنياك وارض بها واختر لنفسك منها راحة البدن
وانظر إن قد حوى مما سمعت به هل ناله غير بعض القطن والكفن
وقال الرخشري في المعنى :

١٨ وقائلة أرى الأيام تعطي لثام الناس من رزق حثيث
وتمنع من له شرف وفضل فقات لها خذى أصل الحديث
رأت حل المسكاسب من حرام فجادت بالخبيث على الخبيث

(٤) تشكو : تشكوا . || باخصر : كذا في الأصل ، ويعنى أنه يخسر . ويلاحظ استعمال

الباء في الفعل المضارع .

(٥) تنحصر : كذا في الأصل ، ويعنى تخسر .

(٧-٨) وقيل . . . ودفن بها : كتب المؤلف في الأصل هذه العبارة على هامش الصفحة

(١٤) وارض بها : وارضيها .

ومن غرائب الوقائع ، ما وقع للصاحب علم الدين بن زنبور هذا ، أن كان له بيت في الروضة ، بالقرب من المقياس ، وهو بيت السادة الوفاية الآن ، وهو البيت الذي أوقفه ابن زنبور من بعده على أولاد سيدي محمد وفا ، رحمة الله عليه ، فجلس ٣ يوما في الشباك المطّل على بحر النيل ، وكان النيل في قوّة الزيادة ، فوضع على الشباك قدحا من البلور المثمن المزّيك بالذهب .

٦ فلما وضعه على الشباك ، تناقل عنه ساعة فسقط في البحر ، فلما سقط طلب جماعة من الغطاسين ، فلما حضروا ، قالوا له : « في أي مكان سقط هذا القدر » ؟ فنزع ابن زنبور من أصمّه خاتما من الياقوت الأحمر ، وألقاه في البحر ، وقال : « سقط ها هنا » ؛ فغطس الغطاس في البحر ساعة ؛ ثم طلع بالقدر ، وانخام الياقوت في ٩ وسطه ، فكبروا الحاضرون من ذلك ؛ فتطير الصاحب علم الدين من هذه الواقعة ، وقال : « هذه الواقعة نهاية سعادتي » ؛ ثم تحوّل من يومه ، ونزل من الروضة .

١٢ فما عن قريب حتى وقع بينه وبين الأمير صرغتمش ، (٢٨ آ) رأس نوبة النوب ، وقبض عليه ، وجري له ما تقدّم ذكره ، وكانت هذه الواقعة نهاية سعادته ، فكان كما يقال :

١٥ إذا تمّ أمر دنا نفعه توقّ زوالا إذا قيل تمّ

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وسبعمائة

فيها ، كانت وفاة أمير المؤمنين الإمام أحمد الحاكم بأمر الله بن الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع ، سليمان فكانت مدّة خلافته بالديار المصرية أربعة عشر سنة وأشهر ، ومات ١٨ ولم يعهد لأحد من أقاربه بالخلافة من بعده .

فلما مات الإمام أحمد ، أحضر الملك الصالح القضاء الأربعة ، والأمراء ، وضربوا مشورة ، فيمن يلي الخلافة بعد الإمام أحمد ؛ وكان المتكلّم يومئذ في أمور المملوك ٢١ الأمير قبلاي ، نائب السلطنة .

فلما تكامل المجلس ، أحضروا بني العباس كلهم ، فوقع الاتفاق على ولاية الإمام

أَبِي بَكْرِ بْنِ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَكْنَى بِاللَّهِ سَلِيمَانَ ، أَخُو الْإِمَامِ أَحْمَدَ ؛ فَأَحْضَرُوا لَهُ التَّشْرِيفَ وَأَفَانَدُوهُ عَلَيْهِ ، وَقَرَّرَ فِي الْخِلَافَةِ عَوْضًا عَنْ أَخِيهِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ، فَنَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ فِي مَوْكَبٍ حَفَلٍ ، قَدَّامَهُ الْقَضَاةُ الْأَرْبَعَةُ وَأَعْيَانُ النَّاسِ ، فَوَصَلَ إِلَى دَارِهِ مَعَ السَّلَامَةِ .

وَهُوَ خَامِسُ خَلِيفَةِ تَوَلَّى الْخِلَافَةَ بِمَصْرَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَتَلَقَّبَ بِالْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ ، فَأَقَامَ فِي الْخِلَافَةِ مَدَّةً طَوِيلَةً ، حَتَّى مَاتَ ، كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ ، حَضَرَتْ إِلَى بَيْنِ يَدَيِ السُّلْطَانِ رَأْسُ بَيْبُغَا أُرُوسَ ، الَّذِي كَانَ نَائِبَ حَلَبَ ، وَأَظْهَرَ الْعَمِيَّانَ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ ، كَمَا تَقَدَّمَ ؛ وَحَضَرَتْ أَيْضًا رَأْسُ بَكْلَمُشَ ، نَائِبُ طَرَابَلُوسَ ؛ وَرَأْسُ الْأَمِيرِ أَحْمَدَ ، نَائِبُ حِمَاةَ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ أُنْتَهُمُ خَامِرُوا عَلَى السُّلْطَانِ ، فَلَمَّا خَرَجَ إِلَيْهِمُ السُّلْطَانُ ، هَرَبُوا مِنْ وَجْهِهِ ، فَتَوَجَّهُوا إِلَى بِلَادِ التَّرَاكِمَةِ .

فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ هُنَاكَ السُّلْطَانُ ، قَطَعُوا رُءُوسَهُمُ التَّرَاكِمَةَ ، وَأَخَذُوا مَا كَانَ (٢٨ ب) مَعَهُمْ مِنْ مَالٍ وَقَمَاشٍ وَبُرْكَ وَخِيُولَ ، ثُمَّ قَطَعُوا بَعْدَ ذَلِكَ رُءُوسَهُمْ ، وَأَرْسَلُوهَا إِلَى السُّلْطَانِ ، وَتَحَنَّنُوا عِنْدَهُ بِذَلِكَ ؛ فَلَمَّا مَثَلُوا بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ ، رَسَمَ بَأَنَّهُ يَعْاقِبُوا عَلَى بَابِ زَوِيلَةَ ، فَعَلَّقُوا عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ .

وَفِيهَا ، عَمِلَ الْأَمِيرُ طَازُ وَلِيَّةِ حَفْلَةٍ ، بِسَبَبِ دَارِهِ الَّتِي أَنْشَأَهَا عَلَى بَرْكَةِ الْفِيلِ ، فَلَمَّا كَمَلَتْ ، عَمِلَ هَذِهِ الْوَلِيَّةُ ، وَاسْتَدْعَى السُّلْطَانُ ، وَالْأُمَرَاءَ قَاطِبَةً ، فَنَزَلَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ وَحَضَرَ ، وَحَضَرَتْ الْأُمَرَاءُ ؛ فَمَدَّ الْأَمِيرُ طَازُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ ، وَالْأُمَرَاءِ ، مَدَّةَ حَفْلَةٍ ، قِيلَ أَصْرَفَ عَلَيْهَا فَوْقَ أَلْفِ دِينَارٍ ؛ وَقَدَّمَ لِلْسُّلْطَانِ تَقْدِيمَةَ حَفْلَةٍ ، مَا بَيْنَ مَالٍ وَخِيُولَ وَمَمَالِيكَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ ؛ فَأَقَامَ السُّلْطَانُ عِنْدَهُ إِلَى بَعْدِ الْعَصْرِ ، ثُمَّ رَكِبَ وَطَلَعَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا .

وَفِيهَا ، أَحْضَرَ مِنَ الطُّوَرِ نَصْرَانِي ، قِيلَ عَنْهُ أَنَّهُ أَعْلَنَ بِالْقَدْحِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ، فَلَمَّا قَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ بِمَا قَالَهُ ، حَكَمَ فِيهِ بَعْضُ الْقَضَاةِ الْمَالِكِيَّةِ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ، فَضُرِبَ عُنُقُهُ ؛ ثُمَّ إِنَّ الْعَوَامَ أَحْرَقُوا جَسَدَهُ بِالنَّارِ فِي وَسْطِ الشَّارِعِ ، وَمَضَى أَمْرُهُ .

(١٣) مَثَلُوا : كَذَبُوا فِي الْأَصْلِ ، وَيَقْصِدُ الرُّءُوسَ .

(٢٢) الْبَيْتَةُ : الْبَيْتَةُ .

- وفيها، وردت الأخبار من بلاد الصعيد، أن العربان قاطبة قد خرجوا عن الطاعة، وأظهروا العصيان، ونهبوا الغلال من الجرون؛ وكان شيخهم شخصاً يسمى عمر ابن الأحذب، شيخ قبيلة عرك؛ فاجتمع عليه عدة قبائل من العربان، الذين هناك، وتحالفوا على العصيان على السلطان قاطبة، والخروج عن الطاعة.
- فلما تحقق السلطان صحة هذه الأخبار، خرج إليهم بنفسه، وتوجه معه سائر الأمراء قاطبة؛ فكان جاليس العسكر، الأمير شيخوا العمري، أحد المقدمين، والأمير طاز الناصري، والأمير صرغتمش الناصري.
- فتقدموا هؤلاء الأمراء المقدمين أمام العسكر، فاتقوا هم والعربان، فكان بين الفريقين واقعة، لم يسمع بمثليها فيما تقدم من الزمان من الوقعات المشهورة؛ فقتل من العربان فيها فوق العشر آلاف (٢٩ آ) إنسان؛ وهرب شيخهم ابن الأحذب. فصار الأمير شيخوا يقطع رأس كل من رآه من الفلاحين يقول: «دكيك»؛ فلا زال يقطع من رؤوس العربان والفلاحين، الذين بضيايع الصعيد، حتى بنى من رؤوسهم عدة مصاطب ومآذن على شاطئ بحر النيل، كما فعل هولاءكو ببغداد.
- فلما جرى ذلك، رسم السلطان للأمير شيخوا بأن يمضى وراء شيخهم ابن الأحذب إلى آخر بلاد الزنج، فشئى هو، والأمراء، خلفه، مسيرة سبعة أيام، حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج، فلم يحصلوه، فرجعوا من هناك.
- ثم إن السلطان قصد العود إلى نحو الديار المصرية، وقد غنم عسكر السلطان من العربان أشياء كثيرة، من خيول، وجمال، وأغنام، وأبقار، وسيوف، ورماح، ودرق، وغير ذلك.

ثم إن السلطان دخل إلى الديار المصرية، وهو في غاية السرور بهذه الفصرة

(١٠٣ و ١٤) الأحذب : الأحذب .

(١٢ و ٣) الذين : الذي .

(١١) دكيك : كذا في الأصل .

(١٣) ومآذن : ومواذن . || هولاءكو : هلاكو .

التي وقعت له ؛ فشقّ من العاصمية في موكب حَفْل ، وطلع إلى القلعة ، وكان له يوم مشهود .

٣ ودخل وقدّامه الأسرى من العربان، وكانوا نحو ألف إنسان؛ فلما طلع إلى القاعة، رسم بأنّ يوسّطوا هؤلاء العربان جميعها ، وأبقى منهم أكابرهم ، ومشايخهم ؛ ثم إنَّ السلطان نادى في القاهرة ، بأنّ فلاّحاً لا يركب فرساً، ولا يشتري سلاحاً ، ولا سيفاً ، ولا رمحاً .

٦ ثم بعد أيام أرسل ابن الأحذب ، شيخ عربان قبيلة عرك ، الذي خرج السلطان بسببه ، وهرب من وجهه ، فأرسل يطلب الأمان من السلطان ، وأنّه يدوس بساط السلطان ويحضر ، ويقابل ، فأرسل له السلطان مندبل الأمان ، على يدى خاصكى .

٩ فلما وصل إليه ، حضر إلى الأبواب الشريفة ، وقابل السلطان ، فلما قابله ، أخلع عليه السلطان خامة سنّية ، وأقرّه على عادته ، شيخ قبيلة عرك .

١٢ ثم رسم له بالتوجه إلى بلاده ، فعاد إليها بعد أيام ، وخذت فتنة العرب ، بعدما

قد ذهبت فيها أرواح وأموال ، وتيّمت فيها أطفال ، وكانت حادثة صعبة مبهولة ، حتى إنّ السلطان خرج إليها بنفسه ، واتّقع مع العزبان ، وجرى ما تقدّم ذكره ؛

١٥ (٢٩ ب) وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

ما هادن السلطان أعداءه إلا لأمر فيه إذلالهم

حتى له تكثر أموالهم وللغبا تكبر أطفالهم

١٨ وفي هذه السنة ، نادى السلطان في القاهرة ، أنّ لا يهودى ، ولا نصرانى ،

يستعان بهم في ديوان ؛ وأنّ لا يركبوا مع مكارى مسلم ؛ وأنّ تكون عمامتهم أقلّ

من عشرة أذرع ؛ وإذا ما مروا بالمسلمين ، وهم راكبون ، ينزلون عن البهائم ؛

(٣) الأسرى : الأسراء .

(٤) هؤلاء : ذلك .

(٧) الأحذب : الأحدث .

(١٦) هادن : هاذن .

وأنهم لا يدخلون الحمام ، إلا وفي أعناقهم صلبان خشب ، قدر قرمة كبيرة ، وأُشْرطوا عليهم أشياء كثيرة من هذا النمط .

- ٣ وفي هذه السنة ، أخلع السلطان على الأمير أرغون الكاملى ، وقرّره في نيابة حلب ، عوضاً عن بيبغا أروس ، الذى قتل ؛ فلما خرج الأمير أرغون الكاملى إلى حلب ، ودخل إليها ، وردت عليه الأخبار أن قراجا بك بن ذو الفادر ، أمير التركان ، قد عصى ، وخرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان على نائب حلب .
- ٦ فلما تحقّق نائب حلب ذلك ، جمع عساكر حلب ، وخرج إليه ، واتّفق معه ، فانكسر قراجا بك ، وهرب منه إلى أطراف بلاد الروم ؛ فلا زال نائب حلب يتبعه ، حتى قبض عليه ، وقيّده ، وأرسله إلى السلطان ، فلما مثل بين يديه ، وبّخه بالكلام ؛
- ٩ ثم أمر بتسميره ، فسَمّر وطافوا به القاهرة ، وهو مسمّر على جمل ؛ ثم أتوا به إلى الرملة ، فوسّطوه عند سوق الخيل ، وكان ذنبه أنّه التّفّ على بيبغا أروس ، نائب حلب ، لما خامر على السلطان ، وأظهر العصيان ، وصار ينهب ضياع حلب ، وفتك
- ١٢ فتكا ذريعا .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وسبعمائة

- ١٥ فيها وقع من الحوادث : أن في ثانى شوال ، وثب جماعة من الأمراء المقدّمين على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا إلى الرملة ؛ وكان الأمير طاز قد توجه إلى البحيرة ، بسبب فساد العربان ، فاغتنموا الأمراء هذه الفرصة ، ووثبوا على السلطان ؛ وكان رأس هذه الفتنة الأمير شيخوا العمري ، وجماعة من الأمراء .
- ١٨ فلما طلعوا إلى الرملة ، هجموا على باب السلسلة ، وملكوه ، ثم طلعوا إلى (٣٠ آ) الحوش ، ثم إنهم هجموا على الملك الصالح ، وهو بالدهيشة ، وقبضوا عليه ، وسجنوه بدور الحرم ، ووكّأوا به جماعة من الخدّام ، وخلعوه من السلطنة في يومه ، وزال مُلْكُه ، كأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول مُلْكُه ولا يتغيّر .
- ٢١

فكانت مدّة سلطنته بالديار المصرية ، ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر

- ٢٤ يوماً ؛ وكان ملكاً جليلاً ، كفواً للسلطنة ، وكانت أيامه كلها عدل بين الرعيّة ، وكان

قابل الأذى ، كثير الخير ، دينا خيرا ، وافر الحرمة ، نافذ السكامة ، مسعود الحركات
في أفعاله ، ساس الناس في أيامه أحسن سياسة ؛ وكان خيار أولاد الملك الناصر محمد
ابن قلاون ؛ وهو الذي أكمل عمارة الدهيشة ، بعد والده الناصر محمد بن قلاون .

فما خلع الملك الصالح من السلطنة ، اجتمعت الأمراء بالقاعة ، وضربوا مشورة
فيمن إلى السلطنة ؛ ثم وقع الاتفاق بينهم على عود الملك الناصر حسن ، أخو الملك
الصالح ، فأخرجوه من دور الحرم ، وأعادوه إلى السلطنة .

انتهى ما أوردناه من أخبار الملك الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاون ، وذلك
على سبيل الاختصار .

ذكر

عود الملك الناصر حسن

ابن الملك الناصر محمد بن قلاون

وهي السلطنة الثانية ، ببيع بها بعد خلع أخيه الملك الصالح ، فلما أخرجوا بالسلطان
حسن من دور الحرم ، أحضروا أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو بكر ، والقضاة الأربعة ،
وأعادوه إلى السلطنة .

وباعه الخليفة ، ولبس شعار الملك من باب الستارة ، ومشى بين يديه الأمراء ،
وهم بالشاش والقماش ، حتى دخل إلى القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ،
وباس له الأرض سائر الأمراء ؛ ونودي باسمه في القاهرة ، وارتفعت له الأصوات
بالدعاء من الناس ، واستمر على لقبه بالناصر ، ودُقت له البشار بالقاعة .

وكانت ولايته بالسلطنة ، يوم الاثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبع مائة ،
وهذه السلطنة الثانية ، وقد هنأه الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري ، بعوده إلى
السلطنة ، بهذين البيتين ، وهو قوله :

عُدْ على النصر والسعادة يا مَنْ رفع الله في السلاطين شأنه
أنت سبهم لله ما كان يخلى منه أوطان مصر وهي كنفانه

ومن غرائب الاتفاق ، أن لما عاد الناصر حسن (٣٠ ب) إلى السلطنة ، وردت الأخبار من مكة ، بأن كوكبا قدر القمر ، ظهر بعد العشاء على جبل أبي قبيس ، وسمع هانف يقول : « هذا يدل على أن رجلا يكون في شدة فيخرج الله تعالى عنه » ، فكان ذلك الرجل هو السلطان حسن ، والله أعلم .

قل الشيخ مهاب الدين بن أبي حجلة عن الملك الناصر حسن ، لما عاد إلى السلطنة ، فقال : « غاب كالبدر في سحابة » ، وعاد إلى السلطنة كالسيف المسلول من قرابه » .

فلما تم أمره في السلطنة ، عمل الموكب ، وأخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير شيخوا العمري ، فأخلع عليه وقرره أمير كبير ، وصارت وظيفة من يومئذ ، فهو أول من سمي بأمير كبير ، وصارت أكبر من نيابة السلطنة ، ولم يتفق هذا سوى في دولة الناصر حسن ، فأخذ قدر نيابة السلطنة من يومئذ عما كانت .

وأخلع على الأمير عز الدين أزدمر العمري ، وقرره أمير سلاح ، وكان أزدمر خنداش شيخوا من تاجر واحد ، وكان أزدمر هذا يعرف بأبي دقن ، أقول : وأزدمر هذا ، هو جد والد مؤلف هذا التاريخ .

وأخلع على الأمير صرغتمش الناصري ، وقرره رأس نوبة الأمراء ، فصار شيخوا ، وصرغتمش ، في دولة الناصر حسن ، صاحبي الحل والعقد في أمور المملكة ، وعظم أمر شيخوا في تلك الأيام جدا .

وقد تقدم القول على أن الأمير طاز ، الدوادار الكبير ، كان مسافرا في البحيرة ، وجرت هذه الأمور في غيبته ؛ فلما أن حضر من البحيرة ، وطلع إلى القلعة ، قيده الأمير صرغتمش ، وسجنه في البرج بالقامة ؛ فأقام في البرج أياما ، هو وأخوه ، ثم إن بعض الأمراء شفع فيهما ، فأخرجهما السلطان من البرج ؛ ثم أخلع على الأمير

(٣) هانف : مانفا .

(١١) عما : عانا .

(١٣) أقول : ابن لباس يعني نفسه .

طراز ، وقرّره في نيابة حلب ، ورسم له بأن يخرج إليها من يومه ، فخرج من غير طلب ولا برك ، وسافر على جرائد الخيل ، فخرج هو وأخوه ، وتوجّها (٣١ آ) إلى حلب . ٣

وفي شهر صفر ، من سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، كانت وفاة الإمام العالم العلامة ، شيخ الإسلام قطب الدين أبو بكر ابن شيخ الإسلام قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد ، رحمة الله عليهما ، وكنا من أعيان علماء الشافعية . ٦

وفيها ، في ربيع الآخر ، توفّي صاحب موقّ الدين هبة الله بن سعد الدولة ؛ فلما توفّي أخلع السلطان على صاحب تاج الدين بن ريشة وقرّره في الوزارة ، عوضاً عن صاحب موقّ الدين . ٩

وفي هذه السنة ، ابتدأ الأمير صرغتمش ، رأس نوبة النوب ، ببناء مدرسته ، التي أنشأها بجوار جامع أحمد بن طولون ، وانتهى العمل منها في سنة سبع وخمسين وسبعمائة ، وقد تنهى في زخرفها ، ورخامها ، وسقوفها ؛ وفيها يقول الشيخ شمس الدين ابن الصايغ الحنفي ، وأجاد بقوله :

١٢
ليهنيك يا صرغتمش ما بنيت
لقد فزت في دنياك من حُسن بنيان
١٥
بها يزدهى الترقيم كالزهر بهجة
فلله من زهر ولله من بان

وفي هذه السنة ، أعني عن سنة خمس وخمسين وسبعمائة ، فيها فاض النيل في الزيادة ، حتى بلغ عشرين أمباً من إحدى وعشرين ذراعاً ، حتى غرق كوم الريش بجميع أراضيه ، وغرق أطراف أماكن الحسينة ، وغرقت شبرا ، والمنية ، وهي منية السرج ، وغرقت بساتين المطرية جميعها ، وبساتين جزيرة الفيل ، وانتقطعت الطرقات من سائر جهات الشواطئ ، وغرقت أراضي الروضة جميعها ، وغير ذلك من الأراضي . ١٨
ثم دخلت سنة ست وخمسين وسبعمائة ٢١

فيها ، في جمادى الأولى ، توفّي قاضي القضاة المالكي عبد النصير السنجاري ؛ فلما توفّي أخلع السلطان على الشيخ تقي الدين محمد بن أحمد بن عباس ، وقرّره في قضاء المالكية ، عوضاً عن عبد النصير السنجاري ، بحكم وفاته . ٢٤

وفيها ، في رابع جمادى الآخرة ، فيه توفى الإمام العالم العلامة تقي الدين السبكي أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام الأنصارى ، وُلِدَ بسبك الثالث ، في صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وتوفى بجزيرة (٣١ ب) النيل ، على شاطئ بحر النيل ، يوم الاثنين رابع جمادى الآخرة من هذه السنة .

وقيل بلغت عدة مصنفاته نحو ستين تأليفا ، في علوم جائلة ، يحق لها أن تُكتب بماء الذهب ، لا بالخبر المداد ، لما فيها من النفائس البديعية ، والدرر النفيسية ؛ وكان شافعي المذهب ، رحمة الله عليه .

وكان تولى قضاء الشافعية بدمشق في مبتدأ أمره ، وكان عنده شدة بأس زائدة ، حتى هجاه إبراهيم الممار ، وكان بينه وبينه وحشة ، فقال فيه هذه المداعبة ، وهو قوله :

مصر للسبكي قالت سِرُّ فلا عدت إلَيَّا
عدتُ بالرحمن منك إن كنت تقيًّا

قال الشيخ جمال الدين بن نباتة : لما كنت بدمشق ، بلغني وفاة الشيخ تقي الدين السبكي ، فرثيته وأنا بدمشق بهذه المراثية ، وأرسلتها إلى ولده من دمشق إلى الديار المصرية ، وهذه هي القصيدة :

١٥	نأية الأرض والأفلاك والشهب	نماه للفضل والعلياء والنسب
	فأى حزن وقاب فيه لم يجب	ندب شرعنا وجوب الغدب حين مضى
	إذ كان عونا على الأيام والنوب	قد أقبات نوب الأيام ثائرة
١٨	طال فيها شجو مرتقب	ففجعتنا بد التفريق مسفرة عن سفرة
	لكن به السمع منصوب على النصب	وجاء من مصر عنه مبتدا خبر
	ما السيف أصدق أنباء من الكتب	وكأمتنا سيوف الكتب قائلة
٢١	الله أكبر كل الحسن في العرب	وقال موت فتى الأنصار مغتبطا
	حدادها أسطار الأشعار والخطاب	لهفى وقد لبست حزنا لفرقة

- كان أيدي الوري تبت أسي فندت من عي أقلامها حَمالة الخطب
 آهًا لمرّحَل عَنَّا وأنعمه مثل الحَقائب والطلاب والحقب
 يا ثاويًا والثنا والحمد ينشره بقيت أنت وأفتتنا يَدُ الكُرب
 نَم في مقام نعيم غير منقطع ونحن في نار حزن غير ماتب
 (٣٢) ما أعجب الحال إلى قاب بمصر وفي دمشق جسم ودمع العين في حاب
 من لي بمصر التي ضَممتك تجمعهنا ولو بطون الثرى فيها فيا طرب
 بالرغم منارثاء بسد مدحك لا تُسلي ونحن مع الأيام في لب
 ما بين أكبادنا والهَم فاصلة كَلَّا ولا لصنيع الشَّعر من سبب
 أما القريض فلو لا نَساكُم كسدت أسراقه وغدت مقطوعة الجاب
 قاضي القضاء عزاء من إمام تقى بالفضل أوصى وصاة الرء بالعقب
 ما غاب عَنَّا سوى شخص لو الدكم وعلمه والتقى والجود لم ينب
 فَخَفَّ الحزن إنَّا لآحقون بمن مضى فامضى سناء الحادث الدرب
 إن لم يسر نحونا سِرنا إليه على أيامنا والليالي الدُّهم والشهب
 إنّا من الترب أشباح مخلّقة أياهم عجب مآل الترب للترب
 انتهى ذلك .

- وفيها ، في جبادي الآخرة ، توفي الشيخ محي الدين محمد بن جعفر الإسفوى ،
 وكان إماماً عالماً فاضلاً ، من أعيان علماء الشافعية .
 ١٨ وتوفي الشيخ شهاب الدين أحمد ، النحوى ، المعروف بالسمين . - وتوفي الشيخ
 جمال الدين بن هشام ، النحوى أيضاً .
 وتوفي الشيخ العلامة شهاب الدين أحمد بن الفرات ، الموقع ، وكان له خط ،
 ٢١ وعبارة جيّدة .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وسبع مائة

- فيها ، ابتدأ الأتابكي شيخوا العمري ، بعارة جامع ، والخانقاة ، التي بالصليبية ؛
 ٢٤ وأنشأ بالصليبية أيضاً تلك الحمامين ، والربوع والحوانيت ، وأوقفهم على الجامع ،
 (٢٤) تلك ، يلاحظ غامية الأسلوب في هذه العبارة .

والخاتمة ؛ وقرّر بالخاتمة صوفة ، يحضرون من بعد العصر ، وجعل الشيخ أكمل الدين محمد الحنفى ، شيخ الحضور بالخاتمة ، وجعل له نصف النظار على أوقاف (٣٢ ب) الخاتمة .

٣

ورتب للصوفة الذين يحضرون بالخاتمة ، فى كل يوم الخبز ، والطعام ، فى كل يوم لون يطبخ من الطعام ، والجوامك فى كل شهر ، ورتب فى كل ليلة جمعة [للصوفة] حلاوى عجمية ، تفرق عليهم ، حتى رتب للصوفة الصابون والزيت ، فى كل شهر ، ورتب لهم الحلوى فى شهر رمضان ، تفرق عليهم ليلة النصف من شهر رمضان ، حتى أشرط فى كتاب وقفه أن الصوفة يدخلوا الحمام كل يوم بنير أجرة ، وأشرط فى كتاب وقفه أشياء كثيرة ، من أنواع البرّ والصدقات ، وفعل الخير ، كما فعل الملك المنصور قلاوون فى البمارستان .

٦

وأوقف شيخوا على هذه الخاتمة ، والجامع ، عدّة زيماع فى الشرقية ، والغربية ، وغير ذلك ، خارجا عن المسقفات ، والخوانيت ؛ وجعل فى الخاتمة دروساً للعلماء ، من المذاهب الأربعة ، وقراءة سبع فى كل يوم ، بالنهار والليل دائماً ، وأشرط أشياء كثيرة من هذا النمط ؛ وجعل النظار على وقفه لمن يكون رأس نوبة النوب ، مع مشاركة من يكون أكبر علماء الحنفية ، شيخ خانقته ؛ وكان شيخوا من أجلّ الأمراء قدرا ، وأكثرهم حُبّاً لفعل الخير والمعروف والبرّ ، وحبّ العلماء والصالحين ، وفيه يقول الشهاب ابن أبى حجلة :

١٥

ومدرسة للعلم فيها مواطن
فشيخوا بها فرد وآثاره جُمع
لئن بات فيها للقلوب مهابة
فواقفها ليث وأشياخها سبع

١٨

ومن الحوادث فى هذه السنة ، ما نقله ابن أبى حجلة فى كتابه « السكر دان » :
« أن ربما كان عند جامع قوصون ، وقع على من كان ساكناً به ، فقتل تحت الردم نحو

٢١

(٤) الذين يحضرون : الذى يحضروا .

(٥) [للصوفة] : تنقص فى الأصل .

(٨) يدخلوا : كذا فى الأصل .

ثلاثين إنسانا ، من رجال ونساء وصغار ، فلما كشف عنهم الردم ، وُجد منهم سبعة أقس فيهم الروح ، فأخرجوهم من تحت الردم وهم سالمين ، فأقاموا أياما حتى تعافوا مما قاسوه . ٣

ثم إنهم بعد ذلك سافروا ، السبعة أنفس ، في مركب نحو بلاد الصعيد ، فنارت عليهم أرياح عاصفة وهم في البحر ، ففرقت بهم المركب ، فماتوا السبعة أنفس ، الذين سالموا من الردم ، أجمعين ، في ساعة (٣٣ آ) واحدة ، ولم يسلم منهم أحد ، فبجحان القادر على كل شيء » . ٦

وفي أواخر هذه السنة ، توفي القاضي علاء الدين بن الأطروش ، ناظر الحسبة الشريفة ، وهو الذي هجاه العمار بقوله : ٩

إن ابن الأطروش له حسبة باع بها الجنة بالنار
تفصرت بفاته تحته فأصبحت تمشي بزوار

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وسبع مائة ١٢

فيها في ربيع الأول ، ابتدأ الملك الناصر حسن بعمارة مدرسته ، التي تجاه القاعة ، عند سوق الخيل ، وكان مكانها بيت يلعبا اليحياوى ، نائب الشام ، فهدم السلطان حسن ذلك البيت ، وبني مكانه هذه المدرسة ، التي لم يعمر في سائر الأقاليم مثلاً ؛ قيل إن إيوانها الكبير بنى على قدر إيوان كسرى أنوشروان ، الذي بالمدائن ، وقد حرروا طوله وعرضه ، وبنوا هذا الإيوان على قدره . ١٥

وهذه المدرسة تشتمل على أربع مدارس ، لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به ، يشغل فيها العلم ؛ قال قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر ، في تاريخه : « إن السلطان حسن أراد أن يبني مدرسة خامسة للفرضية ، فقال له الشيخ بهاء الدين السبكي : الفرائض باب من أبواب الفقه ، فأعرض عن بناء المدرسة الخامسة ، فاتفق وقوع ٢١

مسألة في الفرائض فأشركت على الشيخ بهاء الدين السبكي ، فأرسل يسأل عنها الشيخ شمس الدين الكلاوى ، فأرسل الشيخ شمس الدين الكلاوى يقول له : أنت قلت إن

الفرائض باب من أبواب الفقه ، فما لك لا تجيب عن ذلك ؟ فقدم الشيخ بهاء الدين السبكي على ما قاله للسلطان حتى ثنى عزمه عن بناء المدرسة الخامسة التي برسم الفرضية » .

٣

ويقال انتهى العمل من بناء هذه المدرسة في ثلاث سنين ونصف ، وقيل كان مصروفها في كل يوم ألف مثقال من الذهب المهرجة ، وقيل إن طول إيوانها الكبير خمسة وستون ذراعاً ، وعرضه مثل ذلك ، وقيل إنه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع .

٦

وكان عزم السلطان حسن أن يبني بهذه المدرسة أربع مآذن ، فبنى بها (٣٣ ب) ثلاث مآذن ، فكانت الثالثة فوق سوق القبو ؛ ونقل بعض المؤرخين : أن لما حفرُوا أساس هذه المدرسة ، وجدوا في الرمل مرساة مركب ، وهذا يدل على أن البحر كان يجري هناك قديماً .

٩

ويقال إن السلطان حسن وجد في بعض أساس هذه المدرسة ، لا حفره ، كنزاً فيه ذهب يوسفي ، وهو الذي أعانه على بناء هذه المدرسة ، فبنيت من وجه حلّ ليس من مال فيه شبهة .

١٢

ونقل الصلاح الصفدي ، في تاريخه ، أن السلطان حسن ، لما أكمل عمارة هذه المدرسة ، نزل من القاعة ، وصلى بها صلاة الجمعة ، واجتمع بها قضاة الأربعة ، وسائر الأمراء المقدمين ، وهم بالشاش والقماش ، ومائت الفسقية ، التي بعض من المدرسة ، سكرّاً بماء ليمون ، ووقف عليها جماعته من السقا ، يفرقون السكر على الناس بالطاسات .

١٨

وأخلع السلطان في ذلك اليوم على المشدّين ، والمهندسين ، والمعلمين ، من البنّائين ،

(١) باب : بابا .

(٤) ثلاث : ثلاثة .

(٨) مآذن ، فبنى : مواذن فبنا .

(٩) ثلاث مآذن : ثلاثة مواذن .

والرَّحْمَيْنِ ، وَالْبِجَّارَيْنِ ، وَالسَّبَّاحِينَ ، وَالْحَدَّادِينَ ، وَالْمِبْلَّطِينَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَرْبَابِ الصَّنَائِعِ ، لِكُلِّ وَاحِدٍ خَلْعَةٌ ؛ حَتَّى أُخْلِعَ [عَلَى] الْفَعْلَةِ ، وَالتَّرَابَةِ ، فَكَانَ جَمْلَةُ مَا أَخْلَعَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، نَحْوَ خَمْسَمِائَةِ خَلْعَةٍ ؛ وَأَنْعَمَ عَلَى كَبِيرِ الْمُهَنْدِسِينَ بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَخَلْعَةٍ سَنِيَّةٍ .

ثُمَّ قَرَّرَ بِهَذِهِ الْمَدْرَسَةِ صُوفَةً ، يَحْضُرُونَ مِنْ بَعْدِ الْعَصْرِ ؛ وَجَعَلَ الشَّيْخَ بِهَاءِ الدِّينِ السَّبْكِ ، شَيْخَ الْحُضُورِ بِهَذِهِ الْمَدْرَسَةِ ؛ وَمَنْ أَرَادَ يَعْزِمُ غُلُوًّا قَدْرَ السَّاطِئَانِ حَسَنًا ، فَلْيَنْظُرْ غُلُوَّ هَيْبَتِهِ فِي بِنَاءِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ ، الَّتِي لَمْ يُبْنَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِثْلَهَا أَبَدًا ، وَقَدْ فَاقَ أَبَاهُ وَجَدَهُ ؛ فِي الْحَرَمَةِ وَالْكَلِمَةِ وَالنَّظَامِ الْعَظِيمِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ أَبِي حِجْلَةَ :

لَسْنَا وَإِنْ كَرَّمْتَ أَوَائِلَنَا يَوْمًا عَلَى الْأَنْسَابِ نَتَكَلَّمُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلَنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ فَوْقَ مَا فَعَلُوا

(٣٤ آ) وَقَوْلُهُ مِنْ أَيْيَاتِ :

قَدْ أَنْبَتَ التَّرْخِيمَ فِي مَحْرَابِهَا زَهْرًا كَدُرَّ قَلَائِدَ الْعَقِيَانِ

فَسَكَانَتُهُ كَسَرَى أَنْوَسِرَوَانَ قَدْ وَضَعُوا عَلَيْهِ التَّاجَ فِي الْإِيوَانِ

لَوْ لَمْ تَبْتَ وَأَبُو حَنِيفَةَ شَيْخَهَا مَا شُبِّهَتْ بِشَقَائِقِ النِّعْمَانِ

وَقَالَ فِيهِ ابْنُ نَبَاتَةَ :

إِمَامُ الْوَرَى هُنَّيْتُ بِالْجَامِعِ الَّذِي وَجَدْتُ إِلَى مَبْنَاهُ سَعْدًا مُوَافِقًا

دَعَا حَسَنَهُ أَهْلَ الصَّلَاةِ لِقَعْدِهِ فَلَا غُرُ أَنْ جَاءَ الْمُصَلَّى سَابِقًا

انْتَهَى ذَلِكَ .

وَمِنْ الْحَوَادِثِ ، أَنَّ فِي رَجَبٍ ، هَبَّتْ رِيَّاحٌ عَاصِفَةٌ مِنْ جِهَةِ الْغَرْبِ حَتَّى أَظْلَمَ الْجَوُّ

(١) وَالْمَدَّادِينَ : وَالْمَدَّادِينَ .

(٢) [عَلَى] : تَقَسُّمٌ فِي الْأَصْلِ .

(٦) أَرَادَ يَعْزِمُ : كَذَا فِي الْأَصْلِ .

(٨) أَبَاهُ : أَبُوهُ .

- ظلمة شديدة ؛ ومن قوة ما ثار من الرياح ، قُلِعَتْ عدّة أشجار من الشيطان ، وتساقطت
أماكن كثيرة ، من داخل القاهرة ، واستمرّ ذلك الرياح نائرة ، من إشراق الشمس ،
إلى نصف الليل ، حتى ظنّ الناس أنّ القيامة قد قامت ، وصار يودّع بعضهم بعضاً ؛
ثم بعد ذلك أمطرت السماء مطراً غزيراً ، وسكن الريح ، وأسفر النهار .
- وفي هذا الشهر ، وردت الأخبار من بغداد ، بوفاة القان حسن ، صاحب بغداد ؛
واستقرّ ابنه أويس على مملكة بغداد من بعده ، عوضاً عن أبيه القان حسن .
- ومن الحوادث المبهولة ، ما وقع في هذه السنة ، من قتل الأتابكي شيخوا العمري ،
أمير كبير ، وكان سبب ذلك ، أنّ شخصاً من المالك السلطانية ، يقال له : قطلو قجاء ،
السلحدار ، غافل الأتابكي شيخوا ، وهو واقف في الخدمة بالإيوان ، في يوم الموكب ،
وضربه بالسيف في وجهه ثلاث ضربات ، فوقع إلى الأرض مغشياً عليه ؛ فلما جرى
ذلك ، قام السلطان من مجلسه ، وهو مرعوب مما جرى .
- فلما بلغ الأمير خليل بن قوصون ، صهر (٣٤ ب) الأتابكي شيخوا ، ومماليكه ،
طلعوا إلى القامة ، وحملوا شيخوا على جنويّة خشب ، ونزلوا به إلى بيته ، الذي عند
حدرة البقر ، فوجدوا فيه الروح ، وبعض نفس ، فأتوه بمزّين ، قَطَبَ له تلك الجراحات
التي في وجهه ، وكان ذلك يوم الاثنين حادي عشرين شعبان ، من تلك السنة .
- فلما بات شيخوا تلك الليلة ، وأصبح ، نزل إليه السلطان ، وسلّم عليه ، فنزل
عن فرسه ، ودخل إلى شيخوا ، فلما رآه ، جالس عند رأسه ، وشرع يحلف له : أنّ
الذي جرى لم يكن بعلمه ، ولا له خبر بما وقع من هذا المملوك ، قطلو قجاء ، السلحدار .
- ثم رسم السلطان بإحضار قطلو قجاء بين يديه ، فلما حضر قال له السلطان :
« من قال لك اقتل أمير كبير » ؟ فقال قطلو قجاء : « والله ما أحد قال لي اقتله ، وإنما
أنا كان في نفسي منه شيء ، بسبب إقطاع كان لشخص من خشداشيني توفي ،
فكُتِبَتْ قِصَّةٌ ووقفتُ للسلطان ، فلم يساعدنِي ، وأخرج الإقطاع لشخص من جماعته ،
فعرّ ذلك عليّ فقتلته في حظّ نفس من شدّة قهرى منه » .

فلما سمع السلطان ذلك، رسم بتسمير قطلو قجاء، وأن يطوفوا به القاهرة، فسمّروه وطافوا به في القاهرة، وهو مسمر على جبل؛ ثم وسّطوه في الرملة على باب الأمير شيخوا، بحضرة ممالك الأمير شيخوا، وكان عند شيخوا سبعة مملوك . ٣

واستمرّ الأمير شيخوا ملازم الفراش، وهو غليل، حتى توفى إلى رحمة الله تعالى، وكانت وفاته يوم الجمعة سادس عشرين ذى القعدة الحرام، سنة ثمان وخمسين وسبعائة، وكان مدة انقطاعه في هذا العارض، ثلاثة أشهر وأيام . ٦

فلما مات، نزل السلطان وصلى عليه، وكانت جنازته مشهودة، ودفن في خانقته، التي أنشأها في الصليبية داخل القبة التي بها؛ فلما صاؤا عليه في سبيل المؤمنين، رجعوا به من الصليبية، والسلطان (٣٥ آ) ماش قدّام نعشه، حتى طاعوا به إلى الخانقاة، وشاهد دفنه . ٩

وكان الأتابكي شيخوا أميرا ديناً خيراً، كثير البرّ والصدقات، وله إيثار ومعروف، ولا سيما ما فعله في خانقته، والجامع الذي بالصليبية، كما تقدّم ذكر ذلك؛ فلما مات شيخوا كثر عليه الأسف والحزن، من الناس . ١٢

وانفق يوم موته وقعت في القاهرة زلزلة خفيفة، وأمطرت السماء في ذلك اليوم مطراً غزيراً، ولم يكن أوان المطر، فعجب الناس من ذلك الاتفاق، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

بروحى من أبكى السماء لفقده بفيث ظفّناه نوال يمينه
وما استعبرت إلا أسي وتأسفاً وإلا فما ذا القطر في غير حينه ١٨

وقال الصلاح الصفدى :

لما أفلت عن المنازل أظلمت تلك الديار وغاب عنها المشفق
وتقول مصر لفقد شيخوا شَفَّنى أرق على أرق ومثلى يأرق ٢١

انتهى ذلك .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وسبعماية

- فيها، قرّر في الأتابكية الأمير صرغتمش، عوضاً عن شيخوا العمرى، وصار
 ٣ صاحب الحلّ والعقد بالديار المصرية؛ ثم تصرف في أحوال المملكة، فأرسل بالقبض
 على الأمير طاز، نائب حلب، من غير علم السلطان؛ فلما قبض عليه، ووصل إلى
 الصالحية، أرسل قيده من هناك، وأرسله إلى السجن بغير الإسكندرية .
- ٦ وسبب ذلك، أنّه كان بينه وبين الأمير طاز، حظّ نفس من أيام الملك الصالح،
 وكان الأتابكي شيخوا من عصابة الأمير طاز، فلما مات شيخوا قضى أربه من الأمير
 طاز، وسجنه بغير الإسكندرية .
- ٩ ثم أخلع على الأمير منجك اليوسفي وقرّره في نيابة حلب، عوضاً عن الأمير طاز .
 ثم أشار على السلطان بضرب فلوس جدد، كل فلس بدرهم، وشيء بدرهمين،
 فحصل بذلك للناس الضرر الشامل، (٣٥ ب) ولا سيّما السوق والمتسبّين، وصاروا
 يتعاملون بتلك الفلوس على كره منهم، وفي ذلك يقول القائل :
- ١٢
 أميرنا أكرم من حاتم لا يمنع السائل من فلسه
 تُقضى به حاجة من راحه نخذه طوعاً واخشاً من بأسه
- ١٥ ومن الحوادث في هذه السنة، كثرة الأوقاف الأحباسية، على الديورة والكنائس،
 حتى بلغ قدر ذلك في ديوان الأحباس، من الرزق خمسة وعشرين ألف فدان، بيد النصارى؛
 فلما بلغ ذلك إلى الأمير صرغتمش، طلع إلى القامة، وتكلّم مع السلطان في أمر ذلك،
 فرسم له السلطان بأن يكشف عن ذلك، ويراجعه؛ فلما نزل الأمير صرغتمش
 ١٨ من عنده، كشف من ديوان الأحباس عن ذلك، فظهر الكشف بصحّة ذلك .
- فطلع إلى السلطان، وعرض عليه ذلك الكشف، فرسم له بإخراج تلك الرزق
 جميعها، وفرّقها على الأمراء بمرهات، زيادة على إقطاعاتهم، وأبطل الأوقاف، التي
 ٢١ كانت على الديورة والكنائس، بيد النصارى .

- ثم إن السلطان رسم للأمير صرغتمش بأن يهدم الديورة والكنائس الكبار ،
 وكان يومئذ بشبرا القاهرة ، كنيسة كبيرة ، على شاطئ النيل ، وكان بتلك الكنيسة
 ٣ صندوق من الخشب ، مقفول بقفل من الحديد ، وفيه عُقْدَةٌ من أصبعٍ ، ممن هلك من
 عباد بني إسرائيل ، يسمونه الشهيد ، وكان للنصارى فيه اعتقاد عظيم .
 وكان هذا الصندوق مقيا دائما بهذه الكنيسة ، يتوارثونه رهبان النصارى ،
 ٦ واحدا بعد واحد ، من تقادم السنين ، فإذا كان يوم الثامن من بشنس من الشهور
 القبطية ، تجتمع الرهبان في تلك الكنيسة ، ويُخْرِجُوا ذلك الأصبع من الصندوق
 الخشب ، (٣٦ آ) ثم يفسلونه في بحر النيل ، في مكان معلوم في شبرا ، ويزعمون أن
 ٩ النيل لا يزيد في كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الأصبع ، ويسمون ذلك اليوم عيد الشهيد .
 فيجتمع بشبرا سائر من في مصر من الأقباط ، وتخرج أهل القاهرة قاطبة ، من
 أمير ومبائر ، وغير ذلك ، وينصبون الخيام على شاطئ بحر النيل ، وفي الجزائر ؛
 ١٢ ولا يبقى مُنَنٍّ ولا مغنية ، ولا رَبَّ ملعوب ، ولا ماجن ، ولا خايع ، حتى يجتمع
 بشبرا ، وتنفق من الأموال هناك ما لا يحصى ، وتنتجهر الناس بالمعاصي والفسوق ،
 حتى يخرجوا في ذلك اليوم عن الحد ، وربما كان يقتل في ذلك اليوم من العوام أو
 ١٥ غيرها ، الواحد أو الاثنين ، أو أكثر من ذلك ، من كثرة ما يقع هناك من المفسد ،
 والعريضة ، ولا يجدون مانعا من الحكم ، ولا الولاة ، ولا الحجاب .
 حتى قيل : كان يباع بشبرا في يوم عيد الشهيد خمر بثلاثة آلاف دينار ، في
 ١٨ ثلاثة أيام ، حتى قيل : كانت شبرا تزرع كلها كروما ، فتعصر خمرها ، حتى تباع يوم
 عيد الشهيد ، فكان خراج شبرا لا ينفق إلا من بيع الخمر ، في يوم عيد الشهيد .

(٧) ويخرجوا : كذا في الأصل .

(٩) حتى يلقوا : حتى يلقون .

(١٤) حتى يخرجوا : حتى يخرجون .

(١٥) كثرة : كثرت .

(١٦) ولا يجدون : ولا يجدوا .

(١٧) خمر : خرا .

وكان أعيان الأقباط ، من المباشرين ، ينزلون في الراكب ، وقت إلقاء ذلك الأصبع في البحر ، وكانت الشموع تقد في الراكب ، مع القناديل ، حتى يضىء منها البرّ ، وتعلّق الأشرار في البرّ فوق الخيام ، حتى يضىء منها البرّ ؛ وتحرق النفوط في تلك الليالي ، حتى تدهش العقول من رؤية ذلك .

وكانت الناس يعتقدون أنّ النيل لا يزيد ، إلا بإلقاء ذلك الأصبع في النيل ، فقام الأمير صرغتمش في إبطال ذلك الأصبع ، وإلقائه في النيل ، فطلع إلى السلطان ، وقال له : « إنّ الناس يعتقدون أنّ النيل لا يزيد إلا بإلقاء ذلك الأصبع في النيل . » ثم إنّ الأمير صرغتمش ، شكى للسلطان مما يعمل في يوم عيد الشهيد ، من المفاسد ، وأنواع الفسوق ، بشبرا ؛ فرسم السلطان لوالى القاهرة علاء الدين بن (٣٦ب) الكوراني ، وسائر الحجاب ، بأن يتوجهوا إلى شبرا ، ويمنعوا الناس من نصب الخيام على شواطئ البحر ، وأظهروا النداء هناك بمنع ذلك ، ومن نزول الراكب بالليل ، وأنّ من فعل ذلك ، شفق من غير معاودة ، فرجع الناس عن ذلك من يومئذ . وكان يوم عيد الشهيد من أجلّ ما يكون من المفترجات بالقاهرة ، وتخرج الناس فيه عن الحدّ في القصف والفرجة ، مما كان يعمل من الأشياء الغريبة ، من كثرة الخيام ، والراكب ، والوقيد ، واجتماع الناس هناك ، وما كان ينفق في هذه الثلاثة أيام من الأموال الجزيلة ، التي لا تحصى ، في مأكل ومشرب وغير ذلك .

ثم إنّ السلطان رسم للأمير صرغتمش بأن يتوجه إلى شبرا ، ويهدم تلك الكنيسة ، التي فيها الأصبع ؛ فتوجه الأمير صرغتمش إلى شبرا ، وهدم الكنيسة ، وأحضر الصندوق الذي فيه الأصبع ؛ فلما أحضروه بين يدي السلطان ، طلب القضاة الأربعة ، وجلس بالميدان الذي تحت القلعة ، وأمر بحرق ذلك الأصبع ، بحضرة القضاة ؛ ثم رسم بأن يرمى رماده في البحر ، وقال : « إنّ كان السرّ في هذا الأصبع ،

(١) رؤية : رؤيت .

(١٤) كثرة : كثرت .

(١٦) تعمى : يعمى .

في أمر زيادة النيل ، فإنَّ السرَّ يبقى في النيل دائماً في كل سنة « ؛ وكان حرق ذلك الأصبغ يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول من تلك السنة .

٣ فلما جرى ذلك ، زاد النيل المبارك في تلك السنة ، زيادة لم يعهد بمثلها ، واستمر في كلِّ سنة يزيد على عاداته في السنين الماضية ، وبطلت تلك السنة السيئة ، وزال من عقول الناس ما كان يظنونونه ، أنَّ النيل لا يزيد إلا بالقاء ذلك الأصبغ فيه ، فأبطل الله تعالى تلك السنة السيئة على يدى الأمير صرغتمش ، وسطرَّ أجر ذلك في صحيفته إلى يوم القيامة .

وكان أصبغ الشهيد في زيادة النيل بمصر ، مثل ما كان يلقوا في النيل جارية حسناء ، بحايها ، في كل (٣٧ آ) سنة ، في ليلة عيد ميكايل ، ويزعمون أنَّ النيل لا يزيد إلا بالقاء تلك الجارية في النيل ، فبطل ذلك على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وبطلت تلك السنة السيئة عن أهل مصر ، واستمرَّ ذلك إلى يومنا هذا ، كما يقال في المعنى :

للخير أهل لا تزال وجوههم تدعى إليه
طوبى لمن جرت الأمور ر الصالحات على يديه

١٥ وفي هذه السنة ، عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى عزَّ الدين بن جماعة ؛ وأخلع على الشيخ بهاء الدين بن عقيل ، وقرَّره في قضاء الشافعية ، عوضاً عن ابن جماعة ؛ فأقام الشيخ بهاء الدين في هذه الولاية ثمانين يوماً وعزل ، وأعيد إلى القضاء عزَّ الدين ابن جماعة .

٢١ وفيها ، عزَّل السلطان صاحب تاج الدين بن ريشة ؛ وأخلع على صاحب نغر الدين بن قروينة القبطى ، وقرَّره في الوزارة ، عوضاً عن ابن ريشة ، وابن قروينة هذا هو صاحب النيط ، الذى في جزيرة الفيل .

وفيها ، قبض السلطان على الأمير أزدمر العمرى الشهير بأبى دقن ، أمير السلاح ، وأرسله إلى الصيبية ، فسجن بها ، داخل القلعة .

(٨) كان يلقوا : كذا في الأصل .

(٢٠) قروينة : بحرف الراء ، كما في الأصل .

وفيها ، انتهت زيادة النيل المبارك إلى أربعة أصابع من اثنين وعشرين ذراعاً ، وثبت إلى أواخر بابه ، انتهى ذلك .

٣ ثم دخلت سنة ستين وسبعائة

فيها ، توفي الأمير تنكزُ بن المارديني ، أحد الأمراء المقدمين ، وكان صهر السلطان حسن ؛ فأمّا مات ، أنعم السلطان بإقطاعه على مملوكه يلبن العمري ، وصار من جملة مقدمين الألوف ، وهذا أول عظمة يلبن ، وإشهاره ؛ ثم بعد مدة يسيرة ٦ قرّره في إميرية بحاس ، وصار له سمعة وكلمة نافذة .

وفيها ، وردّت الأخبار (٣٧ ب) من حلب ، بأن منجك اليوسفي ، نائبها ، تسحب من حلب ، واختفى ، ولم يُعلم خبره ؛ فلما تحقق السلطان ذلك ، أرسل احتاط ٩ على موجوده ، ورسم على حاشيته ، ونسائه ، وغلمانه .

ثم أخلع على الأمير بيدمر الخوارزمي ، وقرّره في نيابة حلب ، عوضاً عن منجك اليوسفي ؛ فلما توجه إلى حلب بيدمر الخوارزمي ، بلغه أن الأرمن قد استولوا على ١٢ مدينة سيس ، ومدينة طرسوس ، والمصيصة ؛ فجرد إليهم بيدمر ، وحاصرهم مدة أيام ، فطلبوا منه الأمان ، فأرسل لهم بالأمان ، فلما أمّنهم سلّموا له القلاع ، ورحلوا عنها ، فاستناب عليها من اختاره من النواب ، من تحت يد السلطان . ١٥

وفيها ، ركب السلطان حسن ، وتوجه إلى المطرية على سبيل التسير ، ثم رجع ودخل من باب النصر ، وشقّ من القاهرة في موكب حفيل ، وزيّنت له المدينة ؛ فلما وصل إلى عند البيمارستان ، نزل عن فرسه ، ودخل إلى القبة ، وزار قبر جدّه قلاون ؛ ١٨ ثم دخل وزار الضعفاء ، وكشف عليهم ، وتفقد أحوالهم ؛ ثم ركب وطلع إلى القاعة ، وكان ذلك اليوم مشهوداً ، وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء .

وفي هذه السنة ، توفي قاضي القضاة المالكي تقي الدين بن عباس ، وكانت وفاته ٢١

(٤) أحد : إحدى .

(٦) مقدمين : كذا في الأصل .

(٩) خبره : خبر .

في سؤال ؛ فلما مات ، أخلع السلطان على الشيخ تاج الدين محمد بن محمد بن أبي بكر الأحنأى ، وقرّره في قضاء المالكية ، عوضاً عن ابن عباس .

٣ وفيها ، توفي الشيخ صلاح الدين خليل بن خشكلدى العلأى ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، بارعا في الحديث ، (٣٨ آ) وقد ألف كتاب القواعد في الفقه ، انتهى ذلك .

٦ ثم دخلت سنة إحدى وستين وسبعمائة

فيها في المحرم ، كانت وفاة الشيخ جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيايى ، وكان من أعيان علماء الحنفية ، وله شهرة زائدة بين الناس بالعلم .

٩ ومن النوادر القريبة ما وقع في هذه السنة ، أن أخذ قاع النيل المبارك ، فجاءت القاعدة اثنتى عشرة ذراعا ، وكان الوفاء في سادس يوم من مسرى ، وبلغت زيادة النيل في تلك السنة إلى ما يقارب من أربعة وعشرين ذراعاً ، أورد ذلك الشيخ جلال الدين عبد الرحمن الأسيوطى ، في كتابه السّمى بكوكب الروضة ، نقلا عن المقرئى ، رحمه الله .

١٥ فلما تزايد هذا الأمر ، رسم السلطان لابن أبي الرداد ، بأن يبطل المناداة عن الزيادة في هذه الأيام ، وثبت النيل على هذه الزيادة إلى عشرين يوما في بابه ؛ فتقلق الناس من هذه الزيادة ، وصاروا يدعون إلى الله في الجوامع ، والمزارات ، في هبوطه ، وحصل بذلك غاية الضرر للناس ، فانقطعت الطرقات على المسافرين ، حتى امتنعوا عن السفر ، وغرقت جزيرة النيل ؛ ووصل الماء إلى أطراف دور الحسينة ، ونبع الماء من ميفة جامع الحاكم ، من عند باب الفتوح .

وجاءت الأخبار بأن جسر الفيوم قد انقلب ، وغرقت أراضي الفيوم ، وغرقت

(٧) وفاة : وفات .

(١٠) وبلغت : وبلغ .

(١١) وعشرين : وعشرون .

(٢٠) وغرقت : وغرق .

دار النحاس ، وأراضى الروضة ، ونبع الماء من الجسر الأعظم ، الذى بالقرب من قناطر السباع ، وكان أمراً مهولاً ، وظنّ الناس أنّ الله تعالى قد أرسل عليهم الطوفان .

٣ فلما زاد قلق الناس فى هذا الأمر، خرج شيخ الإسلام سراج الدين عمر الباقينى ، إلى جامع الأزهر ، ودعا إلى الله تعالى ، فانهبط فى ليلة واحدة أربعة أصابع ، واستمرّ يتنافس فى كل يوم، حتى انكشفت الطرقات ، وحصل بذلك للزارعين غاية الضرر ، لتبخر الأراضى ومكث الماء عليها ؛ وقد عمل فى هذه الواقعة الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة، مقامة لطيفة ، تشتمل على نظم وثر فى المعنى ، ولم يقع بعد هذه الزيادة مثلها بمصر أبداً ، انتهى ذلك .

٩ وفى هذه السنة ، ترايدت عظمة الأتابكى صرغتمش إلى الناية ، وثقل أمره على السلطان، فأشار عليه بعض الأمراء بأن يبادر ويقبض على صرغتمش : « وإن لم تبادر، ويقبض عليه ، وإلا يبادر هو ويقبض عليك ، وتندم أنت بعد ذلك الذى ما بادرته إليه » : (٣٨ ب) وقبض عليه ، فكان كما قيل فى المعنى ، قول القائل :

وربما فلت بعض الناس حاجته مع التوانى وكان رأى لو عيجلا

١٥ فلما كان يوم الاثنين حادى عشرين شهر رمضان، عمل السلطان الموكب، وحضرت الأمراء، وطلع الأتابكى صرغتمش، فاجتمعوا فى الإيوان على جارى العادة؛ فلما تكامل الموكب ، أمر السلطان بالقبض على الأتابكى صرغتمش ، وهو واقف فى الإيوان .

١٨ فلما أشيع ذلك فى الرملة ، ركبت ممالك صرغتمش ، ولبست آلة الحرب، وكان عدة ممالك صرغتمش يومئذ ثمانمائة مملوك ، فوقفوا فى سوق الخيل ؛ فنزل إليهم جماعة من الممالك السلطانية ، وأرموا عليهم بالنشاب ، واتقوا معهم ساعة يسيرة ، فولوا ممالك صرغتمش مهزومين ، وهربوا نحو بركة الحبش .

٢١

(٥) فانهبط : كذا فى الأصل .

(١١) تبادر : يبادر .

(١٨) ركبت . . . ولبست : كذا فى الأصل .

(١٩) مملوك : مملوكا .

فلما رأوا العوام أن الكسرة على صرغتمش ، توجهوا إلى بيته ، وهم السواد
الأعظم من الزعر ، فنهبوا جميع ما في بيته ، حتى فكوا الرخام من الحيطان ؛ ثم توجهوا
إلى مدرسته ، ونهبوا ما فيها من البسط والقناديل ، وما في خلاوى الصوفة ؛ ثم نهبوا
دكاكين الصليبة ، مضافا لذلك ؛ وصاروا كل من رأوه من حاشية صرغتمش ،
يقبضون عليه من الطرقات ويعرّونه ؛ ثم نهبوا بيوت مماليكه ، واستمرّوا على ذلك
بطول النهار .

فلما كان يوم الثلاثاء صبيحة ذلك اليوم ، قيدوا صرغتمش ، ونزلوا به من
القاعة ، وتوجهوا به إلى السجن بئر الإسكندرية ؛ ثم قبضوا على جماعة من الأمراء ،
من كان من عصبة صرغتمش ، وهم : الأمير (٣٩٩) جركس الرسول ، والأمير
طشتمر القاسمي ، حاجب الحجاب ، والأمير طبقنا صاوق ، وغير ذلك من الأمراء
العشرات ؛ فلما قبضوا عليهم أرسلوهم إلى السجن بئر الإسكندرية ، صحبة الأنابكي
صرغتمش .

فلما دخل صرغتمش إلى السجن ، أقام به مدة يسيرة ، وأشيع موته ، قيل إنه
قد خُنق وهو في السجن ؛ وكان أميراً مهاباً ، جليل القدر ، في سعة من المال ، كثير
البرّ والصدقات ، وله برّ ومعروف ، ولا سيما ما فعله في مدرسته من وجوه البرّ
والخير ، وكان خيار الموجودين من الأمراء .

ثم إن السلطان احتاط على موجوده ، من صامت وناطق ، فظهر له من الموجود
ما لا ينحصر قدره من مال ، وسلاح ، وتحف ، وقماش ، وغير ذلك ، كما يُقال في
المعنى :

وإنّ امرأ دنياه أكبر همّه استمسك منها بحبل غرور

وفي هذه السنة ، كانت وفاة الملك الصالح صلاح الدين صالح ، أخو الملك الناصر
حسن ، وقد تقدّم القول على أنه لما خلع من السلطنة ، استمرّ مقبياً بدور الحرم
حتى توفّي في دولة أخيه الناصر حسن .

وفي هذه السنة ، نُفّات جثّة الأنابكي صرغتمش من ثغر الإسكندرية ، ودُفنت في

مدرسته ، التي خاف جامع ابن طولون ، بالقرب من بئر الوطاويط .

٣ وفي أواخر هذه السنة ، وردت الأخبار بأنّ التركمان قبضوا على منجك ، نائب

حلب ، وقد تقدّم القول على أنّه تسحب من حلب ؛ فلما أحضروه إلى القاهرة ،

طالعوا به إلى السلطان ، فلما مثل بين يدي السلطان ، وجده في هيئة الفقراء ، على

٦ رأسه مئزر صوف أبيض ، وهو لابس جبّة صوف على .

فلما رآه السلطان وبّخه بالكلام ، فقال له منجك : « يامولانا السلطان ، أنا قد

تركت الدنيا ، وخرجت فقيرا سواحا على باب الله تعالى » ، وبكى ، فرّق له السلطان ،

٩ وعفا عنه ، ثم أنعم عليه بإميرية أربعين في الشام ، يأخذ خراجها وهو طرخان ، إلى أن

يموت ؛ فلما نزل من (٣٩ ب) عند السلطان ، أقام بمصر أياما ، ثم توجه إلى الشام ،

وأقام بها ، انتهى ذلك .

١٢ ثم دخلت سنة اثنتين وستين وسبع مائة

فيها في المحرم ، قدم على السلطان قاصد من عند صاحب اليمن ، وصحبته هديّة

حافلة ، تشتمل على تحف جليّة ، وقماش فاخر ، من شاشات ، وأزر ، وصينيّ ، وعبيد ،

١٥ وجوار ، وطواشية ، وغير ذلك .

ومن جملة تلك الهدية ، خيمة غريبة الشكل ، على هيئة قاعة ، وبها أربعة لواوين ،

وبها حَمَام ، كاملة بجاماتها ، ولها أحواض من خشب ، وبذلك الخيمة تقاصيص ونقوش

١٨ غريبة ، بحيث لم يعمل مثله قط في الدنيا .

وفيه ، عدّى السلطان وتوجّه إلى نحو كوم برا ، وكان زمن الربيع ، ونصب تلك

الخيمة هناك ، حتى يتفرّجوا الناس عليها ، فصار الناس يأتون إليها أفواجا ، أفواجا ،

٢١ حتّى يتفرّجوا عليها ، من سائر الأماكن ، حتّى أتوا من باميس ، ومن الصالحية ،

(٥) يدى : يديه .

(١٤) وعبيد : وعبد .

(٢١) حتى يتفرّجوا : حتى يتفرجون .

والخائكة ، وفيها يقول ابن أبي حجلة :

حوت خيمة السلطان كلَّ عجيبة فأمسيتُ منها باهتا أتعجب

لساني بالتقصير فيها مقصر وإن كان في أطناها بات يطنب

وفيها يقول أيضا :

إذا ما خيمة السلطان لاحت فقل في حسنها نظما ونثراً

وإن رُفِعت ورُمت النصب منها فصيف أطناها وهلم جراً

فلما توجه السلطان إلى كوم برا ، طابت له الإقامة هناك ، فأقام بها نحو ثلاثة

أشهر ، وكان بالقاهرة أوخام ووباء ، مع أمراض شديدة بالناس ، فاستمر مقياً هناك ،

وهو في أرغد عيش .

وكان في كل ليلة يحضر عنده منائي عرب ، وخيال ظل ، ويحرق إحراقات

نقط ؛ وكانت الأمراء تتوجه إلى هناك ، وتعطى الخدمة للسلطان في كل يوم اثنين

وخميس .

وكان الأمير يلبنا العمري صحبته هناك ، وجماعة من الأمراء ، من أخفائه ؛

وكان العسكر (٤٠ آ) يمدى إلى هناك في كل يوم مرتين ، وتُعطى السلطان

الخدمة .

وفي صفر ، قدم على السلطان الأمير بيدمر ، نائب الشام ، وصحبته الأمير

جركتمر المارديني .

وفيه ، أخلع السلطان على السيد الشريف محمد بن عطيفة ، وسندرة رميثة ،

واستقر به أمير مكة عوضاً [عن] السيد الشريف عجلان ، وكان قد قدم من مكة

إلى القاهرة ، فغزل ، وغوّق بمصر .

(٨) أوخام : أوخاما .

(١١) اثنين : الاثنين .

(١٨) وسندرة رميثة : كذا في الأصل .

(١٩) [عن] : تنقص في الأصل .

- وفيه ، قبض السلطان على الوزير فيخر الدين ماجد بن خصيب ، وعلى أخيه ،
 وحواشيه ، وأصهاره ، وأحيط بداره ، وأخذ منه مال جزيل ؛ ثم بعد ذلك نُفِيَ إلى
 ميصاف ، من أعمال بلاد الشام ، فأقام به سنة ، ثم نُقل إلى القدس ، فأقام هناك ٣
 أربع سنين ، ومات إلى رحمة الله تعالى .
- وكان رئيساً حشماً ، أظهر في أيام وزارته غاية ما يكون من التعاضم ، فأمر جميع
 مباشرين الدولة ، والخاص ، تركب قدامه كل يوم ، لما ينزل من القاعة ؛ وكان مقدّم ٦
 الدولة ، ومقدّم الخاص ، يمشون في ركابه إلى أن يصل إلى داره ، برأس حارة زوياة ،
 ويبقى هو ، وأخوه ، راكبين بمفردهما والمباشرين جميعاً ، مشاة بين يديه .
- وكان راتب سباطه في كل يوم دائماً ألف رطل من اللحم الضأن ، سوى الدجاج ٩
 والأوز ، وغير ذلك ، من احتياج المطبخ ، من سكر ، وعسل ، وغير ذلك ؛ واقترح
 عابداً كبيراً للجلوى ، وكانت تعرف به ، فيقال « اللعب الخصبية » ؛ ويُقال كان
 بداره سبعمائة جارية ، وكان عنده جارتين برسم المطبخ ، تحسن كُل واحدة منهما ١٢
 ثمانين لونا من الثقالى ، سوى بقية ألوان الطعام .
- وفيه ، قدم من دمشق صاحب فنخر الدين ماجد بن قروينة ، وزير دمشق ؛
 فلما قدم ، أخاع عليه السلطان ، واستقرّ به في الوزارة ، ونظر الخاص ، عوضاً عن ١٥
 ابن خصيب .
- وفيه ، عَزَلَ الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الإسنى نفسه من حسبة القاهرة ؛
 واستقرّ عوضه في الحسبة برهان الدين إبراهيم بن محمد بن أبى بكر الأحنأى ، أخو ١٨
 قاضى القضاة علم الدين محمد الأحنأى ، فسار في الحسبة أحسن سيرة ، وانصاحت عامة
 المعاش (٤٠ ب) .

(٦) مباشرين الدولة : كذا في الأصل .

(١٢) جارتين : كذا في الأصل .

(١٣) ثمانين : ثمانون .

(١٤) قروينة : بحرف الزاء ، كما في الأصل .

وفي شهر ربيع الأول ، في سادسه ، سقطت إحدى منارات مدرسة السلطان حسن ، وهى المنارة الثالثة ، التى كانت على الباب ، الذى فوق سوق القبو ، فهلك تحتهما نحو ثمانية إنسان ، والأطفال الأيتام ، الذين كانوا بمكتب السبيل ، ومن جملة ذلك جماعة كثيرة من الناس ، الذين كانوا بسوق القبو ، والذين كانوا يمرّون بالطريق ؛ فقتلهم الناس بذلك ، وتطيروا به لزوال السلطان عن قريب ، فكان الأمر كذلك ، فلم يقم السلطان بعد ذلك سوى ثلاثة وثلاثين يوما ، وقتل .

فلما سقطت المنارة ، أخذ الشيخ بهاء الدين السبكي يعتذر عن ذلك ، بقوله عن ذلك :

٩ أبشر فساعدك يا سلطان مصر أتى بشيره بمقال صار كالثلل
 إنَّ المنارة لم تسقط لمنقصة لكن لسرّ خفيّ قد تبين لي
 من تحتهما قرئ القرآن فاستمعت فالوجد في الحال أداها إلى الميل
 لو أنزل الله قرآنًا على جبل تصدّعت رأسه من شدة الوجّل
 تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت من خشية الله لا للنقص والخلل
 وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت بنفسها لجوى في القلب مشتعل
 فالحمد لله حفظ العين زال بما قد كان قدره الرحمن في الأزل
 لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة قد شيّدت لأهيل العلم والعمل
 ودُمت حتى ترى الدنيا بها امتلات علما فليس بمصر غير مشغل

١٨ قال الصلاح الصفدى ، فى تاريخه : « إنّ الملك الناصر حسن ، لما أن أقام بكموم برا ، صار بعض الأمراء يرمى الفتن بين السلطان (٤١ آ) وبين الأمير يلبغا العمرى ، الخالصكى ، وبلّغوا السلطان أن يلبغا يريد قتله ، وأنه لا يدخل إلى الخدمة ، إلا وهو لا لبس آلة الحرب من تحت ثيابه .

(١) منارات : منارتى .

(٤٣) الذين : الذى .

(١١) الميل : الميلى .

- ثم إن السلطان استدعى يلبغا في خلوة ، وأمره بنزع ثيابه ، فلما نزعها لم يجد من تحت ثيابه آلة السلاح ، فاعتذر له السلطان أنه بلغه أنه لا يدخل عليه إلا بالسلاح من تحت ثيابه ، ثم أخلع عليه السلطان ، وتوجّه إلى مخيمه . ٣
- فلما كان ليلة تاسع جمادى الآخرة ، ركب السلطان تحت الليل ، على حين غفلة ، وأراد يكبس على يلبغا في مخيمه ، فأرسل الطواشي بشير ، الجمدار ، أعلم يلبغا بذلك في الدس ، فأخلى يلبغا من الخيام وأكمن للسلطان كمينا ؛ فلما كبس عليه السلطان لم يجد في الخيام أحدا من المماليك ، فرجع ، فلما رجع السلطان ، خرج عليه ذلك السكين من ورائه ، فكان بينهما وقعة مهولة ، فانكسر عسكر السلطان ، وقُتل منه جماعة .
- فلما انكسر السلطان هرب تحت الليل ، وأتى إلى شاطئ النيل ، وعدّى في بعض المراكب من هناك ، وصعد إلى قلعة الجبل وكان في ثقل قليل من المماليك ، ولم يكن معه من الأمراء سوى الأمير تمان تمر العمري ، والأمير أيدير ، الدوادار الكبير ؛ فلما طلع السلطان إلى القاعة فلم يجد في الاصطبل شيئا من الخيول ، وكان يومئذ الخيول في الربيع ، فاضطربت الأحوال على السلطان . ١٢
- فلما طلع النهار ، عدّى يلبغا إلى بر مصر ، هو ومماليكه ، وأصحابه ، فلقية الأمير ناصر الدين محمد بن المحسن ، والأمير قشتمر المنصوري ، في عدّة وافرة من العسكر ، فخاربهما يلبغا وهزمهما ، وتقدّم فهزم طائفة ، بعد طائفة ، من عسكر السلطان . ١٥
- ثم إنّه وجد الأمير أسنبغا الأبوبكرى في عدّة وافرة من العسكر ، فقاتلوه قريبا من قفطرة قديدار ، فكان بينهما وقعة مهولة ، ففرح فيها الأمير أسنبغا ، وانهمز من كان معه ؛ ومضى يلبغا حتى وقف تحت القاعة ، عند سبيل المؤمني ، بالرملة . ١٨
- فلما رأى السلطان عين الغلب ، نزل من القاعة ، هو والأمير أيدير ، الدوادار ،

(١) استدعى : استدعا . || يلبغا : بيبغا .

(٤) جادى : جدى .

(٦) فأخلى : فأخلا .

(٧) أحدا : أحد .

(١٨ و ١٧) وقعة : كذا في الأصل .

ولبسا ، هو والسلطان ، زىّ العرب ، (٤١ ب) بزموط ، وفرجيات ، بأكمام كبار ، وقصدا التوجه إلى نحو البلاد الشامية .

٣

فلما كانا في أثناء طريق بابليس ، قبض عليهما بعض العرابان ، الذين بالشرقية ، وأحضرهما إلى بيت الأذكشى بالحسينية ، فأرسل الأذكشى أخبر يلبنا بأن السلطان ، وأيدمر ، الدوادار ، قبض عليهما ، وهما عنده في بيته ، فأرسل يلبنا قبض على السلطان ، وعلى أيدمر ، ومضى بهما إلى داره ، التي فوق جبل الكبش ، فحبسهما ، ووكل بهما من يشق به ، ثم عاد يلبنا إلى الرملة ، وحاصر القامة ، فملكها من غير مانع .

٦

هذا ما كان من أمر يلبنا ، وأما ما كان من أمر السلطان حسن ، والأمير أيدمر ، فإن يلبنا أرسل أيدمر تحت الليل ، وهو مقيد [إلى] السجن بشفر الإسكندرية .

٩

والسلطان كان آخر العهد به ؛ قيل إنه خُنق ورُميت جثته في البحر ، وقيل إن يلبنا عاقبه أشد العقوبة ، حتى مات تحت العقوبة ، ودفنه في مصطبته ، التي كان يركب عليها بداره التي بالكبش ، وقيل بل دفنه في بعض الكيان بمصر العتيقة ، وأخفى قبره عن الناس ، ولم يدفن في مدرسته التي أنشأها بسوق الخيل .

١٢

ومات وله من العمر دون الثلاثين سنة ، قيل سبعة وعشرين سنة ، وقد بدت

لحيته ودارت بوجهه ؛ وكانت أمه جارية رومية الجنس .

١٥

والعجيب أن يلبنا كان مملوك السلطان حسن ، اشتراه بماله صغيرا ، ورباه ، وأنعم عليه بتقدمة ألف ، وكان عنده من المقرّيين ؛ فجري في حقّه منه ما جرى ، وقتله أشر قتلة ، وكانت قتلاته في ليلة الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وسبعمائة .

١٨

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، عشر سنين ونصف وأيام ، فالسلطنة الأولى ثلاثة سنين وتسعة أشهر وأيام ؛ ثم أقام في السلطنة الثانية ست سنين

وسبعة أشهر وأيام .

٢١

(٩) [إلى] : تنقص في الأصل .

(١٤) العمر : عمر . || سبعة : كذا في الأصل .

(١٥) بوجهه : بوجه .

(٢٠) ثلاثة : كذا في الأصل .

قال الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة: ومن غريب الاتفاق ما وقع للملك الناصر حسن ، أنه وافق والده الملك (٤٢ : آ) الناصر محمد ، في سبعة أشياء وقعت له : أولها أنه وافقه في الملقب بالناصر ؛ الثاني أنه خُلع من المُلْك ، ثم أعيد إليه ، ووالده خُلع من المُلْك ، ثم أعيد إليه ؛ الثالث أنه جلس على سرير المُلْك في المرة الأولى رابع عشر الشهر ، ووالده لما جلس في المرة الأولى كان رابع عشر الشهر ، الرابع أنه لما عاد إلى المُلْك جلس على سرير المُلْك في ثاني شَوَّال ، ووالده لما عاد إلى المُلْك جلس على سرير المُلْك في ثاني شَوَّال .

الخامس أنه وزر له متعمم ، ورب سيف ، ووالده وزر له متعمم ، ورب سيف ؛ السادس أنه أقام مدة بلا وزير ، ووالده أيضا أقام مدة بلا وزير ؛ السابع أنه أقام مدة بلا نائب سلطنة ، ووالده أيضا أقام مدة بلا نائب سلطنة ، وهذا من غريب الاتفاق . وكان في أيامه عشرة من أولاد الناس مقدمين ألوف ، وهم : ولده أحمد ، وقاسم ، ومن أولاد الناس أسنينا بن الأبوكري ، وعمر بن أرغون النائب ، ومحمد بن طرغاي ، ومحمد بن بهادر آص ، ومحمد بن الحسن ، وموسى النائب بن أرقطاي ، وبیدمر الخوارزمي ، نائب الشام ، وأحمد بن آل الملك ، النائب ، وموسى بن الأزكشي . وأنعم على عدة من أولاد الناس بأمريات عشرة ، وأمريات طبلخانات ؛ وولى من أولاد الناس محمد بن القشتمري ، نيابة حلب ، وخايل بن صبح ، نيابة سفد . فلما مات الناصر حسن ، ترك عشرة من الأولاد الذكور ، وهم : أحمد ، وقاسم ، وغلي ، وإسكندر ، وشعبان ، وإسماعيل ، ويحيى ، وموسى ، ويوسف ، ومحمد ؛ وترك من البنات ستة .

ومن محاسنه ، أنه عزل أبناء الأقباط من الوظائف السنية ، وولى عوضهم جماعة من العلماء ، منها : وظيفة نظر الجيش ، ونظر بيت المال ، ونظر الجوالى ، وغير ذلك .

(١١) مقدمين ألوف : كذا في الأصل .

(١٧) فلما : وفلما .

(٢٠) وولى : وولا .

وكان صفة الناصر حسن : أبيض اللون ، عربيّ الوجه ، فيه بعض نَمَش ، وكان أشقر اللحية ، معتدل القامة ، نحيف الجسد ، (٤٢ ب) يميل إلى الصفرة ، وكانت أمّه روميّة . ٣

وكان يحبّ اللهو والطرب ، ويميل إلى شُرْب الرّاح ، وحُبّ القيان من النساء الملاح ؛ وكان يميل إلى سماع الآلات ، ويقرب المغاني ، ويحبّ أرباب الفنّ من المغاني قاطبة ، حتّى قال فيه بعض شعراء العصر :

لما أتى للعاديات وزلزلت حفظ النساء وما قرأ للواقعة
فلاجل هذا الملك أضحى لم يكن وأتّى القتال وفُصِّلَت بالقارعة
لوّ عامل الرحمن فاز بكهفه وبنصره في عصره للسابعة
من كانت القينات من أحزابه عطعط به الدخان نار لامة

وقد أشار النّاظم بقوله « عطعط » وهو اسم مغنّى ، كان من ندمائه ؛ وكذلك « الدخان » كان اسم مشبب من ندمائه ، يحضر في مجالسه ، انتهى ذلك . ١٢

وكان الملك الناصر حسن هو آخر من ولى مُلك مصر من أولاد الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون ؛ وكان كفواً للسلطنة ، وافر الحرمة ، على الهمة ، نافذ الكلمة ، ومن أراد أن يعرف علوّ همته فليَنظر إلى بناء مدرسته ، التي أنشأها بسوق الخليل . ١٥

فكان مجموع من ولى السلطنة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ثمانية أنبار ، وكان أعظم من ولى منهم الناصر حسن هذا ؛ وكان قصده إنشاء أولاد الناس في أيامه ، فكان غالبهم أمراء مقدّمين ، وطبائخانات ، وعشرات ، وقد ترّجم له ١٨

(١١) مغنى : كذا في الأصل .

(١٢) مشبب : مشبها .

(١٤) على : عالياً .

(١٥) فليَنظر : فليَنظر .

(١٨) أعظم : معظم .

الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة ، في كتابه المسمى « بالسكردان » ومدحه بقصائد سنّية .

٣ انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وذلك على سبيل الاختصار منها ؛ ولما مات تـسـلـطـن بعده ابن أخيه الملك المظفر حاجي ، (٤٣ آ) انتهى ذلك .

٦ ذكر

سلطنة الملك المنصور صلاح الدين محمد

ابن الملك المظفر حاجي ابن الملك الناصر محمد

٩ ابن الملك المنصور قلاون

وهو الحادى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ؛ بويـع بالسلطنة بعد قتل عمه الناصر حسن ، وكان القائم فى سلطنته الأمير يابغا العمري .

١٢ وكان يومئذ الأمير حسين بن محمد بن قلاون موجوداً ، فأبى يابغا من سلطنته ، ولم يرض به ، لصلابته ، وشدة بأسه ؛ وكان الأمير أحمد بن الناصر حسن موجوداً ، فلم يرض به الأمير يابغا ، خشية لأن يأخذ بثأر أبيه منه ، فأعرض عنه ؛ ولم يختار سوى سيدى محمد ابن الملك المظفر حاجي ، فوقع الاتفاق على سلطنته .

١٥ فأرسل أحضر الخليفة ، وقضاة القضاة الأربعة ، ثم إن الأمير يابغا طلب سيدى محمد بن المظفر حاجي ، فخرج من دور الحرم ، وكان له من العمر نحو أربعة عشر سنة ، فبايعه الخليفة بحضرة القضاة .

١٨ ثم أحضروا له شعار الملك ، فلبسه من باب الستارة ، وركب من هناك ، ثم مشى قدّامه الأمراء ، بالشاش والقماش ، حتى دخل إلى القصر الكبير ، وجلس على سرير

(١٣) ولم يرض : ولم يرضا .

(١٤) فلم يرض : فلم يرضا .

(١٨) بحضرة : بحضرت .

- المُلك ، وبأس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودي باسمه في القاهرة ،
وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ، ودُقَّت له البشائر بالقامة ؛ وكان ذلك
يوم الأربعاء تاسع جمادى الآخرة سنة اثنيتين وستين وسبعائة . ٣
- فلما تم أمره في السلاطنة عمل الموكب ، وأخلع على من يُذكر من الأمراء ، وهم :
المقرّ السيفي يابغا العمرى ، واستقرّ به أتابك العساكر بالديار المصرية ؛ وأخلع على
الأمير طيينا الطويل ، وأقرّره على عادته ، في إمرة السلاح ؛ وأخلع على الأمير
قطلوُبنا الأحمدي ، واستقرّ به رأس نوبة كبيراً ؛ وأخلع على الأمير أشقتمر ، (٤٣ ب)
واستقرّ به أمير مجلس .
- ثم عمل الموكب الثانى ، وأخلع على من يُذكر من الأمراء ، وهم : الأمير قشتمر
المنصورى ، واستقرّ به نائب السلاطنة ؛ وأخلع على الأمير أرغون الأسعدى ، واستقرّ به
دوادار كبير ؛ وأخلع على الأمير أُلجاي اليوسفى ، واستقرّ به حاجب الحجاب ؛ وأخلع
على الأمير ملكتمر الماردنى ، واستقرّ به رأس نوبة الجمدارية . ١٢
- ثم كُتِبَ بيشارة سلاطنته إلى الأعمال المصرية ، وخرجت الراسيم الشريفة بذلك .
ثم إن الأمير يلبنّا قبض على الأمير ناصر الدين محمد بن المحسنى ، وأرسله إلى
السجن بشفر الإسكندرية ؛ ثم أفرج عن الأمير طاز ، وكان السلطان حسن أحله في
عينيه ، فلما مثل بين يدى السلطان ، وعلى عينيه شعرية ، توجّع له ، وسأله الإقامة
بالقدس ، فأجيب إلى ذلك ، فأنعم عليه السلطان بإمرة طبلخانة ، وسار إلى القدس ،
وأقام به . ١٨
- وفيه ، أُفرِجَ عن الأمير جركتمر الماردنى ، والأمير قطلوُبنا المنصورى ، والأمير
طشتمر القاسمى ، والأمير تلكتمر المحمدى ، والأمير آقتمر عبد الفنى ، والأمير بكتمر
المؤمنى ، وأخيه طاز . ٢١
- وفيه ، استقرّ الأمير طشتمر القاسمى ، نائب الكرك ؛ واستقرّ الأمير تلكتمر
المحمدى ، نائب صفد ؛ ثم إن الأمير يابغا أخرج الأمير بكتمر المؤمنى إلى أسوان ، منفيّاً .
(٢١) وأخيه : وأخوه .

وفيه ، أُخْلِعَ على السيد الشريف عجلان ، وأعيد إلى الإمارة بمكة . - وفيه ،
نقلت رمة الأمير صرغتمش من الإسكندرية ، ودُفنت بمدرسته ، المجاورة لجامع
ابن طولون .

٣

وفي شهر رجب ، وردت الأخبار بخروج بيدمر ، نائب الشام ، عن الطاعة ،
ووافقه على العصيان جماعة من الأمراء ، والنواب ؛ وأُشيع أن بيدمر ، نائب الشام ،
استفتى جماعة من العلماء بجواز قتال يلبغا ، الذي تغلب على السلطان حسن وقتله ؛ فلما
(٤٤ آ) قويت الإشاعات بعصيان بيدمر ، وأنه منع البريد من ورود الأخبار إلى
القاهرة ، أن تسير من الشام .

ثم أُشيع أن نائب الشام بيدمر ، جهّز الأمير منجك اليوسفي ، والأمير
أسندمر الزيني ، وصحبتهما العساكر إلى غزّة ، فحاربوا نائبها ، وملكوها .

وفيه ، رسم الأمير يلبغا بنصب الصنّجق السلطاني ، فعلى على الطبايخانات التي
بالقلعة ؛ وأمر الأمراء المقدمين ، بالتجهيز إلى السفر نحو الشام ، بسبب عصيان
بيدمر ، نائبها .

ثم إن الأمير يلبغا رسم للأمير قشتمر ، نائب السلطنة ، بأن يتوجه إلى جهات
العصيد ، ليحفظها من فساد العربان ، إلى أن يحضر السلطان من الشام ؛ ثم إنّه جعل
الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشي ، نائب الغيبة عن السلطان ، إلى أن يحضر .
وفي شهر رمضان ، في أوائله ، ركب السلطان الملك المنصور ، ونزل من قلعة
الجبيل ، وتوجه إلى الحميم الشريف بالريمانية ، في موكب حقل ؛ وصحبته الخليفة
المتعبد بالله أبو بكر بن الخليفة المستكفي بالله سليمان ، وقاضي القضاة تاج الدين محمد
ابن إسحق الشافعي ، وقاضي القضاة سراج الدين عمر الهندي الحنفي ، قاضي العسكر ؛
وخرجت الأمراء المقدمون مسجبتهم قاطبة ، والعسكر ؛ ثم بعد خروج طُلب السلطان
٢١

(١) الإمارة : الأمراء .

(٥) ووافقه : ووقعه .

(٧) قويت : قوية .

(٢١) المقدمون : المتقدمين .

- خرجت أطلاب الأمراء شيئاً بعد شيء .
- ثم وردت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفي ، بعد أن ملك مدينة غزة ، رحل عنها لما سمع بمجيء السلطان ، فعاد إلى دمشق . ٣
- ثم وردت من بعد ذلك الأخبار بأن السلطان ، والأمراء ، والعسكر ، وصل إلى دمشق ، وخيموا بظاهرها ؛ فلما أقام السلطان بالخييم ، جاء إليه أكثر أمراء دمشق ، وعساكرها ، ودخلوا تحت طاعة السلطان ، فلم يبق مع الأمير بيدمر الخوارزمي ، نائب الشام ، سوى الأمير منجك ، والأمير أسندمر ، وقد طلعوا إلى قلعة دمشق وتحصنوا بها .
- ثم صارت القضاة والعلماء تتردد بين الفريقين في أمر الصلح ، حتى تقرّر الحال بأن الأمير يلبغا ، أمير كبير ، أرسل صورة حاف إلى بيدمر ، نائب الشام ، ومن معه من الأمراء ، فعند ذلك اطمأنوا إليه ، ونزلوا من قلعة (٤٤ ب) دمشق .
- وفي صبح يوم الاثنين تاسع عشرين شهر رمضان ، ركب السلطان بعساكره ، ودخل إلى دمشق من غير مانع ، وقبض على بيدمر الخوارزمي ، نائب الشام ، والأمير منجك اليوسفي ، والأمير أسندمر ، وقيدوا أجمعين . ١٢
- فأنكر ذلك قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن محمد المرداوي الحنبلي ، قاضي دمشق ، وتوجه إلى عند الأمير يابغا ، وقال له : « لم يقع الصلح على هذا الذي فعلته » ، فاعتذر إليه يابغا بأنه ما قصد بهذا إلا إقامة حرمة السلطان ، ثم وعده بالإفراج عنهم عن قريب ؛ ثم إن الأمير يابغا أرسل بيدمر ، نائب الشام ، والأمراء الذين كانوا صحبته ، إلى ثغر الإسكندرية ، من هناك ، فسجنوا بها . ١٥
- ثم إن الأتابكي يلبغا أخاع على الأمير علاء الدين على المارديني ، واستقرّ به نائب الشام ، عوضاً عن بيدمر الخوارزمي ؛ واستقرّ بالأمير قطلوئبغا الأحمدي ، رأس نوبة النوب ، في نيابة حلب ، عوضاً عن الأمير أحمد بن الأشقتمري . ٢١
- وفي شهر شوّال ، فيه سار السلطان بعساكره من دمشق ، يريد القاهرة .

- ومن الحوادث في غيبة السلطان أن الأجد سیدی حسین ابن الملك الناصر محمد ابن قلاون ، كان مقبياً في دور الحرم بقاعة الجبل ، فاتفق سیدی حسین مع الطواشي جوهر الزمردي ، مقدم المالك ، بأن يلبس المالك السلطانية ، الذين في الطباق ، ٣ آله الحرب ، ويقتلوا الأمراء ، الذين بالقاعة ، ويتسلطن هو عوضاً عن ابن أخيه المنصور محمد ؛ وكان السفير بينهما نصر السلياني ، أحد طواشي سیدی حسین .
- فلما فشي هذا الكلام بين الناس ، فبادر الأمير أیدمر الشمسي ، ونائب النية ٦ الذي كان بمصر الأمير موسى بن الأزكشي ، وقبضا على الطواشين جوهر ، ونصر ، وأودعهما في السجن بخزانة شمایل ، إلى أن يحضر السلطان من دمشق .
- وفي ذي القعدة ، في أوائل الشهر ، دخل [السلطان] إلى القاهرة في موكب ٩ جليل ، وزينت له القاهرة زينة عظيمة ، ودقت له البشار بقاعة الجبل ، وصعد إليها وهو منصور مؤيد ، بما وقع له من النصرة على النواب .
- وفيه ، (٤٥ آ) قدم الأمير قشتمر ، نائب السلطنة ، وكان قد توجه إلى الوجه ١٢ القبلي ، بسبب فساد العربان في غيبة السلطان .
- ولما أقام السلطان بالقاعة أياما ، عرضوا عليه الطواشي جوهر الزمردي ، مقدم المالك ، والطواشي نصر السلياني ، اللذان كانا في السجن بخزانة شمایل ، بسبب ١٥ ما جرى منهما ، فلما عرضوا عليه ، رسم بإفهارها في القاهرة ، ثم نقيا إلى قوص ، وقد شفع فيها بعض الأمراء من التوسيط .
- وفي ذي الحجة ، قدم الأمير حيار بن مهنا ، فأخلع عليه ، واستقر به في الإمرة ، ١٨ عوضاً عن أخيه فياض بن مهنا ، بعد موته .
- وفيه ، أخلع على العالای علی بن إبراهيم بن حسن بن تميم ، وقرره في كتابة سیر ٢١ حلب ، عوضاً عن ناصر الدين محمد بن صاحب شرف الدين يعقوب بن عبد الكريم .

(٤٣) الذين : الذي .

(٧) الطواشين : كذا في الأصل .

(٩) [السلطان] : تنقص في الأصل .

(١٥) اللذان : الذي .

وفيه ، وردت الأخبار من حلب ، بأن في يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول ، جرى إلى نائب حلب بمولود ، له على كل كتف من أكتافه ، رأس بسوجه كامل مستدير ، وهما إلى جهة واحدة ، فسبحان الخلاق فيما خلق ، فشاهده النائب ، وتعجب من ذلك ، ثم مات ذلك المولود من يومه .

وفي هذه السنة ، توفي من الأعيان القاضي شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ابن خلف بن بدر ، المعروف بابن بنت الأعزّ الفقيه الشافعي ، ناظر بيت المال ، وناظر ديوان الأحباس ؛ وكانت وفاته في يوم الخميس ثامن عشر ربيع الآخر . ومات فيها الأمير بلبان السناني ، أستاذار العالية ، وأحد مقدمي الألوف ، وهو من مماليك الناصر محمد بن قلاوون .

ومات فيها الشريف شهاب الدين حسين بن محمد بن حسين بن محمد بن حسين ابن حسن بن زيد ، المعروف بابن قاضي العسكر الأموي ، تقيب الأشراف ، وولي أيضا كتابة سرّ حلب .

وتوفي أيضا الشريف بدر الدين محمد بن علي بن حمزة ، تقيب الأشراف بحلب . ومات شمس الدين محمد بن عيسى بن عيسى بن محمد بن عبد الوهاب بن دويب الآمدى الدمشقي ، المعروف بابن قاضي شهبة ، خطيب مدينة غزة ، وكاتب الإنشاء بدمشق ، وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد .

ومات شمس الدين محمد بن مجد الدين عيسى بن محمود (٤٥ ب) بن عبد العزيز البعلبكي ، المعروف بابن المجد ، وكان قد ابتلى في الوسوسة بأمر عظيم ، حتى أنه كان إذا توشأ من فسقية المدرسة الصالحية ، لا يزال به وسواسه إلى أن يلقي بنفسه في الماء ، ويفطس فيه بثيابه ، شتاء وصيفا ، زعما أنه لا يسبغ الوضوء ما لم يفعل ذلك في كل وضوء ، وكانت وفاته في سلخ صفر .

ومات الشيخ جمال الدين عبد الله الزيلعي الحنفي ، وكان قد برع في الفقه والحديث .

(٦) وناظر : واناظر .

(١٢) كتابة : كتابت .

- ومات الشيخ جمال الدين خليل بن عثمان بن الزولى ، وكان شافعى المذهب ،
فأقام على ذلك مدة طويلة ، ثم بدا له أن يتقلد بمذهب الإمام أبى حنيفة ، رضى الله
عنه ، وكان ولي خطابة جامع شيخوا وإمامته ، وتدرّس الحديث بالخانقاة الشيخونية . ٣
- ومات الحافظ علاء الدين مغايطى بن قايمج البكجوى الحنفى ، المحدث . - وومات
الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الزرعى الحنبلى ، وكان من أصحاب الشيخ تقي
الدين أحمد بن تيمية الحرانى . ٦
- ومات الفقيه المنشىء ، الكاتب المجيد ، كمال الدين محمد بن شرف الدين أحمد ،
المعروف بابن طرخان الزينى الجعفرى العباسى الدمشقى .
- ومات الخواجه عز الدين حسين بن داود بن عبد السيد بن علوان السلامى ، التاجر
الكارى ، وهو صاحب المدرسة السلامية التى بمصر العتيقة . - وومات الأمير سيف
الدين المهنّدار ، حاجب الحجاب بدمشق ، فى سؤال .
- ومات الأمير سيف الدين برناق ، نائب قلعة دمشق . - وومات محيى الدين
أبو زكريا يحيى بن عمر الزكى الشافعى ، قاضى الكرك ، توفى فى ذى القعدة بالقدس ،
ومات معزولا .
- ومات السيد الشريف رميثة ، أمير مكة ؛ واستقر بعده أخوه مجلان . ١٥
- وجاءت الأخبار بوفاة صاحب فاس ، سلطان الغرب ، وهو أبو سالم بن السلطان
أبى الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، توفى فى ليلة الأربعاء ثامن عشر
ذى القعدة ؛ وولى من بعده أبو عمر تاشفين بن السلطان أبى الحسن . ١٨
- ومات الشيخ شمس الدين محمد بن مسعود المالكى ، شيخ القراء ، وكان يقرأ
بالسبع (٤٦ آ) روايات ، انتهى ذلك .
- ثم دخلت سنة ثلاث وستين وسبعائة ٢١
- فيها فى الحرم ، تزوّج الأتابكى يلبغا بخوند طولوبيه ، زوجة أستاذه السلطان
حسن ، وما كفاه قتله ، ثم تزوّج بزوجه ، زيادة على ذلك .
- وفيه ، أخلع السلطان على الطوائى سابق الدين مثقال الأنوكى ، واستقر به ٢٤

- مقدم المالك ، عوضاً عن شرف الدين مختص الطقتمري ، بحكم وفاته .
- ٣ وفي شهر صفر ، أخلع السلطان على برهان الدين إبراهيم بن علم الدين محمد بن أبي بكر ابن عيسى بن بدران الأحنأ ، محتسب القاهرة ، واستقر في قضاء القضاة المالكية ، عوضاً عن أخيه تاج الدين ، بحكم وفاته ؛ وأخلع على الشيخ صلاح الدين عبد الله ابن عبد الله بن إبراهيم البرلسي المالكي ، مدرس المدرسة الأشرفية ، واستقر به في حبة القاهرة ، عوضاً عن البرهان الأحنأ .
- ٦ وأخلع على تاج الدين محمد بن بهاء الدين ، المعروف بشاهد الجمال ، واستقر به في نظر المارستان المنصوري ، عوضاً عن البرهان الأحنأ ؛ وأخلع على الشيخ شرف الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عسكر البغدادي المالكي ، واستقر به في نظر الخزانة الشريفة ، عوضاً عن التاج الأحنأ .
- وفي شهر ربيع الأول ، عمل السلطان المولد الشريف النبوي ؛ ثم بات وأصبح ، ١٢ فعدى هو ، والأتابكي يلغا ، إلى برّ الجيزة ، على سبيل التزّه ، وبات هناك ؛ ثم عدى من إنابة ، وتوجّه إلى باب البحر ، وتوجّه من هناك ، وشقّ من القاهرة في موكب حفّ ، وكان يوماً مشهوداً .
- ١٥ وفي شهر ربيع الآخر ، في يوم الخميس تاسعه ، أخلع السلطان على الأمير طغاي تمر النظامي ، واستقر به حاجب الحجاب ، عوضاً عن الأمير ألباي اليوسفي .
- وأخلع على الأمير أروس الحمودي ، واستقر أستاذار العالية ، عوضاً عن الأمير موسى بن الأزكشي ، ونفى الأمير موسى بن الأزكشي إلى حماة بطلا ، فاستقر هناك ١٨ (٤٦ب) إلى أن مات .
- وفي جمادى الأولى ، فيه ، في ليلة الأربعاء ثامن عشره ، توفي الخليفة الإمام ٢١ المعتضد بالله أبو بكر بن الإمام المستكفي بالله سليمان ، فكانت مدة خلافته بالديار المصرية ، نحو عشر سنين .
- فلما توفي ، استدعى السلطان بأبي عبد الله محمد بن الخليفة المعتضد بالله أبي بكر ، فأخلع عليه ، واستقر به في الخلافة ، عوضاً عن أبيه ، وتلقب بالتوكّل على الله ، ٢٤

وفوّض له نظر المشهد النَّفِيسى، ليستعين بما يحمل إليه من النذور على حاله، وذلك فى يوم الخميس تاسع عشره؛ وهو السادس من خلفاء بنى العباس بالديار المصرية.

فلما أخلع عليه، نزل من القامة إلى داره فى موكب حَفِل، وقَدَّامه قضاة القضاة ٣ الأربعة، وجماعة من الأعيان، فأوصاه إلى داره؛ فاستمرَّ فى الخلافة مدة طويلة، لكن قاسى فى دولة الملك الظاهر برقوق شدائد ومحنًا، يأتى الكلام عليها فى موضعه.

وفى جمادى الآخرة، فى يوم الاثنين خامسه، أخلع السلطان على الأمير قشتمر، نائب السلطنة، واستقرَّ به فى نيابة الشام، عوضاً عن الأمير على، بحكم استغفائه منها.

وفيه، أخلع على الشيخ بهاء الدين أحمد بن تقى الدين السبكى، واستقرَّ فى قضاء دمشق، عوضاً عن أخيه تاج الدين عبد الوهاب؛ واستقرَّ تاج الدين فى وظائف أخيه تقى الدين، وهى: تدريس المدرسة المنصورية، ومشيخة الخاتمة الشيوخونية، ١٢ والمدرسة الناصرية، التى بجوار تربة الإمام الشافعى، رضى الله عنه، وإفتاء دار العدل.

وفى شهر رجب، فى ثامنه، أنعم السلطان على الأمير أشقتمر الساردينى، أمير مجلس، واستقرَّ به فى نيابة طرابلس.

وفيه، أخلع على الأمير أسنينا البوبكرى، واستقرَّ حاجب الحجاب بمصر، ١٨ واستقرَّ الأمير عز الدين أيدمر الشيخى فى نيابة حماة.

وأنعم على الأمير منكلى بُغا الشمسى، بنيابة حلب، عوضاً عن الأمير قطلوُبنا الأحمدي.

وأخلع على الأمير أسفندر الطازى، (٤٧ آ) واستقرَّ فى نيابة ملطية؛ فلما ٢١ توجَّه إليها، جار على بلاد الرُّوم، وحاربهم، وقتل منهم جماعة، وأسر آخرين، فبعث إليه الأمير محمد بن أرتنا، صاحب قيصرية الروم، عسكرياً صحبة ابن ذلفادر، فكبسه

على حين غفلة ، وقاتله قتالا شديدا ، فانكسر ، ورجع إلى نحو ملطية هارباً ، وقتل من عسكره جماعة .

- ٣ وفي شهر شعبان ، بلغ السلطان ما وقع للأمير أسندمر الطازي ، نائب ملطية ، فرسم بخروج عسكر دمشق ، وعسكر طرابلس ، وحماة ، صحبة الأمير قطلوُبنا ، نائب حلب ؛ فخرج من عساكر دمشق خمسة آلاف فارس ، ومن بقيّة عساكر البلاد الشامية سبعة آلاف فارس ، فتوجّه نائب حلب ، في اثني عشر ألف فارس ، ومعه المناجنيق والنقابون ، فشنوا الغارات على بلاد الروم ، ثم عادوا بغير طائل .
- ٩ وفيه ، توفّي القاضي شمس الدين محمد بن مفاج بن محمد بن مفرح الدمشقي الحنبلي ، قاضي دمشق ، توفّي بها ، ومولده بعد سنة سبعمائة ، وكان قد برع في الفقه ، والحديث ، وألّف كتاب « الفروع » وهو مفيد جداً .
- وفي شهر رمضان ، أنعم السلطان على الأمير قطلُقمُتر العالاي الجاشنكير ، بتقدمة ١٢ ألف .

- وفيه ، استقرّ جمال الدين يوسف ابن قاضي القضاة ثرف الدين أحمد بن الحسين ابن سليمان بن فزارة الكفري ، في قضاء الحنفية بدمشق ، عوضاً عن والده ؛ واستقرّ صدر الدين أحمد بن عبد الظاهر بن محمد الدميري ، في قضاء المالكية بحلب ، عوضاً عن الشهاب أحمد بن محمد بن ياسين الرياحي ؛ واستقرّ كمال الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز النويري في قضاء مكة ، عوضاً عن تقى الدين أبو اليمن محمد بن أبي العبّاس أحمد بن قاسم الحرازي . ١٨

- وفيه ، توفّي الشيخ شمس الدين أبو أمانة محمد بن علي بن عبد الواحد بن يحيى ابن عبد الرحيم ، المعروف بابن النقاش الشافعي ، الفقيه ، المحدث ، المفهرّ ، الواعظ ، وكان من أعيان علماء الشافعية . ٢١

- وفي شهر شوال ، أخلى على القاضي جمال الدين عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن أحمد سعيد ، المعروف بابن الأثير ، واستقرّ في كتابة السرّ بدمشق ، عوضاً عن (٦) اثني عشر : اثناء عشر .

القاضي ناصر الدين محمد بن صاحب شرف الدين يعقوب بن عبد الكريم الحلبي الشافعي ، بحكم وفاته .

٣ وفيه ، توفي السيد الشريف شمس الدين (٤٧ ب) محمد بن شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسين بن محمد المعروف بابن أبي الركب ، تقيب الأشراف بالقاهرة ؛ وإليه تنسب المدرسة الشريفة ، التي بحارة بهاء الدين .

٦ وفي ذى القعدة ، اشتدّ البرد بالبلاد الشامية ، حتى جمدت المياه ، وجد نهـر الفرات ، حتّى مرّ منّ عليه المسافرون بأثقالهم ، وهذا شئ لم يعهد بمثله فيما تقدّم من السنين الماضية .

٩ وفيه ، توفي الأمير طاز ، أحد المقدّمين ، وكانت وفاته بالشام ، وكان لا بأس به .
وفي ذى الحجة ، جاءت الأخبار من بلاب المغرب ، بخناع صاحب فاس ، وهو أبو عمر تاشفين بن السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، وكان وليّ مملك المغرب بعد موت أبي ريان محمد بن أبي عبد الرحمن بن السلطان أبي الحسن .
١٢ وأما منّ توفي هذه السّنة ، بقيّة الأعيان ، وهم : الشيخ الصالح الزاهد ، الناسك الورع ، محمد بن حسن بن مسلم السلمي ، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وكان مقبلاً بجامع القيلة ، الذي عند دير الطّين ، بالقرب من البريم ، وكانت الناس تقصد زيارته ، وتسعى إليه إلى هناك ؛ وقيل إنّه كان عنده سبع ، رباه صغيراً ، قدر الهرة ، وكان يدور في بيوت الجيران ، ولا يأذى أحدا منهم ، فلما مات الشيخ ، توحّش ذلك السبع ، وصار يكسر من يمرّ به ، فأخذوه السباعون ووضعوه في
١٨ السلاسل ، مثل بقيّة السباع ؛ ولما مات الشيخ ، دفن في القرافة ، بالقرب من تربة سيدي ذى النون المصري ، رحمة الله عليه .

(٧) شئ : شيء .

(١٢) أبي ريان : أبو ريان .

(١٤) الورع : الوارع .

(١٨) ووضعوه : ووضع .

وتوفى فيها سلطان الغرب ، وهو أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن ، صاحب قاس ، وكان يابغ في حرف الكاف ، وقد مات مذبحاً ؛ وكان عهد إلى ولده محمد قبل وفاته بقبائل ، وكانت له خبرة بمعرفة الحساب والنجوم . ٣

وتوفى فيها الشيخ أمين الدين محمد بن جمال الدين أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله ابن المظفر ، المعروف بابن القلانسي ؛ وكان من أعيان دمشق ، وبأثر بها وكالة بيت (٤٨ آ) المال ، وقضاء العسكر ، ثم ولي بها كتابة السر مدة ، وعزل عنها ، وكان من أهل الفضل والعلم . ٦

وتوفى فيها قاضي القضاة المالكية تاج الدين محمد بن محمد بن أبي بكر بن عيسى ، المعروف بالأخنائي . ٩

وتوفى القاضي صلاح الدين عبد الله بن محمد ، المعروف بابن المغربي النجوى ، أخذ النحو عن الشيخ سراج الدين عمر بن الملقن .

وتوفى الأمير أيبك أخو الأمير بكتغر الساقى . - وتوفى الطوائى صفى الدين جوهر الزمردى ، بقوص . ١٢

وتوفى الشيخ فتح الدين يحيى بن عبد الله بن مروان بن عبد الله بن مثير بن حسن الفارقى الدمشقى الشافى ، ومولده بالقاهرة سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، انتهى ذلك . ١٥

ثم دخلت سنة أربع وستين وسبعمائة

فيها في المحرم ، عدى السلطان ، والأتابكى يلبنا ، وتوجهها إلى برّ الجزيرة ، ونصب الخيام قريباً من الأهرام ، على سبيل التنزه ، وكان زمن الربيع ، فأقاما هناك عشرة أيام . ١٨

وفي شهر صفر ، فيه ، في يوم الاثنين رابع عشره ، قدم قاضي القضاة بهاء الدين أحمد بن السبكى ، وكان بدمشق ، فقدم على خليل البريد ، فلما حضر ، اجتمع بالسلطان ، وبالأمر يلبنا ، فأخلع عليه ، وأقام بالديار المصرية . ٢١

وفي شهر ربيع الأول ، فيه ، في يوم الاثنين ثمانى عشرين ، أخلع على قاضي

(١٨) فأقام : فأقام .

القضاة بهاء الدين السبكي ، وأعيد إلى الإفتاء بدار العدل ، وبقية وظائفه ؛ وأُخلع على أخيه تاج الدين عبد الوهاب ، وأعيد إلى قضاء دمشق ، عوضاً عن أخيه بهاء الدين .

٣

وفي شهر ربيع الآخر ، أُخلع على الأمير آقتمغر عبد الغني ، وقرّر في حجبوية الحجاب ، عوضاً عن أسنبغا الأبوكري .

وفيه ، ابتداءً أمر الطاعون ، وفشّى في الناس بالقاهرة ، ومصر ، والوجه البحري ، وكان ابتداءه من بلاد الفرنج .

وفي جمادى الأولى ، كانت وفاة الأجد حسين ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون ، وهو آخر من توفّي من أولاد الناصر محمد بن قلاوون ؛ ومات ولم يلبس السلطنة من دون إخوته ، بل تسلط بعد موته ابنه شعبان ، وتلقب بالملك الأشرف ، وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه (٤٨ ب) .

وقد حصل لسيدى حسين هذا رجفة من الأتابكي يلبغا العمري ، بسبب ما نقل عنه ليلبغا من أمر الطوائف جوهر الزمردي ، كما تقدّم ذكر ذلك ، فاستمرّ في تلك الرجفة إلى أن مات .

وفي جمادى الآخرة ، تزايد أمر الطاعون بالقاهرة ، ووردت الأخبار بوقوعه في دمشق ، وحلب ، وغزّة ، وهلك فيه من الناس ما لا يحصى عددهم ، وأكثرهم من الأطفال .

وفي شهر رجب ، وقعت الوحشة بين الأتابكي يلبغا ، وبين الملك المنصور ، فإنه انهزم على شرب الخمر ، وسماع الآلات والزمور ، واشتغل بذلك عن أمور المملكة ، وصار يحتجب عن الناس في المحاكمات ، فضاعت حقوق المسلمين ، ولم يجدوا لهم من ناصر ولا معين .

٢١

وفي شهر شعبان ، فيه ، في يوم الاثنين رابع عشره ، اقتضى رأى الأتابكي يلبغا ،

(٧) ابتداءه : ابتدايه .

(٩-١٠) ولم يل : ولم يل .

- بأن يخلع الملك المنصور من السلطنة ، فوافقه سائر الأمراء على ذلك .
- فأحضر الخليفة ، والقضاة الأربعة ، وخاله من السلطنة في ذلك اليوم ، وأدخله
- ٣ في مكان بدور الحرم بالقلعة ، فسجنه به ، ووكل به جماعة من الخدام ، يحفظونه .
- فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام ، ولم يكن له
- في السلطنة سوى مجرد الاسم فقط ، والأمر والنهي للأتابكي يلبغا .
- ٦ واستمرّ مقيما بدور الحرم إلى أن مات في ليلة السبت التاسع شهر المحرم سنة إحدى
- وثمانمائة ، في دولة الظاهر برقوق ، كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه .
- فكان الملك المنصور في مدة سجنه بالقلعة يسلى نفسه عن الملْك بشرب الراح ،
- ٩ وسماع المغانى ، ومشاهدة الملاح ، فكان لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا .
- وكان عنده جوقة مغاني نحو عشرة جوار ، يزفون بالطارات عند الصباح ،
- وعند المساء ؛ وكانت هذه عادة رؤساء أهل مصر ، يقتنوا عندهم الجوار المغاني ، وآخر
- ١٢ من كان يفعل ذلك الأمير جمال الدين محمود ، الأستاذار .
- ثم بطل ذلك من مصر مع جملة ما بطل من محاسن عيشة (٤٩ : آ) الأكابر ،
- ولأجل ذلك اتخذوا الأغانيات التي تشرف على الدور ، وجعلوها برسم الجوار المغاني ،
- ١٥ التي يزفون عند الصباح ، وعند المساء .
- ولما مات الملك المنصور ، استمرت جواريه المغاني يعملون الأفراح للناس ، وكانوا
- يعرفون بجوقة المنصور .
- ١٨ ومات الملك المنصور وله من العمر نحو خمسة وخمسين سنة ، ودفن في تربة جدته ،
- أم أبيه ، خوند طفلي ، التي بباب المحروق ؛ وخلف من الأولاد خمسة ذكور ، ومنهم
- بنتان ؛ وكانا قانعا بالعيشة الطليمة ، واستغنى بها عن الملْك ، فكان كما يقال في
- ٢١ المعنى :

(٩) يصحو : يصحوا .

(١٠) عشرة جوار يزفون : كذا في الأصل ، ولاحظ الأسلوب المسمى فيما يلي أيضا .

(١٦-١٧) يعملون . . . وكانوا يعرفون : كذا في الأصل .

(تاريخ ابن لباس ج ١ ق ١ - ٣٨)

كل الملوک تسطوا بالملك والسلاح
وَنَا قنعت منه بالراح والسلاح

وفى المعنى :

قالوا رأيناك كل وقت تهيم بالشرب والنفاء
فقلتُ إنى امرؤ قفوع أعينى بالماء والهواء

انتهى ما أوردناه من أخبار دولة الملك النصور محمد ابن الملك المظفر حاجى ، ٦
وذلك على سبيل الاختصار ، تمت .

بدائع الزهور في وقائع الدهور

تأليف

محمد بن أحمد بن إياس الحنفى

الطبعة الأولى

حققتها وكتب لها المقدمة

محمد مصطفى

الجزء الأول

القسم الأول

من أول الكتاب

إلى ١٤ من شعبان سنة ٧٦٤ (٢٩ من مايو سنة ١٣٦٣)

يطلب من دار النشر فرانز شتاينر — فيسبادن

١٣٩٥ — ١٩٧٥

1. The first part of the

document is a list of

the names of the

persons who have

been named in the

document.

The second part

of the document is

جميع الحقوق محفوظة
طبع على نفقة وزارة الأبحاث العلمية والتكنولوجية
التابعة لألمانيا الاتحادية
وأشرف على الطبع المعهد الألماني للأبحاث الشرقية
في بيروت

القاهرة
طبع بدار انجمناء الكتب العربية
ميسى البابى الحلبى وشركاه
ج ٢٠٠٤ ع

1. The first part of the

document is a list of

the names of the

persons who have

been named in the

document.

The second part

of the document is

فى ذكرى أستاذى الجليل
المغفور له الأستاذ الدكتور

بازل كالى

ورمزا للوفاء ، والشكر ، والعرفان بالجميل
أختتم بهذا القسم الأول ، من الجزء الأول
تحقيق ونشر جميع الأجزاء الخمسة
من كتاب

بدائع الزهور فى وقائع الدهور

1. The first part of the

document is a list of

the names of the

persons who have

been named in the

document.

The second part

of the document is

مقدمة

بهذه الطبعة الأولى ، للقسم الأول ، من الجزء الأول ، من كتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، تأليف أبي البركات الناصري محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ، أكون قد انتهيت من تحقيق ونشر جميع أجزاء هذا الكتاب ، الذى يتألف من خمسة أجزاء ، تم نشرها فى ستة مجلدات ، وذلك بعد تقسيم الجزء الأول إلى قسمين ، وقد ذكرت الأسباب التى دعت إلى هذا التقسيم ، فى المقدمة التى كتبتها للقسم الثانى من الجزء الأول .

ويتضمن هذا القسم الأول أخبار مصر ، وما ورد عنها فى القرآن الكريم ، وفى الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال العلماء والشعراء فى أخبارها ، والتقسيم الجغرافى للبلاد ، وغير ذلك من أخبار وقصص متنوعة ؛ ثم يبدأ ابن إياس بعد ذلك فى ذكر أخبار الدول والأمرات التى حكمت مصر ، من فراعنة وأقباط ، والولاة من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين ، ثم العباسيين ، والدولة الطولونية ، والإخشيدية ، والفاطمية ، والأيوبيه ، ودولة المماليك الأولى ، إلى أن ينتهى عند نهاية حكم السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون ، الذى خلع من السلطنة فى يوم الاثنين ١٤ من شعبان سنة ٧٦٤ (٢٩ من مايو سنة ١٣٦٣) .

والتى فى هذا القسم الأول ، نقلته عن مخطوط فاتح رقم ٤١٩٧ ، بأكمله ، وعن الثمانى والأربعين ورقة الأولى ، من مخطوط فاتح رقم ٤٢٠٠ ؛ والمخطوطان كتبهما المؤلف ابن إياس بخطه ، كما يذكر ذلك فى صفحة العنوان لكل مخطوط ، وأيضاً فى خاتمة كل منهما .

وفي صفحة العنوان للمخطوط الأول (فاتح رقم ٤١٩٧) ، يكتب ابن إياس :
« الجزء الرابع من بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تأليف كاتبه العبد الفقير إلى الله
تعالى محمد بن أحمد بن إياس الحنفى ، غامله الله باطنه الخفى ، والمسلمين أجمعين ، آمين » ؛
كما يكتب فى خاتمة هذا المخطوط : « يتلوه الجزء الخامس » (انظر فيما يلى ص ٤٨٩) ،
وهو ما يكتبه فى صفحة العنوان للمخطوط الثانى (فاتح رقم ٤٢٠٠) ، فيقول :
« الجزء الخامس من بدائع الزهور فى وقائع الدهور » .

والواقع أننا لم نثر حتى الآن على أى من الأجزاء الثلاثة الأولى ، من تقسيم ابن
إياس لكتابه ، ويبدو أنه لم يكتبها على الإطلاق ، فإننا لا نستطيع أن نتصور المادة
التي كان يفكر فى كتابتها ، ليملاً بها صفحات كل هذه الأجزاء الثلاثة ؛ وقد ناقشت
موضوع هذا التقسيم فى المقدمة التي كتبها لكتاب « صفحات لم تنشر من بدائع
الزهور فى وقائع الدهور » ، ص ٢٤ وما بعدها (القاهرة ١٩٥١) .

ومهما يكن من أمر ، فإننا نلاحظ أن المؤرخ ابن إياس كان يحافظ على صحة
ما يكتب ، ويتوخى الأمانة العلمية فيما ينقله من أخبار وأحداث ، عن المؤرخين الذين
سبقوه ، كل هذا فى اختصار ، وعزوف عن الإطالة والإطناب ، ولكن بما يدل على
دقة ملاحظته ، وشدة استقصائه للحقائق ، وتعايقه على الوقائع ، مع مقارنتها بما يحدث
فى عصره ، أو متابعتها لما تم فى أمرها فى العصور التالية ، فقد كانت له شخصيته الحرة ،
وما هو معروف به من الروية والتبصر والاتزان فى أحكامه وتقده ، مما يزيد من
أهمية هذا القسم الأول ، وإن كان غير معاصر لمؤلفه .

وعلى سبيل المثال فإنه يقول (ص ٣٤١) تعليقا على ما ذكره من أخبار الملك
الظاهر بيبرس : « قلت : وأخبار الملك الظاهر بيبرس كثيرة ، فى عدة مجلدات ،
والغالب فيها موضوع ، ليس له حقيقة ، والذي أوردناه هنا هى الأخبار الصحيحة ،
التي ذكرها العلماء من المؤرخين » .

ومثال آخر لما يدل على متابعة ابن إياس للأخبار ، وتعليقه عليها ، وإضافاته إلى ما كتبه المؤرخون الذين نقل عنهم ، أنه يذكر (ص ٤٦٧) أن أحد الأعاجم كتب للأتابكي بكتمر ربة بالذهب ، بقيت في خانقائه ، يذهب إليها الناس للتفرج عليها ، حتى نقلها السلطان قانصوه الغوري في سنة ٩٠٩ إلى مدرسته التي بالشرابشين .

ولعل ابن إياس قد استهواه جمال ربة الأتابكي بكتمر ، فتابع أخبارها ؛ والحق يقال إن ابن إياس كان يحب التحف الجميلة والمعاحف المنمقة والمزخرفة بالذهب ، فيذكر (ص ٤١٨) أن الخطاط شرف الدين بن الوحيد كتب في سنة ٧٠٥ للأتابكي ببيرس الجاشنكير ، ختمة في سبعة أجزاء ، في ورق قطع البغدادى ، بقلم الشعر ، وأن الأتابكي ببيرس قد أتق على هذه الختمة ألفا وسبعمائة دينار ، حتى كتبت بالذهب ، ووضعها في خانقائه ، وكانت من محاسن الزمان .

كما يذكر (ص ٤٥٥) أنه في سنة ٧٢٣ ، كتب أحد الأعاجم للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ربة محلاة بالذهب ، كان مصروفها ألف دينار ، وضعها السلطان في خانقائه .

وفي هذا القسم الأول ، يذكر ابن إياس أسماء الكثيرين من المؤرخين الذين نقل عنهم ، فيقول في المقدمة التي كتبها للجزء الرابع (فيما يلي ص ٣) : « وقد طالعت على هذا التاريخ كتباً شتى ، نحو سبعة وثلاثين تاريخاً ، حتى استقام لى ما أريد » .

وفما يلي هنا سوف نقرأ أسماء هؤلاء المؤرخين ، الذين نقل عنهم ابن إياس ، وأسماء ما كتبوه من مؤلفات .

وكان نظام الشعر في عصر ابن إياس ، من مستلزمات الأدباء والمتأديين ، دليلاً على مبالغ ثقافتهم وتأديهم ؛ وكان ابن إياس نفسه ينظم الشعر ، وكان يورد أبيات الشعر من نظمه في كثير من المناسبات .

كما أننا سوف نجد هنا فيما يلي أسماء عدد كبير من فحول الشعراء، يذكر أسماءهم،
عند ما ينقل شيئاً من نظمهم، أو في مناسبات أخرى .

* * *

وبإني ليسرني، أن أكرر أخلص الشكر للسيد الأستاذ الدكتور ألبرت ديتريش،
الذي يصدر سلسلة « الفشرات الإسلامية » للجمعية المستشرقين الألمانية، وللقائمين على
شئون هذه الجمعية، لاهتمامهم بنشر كتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور »
لابن إياس، وضمه ضمن ما تنشره الجمعية في هذه السلسلة من كتب ودراسات عربية
وإسلامية .

ويسعدني، بمناسبة الانتهاء من نشر جميع أجزاء هذا الكتاب، أن أقدم
عظيم التقدير للسيد الدكتور بيتر باخمان، مدير المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في
بيروت، لتعاونه الصادق معي في تيسير نشر وإخراج القسمين الأخيرين من هذا
الكتاب؛ كما يسرني أن أنوه، شاكرًا، بالجهود الخاصة التي بذلها اثنان من أعضاء
المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، وهما: السيد الدكتور جريجور شيلر،
والسيدة الدكتورة روتراود فيلانديت، وذلك في الإشراف على إخراج وطباعة المتن
الألماني لهذين القسمين من الكتاب .

محمد مصطفى

القاهرة في { ١٨ من شعبان ١٣٩٥
٢٥ من أغسطس ١٩٧٥

المحتويات

الصفحة

٧	مقدمة
٣	[مقدمة المؤلف] : التي كتبها في أول « الجزء الرابع » من كتابه
٤	الآيات القرآنية الكريمة في أخبار مصر
٦	الأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال الحكماء والعلماء ، في أخبار مصر
٩	اشتقاق اسم مصر ومعناه
١٢	حدود أرض مصر وجهاتها وأقطارها
١٣	عجائب مصر وما بها من الطلسمات والبرابي
١٨	أعمال الديار المصرية وكورها
١٨	ذكر وادى هيب
١٩	ذكر مدينة مريوط
١٩	ذكر صعيد مصر
١٩	ذكر مدينة البحّة
٢٠	ذكر مدينة أسوان
٢٠	ذكر صحراء عيذاب
٢٠	ذكر مدينة أرجنوس
٢١	ذكر أبويط
٢١	ذكر أهناس
٢١	ذكر مدينة أنصنا
٢٢	ذكر القيس
٢٢	ذكر مدينة البهنسا

٢٢	ذكر مدينة الأشمونين
٢٢	ذكر مدينة إخميم
٢٣	ذكر الواحات الداخلة
٢٣	ذكر مدينة قفط
٢٣	ذكر العباسية
٢٤	ذكر مدينة المنصورة
٢٤	ذكر قرية دبيق
٢٤	ذكر النحريرية
٢٥	ذكر مدينة دمياط
٢٥	ذكر مدينة تليس
٢٦	ذكر رمل الغرابي
٢٦	ذكر مدينة بابيس
٢٧	ذكر مدينة الصالحية
٢٧	ذكر مدينة إيلة
٢٧	ذكر مدينة القلزم
٢٧	ذكر التيه
٢٧	ذكر الطريق فيما بين مصر ودمشق
٢٩	ذكر من دخل مصر من الأنبياء عليهم السلام
٣١	ذكر من كان بمصر من الحكماء في أول الدهر
٣٢	وأما حكماء الإسلام
٣٣	ذكر من دخل مصر من الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم
٣٤	ذكر طرف يسيرة من فضائل مصر

٣٧	ذكر ما خُصَّت به مصر من المحاسن دون غيرها من البلاد . . .
٤٧	ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وأمزجتهم ، وما أشبه ذلك . . .
٤٩	ذكر ما قالته الشعراء في وصف مصر ، ونيامها ، ومفترجاتها ، وأوان ربيعها . . .
٥٣	ذكر ما قيل في أسماء مفترجات الديار المصرية . . .
٦٤	ذكر من ملك الديار المصرية في أول الزمان . . .
٧٩	ذكر من ملك مصر من الفراعنة . . .
٨٧	ذكر ابتداء دولة الأقباط بمصر . . .
٩١	ذكر الهدية التي بعث بها المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .
	ذكر دخول عمرو بن العاص إلى مدينة الإسكندرية ، في زمن الجاهلية ،
٩٢	قبل الإسلام . . .
٩٤	ذكر ابتداء دولة الإسلام ، وفتح مصر على يد عمرو بن العاص ، رضي الله عنه . . .
١٠٧	سنة ٢١ . . .
١٠٨	ذكر ما كان من أخبار المقوقس بعد فتح الإسكندرية . . .
١٠٩	سنة ٢٢ . . .
١١١	سنة ٢٣ . . .
١١٢	سنة ٢٤ . . .
١١٢	سنة ٢٥ . . .
١١٢	ذكر ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح . . .
١١٤	سنة ٣٦ . . .
١١٤	ذكر ولاية عدد من الولاة في الصفحات التالية . . .
١١٥	سنة ٣٨ . . .
١١٧	سنة ٤٣ . . .

سنة ٦٢	١٢٠
ذكر ولاية عبد العزيز بن مروان بن الحكم	١٢١
سنة ٨٦	١٢٢
سنة ٩١	١٢٥
ذكر من تولى على مصر من الأمراء العباسية	١٣٤
سنة ٢١٩	١٥١
سنة ٢٢٤	١٥٢
سنة ٢٢٩	١٥٢
سنة ٢٣٥	١٥٢
سنة ٢٣٦	١٥٣
سنة ٢٣٨	١٥٣
سنة ٢٤٢	١٥٣
سنة ٢٤٦	١٥٣
سنة ٢٥٣	١٥٧
سنة ٢٥٤	١٥٩
سنة ٢٥٥	١٦٠
ذكر أخبار دولة أحمد بن طولون	١٦١
سنة ٢٦٣ وسنة ٢٦٦	١٦٣
سنة ٢٦٩	١٦٥
سنة ٢٧٠	١٦٧
ذكر أخبار الأمير خمارويه بن أحمد بن طولون	١٦٩
سنة ٢٧٨	١٧٠

١٧١	• • • • •	سنة ٢٨٠ •
١٧٢	• • • • •	سنة ٢٨٢ •
١٧٢	• •	ذكر من تولى على مصر من أسرة ابن طولون بعد وفاة خمارويه
١٧٤	• • • • •	ولادة من قبل الخلفاء العباسيين
١٧٤	• • • • •	سنة ٢٩٣ •
١٧٤	• • • • •	سنة ٢٩٧ •
١٧٥	• • • • •	سنة ٣٠٣ •
١٧٥	• • • • •	سنة ٣١١ •
١٧٥	• • • • •	سنة ٣١٢ •
١٧٥	• • • • •	سنة ٣٢١ •
١٧٦	• • • • •	ذكر ابتداء دولة الإخشيدية بمصر
١٧٦	• • • • •	سنة ٣٣٤ •
١٧٧	• • • • •	سنة ٣٣٩ •
١٧٧	• • • • •	سنة ٣٤٢ •
١٧٧	• • • • •	سنة ٣٤٥ •
١٧٧	• • • • •	سنة ٣٣٦ •
١٧٨	• • • • •	سنة ٣٤٩ •
١٧٩	• • • • •	سنة ٣٥١ •
١٧٩	• • • • •	سنة ٣٥٥ •
١٧٩	• • • • •	سنة ٣٥٦ •
١٨٣	• • • • •	سنة ٣٥٨ •
١٨٤	• • • • •	ولاية أبي الفوارس الإخشيدى

١٨٤	· · · · ·	دخول جوهر الصقلي إلى مصر من قبل المعزّ الفاطمي
١٨٦	· · · · ·	سنة ٣٥٩ · · · · ·
١٨٦	· · · · ·	سنة ٣٦٢ · · · · ·
١٨٧	· · · · ·	ذكر ابتداء دولة الفاطميين وخلافة المعزّ في مصر
١٩٠	· · · · ·	سنة ٤٦٣ · · · · ·
١٩١	· · · · ·	سنة ٣٦٥ · · · · ·
١٩٢	· · · · ·	خلافة العزيز بالله
١٩٢	· · · · ·	سنة ٣٦٦ · · · · ·
١٩٣	· · · · ·	سنة ٣٦٨ · · · · ·
١٩٤	· · · · ·	سنة ٣٦٩ · · · · ·
١٩٤	· · · · ·	سنة ٣٧٠ · · · · ·
١٩٤	· · · · ·	سنة ٣٧٦ · · · · ·
١٩٤	· · · · ·	سنة ٣٧٧ · · · · ·
١٩٥	· · · · ·	سنة ٣٧٨ · · · · ·
١٩٥	· · · · ·	سنة ٣٨١ · · · · ·
١٩٧	· · · · ·	سنة ٣٨٦ · · · · ·
١٩٧	· · · · ·	خلافة الحاكم بأمر الله
١٩٨	· · · · ·	سنة ٣٨٩ · · · · ·
٢٠٧	· · · · ·	سنة ٣٩٩ · · · · ·
٢٠٧	· · · · ·	سنة ٤٠٠ · · · · ·
٢١٠	· · · · ·	سنة ٤١١ · · · · ·
٢١١	· · · · ·	خلافة الظاهر لدين الله

٢١١	• • • • •	سنة ٤١٢ •
٢١١	• • • • •	سنة ٤١٥ •
٢١٣	• • • • •	سنة ٤٢٠ •
٢١٣	• • • • •	سنة ٤٢٢ •
٢١٤	• • • • •	سنة ٤٢٣ •
٢١٤	• • • • •	سنة ٤٢٧ •
٢١٥	• • • • •	خلافة المستنصر بالله •
٢١٦	• • • • •	سنة ٤٣٧ •
٢١٦	• • • • •	سنة ٤٤٠ •
٢١٦	• • • • •	سنة ٤٥١ •
٢١٩	• • • • •	سنة ٤٥٤ •
٢١٩	• • • • •	سنة ٤٥٨ •
٢١٩	• • • • •	سنة ٤٦٠ •
٢١٩	• • • • •	سنة ٤٦٩ •
٢٢٠	• • • • •	سنة ٤٨٧ •
٢٢٠	• • • • •	خلافة المستعلي بالله أحمد •
٢٢٠	• • • • •	سنة ٤٨٨ •
٢٢٠	• • • • •	سنة ٤٩١ •
٢٢١	• • • • •	سنة ٤٩٢ •
٢٢١	• • • • •	سنة ٤٩٥ •
٢٢١	• • • • •	خلافة الآمر بأحكام الله •
٢٢١	• • • • •	سنة ٥٠٣ •

٢٢٢	• • • • •	سنة ٥١٥ •
٢٢٢	• • • • •	سنة ٥١٨ •
٢٢٣	• • • • •	سنة ٥١٩ •
٢٢٣	• • • • •	سنة ٥٢٤ •
٢٢٤	• • • • •	خلافة الحافظ لدين الله •
٢٢٥	• • • • •	سنة ٥٢٩ •
٢٢٥	• • • • •	سنة ٥٤٣ •
٢٢٦	• • • • •	سنة ٥٤٤ •
٢٢٧	• • • • •	خلافة الظاهر بالله •
٢٢٧	• • • • •	سنة ٥٤٩ •
٢٢٨	• • • • •	سنة ٥٥٠ •
٢٢٨	• • • • •	خلافة الفائز بنصر الله •
٢٣٠	• • • • •	سنة ٥٥١ •
٢٣٠	• • • • •	سنة ٥٥٥ •
٢٣٠	• • • • •	خلافة المأخذ بالله •
٢٣١	• • • • •	سنة ٥٥٦ •
٢٣١	• • • • •	سنة ٥٦٤ •
٢٣٤	• • • • •	سنة ٥٦٧ •
٢٣٥	• • • • •	سنة ٥٦٨ •
		ذكر ابتداء دولة الأكراد من بنى أيوب ، 'وحكم الناصر صلاح الدين يوسف
٢٣٧	• • • • •	ابن أيوب •
٢٤٠	• • • • •	سنة ٥٦٩ •

٢٤١	سلطنة الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب
٢٤٢	سنة ٥٧٢
٢٤٢	سنة ٥٧٣
٢٤٤	سنة ٥٧٦
٢٤٤	سنة ٥٧٨
٢٤٥	سنة ٥٨١
٢٤٥	سنة ٥٨٧
٢٤٥	سنة ٥٨٨
٢٤٧	سنة ٥٨٩
٢٥٠	سلطنة العزيز بالله عماد الدين عثمان
٢٥١	سنة ٥٩١
٢٥٢	سنة ٥٩٢
٢٥٢	سنة ٥٩٤
٢٥٢	سنة ٥٩٥
٢٥٢	سلطنة المنصور محمد
٢٥٣	سلطنة العادل أبي بكر
٢٥٣	سنة ٥٩٦
٢٥٤	سنة ٥٩٧
٢٥٥	سنة ٥٩٨
٢٥٦	سنة ٥٩٩
٢٥٦	سنة ٦٠١
٢٥٧	سنة ٦٠٨

٢٥٧	• • • • •	سنة ٦١٥ •
٢٥٨	• • • • •	سلطنة الكامل محمد •
٢٥٩	• • • • •	سنة ٦٢٠ •
٢٥٩	• • • • •	سنة ٦٢١ •
٢٦٠	• • • • •	سنة ٦٢٢ •
٢٦٠	• • • • •	سنة ٦٢٣ •
٢٦٢	• • • • •	سنة ٦٢٦ •
٢٦٢	• • • • •	سنة ٦٢٩ •
٢٦٤	• • • • •	سنة ٦٣٠ •
٢٦٦	• • • • •	سنة ٦٣٢ •
٢٦٨	• • • • •	سنة ٦٣٥ •
٢٦٨	• • • • •	سلطنة العادل أبي بكر •
٢٦٩	• • • • •	سلطنة الصالح نجم الدين أيوب •
٢٦٩	• • • • •	سنة ٦٣٦ •
٢٧٠	• • • • •	ذكر طرف يسيرة من أخبار الروضة •
٢٧٠	• • • • •	سنة ٦٣٨ •
٢٧٢	• • • • •	سنة ٦٣٩ •
٢٧٥	• • • • •	سنة ٦٤٠ •
٢٧٦	• • • • •	سنة ٦٤٢ •
٢٧٦	• • • • •	سنة ٦٤٤ •
٢٧٦	• • • • •	سنة ٦٤٦ •
٢٧٧	• • • • •	سنة ٦٤٧ •

الصفحة	
٢٧٩	سلطنة المعظم توران شاه
٢٧٩	سنة ٦٤٨
٢٨٦	سلطنة شجرة الدر
٢٨٨	ذكر ابتداء دولة الأتراك بمصر ، وسلطنة أيبك التركمانى
٢٨٨	ذكر طارف يسيرة فى أخبار أصل الترك
٢٨٩	سلطنة الأشرف الأيوبى شريكاً لأيبك التركمانى
٢٩٠	سنة ٦٤٩
٢٩٠	سنة ٦٥٠
٢٩١	سنة ٦٥١
٢٩١	سنة ٦٥٢
٢٩٢	المعز أيبك التركمانى يقبض على شريكه الأشرف الأيوبى ثم ينفرد بالسلطنة
٢٩٣	سنة ٦٥٣
٢٩٣	سنة ٦٥٤
٢٩٤	سنة ٦٥٥
٢٩٦	سلطنة المنصور على بن المعز أيبك التركمانى
٢٩٧	سنة ٦٥٦
٣٠١	سنة ٦٥٧
٣٠٣	سلطنة الظفر قطز
٣٠٤	سنة ٦٥٨
٣٠٨	سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى
٣١١	سنة ٦٥٩
٣١٢	سنة ٦٦٠

٣١٤	• • • • •	خلافة المستنصر بالله أحمد العباسي بمصر
٣١٨	• • • • •	سنة ٦٦١ • • • • •
٣٢٠	• • • • •	خلافة الحاكم بأمر الله أحمد العباسي بمصر
٣٢٢	• • • • •	سنة ٦٦٢ • • • • •
٣٢٣	• • • • •	سنة ٦٦٣ • • • • •
٣٢٥	• • • • •	سنة ٦٦٤ • • • • •
٣٢٥	• • • • •	سنة ٦٦٥ • • • • •
٣٣٠	• • • • •	سنة ٦٦٦ • • • • •
٣٣٠	• • • • •	سنة ٦٦٧ • • • • •
٣٣١	• • • • •	سنة ٦٦٨ • • • • •
٣٣١	• • • • •	سنة ٦٦٩ • • • • •
٣٣٢	• • • • •	سنة ٦٧٠ • • • • •
٣٣٣	• • • • •	سنة ٦٧١ • • • • •
٣٣٣	• • • • •	سنة ٦٧٢ • • • • •
٣٣٤	• • • • •	سنة ٦٧٣ • • • • •
٣٣٥	• • • • •	سنة ٦٧٤ • • • • •
٣٣٥	• • • • •	سنة ٦٧٥ • • • • •
٣٣٨	• • • • •	سنة ٦٧٦ • • • • •
٣٤٢	• • • • •	سلطنة السعيد محمد بن الظاهر بيبرس البندقداري
٣٤٣	• • • • •	سنة ٦٧٧ • • • • •
٣٤٦	• • • • •	سنة ٦٧٨ • • • • •
٣٤٦	• • • • •	سلطنة العادل سلامش بن الظاهر بيبرس البندقداري

٣٤٧	سلطنة المنصور قلاون الألفى الصالحى النجمى
٣٥٠	سنة ٦٧٩
٣٥١	سنة ٦٨٠
٣٥١	سنة ٦٨١
٣٥٣	سنة ٦٨٢
٣٥٤	سنة ٦٨٣
٣٥٥	سنة ٦٨٤
٣٥٥	سنة ٦٨٥
٣٥٦	سنة ٦٨٦
٣٥٧	سنة ٦٨٧
٣٥٩	سنة ٦٨٨
٣٦٠	سنة ٦٨٩
٣٦٥	سلطنة الأشرف خليل بن المنصور قلاون
٣٦٨	سنة ٦٩٠
٣٧٠	سنة ٦٩١
٣٧١	سنة ٦٩٢
٣٧٣	سنة ٦٩٣
٣٧٨	سلطنة الناصر محمد بن المنصور قلاون (الأولى)
٣٨٥	سنة ٦٩٤
٣٨٦	سلطنة العادل كتبنا المنصورى
٣٨٧	سنة ٦٩٥
٣٩٠	سنة ٦٩٦

صفحة	
٣٩٤	سلطنة المنصور لاجين المنصوري
٣٩٦	سنة ٦٩٧
٣٩٨	سنة ٦٩٨
٤٠١	سلطنة الناصر محمد بن المنصور قلاون (الثانية)
٤٠٣	سنة ٦٩٩
٤٠٨	سنة ٧٠٠
٤١٠	سنة ٧٠١
٤١٠	خلافة المستكفي بالله سليمان العباسي بمصر
٤١١	سنة ٧٠٢
٤١٧	سنة ٧٠٣
٤١٨	سنة ٧٠٤
٤١٨	سنة ٧٠٥
٤١٩	سنة ٧٠٦
٤١٩	سنة ٧٠٧
٤٢٠	سنة ٧٠٨
٤٢٣	سلطنة الظفر بيبرس الجاشنكير المنصوري
٤٢٤	سنة ٧٠٩
٤٣١	سلطنة الناصر محمد بن المنصور قلاون (الثالثة)
٤٣٥	سنة ٧١٠
٤٣٩	سنة ٧١١
٤٤١	سنة ٧١٢
٤٤٣	سنة ٧١٣

الصفحة

٤٤٤	سنة ٧١٤
٤٤٦	سنة ٧١٥
٤٤٧	سنة ٧١٦
٤٤٨	سنة ٧١٧
٤٤٩	سنة ٧١٨
٤٥١	سنة ٧١٩
٤٥١	سنة ٧٢٠
٤٥٢	سنة ٧٢١
٤٥٣	سنة ٧٢٢
٤٥٤	سنة ٧٢٣
٤٥٥	سنة ٧٢٤
٤٥٦	سنة ٧٢٥
٤٥٧	سنة ٧٢٦
٤٥٨	سنة ٧٢٧
٤٥٩	سنة ٧٢٨
٤٦٠	سنة ٧٢٩
٤٦٠	سنة ٧٣٠
٤٦١	سنة ٧٣١
٤٦٢	سنة ٧٣٢
٤٦٤	سنة ٧٣٣
٤٦٧	سنة ٧٣٤
٤٧٠	سنة ٧٣٥

٤٧١	• • • • •	سنة ٧٣٦
٤٧٣	• • • • •	سنة ٧٣٧
٤٧٤	• • • • •	سنة ٧٣٨
٤٧٥	• • •	خلافة الواثق بالله إبراهيم بن الحاكم بأمر الله العباسي بمصر
٤٧٦	• • • • •	سنة ٧٣٩
٤٧٧	• • • • •	سنة ٧٤٠
٤٨١	• • • • •	سنة ٧٤١
٤٨٦	• • • • •	سلطنة المنصور أبي بكر بن الناصر محمد بن قلاون
٤٨٧	• • • • •	سنة ٧٤٢
٤٨٧	• • • • •	الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله سليمان العباسي بمصر ، وكان قد تولى الخلافة بعهد من أبيه
٤٩٠	• • •	مقدمة المؤلف التي كتبها في أول « الجزء الخامس » من كتابه
٤٩٠	• • • • •	سلطنة الأشرف بك بك بن الناصر محمد بن قلاون
٤٩٥	• • • • •	سلطنة الناصر أحمد بن الناصر محمد بن قلاون
٤٩٦	• • • • •	سنة ٧٤٣
٤٩٨	• • • • •	سلطنة الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاون
٤٩٩	• • • • •	سنة ٧٤٤
٥٠١	• • • • •	سنة ٧٤٥
٥٠٤	• • • • •	سنة ٧٤٦
٥٠٦	• • • • •	سلطنة الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاون
٥٠٨	• • • • •	سنة ٧٤٧
٥١٣	• • • • •	سلطنة الظاهر حاجي بن الناصر محمد بن قلاون

الصفحة	
٥١٥	سنة ٧٤٨
٥١٩	سلطنة الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاون (الأولى)
٥٢٣	سنة ٧٤٩
٥٢٣	سنة ٧٥٠
٥٣٥	سنة ٧٥١
٥٣٦	سنة ٧٥٢
٥٣٨	سلطنة الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد بن قلاون
٥٤٠	سنة ٧٥٣
٥٤٨	سنة ٧٥٤
٥٤٨	خلافة المعتضد بالله أبي بكر بن المستكن بالله العباسي بمصر
٥٥٢	سنة ٧٥٥
٥٥٣	سلطنة الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاون (الثانية)
٥٥٥	سنة ٧٥٦
٥٥٧	سنة ٧٥٧
٥٥٩	سنة ٧٥٨
٥٦٤	سنة ٧٥٩
٥٦٨	سنة ٧٦٠
٥٦٩	سنة ٧٦١
٥٧٢	سنة ٧٦٢
٥٨٠	سلطنة المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجي
٥٨٦	سنة ٧٦٣
٥٨٧	خلافة التوكل على الله محمد بن المعتضد بالله العباسي بمصر
٥٩١	سنة ٧٦٤

